محققو عن نسخة خطية كاملة، وعن مطبوعة الشعب وأكثر من عشر نسخ خطية أخرى يستوعب مجموعها التفسير كله.

تفسير القرآن العظيم

للحافظ

أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي

(٧٠٠ - ٧٧٤هـ)

تحقيق

سامي بن محمد السلامة

الجزء الخامس

الإسراء - المؤمنون

دار طيبة للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م
الطبعة الثانية
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

(تم فيها استدراك السقط الحاصل بالمجلد الأول من طبعة الشعب)

دار طيبة للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض - السويدي - ش. السويدي العام - غرب النفق
ص.ب: ٧٦١٢ - رمز بريدي: ١١٤٧٢ - ت: ٤٢٥٣٧٣٧ - فاكس: ٤٢٥٨٢٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير القرآن العظيم

[بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم][١]

تفسير سورة الإسراء[٢]

وهى مكية

قال الإمام [الحافظ المتقن أبو عبد الله محمد بن إسماعيل][٣] البخارى: حدّثنا آدم بن أبى إياس، حدّثنا شعبة، عن أبى إسحاق قال: سمعت عبد الرحمن بن يزيد، سمعت ابن مسعود، رضى اللَّه عنه، قال فى بنى إسرائيل والكهف ومريم: إنهن من العتاق الأول وهن من تلادى[٤].

وقال الإمام أحمد: حدّثنا عبد الرحمن، حدثنا حماد بن زيد، عن مروان، عن أبى لبابة، سمعت عائشة تقول: كان رسول اللَّه ﷺ يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: مايريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة «بنى إسرائيل» ،و«الزمر» [٥].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُبْحَانَ الَّذى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾.

يمجد تعالى نفسه ، ويعظم شأنه ، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ﴿الَّذى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ يعنى محمداً، صلوات الله وسلامه عليه[٦] ﴿ لَيْلاً﴾ أى فى جنح الليل ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وهو مسجد مكة ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى ﴾ وهو بيت المقدس الذى هو إيلياء[٧]، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل؛ ولهذا جمعوا له هنالك كلهم، فَأمّهم فى مَحِلّتهم[٨]، ودارهم، فدل على أنه هو الإمام الأعظم، والرئيس المقدم، صلوات اللَّه وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله : ﴿ الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أى: فى الزروع والثمار ﴿لِنُرِيَهُ﴾ أى: محمداً ﴿ مِنْ آيَاتِنَا﴾ أى: العظام كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾[النجم:١٨].

وسنذكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه، صلوات الله عليه وسلامه.

وقوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ أى: السميع لأقوال عباده، مؤمنهم وكافرهم، مصدقهم

(١) زيادة من ت. (٢) فى ت، ف، أ: « سورة سبحان». (٣) زيادة من ت، ف، أ.
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٠٨).
(٥) المسند(٦/١٨٩) ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم(١١٦٣) وقال: «إن كان أبو لبابة هذا يجوز الاحتجاج بخبره وفإنى لا أعرفه بعدالة ولا جرح». وقد وثقه ابن معين.
(٦) فى ف:« صلى الله عليه وسلم». (٧) فى ت، ف، أ :«بإيلياء». (٨) فى ت: « محلهم».

ومكذبهم ، البصير بهم فيعطى كلاً ما يستحقه فى الدنيا والآخرة .

ذكر الأحاديث الواردة فى الإسراء

رواية أنس بن مالك:

قال الإمام أبو عبد اللَّه البخارى: حدثنى عبد العزيز بن عبد اللَّه، حدثنا سليمان - هو ابن بلال - عن شريك بن عبد اللَّه[١] قال: سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسرى برسول اللَّه ﷺ من مسجد الكعبة: إنه جاءه ثلاثة نفر، قبل أن يوحى إليه وهو نائم فى المسجد الحرام، فقال أولهم: أيهم هو ؟ فقال أوسطهم: هو خيرهم، فقال آخرهم: خذوا خيرهم. فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه، وتنام عيناه ولا ينام قلبه - وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم - فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبريل، فشق جبريل مابين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله من ماء زمزم، بيده حتى أنقي جوفه، ثم أتى بطست من ذهب فيه تور من ذهب محشواً إيماناً وحكمة، فحشا به صدره ولغاديده - يعنى عروق حلقه - ثم أطبقه. ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فضرب باباً من أبوابها، فناداه أهل السماء: من هذا ؟ فقال: جبريل. قالوا: ومن معك ؟ قال: معى محمد. قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً به وأهلاً به، يستبشر به أهل السماء لا يعلم أهل السماء بما يريد اللَّه به فى الأرض حتى يُعْلِمهم.

ووجد فى السماء الدنيا آدم، فقال له جبريل: هذا أبوك آدم فسلِّم عليه، فسلَّم عليه، وردّ عليه آدم فقال: مرحباً وأهلاً بابنى، نعم[٢] الابن أنت، فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال: «ما هذان النهران ياجبريل؟» قال: هذا النيل والفرات عنصرهما، ثم مضى به فى[٣] السماء، فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد، فضرب يده فإذا هو مسك أذفر فقال: «ماهذا ياجبريل ؟» قال: هذا الكوثر الذى خبأ لك ربك.

ثم عرج إلى السماء الثانية، فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الأولى: مَنْ هذا ؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك ؟ قال: محمد . قالوا: وقد بعث إليه ؟ قال: نعم. قالوا: مرحباً[٤] وأهلاً وسهلاً.

ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية. ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء السادسة، فقالوا له مثل ذلك. ثم عرج به إلى السماء السابعة، فقالوا له مثل ذلك. كل سماء فيها أنبياء قد سماهم، قد وعيت[٥] منهم إدريس فى الثانية وهارون فى الرابعة، وآخر فى الخامسة لم احفظ اسمه، وإبراهيم فى السادسة، وموسى فى السابعة بتفضيل كلام اللَّه. فقال موسى: «رب لم أظن أن يرفع علىّ أحد»[٦] ثم علا به فوق ذلك، بما لا يعلمه إلا اللَّه، عز وجل، حتى جاء سدْرَة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى اللَّه إليه فيما

(١) فى ف: «عبد الله يعنى بن أبى نمر أنه». (٢) فى ف: « فنعم». (٣) فى ت، ف: « إلى».
(٤) فى ف: «مرحبا به». (٥) فى أ: « عينهم». (٦) فى ت: « أنه علىَّ أحد».

يوحى: خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة. ثم هبط به حتى بلغ موسى، فاحتبسه موسى فقال: «يامحمد، ماذا عهد إليك ربك؟» قال: «عهد إلىّ خمسين صلاة كل يوم وليلة» قال: إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم». فالتفت النبى ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك، فأشار إليه جبريل: أن نعم، إن شئت. فعلا[1] به إلى الجبار تعالى، فقال وهو فى مكانه: «يارب، خفف عنا، فإن أمتى لا تستطيع هذا» فوضع عنه عشر صلوات، ثم رجع إلى موسى فاحتبسه، فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات. ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال: « يامحمد، واللّه لقد راودت بنى إسرائيل قومى على أدنى من هذا، فضعفوا فتركوه، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً، فارجع فليخفف عنك ربك» كل ذلك يلتفت النبى ﷺ إلى جبريل ليشير عليه، ولا يكره ذلك جبريل، فرفعه عند الخامسة فقال: «يارب، إن أمتى ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم[2] وأبدانهم فخفف عنا» فقال الجبار: يامحمد، قال: «لبيك وسعديك» قال: إنه لا يبدل القول لدىّ، كما فرضت عليك فى أم الكتاب: «كل حسنة بعشر أمثالها، فهى خمسون فى أم الكتاب وهى خمس عليك»، فرجع إلى موسى فقال: «كيف فعلت؟» فقال: «خفف عنا، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها» قال موسى: « قد واللّه راودت بنى إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه، فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضاً». قال رسول اللّهﷺ: «ياموسى قد ـ واللّه ـ استحييت من ربى مما أختلف إليه[3]» قال: «فاهبط باسم اللّه»، فاستيقظ وهو فى المسجد الحرام.

هكذا ساقه البخارى فى «كتاب التوحيد»[4]، ورواه فى «صفة النبىﷺ»، عن إسماعيل بن أبى أُوَيْس عن أخيه أبى بكر عبد الحميد، عن سليمان بن بلال[5].

ورواه مسلم، عن هارون بن سعيد، عن ابن وَهْب، عن سليمان [6] قال: « فزاد ونقص، وقدم وأخر»[7].

وهو كما قاله[8] مسلم، رحمه الله، فإن شريك بن عبد اللّه بن أبى نَمِر اضطرب فى هذا الحديث، وساء حفظه ولم يضبطه، كما سيأتى بيانه فى الأحاديث الأخر.

ومنهم من يجعل هذا مناماً توطئة لما وقع بعد ذلك، واللّه أعلم.

[وقال][9] البيهقي: فى[10] حديث «شريك» زيادة تفرد بها، على مذهب من زعم أنه ﷺ رأى ربه، يعنى قوله: « ثم دنا الجبار رب العزة فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى » قال: وقول عائشة وابن مسعود وأبى هريرة فى حملهم هذه الآيات على رؤيته جبريل ـ أصح[11].

---

(١) فى ف: « ثم علا». (٢) فى ف، أ: «وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم». (٣) فى ف: «عليه».
(٤) صحيح البخارى برقم (٧٥١٧).
(٥) صحيح البخارى برقم (٣٥٧٠).
(٦) فى ف، أ: «سليمان به».
(٧) صحيح مسلم برقم (١٦٢).
(٨) فى أ: «قال». (٩) زيادة من ت. (١٠) فى ف، أ: «وفى».
(١١) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٣٨٥).

وهذا الذى قاله البيهقي هو الحق فى هذه المسألة، فإن أبا ذر قال: يارسول اللّه، هل رأيت ربك ؟ قال: «نور أنى أراه» .وفى رواية «رأيت نورا». أخرجه مسلم، رحمه الله[١].

وقوله: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾[النجم: ٨]، إنما هو جبريل، عليه السلام، كما ثبت ذلك فى الصحيحين، عن عائشة أمّ المؤمنين، وعن ابن مسعود، وكذلك هو فى صحيح مسلم عن أبى هريرة، رضى الله عنهم، ولا يعرف لهم مخالف من الصحابة فى تفسير هذه الآية بهذا[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا ثابت البُنانى، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: « أتيت بالبراق وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته فسار بى حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التى يربط[٣] فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت. فأتانى[٤] جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن. قال جبريل: أصبت الفطرة» قال: «ثم عرج بى إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل. فقيل[٥] : ومن معك ؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ [قال: قد أرسل إليه][٦] .ففتح لنا، فإذا أنا بآدم، فرحب ودعا لى بخير.

ثم عَرَج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ قال: جبريل. فقيل: ومن معك ؟ قال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بابنى الخالة يحيى وعيسى، فرحبا بى ودعوا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ فقال: جبريل. فقيل: ومن معك؟ فقال: محمد. فقيل: وقد أرسل إليه ؟ قال: قد أرسل إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بيوسف، وإذا هو قد أعطى شطر الحسن، فرحب ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ فقال: جبريل. فقيل: ومن معك ؟ قال: محمد. فقيل: قد أرسل إليه ؟ قال: قد بعث إليه. ففتح الباب، فإذا أنا بإدريس، فرحب ودعا لى بخير. ثم قال: يقول اللّه: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾[مريم: ٥٧].

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ فقال: جبريل. فقيل: [و][٧] من معك ؟ فقال: محمد. فقيل: قد أرسل إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بهارون، فرحب ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ فقال: جبريل. قيل[٨]: ومن معك؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه ؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بموسى فرحب ودعا لى بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت ؟ قال: جبريل. قيل[٩]: ومن

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٧٨).

(٢) حديث عائشة: رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٢٣٥) ومسلم فى صحيحه برقم(١٧٧) وحديث ابن مسعود: رواه البخارى فى صحيحه برقم(٤٨٥٦) ومسلم فى صحيحه برقم(١٧٤) وحديث أبى هريرة: رواه مسلم فى صحيحه برقم(١٧٥).

(٣) فى ت، ف، أ: «تربط».
(٤) فى ف، أ: «فجاءنى».
(٥) فى ت، ف، أ: «قيل».
(٦) زيادة من ت، ف، أ، هـ المسند.
(٧) زيادة من ت، ف، أ.
(٨) فى ف، أ: «فقيل».
(٩) فى ف: «فقيل».

معك ؟ قال: محمد. فقيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه. ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم[١]، وإذا هو مستند إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه.

ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى، فإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال. فلما غشيها من أمر اللّه ما غشيها تغيرت، فما أحد من خلق اللّه، تعالى، يستطيع أنَ يصفها من حسنها. قال: «فأوحى اللّه إلىّ ما أوحى، وفرض علىّ فى كل يوم وليلة خمسين صلاة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى». قال: «ما فرض ربك على أمّتك ؟[٢]» قال: «قلت: خمسين صلاة فى كل يوم وليلة». قال: ارجع[٣] إلى ربك فاسأله التخفيف؛ فإن أمّتك لا تطيق ذلك، وإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم». قال[٤]: «فرجعت إلى ربى، فقلت: أى رب، خفف عن أمّتى، فحطّ عنى خمساً. فرجعت إلى موسى فقال: ما فعلت؟ قلت[٥]: قد حطّ عنى خمساً». قال: «إن أمّتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمّتك» قال: « فلم[٦] أزل أرجع بين ربى وبين موسى، ويحطّ عنى خمساً خمساً حتى قال: يامحمد، هى خمس صلوات فى كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن همّ بحسنة فلم يعملها كتبت [له][٧] حسنة، فإن عملها كتبت عشراً. ومن همّ بسيئة ولم يعملها لم تكتب، فإن عملها كتبت سيئة واحدة . فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمّتك، فإنّ أمّتك لا تطيق ذلك». فقال رسول اللّه ﷺ: «لقد رجعت إلى ربى حتى استحييت».

ورواه مسلم عن شَيْبَان بن فَرُّوخ، عن حماد بن سلمة بهذا السياق[٨]، وهو أصح من سياق شَرِيك.

قال البيهقي: وفى هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسرى به، عليه الصلاة والسلام، من مكة إلى بيت المقدس[٩] . وهذا الذى قاله هو الحق الذى لاشك فيه ولا مرية.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن قتادة، عن أنس، رضى الله عنه، أن النبى ﷺ أتى بالبراق ليلة أسرى به مُسْرَجاً ملجماً ليركبه، فاستصعب عليه، فقال له جبريل: ما يحملك على هذا؟ فواللّه ما ركبك قط أكرم على اللّه منه . قال: فارفضّ عرقاً.

ورواه الترمذى عن إسحاق بن منصور، عن عبد الرزاق، وقال: غريب لانعرفه إلا من حديثه[١٠].

وقال أحمد أيضاً: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثنى راشد بن سعد وعبد الرحمن بن جبير، عن أنس قال: قال رسول اللّه ﷺ: « لما عرج بى ربى، عز وجل، مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء ياجبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون

---

(١) فى ت: « بإبراهيم عليه وسلم» وفى ف: « بإبراهيم عليه السلام».
(٢) فى ت: «ما فرض عليك على أمتك». (٣) فى ت: « فارجع». (٤) فى أ: «ثم قال».
(٥) فى ف، أ: « فقلت». (٦) فى ف: « فقال لم». (٧) فى ف، أ: «كتبت له».
(٨) المسند(٣/١٤٨)، وصحيح مسلم برقم (١٦٢).
(٩) دلائل النبوة للبيهقى(٢/ ٣٨٥).
(١٠) المسند(٣/ ١٦٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٣١).

لحوم الناس، ويقعون فى أعراضهم ».

وأخرجه أبو داود، من حديث صفوان بن عمرو، به[١]. ومن وجه آخر ليس فيه أنس[٢]، فالله أعلم.

وقال أيضاً: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن سليمان التَّيْمى، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أسرى بى على موسى، عليه السلام، قائماً يصلّى فى قبره »[٣].

ورواه مسلم من حديث حماد بن سلمة، عن سليمان بن طرخان التيمى وثابت البنانى، كلاهما عن أنس[٤].

قال النسائى: وهذا أصح من رواية من قال: سليمان عن ثابت، عن أنس.

وقال [الحافظ][٥] أبو يعلى الموصلى فى مسنده: حدثنا وهب بن بقيَّة، حدثنا خالد، عن التيمى، عن أنس قال: أخبرنى بعض أصحاب النبى ﷺ: أن النبى ﷺ ليلة أسرى به مرّ على موسى وهو يصلى فى قبره[٦].

وقال أبو يعلى: حدثنا إبراهيم بن محمد بن عَرْعَرة، حدثنا معتمر، عن أبيه قال: سمعت أنساً: أن النبى ﷺ ليلة أسرى به مرّ بموسى[٧] وهو يصلى فى قبره ـ قال أنس: ذكر أنه حمل على البراق ـ فأوثق الدابة ـ أو قال: الفرس ـ قال أبو بكر: صفها لى. فقال رسول الله ﷺ، وذكر كلمة[٨] فقال: أشهد أنك رسول الله، وكان أبو بكر، رضى الله عنه، قد رآها[٩].

وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو البزار فى مسنده: حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا الحارث بن عبيد، عن أبى عمران الجونى، عن أنس بن مالك، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « بينا أنا قاعد[١٠] إذ جاء جبريل، عليه السلام، فوكز بين كتفى، فقمت إلى شجرة فيها كوكرى الطير، فقعد فى أحدهما وقعدت فى الآخر فسمت[١١] وارتفعت حتى سدت الخافقين وأنا أقلب طرفى، ولو شئت أن أمس السماء لمسست، فالتفت إلى جبريل، عليه السلام، كأنه حِلْس[١٢] لاط، فعرفت فضل علمه بالله على، وفتح لى باب من أبواب السماء فرأيت النور الأعظم، وإذا دون الحجاب رفرف الدر والياقوت، وأوحى إلىّ ماشاء الله أن يوحى» ثم قال: هذا الحديث لا نعلم رواه إلا أنس، ولا نعلم رواه عن أبى عمران الجونى إلا الحارث بن عبيد، وكان رجلاً مشهوراً من أهل البصرة[١٣].

---

(١) المسند(٣/ ٢٢٤) وسنن أبى داود برقم (٤٨٧٨).
(٢) سنن أبى داود برقم (٤٨٧٨).
(٣) المسند(٣/ ١٢٠).
(٤) صحيح مسلم برقم(٢٣٧٥).
(٥) زيادة من أ.
(٦) مسند أبى يعلى(٧/ ١١٧).
(٧) فى ف: « مر على موسى».
(٨) فى هـ: « هى كذه وذه» والتصويب من مسند البزار و«ت».
(٩) مسند أبى يعلى (٧/ ١٢٦).
(١٠) فى هـ: « نائم» والتصويب من مسند البزار.
(١١) فى أ: « فسميت».
(١٢) فى ت، أ: « جلس».
(١٣) مسند البزار برقم(٥٨) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم(٥٩) عن محمد بن على الصائغ عن سعيد بن منصور به. وقال الهيثمى فى المجمع(١/ ٧٥): « رجاله رجال الصحيح». وقال الحافظ ابن حجر فى زوائد البزار (١/ ٩٥): « الحارث أخرج له الشيخان، وهو مع ذاك له مناكير هذا منها».

ورواه الحافظ البيهقى فى «الدلائل» عن أبى بكر القاضى، عن أبى جعفر محمد بن على بن دُحَيْم، عن محمد بن الحسين بن أبى الحُنَيْن، عن سعيد بن منصور، فذكر بسنده مثله، ثم قال: وقال غيره فى هذا الحديث فى آخره: «ولُطّ دونى ـ أو قال: دون الحجاب ـ رفرف الدر والياقوت». ثم قال: هكذا[١] رواه الحارث بن عبيد. ورواه حماد[٢] بن سلمة، عن أبى عمران الجَوْنى، عن محمد ابن عمير بن عطارد: أن النبى ﷺ كان فى ملأ من أصحابه، فجاءه[٣] جبريل، فنكت فى ظهره، فذهب به إلى الشجرة وفيها مثل وَكْرى الطير، فقعد فى أحدهما وقعد جبريل فى الآخر، فنشأت بنا حتى بلغت[٤] الأفق، فلو بسطت يدى إلى السماء لنلتها، فدلى بسبب وهبط النور، فوقع جبريل مغشياً عليه كأنه حلْس، فعرفت فضل خشيته على خشيتى. فأوحى إلى: نبياً ملكاً أو نبياً عبداً؟ وإلى الجنة ما أنت؟ فأومأ[٥] إلى جبريل وهو مضطجع: أن تواضع. قال: قلت: لا. بل نبياً عبداً[٦].

قلت: وهذا إن صح يقتضى أنها واقعة غير ليلة الإسراء، فإنه لم يذكر فيها بيت المقدس، ولا الصعود إلى السماء، فهى كائنة غير مانحن فيه، والله أعلم.

وقال البزار أيضاً: حدثنا عمرو بن عيسى، حدثنا أبو بحر، حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس، رضى الله عنه، أن محمداً ﷺ رأى ربه، عز وجل، هذا غريب.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنا يونس، حدثنا عبدالله بن وهب، حدثنا يعقوب بن عبدالرحمن الزهرى، عن أبيه، عن عبد الرحمن بن هاشم بن عتبة بن أبى وقاص، عن أنس بن مالك قال: لما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بالبراق فكأنها أَمَرَّت ذنبها، فقال لها جبريل: مه يا براق، فوالله إن ركبك[٧] مثله. وسار رسول الله ﷺ، فإذا هو بعجوز على جانب الطريق، فقال: «ما هذه يا جبريل؟» قال: سر يا محمد. قال: فسار ما شاء الله أن يسير، فإذا شيء يدعوه متنحياً عن الطريق يقول: هلم يامحمد فقال له جبريل: سر يامحمد فسار ما شاء الله أن يسير، قال: فلقيه خلق من الخلق فقالوا: السلام عليك يا أول، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر، فقال له جبريل: اردد السلام يامحمد. فرد السلام، ثم لقيه الثانية فقال له مثل مقالته الأولى، ثم الثالثة كذلك، حتى انتهى إلى بيت المقدس. فعرض عليه الماء والخمر واللبن، فتناول رسول الله ﷺ اللبن، فقال له جبريل: أصبت الفطرة، ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك، ولو شربت الخمر لغويت ولغوت[٨] أمتك. ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء، عليهم السلام، فأمَّهم رسول الله ﷺ تلك الليلة. ثم قال له جبريل: أما العجوز التى[٩] رأيت على جانب الطريق، فلم يبق من الدنيا إلا ما بقي من عمر تلك العجوز، وأما الذى أراد أن تميل إليه، فذاك عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه، وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى، عليهم الصلاة والسلام.

وهكذا رواه الحافظ البيهقى فى «دلائل النبوة» من حديث ابن وهب[١٠]، وفى بعض ألفاظه نكارة

---

(١) فى ت: «هذا». (٢) فى ت «ابن حماد» وهو خطأ. (٣) فى ف، أ: «فجاء».
(٤) فى ت: «بلغنا». (٥) فى أ: «فأوحى».
(٦) دلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٣٦٩).
(٧) فى ت، أ: «فو الله ما ركبك». (٨) فى ف: «وغويت». (٩) فى ت، أ: «الذى».
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ٥)، ودلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٣٦٢).

وغرابة.

طريق أخرى عن أنس بن مالك:

وفيها غرابة ونكارة جداً، وهى فى سنن النسائى المجتبى، ولم أرها فى الكبير قال: أخبرنا عمرو[١] بن هشام، حدثنا مَخْلَد ـ هو ابن الحسين ـ عن سعيد بن عبد العزيز، حدثنا يزيد بن أبى مالك، حدثنا أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: « أتيت بدابة فوق الحمار ودون البغل، خطوها عند منتهى طرفها، فركبت ومعى جبريل، عليه السلام، فسرت فقال: انزل فصل. فصليت، فقال: أتدرى أين صليت؟ [صليت بطيبة وإليها المهاجر، ثم قال: انزل فصل. فصليت، فقال: أتدرى أين صليت ؟][٢] صليت بطور سيناء، حيث كلم الله موسى، ثم قال: انزل فصل. فصليت ، فقال: أتدرى أين صليت. صليت ببيت لحم، حيث ولد عيسى، عليه السلام، ثم دخلت بيت المقدس فجمع لى الأنبياء عليهم السلام، فقدمنى جبريل حتى أممتهم [ثم صعد بى إلى السماء الدنيا، فإذا فيها آدم، عليه السلام][٣] . ثم صعد بى إلى السماء الثانية، فإذا فيها ابنا الخالة: عيسى ويحيى، عليهما السلام. ثم صعد بى إلى السماء الثالثة، فإذا فيها يوسف عليه السلام. ثم صعد بى إلى السماء الرابعة، فإذا فيها هارون، عليه السلام. ثم صعد بى إلى السماء الخامسة، فإذا فيها إدريس عليه السلام. ثم صعد بى إلى السماء السادسة، فإذا فيها موسى، عليه السلام . ثم صعد بى إلى السماء السابعة، فإذا فيها إبراهيم عليه السلام ، ثم صعد بى فوق سبع سموات وأتيت سدرة المنتهى، فغشيتنى ضبابة فخررت[٤] ساجداً فقيل لى: إنى يوم خلقت السموات والأرض، فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فقم بها أنت وأمتك [فرجعت إلى إبراهيم فلم يسألنى عن شىء. ثم أتيت موسى فقال: كم فرض الله عليك وعلى؟][٥] قلت: خمسين صلاة. قال: فإنك لا تستطيع أن تقوم بها، لا أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف[٦] . فرجعت إلى ربى فخفف عنى عشراً. ثم أتيت موسى فأمرنى بالرجوع، فرجعت فخفف عنى عشراً، ثم ردت إلى خمس صلوات. قال: فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإنه فرض على بنى إسرائيل صلاتين، فما قاموا بهما. فرجعت إلى ربى، عز وجل، فسألته التخفيف، فقال: إنى يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فخمس بخمسين، فقم بها أنت وأمتك. فعرفت أنها من اللَّه عز وجل[٧] صِرًّى، فرجعت إلى موسى، عليه السلام[٨] فقال: ارجع، فعرفت أنها من اللَّه صِرًّى - يقول: أى حتم - فلم أرجع» [٩] .

طريق أخرى :

وقال ابن أبى حاتم: حدثنى أبى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا خالد بن يزيد بن أبى مالك، عن أبيه، عن أنس بن مالك، رضى اللَّه عنه، قال: لما كان ليلة أسرى برسول اللَّه ﷺ إلى بيت المقدس، أتاه جبريل بدابة فوق الحمار ودون البغل، حمله جبريل عليها، ينتهى خفها حيث ينتهى

---

(١) فى ت: «عمر». (٢، ٣) زيادة من ت، ف، أ، والنسائى. (٤) فى ت: « خررت».

(٥) زيادة من ت، ف، أ، والنسائى. (٦) فى ف: «تخفيفها». (٧) فى ف،أ: «من الله تعالى» .

(٨) فى ت:« فرجعت إليه عليه السلام».

(٩) سنن النسائى (١/ ٢٢١).

طرفها . فلما بلغ بيت المقدس وبلغ[١] المكان الذى يقال له: «باب محمد ﷺ» أتى إلى الحجر الذى ثمة، فغمزه جبريل بأصبعه فثقبه، ثم ربطها. ثم صعد فلما استويا فى صَرْحَة المسجد، قال جبريل: يا محمد، هل سألت ربك أن يريك الحور العين ؟ فقال: نعم. فقال: فانطلق إلى أولئك النسوة، فسلم عليهن وهن جلوس عن يسار الصخرة ، قال: فأتيتهن فسلمت عليهن، فرددن علىّ السلام، فقلت: من أنتن؟ فقلن: نحن خيرات حسان، نساء قوم أبرار، نقوا فلم يدرنوا، وأقاموا فلم يظعنوا، وخلدوا فلم يموتوا». قال: «ثم انصرفت[٢]، فلم ألبث إلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثير، ثم أذن مؤذن، وأقيمت الصلاة». قال: «فقمنا صفوفاً ننتظر من يؤمنا، فأخذ بيدى جبريل، عليه السلام، فقدمنى فصليت بهم. فلما انصرفت قال جبريل: يامحمد، أتدرى من صلى خلفك؟» قال: « قلت: لا. قال :صلى خلفك كل نبى بعثه الله عز وجل ».

قال: «ثم أخذ بيدى جبريل فصعد بى إلى السماء، فلما انتهينا إلى الباب استفتح فقالوا: من أنت؟ قال: أنا جبريل، قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم». قال: «ففتحوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك». قال: «فلما استوى على ظهرها إذا فيها آدم، فقال لى جبريل: يامحمد، ألا تسلم على أبيك آدم؟» قال: «قلت: بلى. فأتيته فسلمت عليه، فرد علىّ وقال: مرحباً بابنى والنبى الصالح». قال: «ثم عرج بى إلى السماء الثانية فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم»: «ففتحوا[٣] له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها عيسى وابن خالته يحيى عليهما السلام [٤]». قال :«ثم عرج بى إلى السماء الثالثة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم» [٥]. «ففتحوا [٦] وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها يوسف، عليه السلام، ثم عرج بى إلى السماء الرابعة فاستفتح، قالوا: من أنت ؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم. ففتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك. فإذا فيها إدريس، عليه السلام». قال: «فعرج بى إلى السماء الخامسة، فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم. قال: ففتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك فإذا فيها هارون، عليه السلام». قال: «ثم عرج بى إلى السماء السادسة فاستفتح، قالوا: من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك ؟قال: محمد. قالوا: وقد بعث؟ قال: نعم. ففتحوا وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها موسى، عليه السلام. ثم عرج بى إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقالوا[٧] : من أنت؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: وقد بعث إليه؟ قال: نعم. ففتحوا له وقالوا: مرحباً بك وبمن معك، فإذا فيها إبراهيم، عليه السلام. فقال جبريل: يامحمد، ألا تسلم على أبيك إبراهيم؟ قال: قلت: بلى. فأتيته فسلمت عليه، فرد علىّ السلام وقال: مرحباً بك يابنى[٨] والنبى الصالح.

ثم انطلق بى على ظهر السماء السابعة، حتى انتهى بى إلى نهر عليه خيام الياقوت واللؤلؤ والزبرجد، وعليه طير خضر أنعم طير رأيت. فقلت: ياجبريل، إن هذا الطير لناعم قال[٩]: يامحمد، آكله أنعم منه ثم قال: يامحمد، أتدرى أى نهر هذا ؟ قال: «قلت: لا. قال: هذا الكوثر الذى أعطاك

---

(١) فى ت: « فبلغ».
(٢) فى ف: « قال : وانصرفت».
(٣) فى ف: «قال: ففتحوا».
(٤) فى ت: «عليهما الصلاة والسلام».
(٥) فى ف، أ: «قال: ففتحوا».
(٦) فى ت، ف، أ: «ففتحوا له».
(٧) فى ف: « قالوا».
(٨) فى ف: « مرحبا بابنى».
(٩) فى ف: فقال».

اللَّه إياه. فإذا فيه آنية الذهب والفضة، يجرى[١] على رَضْرَاض من الياقوت والزمرد، ماؤه[٢] أشد بياضاً من اللبن» قال: «فأخذت منه آنية[٣] من الذهب، فاغترفت من ذلك الماء فشربت، فإذا هو أحلى من العسل، وأشد[٤] رائحة من المسك. ثم انطلق بى حتى انتهيت[٥] إلى الشجرة، فغشيتنى سحابة فيها من كل لون، فرفضنى جبريل، وخررت ساجداً لله، عز وجل، فقال اللَّه لى: يامحمد، إنى يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة، فقم بها أنت وأمتك» . قال: «ثم انجلت عنى السحابة وأخذ بيدى جبريل، فانصرفت سريعاً فأتيت على إبراهيم فلم يقل لى شيئاً، ثم أتيت على موسى فقال: ما صنعت يامحمد ؟ فقلت: فرض ربى علىّ وعلى أمتى خمسين صلاة. قال: فلن تستطيعها أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنك. فرجعت سريعاً حتى انتهيت إلى الشجرة، فغشيتنى السحابة، ورفضنى جبريل، وخررت ساجداً، وقلت: رب، إنك فرضت علىّ وعلى أمتى خمسين صلاة، ولن أستطيعها أنا ولا أمتى، فخفف عنا . قال: قد وضعت عنكم عشراً . قال: ثم انجلت عنى السحابة، وأخذ[٦] بيدى جبريل وانصرفت[٧] سريعاً، حتى أتيت على إبراهيم فلم يقل لى شيئاً، ثم أتيت على موسى، فقال لى: ماصنعت يامحمد ؟ فقلت: وضع ربى عنى عشراً فقال: أربعون صلاة! لن تستطيعها أنت ولا أمتك، فارجع إلى ربك فاسأله أن يخفف عنكم ـ فذكر الحديث كذلك إلى خمس صلوات، وخمس بخمسين ثم أمره[٨] موسى أن يرجع فيسأل التخفيف ،فقلت :«إنى قد استحييت منه تعالى».

قال: ثم انحدر، فقال رسول اللَّه ﷺ لجبريل: «ما لى لم آت على[٩] سماء إلا رحبوا بى وضحكوا إلىّ، غير رجل واحد، فسلمت عليه فردّ علىّ السلام فرحب بى ولم يضحك إلىّ. قال: يامحمد، ذاك مالك خازن جهنم لم يضحك منذ خلق[١٠]،ولو ضحك إلى أحد لضحك إليك».

قال: ثم ركب منصرفاً، فبينا هو فى بعض طريقه مرّ بعير لقريش تحمل طعاماً، منها جمل عليه غرارتان: غرارة سوداء، وغرارة بيضاء، فلما حاذى بالعير نفرت منه واستدارت، وصرع ذلك البعير وانكسر.

ثم إنه مضى فأصبح، فأخبر عما كان، فلما سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر فقالوا: ياأبا بكر، هل لك فى صاحبك؟ يخبر[١١]أنه أتى فى ليلته هذه مسيرة شهر، ثم رجع فى ليلته. فقال أبو بكر، رضى اللَّه عنه: إن كان قاله فقد صدق ،وإنا لنصدقه فيما هو أبعد من هذا، نصدقه على خبر السماء.

فقال المشركون لرسول اللَّه ﷺ: ما علامة ماتقول؟ قال: « مررت بعير لقريش، وهى فى مكان كذا وكذا، فنفرت العير[١٢] منا واستدارت، [وفيها بعير عليه] [١٣] غرارتان: غرارة سوداء، وغرارة بيضاء ، فصرع فانكسر».

فلما قدمت العير سألوهم، فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم النبى ﷺ[١٤] ومن[١٥] ذلك سمى أبو[١٦] بكر الصديق.

---

(١) فى ف، أ: «تجرى».
(٢) فى ف، أ: « وماؤه».
(٣) فى ف، أ: « من آنيته».
(٤) فى ت: «وألذ».
(٥) فى ت، ف، أ: « انتهى».
(٦) فى ت: «فأخذ».
(٧) فى ت، ف، أ: « فانصرفت».
(٨) فى ت: « أمر».
(٩) فى أ: « أهل».
(١٠) فى ت: « خلقت».
(١١) فى ت: «يزعم».
(١٢) فى ف: «الإبل».
(١٣) زيادة من ف، أ، وفى ت: «جمل عليه».
(١٤) فى ف: « رسول الله ﷺ».
(١٥) فى ف، أ: « وفى».
(١٦) فى ف: « أبا».

وسألوه وقالوا[١]: هل كان معك فيمن حضر موسى وعيسى ؟ قال: «نعم». قالوا: فصفهم . قال: «نعم»، أما موسى فرجل آدم، كأنه من رجال أزْدِ عمان ، وأما عيسى فرجل ربعة، سَبْط، تعلوه[٢] حمرة كأنما يتحادر من شعره الجُمَان»[٣].

هذا سياق فيه غرائب عجيبة .

رواية أنس، رضى الله عنه، عن مالك بن صَعْصَعَة:

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همَّام، قال: سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك: أن مالك بن صعصعة حدثه: أن نبى اللَّه ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به، قال: «بينما أنا فى الحطيم[٤] ـ وربما قال قتادة: فى الحجر ـ مضطجعاً إذ أتانى آت» فجعل يقول لصاحبه الأوسط بين الثلاثة، قال: «فأتانى فقدّ ـ وسمعت قتادة يقول: فشق ـ مابين هذه إلى هذه». وقال قتادة: فقلت للجارود وهو إلى جنبى: ما يعنى؟ قال: من ثغرة نحره إلى شِعْرته، وقد سمعته يقول: من قَصَّته إلى شِعْرَته قال: «فاستخرج قلبى» قال: «فأتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً وحكمة فغسل قلبى ثم حشى، ثم أعيد. ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيض» . قال: فقال الجارود :وهو البراق يا أبا حمزة ؟ قال: نعم، يقع خطوه عند أقصى طرفه. قال: « فحملت عليه، فانطلق بى جبريل، عليه السلام، حتى أتى بى إلى السماء الدنيا، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك ؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم. فقيل: مرحباً به، ولنعم المجىء جاء». قال: «ففتح[٥] فلما خلصت، فإذا فيها آدم، عليه السلام، فقال: هذا أبوك آدم، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال : مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح فقيل: من هذا؟ قال[٦]: جبريل. قيل: ومن معك ؟ قال: محمد قيل[٧] :أو قد[٨] أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجىء جاء»، قال: «ففتح، فلما خلصت، فإذا يحيى[٩] وعيسى وهما ابنا الخالة. قال: هذا[١٠] يحيى وعيسى، فسلم عليهما. قال :فسلمت فردا السلام ثم قالا[١١] :مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الثالثة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجىء جاء». قال: ففتح[١٢] فلما خلصت، فإذا يوسف[١٣] ،عليه السلام، قال: هذا يوسف[١٤] قال: «فسلمت عليه، فرد السلام ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح، فقيل: من هذا ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك ؟

---

(١) فى ت، ف: « فقالوا». (٢) فى ت: « يعلوه».
(٣) وفى إسناده خالد بن يزيد بن أبى مالك ضعفه أحمد وابن معين والنسائى والدارقطنى ولم يوثقه إلا أبو زرعه الدمشقى.
(٤) فى ف: « بالحطيم». (٥) فى ت، أ: «ففتح لنا». (٦) فى ت، ف: «فقال».
(٧) فى ت: «قال». (٨) فى ت: «وقد». (٩) فى ف، أ: « بيحيى».
(١٠) فى ف، أ: «وهذان». (١١) فى ف، أ: « وقالا». (١٢) فى ف، أ: «ففتح الباب».
(١٣) فى ت: «فإذا إدريس»، وفى ف، أ: « إذا بيوسف». (١٤) فى ت: « إدريس».

قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنعم المجيء جاء» قال: «ففتح فلما خلصت فإذا إدريس، قال: هذا إدريس فسلم عليه». قال: «فسلمت عليه. فرد السلام[(١)]، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح».

قال: « ثم صعد حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح، فلما خلصت، فإذا هارون، عليه السلام، قال: هذا هارون فسلم عليه. قال: فسلمت عليه فرد السلام[(٢)]، ثم قال: مرحباً بالأخ والنبي الصالح».

قال: «ثم صعد حتى أتى السماء السادسة فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء. ففتح، فلما خلصت، فإذا أنا بموسى قال: هذا موسى، عليه السلام، فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح». قال: «فلما تجاوزته بكى. قيل له: مايبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بعث بعدي، يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي».

قال: «ثم صعد حتى أتى السماء السابعة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به ولنعم المجيء جاء». قال: «ففتح، فلما خلصت، فإذا إبراهيم، عليه السلام، فقال: هذا إبراهيم، فسلم عليه». قال: «فسلمت عليه، فرد السلام[(٣)]، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح».

قال: ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، فإذا نبقها مثل قِلال هَجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فقال: هذه سدرة المنتهى». قال: «وإذا أربعة أنهار: نهرانِ باطنان ونهران ظاهران، فقلت: ماهذا ياجبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات».

قال: ثم رفع إلى البيت المعمور.

قال قتادة: وحدثني الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه رأى البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون فيه.

ثم رجع إلى حديث أنس [قال: « ثم][(٤)] أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل». قال: «فأخذت اللبن، قال: هذه الفطرة وأنت[(٥)] عليها وأمّتك».

قال: «ثم فرضت الصلاة خمسين صلاة كل يوم». قال: «فنزلت حتى انتهيت إلى[(٦)] موسى، قال[(٧)]: ما فرض ربك على أمتك ؟ »قال: «قلت[(٨)]: خمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة، وإني قد خبرت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى

(١ ـ ٣) في ف، أ: «فرد على السلام».

(٤) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.

(٥) في ت، ف، أ: « أنت». (٦) في أ: « أتيت». (٧) في أ: «فقال».

(٨) في ف، أ: « فقلت».

ربك فاسأله التخفيف عن أمتك[١] ». قال: «فرجعت فوضع عنى عشراً، قال: فرجعت إلى موسى، فقال: بم أمرت ؟ قلت: بأربعين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع أربعين صلاة كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . قال: فرجعت فوضع عنى عشراً أخر. فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بثلاثين صلاة. قال: إن أمتك لا تستطيع ثلاثين صلاة كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال:«فرجعت فوضع عنى عشراً أخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت ؟ قلت: بعشرين[٢] صلاة كل يوم. فقال: إن أمتك لا تستطيع لعشرين صلاة كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال:«فرجعت فوضع عنى عشراً أخر، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت ؟ فقلت: أمرت بعشر صلوات فى كل يوم. فقال: إن أمتك[٣] لا تستطيع لعشر صلوات كل يوم، وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال: «فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم. فقال: إن أمتك[٤] لا تستطيع لخمس صلوات كل يوم وإنى قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك». قال:«قلت: لقد[٥] سألت ربى [عز وجل][٦] حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم. فنفذت ،فنادانى مناد: قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى ».

وأخرجاه فى الصحيحين من حديث قتادة، بنحوه [٧].

رواية أنس عن أبى ذر:

قال البخارى: حدثنا يحيى بن بُكَيْر، حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر، رضى الله عنه، يحدث أن رسول اللّه ﷺ قال: « فرج سقف بيتى وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج [صدرى ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغه][٨] فى صدرى، ثم أطبقه. ثم أخذ بيدى فعرج بى إلى السماء، فلما جئت إلى السماء [الدنيا][٩] قال جبريل لخازن السماء: افتح. قال: من هذا؟ قال: جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معى محمد. قال: أرسل إليه ؟ قال: نعم. فلما فتح علونا السماء الدنيا وإذا رجل قاعد على يمينه أَسْوِدَة وعلى يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى. فقال: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح. قلت لجبريل: من هذا؟ قال: هذا آدم. وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نَسَم[١٠] بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التى عن شماله أهل النار. فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر عن شماله بكى.

«ثم عرج بى إلى السماء الثانية فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال له الأول،

---

(١) فى ف، أ: « لأمتك». (٢) فى ف: « فقلت أمرت بعشرين». (٣، ٤) فى ف: « قال إمتك».
(٥) فى ف، أ:« قد». (٦) زيادة من: أ.
(٧) المسند(٤/٢٠٨) وصحيح البخارى برقم(٣٣٩٣) ومعلقا برقم (٧. ٣٢) وصحيح مسلم برقم (١٦٤).
(٨، ٩) زيادة من ت، ف، أ، والبخارى. (١٠) فى ت:« نطف».

ففتح». قال أنس: فذكر أنه وجد فى السموات آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم، ولم يثبت كيف منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم فى السماء الدنيا، وإبراهيم فى السماء السادسة. قال أنس: فلما مرّ جبريل بالنبى ﷺ بإدريس قال: «مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح. فقلت: من هذا؟ فقال: هذا إدريس. ثم مررت بموسى فقال: مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح. قلت[١]: من هذا؟ قال: موسى[٢]. ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا؟ قال: عيسى[٣] ابن مريم. ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم». قال الزهرى: فأخبرنى ابن حزم: أن ابن عباس وأبا حَبَّة[٤] الأنصارى كانا يقولان: قال النبى ﷺ: «ثم عرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام». قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «ففرض الله على أمتى خمسين صلاة، فرجعت بذلك حتى مررت على موسى، فقال: ما فرض الله على أمتك؟ قلت: فرض خمسين صلاة. قال: فارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت [فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى، قلت: وضع شطرها. فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فرجعت فوضع شطرها. فرجعت إليه فقال: ارجع إلى ربك، فإن أمتك لا تطيق ذلك. فراجعته][٥] فقال: هى خمس وهى خمسون، لا يبدل القول لدىّ. فرجعت إلى موسى فقال: ارجع إلى ربك. قلت: قد استحييت من ربى. ثم انطلق بى حتى انتهى إلى سدرة المنتهى فغشيها ألوان[٦] لا أدرى ما هى، ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جَنَابذ[٧] اللؤلؤ وإذا ترابها المسك».

هذا لفظ البخارى فى «كتاب الصلاة»[٨]، ورواه فى ذكر بنى إسرائيل، وفى الحج، وفى أحاديث الأنبياء من طرق أخر، عن يونس، به[٩]. ورواه مسلم فى صحيحه فى «كتاب الإيمان» منه، عن حَرْملة، عن ابن وهب، عن يونس به نحوه[١٠].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا همام، عن قتادة، عن عبد الله بن شَقِيق قال: قلت لأبى ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. قال: وماكنت تسأله؟ قال: كنت أسأله: هل رأى ربه؟ فقال: إنى قد سألته فقال: «إنى قد رأيته[١١] نوراً أنى أراه»[١٢].

هكذا قد وقع فى رواية الإمام أحمد. وأخرجه مسلم فى صحيحه، عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن وكيع، عن يزيد بن إبراهيم، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق، [عن أبى ذر قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ قال: «إنى نور أنى أراه».

وعن محمد بن بَشَّار، عن معاذ بن هشام، حدثنا أبى، عن قتادة، عن عبد الله بن شقيق][١٣] قال: قلت لأبى ذر: لو رأيت رسول الله ﷺ لسألته. فقال[١٤]: عن أى شىء كنت تسأله؟ قال:

---

(١) فى ف: «فقلت». (٢) فى ف، أ: «هذا موسى». (٣) فى ف، أ: «هذا عيسى».
(٤) فى ت: «حية». (٥) زيادة من ت، ف، أ، والبخارى. (٦) فى ف: «الألوان».
(٧) فى ف: «جبال»، وفى أ: «حبائل».
(٨) صحيح البخارى برقم (٣٤٩).
(٩) صحيح البخارى برقم (١٦٣٦، ٣٣٤٢).
(١٠) صحيح مسلم برقم (١٦٣).
(١١) فى ت، ف، أ: «رأيت».
(١٢) المسند (٥/١٤٧).
(١٣) زيادة من ت، ف، أ، ومسلم. (١٤) فى ف: «قال».

كنت أسأله: هل رأيت ربك؟ قال أبو ذر: قد سألت فقال: « رأيت نوراً» [١].

رواية أنس عن أبى بن كعب الأنصارى، رضى الله عنه :

قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا محمد بن إسحاق بن محمد بن المسيبى [٢]، حدثنا أنس بن عياض، عن يونس بن يزيد قال: قال ابن شهاب: قال أنس بن مالك: كان أبى بن كعب يحدث: أن رسول الله ﷺ قال: « فرج سقف بيتى وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدرى، ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغها [٣] فى صدرى ثم أطبقه، ثم أخذ بيدى فعرج بى إلى السماء. فلما جاء السماء [فافتتح فقال : من هذا؟ قال: جبريل. قال: هل معك أحد؟ قال: نعم، معى محمد. قال: أرسل إليه؟ قال: نعم، فافتح. فلما علونا السماء الدنيا] [٤] إذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى قال: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح». قال: «قلت لجبريل: من هذا ؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة [٥] عن يمينه وشماله نسم بنيه، فأهل اليمين هم أهل الجنة، والأسودة التى عن شماله هم أهل النار. فإذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل شماله بكى». قال: «ثم عرج بى جبريل حتى أتى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح. فقال له خازنها مثل ما قال خازن السماء الدنيا ففتح له». قال أنس: فذكر أنه وجد فى السموات: آدم، وإدريس، وموسى، وعيسى، وإبراهيم، ولم يثبت لى كيف منازلهم؟ غير أنه ذكر أنه وجد آدم، عليه السلام، فى السماء الدنيا، وإبراهيم فى السماء السادسة. قال أنس: فلما مرّ جبريل عليه السلام، ورسول الله ﷺ بإدريس قال: «مرحباً بالنبى الصالح والأخ والصالح». قال: «قلت: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا إدريس»، قال: «ثم مررت بموسى، فقال: مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح. فقلت: من هذا؟ قال: هذا موسى، ثم مررت بعيسى فقال: مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح. قلت: من هذا. قال: هذا عيسى ابن مريم» قال: «ثم مررت بإبراهيم فقال: مرحباً بالنبى الصالح والابن الصالح. قلت: من هذا؟ قال: هذا إبراهيم». قال ابن شهاب: وأخبرنى ابن حزم: أن ابن عباس وأبا حبة الأنصارى كانا يقولان: قال رسول الله ﷺ: «ثم عرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع صريف الأقلام» قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «فرض الله على أمتى خمسين صلاة» قال: «فرجعت بذلك حتى أمر [٦] على موسى، فقال موسى: ماذا فرض ربك على أمتك؟ قلت: فرض عليهم خمسين صلاة. فقال لى موسى: راجع ربك؛ فإن أمتك لا تطيق ذلك» قال: «فراجعت ربى. فوضع شطرها، فرجعت إلى موسى فأخبرته فقال: ارجع إلى ربك [٧] فإن أمتك لا تطيق ذلك، فرجعت [٨] فقال: هى خمس وهى خمسون، لا يبدل القول لدى». قال: «فرجعت إلى موسى فقال: راجع ربك. فقلت [٩]: قد استحييت من ربى» قال: «ثم انطلق بى حتى أتى سدرة المنتهى». قال: «فغشيها ألوان ما أدرى [١٠] ماهى؟» قال: «ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك».

هكذا رواه عبد الله بن [الإمام] [١١] أحمد فى مسند أبيه [١٢]. وليس هو فى شىء من الكتب

---

(١) صحيح مسلم برقم(١٧٨).
(٢) فى ف، أ: « بن محمد بن المثنى».
(٣) فى ت: « ففرغهما».
(٤) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٥) فى ت، ف :«الأسودة التى».
(٦) فى ت، ف، أ: «حتى أتى».
(٧) فى ف : « راجع ربك».
(٨) فى ف، أ: «فرجعت ربى».
(٩) فى ت: «قلت».
(١٠) فى ف: « لا أدرى».
(١١) زيادة من: ف، أ.
(١٢) زوائد المسند(٥/ ١٤٣) وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ٦٦): « رجاله رجال الصحيح».

الستة، وقد تقدم في الصحيحين من طريق يونس، عن الزهرى[(١)]، عن أبى ذر، مثل هذا السياق سواء، فالله أعلم[(٢)].

رواية بريدة بن الحصيب الأسلمى:

قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عبد الرحمن بن المتوكل ويعقوب بن إبراهيم ـ واللفظ له ـ قالا: حدثنا أبو نُميلَة، أخبرنا الزبير بن جنادة، عن عبد الله بن بُرَيْدة، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما كان ليلة أسرى به[(٣)] قال: فأتى جبريل الصخرة التى ببيت المقدس، فوضع إصبعه فيها فخرقها فشد بها البراق».

ثم قال البزار: لا نعلم رواه عن الزبير بن جنادة إلا أبو نُميلَة، ولا نعلم[(٤)] هذا الحديث [يروى][(٥)] إلا عن بريدة. وقد رواه الترمذى فى التفسير من جامعه، عن يعقوب بن إبراهيم الدَّوْرَقِى به[(٦)] وقال: غريب.

رواية جابر بن عبد الله، رضى الله عنه[(٧)]:

قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن صالح، عن ابن شهاب قال: قال أبو سلمة: سمعت جابر بن عبد الله يحدث: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول[(٨)]: «لما كذبتنى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس، قمت فى الحجر فَجَلَّى الله لى بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه».

أخرجاه فى الصحيحين من طرق، عن الزهرى، به[(٩)].

وقال البيهقى: أخبرنا أحمد بن الحسن[(١٠)] القاضى، حدثنا أبو العباس الأصم، حدثنا العباس ابن محمد الدورى، حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا أبى، عن صالح بن كَيْسَان، عن ابن شهاب قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: إن رسول الله ﷺ حين انتهى إلى بيت المقدس، لقى فيه إبراهيم وموسى وعيسى، وإنه أتى بقدحين: قدح من لبن وقدح خمر، فنظر إليهما، ثم أخذ قدح اللبن. فقال جبريل[(١١)]: أصبت، هديت للفطرة[(١٢)]، لو اخترت الخمر لغوت أمتك. ثم رجع رسول الله ﷺ إلى مكة، فأخبر أنه أسرى به، فافتتن ناس كثير كانوا قد صلوا معه.

قال ابن شهاب: قال أبو سلمة بن عبد الرحمن: فتجهز ـ أو كلمة نحوها ـ ناس من قريش إلى أبى بكر فقالوا: هل لك فى صاحبك؟ يزعم أنه جاء إلى بيت المقدس ثم رجع إلى مكة فى ليلة واحدة! فقال أبو بكر: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم. قال: فأشهد لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: فتصدقه بأن يأتى الشام فى ليلة واحدة ثم يرجع إلى مكة قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إنى أصدقه بأبعد من ذلك[(١٣)] أصدقه بخبر السماء. قال أبو سلمة: فبها سمى أبو بكر: الصديق.

---

(١) فى ت، ف، أ: «عن الزهرى عن أنس». (٢) فى ت: «والله أعلم». (٣) فى ف: «أسرى بى».
(٤) فى ت: «يعلم». (٥) زيادة من أ.
(٦) سنن الترمذى برقم (٣١٣٢).
(٧) فى ف، أ: «عنهما». (٨) فى ت، ف، أ: «قال».
(٩) المسند (٣/٣٧٧)، وصحيح البخارى برقم (٤٧١٠) وصحيح مسلم برقم (١٧٠).
(١٠) فى ت، ف: «الحسين». (١١) فى ف، أ: «فقال له جبريل عليه السلام». (١٢) فى ف: «الفطرة».
(١٣) فى ت: «من هذا».

قال أبو سلمة: فسمعت جابر بن عبد اللّه يحدث أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول: «لما كذبتنى قريش حين أسرى بى إلى بيت المقدس، قمت فى الحجر، فجلى اللّه لى بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه»[١].

رواية حذيفة بن اليمان، رضى اللّه عنه :

قال الإمام أحمد: ثنا أبو النضر، ثنا شيبان، عن عاصم، عن زرِّ بن حُبَيْش قال: أتيت على حذيفة بن اليمان وهو يحدث عن ليلة أسرى بمحمد ﷺ، وهو يقول: «فانطلقنا[٢] حتى أتينا[٣] بيت المقدس». فلم يدخلاه. قال: قلت: بل دخله رسول اللّه ﷺ ليلتئذ وصلى فيه. قال: ما اسمك يا أصلع؟ فإنى أعرف وجهك ولا أدرى ما اسمك؟ قال: قلت: أنا زر بن حُبَيْش. قال: فما علمك بأن رسول اللّه ﷺ صلى فيه ليلتئذ؟ قال: قلت: القرآن يخبرنى بذلك. قال: من تكلم بالقرآن فلج[٤]، اقرأ. قال فقلت: **﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾** قال: يا أصلع، هل تجد «صلى فيه»؟ قلت: لا. قال: واللّه ما صلى فيه رسول اللّه ﷺ ليلتئذ، ولو صلى فيه لكتب عليكم صلاة فيه، كما كتب عليكم صلاة فى البيت العتيق، واللّه ما زايلا البراق حتى فتحت لهما أبواب السماء، فرأيا الجنة والنار ووعد الآخرة أجمع، ثم عادا عودهما على بدئهما. قال: ثم ضحك حتى رأيت نواجذه . قال: وتحدثوا[٥] أنه ربطه لا يفر منه، وإنما سخره له عالم الغيب والشهادة. قلت :أبا عبد اللّه[٦] ،أى دابة البراق ؟ قال :دابة أبيض طويل هكذا، خطوه مد البصر.

ورواه أبو داود الطيالسى، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، به. ورواه الترمذى والنسائى فى التفسير من حديث عاصم ـ وهو ابن أبى النجود ـ به[٧]، وقال الترمذى: حسن صحيح .

وهذا الذى قاله حذيفة ،رضى اللّه عنه، نفى، وما أثبته غيره عن رسول اللّه ﷺ من ربط الدابة بالحلقة ومن الصلاة بالبيت المقدس ،مما سبق وما سيأتى مقدم على قوله، واللّه أعلم بالصواب.

رواية أبى سعيد ـ سعد بن مالك بن سنان الخدرى :

قال الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتاب «دلائل النبوّة»:

أخبرنا أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه الحافظ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا أبو بكر يحيى بن أبى طالب، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، أخبرنا أبو محمد راشد الحمانى، عن أبى هارون العبدى، عن أبى سعيد الخدرى، رضى اللّه عنه، عن النبى ﷺ أنه قال له أصحابه: يارسول اللّه، أخبرنا عن ليلة أسرى بك فيها، قال: قال اللّه عز وجل : **﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**،

---

(١) دلائل النبوة(٢/ ٣٥٩).

(٢) فى ف: « فانطلقا». (٣) فى ف: « أتيا». (٤) فى ت، ف، أ : «فلح».

(٥) فى ت: « ويحدثون» وفى ف، أ: « وتحدثون». (٦) فى ت: «ياعبد الله».

(٧) المسند (٥/ ٣٨٧)، ومسند الطيالسى برقم(٤١١)، وسنن الترمذى برقم (٣١٤٧) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٨٠).

قال: فأخبرهم فقال: «فبينا أنا نائم عشاء فى المسجد الحرام، إذ أتانى آت فأيقظنى، فاستيقظت فلم أر شيئاً، وإذا أنا بكهيئة خيال، فأتبعته بصرى حتى خرجت من المسجد[١]، فإذا أنا بدابة أدنى فى شبهه بدوابكم هذه، بغالكم هذه، مضطرب[٢] الأذنين يقال له: البراق. وكانت الأنبياء تركبه قبلى، يقع حافره عند مَدِّ بصره، فركبته، فبينما أنا أسير عليه، إذ دعانى داع عن يمينى: يامحمد، انظرنى أسألك يامحمد، انظرني أسألك، فلم أجبه ولم أقم عليه، [فبينما أنا أسير عليه، إذ دعانى داع عن يسارى: يامحمد انظرنى أسألك، فلم أجبه ولم أقم عليه][٣] ، فبينما أنا أسير، إذ أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها، وعليها من كل زينة خلقها اللّه، فقالت: يامحمد، انظرنى أسألك. فلم ألتفت إليها ولم أقم عليها. حتى أتيت بيت المقدس، فأوثقت دابتى بالحلقة التى كانت الأنبياء توثقها بها. فأتانى[٤] جبريل، عليه السلام، بإناءين: أحدهما خمر، والآخر لبن، فشربت اللبن، وتركت الخمر، فقال جبريل: أصبت الفطرة[٥] فقلت: اللّه أكبر، اللّه أكبر. فقال جبريل: ما رأيت فى وجهك هذا؟» قال: «فقلت: بينما أنا أسير، إذ دعانى داع عن يمينى: يامحمد، انظرنى أسألك. فلم أجبه ولم أقم عليه. قال: ذاك داعى اليهود، أما إنك لو أجبته ـ أو: وقفت عليه ـ لتهودت أمتك» قال[٦]: « فبينما أنا أسير، إذ دعانى داع عن يسارى قال: يامحمد، انظرنى أسألك. فلم ألتفت إليه ولم أقم عليه. قال: ذاك داعى النصارى، أما إنك لو أجبته لتنصرت أمتك». قال: «فبينما أنا أسير إذا أنا بامرأة حاسرة عن ذراعيها عليها من كل زينة خلقها اللّه تقول: يامحمد، انظرنى أسألك. فلم أجبها ولم أقم عليها». قال: تلك الدنيا، أما إنك لو أجبتها أو أقمت عليها، لاختارت أمتك الدنيا على الآخرة».

قال : «ثم دخلت أنا وجبريل بيت المقدس، فصلى كل واحد منا ركعتين.

ثم أتيت بالمعراج الذى تعرج[٧] عليه أرواح بنى آدم[٨]، فلم ير الخلائق أحسن من المعراج، أما رأيت الميت حين يشق بصره طامحاً إلى السماء، فإنما يشق بصره طامحاً إلى السماء عجبه بالمعراج». قال: «فصعدت أنا وجبريل، فإذا أنا بملك يقال له: إسماعيل. وهو صاحب السماء الدنيا وبين يديه سبعون ألف ملك، مع كل ملك جُنْده مائة ألف ملك». قال: «وقال اللّه[عز وجل][٩] **﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾** [المدثر: ٣١] فاستفتح[١٠] جبريل باب السماء، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوقد بعث إليه؟ قال: نعم. فإذا أنا بآدم كهيئته يوم خلقه اللّه، عز وجل على صورته[١١]، هو تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين، فيقول: روح طيبة، ونفس طيبة، اجعلوها فى عليين ، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول: روح خبيثة، ونفس خبيثة، اجعلوها فى سجين.

---

(١) فى ت، ف، أ: «المسجد الحرام». (٢) فى ف، أ: « غير أنه مضطرب». (٣) زيادة من ف، أ، والدلائل.
(٤) فى ت: أتانى»، و فى ف: « ثم أتانى»، (٥) فى ف، أ: «أصبت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك».
(٦) فى ف: «قلت». (٧) فى ت: "يعرج". (٨) فى أ: «الأنبياء».
(٩) زيادة من: ف، أ. (١٠) فى ف، أ: «قال: فاستفتح».
(١١) فى أ: «على صورته لم يتغير منه شيء».

ثم مضيت هنية(١) ،فإذا أنا بأخونة عليها لحم مشرح ليس يقربها أحد، وإذا أنا بأخْونَة أخرى عليها لحم قد أروح وأنتن، عندها أناس يأكلون منها، قلت: ياجبريل، من هؤلاء ؟ قال: هؤلاء من أمتك يتركون الحلال ويأتون(٢) الحرام».

قال: «ثم مضيت هنية(٣) ،فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت، كلما نهض أحدهم خرّ يقول: اللهم، لا تقم الساعة»، قال: «وهم على سابلة آل فرعون». قال:«فتجيء السابلة فتطؤهم». قال:«فسمعتهم يضجون إلى اللّه عز وجل». قال: «قلت: ياجبريل، من هؤلاء ؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾» [البقرة: ٢٧٥].

قال: «ثم مضيت هنية(٤) ،فإذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل». قال:« فتفتح على أفواههم ويلقمون من ذلك الجمر، ثم يخرج من أسافلهم. فسمعتهم يضجون إلى اللّه، عز وجل، فقلت(٥): من هؤلاء ياجبريل؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾» [النساء: ١٠].

قال:«ثم مضيت هنية، فإذا أنا بنساء يعلقن بثديهن(٦) فسمعتهن يضججن إلى اللّه، عز وجل، قلت: ياجبريل، من هؤلاء النساء ؟ قال: هؤلاء الزناة من أمتك ».

قال:«ثم مضيت هنية(٧) فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم، فيلقمونه، فيقال له: كل كما كنت تأكل من لحم أخيك .قلت: ياجبريل، من هؤلاء ؟ قال :هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون».

قال:« ثم صعدنا إلى السماء الثانية، فإذا أنا برجل أحسن ما خلق اللّه، عز وجل، قد فضل الناس فى الحسن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب، قلت: ياجبريل، من هذا ؟ قال: هذا أخوك يوسف ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم عليّ .

ثم صعدت(٨) إلى السماء الثالثة، فإذا أنا بيحيى وعيسى، عليهما السلام، ومعهما نفر من قومهما، فسلمت عليهما وسلما عليّ.

ثم صعدت(٩) إلى السماء الرابعة، فإذا أنا بإدريس قد رفعه اللّه مكاناً علياً، فسلمت عليه وسلم عليّ» .

قال: «ثم صعدت(١٠) إلى السماء الخامسة، فإذا [أنا](١١) بهارون ونصف لحيته بيضاء ونصفها سوداء، تكاد لحيته تصيب سرته من طولها، قلت: ياجبريل، من هذا؟ قال: هذا المحبب فى قومه، هذا هارون بن عمران، ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم عليّ .

ثم صعدت(١٢) إلى السماء السادسة، فإذا أنا بموسى بن عمران، رجل آدم كثير الشعر، لو كان

---

(١) فى ف، أ: « هنيهة».
(٢) فى أ: « ويأكلون».
(٣، ٤) فى ف، أ: « هنيهة».
(٥) فى ف: « قلت».
(٦) فى ت ، أ : «بأيديهن».
(٧) فى ف، أ: « هنيهة».
(٨، ٩، ١٠) فى ف، أ: « صعدنا».
(١١) زيادة من: ت، ف، أ.
(١٢) فى ت : «صعد بى».

عليه قميصان لنفذ شعره دون القميص، فإذا[١] هو يقول: يزعم الناس أنى أكرم على اللَّه من هذا، بل هذا أكرم على اللَّه تعالى منى». قال: «قلت: ياجبريل، من هذا ؟ قال: هذا أخوك موسى بن عمران، عليه السلام، ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه وسلم على.

ثم صعدت إلى السماء السابعة، فإذا أنا بأبينا إبراهيم[٢] خليل الرحمن ساند ظهره إلى البيت المعمور كأحسن الرجال، قلت: ياجبريل، من هذا ؟ قال: هذا أبوك [٣] خليل الرحمن ومعه نفر من قومه، فسلمت عليه فسلم علىّ، وإذا [أنا][٤]بأمتى شطرين: شطر عليهم ثياب بيض كأنها القراطيس. وشطر عليهم ثياب رُمْد». قال: «فدخلت البيت المعمور ودخل معى الذين عليهم الثياب البيض، وحجب الآخرون الذين عليهم ثياب رمد، وهم على خير. فصليت أنا ومن معى فى البيت المعمور، ثم خرجت أنا ومن معى». قال: «والبيت المعمور يصلى فيه كل يوم سبعون ألف ملك، لا[٥] يعودون فيه إلى يوم القيامة».

قال: «ثم دفعت لى سدرة المنتهى، فإذا كل ورقة منها تكاد أن تغطى هذه الأمة، وإذا فيها عين تجرى يقال لها: سلسبيل، فينشق منها نهران، أحدهما: الكوثر، والآخر: يقال له: نهر الرحمة. فاغتسلت فيه، فغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر.

ثم إنى دفعت إلى الجنة، فاستقبلتنى جارية، فقلت: لمن أنت يا جارية؟ فقالت[٦]: لزيد بن حارثة، وإذا [أنا][٧] بأنهار من [ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من][٨] عسل مصفى، وإذا رمانها كأنه الدلاء عظماً، وإذا أنا بطيرها كأنها بختيكم هذه». فقال عندها ﷺ: «إن اللَّه تعالى قد أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

قال: «ثم عرضت على النار، فإذا فيها غضب اللَّه وزجره ونقمته، لو طرح فيها الحجارة والحديد لأكلتها، ثم أغلقت [٩]دونى.

ثم إنى دفعت[١٠] إلى سدرة المنتهى، فتغشانى فكان بينى وبينه قاب قوسين أو أدنى». قال: «ونزل على كل ورقة ملك من الملائكة». قال: «وفرضت على خمسون [١١] وقال: لك بكل حسنة عشر، إذا هممت بالحسنة فلم تعملها كتبت لك حسنة، فإذا عملتها كتبت لك عشراً، وإذا هممت بالسيئة فلم تعملها لم يكتب عليك شىء، فإن[١٢] عملتها كتبت عليك سيئة واحدة.

ثم دفعت إلى موسى فقال: بم أمرك ربك؟ قلت: بخمسين صلاة. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، ومتى لا [تطيقه][١٣]تكفر[١٤]. فرجعت إلى ربى [عزوجل][١٥] فقلت: يارب، خفف عن أمتى، فإنها أضعف الأمم. فوضع عنى عشراً، وجعلها

---

(١) فى ت، ف: «وإذا».
(٢) فى ت: «فإذا أنا بإبراهيم».
(٣) فى ف، أ: «أبوك إبراهيم».
(٤) زيادة من ف، أ، والدلائل.
(٥) فى ت، ف، أ: «ثم لا».
(٦) فى ف: «قالت».
(٧، ٨) زيادة من ف، أ، والدلائل.
(٩) فى ف: «غلقت».
(١٠) فى ف: «رفعت».
(١١) فى أ: «خمسون صلاة».
(١٢) فى ف: «فإذا».
(١٣) زيادة من ف، أ، والدلائل.
(١٤) فى ت: «يكفر».
(١٥) زيادة من ف، أ.

أربعين. فما زلت أختلف بين موسى وربى[١] كلما أتيت عليه قال لى مثل مقالته، حتى رجعت إليه فقال لى: بم أمرت؟ فقلت: أمرت بعشر صلوات. قال: ارجع إلى ربك[عز وجل][٢] فاسأله التخفيف لأمتك. فرجعت إلى ربى [سبحانه وتعالى][٣] فقلت: أى رب، خفف عن أمتى، فإنها أضعف الأمم. فوضع عنى خمساً، وجعلها خمساً. فنادانى ملك عندها: تمت فريضتى، وخففت عن عبادى، وأعطيتهم بكل حسنة عشر أمثالها.

ثم رجعت إلى موسى فقال: بم أمرت؟ فقلت: بخمس صلوات. قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإنه لا يؤوده شىء، فاسأله التخفيف لأمتك». «فقلت[٤]: رجعت إلى ربى حتى استحييته» ثم أصبح بمكة يخبرهم بالأعاجيب: «إنى أتيت البارحة بيت المقدس، وعرج بى إلى السماء، ورأيت كذا وكذا[٥]». فقال أبو جهل - يعنى ابن هشام ـ: ألا تعجبون مما يقول محمد؟ يزعم أنه أتى البارحة بيت المقدس، ثم أصبح فينا. وأحدنا يضرب مطيته مصعدة شهراً، ومقفلة شهراً، فهذا مسيرة شهرين فى ليلة واحدة! قال: فأخبرهم بعير لقريش: «لما كنت[٦] فى مصعدى رأيتها فى مكان كذا وكذا، وأنها نفرت، فلما رجعت رأيتها عند العقبة». وأخبرهم بكل رجل وبعيره كذا وكذا، ومتاعه كذا وكذا. فقال أبو جهل: يخبرنا[٧] بأشياء. فقال رجل من المشركين: أنا أعلم الناس ببيت المقدس، وكيف بناؤه؟ وكيف هيئته؟ وكيف قربه من الجبل؟ [فإن يك محمد صادقا فسأخبركم، وإن يك كاذباً فسأخبركم. فجاء ذلك المشرك فقال: يامحمد، أنا أعلم الناس ببيت المقدس، فأخبرنى كيف بناؤه؟ وكيف هيئته؟ وكيف قربه من الجبل][٨]. قال: فرفع لرسول الله ﷺ بيت المقدس من مقعده، فنظر إليه كنظر أحدنا إلى بيته: بناؤه كذا وكذا، وهيئته كذا وكذا، وقربه من الجبل كذا وكذا. فقال الآخر: صدقت. فرجع إلى أصحابه فقال: صدق محمد فيما قال أو نحو هذا [٩] الكلام[١٠].

وكذا رواه الإمام أبو جعفر بن جرير بطوله، عن محمد بن عبد الأعلى، عن محمد بن ثور، عن معمر، عن أبى هارون العبدى ، وعن الحسن بن يحيى، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أبى هارون العبدى، به. ورواه، أيضًا، من حديث محمد بن إسحاق: حدثنى روح بن القاسم، عن أبى هارون، به نحو سياقه المتقدم[١١].

ورواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن أحمد بن عبدة، عن أبى عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد، عن أبى هارون العبدى، عن أبى سعيد الخدرى، فذكره[١٢] بسياق طويل حسن أنيق، أجود مما ساقه غيره، على غرابته وما فيه من النكارة.

---

(١) فى ف، أ: « بين موسى وبين ربى عز وجل». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) زيادة من : ت.
(٤) فى ف، أ: «قال: فقلت». (٥) فى ف، أ: «ورأيت كذا ورأيت كذا». (٦) فى ت، ف، أ: «كانت».
(٧) من ف، أ: « تخبرنا». (٨) زيادة من ف، أ، والدلائل.
(٩) فى ت: « أو نحوه من هذا».
(١٠) دلائل النبوة (٢/ ٣٩٠).
(١١) تفسير الطبرى (١٥/ ١٠).
(١٢) فى ف، أ: « فذكر».

ثم ذكره(١) البيهقى، أيضاً، من رواية نوح بن قيس الحُدَّانى وهُشَيم ومعمر، عن أبى هارون العبدى ـ واسمه عمارة بن جوين(٢) وهو مضعف عند الأئمة(٣).

وإنما سقنا حديثه ههنا لما فى حديثه(٤) من الشواهد لغيره ، ولما رواه البيهقى:

أخبرنا[الإمام](٥) أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن(٦)،أنبأنا أبو نعيم أحمد بن محمد بن إبراهيم البزاز، حدثنا أبو حامد(٧) بن بلال، حدثنا أبو الأزهر، حدثنا يزيد بن أبى حكيم قال: رأيت فى النوم رسول الله ﷺ قلت: يا رسول الله، رجل من أمتك يقال له:« سفيان الثورى» لا بأس به؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا بأس به»، حدثنا عن أبى هارون العبدى، عن أبى سعيد الخدرى، عنك(٨) ليلة أسرى بك، قلت(٩):«رأيت فى السماء» فحدثته بالحديث؟ فقال لى: «نعم». فقلت له: يارسول الله، إن ناساً من أمتك يحدثون عنك فى السرى بعجائب؟ فقال لى:«ذلك(١٠)حديث القصاص»(١١).

رواية شداد بن أوس:

قال الإمام أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذى: حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن العلاء بن الضحاك الزَّبيدى، حدثنا عمرو بن الحارث، عن عبد الله بن سالم(١٢) الأشعرى، عن محمد بن الوليد بن عامر الزبيدى، حدثنا الوليد(١٣) بن عبد الرحمن، عن جبير(١٤) بن نفير: حدثنا(١٥) شداد ابن أوس قال: قلنا: يارسول الله، كيف أسرى بك ؟ قال: «صليت لأصحابى صلاة العتمة بمكة معتماً». قال:« فأتانى جبريل، عليه السلام، بدابة أبيض ـ أو قال: بيضاء ـ فوق الحمار ودون البغل، فقال: اركب. فاستصعبت على، فرازها(١٦) بأذنها، ثم حملنى عليها. فانطلقت تهوى بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، حتى بلغنا أرضاً ذات نخل(١٧) فأنزلنى فقال: صل. فصليت، ثم ركبنا(١٨) فقال: أتدرى أين صليت ؟ قلت: الله أعلم. قال: صليت بيثرب صليت بطيبة. فانطلقت تهوى بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها. ثم بلغنا أرضاً فقال: انزل. [فنزلت](١٩) ثم قال: صل. فصليت، ثم ركبنا، فقال: أتدرى أين صليت؟ قلت: الله أعلم. قال: صليت بمدين، صليت عند شجرة موسى . ثم انطلقت تهوى بنا يقع حافرها حيث أدرك طرفها، ثم بلغنا أرضاً، بدت لنا قصور، فقال: انزل. فنزلت، فقال(٢٠) :صل فصليت ثم ركبنا فقال: أتدرى أين صليت؟ قلت: الله أعلم. قال: صليت ببيت لحم حيث ولد عيسى المسيح ابن مريم. ثم انطلق بى حتى دخلنا المدينة من بابها اليمانى، فأتى قبلة المسجد، فربط فيه دابته، ودخلنا المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر، فصليت من المسجد حيث شاء الله، وأخذنى من العطش أشد ما أخذنى، فأتيت بإناءين(٢١) ، فى أحدهما لبن وفى الآخر

---

(١) فى ت، ف، أ: «ذكر».
(٢) فى ت، أ: « جرين»، وفى ف:« جرير».
(٣) دلائل النبوة (٢/ ٣٩٦).
(٤) فى أ: « سياقه».
(٥) زيادة من: ت، ف، أ.
(٦) فى ف،أ:«أبو عثمان على بن عبدالرحمن».
(٧) فى ف: « حدثنا أحمد».
(٨) فى ف، أ: «عنك يا رسول الله».
(٩) فى أ: «أنك قلت».
(١٠) فى ت، ف، أ:« ذاك».
(١١) دلائل النبوة (٢/ ٤٠٥).
(١٢) فى ت: « سلام».
(١٣) فى ت، ف «أبو الوليد».
(١٤) فى ت،ف:« أن جبير».
(١٥) فى ت، ف، أ: «قال: حدثنا».
(١٦) فى أ: « مزارها».
(١٧) فى ت: « نخيل».
(١٨) فى ف، أ:« ركبت».
(١٩) زيادة من الدلائل.
(٢٠) فى ت: «قال».
(٢١) فى ت: « بإناءات».

عسل، أرسل إلىّ بهما جميعاً، فعدلت بينهما، ثم هدانى اللَّه عز وجل[١]، فأخذت اللبن فشربت[٢] حتى قَرَعت به جبينى، وبين يدى شيخ متكئ على مثواة له، فقال: أخذ صاحبك الفطرة، إنه ليهدى. ثم انطلق بى حتى أتينا الوادى الذى فيه المدينة، فإذا جهنم [تنكشف][٣] عن مثل الزرابى، قلت: يارسول اللَّه، كيف وجدتها ؟ قال: مثل الحمة السخنة. ثم انصرف بى[٤] فمررنا بعير لقريش بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بعيراً لهم، قد جمعه فلان، فسلمت عليهم، فقال بعضهم: هذا صوت محمد. ثم أتيت أصحابى قبل الصبح بمكة»، فأتانى أبو بكر، رضى اللَّه عنه، فقال: يارسول اللَّه، أين كنت الليلة؟ فقد التمستك فى مظانك[٥]. فقال: « علمت أنى أتيت بيت المقدس الليلة؟». فقال: يارسول اللَّه، إنه مسيرة شهر، فصفه لى. قال: «ففتح لى صراط كأنى أنظر إليه لا يسألنى عن شىء إلا أنبأته عنه». قال أبو بكر: أشهد أنك رسول اللَّه. فقال المشركون: انظروا إلى ابن أبى كَبْشَة يزعم أنه أتى بيت المقدس الليلة! . قال: فقال: « إن من آية ما أقول لكم أنى مررت بعير لكم بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بعيراً لهم، فجمعه فلان، وإن مسيرهم ينزلون بكذا ثم بكذا، ويأتونكم يوم كذا وكذا، يقدمهم جمل آدم، عليه مسح أسود وغرارتان سوداوان». فلما كان ذلك اليوم أشرف الناس ينظرون[٦] حتى كان قريب من نصف النهار حتى أقبلت العير يقدمهم ذلك الجمل الذى وصفه رسول اللَّه ﷺ.

هكذا رواه البيهقى من طريقين عن أبى إسماعيل الترمذى، به[٧] .ثم قال بعد تمامه: « هذا إسناد صحيح، وروى ذلك مفرقاً فى أحاديث غيره، ونحن نذكر من ذلك إن شاء اللَّه ما حضرنا». ثم ساق أحاديث كثيرة فى الإسراء كالشاهد لهذا الحديث. وقد روى هذا الحديث عن شداد بن أوس بطوله الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم فى تفسيره، عن أبيه، عن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء الزبيدى، به .ولا شك أن هذا الحديث ـ أعنى الحديث المروى عن شداد بن أوس ـ مشتمل[٨] على أشياء منها ما هو صحيح كما ذكره البيهقى ، ومنها ما هو منكر، كالصلاة فى بيت لحم، وسؤال الصديق عن نعت بيت المقدس، وغير ذلك. واللَّه أعلم.

رواية عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما:

قال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير، عن قابوس، عن أبيه قال: حدثنا ابن عباس قال: ليلة أسرى بنبى اللَّه ﷺ دخل الجنة، فسمع فى جانبها وَجْساً[٩] فقال: «يا جبريل، ما هذا؟» قال: « هذا بلال المؤذن». فقال رسول الله ﷺ حين جاء إلى الناس: «قد أفلح بلال، قد رأيت له كذا وكذا ». قال: فلقيه موسى، عليه السلام، فرحب به، وقال: « مرحباً بالنبى الأمى»، قال: «وهو رجل آدم طويل، سبط شعره مع أذنيه أو فوقهما، فقال: « من هذا ياجبريل ؟» قال: «هذا موسى. [قال: فمضى، فلقيه عيسى فرحب به، وقال: «من هذا يا جبريل؟» قال: «هذا عيسى». قال][١٠] فمضى فلقيه شيخ جليل متهيب فرحب به وسلم عليه وكلهم يسلم عليه ، قال: «من هذا ياجبريل؟». قال: «هذا أبوك إبراهيم»، قال: ونظر فى النار، فإذا قوم يأكلون الجيف، قال: «من هؤلاء ياجبريل؟» قال: «هؤلاء الذين يأكلون لحم[١١] الناس»، ورأى رجلاً أحمر أزرق جداً، قال: «من هذا ياجبريل؟».

---

(١) فى أ: « تعالى». (٢) فى ت: «فشربت اللبن». (٣) زيادة من ف، أ، والدلائل.
(٤) فى أ: « بنا». (٥) فى ف، أ: « منامك». (٦) فى ت: « ينتظرون».
(٧) دلائل النبوة (٢/ ٣٥٥).
(٨) فى ف، أ: « يشتمل». (٩) فى ت، ف، أ: « وخشًا». (١٠) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(١١) فى أ: « لحوم».

قال: «هذا عاقر الناقة»، قال: فلما أتى رسول الله ﷺ المسجد الأقصى قام يصلى، [فالتفت ثم التفت][١] فإذا النبيون أجمعون يصلون معه. فلما انصرف جيء بقدحين، أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال، فى أحدهما لبن وفى الآخر عسل، فأخذ اللبن فشرب منه، فقال الذى كان معه القدح: أصبت الفطرة . إسناد صحيح ولم يخرجوه[٢].

طريق أخرى:

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ثابت أبو زيد، حدثنا هلال، حدثنى عكرمة، عن ابن عباس قال: أسرى بالنبى ﷺ إلى بيت المقدس، ثم جاء من ليلته فحدثهم بمسيره وبعلامة بيت المقدس وبعيرهم، فقال ناس: نحن لا نصدق محمداً بما يقول! فارتدوا كفاراً، فضرب الله رقابهم مع أبى جهل[٣] وقال أبو جهل[٤]: يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، هاتوا تمرا وزبدا فتزقموا، ورأى الدجال فى صورته رؤيا عين ليس برؤيا منام، وعيسى وموسى وإبراهيم . فسئل النبى ﷺ عن الدجال فقال: «رأيته فيلمانياً أقمر هجانا ، إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب درى، كأن شعر رأسه أغصان شجرة. ورأيت عيسى أبيض، جعد الرأس، حديد البصر ، مبطن الخلق . ورأيت موسى أسحم آدم، كثير الشعر، شديد الخلق. ونظرت إلى إبراهيم فلم أنظر إلى إرب منه إلا نظرت إليه منى، حتى كأنه صاحبكم. قال جبريل: سلم على مالك فسلمت عليه ».

ورواه النسائى من حديث أبى زيد ثابت بن يزيد[٥] عن هلال ـ وهو ابن خباب ـ به، وهو[٦] إسناد صحيح .

طريق أخرى:

وقال البيهقى: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، أنبأنا أبو بكر الشافعى، أنبأنا إسحاق بن الحسن، حدثنا الحسين بن محمد، حدثنا شيبان، عن قتادة، عن أبى العالية قال: حدثنا ابن عم نبيكم ﷺ ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « رأيت ليلة أسرى بى موسى بن عمران، رجلاً طوالاً جعداً، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق، إلى الحمرة والبياض، سبط الرأس». وأرى مالكاً خازن جهنم والدجال، فى آيات أراهن الله إياه، قال: ﴿ **فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ** ﴾ [السجدة: ٢٣] فكان قتادة يفسرها: أن نبى الله [ﷺ][٧] قد لقي موسى [عليه السلام][٨] ﴿ **وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ** ﴾ قال: جعل الله موسى هدى لبنى إسرائيل[٩].

رواه مسلم فى الصحيح عن عبد بن حميد، عن يونس بن محمد، عن شيبان[١٠] . وأخرجاه من حديث شعبة عن قتادة مختصراً[١١].

(١) زيادة من المسند مستفاد من هامش ط. الشعب.

(٢) المسند(١/٢٥٧) وفيه قابوس بن أبى ظبيان وقد تكلم فيه خاصة روايته عن أبيه، وقال ابن عدى: «أحاديثه متقاربة، وأرجو أنه لا بأس» فمثل حديثه أقرب درجاته التحسين.

(٣) فى ف، أ: «أبى جهل قبحهم الله». (٤) فى ف، أ: «أبو جهل قبحه الله». (٥) فى ت، ف: «أبى يزيد ثابت بن زيد».

(٦) المسند (١/ ٣٧٤) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٤٨٤).

(٧) زيادة من ت،أ. (٨) زيادة من أ.

(٩) دلائل النبوة (٢/٣٨٦).

(١٠) صحيح مسلم برقم(١٦٥).

(١١) صحيح البخارى برقم (٣٢٣٩) وصحيح مسلم برقم (١٦٥).

طريق أخرى:

قال [البيهقى: أخبرنا على بن أحمد بن عبدان، أنبأنا أحمد بن عبيد الصفَّار، حدثنا دُبَيْس المُعدَّل، حدثنا عفان قال: حدثنا][١] حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « لما أسرى بى، مرت بى رائحة طيبة، فقلت: ماهذه الرائحة ؟ قالوا: ماشطة بنت فرعون وأولادها، سقط مُشْطُهَا من يدها فقالت: باسم اللَّه: فقالت ابنة فرعون: أبى؟ قالت: ربى وربك ورب أبيك. قالت: أو لك رب غير أبى ؟ قالت: نعم، ربى وربك ورب أبيك اللَّه». قال: « فدعاها فقال: ألك رب غيرى ؟ قالت: نعم، ربى وربك الله، عز وجل» . قال: « فأمر بنقرة[٢] من نحاس فأحميت، ثم أمر بها لتلقى فيها، قالت: إن لى [إليك][٣] حاجة. قال: ماهى ؟ قالت: تجمع عظامى وعظام ولدى فى موضع، قال[٤]: ذاك لك، لما لك علينا من الحق»، قال: «فأمر بهم فألقوا واحداً واحداً، حتى بلغ رضيعاً فيهم، فقال: يا أمه، قعى ولا تقاعسى، فإنك[٥] على الحق». قال: «وتكلم أربعة وهم صغار: هذا، وشاهد يوسف، وصاحب جريج، وعيسى ابن مريم، عليه السلام»[٦].

إسناد لا بأس به، ولم يخرجوه .

طريق أخرى:

وقال الإمام أحمد [أيضاً][٧] :حدثنا محمد بن جعفر وروح المعنى[٨] قالا: حدثنا عوف، عن زُرَارة بن أوفى، عن ابن عباس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « لما كان ليلة أسرى بى وأصبحت بمكة، فظعت[بأمرى][٩] وعرفت أن الناس مكذبى» فقعد[١٠] معتزلاً حزيناً، فمرّ به عدو الله أبو جهل[١١] فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: هل كان من شىء ؟ فقال له رسول اللَّه ﷺ: «نعم» قال: وماهو؟ قال «إنى أسرى بى الليلة»: قال إلى أين؟ قال: «إلى بيت المقدس» قال ثم أصبحت بين ظهرانينا؟! قال: «نعم». قال: فلم يره أنه يكذبه مخافة أن يجحده الحديث إن دعا قومه إليه ، فقال: أرأيت إن دعوت قومك أتحدثهم بما حدثتنى؟ فقال رسول اللَّهﷺ: «نعم». قال: هيا[١٢] معشر بنى كعب بن لؤى، قال: فانتفضت[١٣] إليه المجالس وجاؤوا حتى جلسوا إليهما. قال: حدث قومك بما حدثتنى. فقال رسول اللَّهﷺ: « إنى أسرى بى الليلة». فقالوا: إلى أين ؟ قال: «إلى بيت المقدس» قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: « نعم». قال: فمن بين مصفق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجباً للكذب ـ زعم ـ قالوا: وتستطيع أن تنعت [لنا][١٤] المسجد ـ وفى القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد ـ قال[١٥] رسول اللَّه ﷺ: « فذهبت أنعت، فما زلت أنعت حتى التبس علىّ بعض النعت» قال: « فجىء بالمسجد وأنا أنظر إليه، حتى وضع دون دار عقيل ـ أو عقال ـ فَنَعَتُه

---

(١) زيادة من ف، أ، والدلائل. (٢) فى ت، ف، أ: « ببقرة». (٣) زيادة من، أ، والدلائل.
(٤) فى ف: « فقال». (٥) فى ف: « فأنا».
(٦) دلائل النبوة (٢/ ٣٨٩) ورواه البزار فى مسنده برقم(٥٤) « كشف الأستار» من طريق عفان به وفيه عطاء بن السائب وقد اختلط.
(٧) زيادة من ف، أ. (٨) فى ف، أ: «وروح بن المعين». (٩) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(١٠) فى ت ف: « فقعدت»، وفى أ: « فعدت». (١١) فى ف، أ: «أبو جهل قبحه الله». (١٢) فى ف، أ: « فيا».
(١٣) فى ت، ف: « فانقضت». (١٤) زيادة من ت، ف، أ، والمسند. (١٥) فى ف: «فقال».

وأنا أنظر إليه». قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه ـ يقول عوف ـ :قال: فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصاب .

وأخرجه[١] النسائى من حديث عوف بن أبى جميلة ـ وهو الأعرابى، به. ورواه البيهقى من حديث النضر بن شميل وهوذة، عن عوف وهو ابن أبى جميلة الأعرابى، أحد الأئمة الثقات، به[٢].

رواية عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه:

قال الحافظ أبو بكر البيهقى: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب، حدثنا السرى بن خزيمة، حدثنا يوسف بن بُهلول، حدثنا عبد الله بن نمير، عن مالك بن مِغْوَل، عن الزبير بن عدى، عن طلحة بن مُصَرِّف، عن مرة الهَمْدَانى، عن عبد الله بن مسعود قال: لما أسرى برسول الله ﷺ، فانتهى إلى سدرة المنتهى، وهى فى السماء السادسة، وإليها ينتهى ما يصعد به حتى يقبض منها ، وإليها ينتهى ما يهبط [به][٣] من فوقها حتى يقبض[منها][٤]، ﴿**إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ**﴾ [النجم:١٦] قال: غشيها فراش من ذهب، وأعطى رسول الله ﷺ[٥] الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله [٦] المقحمات ،يعنى الكبائر .

ورواه مسلم فى صحيحه، عن محمد بن عبد الله بن نمير وزهير بن حرب، كلاهما عن عبد الله ابن نمير، به[٧] . ثم قال البيهقى:« وهذا الذى ذكره عبد الله بن مسعود طرف من حديث المعراج ، وقد رواه أنس بن مالك، عن مالك بن صَعْصَعَة، عن النبى ﷺ، ثم عن أبى ذر، عن النبى ﷺ، ثم رواه مرة مرسلاً دون ذكرهما» [٨] ،ثم إن البيهقى ساق الأحاديث الثلاثة كما تقدّم .

قلت: وقد روى عن ابن مسعود بأبسط من هذا، وفيه غرابة، وذلك فيما رواه «الحسن بن عرفة» فى جزئه المشهور. حدثنا مروان بن معاوية، عن قنان بن عبد الله النهمى[٩] ،حدثنا أبو ظبيان الجنبى قال: كنا جلوساً عند أبى عبيدة بن عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ ومحمد بن سعد بن أبى وقاص، وهما، جالسان، فقال محمد بن سعد لأبى عبيدة: حدثنا عن أبيك ليلة أسرى بمحمد ﷺ. فقال أبو عبيدة: لا، بل حدثنا أنت عن أبيك. فقال محمد: لو سألتنى قبل أن أسألك لفعلت! قال: فأنشأ أبو عبيدة يحدث يعنى عن أبيه كما سئل قال: قال رسول الله ﷺ: «أتانى جبريل بدابة فوق الحمار ودون البغل، فحملنى عليه، ثم انطلق يهوى بنا كلما صعد عقبة استوت رجلاه كذلك مع يديه، وإذا هبط استوت يداه مع رجليه، حتى مررنا برجل طوال سبط آدم، كأنه من رجال أزد شنوءة، وهو يقول ـ فيرفع[١٠] صوته يقول ـ أكرمته وفضلته». قال:« فدفعنا إليه فسلمنا عليه فرد السلام، فقال: من هذا معك يا جبريل ؟ قال: هذا أحمد[١١] ، قال: مرحباً بالنبى الأمى العربى، الذى بلغ رسالة ربه، ونصح لأمته». قال:« ثم اندفعنا فقلت: من هذا ياجبريل؟ قال: هذا موسى بن عمران». قال:

---

(١) فى ت: « أخرجه».

(٢) المسند(١/ ٣٠٩) وسنن النسائى الكبرى برقم(١١٢٨٥) ودلائل النبوة للبيهقى (٢/ ٣٦٣).

(٣، ٤) زيادة من، ف، أ، والدلائل. (٥) فى ت: «ﷺ تسليماً». (٦) فى ت:« بالله من أمتى»، وفى ف: « بالله شيئًا».

(٧) دلائل النبوة (٢/ ٣٧٢) وصحيح مسلم برقم(١٧٣).

(٨) دلائل النبوة (٢/ ٣٧٣).

(٩) فى ت، ف، أ:« التيمى». (١٠) فى ف: « فرفع». (١١) فى ت: « محمد».

«قلت: ومن يعاتب؟ قال: يعاتب ربه فيك! قلت: فيرفع صوته على ربه؟! قال: إن اللَّه [عز وجل][١] قد عرف له حدته» . قال: « ثم اندفعنا حتى مررنا بشجرة كأن ثمرها السُّرُج تحتها شيخ وعياله». قال: «فقال لى جبريل: اعمد إلى أبيك إبراهيم. فدفعنا إليه فسلمنا عليه فرد السلام، فقال إبراهيم: من هذا معك ياجبريل ؟ قال: هذا ابنك أحمد». قال: « فقال: مرحباً بالنبى الأمى الذى بلغ رسالة ربه ونصح لأمته، يابنى، إنك لاق ربك الليلة، وإن أمتك آخر الأمم وأضعفها، فإن استطعت أن تكون حاجتك أو جلها فى أمتك فافعل» . قال: « ثم اندفعنا حتى انتهينا إلى المسجد الأقصى، فنزلت فربطت الدابة بالحلقة التى فى باب المسجد التى كانت الأنبياء تربط بها. ثم دخلت المسجد فعرفت النبيين من بين راكع وقائم وساجد». قال: « ثم أتيت بكأسين من عسل ولبن فأخذت اللبن فشربت فضرب جبريل عليه السلام، منكبى وقال: أصبت الفطرة ورب محمد». قال: «ثم أقيمت الصلاة فأممتهم، ثم انصرفنا فأقبلنا »[٢].

إسناد غريب ولم يخرجوه، فيه من الغرائب[٣]: سؤال الأنبياء عنه عليه السلام ابتداء، ثم سؤاله عنهم[٤] بعد انصرافه. والمشهور فى الصحاح كما تقدم: أن جبريل [عليه السلام][٥] كان يعلمه بهم أولاً ليسلم عليهم سلام معرفة. وفيه[٦] أنه اجتمع بالأنبياء عليهم[٧] السلام قبل دخوله المسجد [٨]، والصحيح أنه إنما اجتمع بهم فى السموات، ثم نزل إلى بيت المقدس ثانياً وهم معه، وصلى بهم فيه، ثم إنه ركب البراق وكر راجعاً إلى مكة، واللَّه أعلم .

طريق أخرى :

قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيم،أخبرنا العوام، عن جبلة بن سُحَيم، عن مُؤثر[٩] بن عفارة، عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال: «لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى، فتذاكروا أمر الساعة» قال: « فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام[١٠] فقال: لا علم لى بها. فردوا أمرهم إلى موسى. فقال: لا علم لى بها فردوا أمرهم إلى عيسى فقال: أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا اللَّه عز وجل، وفيما عهد إلى ربى أن الدجال خارج». قال: « ومعى قضيبان، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص». قال: « فيهلكه اللَّه إذا رآنى، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم، إن تحتى كافراً، فتعال فاقتله». قال: « فيهلكهم اللَّه، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم[١١] ». قال:«فعند[١٢] ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيطؤون بلادهم، فلا يأتون على شىء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه» قال: « ثم يرجع الناس إلىّ فيشكونهم. فأدعو اللَّه عليهم، فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم ـ أى: تنتن» قال: «فينزل اللَّه المطر، فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر. ففيما عهد إلى ربى: أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم، لا يدرى أهلها متى تفجؤهم بولادها، ليلاً أو نهاراً» .

وأخرجه ابن ماجه، عن بُنْدار، عن يزيد بن هارون، عن العوام بن حوشب[١٣].

---

(١) زيادة من: ف، أ.
(٢) جزء الحسن بن عرفة برقم(٦٩).
(٣) فى ت، ف: « من الغرابة». (٤) فى ت: « ثم سؤالهم له». (٥) زيادة من ف،أ.
(٦) فى ف: « وقيل». (٧) فى ت: «عليه». (٨) فى ف، أ: «المسجد الأقصى».
(٩) فى ت، ف: « مرثد». (١٠) فى ت: «عليه الصلاة والسلام». (١١) فى ت: « وأقطانهم».
(١٢) فى ت: «فبعد».
(١٣) المسند(١/ ٣٧٥)، وسنن ابن ماجة برقم(٤٠٨١) وقال البوصيرى فى الزوائد(٣/ ٢٦١): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، مؤثر ابن عفارة ذكره ابن حبان فى الثقات، وباقى رجال الإسناد ثقات».

رواية عبد الرحمن بن قرط، أخى عبد الله بن قرط الثمالى:

قال سعيد بن منصور: حدثنا مسكين بن ميمون ـ مؤذن[(١)] مسجد الرملة ـ حدثنى عُروة بن رُوَيْم، عن عبد الرحمن بن قُرط، أن رسول اللَّه ﷺ ليلة أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كان بين زمزم[(٢)] والمقام، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطارا به حتى بلغ السموات العلى، فلما رجع قال: «سمعت تسبيحاً فى السموات العلى مع تسبيح كثير[(٣)]، سبحت السموات العلى من ذى المهابة مشفقات من ذى العلو بما علا، سبحان العلى الأعلى، سبحانه وتعالى»[(٤)].

ويذكر هذا الحديث عند قوله تعالى من هذه السورة: ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ**﴾الآية [الإسراء: ٤٤].

رواية عمر بن الخطاب، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبى سنان، عن عبيد بن آدم وأبى مريم وأبى شعيب؛ أن عمر بن الخطاب، رضى اللَّه عنه، كان بالجابية، فذكر فتح بيت المقدس قال: قال أبو سلمة: فحدثنى أبو سنان، عن عبيد بن آدم قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول لكعب: أين ترى أن أصلى؟ قال[(٥)]: إن أخذت عنى صليت خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك، فقال عمر، رضى اللَّه عنه: ضاهيت اليهودية، [لا][(٦)] ولكن أصلى حيث صلى رسول اللَّه ﷺ فتقدم إلى القبلة، فصلى ثم جاء فبسط رداءه وكنس الكناسة فى ردائه، وكنس الناس[(٧)].

فلم يعظم الصخرة تعظيما يصلى وراءها وهى بين يديه، كما أشار كعب الأحبار وهو من قوم يعظمونها حتى جعلوها قبلتهم. ولكن منّ اللَّه عليه بالإسلام، فهُدى إلى الحق؛ ولهذا لما أشار بذلك قال له أمير المؤمنين : ضاهيت اليهودية، ولا أهانها إهانة النصارى الذين كانوا قد جعلوها مزبلة من أجل أنها قبلة اليهود، ولكن أماط الأذى، وكنس عنها الكناس بردائه. وهذا شبيه بما جاء فى صحيح مسلم عن أبى مرثد الغَنَوِى قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها»[(٨)].

رواية أبى هريرة، رضى الله عنه:

وهى مطولة جداً، وفيها غرابة. قال الإمام أبو جعفر بن جرير فى تفسير «سورة سبحان»: حدثنا على بن سهل، حدثنا حجاج، حدثنا أبو جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية الرياحى، عن أبى هريرة أو غيره ـ شك أبو جعفر ـ فى قول اللَّه عز وجل: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ قال: جاء جبريل [إلى النبى ﷺ ومعه ميكائيل، فقال جبريل][(٩)] لميكائيل: ائتنى بطَسْت من ماء زمزم، كيما أطهر قلبه وأشرح له صدره. قال: فشق عنه بطنه، فغسله ثلاث مرات. واختلف إليه

---

(١) فى ت، أ: « مؤدب». (٢) فى ت، ف:« من بين زمزم». (٣) فى ت: « كبير».

(٤) سيأتى من رواية الطبرانى من طريق سعيد بن منصور، وانظر تخريجه هناك عند الآية: ٤٤ من هذه السورة.

(٥) فى ف: «فقال». (٦) زيادة من ت، ف، والمسند.

(٧) المسند (١/ ٣٨).

(٨) صحيح مسلم برقم (٩٧٢).

(٩) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى.

ميكائيل بثلاث طساس من ماء زمزم، فشرح صدره ونزع ماكان فيه من غل، وملأه حلمًا وعلماً، وإيماناً ويقيناً وإسلاماً، وختم بين كتفيه بخاتم النبوة.

ثم أتاه بفرس فحمل[١] عليه، كل خطوة منه منتهى بصره ـ أو: أقصى بصره ـ قال: فسار وسار معه جبريل عليهما[٢] السلام قال: فأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال النبى[٣] ﷺ: « ياجبريل، ما هذا ؟ » قال: هؤلاء المجاهدون فى سبيل اللّه، تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه، وهو خير الرازقين.

ثم أتى على قوم تُرضَخ رؤوسهم بالصخر، كلما رُضخت عادت كما كانت، ولا يفتر عنهم من ذلك شىء، فقال: « ما هؤلاء ياجبريل ؟ » قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة.

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كما تسرح الإبل والنعم، ويأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم وحجارتها، قال[٤]: «ما هؤلاء ياجبريل؟» قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم، وما ظلمهم اللّه شيئاً وما اللّه بظلام للعبيد.

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدر[٥] ولحم آخر نيئ فى قدر خبيث، فجعلوا يأكلون من النيئ الخبيث ويدعون النضيج الطيب، فقال: «ما هؤلاء ياجبريل ؟ » فقال: هذا الرجل من أمتك، تكون عنده المرأة الحلال الطيبة، فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ،[والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً، فتأتى رجلاً خبيثاً فتبيت معه حتى تصبح][٦].

قال: ثم أتى على خشبة على الطريق، لا يمر بها ثوب إلا شقته، ولا شىء إلا خرقته، قال: «ماهذا ياجبريل؟» قال: هذا مثل أقوام من أمتك، يقعدون على الطريق يقطعونه[٧]، ثم تلا ﴿ **وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ [وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ]**[٨] ﴾ [الأعراف:٨٦].

قال: ثم أتى على رجل قد جمع[٩] حزمة [حطب][١٠] عظيمة لا يستطيع حملها، وهو يزيد عليها، فقال: « ما هذا ياجبريل؟» فقال[١١] :هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها.

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت، لا يفتر عنهم من ذلك شىء، قال: « ما هؤلاء ياجبريل ؟ » قال: هؤلاء خطباء الفتنة.

ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثور يريد أن يرجع من [حيث][١٢] خرج، فلا يستطيع، فقال: « ما هذا ياجبريل؟» فقال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة، ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها.

ثم أتى على واد فوجد ريحاً طيبة باردة، وريح مسك، وسمع صوتاً، فقال: «ياجبريل، ما هذه[١٣] الريح الطيبة الباردة؟ وما هذا المسك؟ وما هذا الصوت؟» قال: هذا صوت الجنة، تقول: يارب آتنى ما وعدتنى، فقد كثرت غرفى، وإستبرقى وحريرى وسندسى، وعبقريى ولؤلؤى ومرجانى، وفضتى

---

(١) فى ف، أ: « فحمله». (٢) فى ت، ف، أ: «عليه». (٣) فى ف : « فقال رسول اللّه».
(٤) فى ف: « فقال». (٥) فى ت، ف :«قدور». (٦) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى.
(٧) فى ت، ف: « فيقطعونه». (٨) زيادة من ف، أ. (٩) فى ت: «حمل».
(١٠) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى. (١١) فى ف: « قال». (١٢) فى ت، هـ : «موضع» والمثبت من الطبرى.
(١٣) فى ت، ف، أ: « ما هذا».

وذهبى وأكوابى وصحافى، وأباريقى ومراكبى، وعسلى ومائى، وخمرى ولبنى فآتنى ما[١] وعدتنى. فقال: لك كل مسلم ومسلمة، ومؤمن ومؤمنة، ومن آمن بى وبرسلى وعمل صالحاً ولم يشرك بى، ولم يتخذ من دونى أنداداً ، ومن خشينى فهو آمن ، ومن سألنى أعطيته، ومن أقرضنى جزيته، ومن توكل علىّ كفيته، إنى أنا اللّه لا إله إلا أنا، لا أخلف الميعاد، وقد أفلح المؤمنون، وتبارك اللّه أحسن الخالقين، قالت: قد رضيت.

قال: « ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً، ووجد ريحاً منتنة، فقال: « ما هذه[٢] الريح يا جبريل؟ وما هذا الصوت؟ » فقال: هذا صوت جهنم تقول: يارب آتنى ما وعدتنى، فقد كثرت سلاسلى وأغلالى، وسعيرى وحميمى، وضريعى، وغساقى وعذابى، وقد بعد قعرى، واشتد حرى، فآتنى كل ما وعدتنى، فقال: لك كل مشرك ومشركة، وكافر وكافرة، وكل خبيث وخبيثة، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب. قالت: قد رضيت.

قال: ثم سار حتى أتى بيت المقدس، فنزل فربط فرسه إلى صخرة، ثم دخل فصلى مع الملائكة، فلما قضيت الصلاة قالوا: ياجبريل، من هذا معك؟ قال: محمد ﷺ. قالوا: أو قد أرسل محمد؟ قال: نعم. قالوا: حياه اللّه من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجىء جاء.

قال: ثم لقى أرواح الأنبياء، فأثنوا على ربهم، فقال إبراهيم: الحمد للّه الذى اتخذنى خليلاً، وأعطانى ملكاً عظيماً، وجعلنى أمة قانتاً يؤتم بى، وأنقذنى من النار، وجعلها علىّ برداً وسلاماً. ثم[٣] إن موسى، عليه السلام[٤]، أثنى على ربه، عز وجل، فقال: الحمد للّه الذى كلمنى تكليماً، وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بنى إسرائيل على يدى، وجعل من أمتى قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون. ثم إن داود ،عليه السلام[٥]، أثنى على ربه[عز وجل][٦] فقال: الحمد للّه الذى جعل لى ملكاً عظيماً، وعلمنى الزبور، وألان لى الحديد، وسخر لى الجبال يسبحن والطير، وأعطانى الحكمة وفصل الخطاب. ثم إن سليمان، عليه السلام، أثنى على ربه[عز وجل][٧] فقال: الحمد للّه الذى سخر لى الرياح، وسخر لى الشياطين يعملون لى ماشئت من محاريب وتماثيل، وجفان كالجواب وقدور راسيات، وعلمنى منطق الطير، وآتانى من كل شىء فضلاً، وسخر لى جنود الشياطين والإنس والطير، وفضلنى على كثير من عباده المؤمنين ، وآتانى ملكاً عظيماً لا ينبغى لأحد من بعدى، وجعل ملكى ملكاً طيباً ليس فيه حساب . ثم إن عيسى، عليه السلام، أثنى على ربه، عز وجل، فقال: الحمد للّه الذى جعلنى كلمته، وجعل مثلى مثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له: «كن» فيكون ، وعلمنى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، وجعلنى أخلق من الطين كهيئة الطير، فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن اللّه، وجعلنى أبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذنه[٨]، ورفعنى وطهرنى، وأعاذنى وأمى من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان علينا سبيل . قال: ثم إن محمداً[٩] ﷺ أثنى على ربه، عز وجل، فقال: « فكلكم أثنى على ربه، وإنى مثن على ربى [عز وجل][١٠] فقال: الحمد للّه الذى أرسلنى رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل علىّ الفرقان[١١] فيه بيان لكل شىء، وجعل

---

(١) فى ت: «بما». (٢) فى أ: «ما هذا». (٣) فى ف، أ: «قال: ثم».
(٤، ٥) فى ت: «عليه الصلاة والسلام». (٦، ٧) زيادة من أ. (٨) فى ف، أ: « بإذن الله».
(٩) فى أ: «محمدا رسول الله». (١٠) زيادة من ف، أ. (١١) فى ت، ف: « القرآن».

أمتى خير أمة أخرجت للناس، وجعل أمتى أمة وسطاً، وجعل أمتى هم الأولين وهم الآخرين، وشرح لى صدرى، ووضع عنى وزرى، ورفع لى ذكرى، وجعلنى فاتحاً وخاتماً » فقال إبراهيم [عليه السلام][١] : بهذا فضلكم محمد ﷺ .

قال أبو جعفر الرازى: خاتم النبوة، فاتح بالشفاعة يوم القيامة.

ثم أتى بآنية ثلاثة مغطاة أفواهها، فأتى بإناء منها فيه ماء فقيل: اشرب. فشرب منه يسيراً ، ثم دفع إليه إناء آخر فيه لبن، فقيل له: اشرب، فشرب منه حتى روى. ثم دفع إليه إناء آخر فيه خمر فقيل له: اشرب فقال: «لا أريده قد رويت» . فقال له جبريل [عليه السلام][٢] :أما إنها ستحرم على أمتك، ولو شربت منها لم يتبعك من أمتك إلا قليل .

قال: ثم صعد به إلى السماء فاستفتح، فقيل: من هذا ياجبريل؟ فقال: محمد ، قالوا: أوقد أرسل؟ قال: نعم. قالوا: حياه اللَّه من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجىء جاء. فدخل فإذا هو برجل تام الخلق[٣] لم ينقص من خلقه شىء كما ينقص من خلق الناس، عن[٤] يمينه باب يخرج منه ريح طيبة، وعن شماله باب يخرج منه ريح خبيثة ، إذا نظر إلى الباب الذى عن يمينه ضحك واستبشر، وإذا نظر إلى الباب الذى عن يساره بكى وحزن، فقلت:« ياجبريل، من هذا الشيخ التام الخلق الذى لم ينقص من خلقه شىء؟ وما هذان البابان؟» فقال: هذا أبوك آدم [عليه السلام][٥]، وهذا الباب الذى عن يمينه باب الجنة، إذا نظر إلى من يدخل[٦] من ذريته ضحك واستبشر ، والباب الذى عن شماله باب جهنم، إذا نظر إلى من يدخله من ذريته بكى وحزن.

ثم صعد به جبريل إلى السماء الثانية فاستفتح، فقيل: من هذا معك؟ فقال: محمد رسول اللَّه. قالوا: أو قد أرسل محمد ؟ قال: نعم. قالوا: حياه اللَّه من أخ ومن خليفة، فلنعم الأخ ولنعم الخليفة ونعم المجىء جاء. قال: فدخل فإذا هو بشابين فقال:«يا جبريل، من هذان الشابان؟» قال: هذا عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا، ابنا الخالة عليهما السلام.

قال: فصعد به إلى السماء الثالثة فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل ؟ قال: نعم. قالوا: حياه اللَّه من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجىء جاء. قال: فدخل فإذا هو برجل قد فضل على الناس فى الحسن، كما فضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب،قال:« من هذا ياجبريل الذى قد فضل على الناس فى الحسن؟» قال: هذا أخوك يوسف، عليه السلام[٧] .

قال: ثم صعد به إلى السماء[٨] الرابعة فاستفتح، فقالوا[٩]: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل؟ [١٠] قال: نعم. قالوا: حياه اللَّه من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجىء جاء. قال: فدخل، فإذا هو برجل، قال: «من هذا ياجبريل؟» قال: هذا إدريس، رفعه اللَّه [تعالى][١١]مكاناً علياً.

(١، ٢) زيادة من ف ، أ.
(٣) فى ف: « تام الخلقة».
(٤) فى ف: «على».
(٥) زيادة من أ.
(٦) فى ت، ف: «يدخله».
(٧) فى ت: «عليه الصلاة والسلام».
(٨) فى ف: « ثم صعدت إلى السماء».
(٩) فى ف: «فقيل ».
(١٠) فى ف، أ: «أرسل إليه».
(١١) زيادة من ت.

ثم صعد به إلى السماء الخامسة فاستفتح، فقالوا: من هذا؟ قال: جبريل. قالوا: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل[١] إليه؟ قال: نعم. قالوا:حياه[٢] اللَّه من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجىء جاء. ثم دخل فإذا هو برجل جالس وحوله قوم يقص عليهم، قال: «من هذا يا جبريل؟ ومن هؤلاء حوله؟» قال: هذا هارون المحبب [فى قومه][٣]وهؤلاء بنو إسرائيل.

ثم صعد به إلى السماء السادسة فاستفتح، قيل:[٤] من هذا؟ قال: جبريل. قالوا:ومن معك؟ قال: محمد، قالوا: أو قد أرسل؟ [٥] قال: نعم. قالوا: حياه اللَّه من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجىء[٦] .فإذا هو برجل جالس، فجاوزه فبكى الرجل، فقال:« يا جبريل، من هذا؟» قال: موسى ، قال:« فما باله [٧] يبكى ؟» قال: زعم[٨] بنو إسرائيل أنى أكرم بنى آدم على اللَّه، عز وجل، وهذا رجل من بنى آدم قد خلفنى فى دنيا، وأنا فى أخرى، فلو أنه بنفسه لم أبال، ولكن مع كل نبى أمته.

قال: ثم صعد به إلى السماء السابعة فاستفتح، فقيل له: من هذا ؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قالوا: أو قد أرسل إليه ؟ قال: نعم. قالوا: حياه اللَّه من أخ ومن خليفة، فنعم الأخ ونعم الخليفة، ونعم المجىء جاء. قال: فدخل فإذا هو برجل أشمط جالس عند باب الجنة على كرسى، وعنده قوم جلوس بيض الوجوه أمثال القراطيس ، وقوم فى ألوانهم شىء، فقام هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء فدخلوا نهراً فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد[٩] خلص من ألوانهم شىء ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلص [من][١٠] ألوانهم [شىء ثم دخلوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه، فخرجوا وقد خلصت ألوانهم][١١] فصارت مثل ألوان أصحابهم، فجاؤوا فجلسوا إلى أصحابهم، فقال: «ياجبريل من هذا الأشمط؟ ثم من هؤلاء البيض الوجوه؟ ومن هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء؟ وما هذه الأنهار التى دخلوا فيها فجاؤوا وقد صَفَت ألوانهم؟» قال: هذا أبوك إبراهيم [عليه السلام][١٢] أول من شمط على الأرض. وأما هؤلاء البيض الوجوه فقوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم. وأما هؤلاء الذين فى ألوانهم شىء، فقوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فتابوا فتاب اللَّه عليهم. وأما الأنهار فأولها رحمة اللَّه، والثانى نعمة اللَّه، والثالث سقاهم ربهم شراباً طهوراً .

قال: ثم انتهى إلى السدرة فقيل له: هذه السدرة ينتهى إليها كل أحد خلا من أمتك على سنتك ، فإذا هى شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذّة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى، وهى شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين عاماً لا يقطعها. والورقة منها مغطية للأمة كلها. قال: فغشيها نور الخلاق، عز وجل، وغشيتها[١٣] الملائكة أمثال الغربان حين يقعن[١٤] على الشجرة قال: فكلمه اللَّه تعالى عند ذلك[١٥]،

---

(١) فى ف، أ: «أرسل إليه».
(٢) فى ف، أ: «قالوا: مرحبا به حياه».
(٣) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى.
(٤) فى ف:« فقيل».
(٥) فى ف، أ: «أرسل إليه».
(٦) فى ت، ف، أ: «المجىء جاء».
(٧) فى ت: «فماله».
(٨) فى ت، أ:« يزعم».
(٩) فى ت:« قد».
(١٠) زيادة من ف، أ، والطبرى.
(١١) زيادة من ت، ف، أ، والطبرى.
(١٢) زيادة من ف، أ.
(١٣) فى ت: « وغشيها».
(١٤) فى ت، ف، أ: « حتى تقع».
(١٥) فى ت: « فكلمه يعنى عند ذلك» .

قال له: سل[١]، قال: «إنك اتخذت إبراهيم خليلاً، وأعطيته ملكاً عظيماً، وكلمت موسى تكليماً، وأعطيت داود ملكاً عظيماً، وألنت له الحديد، وسخرت له[الجبال، وأعطيت سليمان ملكاً عظيمًا، وسخرت له الجن والإنس والشياطين، وسخرت له][٢] الرياح، وأعطيت له ملكاً عظيمًا لا ينبغى لأحد من بعده، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل، وجعلته يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذنك، وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان عليهما سبيل». فقال له ربه عزوجل: وقد اتخذتك خليلاً - وهو مكتوب فى التوراة: حبيب الرحمن[٣] - وأرسلتك إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وشرحت لك صدرك، ووضعت عنك وزرك، ورفعت لك ذكرك، فلا أذكر إلا ذكرت معى، وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس، وجعلت أمتك أمة وسطاً، وجعلت أمتك هم الأولين و الآخرين، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى ، وجعلت من أمتك أقواماً قلوبهم أناجيلهم، وجعلتك أول النبيين خلقاً، وآخرهم بعثاً، وأولهم يقضى له، وأعطيتك سبعاً من المثانى لم يعطها نبى قبلك، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبياً قبلك، وأعطيتك الكوثر، وأعطيتك ثمانية أسهم: الإسلام، والهجرة، والجهاد، والصدقة، والصلاة، وصوم رمضان، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وجعلتك فاتحاً وخاتماً. فقال النبى ﷺ: « فضلنى ربى بست: أعطانى فواتح الكلام[٤] وخواتيمه وجوامع الحديث، وأرسلنى إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وقذف فى قلوب عدوى الرعب من مسيرة شهر، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى، وجعلت لى الأرض كلها طهوراً ومسجداً».

قال: وفرض عليه خمسين صلاة. فلما رجع إلى موسى قال: بم أمرت يامحمد؟ قال: «بخمسين صلاة» قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، فقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع النبى ﷺ إلى ربه، عز وجل، فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً. ثم رجع إلى موسى فقال: بكم أمرت؟ قال: « بأربعين» قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع النبى ﷺ إلى ربه[عز وجل][٥] فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً، فرجع إلى موسى فقال: بكم أمرت؟ قال: « أمرت بثلاثين»، فقال له موسى: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع إلى ربه[عز وجل][٦] فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً، فرجع إلى موسى فقال[٧]: بكم أمرت؟ قال: «أمرت بعشرين». قال: ارجع إلى ربك [عز وجل][٨] فاسأله التخفيف فإن أمتك أضعف الأمم وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع إلى ربه[عز وجل][٩] فسأله التخفيف فوضع عنه عشرًا. فرجع إلى موسى فقال: بكم أمرت؟ قال: « أمرت بعشر»، قال: ارجع إلى ربك[عز وجل][١٠] فاسأله التخفيف، فإن أمتك أضعف الأمم، وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة، قال: فرجع على حياء إلى ربه[عز وجل][١١] فسأله التخفيف فوضع عنه خمساً. فرجع إلى موسى، عليه السلام، فقال[١٢] :بكم أمرت؟ قال: «بخمس»، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن

(١) فى ف: «فقال». (٢) زيادة من ف، أ، والطبرى. (٣) فى ت: «محمد حبيب الرحمن».
(٤) فى ف: «الكلم». (٥) زيادة من ف. (٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى ت: «قال». (٨ ـ ١١) زيادة من ف، أ. (١٢) فى ف: «قال».

أمتك أضعف الأمم وقد لقيت من بنى إسرائيل شدة ، قال: «قد رجعت إلى ربى حتى استحييت، فما أنا براجع إليه»، قيل: أما إنك كما صبرت نفسك على خمس صلوات، فإنهن يجزين عنك خمسين صلاة، فإن كل حسنة بعشر أمثالها. قال: فرضى محمد ﷺ كل الرضا ، قال: وكان موسى، عليه السلام، من أشدهم عليه حين مرّ به وخيرهم له حين رجع إليه(١).

ثم رواه ابن جرير، عن محمد بن عبيد اللّه، عن أبى النضر هاشم بن القاسم، عن أبى جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية أو غيره ـ شك أبو جعفر ـ عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ فذكره بمعناه(٢).

وقد رواه الحافظ أبو بكر البيهقى، عن أبى سعيد المالينى، عن ابن عدى، عن محمد بن الحسن السَّكُونى البالسى بالرملة، حدثنا على بن سهل، فذكر مثل مارواه ابن جرير عنه(٣)، وذكر البيهقى أن الحاكم أبا عبد اللّه رواه عن إسماعيل بن محمد بن الفضل بن محمد الشعرانى، عن جده، عن إبراهيم بن حمزة الزبيرى، عن حاتم بن إسماعيل، حدثنى عيسى بن ماهان ـ يعنى أبا جعفر الرازى ـ عن الربيع بن أنس ،عن أبى العالية، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، فذكره(٤).

وقال ابن أبى حاتم: ذكر أبو زُرْعَة، حدثنا محمد بن عبد اللّه بن نمير، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا عيسى بن عبد اللّه التميمى(٥) ـ يعني: أبا جعفر الرازى ـ عن الربيع بن أنس البكرى، عن أبى العالية أو غيره ـ شك عيسى ـ عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ[إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا]**(٦)﴾» فذكر الحديث بطوله كنحو مما سقناه.

قلت: «أبو جعفر الرازى» قال فيه الحافظ أبو زرعة: «الرازى يهم فى الحديث كثيراً» وقد ضعفه غيره أيضاً، ووثقه بعضهم، والأظهر أنه سيئ الحفظ ففيما تفرد به نظر . وهذا الحديث فى بعض ألفاظه غرابة ونكارة شديدة، وفيه(٧) شىء من حديث المنام من رواية سمرة بن جندب فى المنام الطويل عند البخارى، ويشبه أن يكون مجموعاً من أحاديث شتى، أو منام أو قصة أخرى غير الإسراء، واللّه أعلم.

وقد روى البخارى ومسلم فى الصحيحين من حديث عبد الرزاق: أنبأنا مَعْمَرُ، عن الزهرى، أخبرنى سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ حين أسرى به: « لقيت موسى» قال: فنعته فإذا رجل ـ حسبته قال: ـ مضطرب، رَجْل الرأس، كأنه من رجال شنوءة. قال: «ولقيت عيسى» ـ فنعته النبى ﷺ ـ ربعة(٨) أحمر كأنما خرج من ديماس - يعنى حمام. قال: «ورأيت إبراهيم، وأنا أشبه ولده به». قال: « وأتيت بإناءين فى أحدهما لبن وفى الآخر خمر، قيل لى: خذ أيهما شئت، فأخذت اللبن، فشربت، فقيل لى: هديت الفطرة ـ أو: أصبت الفطرة ـ أما إنك لو

(١) تفسير الطبرى (١٥/ ٦).
(٢) تفسير الطبرى (١٥/ ١٠).
(٣) دلائل النبوة (٢/ ٣٩٦ ، ٣٩٧).
(٤) دلائل النبوة (٢/ ٣٩٧).
(٥) فى ت: « اليمنى».
(٦) زيادة من ت.
(٧) فى ت: «فيه».
(٨) فى ت، أ: «قال: ربعة».

أخذت الخمر غوت أمتك». وأخرجاه من وجه آخر. عن الزهرى ـ به نحوه[١].

وفى صحيح مسلم، عن محمد بن رافع، عن حُجَيْن بن المثنى، عن عبد العزيز بن أبى سلمة، عن عبد اللّه بن الفضل الهاشمى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، رضى اللّه عنه، قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى[٢]، فسألونى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كرباً ما كربت مثله قط، فرفعه اللّه لى أنظر إليه، ما سألونى عن شيء إلا أنبأتهم به، وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء، وإذا موسى قائم يصلى، وإذا هو رجل ضربٌ جعد كأنه من رجال شنوءة، وإذا عيسى ابن مريم قائم يصلى أقرب الناس به شبهاً عروة بن مسعود الثقفي، وإذا إبراهيم قائم يصلى أشبه الناس به صاحبكم - يعنى نفسه - فحانت الصلاة فأممتهم، فلما فرغت قال قائل: يامحمد، هذا مالك صاحب النار،[فسلم عليه][٣] فالتفت إليه فبدأنى بالسلام »[٤].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن أبى الصلت، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول اللّه ﷺ: « رأيت ليلة أسرى بى لما انتهينا إلى السماء السابعة، فنظرت فوق[٥] فإذا رعد وبرق وصواعق» . قال: «وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم فقلت: من هؤلاء ياجبريل ؟ قال: هؤلاء أكلة الربا ، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل منى فإذا أنا برَهَج ودخان وأصوات، فقلت: ما هذا ياجبريل ؟ قال: هذه الشياطين يحرفون على أعين بنى آدم ألا يتفكروا فى ملكوت السموات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب ».

ورواه الإمام أحمد عن حسن وعفان، كلاهما عن حماد بن سلمة، به. ورواه ابن ماجه من حديث حماد، به[٦].

رواية جماعة من الصحابة[رضى الله عنهم][٧] ممن تقدم وغيرهم:

قال الحافظ البيهقى: أخبرنا أبو عبد اللّه ـ يعنى الحاكم ـ أخبرنا عبدان بن يزيد بن يعقوب الدقاق بهمذان، حدثنا إبراهيم بن الحسين الهمذانى، حدثنا أبو محمد هو إسماعيل بن موسى الفزارى، حدثنا عمر بن سعد النصرى[٨] من بنى نصر[٩] بن قُعَين، حدثنى عبد العزيز، وليث بن أبى سليم[١٠] وسليمان الأعمش، وعطاء بن السائب ـ بعضهم يزيد فى الحديث على بعض ـ عن على بن أبى طالب و عبد اللّه[١١] بن عباس ـ و محمد بن إسحاق بن يسار، عمن حدثه عن ابن عباس ـ

---

(١) صحيح البخارى برقم(٣٣٩٤) وصحيح مسلم برقم(١٦٨).

(٢) فى ت: «عن أمرى».

(٣) زيادة من ف، أ، ومسلم.

(٤) صحيح مسلم برقم (١٧٢).

(٥) فى ف، أ: «فوق رأسى».

(٦) المسند(٢/ ٣٥٣ ــ ٣٦٣) وسنن ابن ماجة برقم (٢٢٧٣). وسبق الحديث من رواية أحمد عند تفسير الآية: ١٨٥ من سورة الأعراف، وعقب عليه الحافظ ابن كثير بقوله: « على بن زيد بن جدعان له منكرات».

(٧) زيادة من أ.

(٨) فى ف:« النضرى».

(٩) فى ف: « من بنى نضرة».

(١٠) فى أ: « سلمة».

(١١) فى ت، ف: «وعن عبد الله».

وعن سليم بن مسلم العقيلى، عن عامر الشعبى، عن عبد اللّه بن مسعود ـ وجويبر، عن الضحاك، ابن مزاحم قالوا: كان رسول اللّه ﷺ فى بيت أم هانئ راقداً، وقد صلى العشاء الآخرة. قال أبو عبد اللّه الحاكم: قال لنا هذا الشيخ . . . وذكر الحديث، فكتب[١] المتن من نسخة مسموعة منه، فذكر حديثاً طويلاً، يذكر فيه عدد الدرج والملائكة وغير ذلك مما لا ينكر شىء منها فى قدرة اللّه إن صحت الرواية .

قال البيهقى: فيما ذكرنا قبل فى حديث أبى هارون العبدى فى إثبات الإسراء والمعراج كفاية، وباللّه التوفيق[٢].

قلت: وقد أرسل هذا الحديث غير واحد من التابعين وأئمة المفسرين، رحمة اللّه عليهم أجمعين.

رواية عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها:

قال[الإمام][٣] البيهقى: أخبرنا أبو عبد اللّه الحافظ، أخبرنى مكرم بن أحمد القاضى، حدثنا إبراهيم بن الهيثم البلدى[٤] ،حدثنا محمد بن كثير الصَّنْعانى، حدثنا معمر بن راشد، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة، رضى الله عنها، قالت: لما أسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى، أصبح يحدث الناس بذلك، فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدقوه، وسعوا بذلك إلى أبى بكر، فقالوا: هل لك فى صاحبك ؟ يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس! فقال: أو قال ذلك ؟ قالوا: نعم. قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق. قالوا: تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح ؟ قال: نعم، إنى لأصدقه بما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء فى غَدْوة أو رَوْحة. فلذلك سمى أبو بكر: الصديق ، رضى الله عنه[٥].

رواية أم هانئ بنت أبى طالب ، رضى الله عنها:

قال محمد بن إسحاق: حدثنى محمد بن السائب الكلبى، عن أبى صالح باذان، عن أم هانئ بنت أبى طالب [رضى الله عنها][٦] فى مسرى رسول اللّه ﷺ أنها كانت تقول: ما أسرى برسول اللّه ﷺ إلا وهو فى بيتى، نائم عندى تلك الليلة، فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبنا رسول اللّه ﷺ فلما صلى الصبح وصلينا معه قال:«يا أم هانئ، لقد صليت معكم العشاء الآخرة كما رأيت بهذا الوادى، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما ترين»[٧].

الكلبى: متروك بمرة ساقط، لكن رواه أبو يعلى فى مسنده عن محمد بن إسماعيل الأنصارى، عن ضَمْرَة بن ربيعة، عن يحيى بن أبى عمرو السيبانى[٨]،عن أبى صالح،عن أم هانئ بأبسط من هذا

---

(١) فى ت: « فثبت».

(٢) دلائل النبوة (٢/ ٤٠٤).

(٣) زيادة من ف، أ.

(٤) فى ت: «البكرى».

(٥) دلائل النبوة (٢/ ٣٦٠) وهو فى المستدرك (٣/ ٦٢) وقال: « هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

(٦) زيادة من أ.

(٧) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ٣) من طريق محمد بن إسحاق.

(٨) فى ت، ف، أ :« الشيبانى».

السياق، فليكتب ههنا[١].

وروى الحافظ أبو القاسم الطبرانى من حديث عبد الأعلى بن أبى المُسَاور، عن عكرمة، عن أم هانئ قالت: بات رسول اللّه ﷺ ليلة أسرى به فى بيتى، ففقدته من الليل، فامتنع منى النوم مخافة أن يكون عرض له بعض قريش، فقال رسول اللّه ﷺ: «إن جبريل، عليه السلام، أتانى فأخذ بيدى فأخرجنى، فإذا على الباب دابة دون البغل وفوق الحمار، فحملنى عليها، ثم انطلق حتى انتهى بى إلى بيت المقدس، فأرانى إبراهيم يشبه خلقه خلقي، ويشبه خلقي خلقه، وأرانى موسى آدم طويلاً سبط الشعر، شبهته برجال أزد شنوءة ، وأرانى عيسى ابن مريم رَبْعة أبيض يضرب إلى الحمرة، شبهته بعروة بن مسعود الثقفى، وأرانى الدجال ممسوح العين اليمنى، شبهته بِقَطَن بن عبد العزى»

(١) كذا ولم أجد فى النسخ إثباته، وقد رواه أبو يعلى فى معجم شيوخه برقم (١٠) قال: « حدثنا محمد بن إسماعيل الوساوسى، حدثنا ضمرة بن ربيعة، حدثنا يحيى بن أبى عمرو السيبانى، عن أبى صالح مولى أم هانئ، عن أم هانئ قالت: دَخَلَ علىّ رسول الله ﷺ بِغَلَس، فجلس، وأنا على فراشى، فقال: «شَعُرتِ أنى بِت الليلَة فى المسجد الحرام، فأتانى جبريل، فذهب بى إلى باب المسجد، فإذا بدابة أبيض، فوقَ الحمارِ، ودونَ البغل، مضطرب الأذنين، فركبت وكان يضع حافره مدَّ بصره، إذا أخذنى فى هبوطٍ طالت يداه وقَصُرت رجلاه، وإذا أخذنى فى صعودٍ طالت رجلاه وقَصُرت يداه، وجبريلُ لا يفوتنى، حتى انتهينا إلى بيت المقدس، فأوثقتُه بالحَلْقة التى كانت الأنبياء توثق بها، فنُشر لِى رهط من الأنبياء، منهم إبراهيم، وموسى، وعيسى، فصليت بهم، وكلّمتهم، وأُتيت بإناءين أحمر وأبيض، فشربت الأبيض، فقال لى جبريل: شربت اللبن، وتركت الخمر، لو شربت الخمر لارتدَّت أمتك. ثم ركبته، فأتيت المسجد الحرام وصليت به الغَدَاة» قالت: فعلقتُ بردائه: أنشدك الله يا ابن عمى! أن تحدثَ بهذا قريشاً، فيكذّبك من صدّقك. فضرب بيده على ردائه، فانتزعه من يدى، فارتفع عن بطنه، فنظرت إلى عُكَنه، فوق إزاره كأنها طى القراطيس، فإذا نورٌ ساطعٌ عند فؤاده، كاد يخطف بصرى، فخررت ساجدة، فلما رفعتُ رأسى إذا هو قد خرج، فقلت لجاريتى نَبْعَة: ويحكِ اتبعيه، فانظرى ماذا يقول، وماذا يقال له؟ فلما رجعت نَبْعَةُ، أخبرتنى أن رسول الله ﷺ انتهى إلى نفر من قريش، فى الحطيم، فيهم المطعم بن عَدِى، وعَمْرو بن هشام، والوليد بن المغيرة، فقال: «إنى صليت الليلة العشاء فى هذا المسجد، وصليت به الغَدَاة، وأتيتُ فيما دون ذلك بيت المقدس، فنُشر لى رهط من الأنبياء منهم إبراهيم، وموسى، وعيسى، وصليت بهم وكلّمتهم».

فقال عمرو بن هشام كالمستهزئ به: صِفْهم لى، فقال: «أما عيسى، ففوق الرَّبْعَة، ودون الطول، عريض الصدر، ظاهر الدم، جعد، أشعر تعلوه صُهبة، كأنه عروة بنَ مسعود الثَقَفى. وأما موسى، فضخم آدم، طُوالٌ، كأنه من رجال شَنوءة، متراكب الأسنان، مقلّص الشفة، خارج اللثة، عابس. وأما إبراهيم فوالله إنه لأشبه الناس بى، خَلْقاً، وخُلقاً». قال: فضجّوا، وأعظموا ذلك، فقال المطعم بن عدى: كل أمرك كان قبل اليوم، كان أَمَماً غير قولك اليوم، أمّا أنا، فأشهد أنك كاذب، نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس، نصعد شهراً، ونحدر شهراً، تزعم أنك أتيته فى ليلة، واللاتِ والعُزَّى لا أُصدِّقك، وما كان الذى تقول قَطُّ. وكان للمطعم بن عدى حوض على زمزم أعطاه إياه عبدُ المطلب، فهدمه وأقسم باللاتِ والعُزَّى لا يسقى قطرة أبداً، فقال أبو بكر: يا مطعم، بئسَ ما قلتَ لابن أخيك جبهتَه وكذبته، أنا أشهد أنه صادق، فقالوا: يا محمد، فصِفْ لنا بيت المقدس، قال: «دخلت ليلاً وخرجت منه ليلاً». فأتاه جبريل بصورته فى جناحه، فجعل يقول: «باب منه كذا، فى موضِعِ كذا، وباب منه كذا، فى موضع كذا»، وأبو بكر يقول: صدقت، قالت نَبْعة: فسمعت رسول الله ﷺ يقول يومئذ: «يا أبا بكر، إنى قد سمّيتك (الصديق)». قالوا: يا مطعم، دعنا نسأله عَمّا هو أغنى لنا من بيت المقدس. يا محمد، أخبرنا عن عيرنا، فقال: «أتيت على عير بنى فلان بالروحاء، قد أضلوا ناقةً لهم، فانطلقوا فى طلبها، فانتهيتُ إلى رحالهم، ليس بها منهم أحد، وإذا قدح ماء، فشربت منه، فاسألوهم عن ذلك» قالوا: هذه والإله آية. «ثم انتهيتُ إلى عير بنى فلان، فنفرتْ منى الإبلُ، وبرك منها جمل أحمر، عليه جوالق محيط ببياض، لا أدرى أكسر البعير، أم لا، فاسألوهم عن ذلك» قالوا: هذه والإله آية «ثم انتهيتُ إلى عير بنى فلان فى التنعيم، يقدُمها جمل أورق، وها هى ذه يطلع عليكم من الثنيّة». فقال الوليد بن المغيرة: ساحر، فانطلقوا فنظروا، فوجدوا الأمر كما قال. فرموه بالسحر، وقالوا: صدق الوليد بن المغيرة فيما قال، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠]. قلت لأم هانئ: ما الشجرة الملعونة فى القرآن؟ قالت: الذين خُوِّفوا فلم يزدهم التخويف إلا طغياناً وكفراً».

قال: «وأنا أريد أن أخرج إلى قريش فأخبرهم بما رأيت». فأخذت بثوبه فقلت: إنى أذكرك[١] اللَّه، إنك تأتى قوما يكذبونك وينكرون مقالتك، فأخاف أن يسطوا بك. قالت: فضرب ثوبه من يدى، ثم خرج إليهم فأتاهم وهم جلوس، فأخبرهم ما أخبرنى، فقام جبير بن مطعم فقال: يامحمد لو كنت شابا[٢] كما كنت، ما تكلمت بما تكلمت به وأنت بين ظهرانينا. فقال رجل من القوم: يامحمد، هل مررت بإبل لنا فى مكان كذا وكذا؟ قال: « نعم، واللَّه قد وجدتهم أضلوا بعيراً لهم فهم فى طلبه». قال: فهل مررت بإبل لبنى فلان ؟ قال: « نعم، وجدتهم فى مكان كذا وكذا ، وقد انكسرت[٣] لهم ناقة حمراء، وعندهم قصعة من ماء، فشربت ما فيها». قالوا: فأخبرنا عدتها وما فيها من الرعاة [قال: «قد كنت عن عدتها مشغولاً» .فنام فأوتى بالإبل فعدها وعلم ما فيها من الرعاة][٤] ثم أتى قريشاً فقال لهم: «سألتمونى عن إبل بنى فلان، فهى كذا وكذا، وفيها من الرعاة فلان وفلان، وسألتمونى عن إبل بنى فلان، فهى كذا وكذا، وفيها من الرعاة ابن أبى قحافة وفلان وفلان، وهى مصبحتكم من الغداة[٥] على الثنية». قال: فقعدوا[٦] على الثنية ينظرون أصدقهم ما قال؟ فاستقبلوا الإبل فسألوهم: هل ضل لكم بعير ؟ قالوا: نعم. فسألوا الآخر: هل انكسرت لكم ناقة حمراء؟ قالوا: نعم. قالوا: فهل كان عندكم قصعة؟ قال أبو بكر: أنا واللَّه وضعتها فما شربها أحد، ولا أهراقوه فى الأرض. فصدقه أبو بكر [رضى الله عنه][٧] وآمن به، فسمى يومئذ الصديق[٨] .

فصل

وإذا[٩] حصل الوقوف على مجموع هذه الأحاديث صحيحها وحسنها وضعيفها، يحصل مضمون ما اتفقت عليه من مسرى رسول اللَّه ﷺ من مكة إلى بيت المقدس، وأنه مرة واحدة ، وإن اختلفت عبارات الرواة فى أدائه، أو زاد بعضهم فيه أو نقص منه، فإن الخطأ جائز على من عدا الأنبياء، عليهم السلام . ومن جعل من الناس كل رواية خالفت الأخرى مرة على حدة، فأثبت إسراءات متعددة فقد أبعد وأغرب ، وهرب إلى غير مهرب ولم يحصل على مطلب .

وقد صرح بعضهم من المتأخرين بأنه، عليه السلام[١٠] ،أسرى به مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط، ومرة من مكة إلى السماء فقط، ومرة إلى بيت المقدس ومنه إلى السماء. وفرح بهذا المسلك، وأنه قد ظفر بشىء يخلص به من الإشكالات. وهذا بعيد جداً، ولم ينقل هذا عن أحد من السلف، ولو تعدد هذا التعدد لأخبر النبى ﷺ به أمته، ولنقلته[١١] الناس على التعدد والتكرر .

قال موسى بن عقبة ،عن الزهرى: كان الإسراء قبل الهجرة بسنة. وكذا قال عروة.

وقال السدى: بستة عشر شهراً.

والحق أنه، عليه السلام[١٢] ،أسرى به يقظة لا مناماً من مكة إلى بيت المقدس، راكباً البراق،

---

(١) فى ت: «أذكر». (٢) فى ت، ف: « أن لو كنت لك شابا». (٣) فى ت: « وقد كسرت».
(٤) زيادة من الخصائص الكبرى للسيوطى (١/ ٤٣٩).
(٥) فى ف: « بالغداة». (٦) فى ت، ف: « فغدوا». (٧) زيادة من ف، أ.
(٨) المعجم الكبير (٢٤/ ٤٣٢) وعبد الأعلى بن أبى المساور كذاب.
(٩) فى ف :« فإذا». (١٠) فى ف: « بانه صلى الله عليه وسلم». (١١) فى ت: « ولتعلمه».
(١٢) فى ف: « أنه صلى الله عليه وسلم».

فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب، ودخله فصلى فى قبلته تحية المسجد ركعتين. ثم أتى المعراج[(١)] ـ وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها ـ فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السموات السبع، فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم عليه الأنبياء[عليهم السلام][(٢)] الذين فى السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مرّ بموسى الكليم فى السادسة، وإبراهيم الخليل فى السابعة، ثم جاوز منزلتهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع[(٣)] فيه صريف الأقلام، أى: أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى، وغشيها من أمر اللّه، تعالى، عظمة عظيمة، من فراش من ذهب، وألوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هنالك جبريل على صورته، وله ستمائة جناح، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور[(٤)] وإبراهيم الخليل بانى الكعبة الأرضية مسندًا ظهره إليه؛ لأنه الكعبة السماوية يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة . ورأى الجنة والنار، وفرض اللّه[عز وجل][(٥)] عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس؛ رحمة منه ولطفاً بعباده. وفى هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها . ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ. ومن الناس من يزعم أنه أمهم فى السماء. والذى تظاهرت به الروايات أنه بيت المقدس، ولكن فى بعضها أنه كان أول[(٦)] دخوله إليه . والظاهر أنه بعد رجوعه إليه؛ لأنه لما مرّ بهم فى منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحداً واحداً وهو يخبره بهم، وهذا هو اللائق؛ لأنه كان أولاً مطلوباً إلى الجناب العلوى ليفرض عليه وعلى أمته مايشاء اللّه، تعالى. ثم لما فرغ من الذى أريد به، اجتمع هو وإخوانه من النبيين[صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين][(٧)] ثم أظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه فى الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام[(٨)] له فى ذلك. ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس، واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل، أو اللبن والخمر ، أو اللبن والماء، أو الجميع ـ فقد ورد أنه فى بيت المقدس، وجاء أنه فى السماء . ويحتمل أن يكون ههنا وههنا؛ لأنه كالضيافة للقادم، واللّه أعلم.

ثم اختلف الناس: هل كان الإسراء ببدنه عليه السلام[(٩)] وروحه؟ أو بروحه فقط؟ على قولين، فالأكثرون من العلماء على أنه أسرى ببدنه وروحه يقظة لا مناماً، ولا ينكر أن يكون رسول اللّه ﷺ رأى قبل ذلك مناماً، ثم رآه بعده يقظة؛ لأنه عليه السلام[(١٠)] كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح؛ والدليل على هذا قوله [عز وجل][(١١)] : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾، فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، ولو كان مناماً لم يكن فيه كبير شيء ولم يكن مستعظماً، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدّ جماعة ممن كان قد أسلم. وأيضاً فإن العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد،

---

(١) فى ت، ف: «بالمعراج». (٢) زيادة من ف. (٣) فى ت: « سمع»، وفى ف، أ: «فسمع».
(٤) فى ت، ف، أ: «المعمور الذى». (٥) زيادة من ف. (٦) فى ف، أ: «كان فى أول».
(٧) زيادة من ف، أ. (٨) فى ت: «عليه الصلاة والسلام». (٩) فى ف: « صلى الله عليه وسلم».
(١٠) فى أ: « صلى الله عليه وسلم» . (١١) زيادة من: ف، أ.

وقد قال[عز شأنه][١] : ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾وقد قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]، قال ابن عباس[رضى الله عنهما][٢] : هى رؤيا عين أريها رسول اللَّه ﷺ[ليلة أسرى به، والشجرة الملعونة: شجرة الزقوم][٣]. رواه البخارى. وقال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧]، والبصر من آلات الذات لا الروح. وأيضاً فإنه حمل على البراق، وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح؛ لأنها لا تحتاج فى حركتها إلى مركب تركب[٤] عليه، واللَّه أعلم.

وقال آخرون: بل أسرى برسول اللَّه ﷺ بروحه لا بجسده. قال محمد بن إسحاق بن يسار فى السيرة: حدثنى يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس؛ أن معاوية بن أبى سفيان [رضى الله عنهما][٥] كان إذا سئل عن مسرى رسول اللَّه ﷺ قال: كانت رؤيا من اللَّه صادقة.

وحدثنى بعض آل أبى بكر أن عائشة كانت تقول: ما فقد جسد رسول اللَّه ﷺ، ولكن أسرى بروحه.

قال ابن إسحاق: فلم ينكر ذلك من قولها، لقول الحسن: إن هذه الآية نزلت ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾، ولقول[٦] اللَّه فى الخبر عن إبراهيم: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾[الصافات: ١٠٢]، ثم مضى على ذلك. فعرفت أن الوحى يأتى للأنبياء من اللَّه أيقاظاً ونياما.

فكان[٧] رسول اللَّه ﷺ يقول: « تنام عيناى، وقلبى يقظان » فاللَّه أعلم أى ذلك كان قد جاءه، وعاين فيه من اللَّه ما عاين، على أى حالاته كان، نائماً أو يقظان، كل ذلك حق وصدق. انتهى كلام ابن إسحاق[٨].

وقد تعقبه أبو جعفر بن جرير فى تفسيره بالرد والإنكار والتشنيع، بأن هذا خلاف[٩] ظاهر سياق القرآن، وذكر من الأدلة على رده بعض ما تقدم [١٠]، واللَّه أعلم.

فائدة حسنة جليلة:

روى الحافظ أبو نُعَيم الأصبهانى فى كتاب «دلائل النبوة» من طريق محمد بن عمر الواقدى: حدثنى مالك بن أبى الرجال، عن عمرو بن عبد اللَّه، عن محمد بن كعب القرظى، قال: بعث رسول اللَّه ﷺ دَحْية بن خليفة إلى قيصر ـ فذكر وروده عليه وقدومه إليه. وفى السياق دلالة عظيمة على وُفُور عقل هرقل ـ ثم استدعى من بالشام من التجار، فجىء بأبى سفيان صخر بن حرب

(١، ٢) زيادة من ف، أ. (٣) زيادة من ت، ف، أ.
(٤) فى ف: «يركب». (٥) زيادة من ف، أ. (٦) فى ف: «وكقول».
(٧) فى ف: « وكان».
(٨) ذكره الطبرى فى تفسيره(١٥/ ١٣) بإسناده إلى ابن إسحاق.
(٩) فى ف: « اختلاف».
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ١٣، ١٤).

وأصحابه، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التى رواها البخارى ومسلم، كما سيأتى بيانه، وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمره ويصغره عنده. قال فى هذا السياق عن أبى سفيان: واللَّه ما يمنعنى أن أقول عليه قولاً أسقطه من عينه إلا أنى أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها علىّ، ولا يصدقنى بشىء. قال: حتى ذكرت قوله ليلة أسرى به قال: فقلت: أيها الملك، ألا أخبرك خبراً تعرف أنه قد كذب؟ قال: وما هو؟ قال: قلت: إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا ـ أرض الحرم ـ فى ليلة فجاء مسجدكم هذا ـ مسجد إيلياء، ورجع[١] إلينا تلك الليلة قبل الصباح. قال: وبَطْرِيقُ إيلياء عند رأس قيصر، فقال: بَطْرِيق إيلياء: قد علمت تلك الليلة، قال: فنظر[٢] قيصر، وقال: وما علمك بهذا؟ قال: إنى كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنى، فاستعنت عليه بعمالى ومن يحضرنى كلهم فعالجته فغلبنى، فلم نستطع أن نحركه، كأنما نزاول به جبلاً، فدعوت إليه النجاجرة، فنظروا إليه فقالوا: إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى. قال: فرجعت وتركت البابين مفتوحين. فلما أصبحت غدوت عليهما فإذا الحجر الذى فى زاوية الباب[٣] مثقوب، وإذا فيه أثر مربط الدابة قال: فقلت لأصحابى: ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبى، وقد صلى الليلة فى مسجدنا. وذكر تمام الحديث [٤].

فائدة:

قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دَحْيَة فى كتابه «التنوير فى مولد السراج المنير» وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس، وتكلم عليه فأجاد وأفاد ـ ثم قال: وقد تواترت الروايات فى حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب، وعلى[بن أبى طالب][٥] وابن مسعود، وأبى ذر، ومالك بن صعصعة، وأبى هريرة، وأبى سعيد، وابن عباس، وشداد بن أوس، وأبى بن كعب، وعبد الرحمن بن قُرْط، وأبى حبة وأبى ليلى الأنصاريين[٦]، وعبد اللَّه بن عمرو، وجابر، وحذيفة، وبريدة، وأبى أيوب، وأبى أمامة، وسمرة بن جُنْدُب، وأبى الحمراء، وصهيب الرومى، وأم هانئ، وعائشة وأسماء ابنتى أبى بكر الصديق، رضى اللَّه عنهم أجمعين. منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع فى المسانيد، وإن لم تكن[٧] رواية بعضهم على شرط الصحة، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون، واعترض فيه الزنادقة الملحدون[٨] ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)﴾.

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد، صلوات اللَّه وسلامه عليه[٩]، عطف بذكر موسى عبده

---

(١) فى ف: «فرجع». (٢) فى ف، أ: «فنظر إليه». (٣) فى ف، هـ: «المسجد».

(٤) ذكره السيوطى فى الدر المنثور(٥/ ٢٢٤) وعزاه لأبى نعيم فى الدلائل، ولم أجده فى المطبوع من الدلائل.

(٥) زيادة من ف. (٦) فى ت، ف: «الأنصارى». (٧) فى ف: «يكن».

(٨) فى ف: «والملحدون». (٩) فى ف: «صلى الله عليه وسلم».

وكليمه [عليه السلام][١] أيضاً، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام[٢] وبين ذكر التوراة والقرآن؛ ولهذا قال بعد ذكر الإسراء: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعنى التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أى الكتاب ﴿هُدًى﴾ أى هادياً ﴿لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا﴾ أى لئلا يتخذوا ﴿مِن دُونِي وَكِيلاً﴾ أى ولياً ولا نصيراً ولا معبوداً دونى؛ لأن اللَّه تعالى أنزل على كل نبى أرسله[٣] أن يعبده وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ تقديره: يا ذرية من حملنا مع نوح. فيه تهييج وتنبيه على المنة، أى: يا سلالة من نجينا فحملنا مع نوح فى السفينة، تشبهوا بأبيكم، ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فاذكروا أنتم نعمتى عليكم بإرسالى إليكم محمداً ﷺ. وقد ورد فى الحديث وفى الأثر عن السلف: أن نوحاً، عليه السلام، كان يحمد اللَّه [تعالى][٤] على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله؛ فلهذا سمى عبداً شكوراً .

قال الطبرانى: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان، عن أبى حُصَين، عن عبد اللَّه بن سنان، عن سعد بن مسعود الثقفى قال: إنما سمى نوح عبداً شكوراً؛ لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد اللَّه[٥].

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو أسامة، حدثنا زكريا بن أبى زائدة، عن سعيد بن أبى بُرْدَة، عن أنس بن مالك، رضى اللَّه عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إن اللَّه ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد اللَّه عليها».

وهكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى من طريق أبى أسامة، به[٦].

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: كان يحمد اللَّه على كل حال.

وقد ذكر البخارى هنا حديث أبى زُرْعَة، عن أبى هريرة[رضى الله عنه][٧]، عن النبى ﷺ قال: « أنا سيد الناس يوم القيامة ـ بطوله ، وفيه ـ: فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، أنت[٨] أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سماك اللَّه عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك » وذكر الحديث بكماله[٩].

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ

---

(١) زيادة من ف،أ. (٢) فى ت: « عليهما الصلاة والسلام». وفى ف، أ:«عليهما من الله الصلاة والسلام».
(٣) فى ت: « أرسل». (٤) زيادة من أ.
(٥) المعجم الكبير (٦/ ٣٢).
(٦) المسند (٣/ ١١٧)، وصحيح مسلم برقم (٢٧٣٤) وسنن الترمذى برقم (١٨١٦) وسنن النسائى الكبرى برقم(٦٨٩٩).
(٧) زيادة من ف، أ. (٨) فى ف، أ: «يا نوح، إنك أنت».
(٩) صحيح البخارى برقم(٤٧١٢).

نفيراً ⑥ إنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً ⑦ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً ⑧ ﴾ .

يقول تعالى: إنه قضى إلى بنى إسرائيل فى الكتاب، أى: تقدم إليهم وأخبرهم فى الكتاب الذى أنزله عليهم أنهم سيفسدون فى الأرض مرتين ويعلون[1] علواً كبيراً، أى: يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس كما قال تعالى: ﴿ **وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ** ﴾[الحجر: ٦٦] أى: تقدمنا إليه وأخبرناه بذلك وأعلمناه به.

وقوله: ﴿ **فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاهُمَا** ﴾ أى: أولى الإفسادتين ﴿**بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ**﴾ أى: سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولى بأس شديد، أى: قوة وعدة وسلطة[2] شديدة ﴿**فَجَاسُوا خِلالَ الدِّيَارِ** ﴾ أى: تملكوا بلادكم وسلكوا خلال بيوتكم، أى: بينها ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحداً ﴿**وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً**﴾ .

وقد اختلف المفسرون من السلف والخلف فى هؤلاء المسلطين عليهم: من هم ؟ فعن ابن عباس وقتادة: أنه جالوت الجزَرِىّ وجنوده، سلط عليهم أولاً، ثم أديلوا عليه بعد ذلك. وقتل داود جالوت؛ ولهذا قال: ﴿ **ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً**﴾ .

وعن سعيد بن جبير: أنه ملك الموصل سنجاريب وجنوده. وعنه أيضاً، وعن غيره: أنه بختنصر ملك بابل .

وقد ذكر ابن أبى حاتم له قصة عجيبة فى كيفية ترقيه من حال إلى حال، إلى أن ملك البلاد، وأنه كان فقيراً مقعداً ضعيفاً يستعطى الناس ويستطعمهم، ثم آل به الحال إلى ما آل، وأنه سار إلى بلاد بيت المقدس، فقتل بها خلقاً كثيراً من بنى إسرائيل.

وقد روى ابن جرير فى هذا المكان حديثاً أسنده عن حذيفة مرفوعاً مطولاً[3] ، وهو حديث موضوع لا محالة، لا يستريب فى ذلك من عنده أدنى معرفة بالحديث! والعجب كل العجب كيف راج عليه مع إمامته وجلالة قدره! وقد صرح شيخنا الحافظ العلامة أبو الحجاج المزى، رحمه الله، بأنه موضوع مكذوب، وكتب ذلك على حاشية الكتاب .

وقد وردت فى هذا آثار كثيرة إسرائيلية لم أر تطويل الكتاب بذكرها؛ لأن منها ما هو موضوع، من وضع [بعض][4] زنادقتهم، ومنها ما قد يحتمل أن يكون صحيحاً، ونحن فى غُنْيَة عنها، ولله الحمد. وفيما قص الله تعالى علينا فى كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم. وقد أخبر الله تعالى أنهم لما بغوا وطغوا سلط الله عليهم عدوهم، فاستباح بَيْضَتَهم، وسلك خلال بيوتهم وأذلهم وقهرهم، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد؛ فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء .

---

(١) فى ف، أ: « ولتعلن». (٢) فى ف: «وسلطنة».
(٣) تفسير الطبرى(١٥/ ١٧).
(٤) زيادة من ف، أ.

وقد روى ابن جرير: حدثنى يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: سمعت سعيد بن المسيب يقول: ظهر بُختنَصَّر على الشام، فخرب بيت المقدس وقتلهم، ثم أتى دمشق فوجد بها دماً يغلى على كبًا، فسألهم: ماهذا الدم؟ فقالوا: أدركنا آباءنا على هذا، وكلما ظهر عليه الكبا ظهر. قال: فقتل على ذلك الدم سبعين ألفاً من المسلمين وغيرهم، فسكن(١).

وهذا صحيح إلى سعيد بن المسيب، وهذا هو المشهور، وأنه قتل أشرافهم وعلماءهم، حتى إنه لم يبق من يحفظ التوراة، وأخذ معه خلقاً منهم أسرى من أبناء الأنبياء وغيرهم، وجرت أمور وكوائن يطول ذكرها. ولو وجدنا ماهو صحيح أو ما يقاربه، لجاز كتابته وروايته، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أى: فعليها، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت: ٤٦].

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ﴾ أى: المرة الآخرة(٢)، أى: إذا أفسدتم المرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أى: يهينوكم ويقهروكم ﴿ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ ﴾ أى بيت المقدس ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى: فى التى جاسوا فيها خلال الديار ﴿ وَلِيُتَبِّرُوا ﴾ أى: يدمروا ويخربوا ﴿ مَا عَلَوْا﴾ أى: ما ظهروا عليه ﴿ تَتْبِيرًا. عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ﴾ أى: فيصرفهم عنكم ﴿ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ أى: متى عدتم إلى الإفساد ﴿ عُدْنَا﴾ إلى الإدالة عليكم فى الدنيا مع ماندخره لكم فى الآخرة من العذاب والنكال، ولهذا قال[تعالى](٣): ﴿ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ أى: مستقراً ومحصراً وسجناً لا محيد لهم عنه.

قال ابن عباس [رضى الله عنهما](٤): ﴿حَصِيرًا ﴾ أى: سجناً.

وقال مجاهد: يحصرون فيها. وكذا قال غيره.

وقال الحسن: فراش ومهاد.

وقال قتادة: قد عاد بنو إسرائيل، فسلط الله عليهم هذا الحى، محمد ﷺ وأصحابه، يأخذون منهم الجزية عن يد وهم صاغرون.

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) ﴾.

يمدح تعالى كتابه العزيز الذى أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن، بأنه يهدى لأقوم الطرق، وأوضح السبل ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ به ﴿الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ على مقتضاه ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أى: يوم القيامة ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ﴾ أى: ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن﴿لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أى: يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

(١) تفسير الطبرى(١٥/ ٢٤).

(٢) فى ت: « الأخرى». (٣) زيادة من ت. (٤) زيادة من ف، أ.

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١) ﴾.

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان، ودعائه فى بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله ﴿بِالشَّرِّ﴾ أى: بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ [يونس: ١١]، وكذا فسره ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وقد تقدم فى هذا الحديث: « لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم، أن توافقوا من اللَّه ساعة إجابة يستجيب فيها ».

وإنما يحمل ابن آدم على ذلك عجلته وقلقه ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً﴾.

وقد ذكر سلمان الفارسى وابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ههنا قصة آدم، عليه السلام، حين همّ بالنهوض قائماً قبل أن تصل الروح إلى رجليه، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه، فلما وصلت إلى دماغه عطس، فقال: الحمد للّه. فقال اللّه: يرحمك ربك يا آدم. فلما وصلت إلى عينيه فتحهما، فلما سرت إلى أعضائه وجسده جعل ينظر إليه ويعجبه، فهمّ بالنهوض قبل أن تصل إلى رجليه فلم يستطع[(١)]، وقال: يارب عجل [(٢)] قبل الليل .

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢) ﴾.

يمتن تعالى على خلقه بآياته العظام، فمنها مخالفته بين الليل والنهار، ليسكنوا فى الليل وينتشروا فى النهار للمعايش والصناعات[(٣)] والأعمال والأسفار، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام، ويعرفوا مضى الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والإجارات وغير ذلك؛ ولهذا قال: ﴿لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أى: فى معايشكم[(٤)] وأسفاركم ونحو ذلك ﴿ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً وأسلوباً متساوياً لما عرف شىء من ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ . وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧١ ـ٧٣]، وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾[الفرقان: ٦١، ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [المؤمنون: ٨٠]، وقال: ﴿يُكَوِّرُ[(٥)] اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾[الزمر: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾[الأنعام: ٩٦]، وقال

(١) فى ت: « قبل أن يستطيع». (٢) فى ت، ف: « اعجل». (٣) فى ت، ف، أ: « والصنائع».
(٤) فى ت، ف: « معاشكم». (٥) فى ت: « ويكور» وهوخطأ.

تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧، ٣٨].

ثم إنه تعالى جعل لليل آية، أى: علامة يعرف بها[١] وهى الظلام وظهور القمر فيه ، وللنهار علامة، وهى النور وظهور[٢] الشمس النيرة فيه، وفاوت بين ضياء القمر وبرهان الشمس ليعرف هذا من هذا، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ إلى قوله: ﴿ لَآيَاتٍ [٣] لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥، ٦]،كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ الآية [البقرة: ١٨٩] .

قال ابن جُرَيْج، عن عبد اللّه بن كثير فى قوله: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ قال: ظلمة الليل وسُدفة[٤] النهار .

وقال ابن جريج عن مجاهد :الشمس آية النهار، والقمر آية الليل ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ﴾ قال: السواد الذى فى القمر ،وكذلك [٥] خلقه اللّه تعالى.

وقال ابن جريج: قال ابن عباس: كان القمر يضىء كما تضىء الشمس، والقمر آية الليل، والشمس آية النهار ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾: السواد الذى فى القمر.

وقد روى أبو جعفر بن جرير من طرق متعددة جيدة: أن ابن الكوَّاء سأل [أمير المؤمنين][٦] على ابن أبى طالب فقال: يا أمير المؤمنين، ما هذه اللطخة التى فى القمر ؟ فقال: ويحك. أما تقرأ القرآن؟ ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ فهذه محوه .

وقال قتادة فى قوله :﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ ﴾: كنا نحدث أن[٧] محو آية الليل سواد القمر الذى فيه، وجعلنا آية النهار مبصرة، أى: منيرة، خلق الشمس أنور من القمر وأعظم.

وقال ابن أبى نجيح عن ابن عباس :﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ قال: ليلاً ونهاراً، كذلك خلقهما اللّه، عز وجل [٨].

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾.

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بنى آدم: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وطائره: هو ما طار عنه من عمله، كما قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: من خير وشر، يُلزم به ويجازى عليه ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٥، ٦]، وقال تعالى :﴿ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ . مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق: ١٧،

(١) فى ت: « يعرفونها».
(٢) فى ت، ف: «وطلوع».
(٣) فى ف، أ: ﴿إن فى ذلك لآيات﴾ وهو خطأ.
(٤) فى ت، ف، أ: « وسدف».
(٥) فى ف: « ولذلك».
(٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى ت: « ما نجد كان».
(٨) فى ف: « الله تعالى».

١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ . إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ. وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٠ـ ١٤]، قال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، وقال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه، قليله وكثيره، ويكتب عليه ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساء.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لَهيعة، عن أبى الزبير، عن جابر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لَطَائر كل إنسان فى عنقه ». قال ابن لهيعة: يعنى الطيرة[١].

وهذا القول من ابن لهيعة فى تفسير هذا الحديث، غريب جداً، والله أعلم.

وقوله[تعالى][٢]: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ أى: نجمع له عمله كله فى كتاب يعطاه يوم القيامة، إما بيمينه إن كان سعيداً، أو بشماله إن كان شقياً ﴿مَنشُورًا﴾ أى: مفتوحاً يقرؤه هو وغيره، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ . بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ . وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٣ ـ ١٥]، ولهذا قال تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ أى: إنك[٣] تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك غير ما عملت؛ لأنك ذكرت جميع ما كان منك، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمى.

وقوله [تعالى][٤]: ﴿أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ إنما ذكر العنق؛ لأنه عضو لا نظير له فى[٥] الجسد، ومن ألزم بشىء فيه فلا محيد له عنه، كما قال الشاعر[٦]:

اذهب بها اذهب بها طوقتها طوق الحمامة

قال قتادة، عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنه[٧]، عن نبى الله ﷺ أنه قال: « لا عَدْوَى ولا طيرَة وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ». كذا رواه ابن جرير[٨].

وقد رواه الإمام عبد بن حميد، رحمه الله، فى مسنده متصلاً، فقال: حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، عن أبى الزبير، عن جابر [رضى الله عنه][٩] قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «طير كل عبد فى عنقه»[١٠].

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن إسحاق، حدثنا عبد الله، حدثنا ابن لهيعة، حدثنى يزيد: أن أبا الخير حدثه: أنه سمع عقبة بن عامر [رضى الله عنه][١١] يحدث عن النبى ﷺ قال: « ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه، فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة: ياربنا، عبدك فلان، قد حبسته؟ فيقول الرب جل جلاله: اختموا له على مثل عمله، حتى يبرأ أو يموت»[١٢].

---

(١) المسند (٣/ ٣٦٠)، وقال الهيثمى فى المجمع(٧/ ٤٩): « فيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح».
(٢) زيادة من ت. (٣) فى ت، ف: « أى أنت». (٤) زيادة من ت. (٥) فى ت، أ: « من».
(٦) هو أبو أحمد بن جحش، والأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٠٠).
(٧) فى ف، أ: « عنهما».
(٨) تفسير الطبرى (١٥/ ٣٩).
(٩) زيادة من ف، أ.
(١٠) المنتخب لعبد بن حميد برقم(١٠٥٣).
(١١) زيادة من ف، أ.
(١٢) المسند (٤/ ١٤٦).

إسناده جيد قوى، ولم يخرجوه.

وقال مَعْمَر، عن قتادة: ﴿ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِه ﴾ قال: عمله. ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَة ﴾ قال: نخرج ذلك العمل ﴿كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ قال معمر: وتلا الحسن البصرى ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧] يا ابن آدم، بسطت لك صحيفتك[١]، ووكل بك ملكان كريمان، أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك، فاعمل[٢] ما شئت، أقلل أو أكثر، حتى إذا مت طويت صحيفتك فجعلت فى عنقك معك فى قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ قد عدل ـ والله [٣] ـ عليك من جعلك حسيب نفسك.

هذا من حسن[٤] كلام الحسن، رحمه الله.

﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) ﴾.

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى آثار النبوة، فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة[٥] لنفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ أى: عن الحق، وزاغ عن سبيل الرشاد، فإنما يجنى على نفسه، وإنما يعود وبال ذلك عليه.

ثم قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أى: لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يجنى جانٍ إلا على نفسه، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾[فاطر:١٨].

ولا منافاة بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقوله[تعالى][٦]، ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[النحل: ٢٥]، فإن الدعاة عليهم إثم ضلالهم فى أنفسهم، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك، ولا يحملوا عنهم شيئاً. وهذا من عدل الله ورحمته بعباده.

وكذا قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ. قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك:٨، ٩]، وكذا قوله[تعالى][٧]: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[الزمر: ٧١]، وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا

(١) فى ت، ف، أ: «صحيفة». (٢) فى ت، ف، أ: «فاملك». (٣) فى ت، ف، أ: «الله»
(٤) فى ف: «أحسن». (٥) فى ف: «الحمد». (٦، ٧) زيادة من ت.

نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[فاطر: ٣٧] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن اللّه تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه ، ومن ثم طعن جماعة من العلماء فى اللفظة التى جاءت مقحمة فى صحيح البخارى عند قوله تعالى: **﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾** [الأعراف: ٥٦].

حدثنا عبيد اللّه بن سعد، حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن صالح بن كَيْسَان، عن الأعرج بإسناده إلى[١] أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: « اختصمت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال: «وأما الجنة فلا يظلم اللّه من خلقه أحداً، وأنه ينشئ للنار خلقاً فيلقون فيها، فتقول: هل من مزيد؟[٢]» ثلاثا ، وذكر تمام الحديث[٣].

فإن هذا إنما جاء فى الجنة لأنها دار فضل ، وأما النار فإنها دار عدل، لا يدخلها أحد إلا بعد الإعذار إليه وقيام الحجة عليه. وقد تكلم جماعة من الحفاظ فى هذه اللفظة[٤] وقالوا: لعله انقلب على الراوى بدليل ما أخرجاه فى الصحيحين واللفظ للبخارى من حديث عبد الرزاق[٥] ،عن مَعْمَر، عن همام، عن أبى هريرة قال: قال النبى[٦] ﷺ :« تحاجت الجنة والنار » فذكر الحديث إلى أن قال: «فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع فيها قدمه، فتقول: قط ،قط، فهنالك تمتلئ ويزوى[٧] بعضها إلى بعض، ولا يظلم اللّه من خلقه أحداً ، وأما الجنة فينشئ الله لـها خلقاً » [٨].

بقى ههنا مسألة قد اختلف الأئمة[٩] ،رحمهم اللّه تعالى، فيها[١٠] قديماً وحديثاً وهى: الولدان الذين ماتوا وهم صغار وآباؤهم كفار، ماذا حكمهم؟ وكذا المجنون والأصم والشيخ الخرف، ومن مات فى الفَتْرة ولم تبلغه[١١] الدعوة. وقد ورد فى شأنهم أحاديث أنا ذاكرها لك بعون اللّه [تعالى][١٢] وتوفيقه ثم نذكر فصلاً ملخصاً من كلام الأئمة فى ذلك، واللّه[١٣] المستعان .

فالحديث الأول : عن الأسود بن سَرِيع:

قال الإمام أحمد: حدثنا على بن عبد اللّه، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبى، عن قتادة، عن الأحنف بن قيس، عن الأسود بن سريع[رضى الله عنه][١٤] أن نبى الله ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة:رجل أصم لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هَرَم ، ورجل مات فى فترة ، فأما الأصم فيقول: رب، قد[١٥] جاء الإسلام وما أسمع شيئاً ، وأما الأحمق فيقول: رب، لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفونى[١٦] بالبعر ، وأما الهَرَمُ فيقول: رب، لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً،

---

(١) فى ت ، ف، أ:« عن». (٢) فى ت، ف، أ: «هل من مزيد؟ ويلقون فيها فتقول: هل من مزيد».
(٣) صحيح البخارى برقم (٧٤٤٩).
(٤) فى ت: « الفظلة» وهو خطأ. (٥) فى ت: « وعبد الرزاق». (٦) فى ف:« قال رسول الله».
(٧) فى ف: « وينزوى».
(٨) صحيح البخارى برقم(٤٨٥٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٤٦).
(٩) فى أ: « العلماء». (١٠) فى ف: « اختلف العلماء فيها». (١١) فى ت: « ومن لم تبلغه».
(١٢) زيادة من ت، ف. (١٣) فى ت، ف، أ: « و بالله». (١٤) زيادة من ف، أ.
(١٥) فى ف: « لقد». (١٦) فى ت:«يقذفونى».

وأما الذى مات فى الفترة فيقول: رب، ما أتانى لك رسول . فيأخذ مواثيقهم لَيُطعنّه[(١)] فيرسل إليهم أن ادخلوا النار ، فوالذى نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً »[(٢)] .

وبالإسناد عن قتادة، عن الحسن، عن أبى رافع، عن أبى هريرة ،مثل هذا الحديث غير أنه قال فى آخره :« من[(٣)] دخلها كانت عليه برداً وسلاماً، ومن لم يدخلها يسحب إليها»[(٤)] .

وكذا رواه إسحاق بن راهويه، عن معاذ بن هشام، ورواه البيهقى فى كتاب الاعتقاد، من حديث حنبل[(٥)] بن إسحاق، عن على بن عبد اللّه المدينى،به[(٦)] .وقال: هذا إسناد صحيح ، وكذا رواه حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن أبى رافع، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أربعة كلهم يدلى على اللّه بحجة » فذكر نحوه[(٧)] .

ورواه ابن جرير، من حديث مَعْمَر، عن همام، عن أبى هريرة، فذكره موقوفاً ، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾[(٨)] .

وكذا رواه معمر عن عبد اللّه بن طاوس ،عن أبيه ،عن أبى هريرة موقوفاً .

الحديث الثانى: عن أنس بن مالك:

قال أبو داود الطيالسى: حدثنا الربيع، عن يزيد بن أبان[(٩)] قال: قلنا لأنس: يا أبا حمزة، ما تقول فى أطفال المشركين ؟ فقال: قال رسول اللّه ﷺ: «لم يكن لهم سيئات فيعذبوا[(١٠)] بها فيكونوا من أهل النار ، ولم يكن لهم حسنات فيجازوا بها فيكونوا من ملوك أهل الجنة هم من خدم أهل الجنة»[(١١)] .

الحديث الثالث : عن أنس أيضاً:

قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خَيْثَمَةَ، حدثنا جرير، عن لَيْث، عن عبد الوارث، عن أنس قال: قال رسول اللّه ﷺ: «يؤتى بأربعة يوم القيامة: بالمولود، والمعتوه، ومن مات فى الفَتْرَة، والشيخ الفانى الهم، كلهم يتكلم بحجته، فيقول الرب تبارك وتعالى لعنق من النار: ابرز. ويقول لهم: إنى كنت أبعث إلى عبادى رسلاً من أنفسهم، وإنى رسول نفسى إليكم ادخلوا هذه. قال: فيقول من كتب عليه الشقاء: يارب، أنى ندخلها ومنها كنا نفر ؟ قال: ومن كتبت عليه السعادة يمضى فيقتحم فيها مسرعاً، قال: فيقول اللّه تعالى: أنتم لرسلى أشد تكذيباً ومعصية، فيدخل هؤلاء الجنة، وهؤلاء النار» .

---

(١) فى ت، ف: « لتطيعنه».

(٢) المسند (٤/ ٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢١٦): « رجاله رجال الصحيح».

(٣) فى ف : «فمن».

(٤) المسند(٤/ ٢٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢١٦): «رجاله رجال الصحيح».

(٥) فى ف، أ: « أحمد». (٦) الاعتقاد (ص ١٦٩).

(٧) رواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٤٠٤) من طريق الحسن بن موسى، عن حماد بن سلمة به .

(٨) تفسير الطبرى (١٥/ ٤١)

(٩) فى ف: « زيد هو أبان». (١٠) فى ت: « ليعذبوا».

(١١) رواه أبو نعيم فى الحلية (٦/ ٣٠٨) من طريق سفيان الثورى، عن الربيع بن صبيح به، وضعفه الحافظ ابن حجر فى الفتح (٣/ ٢٤٦) وله شواهد من حديث أبى سعيد الخدرى، وسمرة بن جندب رضى الله عنهما. وكأن فى متن الحديث نكارة لمخالفته ما ورد فى الصحيحين أولاً، ولأن الله وصف خدم أهل الجنة بالخلود فقال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان:١٩] وسيأتى تضعيف الحافظ ابن كثير له، والله تعالى أعلم.

وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البزار، عن يوسف بن موسى، عن جرير بن عبد الحميد، بإسناده مثله[١].

الحديث الرابع: عن البراء بن عازب، رضى الله عنه:

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده أيضاً: حدثنا قاسم بن أبى شيبة، حدثنا عبد الله ـ يعنى ابن داود ـ عن عمر بن ذر، عن يزيد بن أمية، عن البراء قال: سُئل رسول الله ﷺ عن أطفال المسلمين قال: «هم مع آبائهم». وسئل عن أولاد المشركين فقال: «هم مع آبائهم». فقيل: يارسول الله، ما يعملون؟ قال: «الله أعلم بهم»[٢].

ورواه عمر بن ذر، عن يزيد بن أمية، عن رجل، عن البراء، عن عائشة، فذكره[٣].

الحديث الخامس: عن ثوبان:

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى، حدثنا ريحان بن سعيد، حدثنا عباد بن منصور، عن أيوب، عن أبى قلَابة، عن أبى أسماء، عن ثوبان؛ أن النبى ﷺ عظَّم شأن المسألة، قال: «إذا كان يوم القيامة، جاَء أهل الجاهلية يحملون أوثانهم على ظهورهم فيسألهم ربهم، فيقولون: ربنا لم ترسل إلينا رسولاً، ولم يأتنا لك أمر، ولو أرسلت إلينا رسولاً لكنا أطوع عبادك، فيقول لهم ربهم: أرأيتم إن أمرتكم بأمر تطيعونى؟ فيقولون: نعم، فيأمرهم[٤] أن يعمدوا إلى جهنم فيدخلوها، فينطلقون حتى إذا دنوا منها وجدوا لها تغيظاً وزفيراً، فرجعوا إلى ربهم فيقولون: ربنا أخرجنا ـ أو: أجرنا ـ منها، فيقول لهم: ألم تزعموا أنى إن أمرتكم بأمر تطيعونى؟ فيأخذ على ذلك مواثيقهم. فيقول: اعمدوا إليها، فادخلوها. فينطلقون حتى إذا رأوها فَرِقوا ورجعوا، فقالوا: ربنا فَرِقنا منها، ولا نستطيع أن ندخلها. فيقول: ادخلوها داخرين». فقال نبى الله ﷺ: «لو دخلوها أول مرة كانت عليهم برداً وسلاماً». ثم قال البزار: ومتن هذا الحديث غير معروف إلا من هذا الوجه، لم يروه عن أيوب إلا عباد، ولا عن عباد إلا ريحان بن سعيد[٥].

قلت: وقد ذكره ابن حبان فى ثقاته، وقال يحيى بن معين والنسائى: لا بأس به، ولم يرضه أبو داود. وقال أبو حاتم: شيخ لا بأس به يكتب حديثه ولا يحتج به.

الحديث السادس: عن أبى سعيد ـ سعد بن مالك بن سنان الخدرى:

قال الإمام محمد بن يحيى الذُّهَلى: حدثنا سعيد بن سليمان، عن فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «الهالك فى الفترة والمعتوه والمولود: يقول الهالك

---

(١) مسند أبى يعلى(٧/ ٢٢٥) ومسند البزار برقم (٢١٧٧) «كشف الأستار» وليث بن أبى سليم ضعيف، وعبد الوارث قال عنه البخارى: «منكر الحديث».

(٢) وذكره المؤلف فى جامع المسانيد والسنن (٣٧/ ٨٧) من مسند أبى يعلى، ولم أقع عليه فى المطبوع من المسند.

(٣) لم أقع على هذا الطريق، ولعلى أستدركه فيما بعد ـ إن شاء الله. وروى الإمام أحمد فى مسنده (٦/ ٨٤) من طريق بهية عن عائشة نحوه.

(٤) فى ت: «فأمرهم».

(٥) مسند البزار برقم (٣٤٣٣) «كشف الأستار».

فى الفترة: لم يأتنى كتاب ، ويقول المعتوه: رب، لم تجعل لى عقلاً أعقل به خيراً ولا شراً ، ويقول المولود: رب لم أدرك العقل فترفع[١] لهم نار فيقال لهم[٢] :ردوها» ، قال: فيردها من كان فى علم اللَّه سعيداً لو أدرك العمل ، ويمسك عنها من كان فى علم اللَّه شقياً لو أدرك العمل ، فيقول: إياى عصيتم، فكيف لو أن رسلى أتتكم ؟ ».

وكذا رواه البزار، عن محمد بن عمر بن هَيَّاج الكوفى، عن عبيد اللَّه[٣] بن موسى، عن فضيل ابن مرزوق، به[٤] .ثم قال: لا يعرف من حديث أبى سعيد إلا من طريقه، عن عطية عنه ، وقال فى آخره :« فيقول اللَّه: إياى عصيتم فكيف برسلى بالغيب؟ » .

الحديث السابع: عن معاذ بن جبل، رضى اللَّه عنه:

قال هشام بن عَمَّار ومحمد بن المبارك الصورى[٥] :حدثنا عمر بن واقد، عن يونس بن حلبس، عن أبى إدريس[٦] الخولانى، عن معاذ بن جبل، عن نبى اللَّه ﷺ قال: « يؤتى يوم القيامة بالممسوخ عقلاً، وبالهالك فى الفترة، وبالهالك صغيراً. فيقول الممسوخ: يارب، لو آتيتنى عقلاً ماكان[٧] من آتيته عقلاً بأسعد منى ـ وذكر فى الهالك فى الفترة والصغير نحو ذلك ـ فيقول الرب عز وجل: إنى آمركم بأمر فتطيعونى ؟ فيقولون: نعم، فيقول: اذهبوا فادخلوا النار ـ قال: ولو دخلوها ما ضرّتهم ـ فتخرج عليهم قوابص، فيظنون أنها قد أهلكت ما خلق اللَّه من شىء، فيرجعون سراعاً، ثم يأمرهم الثانية فيرجعون كذلك، فيقول الرب عزّ وجل: قبل أن أخلقكم علمت ما أنتم عاملون، وعلى علمى خلقتكم، وإلى علمى تصيرون ، ضميهم ، فتأخذهم النار»[٨].

الحديث الثامن : عن أبى هريرة ، رضى اللَّه عنه:

قد تقدم روايته مندرجة مع رواية الأسود بن سريع، رضى اللَّه عنه:

وفى الصحيحين، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه، أن رسول اللَّه ﷺ قال: « كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه ويُنَصِّرَانه ويُمَجِّسانه، كما تنتج[٩] البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ »[١٠].

وفى رواية قالوا: يارسول اللَّه، أفرأيت من يموت صغيراً؟ قال: «اللَّه أعلم بما كانوا عاملين»[١١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا عبد الرحمن بن ثابت، عن عطاء بن قُرَّة، عن عبد اللَّه بن ضمرة، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه، عن النبى ﷺ ـ فيما أعلم، شك موسى ـ قال:

---

(١) فى ف : «فرفع». (٢) فى ت: « فيقول لهم». (٣) فى ت: «عبد الله».

(٤) مسند البزار برقم (٢١٧٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢١٦) « فيه عطية وهو ضعيف».

(٥) فى ت: « الغورى». (٦) فى ت: « عن أبى ذر». (٧) فى ت: « ما مات».

(٨) ورواه ابن عدى فى الكامل (٥/ ١١٨) من طريق عبد الصمد بن عبد الله، عن هشام بن عمار، عن عمرو بن واقد به. وقال بعد أن ساق أحاديث عمرو بن واقد عن يونس:« كلها غير محفوظة إلا من رواية عمرو بن واقد عن يونس، عن أبى إدريس، عن معاذ ابن جبل وهو من الشاميين ممن يكتب حديثه ولا يحتج به».

(٩) فى ت، ف: «تولد».

(١٠) صحيح البخارى برقم (١٣٨٥) وصحيح مسلم برقم(٢٦٥٨).

(١١) الرواية فى صحيح مسلم برقم (٢٦٥٨).

«ذرارى المسلمين فى الجنة ، يكفلهم إبراهيم عليه السلام[١]»[٢].

وفى صحيح مسلم، عن عياض بن حمار، عن رسول الله ﷺ، عن الله، عز وجل، أنه قال: «إنى خلقت عبادى حنفاء»[٣]. وفى رواية لغيره «مسلمين».

الحديث التاسع: عن سمرة ، رضى الله عنه:

رواه الحافظ أبو بكر البرقانى فى كتابه «المستخرج على البخارى» من حديث عوف الأعرابى، عن أبى رجاء العطاردى، عن سَمُرَة ، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «كل مولود يولد على الفطرة» فناداه الناس: يارسول الله ، وأولاد المشركين؟ قال : «وأولاد المشركين»[٤].

وقال الطبرانى: حدثنا عبد الله بن أحمد، حدثنا عقبة بن مكرم الضَّبِّى، عن عيسى بن شعيب، عن عباد بن منصور، عن أبى رَجَاء، عن سمرة قال: سألنا رسول الله ﷺ عن أطفال المشركين فقال: «هم خدم أهل الجنة»[٥].

الحديث العاشر : عن عم حسناء[٦]:

قال: [الإمام][٧] أحمد: [حدثنا إسحاق، يعنى الأزرق][٨]، أخبرنا رَوْح، حدثنا عوف، عن حسناء[٩] بنت معاوية من بنى صريم قالت: حدثنى عمى قال: قلت: يارسول الله، من فى الجنة ؟ قال : «النبى فى الجنة ، والشهيد فى الجنة ، والمولود فى الجنة ، والوئيد فى الجنة »[١٠].

فمن العلماء من ذهب إلى التوقف[١١] فيهم لهذا الحديث، ومنهم من جزم لهم بالجنة، لحديث سَمُرة بن جندب فى صحيح البخارى: أنه عليه الصلاة والسلام[١٢] قال فى جملة ذلك المنام، حين مرّ على ذلك الشيخ تحت الشجرة وحوله ولدان، فقال له جبريل: هذا إبراهيم، عليه السلام، وهؤلاء أولاد المسلمين وأولاد المشركين ، قالوا: يارسول الله، وأولاد المشركين؟ . قال «نعم، وأولاد المشركين »[١٣].

ومنهم من جزم لهم بالنار، لقوله عليه السلام[١٤] : « هم مع آبائهم ».

ومنهم من ذهب إلى أنهم يمتحنون يوم القيامة فى العَرَصَات، فمن أطاع دخل الجنة وانكشف علم الله فيهم بسابق السعادة، ومن عصى دخل النار داخراً، وانكشف علم الله فيه بسابق[١٥] الشقاوة.

---

(١) فى ت: «عليه الصلاة والسلام».

(٢) المسند(٢/ ٣٢٦) وقال الهيثمى فى المجمع(٧/ ٢١٩): « فيه عبد الرحمن بن ثابت وثقه ابن المدينى وجماعة، وضعفه ابن معين وغيره، وبقية رجاله ثقات».

(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥).

(٤) أصله فى صحيح البخارى برقم (٧٠٤٧) من طريق عوف به نحوه.

(٥) المعجم الكبير (٧/ ٢٤٤) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢١٩): «وفيه عبادة بن منصور وثقة يحيى القطان وفيه ضعف».

(٦) فى ت، ف، أ: « خنساء».

(٧) زيادة من ت، أ.

(٨) زيادة من ف، أ، والمسند.

(٩) فى ت، ف، أ: « خنساء».

(١٠) المسند(٥/ ٥٨) وقال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٣/ ٢٤٦): « إسناده حسن».

(١١) فى ت، ف، أ: «الوقف».

(١٢) فى ف، أ: «صلى الله عليه وسلم».

(١٣) صحيح البخارى برقم (٧٠٤٧).

(١٤) فى ت: « عليه الصلاة والسلام» ، وفى ف، أ: « صلى الله عليه وسلم».

(١٥) فى ت، ف، أ: « بتقدم».

وهذا القول يجمع بين الأدلة كلها، وقد صرحت به الأحاديث المتقدمة المتعاضدة الشاهد بعضها لبعض. وهذا القول هو الذى حكاه الشيخ أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى، رحمه الله، عن أهل السنة والجماعة، وهو الذى نصره الحافظ أبو بكر البيهقى فى «كتاب الاعتقاد» وكذلك غيره من محققى العلماء والحفاظ النقاد.

وقد ذكر الشيخ أبو عمر بن عبد البر النَّمَرى بعد ماتقدم من أحاديث الامتحان، ثم قال: وأحاديث هذا الباب ليست قوية، ولا تقوم بها حجة وأهل العلم ينكرونها؛ لأن الآخرة دار جزاء وليست دار عمل ولا ابتلاء، فكيف يكلفون دخول النار وليس ذلك فى وسع المخلوقين، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها ؟!

والجواب عما قال: أن أحاديث هذا الباب منها ما هو صحيح، كما قد نص على ذلك غير واحد من أئمة العلماء، ومنها ما هو حسن، ومنها ماهو ضعيف يقوى[1] بالصحيح والحسن. وإذا كانت أحاديث الباب الواحد متعاضدة على هذا النمط، أفادت الحجة عند الناظر فيها ، وأما قوله: «إن الآخرة دار جزاء»، فلا شك أنها دار جزاء، ولا ينافى التكليف فى عرصاتها قبل دخول الجنة أو النار، كما حكاه الشيخ أبو الحسن الأشعرى عن مذهب أهل السنة والجماعة، من امتحان الأطفال، وقد قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ ﴾[ن:٤٢]، وقد ثبتت السنة فى الصحاح[2] وغيرها: أن المؤمنين يسجدون لله يوم القيامة، وأما المنافق فلا يستطيع ذلك ويعود ظهره طبقاً واحداً كلما أراد السجود[3] خَرَّ لقفاه[4].

وفى الصحيحين فى الرجل الذى يكون آخر أهل النار خروجاً منها أن الله يأخذ عهوده ومواثيقه ألاّ يسأل غير ماهو فيه، ويتكرر ذلك مراراً، ويقول الله تعالى: يا ابن آدم، ما أغدرك! ثم يأذن له فى دخول الجنة[5].

وأما قوله: «وكيف يكلفهم[6] دخول النار، وليس ذلك فى وسعهم؟» فليس هذا بمانع من صحة الحديث، فإن الله يأمر العباد يوم القيامة بالجواز على الصراط، وهو جسر على جهنم أحدّ من السيف وأدق من الشعرة، ويمر المؤمنون عليه بحسب أعمالهم، كالبرق، وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، ومنهم الساعى ومنهم الماشى، ومنهم من يحبو حبواً، ومنهم المكدوش على وجهه فى النار ، وليس ماورد فى أولئك بأعظم من هذا بل هذا أطم وأعظم ، وأيضاً فقد ثبتت السنة بأن الدجال يكون معه جنة ونار ، وقد أمر الشارع المؤمنين الذين يدركونه أن يشرب أحدهم من الذى يرى أنه نار، فإنه يكون عليه برداً وسلاماً، فهذا نظير ذلك ، وأيضاً فإن الله تعالى[قد][7] أمر بنى إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم، فقتل بعضهم بعضاً حتى قتلوا فيما قيل فى غداة واحدة سبعين ألفاً، يقتل الرجل أباه وأخاه وهم فى عماية غمامة أرسلها الله عليهم، وذلك عقوبة لهم على عبادتهم العجل، وهذا أيضاً شاق على النفوس جداً لايتقاصر[8] عما ورد فى الحديث المذكور، والله أعلم .

---

(١) فى ف، أ: « يتقوى». (٢) فى ت: « والصحاح». (٣) فى ف: « سجودًا».

(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٤٩١٩) من حديث أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه.

(٥) صحيح البخارى برقم (٨٠٦) وصحيح مسلم برقم (١٨٢) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

(٦) فى ت، ف: « كلفهم الله»، وفى أ: «يكفهم الله النار». (٧) زيادة من ت، ف، أ. (٨) فى ف: «لاتتقاصر».

فصل

فإذا تقرر هذا ،فقد اختلف الناس فى ولدان المشركين على أقوال:

أحدها : أنهم فى الجنة، واحتجوا بحديث سَمُرَة أنه، عليه السلام[١] ،رأى مع إبراهيم أولاد المسلمين وأولاد المشركين وبما تقدم فى[٢] رواية أحمد عن حسناء[٣] ،عن عمها أن رسول اللّه ﷺ قال: «والمولود فى الجنة». وهذا استدلال صحيح، ولكن أحاديث الامتحان أخص منه . فمن علم اللّه[عز وجل][٤] منه أنه يطيع جعل[٥] روحه فى البرزخ مع إبراهيم وأولاد المسلمين الذين ماتوا على الفطرة ، ومن علم منه أنه لا يجيب، فأمره إلى اللّه تعالى، ويوم القيامة يكون فى النار كما دلت عليه أحاديث الامتحان، ونقله الأشعرى عن أهل السنة [والجماعة][٦]، ثم من هؤلاء القائلين بأنهم فى الجنة من يجعلهم مستقلين فيها، ومنهم من يجعلهم خدماً لهم، كما جاء فى حديث على بن زيد، عن أنس، عند أبى داود الطيالسى [٧] .وهو ضعيف، واللّه أعلم .

القول الثانى: أنهم مع آبائهم فى النار، واستدل عليه بما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أبى المغيرة حدثنا عتبة بن ضمرة[٨] بن حبيب،حدثنى عبد اللّه بن أبى قيس مولى غُطَيْف، أنه أتى عائشة فسألها عن ذرارى الكفار فقالت: قال رسول اللّه ﷺ: « هم تبع لآبائهم ». فقلت: يارسول اللّه، بلا عمل؟ فقال :« اللّه أعلم بما كانوا عاملين »[٩].

وأخرجه أبو داود من حديث محمد بن حرب،عن محمد بن زياد الألهانى،سمعت عبد اللّه بن أبى قيس سمعت،عائشة تقول:سألت رسول اللّه ﷺ عن ذرارى المؤمنين قال[١٠]:«هم من آبائهم». قلت: فذرارى المشركين؟ قال:«هم مع آبائهم» قلت:بلا عمل؟ قال:«اللّه أعلم بما كانوا عاملين»[١١].

ورواه [الإمام][١٢] أحمد أيضاً، عن وكيع، عن أبى عَقِيل يحيى بن المتوكل ـ وهو متروك ـ عن مولاته بُهَيَّة عن عائشة؛ أنها ذكرت لرسول اللّه ﷺ أطفال المشركين فقال: « إن شئت أسمعتك تضاغيهم فى النار »[١٣].

وقال عبد اللّه بن الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن أبى شيبة، عن محمد بن فضيل بن[١٤] غزوان، عن محمد بن عثمان، عن زاذان عن على، رضى اللّه عنه، قال : سألت خديجة رسول اللّه ﷺ عن ولدين لها ماتا فى الجاهلية فقال: «هما فى النار». قال:فلما رأى الكراهية فى وجهها [قال][١٥]: «لو رأيت مكانهما لأبغضتهما». قالت: فولدى منك ؟ قال:[قال:«فى الجنة». قال: ثم قال رسول الله

(١) فى ف، أ :«صلى الله عليه وسلم».
(٢) فى ت، ف: «من».
(٣) فى ت، ف، أ: « خنساء».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) فى ت، ف، أ: «جعل الله».
(٦) زيادة من ف، أ.
(٧) سبق الحديث والكلام عليه عند هذه الآية.
(٨) فى ف: «حمزة».
(٩) المسند(٦/ ٨٤) .
(١٠) فى ف، أ: « فقال».
(١١) سنن أبى داود برقم (٤٧١٢).
(١٢) زيادة من ف، أ.
(١٣) المسند(٦/٢٠٨).
(١٤) فى ت: «عن»·
(١٥) زيادة من ف، أ، والمسند.

ﷺ][(١)] :« إن المؤمنين وأولادهم في الجنة، وإن المشركين وأولادهم فى النار» ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ [أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ][(٢)]﴾ [الطور: ٢١] [(٣)].

وهذا حديث غريب؛ فإن محمد بن عثمان هذا مجهول الحال، وشيخه زاذان لم يدرك علياً، والله أعلم .

وروى أبو داود من حديث ابن أبى زائدة، عن أبيه، عن الشعبى قال: قال رسول الله ﷺ: «الوائدة والموؤودة فى النار ». ثم قال الشعبى :حدثنى به علقمة، عن أبى وائل، عن ابن مسعود[(٤)].

وقد رواه جماعة عن داود بن أبى هند، عن الشعبى، عن علقمة، عن سلمة بن قيس الأشجعى قال : أتيت أنا وأخى النبى ﷺ فقلنا: إن أمنا ماتت فى الجاهلية، وكانت تقرى الضيف وتصل الرحم، وأنها وأدت أختاً لنا فى الجاهلية لم تبلغ الحنث. فقال: « الوائدة والموؤودة فى النار، إلا أن تدرك الوائدة الإسلام، فتسلم ». وهذا إسناد حسن [(٥)].

والقول الثالث: التوقف فيهم، واعتمدوا على قوله ﷺ : « الله أعلم بما كانوا عاملين ». وهو فى الصحيحين من حديث جعفر بن أبى إياس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: سئل رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين قال[(٦)] :« الله أعلم بماكانوا عاملين»[(٧)] .وكذلك هو فى الصحيحين ،من حديث الزهرى، عن عطاء بن يزيد ، وعن أبى سلمة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ: أنه سئل عن أطفال المشركين ،فقال :« الله أعلم بماكانوا عاملين»[(٨)].

ومنهم من جعلهم من أهل الأعراف. وهذا القول يرجع إلى قول من ذهب إلى أنهم من أهل الجنة؛ لأن الأعراف ليس دار قرار، ومآل أهلها إلى الجنة كما تقدم تقرير ذلك فى «سورة الأعراف»، والله أعلم .

فصل

وليعلم أن هذا الخلاف مخصوص بأطفال المشركين ، فأما ولدان المؤمنين فلا خلاف بين العلماء كما حكاه القاضى أبو يعلى بن الفرّاء الحنبلى، عن الإمام أحمد أنه قال : لا يختلف فيهم أنهم من أهل الجنة. وهذا هو المشهور بين الناس، وهو الذى نقطع[(٩)] به إن شاء الله، عز وجل . فأما ما ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن بعض العلماء: أنهم توقفوا فى ذلك، وأن الولدان كلهم تحت شيئة[(١٠)] الله، عز وجل[(١١)] .قال أبو عمر: ذهب إلى هذا القول جماعة من أهل الفقه والحديث

(١، ٢) زيادة من ف، أ.

(٣) زوائد المسند (١/ ١٣٤).

(٤) سنن أبى داود برقم (٤٧١٧).

(٥) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٤٧٨) من طريق ابن أبى عدى، عن داود بن أبى هند به.

(٦) فى ت، ف: «فقال».

(٧) صحيح البخارى برقم (١٣٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٦٠).

(٨) صحيح البخارى برقم (١٣٨٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٩).

(٩) فى ف: « يقطع». (١٠) فى ت، ف، أ: « مشيئة». (١١) فى أ: « تعالى».

منهم: حماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، وإسحاق بن راهويه وغيرهم قالوا: وهو يشبه ما رسم مالك فى موطئه فى أبواب القدر، وما أورده من الأحاديث فى ذلك ، وعلى ذلك أكثر أصحابه. وليس عن مالك فيه شيء منصوص، إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا إلى أن أطفال المسلمين فى الجنة وأطفال المشركين خاصة فى المشيئة [١] .انتهى كلامه وهو غريب جداً .

وقد ذكر أبو عبد الله القرطبى فى كتاب «التذكرة»[٢] نحو ذلك أيضاً، والله أعلم .

وقد ذكروا فى ذلك حديث عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين قالت : دعى النبى[٣] ﷺ إلى جنازة صبى من الأنصار، فقلت: يارسول الله، طوبى له عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه ، فقال: «أو غير ذلك يا عائشة ، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق النار وخلق لها أهلاً وهم فى أصلاب آبائهم». رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه [٤].

ولما كان الكلام فى هذه المسألة يحتاج إلى دلائل صحيحة جيدة، وقد يتكلم فيها من لا علم عنده عن الشارع، كره جماعة من العلماء الكلام فيها ، روى ذلك عن ابن عباس، والقاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، ومحمد بن الحنفية وغيرهم. وأخرج ابن حبان فى صحيحه، عن جرير بن حازم سمعت أبا رجاء العُطَاردى، سمعت ابن عباس وهو على المنبر يقول : قال رسول الله ﷺ: «لا يزال أمر هذه الأمة مواتياً ـ أو مقارباً ـ ما لم يتكلموا فى الوِلْدان والقَدَر».

قال ابن حبان: يعنى أطفال المشركين.

وهكذا رواه أبو بكر البزار من طريق جرير بن حازم، به[٥] .ثم قال: وقد رواه جماعة عن أبى رجاء، عن ابن عباس موقوفاً .

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦)﴾ .

اختلف القراء فى قراءة قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ فالمشهور قراءة التخفيف، واختلف المفسرون فى معناها، فقيل: معناها أمرنا مترفيها ففسقوا فيها أمراً قدرياً ،كقوله تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤]، فإن الله لا يأمر بالفحشاء، قالوا: معناه: أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب.

وقيل: معناه: أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة .رواه ابن جريج[٦] ،عن ابن عباس، وقاله سعيد بن جبير أيضاً.

(١) فى ف: « وأطفال الكفار تحت المشيئة».

(٢) التذكرة: (ص ٥١١ ــ ٥١٧).

(٣) فى ف، أ: « رسول الله ».

(٤) المسند(٦/ ٤١) وصحيح مسلم برقم(٢٦٦٢) وسنن أبى داود برقم (٤٧١٣) وسنن النسائى (٤/ ٥٧) وسنن ابن ماجة برقم (٨٢).

(٥) صحيح ابن حبان برقم (١٨٢٤) «موارد»، ومسند البزار برقم (٢١٨٠) « كشف الأستار».

(٦) فى أ: « ابن جرير».

وقال ابن جرير: وقد يحتمل أن يكون معناه جعلناهم أمراء.

قلت: إنما يجيء هذا(١) على قراءة من قرأ ﴿ أَمَّرْنَا مُتْرَفِيهَا ﴾ قال على بن طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ يقول: سلطنا أشرارها فعصوا فيها، فإذا فعلوا ذلك أهلكتهم(٢) بالعذاب، وهو قوله: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٣]، وكذا قال أبو العالية ومجاهد والربيع بن أنس.

وقال العَوْفى عن ابن عباس: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ يقول: أكثرنا عددهم، وكذا قال عكرمة، والحسن، والضحاك، وقتادة، وعن مالك عن الزهرى: ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾: أكثرنا.

وقد استشهد بعضهم بالحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال: حدثنا روح بن عبادة، حدثنا أبو نعامة العدوى، عن مسلم بن بُدَيْل، عن إياس بن زهير، عن سُوَيْد بن هُبَيْرة، عن النبى ﷺ قال: «خير مال امرئ له مهرة مأمورة أو سكة مأبورة».

قال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام، رحمه اللّه، فى كتابه «الغريب»: المأمورة: كثيرة النسل. والسكة: الطريقة المصطفة من النخل، والمأبورة: من التأبير، وقال بعضهم: إنما جاء هذا متناسباً كقوله: «مأزورات غير مأجورات» (٣).

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) ﴾.

يقول تعالى منذراً كفار قريش فى تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ بأنه قد أهلك أمماً من المكذبين للرسل من بعد نوح، ودل هذا على(٤) أن القرون التى كانت بين آدم ونوح على الإسلام، كما قاله(٥) ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة(٦) قرون كلهم على الإسلام.

ومعناه: أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على اللّه منهم، وقد كذبتم أشرف الرسل وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى.

وقوله[تعالى](٧): ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ أى: هو عالم بجميع أعمالهم، خيرها وشرها، لا يخفى عليه منها خافية [سبحانه وتعالى](٨).

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا (١٩) ﴾.

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له، بل إنما يحصل لمن أراد اللّه

---

(١) فى ت، ف: «هذا إنما يجيء». (٢) فى أ: «أهلكناهم».
(٣) ذكره الزيلعى فى تخريج الكشاف (٢/٢٦٢) وزاد: «لأنه من التأبيد وهو ما يصلح النخل من سقى وغيره».
(٤) فى ت: «ودل على هذا». (٥) فى ت: «كما قال». (٦) فى ت، ف: «عشر».
(٧) زيادة من ت. (٨) زيادة من ف، أ.

ما يشاء.

وهذه مقيدة لإطلاق ماسواها من الآيات[١] فإنه قال: ﴿ **عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا** ﴾ أى: فى الآخرة ﴿**يَصْلاهَا**﴾ أى: يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿**مَذْمُومًا**﴾ أى: فى حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه[٢]، إذ اختار الفانى على الباقى ﴿**مَّدْحُورًا**﴾: مبعداً مقصياً حقيراً ذليلاً مهاناً .

قال الإمام أحمد: حدثنا حسين، حدثنا ذويد[٣] ،عن أبى إسحاق، عن زُرْعَة، عن عائشة، رضى اللّه عنها، قالت : قال رسول اللّه ﷺ: « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له »[٤].

وقوله: ﴿ **وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ** ﴾ أى: أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم والسرور ﴿ **وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا** ﴾ أى: طلب ذلك من طريقه وهو متابعة الرسول ﴿**وَهُوَ مُؤْمِنٌ**﴾ أى: وقلبه مؤمن، أى: مصدق بالثواب والجزاء ﴿ **فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا**﴾ .

﴿ **كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١)** ﴾.

[يقول تعالى: ﴿ **كُلاًّ** ﴾ أى كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا والذين أرادوا الآخرة، نمدهم فيما هم فيه ﴿**مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ**﴾ أى: هو المتصرف الحاكم الذى لا يجور، فيعطى كلاً ما يستحقه من الشقاوة والسعادة ولا راد لحكمه ولا مانع لما أعطى، ولا مغير لما أراد ؛ولهذا قال: ﴿**وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**﴾ أى: ممنوعا، أى: لا يمنعه أحد ولا يرده راد.

قال قتادة: ﴿**وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**﴾ أى: منقوصاً .

وقال الحسن وابن جريج وابن زيد : ممنوعاً.

ثم قال تعالى: ﴿ **انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ فى الدنيا، فمنهم الغنى والفقير وبين ذلك ، والحسن والقبيح وبين ذلك ، ومن يموت صغيراً ، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً ، وبين ذلك ﴿ **وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً** ﴾ أى: ولتفاوتهم فى الدار الآخرة أكبر من الدنيا؛ فإن منهم من يكون فى الدركات فى جهنم وسلاسلها وأغلالها ، ومنهم من يكون فى الدرجات العُلَى ونعيمها وسرورها ، ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . وفى الصحيحين: « إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين، كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء»[٥] ؛ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَلَلآخِرَةُ**

---

(١) فى ت:«الإيمان». (٢) فى ت: « وصنعه». (٣) فى ت، ف: « حسين بن دويل».

(٤) المسند(٦/ ٧١) وقال الهيثمى فى المجمع(١٠/ ٢٨٨): « رجاله رجال الصحيح غير دويد وهو ثقة».

(٥) تقدم تخريجه عند تفسير الآية:٦٩ من سورة النساء من حديث أبى سعيد، رضى الله عنه، وفى لفظه اختلاف عن هذا اللفظ. ورواه بهذا اللفظ الحميدى فى مسنده برقم(٧٧٥) من حديث أبى سعيد، رضى الله عنه.

أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾][(١)].

﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً (٢٢) ﴾.

يقول تعالى: والمراد المكلفون من الأمة، لا تجعل أيها المكلف فى عبادتك ربك له شريكاً ﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا﴾ على إشراكك [(٢)] ﴿مَّخْذُولاً﴾ لأن الرب تعالى لا ينصرك، بل يكلك إلى الذى عبدت معه، وهو لا يملك لك[(٣)] ضراً ولا نفعاً؛ لأن مالك الضر والنفع[(٤)] هو اللّه وحده لاشريك له. وقد قال الإمام أحمد:

حدثنا أبو أحمد الزبيرى، حدثنا بشير بن سلمان، عن سَيَّار أبى الحكم، عن طارق بن شهاب، عن عبد اللّه ـ هو ابن مسعود ـ قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها باللّه أوشك الله له بالغنى، إما أجلٌ [عاجل][(٥)] وإما غنى عاجل».

ورواه أبو داود، والترمذى من حديث بشير بن سلمان، به[(٦)]، وقال الترمذى: حسن صحيح غريب.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴾.

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لاشريك له؛ فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر.

قال مجاهد: ﴿وَقَضَىٰ﴾ يعنى: وصى، وكذا قرأ أبىّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود، والضحاك بن مزاحم: «ووصى ربك ألاّ تعبدوا إلا إياه» ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أى: وأمر بالوالدين إحساناً، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[لقمان: ١٤].

وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ﴾أى: لا تسمعهما قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف الذى هو أدنى مراتب القول السيئ ﴿وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ أى: ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء بن أبى رباح فى قوله: ﴿ وَلا تَنْهَرْهُمَا﴾ أى: لا تنفض[(٧)] يدك على والديك.

ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح، أمره بالقول الحسن والفعل الحسن فقال: ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾ أى: ليناً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم.

﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ﴾ أى: تواضع لهما بفعلك ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا ﴾أى: فى كبرهما وعند وفاتهما ﴿ كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾.

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى ف: « شركك». (٣) فى ت: «له».
(٤) فى ف: « النفع والضر » . (٥) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٦) سنن أبى داود برقم(١٦٤٥) وسنن الترمذى برقم (٢٣٢٦).
(٧) فى ف: « ولا تنفض».

قال ابن عباس: ثم أنزل الله [تعالى](١) : ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣].

وقد جاء فى بر الوالدين أحاديث كثيرة، منها الحديث المروى من طرق عن أنس وغيره: أن رسول الله ﷺ لما صعد المنبر قال: « آمين آمين آمين »: فقالوا: يارسول الله، علام أمنت ؟ قال: «أتانى جبريل فقال: يامحمد، رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك ، فقل: آمين. فقلت: آمين. ثم قال: رغم أنف امرئ دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يغفر له ، قل: آمين. فقلت: آمين. ثم قال: رغم أنف امرئ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة ، قل: آمين . فقلت: آمين»(٢) .

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا هُشَيْم، حدثنا على بن زيد، أخبرنا زُرَارَة بن أَوْفَى، عن مالك بن الحارث ـ رجل منهم ـ أنه سمع النبى ﷺ يقول: « من ضَمَّ يتيماً بين أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغنى عنه، وجبت له الجنة البتة ، ومن أعتق امرأ(٣) مسلماً كان فكَاكه من النار، يجزى بكل عضو منه عضواً منه».

ثم قال: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت على بن زيد ـ فذكر معناه، إلا أنه قال: عن رجل من قومه يقال له: مالك أو ابن مالك، وزاد: « ومن أدرك والديه أو أحدهما فدخل النار، فأبعده الله»(٤) .

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا على بن زيد، عن زرارة بن أوفى(٥) ،عن مالك بن عمرو القشيرى: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من أعتق رقبة مسلمة فهى فداؤه من النار، مكان كل عَظْم من عظامه مُحَرَّره بعظم من عظامه ، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له، فأبعده الله عز وجل ، ومن ضم يتيماً بين(٦) أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله، وجبت له الجنة » (٧).

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا حجاج ومحمد بن جعفر قالا: حدثنا شعبة، عن قتادة، سمعت زرارة بن أوفى(٨) يحدث عن أبى بن مالك القشيرى قال : قال النبى ﷺ: « من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك، فأبعده الله وأسحقه ».

ورواه أبو داود الطيالسى عن شعبة به(٩) .وفيه زيادات أخر .

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) رواه البزار فى مسنده برقم (٣١٦٨) «كشف الأستار» من طريق جعفر بن عون، عن سلمة بن وردان، عن أنس، رضى الله عنه، وقال: وسلمة صالح وله أحاديث يستوحش منها ولا نعلم روى أحاديث بهذه الألفاظ غيره.وجاء من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، أخرجه مسلم فى صحيحه برقم (٢٥٥١) وسيأتى.ومن حديث كعب بن عجرة رضى الله عنه، رواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ١٥٣). ومن حديث عمار بن ياسر وجابر بن سمرة وابن مسعود وعبد الله بن الحارث رواها البزار فى مسنده برقم (٣١٦٤ـ ٣١٦٧) .

(٣) فى ت: « رجلا».

(٤) المسند(٤/ ٣٤٤).

(٥) فى ت: « زرارة بن أبى أوفى».

(٦) فى ف، أ: « من».

(٧) المسند(٤/ ٣٤٤).

(٨) فى ت:« زرارة بن أبى أوفى».

(٩) المسند (٤/ ٣٤٤) .

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوانة، حدثنا سهيل[١] بن أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: «رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف رجل أدرك والديه أحدهما أو كلاهما عند الكبر ولم يدخل الجنة».

صحيح من هذا الوجه، ولم يخرجه سوى مسلم، من حديث أبى عوانة وجرير وسليمان بن بلال، عن سهيل، به[٢].

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا رِبعىّ بن إبراهيم ـ قال أحمد: وهو أخو إسماعيل بن عُلَيَّة، وكان يفضل على أخيه ـ عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد بن أبى سعيد، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علىّ! ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان، فانسلخ قبل أن يغفر له! ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه[٣] الكبر فلم يدخلاه الجنة» قال ربعى: لا أعلمه[٤] إلا قال: «أحدهما».

ورواه الترمذى، عن أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقى، عن ربعى بن إبراهيم، ثم قال: غريب من هذا الوجه[٥].

حديث آخر: وقال[٦] الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا عبد الرحمن بن الغَسِيل، حدثنا أسيد بن على، عن أبيه على بن عبيد، عن أبى أسيد وهو مالك بن ربيعة الساعدى، قال: بينما أنا جالس عند رسول اللَّه ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال: يارسول اللَّه، هل بقى علىّ من برّ أبوىّ شىء بعد موتهما أبرهما به؟ قال: «نعم، خصال أربع: الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التى لا رحم لك إلا من قبلهما، فهو الذى بقى عليك بعد موتهما من برهما»[٧].

ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث عبد الرحمن بن سليمان ـ وهو ابن الغسيل ـ به[٨].

حديث آخر: وقال الإمام أحمد: حدثنا روح، حدثنا ابن جريج، أخبرنى محمد بن طلحة بن عبد اللَّه[٩] بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن معاوية بن جاهمة السلمى؛ أن جاهمة جاء إلى النبى ﷺ فقال: يارسول اللَّه، أردت الغزو، وجئتك أستشيرك؟ فقال: «فهل لك من أم؟» قال[١٠]: نعم. فقال: «الزمها. فإن الجنة تحت رجليها[١١]» ثم الثانية، ثم الثالثة فى مقاعد شتى، كمثل هذا القول.

ورواه النسائى وابن ماجه، من حديث ابن جريج، به[١٢].

---

(١) فى ت: «إسماعيل».

(٢) المسند (٢/ ٣٦٤) وصحيح مسلم برقم (٢٥٥١).

(٣) فى ت: «أدرك أبواه عنده». (٤) فى ف: «ولا علم».

(٥) المسند (٢/ ٢٥٤) وسنن الترمذى برقم (٣٥٤٥).

(٦) فى ت: «قال». (٧) فى ف: «من برهما بعد موتهما».

(٨) المسند (٣/ ٤٩٧) وسنن أبى داود برقم (٥١٤٢) وسنن ابن ماجة برقم (٣٦٦٤).

(٩) فى أ: «عبيد الله». (١٠) فى ت، ف: «فقال». (١١) فى ف: «عند رجلها».

(١٢) المسند (٣/ ٤٢٩) وسنن النسائى (٦/ ١١) وسنن ابن ماجة برقم (٢٧٨١).

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا ابن عياش، عن بَحير بن سعد، عن خالد بن معدان، عن المقدام بن معد يكرب[١] الكندى، عن النبى ﷺ قال: «إن اللَّه يوصيكم بآبائكم، إن اللَّه يوصيكم بأمهاتكم، إن اللَّه يوصيكم بأمهاتكم، إن اللَّه يوصيكم بأمهاتكم، إن اللَّه يوصيكم بالأقرب فالأقرب» .

وقد أخرجه ابن ماجه، من حديث [عبد اللَّه][٢] بن عياش، به[٣].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا أبو عوَانة، عن الأشعث بن سليم، عن أبيه، عن رجل من بنى يربوع قال: أتيت النبى ﷺ فسمعته وهو يكلم الناس يقول: «يد المعطى[العليا][٤] أمك وأباك وأختك وأخاك، ثم أدناك أدناك»[٥].

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده: حدثنا إبراهيم ابن المستمر العُرُوقى، حدثنا عمرو بن سفيان، حدثنا الحسن بن أبى جعفر، عن ليث بن أبى سليم، عن علقمة بن مرثد[٦] ،عن سليمان بن بُرَيدة، عن أبيه؛ أن رجلاً كان فى الطواف حاملاً أمه يطوف بها، فسأل النبى ﷺ: هل[٧] أديت حقها ؟ قال: « لا، ولا بزفرة واحدة » أو كما قال. ثم قال البزار :لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه[٨].

قلت: والحسن بن أبى جعفر ضعيف ،واللَّه أعلم .

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) ﴾ .

قال سعيد بن جبير: هو الرجل تكون[٩] منه البادرة إلى أبويه، وفى نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به ـ وفى رواية :لا يريد إلا الخير بذلك ـ فقال: ﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ﴾.

وقوله[تعالى][١٠] :﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ قال قتادة: للمطيعين أهل الصلاة.

وعن ابن عباس: المسبحين .وفى رواية عنه: المطيعين المحسنين.

وقال بعضهم: هم الذين يصلون بين العشاءين .وقال بعضهم :هم الذين يصلون الضحى[١١].

وقال شعبة، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب فى قوله: ﴿[فَإِنَّهُ][١٢] كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ قال : الذي يصيب الذنب ثم يتوب ،ويصيب الذنب ثم يتوب.

وكذا رواه عبد الرزاق، عن الثورى ومعمر، عن يحيى بن سعيد، عن ابن المسيب نحوه، وكذا رواه الليث وابن جريج ،عن يحيى بن سعيد، عن ابن][١٣] المسيب، به. وكذا قال عطاء بن يسار.

---

(١) فى ت، ف: « معدى كرب». (٢) زيادة من ف، أ.
(٣) المسند(٤/ ١٣٢) وسنن ابن ماجة برقم (٣٦٦١).
(٤) زيادة من ف، أ، والمسند .
(٥) المسند(٤/ ٦٤).
(٦) فى ف، أ: «يزيد». (٧) فى ت: «فسأل النبى ﷺقال: هل».
(٨) مسند البزار برقم (١٨٧٢) «كشف الأستار» ووقع فيه: « ولابزكزة» وفى مجمع الزوائد: « ولابركة».
(٩) فى ت،ف: « يكون». (١٠) زيادة من ت. (١١) فى ت: « الصبح».
(١٢) فى ت، ف : « إنه »وهو خطأ. (١٣) زيادة من ف.

وقال مجاهد، وسعيد بن جبير: هم الراجعون إلى الخير.

وقال مجاهد عن عبيد بن عمير فى قوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ قال: هو الذى إذا ذكر ذنوبه فى الخلاء فيستغفر اللَّه منها. ووافقه على ذلك مجاهد[١].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا محمد بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن عبيد بن عمير، فى قوله: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ قال: كنا نعد الأواب الحفيظ، أن يقول: اللهم اغفر لى ما أصبت[٢] فى مجلسى هذا[٣].

وقال ابن جرير: والأولى فى ذلك قول من قال: هو التائب من الذنب، الراجع عن المعصية إلى الطاعة، مما يكره اللَّه إلى ما يحبه ويرضاه[٤].

وهذا الذى قاله هو الصواب؛ لأن الأوّاب مشتق من الأوب وهو الرجوع، يقال: آب فلان إذا رجع، قال الله تعالى: ﴿إن إلينا إيابهم﴾[الغاشية:٢٥]، وفى الحديث الصحيح، أن رسول اللَّه ﷺ كان إذا رجع من سفر قال[٥]: « آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون »[٦].

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا (٢٨)﴾.

لما ذكر تعالى بر الوالدين، عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام، كما تقدم فى الحديث: « أمك وأباك، ثم أدناك أدناك » وفى رواية: « ثم الأقرب فالأقرب ».

وفى الحديث: « من أحب أن يبسط له رزقه[٧] وينسأ له فى أجله، فليصل رحمه»[٨].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عباد بن يعقوب، حدثنا أبو يحيى التيمى[٩]، حدثنا فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبى سعيد قال لما نزلت، هذه الآية ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ دعا رسول اللَّه ﷺ فاطمة فأعطاها «فدك». ثم قال: لا نعلم حدث به عن فضيل بن مرزوق إلا أبو يحيى التيمى[١٠]، وحميد بن حماد بن أبى الخوار[١١] [١٢].

---

(١) فى ف: « ووافقه مجاهد فى ذلك». (٢) فى ت: « ما أحببت».

(٣) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٢٠).

(٤) تفسير الطبرى (١٥/ ٥٢).

(٥) فى ف ،أ: « يقول».

(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٧٩٧) من حديث ابن عمر، رضى الله عنهما.

(٧) فى ت، ف، أ: «له فى رزقه».

(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٥٩٨٦) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٥٥٧).

(٩) فى ت: أبو نجى التمى»، وفى ف: «التميمى». (١٠) فى ت: « أبو نجى التميمى».

(١١) فى ت، ف ، أ: « الجوزاء».

(١٢) مسند البزار برقم (٢٢٢٣)« كشف الأستار» وعطية العوفى متروك.

وهذا الحديث مشكل لو صح إسناده؛ لأن الآية مكية، وفَدَك إنما فتحت مع خيبر سنة سبع من الهجرة فكيف يلتئم هذا مع هذا ؟!

وقد تقدم الكلام على المساكين وابن السبيل فى «سورة براءة» بما أغنى عن إعادته ههنا.

قوله[تعالى][١] :﴿وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه، بل يكون وسطاً، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

ثم قال منفراً عن التبذير والسرف: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أى: أشباههم فى ذلك.

وقال ابن مسعود: التبذير: الإنفاق فى غير حق .وكذا قال ابن عباس.

وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله فى الحق، لم يكن مبذراً، ولو أنفق مداً فى غير حقه كان تبذيرًا.

وقال قتادة :التبذير: النفقة[٢] فى معصية اللّه تعالى، وفى غير الحق وفى الفساد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا لَيْث، عن خالد بن يزيد، عن سعيد بن أبى هلال، عن أنس بن مالك أنه قال: أتى رجل من بنى تميم إلى رسول اللّه ﷺ فقال: يارسول اللّه، إنى ذو مال كثير، وذو أهل وولد وحاضرة، فأخبرنى كيف أنفق وكيف أصنع ؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «تخرج الزكاة من مالك، فإنها طهرة تطهرك، وتصل أقرباءك، وتعرف حق السائل والجار والمسكين[٣] ». فقال: يارسول اللّه، أقلل[٤] لى ؟ فقال :﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾. فقال[٥] :حسبى يارسول اللّه، إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئت منها إلى اللّه وإلى رسوله؟ فقال رسول اللّه ﷺ: « نعم، إذا أديتها إلى رسولى فقد برئت منها، فلك أجرها، وإثمها على من بدلها »[٦].

وقوله [تعالى][٧] :﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ أى: فى التبذير والسفه وترك طاعة اللّه وارتكاب معصيته؛ ولهذا قال :﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أى: جحوداً؛ لأنه أنكر نعمة اللّه عليه ولم يعمل بطاعته؛ بل أقبل على معصيته ومخالفته .

وقوله[تعالى][٨] : ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا﴾ أى: وإذا سألك أقاربك ومن أمرنا بإعطائهم وليس عندك شىء، وأعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا﴾ أى: عدهم وعداً بسهولة، ولين إذا جاء رزق اللّه فسنصلكم إن شاء اللّه ، هكذا فسر قوله ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا﴾ بالوعد : مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة وغير واحد.

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى ف، أ: « الإنفاق». (٣) فى ت: « حق المسكين السائل والجار والمسكين».
(٤) فى ت: « أتلك». (٥) فى ف: «قال».
(٦) المسند (٣/ ١٣٦).
(٧، ٨) زيادة من ت.

﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) ﴾ .

يقول تعالى آمراً بالاقتصاد فى العيش ذامّا للبخل ناهياً عن السَّرَف: ﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ أى: لا تكن بخيلاً منوعاً، لا تعطى أحداً شيئاً، كما قالت اليهود عليهم لعائن اللّه: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة: ٦٤] أى نسبوه إلى البخل، تعالى وتقدس الكريم الوهاب.

وقوله: ﴿ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ أى: ولا تسرف فى الإنفاق فتعطى فوق طاقتك، وتخرج أكثر من دخلك، فتقعد ملوماً محسوراً.

وهذا من باب اللف والنشر أى: فتقعد إن بخلت ملوماً، يلومك الناس ويذمونك ويستغنون عنك كما قال زهير بن أبى سُلمى فى المعلقة :

ومن كان ذا مال ويبخل بماله ... على قومه يستغن عنه ويذمم[(١)]

ومتى بسطت يدك فوق طاقتك، قعدت بلا شىء تنفقه، فتكون كالحسير، وهو: الدابة التى قد عجزت عن السير، فوقفت ضعفاً وعجزاً[(٢)] ،فإنها تسمى الحسير، وهو مأخوذ من الكلال، كما قال تعالى: ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك: ٣، ٤] أى: كليل عن أن يرى عيباً. هكذا فسر هذه الآية ـ بأن المراد هنا البخل والسرف ـ ابن عباس والحسن وقتادة وابن جريج وابن زيد وغيرهم.

وقد جاء فى الصحيحين، من حديث أبى الزِّنَادَ، عن الأعرج، عن أبى هريرة؛ أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول: « مثل البخيل والمنفق، كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثدييهما[(٣)] إلى تراقيهما. فأما المنفق فلا ينفق إلا سَبَغَت ـ أو: وفرت ـ على جلده، حتى تُخفى بنانه وتعفو[(٤)] أثره. وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها فلا[(٥)] تتسع».

هذا لفظ البخارى فى الزكاة[(٦)].

وفى الصحيحين من طريق هشام بن عُرْوَةَ، عن زوجته فاطمة بنت المنذر، عن جدتها أسماء بنت أبى بكر قالت: قال رسول اللّه ﷺ: «أنفقى هكذا وهكذا وهكذا، ولا تُوعى فَيُوعى اللّه عليك، ولا توكى فيوكى اللّه عليك » وفى لفظ: «ولا تُحصى فيحصى اللّه عليك»[(٧)].

وفى صحيح مسلم من طريق عبد الرزاق، عن معمر، عن همام، عن أبى هريرة، رضى اللّه عنه، قال: قال رسول اللّه ﷺ: « إن اللّه قال لى :أنفق أنفق عليك»[(٨)].

وفى الصحيحين من طريق معاوية بن أبى مُزَرِّد ،عن سعيد بن يسار، عن أبى هريرة، رضى

(١) البيت فى ديوانه (ص ٣٠). (٢) فى ت، ف: « عجزًا وضعفاً». (٣) فى أ: « من يديهما».
(٤) فى ت، ف: « يخفى بنانه ويعفو». (٥) فى ف: « ولا».
(٦) صحيح البخارى برقم(١٤٤٣) وليس فى صحيح مسلم من طريق أبى الزناد، وإنما هو فيه من طريق الحسن بن مسلم وعبد الله بن طاوس، عن طاوس، عن أبى هريرة برقم (١٠٢١).
(٧) صحيح البخارى برقم (١٤٣٣) وصحيح مسلم برقم (١٠٢٩).
(٨) صحيح مسلم برقم (٩٩٣).

الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما :اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر :اللهم أعط ممسكاً تلفاً »(١).

وروى مسلم، عن قتيبة، عن إسماعيل بن جعفر، عن العلاء(٢) ،عن أبيه، عن أبى هريرة مرفوعاً: « ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً (٣) ،ومن تواضع لله رفعه الله»(٤).

وفى حديث أبى كثير، عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً: « إياكم والشُّح، فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا ،وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا »(٥).

وروى البيهقى من طريق سعدان بن نصر، عن أبى معاوية، عن الأعمش، [عن ابن بريدة](٦) عن أبيه قال :قال رسول الله ﷺ :« ما يخرج رجل صدقة، حتى يفك لَحيَى سبعين شيطانا»(٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبيدة الحداد، حدثنا سُكَين(٨) بن عبد العزيز، حدثنا إبراهيم الهجرى، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعوده قال: قال رسول الله ﷺ: «ما عال من اقتصد»(٩).

وقوله[تعالى](١٠) : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرزاق، القابض الباسط، المتصرف فى خلقه بما يشاء، فيغنى من يشاء، ويفقر من يشاء، بما له فى ذلك من الحكمة؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أى: خبير بصير بمن يستحق الغنى ومن يستحق الفقر(١١)، كما جاء فى الحديث: « إن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه».

وقد يكون الغنى فى حق بعض الناس استدراجاً ، والفقر عقوبة عياذاً بالله من هذا وهذا .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا (٣١) ﴾.

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده؛ لأنه ينهى [تعالى](١٢)

---

(١) صحيح البخارى برقم (١٤٤٢) وصحيح مسلم برقم(١٠١٠).
(٢) فى ف: «عن العلاء بن عبد الرحمن».
(٣) فى ت، ف، أ: « إلا غنى».
(٤) صحيح مسلم برقم(٢٥٨٨).
(٥) رواه أحمد فى المسند(٢/١٥٩) وأبو داود فى السنن برقم (١٦٩٨) وابن حبان فى صحيحه برقم (١٥٨٠) «موارد» من طرق عن شعبة عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن الحارث، عن أبى كثير الزبيدى به.
(٦) زيادة من ف، أ، والسنن الكبرى، وصحيح ابن خزيمة.
(٧) السنن الكبرى (٤/١٨٧) ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم (٢٤٥٧) من طريق محمد المخزومى، عن أبى معاوية، به، وقال:« إن صح الخبر، فإنى لا أقف هل سمع الأعمش من ابن بريدة أم لا».
(٨) فى ت:« مسكين»، وفى ف، أ: «سكن» .
(٩) المسند (١/٤٤٧) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٥٢):« فيه إبراهيم بن مسلم الهجرى وهو ضعيف».
(١٠) زيادة من ت.
(١١) فى ف، أ : « بمن يستحق الفقر ومن يستحق الغنى» .
(١٢) زيادة من ت، ف، أ.

عن قتل الأولاد، كما أوصى بالأولاد فى الميراث، وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عيلته، فنهى اللّه [تعالى][1] عن ذلك فقال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ أى: خوف أن تفتقروا فى ثانى الحال؛ ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ وفى الأنعام[2]: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ من إِمْلَاقٍ ﴾أى: من فقر﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ[3]﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقوله: ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيراً﴾ أى: ذنباً عظيماً.

وقرأ بعضهم: «كان خَطَأً كبيراً» وهو بمعناه.

وفى الصحيحين عن عبد اللّه بن مسعود: قلت: يارسول اللّه، أى الذنب أعظم ؟ قال: « أن تجعل للّه نداً وهو خلقك». قلت: ثم أى ؟ قال:«أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَمَ معك». قلت: ثم أى ؟ قال:« أن تزانى بحليلة [4]جارك » [5].

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) ﴾.

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مقاربته، وهو مخالطة أسبابه[6] ودواعيه ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ أى: ذنباً عظيماً ﴿ وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ أى: وبئس طريقاً ومسلكاً .

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا جرير،حدثنا سليم بن عامر، عن أبى أمامة قال:إن فتى شاباً أتى النبى[7] ﷺ فقال : يارسول اللّه، ائذن لى بالزنا .فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا : مَهْ مَهْ. فقال: «ادنه». فدنا منه قريباً[8] ،فقال[9] :« اجلس». فجلس، قال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا واللّه، جعلنى اللّه فداك. قال:«ولا الناس يحبونه لأمهاتهم». قال:«أفتحبه لابنتك؟». قال: لا واللّه يارسول اللّه، جعلنى اللّه فداك. قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم»، قال: «أتحبه لأختك؟» قال: لا واللّه، جعلنى اللّه فداك. قال:«ولا الناس يحبونه لأخواتهم»، قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا واللّه،جعلنى اللّه فداك. قال:«ولا الناس يحبونه لعماتهم» قال:«أفتحبه لخالتك؟» قال: لا واللّه، جعلنى اللّه فداك. قال:«ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال: فوضع يده عليه وقال: «اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن[10] فرجه». قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء[11].

وقال[12] ابن أبى الدنيا: حدثنا عمار بن نصر، حدثنا بَقِيَّةُ، عن أبى بكر بن أبى مريم، عن الهيثم بن مالك الطائى، عن النبى ﷺ قال: « ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند اللّه من نطفة

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى ت، ف، أ: « وقال فى سورة الأنعام». (٣) فى ت:« نرزقهم وإياكم» وهو خطأ.
(٤) فى ف: « خليلة»، وفى أ:« حليلة».
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٤٧٧) وصحيح مسلم برقم(٦٨).
(٦) فى ت: « أشباهه». (٧) فى ت: «أتى إلى النبى». (٨) فى ف: « قريبًا منه» .
(٩) فى ت: «فقال له». (١٠) فى ف: « وأحصن».
(١١) المسند(٥/٣٥٦).
(١٢) فى ف ، أ: « قال».

وضعها رجل فى رحم لا يحل له»[١].

﴿ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا (٣٣) ﴾.

يقول تعالى ناهياً عن قتل النفس بغير حق شرعى، كما ثبت فى الصحيحين؛ أن رسول الله ﷺ قال: « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والزانى المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة »[٢].

وفى السنن: « لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مسلم[٣] » .

وقوله: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا﴾ أى: سلطة على القاتل، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله قَوداً، وإن شاء عفا عنه على الدية، وإن شاء عفا عنه مجاناً، كما ثبتت السنة بذلك. وقد أخذ الإمام الحبر ابن عباس من عموم هذه الآية الكريمة ولاية معاوية السلطنة، وأنه سيملك؛ لأنه كان ولى عثمان، وقد قتل عثمان مظلوماً، رضى الله عنه، وكان معاوية يطالب علياً، رضى الله عنه، أن يسلمه قتلته حتى يقتص منهم؛ لأنه أموى، وكان على، رضى الله عنه، يستمهله فى الأمر[٤] حتى يتمكن ويفعل ذلك، ويطلب على من معاوية أن يسلمه الشام فيأبى[٥] معاوية ذلك حتى يسلمه القتلة، وأبى أن يبايع علياً هو وأهل الشام، ثم مع المطاولة تمكن معاوية وصار الأمر إليه كما تفاءل[٦] ابن عباس واستنبط من هذه الآية الكريمة. وهذا من الأمر العجيب ، وقد روى ذلك الطبرانى فى معجمه حيث قال:

حدثنا يحيى بن عبد الباقى، حدثنا أبو عمير بن النحاس، حدثنا ضَمْرَةُ بن ربيعة، عن ابن شَوْذَب، عن مطر الوراق، عن زَهْدَم الجَرْمى قال : كنا فى سمر ابن عباس فقال: إنى محدثكم حديثا ليس بسر ولا علانية؛ إنه لما كان من أمر هذا الرجل ما كان ـ يعنى عثمان ـ قلت لعلى: اعتزل، فلو كنت فى جحر طلبت حتى تستخرج، فعصانى ، وايم الله ليتأمرن عليكم معاوية، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ﴾ الآية[٧] وليحملنكم[٨] قريش على سنة فارس والروم وليقيمن عليكم النصارى واليهود والمجوس ، فمن أخذ منكم يومئذ بما يُعْرَف نجا ، ومن ترك وأنتم تاركون ،كنتم كقرن من القرون ،هلك فيمن هلك[٩].

وقوله[تعالى][١٠] : ﴿ فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ ﴾ قالوا: معناه: فلا يسرف الولى فى قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل .

---

(١) الورع لابن أبى الدنيا برقم(١٣٧) وفيه ثلاث علل: الأولى: تدليس بقية. الثانية: ابن أبى مريم ضعيف. الثالثة: الإرسال. ا. هـ. مستفاداً من حاشية الأستاذ محمد الحمود، وسيأتى الحديث عند تفسير الآية: ٦٨ من سورة الفرقان .

(٢) صحيح البخارى برقم (٦٨٧٨) وصحيح مسلم برقم (١٦٧٦) من حديث ابن مسعود، رضى الله عنه.

(٣) فى أ:« المسلم». (٤) فى ت: « الأمور». (٥) فى ف: « فابى» .

(٦) فى ت، ف، أ: «قال». (٧) فى ت، ف، أ: « ﴿إنه كان منصوراً﴾» . (٨) فى ت: « يتحملنكم».

(٩) المعجم الكبير (١٠/ ٣٢٠) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٢٣٥): «وفيه من لم أعرفهم».

(١٠) زيادة من ت.

وقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً ﴾ أى أن الولى منصور على القاتل شرعاً ،وغالباً قدراً .

﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً (٣٥) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ أى: لا تتصرفوا له إلا بالغبطة ﴿ وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيراً ﴾[النساء: ٢] و ﴿ لا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ٦] .

وقد جاء فى صحيح مسلم؛ أن رسول اللَّه ﷺ قال لأبى ذر: « يا أبا ذر، إنى أراك ضعيفاً، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى: لا تَأَمَّرَن على اثنين، ولا تولين مال يتيم[1] »[2].

وقوله[تعالى][3] : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ أى: الذى تعاهدون عليه الناس والعقود التى تعاملونهم بها، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه ﴿ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً ﴾ أى: عنه.

وقوله[تعالى][4] : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ﴾ أى: من غير تطفيف، ولا تبخسوا الناس أشياءهم.

﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ ﴾ قرئ بضم القاف وكسرها، كالقرطاس وهو الميزان. وقال مجاهد: هو العدل بالرومية .

وقوله : ﴿ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ أى: الذى لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا اضطراب.

﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ أى: لكم فى معاشكم ومعادكم؛ ولهذا قال : ﴿ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ أى: مآلاً ومنقلباً فى آخرتكم .

قال سعيد، عن قتادة: ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ أى: خير ثواباً وعاقبة . وأما ابن عباس كان يقول: يا معشر الموالى، إنكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم: هذا المكيال، وهذا الميزان. قال وذكر لنا أن نبى اللَّه ﷺ كان يقول: « لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه، ليس به إلا مخافة اللَّه، إلا أبدله اللَّه فى عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك »[5].

﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦) ﴾ .

---

(١) فى ت: «بخيل».

(٢) صحيح مسلم برقم (١٨٢٦).

(٣، ٤) زيادة من ت.

(٥) وقد جاء فى مسند أحمد (٥/٧٨) عن أبى قتادة وأبى الدهماء عن رجل من أهل البادية، أن النبى ﷺ أخذ بيده وقال: « إنك لا تدع شيئًا اتقاء الله، عز وجل، إلا أعطاك الله خيرًا منه» .

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يقول: لاتقل.

وقال العوفى عنه: لاتَرْم أحدًا بما ليس لك به علم.

وقال محمد بن الحَنفية: يعنى شهادة الزور.

وقال قتادة: لا تقل: رأيت، ولم تر، وسمعت، ولم تسمع، وعلمت، ولم تعلم؛ فإن الله سائلك عن ذلك كله.

ومضمون ماذكروه: أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم، بل بالظن الذى هو التوهم والخيال، كما قال تعالى: ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وفى الحديث: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذبُ الحديث»[١]. وفى سنن أبى داود: « بئس مطيةُ الرجل: زعموا»[٢]، وفى الحديث الآخر: « إن أفرى الفِرَى أن يُرِى [٣] عينيه ما لم تريا»[٤]. وفى الصحيح: « من تحلم حلما كُلف يوم القيامة أن يعقد بين شَعيرتين، وليس بعاقد[٥]»[٦].

وقوله: ﴿كُلُّ أُولَئِكَ﴾ أى: هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد ﴿كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ أى: سيسأل العبد عنها يوم القيامة، وتُسأل[٧] عنه وعما عمل فيها. ويصح استعمال«أولئك» مكان «تلك»، كما قال الشاعر[٨]:

ذُمَّ المَنَازلَ بَعْدَ مَنْزلة اللِّوَى وَالْعَيْش بَعْدَ أولئكَ الأيّام

﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ﴾.

يقول تعالى ناهيًا عباده عن التَّجبّر والتبختر فى المشية: ﴿وَلا تَمْشِ فِى الأَرْضِ مَرَحًا﴾ أى: متبخترًا متمايلاً مشى الجَبَّارين ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ﴾ أى: لن تقطع الأرض بمشيتك[٩]، قاله ابن جرير، واستشهد عليه بقول رُؤبة بن العَجَّاج:

وقَاتم الأعْمَاق خَاوى المُخترقْ[١٠]

وقوله [تعالى][١١]: ﴿ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولا﴾ أى: بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك، بل قد

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم(٦٠٦٦) ومسلم فى صحيحه برقم(٢٥٦٣) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه .
(٢) برقم (٤٩٧٢).
(٣) فى ف، أ: «يرى الرجل».
(٤) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٠٤٣) من حديث ابن عمر، رضى الله عنهما .
(٥) فى ف: «بفاعل».
(٦) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٧٠٤٢) معلقًا، ووصله النسائى فى السنن (٨/ ٢١٥) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.
(٧) فى ت: « ويسأل».
(٨) هو جرير بن عطية، والبيت فى تفسير الطبرى (١٥/ ٦٢).
(٩) فى ت ، ف : « بمشيك».
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ٦٣).
(١١) زيادة من ت.

يجازى فاعل ذلك بنقيض[١] قصده. كما ثبت فى الصحيح: « بينا رجل يمشى فيمن كان قبلكم، وعليه بُرْدَان يتبختر فيهما، إذ خُسف به الأرض، فهو يتجلجل[٢] فيها إلى يوم القيامة»[٣].

وكذلك[٤] أخبر الله[تعالى][٥] عن قارون أنه خرج على قومه فى زينته، وأن الله تعالى خسف به وبداره الأرض، وفى الحديث: « من تواضع لله رفعه الله، فهو فى نفسه حقير وعند الناس كبير، ومن استكبر وضعه الله، فهو فى نفسه كبير وعند الناس حقير، حتى لهو أبغض إليهم من الكلب أو الخنزير»[٦].

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا فى كتاب «الخمول والتواضع»: حدثنا أحمد بن إبراهيم بن كثير، حدثنا حجاج بن محمد، عن أبى بكر الهذلى قال: بينما نحن مع الحسن، إذ مَر عليه ابن الأهتم[٧] ـ يريد المنصور ـ وعليه جبَابُ خَزّ قد نُضّد[٨] بعضها فوق بعض على ساقه، وانفرج عنها قباؤه، وهو يمشى ويتبختر، إذ نظر إليه الحسن نظرة فقال: أف أف، شامخ بأنفه، ثان عطفه، مصعر خده، ينظر فى عطفيه، أىّ حُمَيْق ينظر فى عطفه فى نِعَم غير مشكورة ولا مذكورة، غير المأخوذ بأمر الله فيها، ولا المؤدّى حقّ الله منها! والله إن يمشى أحدهم طبيعته يتلجلج تلجلج المجنون، فى كل عضو منه نعمة، وللشيطان به لعنة ، فسمعه ابن الأهتم[٩] فرجع يعتذر إليه، فقال: لا تعتذر إلى، وتب إلى ربك، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿**وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا**﴾[١٠].

ورأى البخترىّ العابدُ رجلاً من آل على يمشى وهو يخطِر فى مشيته، فقال له: يا هذا، إن الذى أكرمك به لم تكن هذه مشيته! قال: فتركها الرجل بعد.

ورأى ابن عمر رجلا يخطر فى مشيته ، فقال : إن للشياطين إخواناً.

وقال خالد بن مَعْدان: إياكم والخَطْر، فإن الرّجل يَدُه من سائر [١١]جسده. رواهما ابن أبى الدنيا.

وقال ابن أبى الدنيا: حدثنا خلف بن هشام البزار، حدثنا حماد بن زيد، عن[١٢] يحيى، عن سعيد، عن يُحَنَّس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مشت أمتى المطيطاء، وخدمتهم فارس والروم،

---

(١) فى ت: « ببعض». (٢) فى ت: «يتخلل».

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٧٨٩) وصحيح مسلم برقم(٢٠٨٨) من حديث أبى هريرة ،رضى الله عنه.

(٤) فى أ:« ولذلك». (٥) زيادة من ف.

(٦) رواه أبو نعيم فى الحلية(٧/ ١٢٩) والخطيب فى تاريخ بغداد(٢/ ١١٠) من طريق سعيد بن سلام، عن الثورى عن الأعمش، عن إبراهيم بن عابس، عن ربيعة، عن عمر بن الخطاب بنحوه وقال: « غريب من حديث الثورى، تفرد به سعيد بن سلام، وهو كذاب».

(٧) فى هـ ،ت، ف: « ابن الأهيم»، والصواب ما أثبتناه من الخمول والتواضع لابن أبى الدنيا.

(٨) فى ت، ف: « فضل».

(٩) فى هـ، ت، ف:« ابن الأهيم»، والصواب ما أثبتناه من الخمول والتواضع.

(١٠) الخمول والتواضع برقم (٢٣٧).

(١١) فى ت، ف، أ:« من دون سائر». (١٢) فى ف : «بن».

سلط بعضهم على بعض»[١].

وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ أما من قرأ: ﴿سَيِّئَةً﴾ أى: فاحشة. فمعناه عنده: كل هذا الذى نهينا عنه، من قوله: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ ﴾ إلى ههنا، فهو سيئة مؤاخذ عليها ﴿مَكْرُوهًا﴾ عند الله، لا يحبه ولا يرضاه.

وأما من قرأ ﴿سَيِّئُهُ﴾ على الإضافة فمعناه عنده: كل هذا الذى ذكرناه من قوله: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه﴾ إلى ههنا فسيئه، أى: فقبيحه مكروه[٢] عند الله، هكذا وجَّه ذلك ابن جرير، رحمه الله[٣].

﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا (٣٩) ﴾.

يقول تعالى: هذا الذى أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس.

﴿وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ أى: تلومك نفسك [ويلومك الله][٤] والخلق. ﴿مَّدْحُورًا ﴾ . قال ابن عباس وقتادة: مطرودًا.

والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ؛ فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم.

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا (٤٠) ﴾.

يقول تعالى رادًا على المشركين الكاذبين[٥] الزاعمين ــ عليهم لعائن الله ــ أن الملائكة بناتُ الله، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا، ثم ادّعوا أنهم بنات الله، ثم عبدوهم فأخطؤوا فى كل من المقامات الثلاث[٦] خطأ عظيماً، قال تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ ﴾ أى: خصصكم بالذكور ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا﴾ أى: اختار لنفسه على زعمكم البنات؟ ثم شدد الإنكار عليهم فقال: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا ﴾ أى: فى زعمكم لله ولدًا، ثم جعلْكم ولده الإناث التى تأنفون[٧] أن يكُنّ لكم، وربما قتلتموهُن بالوأد، فتلك إذا قسْمة ضيزَى. قال [الله][٨] تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ

---

(١) الخمول والتواضع برقم(٢٤٩) وهو مرسل، وجاء من حديث ابن عمر رضى الله عنهما، رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٢٦١) من طريق زيد بن الحباب عن موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عنه، ولفظ آخره« سلط الله شرارها على خيارها» وقال الترمذى: «هذا حديث غريب».

(٢) فى ت، ف، أ: « قبيحه مكروها».

(٣) تفسير الطبرى(١٥/٦٣).

(٤) زيادة من ت، ف،أ.

(٥) فى ف: « المكذبين».

(٦) فى ت، ف: « الثلاث المقامات».

(٧) فى ت: « تالفون».

(٨) زيادة من ف.

عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا (٤١)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا[١] فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا[٢]﴾ أى: صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ، فينزجروا[٣] عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أى: الظالمين منهم ﴿إِلاَّ نُفُورًا﴾ أى: عن الحق، وبعدًا منه.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣)﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكا من خلقه، العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى: لو كان الأمر كما تقولون، وأن معه آلهة تُعْبد لتقرّب إليه وتشفع لديه ـ لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ويبتغون إليه الوسيلة والقربة، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تَدْعُونه من دونه، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه، بل يكرهه ويأباه. وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله وأنبيائه.

ثم نزه نفسه الكريمة وقدّسها فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أى: هؤلاء المشركون المعتدون الظالمون فى زعمهم أن معه آلهة أخرى ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أى: تعالياً كبيرا، بل هو الله الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفُوًا أحد.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)﴾.

يقول تعالى: تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن، أى: من المخلوقات، وتنزهه وتعظمه وتجِّله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون، وتشهد له بالوحدانية فى ربوبيته وإلهيته:

فَفِى كُلِّ شَىءٍ لَهُ آيَةٌ   تَدُلُّ عَلَى أَنَّه واحد

كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ[٤] مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا. أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا. [وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا][٥]﴾ [مريم: ٩٠ ـ ٩٢].

وقال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا مسكين[٦] ابن ميمون مؤذّن مسجد الرملة، حدثنا عروة بن رُوَيم، عن عبد الرحمن بن قرط؛ أن رسول الله ﷺ

---

(١) فى ت، ف،أ: «صرفنا للناس»وهو خطأ. (٢) فى ت ،ف: «القرآن من كل مثل» وهو خطأ. (٣) فى ف: « فينزجرون».
(٤) فى ت، ف: « ينفطرن» وهو خطأ. (٥) زيادة من أ. (٦) فى ت: «أن».

ليلة أسرى إلى المسجد الأقصى، كان[١] بين المقام وزمزم، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره، فطار به حتى بلغ السموات السبع[٢]، فلما رجع قال: سمعت تسبيحًا فى السموات العلى مع تسبيح كثير: سبحت السموات العلى من ذى المهابة مشفقات لذى العلو بما علا، سبحان العلىّ الأعلى، سبحانه وتعالى[٣].

وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أى: وما من شىء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله[٤]﴿وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أى: لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس؛ لأنها بخلاف لغتكم. وهذا عام فى الحيوانات[٥] والنبات والجماد، وهذا أشهر القولين، كما ثبت فى صحيح البخارى، عن ابن مسعود أنه قال: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يُؤكل[٦].

وفى حديث أبى ذر: أن النبى[٧] ﷺ أخذ فى يده حصيات، فسمع لهن تسبيح كحنين النحل، وكذا يد أبى بكر وعمر وعثمان، رضى الله عنهم [أجمعين][٨]، وهو حديث مشهور فى المسانيد[٩].

وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا زَبَّان، عن سهل بن معاذ بن أنس، عن أبيه رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه مَرّ على قوم وهم وقوف على دوابّ لهم ورواحل، فقال لهم: «اركبوها سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكرا لله تعالى منه»[١٠].

وفى سنن النسائى عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: «نقيقها تسبيح»[١١].

وقال قتادة، عن عبد الله بن بَابِى[١٢]، عن عبد الله بن عمرو: أن الرجل إذا قال: « لا إله إلا الله»، فهى كلمة الإخلاص التى لا يقبل الله من أحد عملاً حتى يقولها. وإذا قال: «الحمد لله» فهى كلمة الشكر التى لم يشكر الله عبد قط حتى يقولها، وإذا قال: « الله أكبر» فهى تملأ[١٣] مابين السماء والأرض، وإذا قال: « سبحان الله»، فهى صلاة الخلائق التى لم يَدْعُ الله أحداً من خلقه إلا قَرّره بالصلاة والتسبيح. وإذا قال: « لاحول ولا قوة إلا بالله[١٤]»، قال: أسلم عبدى واستسلم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وهب بن جرير، حدثنا أبى، سمعت الصَّقْعَبَ بن زُهير[يحدث][١٥] عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو قال: أتى النبى ﷺ أعرابىّ عليه جبة

(١) فى ت، ف، أ: «الأقصى، فلما رجع كان». (٢) فى ت: « السبع السموات».

(٣) المعجم الأوسط برقم(٥٨)« مجمع البحرين» وقال: « لايروى عن النبى ﷺ إلا بهذا الإسناد، تفرد به سعيد». وذكر الذهبى هذا الحديث فى الميزان (٤/ ١٠١) فى ترجمة مسكين بن أبى ميمون وقال:« منكر».

(٤) فى ف : «بحمده». (٥) فى ت، ف: « الحيوان ».

(٦) صحيح البخارى برقم (٣٥٧٩).

(٧) فى ت، ف، أ: « أن رسول الله». (٨) زيادة من ف.

(٩) رواه أحمد فى المسند (٤/ ٤١٥).

(١٠) المسند (٣/٤٣٩).

(١١) سنن النسائى(٧/ ٢١٠) من حديث عبد الرحمن بن عثمان، رضى الله عنه.

(١٢) فى ت: « بانى »، وفى ف: « أبى». (١٣) فى ت: « الله أكبر ملأ». (١٤) فى أ:«بالله العلى العظيم».

(١٥) زيادة من ف، أ، والمسند.

من طيالسة مكفوفة[١] بديباج ـ أو: مزورة بديباج ـ فقال: إن صاحبكم هذا يريد أن يرفع كل راع ابن راع، ويضع كل رأس ابن رأس. فقام إليه النبى ﷺ مغضبًا، فأخذ بمجامع جبته فاجتذبه، فقال: «لا أرى عليك ثياب من لا يعقل». ثم رجع رسول الله ﷺ فجلس فقال: «إن نوحاً، عليه السلام، لما حضرته الوفاة، دعا ابنيه [٢]فقال: إنى قاص عليكما الوصية: آمركما باثنتين وأنهاكما عن اثنتين: أنهاكما عن الشرك بالله والكبر، وآمركما بلا إله إلا الله، فإن السموات والأرض وما بينهما لو وضعت فى كفة الميزان، ووضعت« لا إله إلا الله» فى الكفة الأخرى، كانت أرجح، ولو أن السموات والأرض كانتا[٣] حلقة، فوضعت « لا إله إلا الله» عليهما لفصمتهما أو لقصمتهما. وآمركما بسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كل شىء، وبها يرزق كل شىء»[٤].

ورواه الإمام أحمد، أيضا، عن سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، عن الصَّقْعَب[٥] بن زهير، به أطول من هذا. تفرد به[٦].

وقال ابن جرير: حدثنى نصر بن عبد الرحمن الأوْدِىّ، حدثنا محمد بن يَعْلى، عن موسى بن عبيدة، عن زيد بن أسلم، عن جابر بن عبد الله، رضى الله عنه[٧] قال: قال رسول الله ﷺ:« ألا أخبركم بشىء أمر به نوح ابنه؟ إن نوحا، عليه السلام، قال لابنه: يابنى، آمرك أن تقول:« سبحان الله »، فإنها صلاة الخلق وتسبيح الخلق، وبها يرزق الخلق، قال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾»[٨]. إسناده فيه ضعف، فإن الربّذى[٩] ضعيف عند الأكثرين.

وقال عكرمة فى قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ قال: الأسطوانة تسبح، والشجرة تسبح[١٠] ـ الأسطوانة: السارية.

وقال بعض السلف: إن صرير الباب تسبيحه، وخرير الماء تسبيحه، قال الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾.

وقال سفيان الثورى، عن منصور، عن إبراهيم قال: الطعام يسبح.

ويشهد لهذا القول آية السجدة أول [سورة][١١] الحج.

وقال آخرون: إنما يسبح ماكان فيه روح. يعنون من حيوان أو نبات.

وقال قتادة فى قوله: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ قال: كل شىء فيه الروح يسبح من شجر[١٢] أو شىء فيه.

---

(١) فى ت، ف:« ملفوفة». (٢) فى ت: «بنيه». (٣) فى ت: «كانت».
(٤) المسند(٢/ ٢٢٥).
(٥) فى ف: «الصعقب».
(٦) المسند(٢/ ١٦٩).
(٧) فى ف: « عنهما».
(٨) تفسير الطبرى(١٥/ ٦٥).
(٩) فى ت: « الزيدى»، وفى ف:« الأودى». (١٠) فى ت، ف:«والشجر يسبح». (١١) زيادة من ف.
(١٢) فى ف:«من شجرة».

وقال الحسن، والضحاك في قوله: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ قالا: كل شيء فيه الروح.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن حميد، حدثنا يحيى بن واضح وزيد بن حباب قالا: حدثنا جرير أبو الخطاب قال: كنا مع يزيد الرَّقاشي، ومعه الحسن في طعام، فقدموا الخوان، فقال يزيد الرقاشي: يا أبا سعيد، يسبح هذا الخِوَان؟ فقال: كان يسبح مرة[(١)].

قلت: الخِوَان هو المائدة من الخشب. فكأن الحسن، رحمه الله، ذهب إلى أنه لما كان حيا فيه خضرة، كان يسبح، فلما قطع وصار خشبة يابسة انقطع تسبيحه. وقد يستأنس لهذا القول بحديث ابن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ مر بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير[(٢)]، أما أحدهما فكان لا يَسْتَتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي[(٣)] بالنميمة». ثم أخذ جريدة رطبة، فشقها نصفين، ثم غرز في كل قبر واحدة، ثم قال: « لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا». أخرجاه في الصحيحين[(٤)].

قال بعض من تكلم على هذا الحديث من العلماء: إنما قال: « ما لم ييبسا» لأنهما يسبحان مادام فيهما خضرة، فإذا يبسا انقطع تسبيحهما، والله أعلم.

وقوله[تعالى][(٥)]: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ أي: أنه [تعالى][(٦)] لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يؤجله وينظره، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر، كما جاء في الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ الآية [هود: ١٠٢][(٧)]، وقال[الله][(٨)] تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨]. ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان، ورجع إلى الله وتاب إليه، تاب عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وقال ههنا: ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ كما قال في آخر فاطر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ إلى أن قال: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾[فاطر: ٤١ ــ ٤٥].

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٦٥).
(٢) في ت: « كثير».
(٣) في ت: « وأما الآخر فيمشي»، وفي أ: « وكان الآخر يمشي».
(٤) صحيح البخاري برقم (٢١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٩٢).
(٥) زيادة من ت.
(٦) زيادة من ت.
(٧) صحيح البخاري برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم(٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري، رضي الله عنهما.
(٨) زيادة من ف، أ.

عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦)﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وإذا قرأت ـ يامحمد ـ على هؤلاء المشركين القرآن، جعلنا بينك وبينهم حجابا مستوراً.

قال قتادة، وابن زيد: هو الأكنّة على قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ**﴾[فصلت: ٥] أى: مانع حائل[١] أن يصل إلينا مما تقول شيء.

وقوله: ﴿**حِجَابًا مَّسْتُورًا**﴾ أى: بمعنى ساتر، كميمون ومشؤوم، بمعنى: يامن وشائم؛ لأنه من يَمنهم وشأمَهم.

وقيل: مستوراً عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى، ومال إلى ترجيحه ابن جرير، رحمه الله.

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا أبو موسى الهروى إسحاق بن إبراهيم، حدثنا سفيان، عن الوليد بن كثير، عن يزيد بن تدرس، عن أسماء بنت أبى بكر[الصديق][٢] رضى الله عنها[٣]، قالت: لما نزلت. ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾[سورة المسد] جاءت العوراء أم جميل ولها ولوَلَة، وفى يدها فِهْر وهى تقول: مُذَمَّما أتينا ــ أو: أبينا، قال أبو موسى: الشك منى ــ ودينه قَلَيْنَا، وأمره عصينا. ورسول الله جالس، وأبو بكر إلى جنبه ــ أو قال: معه ـ قال: فقال أبو بكر: لقد أقبلت هذه وأنا أخاف أن تراك، فقال: «إنها لن ترانى»، وقرأ قرآنا اعتصم به منها: ﴿**وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا**﴾. قال: فجاءت حتى قامت على أبى بكر، فلم تر النبىّ ﷺ، فقالت: يا أبا بكر، بلغنى أن صاحبك هجانى. فقال أبو بكر: لاورب هذا البيت ما هجاك. قال: فانصرفت وهى تقول: لقد[٤] علمت قريش أنى بنت سيدها[٥].

وقوله: ﴿**وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً**﴾: جمع «كنان»، الذى يغشى القلب﴿**أَن يَفْقَهُوهُ**﴾أى: لئلا يفهموا القرآن﴿**وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا**﴾ وهو الثقل الذى يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به.

وقوله: ﴿**وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ**﴾ أى: إذا وحّدت الله فى تلاوتك، وقلت: «لا إله إلا الله» ﴿**وَلَّوْا**﴾ أى: أدبروا راجعين ﴿**عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا**﴾ ونفور: جمع نافر، كقعود جمع قاعد، ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل، والله أعلم، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾[الزمر: ٤٥].

قال قتادة فى قوله: ﴿**وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا**﴾: إن المسلمين لما قالوا: «لا إله إلا الله»، أنكر ذلك المشركون، وكبرت عليهم، وضاقها إبليس وجنوده، فأبى الله إلا أن يمضيها وينصرها ويُفْلجها ويظهرها على من ناوأها، إنها كلمة من خاصم بها فلج، ومن قاتل بها

(١) فى ف: «مانع وحائل». (٢) زيادة من ت. (٣) فى ف، أ: « عنهما».
(٤) فى ف: «قد».
(٥) مسند أبى يعلى (١/ ٥٣) وحسنه الحافظ ابن حجر فى الفتح (٧/ ١٦٩).

نصر، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة من المسلمين، التى يقطعها الراكب فى ليال قلائل، ويسير الدهر فى فئام من الناس، لا يعرفونها ولا يقرّون بها.

قول آخر فى الآية:

وروى[(١)] ابن جرير: حدثنى الحسين بن محمد الذارع[(٢)]، حدثنا روح بن المسيب أبو رجاء الكلبى، حدثنا عمرو بن مالك، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا**﴾: هم الشياطين.

هذا غريب جدًا فى تفسيرها، وإلا فالشياطين[(٣)] إذا قرئ القرآن، أو نودى بالأذان، أو ذكر الله، انصرفوا[(٤)].

﴿**نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا (٤٧) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٤٨)**﴾.

يخبر تعالى نبيه ــ صلوات الله [وسلامه][(٥)] عليه ــ بما تناجى به رؤساء كفار قريش، حين جاؤوا يستمعون قراءة رسول الله ﷺ سراً من قومهم، بما قالوا من أنه رجل مسحور، من السّحر على المشهور، أو من «السَّحْر»، وهو الرئة، أى: إن تتبعون ـ إن اتبعتم محمداً ــ ﴿**إلا بشرًا**﴾ يأكل [ويشرب][(٦)]، كما قال الشاعر[(٧)]:

فَإن تَسألينا فيم نَحْنُ فَإنَّنا   عصافيرُ مِنْ هَذا الأنَام المُسَحَّر

وقال الراجز[(٨)]:

ونُسْحَر[(٩)] بالطَّعام وبالشراب

أى: نُغذى: وقد صوب هذا القول ابنُ جرير، وفيه نظر؛ لأنهم إنما أرادوا ههنا أنه مسحور له رئى يأتيه بما استمعوه من الكلام الذى يتلوه ومنهم من قال: «شاعر»، ومنهم من قال: «كاهن»، ومنهم من قال: «مجنون»، ومنهم من قال: «ساحر»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً**﴾ أى: فلا يهتدون إلى الحق، ولا يجدون إليه مخلصاً.

قال محمد بن إسحاق فى السيرة: حدثنى محمد بن مسلم[(١٠)] بن شهاب الزهرى، أنه حُدث أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شَرِيق بن عمرو بن وهب الثقفى، حليف ابن[(١١)] زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلى بالليل فى بيته، فأخذ كل واحد

(١) فى ت، ف: «قال». (٢) فى ت، ف، أ: «الذراع». (٣) فى ف: «فالشيطان».
(٤) فى ف: «انصرف». (٥) زيادة من ت، ف، أ. (٦) زيادة من ف، أ.
(٧) هو لبيد بن ربيعة، والبيت فى ديوانه (ص٥٧).
(٨) هو امرؤ القيس، والرجز فى اللسان مادة «سحر».
(٩) فى ت: «تسحر»، وفى أ: «تسحرنا». (١٠) فى ت: «سلام». (١١) فى أ: «بنى».

منهم مجلسًا يستمع فيه، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا. حتى إذا جمعتهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئًا، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا حتى إذا جمعتهم[1] الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل[2] منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجَمعهم[3] الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لانعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شَرِيق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب فى بيته، فقال: أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعتُ أشياء أعرفها وأعرف مايُراد بها، وسمعتُ أشياء ماعرفتُ معناها، ولا ما يراد بها. قال الأخنس: وأنا والذى حَلَفت به. قال: ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، مارأيك فيما سمعت من محمد؟ قال: ماذا سمعتُ؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الرُّكب، وكنا كفَرَسى رِهان قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لانؤمن به[4] أبدا ولا نصدقه. قال: فقام عنه الأخنس وتركه[5].

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد، القائلين استفهام إنكار منهم لذلك: **﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ﴾** أى: تراباً. قاله مجاهد.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: غباراً.

﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أى: يوم القيامة **﴿ خَلْقًا جَدِيدًا﴾** أى: بعد ما بلينا وصرنا عدماً لايذكر. كما أخبر عنهم فى الموضع الآخر: **﴿يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ . أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً . قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾**[النازعات: ١٠ـ١٢]، قال تعالى[6]: **﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ .قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾**[يس: ٧٨، ٧٩].

---

(١) فى ف، أ: «تفرقوا فجمعتهم». (٢) فى ت: «كل واحد». (٣) فى ت، ف، أ: «حتى إذا اجمعتهم».
(٤) فى ف: «بهذا».
(٥) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣١٥).
(٦) فى ف: «وقال تعالى».

وهكذا أمر رسوله ههنا[١] أن يجيبهم فقال: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ وهما[٢] أشد امتناعا من العظام والرفات ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾.

قال ابن إسحاق عن ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: سألت ابن عباس عن ذلك فقال: هو الموت.

وروى عطية، عن ابن عمر أنه قال فى تفسير هذه الآية: لو كنتم موتى لأحييتكم. وكذا قال سعيد بن جبير، وأبو صالح، والحسن، وقتادة، والضحاك.

ومعنى ذلك: أنكم لو فرضتم أنكم لو[٣] صِرتُم مَوْتاً الذى هو ضد الحياة، لأحياكم الله إذا شاء، فإنه لا يمتنع[٤] عليه شىء إذا أراده.

وقد ذكر بن جرير [هاهنا][٥] حديث: « يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كَبْش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، ثم يقال: يا أهل الجنة، أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. ثم يقال: ياأهل النار، أتعرفون هذا؟ فيقولون: نعم. فيذبح بين الجنة والنار، ثم يقال: ياأهل الجنة، خلود بلا موت، ويا أهل النار، خلود بلا موت»[٦].

وقال مجاهد: ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ يعنى: السماء والأرض والجبال.

وفى رواية: ما شئتم فكونوا، فسيعيدكم الله بعد موتكم.

وقد وقع فى التفسير المروى عن الإمام مالك، عن الزهرى فى قوله: ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ قال: النبى ﷺ، قال مالك: ويقولون: هو الموت.

وقوله[تعالى][٧]: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ﴾ أى: من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديدًا أو خلقًا آخر شديدًا﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أى: الذى خلقكم ولم تكونوا شيئًا مذكوراً، ثم صرتم بشرًا تنتشرون؛ فإنه قادر على إعادتكم ولو صرتم إلى أى حال ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم :٢٧].

وقوله[تعالى][٨]: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾: قال ابن عباس وقتادة: يحركونها استهزاء.

وهذا الذى قالاه هو الذى تفهمه العرب من لغاتها؛ لأن[٩] الإنغاض هو: التحرك من أسفل إلى أعلى،أو من أعلى إلى أسفل، ومنه قيل للظليم ـ وهو ولد النعامة ـ: نغضًا؛ لأنه إذا مشى عَجل[١٠] فى مشيته وحرَك رأسه. ويقال: نَغضَت[١١] سنُه إذا تحركت وارتفعت من مَنْبَتها؛ قال الراجز[١٢]:

ونَغضَتْ مِنْ هَرَم أسنانها

وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ﴾ إخبار عنه بالاستبعاد منهم لوقوع[١٣] ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ

---

(١) فى ف: « هنا». (٢) فى ف: «إذا هما». (٣) فى ف: «قد».
(٤) فى ت : « إذا شاء فلا». (٥) زيادة من أ.
(٦) تفسير الطبرى (١٥/ ٦٩) من طريق العوفيين عن ابن عمر، رضى الله عنه، وإسناده مسلسل بالضعفاء وأصله فى صحيح مسلم برقم(٢٨٤٩) من حديث أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه.
(٧، ٨) زيادة من ت. (٩) فى ت، ف: «فإن».
(١٠) فى ت، ف: « أعجل». (١١) فى ت: «نغض».
(١٢) الرجز فى تفسير الطبرى (١٥/ ٧٠).
(١٣) فى ت: « وقوع».

مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[الملك: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

وقوله: ﴿ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾أى: احذروا ذلك، فإنه قريب إليكم، سيأتيكم لا محالة، فكل ما هو آت آت.

وقوله[تعالى][(1)]: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ أى: الرب تعالى ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥] أى: إذا أمركم بالخروج منها فإنه لا يُخالَف ولا يُمَانع، بل كما قال[تعالى][(2)]: ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠]، ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال: ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤] أى: إنما هو أمر واحد بانتهار، فإذا الناس قد خرجوا من باطن الأرض إلى ظاهرها[(3)]، كما قال: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ أى: تقومون[(4)] كلكم إجابة لأمره وطاعة لإرادته.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أى: بأمره. وكذا قال ابن جريج.

وقال قتادة: بمعرفته وطاعته.

وقال بعضهم: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ﴾ أى: وله الحمد فى كل حال، وقد جاء فى الحديث: «ليس على أهل« لا إله إلا الله» وحشة فى قبورهم، وكأنى[(5)] بأهل«لا إله إلا الله» يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم، يقولون: لا إله إلا الله». وفى رواية يقولون: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾ [فاطر: ٣٤] وسيأتى فى سورة فاطر [إن شاء الله تعالى][(6)].

وقوله: ﴿ وَتَظُنُّونَ ﴾ أى: يوم تقومون من قبوركم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ ﴾ [أى][(7)]: فى الدار الدنيا ﴿إِلاَّ قَلِيلاً ﴾، وكما قال: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ [النازعات: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا . يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْرًا .نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢ ـ ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾[الروم: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ . قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ ــ ١١٤].

﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) ﴾.

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا فى مخاطبتهم ومحاورتهم الكلام

(١، ٢) زيادة من ت. (٣) فى ت: «ظهرها». (٤) فى ت، ف: «تقولون».
(٥) فى ت، ف: « فكأنى». (٦) زيادة من ف، أ. (٧) زيادة من ف.

الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإنه إذ لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإن الشيطان عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، فعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ فى يده، أى: فربما أصابه بها.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمر، عن همام، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لايشيرنّ أحدكم إلى أخيه بالسلاح، فإنه لا يدرى أحدكم لعل الشيطان أن ينزع فى يده، فيقع فى حفرة من نار[(١)]».

أخرجاه من حديث عبد الرزاق[(٢)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أنبأنا على بن زيد، عن الحسن قال: حدثنى رجل من بنى سَلِيط قال: أتيت النبى ﷺ وهو فى أَزْفَلَة من الناس، فسمعته يقول: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، التقوى هاهنا ـ [قال حماد: وقال بيده إلى صدره ـ ماتواد رجلان فى الله فتفرّق بينهما إلا بحدث يحدثه أحدهما][(٣)]، والمحدث شَر، والمحدث شر، والمحدث شر»[(٤)].

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٥٥) ﴾.

يقول الله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أيها الناس، من يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه ﴿ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ ﴾ [يامحمد][(٥)] ﴿عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ أى: إنما أرسلناك نذيرًا، فمن أطاعك دخل الجنة، ومن عصاك دخل النار.

وقوله: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أى: بمراتبهم فى الطاعة والمعصية ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ﴾ كما قال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وهذا لا ينافى ما [ثبت][(٦)] فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا تفضلوا بين الأنبياء»[(٧)]؛ فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهى والعصبية[(٨)]، لا بمقتضى الدليل، [فإنه إذا دل الدليل][(٩)] على شىء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولى العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصا[(١٠)] فى آيتين من القرآن فى سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ

---

(١) فى ف، أ: «النار».

(٢) المسند(٢/٣١٧) وصحيح البخارى برقم (٧٠٧٢) وصحيح مسلم برقم (٢٦١٧).

(٣) زيادة من ف، أ، والمسند.

(٤) المسند(٥/٧١).

(٥) زيادة من ف، أ. (٦) زيادة من ف.

(٧) صحيح البخارى برقم (٣٤١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧٣) من حديث أبى هريرة ،رضى الله عنه.

(٨) فى ت: « والمعصية». (٩) زيادة من ف، وفى ت: « فإنه إذا كان». (١٠) فى ت: «قصا».

أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب:٧]، وفى الشورى[فى قوله][1] : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى:١٣]. ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى على المشهور، وقد بسطنا هذا بدلائله فى غير هذا الموضع، والله الموفق.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ تنبيه على فضله وشرفه.

قال البخارى: حدثنا إسحاق بن نصر، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمر، عن هَمَّام، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال: « خُفف على داود القرآن، فكان يأمر بدابته لتُسْرج، فكان يقرأ قبل أن يَفْرغ». يعنى القرآن[2].

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد، فارغبوا إليهم، فإنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ﴾أى: بالكلية، ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أى: أن يحولوه إلى غيركم.

والمعنى: أن الذى يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذى له الخلق والأمر.

قال العَوْفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ قال: كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيرا، وهم الذين يدعون، يعنى الملائكة والمسيح وعزيراً.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾. روى البخارى، من حديث سليمان بن مهْران الأعمش، عن إبراهيم، عن أبى مَعْمر، عن عبد الله فى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: ناس من الجن، كانوا يعبدون، فأسلموا. وفى رواية قال: كان ناس من الإنس، يعبدون ناساً من الجن، فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم[3].

وقال قتادة، عن معبد [4]بن عبد الله الزِّمَّانى[5]، عن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن ابن مسعود فى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: نزلت فى نفر من العرب، كانوا يعبدون نفراً من الجن، فأسلم الجِنِّيُّون، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم،

(١) زيادة من ف.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧١٣).

(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧١٤، ٤٧١٥).

(٤) فى ت: « سعيد». (٥) فى ت، ف: «الرمانى».

فنزلت هذه الآية.

وفى رواية عن ابن مسعود: كانوا يعبدون صنفاً من الملائكة يقال لهم: الجن، فذكره.

وقال السدى، عن أبى صالح، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ** ﴾ قال: عيسى وأمه، وعُزير.

وقال مغيرة، عن إبراهيم: كان ابن عباس يقول فى هذه الآية: هم عيسى، وعُزير، والشمس، والقمر.

وقال مجاهد: عيسى، والعُزير، والملائكة.

واختار ابن جرير قول ابن مسعود؛ لقوله: ﴿**يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ**﴾، وهذا لا يعبر به[(١)] عن الماضى، فلا يدخل فيه عيسى والعُزير. قال: والوسيلة هى القربة، كما قال قتادة؛ ولهذا قال: ﴿**أَيُّهُمْ أَقْرَبُ**﴾.

وقوله: ﴿**وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ**﴾: لاتتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف ينكف[(٢)] عن المناهى، وبالرجاء ينبعث على[(٣)] الطاعات.

وقوله: ﴿ **إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** ﴾ أى: ينبغى أن يحذر منه، ويخاف من وقوعه وحصوله، عياذاً بالله منه.

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) ﴾.

هذا إخبار من الله بأنه قد حتَمَ وقضى بما قد كتبه عنده فى اللوح المحفوظ: أنه ما من قرية إلا سيهلكها، بأن يبيد أهلها جميعَهم أو يعذبهم ﴿**عَذَابًا شَدِيدًا**﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم، كما قال عن الأمم الماضين: ﴿ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ**﴾ [هود: ١٠١] وقال تعالى: ﴿**وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا . فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا** ﴾ [الطلاق: ٧، ٨].

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩) ﴾.

قال سُنَيْد، عن حماد بن زيد، عن أيوب، عن سعيد بن جُبَيْر قال: قال المشركون: يا محمد، إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء، فمنهم من سُخّرت له الريح، ومنهم من كان يحيى الموتى، فإن سرّك أن نؤمن بك ونصدقك، فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهباً. فأوحى الله إليه: « إنى قد سمعت الذى

---

(١) فى ت: «لا يغن به». (٢) فى ف، أ: «ينكشف». (٣) فى ف: «إلى».

قالوا، فإن شئت أن نفعل الذى قالوا، فإن لم يؤمنوا نزل العذاب؛ فإنه ليس بعد نزول الآية مناظرة، وإن شئت أن نَستأنى بقومك استأنيتُ بهم؟» قال: «يارب، استأن بهم».

وكذا قال قتادة، وابن جريج، وغيرهما.

قال[1] الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن محمد، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن جعفر بن إياس[2]، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن نستأنى بهم، وإن شئت أن نُؤتيهم الذى سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلكتُ من كان قبلهم من الأمم: قال: «لا، بل استأن بهم». وأنزل الله: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾. رواه[3] النسائى من حديث جرير، به[4].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن سَلَمة بن كُهيل، عن عمران أبى الحكم[5]، عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبى ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا، ونؤمن بك. قال: «وتفعلون؟» قالوا: نعم. قال: فدعا، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح الصفا لهم ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عَذّبته عذاباً لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة. فقال:« بل باب التوبة والرحمة»[6].

وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده: حدثنا محمد بن إسماعيل بن على الأنصارى، حدثنا خلف ابن تميم المصيصى، عن عبد الجبار بن عمار الأيلىّ، عن عبد اللّه بن عطاء بن إبراهيم، عن جدته أم عطاء مولاة الزبير بن العوام قالت: سمعت الزبير يقول: لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صاح رسول اللّه ﷺ على أبى قُبيس: «يا آل عبد مناف، إنى نذير! » فجاءته قريش فحذرهم وأنذرهم، فقالوا: تزعم أنك نبى يوحى إليك، وأن سليمان سخر له الريح والجبال، وأن موسى سخر له البحر، وأن عيسى كان يحيى الموتى، فادع اللّه أن يسير عنا هذه الجبال، ويفجر[7] لنا الأرض أنهاراً، فنتخذها محارث فنزرع ونأكل، وإلا فادع اللّه أن يحيى لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا، وإلا فادع اللّه أن يصير لنا هذه الصخرة التى تحتك ذهباً، فننحت منها، وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك تزعم أنك كهيئتهم! قال: فبينا نحن حوله، إذ نزل عليه الوحى، فلما سرى عنه قال:«والذى نفسى بيده، لقد أعطانى ما سألتم، ولو شئت لكان، ولكنه خيرنى بين أن تدخلوا باب الرحمة، فيؤمن مؤمنكم، وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم، فتضلوا عن باب الرحمة، فلا يؤمن منكم أحد، فاخترت باب الرحمة، فيؤمن مؤمنكم. وأخبرنى أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم، أنه يعذبكم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين » ونزلت: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن

---

(١) فى ف: «وقال». (٢) فى ف، أ:« ابن أبى إياس». (٣) فى أ: «قد رواه».

(٤) المسند (١/ ٢٥٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٩٠).

(٥) فى هـ: « عمران بن حكيم»، والتصويب من أطراف المسند وكتب الرجال.

(٦) المسند(١/ ٢٤٢).

(٧) فى ف: «وتفجر».

كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُون ﴾ وحتى قرأ ثلاث آيات ونزلت: ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ**﴾ [الرعد: ٣١][1] .

ولهذا قال تعالى: ﴿ **وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ** ﴾ أى: نبعث الآيات ونأتى بها على ما سأل قومك منك، فإنه سهل علينا يسير لدينا، إلا أنه قد كذب بها الأولون بعدما سألوها، وجرت سنتنا فيهم وفى أمثالهم أنهم لايؤخرون إذا كذبوا بها بعد نزولها، كما قال اللّه تعالى فى المائدة: ﴿**قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ** ﴾ [المائدة: ١١٥]. وقال تعالى عن ثمود، حين سألوا آية: ناقة تخرج[2] من صخرة عيّنوها، فدعا صالح ربه، فأخرج له منها ناقة على ما سألوا ﴿**فَظَلَمُوا بِهَا** ﴾[3] أى: كفروا بمن خلقها، وكذبوا رسوله وعقروا الناقة فقال: ﴿**تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ**﴾ [هود: ٦٥]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ**﴾ أى: دالة على وحدانية من خلقها وصدق الرسول الذى أجيب دعاؤه فيها ﴿**فَظَلَمُوا بِهَا** ﴾ أى: كفروا بها ومنعوها شِربها وقتلوها، فأبادهم اللّه عن آخرهم، وانتقم منهم، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وقوله: ﴿**وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا**﴾ قال قتادة: إن اللّه خوف الناس بما يشاء[4] من آياته لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون، ذُكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود فقال: يا أيها الناس، إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه.

وهكذا رُوى أن المدينة زُلزلت على عهد عمر بن الخطاب مرات، فقال عمر: أحدثتم، واللّه لئن عادت لأفعلن ولأفعلن . وكذا قال رسول اللّه ﷺ فى الحديث المتفق عليه: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات اللّه، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن اللّه، عز وجل، يرسلهما يخوف بهما[5] عباده، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره». ثم قال: « يا أمة محمد، واللّه ما أحد أغير من اللّه أن يزنى عبده أو تزنى أمته ؛ يا أمة محمد، واللّه لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً »[6].

﴿ **وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠)** ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرّضاً له على إبلاغ رسالته، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس، فإنه القادر عليهم، وهم فى قبضته وتحت قهره وغلبته .

قال مجاهد، وعروة بن الزبير، والحسن، وقتادة، وغيرهم فى قوله : ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ**

(١) مسند أبى يعلى (٢/ ٤٠) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٨٥): «رواه أبو يعلى من طريق عبد الجبار بن عمر الأيلى، عن عبد الله بن عطاء بن ابراهيم، وكلاهما وثق، وقد ضعفهما الجمهور».

(٢) فى ف، أ: « أن يخرج لهم ناقة». (٣) فى أ: « فلما ظلموا بها» وهو خطأ. (٤) فى ف: « بأشياء».

(٥) فى ف، أ: «ولكن يخوف الله بهما».

(٦) صحيح البخارى برقم (١٠٤٤) وصحيح مسلم برقم (٩٠١).

بِالنَّاسِ﴾ أى: عصمك منهم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال البخارى: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا سفيان، عن عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال: هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ[1] ليلة أسرى به ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآنِ﴾ شجرة الزقوم[2].

وكذا رواه أحمد، وعبد الرزاق، وغيرهما، عن سفيان بن عيينة به[3]، وكذا رواه العوفى، عن ابن عباس، وهكذا فسر ذلك بليلة الإسراء: مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، ومسروق، وإبراهيم، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد، وغير واحد. وقد تقدمت أحاديث الإسراء فى أول السورة مستقصاة، ولله[4] الحمد والمنة. وتقدم أن ناساً رجعوا عن دينهم بعدما كانوا على الحق؛ لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجعل الله ذلك ثباتاً ويقيناً لآخرين؛ ولهذا[5] قال: ﴿إِلاَّ فِتْنَةً﴾ أى: اختباراً وامتحاناً. وأما «الشجرة الملعونة»، فهى شجرة الزقوم، كما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم، فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل لعنه الله[6] [بقوله][7]: هاتوا لنا تمراً وزبداً، وجعل يأكل هذا بهذا ويقول: تَزَقَّموا، فلا نعلم الزقوم غير هذا.

حكى ذلك ابن عباس، ومسروق، وأبو مالك، والحسن البصرى، وغير واحد، وكل من قال: إنها ليلة الإسراء، فسره كذلك[8] بشجرة الزقوم.

وقد قيل: المراد بالشجرة الملعونة: بنو أمية. وهو غريب ضعيف.

قال ابن جرير: حدثت عن محمد بن الحسن بن زَبَالة، حدثنا عبد المهيمن بن عباس بن سهل ابن سعد، حدثنى أبى عن جدى قال: رأى رسول الله ﷺ بنى فلان ينزون على منبره نَزو القرود[9]، فساءه ذلك، فما استجمع ضاحكاً حتى مات. قال: وأنزل[10] الله فى ذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ الآية[11].

وهذا السند ضعيف جداً؛ فإن «محمد بن الحسن بن زَبَالة» متروك، وشيخه أيضاً ضعيف بالكلية. ولهذا اختار ابن جرير: أن المراد بذلك ليلة الإسراء، وأن الشجرة الملعونة هى شجرة الزقوم، قال: لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك، أى: فى الرؤيا والشجرة.

وقوله: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أى: الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ أى: تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال. وذلك من خذلان الله لهم.

---

(١) فى ف: «النبى ﷺ».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧١٦).

(٣) المسند(١/ ٢٢١).

(٤) فى ت: «فلله». (٥) فى ت: «فلهذا». (٦) فى ف، أ: «عليه لعائن الله».

(٧)زيادة من ت. (٨) فى ف: «فسر ذلك». (٩) فى أ: «القردة». (١٠) فى ف: «فأنزل».

(١١) تفسير الطبرى (١٥/ ٧٧).

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً (٦٢) ﴾.

يذكر تعالى عَدَاوَةَ إبليس ـ لعنه اللَّه ـ لآدم،عليه السلام، وذريته، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود، فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له؛ افتخاراً عليه واحتقاراً له ﴿ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقال أيضاً: ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾، يقول للرب جراءة وكفراً، والرب يحلم(١) وينظر ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس يقول: لأستولين على ذريته إلا قليلاً.

وقال مجاهد: لأحتوين. وقال ابن زيد: لأضلنهم.

وكلها متقاربة، والمعنى: أنه يقول: أرأيتك هذا الذى شرفته وعظمته علىّ، لئن أنظرتنى لأضلن ذرّيته إلا قليلاً منهم!

﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلاً (٦٥) ﴾.

لما سأل إبليس[عليه اللعنة](٢) النظرة قال اللَّه له: ﴿اذْهَبْ﴾ فقد أنظرتك. كما قال فى الآية الأخرى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ . إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر ٣٧، ٣٨] ثم أوعده ومن تَبِعه من ذرية آدم جهنم، فقال: ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ﴾ أى: على أعمالكم ﴿جَزَاءً مَّوْفُورًا﴾.

قال مجاهد: وافراً. وقال قتادة: مُوَفَّرا عليكم، لا ينقص لكم منه.

وقوله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قيل: هو الغناء. قال مجاهد: باللهو والغناء، أى: استخفهم بذلك.

وقال ابن عباس فى قوله: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ قال: كل داع دعا إلى معصية اللَّه، عز وجل، وقاله قتادة، واختاره ابن جرير.

---

(١) فى ت، أ: «يحكم». (٢) زيادة من ف، أ.

وقوله : ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ يقول: واحمل عليهم بجنودك خَيَّالتهم ورَجْلَتَهم[١]؛ فإن «الرَّجْل» جمع «راجل»، كما أن «الركب» جمع «راكب» و «صحب» جمع «صاحب».

ومعناه: تسلط عليهم لكل ما تقدر عليه. وهذا أمر قدرى، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣] أى: تزعجهم إلى المعاصى إزعاجاً، وتسوقهم إليها[٢] سوقاً. وقال ابن عباس، ومجاهد فى قوله: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ قال: كل راكب وماش فى معصية اللَّه.

وقال قتادة: إن له خيلاً ورجالاً من الجن والإنس، وهم الذين يطيعونه.

وتقول العرب: «أجلب فلان على فلان»: إذا صاح عليه. ومنه: «نهى فى المسابقة عن الجَلَب والجَنَب» ومنه اشتقاق «الجلبة»، وهى ارتفاع الأصوات.

وقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال فى معاصى اللَّه.

وقال عطاء: هو الربا. وقال الحسن: [هو][٣] جمعها من خبيث، وإنفاقها فى حرام. وكذا قال قتادة.

وقال العوفى، عن ابن عباس، رضى اللَّه عنهما: أما مشاركته إياهم فى أموالهم، فهو ما حرموه من أنعامهم، يعنى: من البحائر والسوائب ونحوها. وكذا قال الضحاك وقتادة.

[ثم][٤] قال ابن جرير : والأولى أن يقال: إن الآية تعم ذلك كله .

وقوله : ﴿وَالأَوْلادِ﴾ قال العوفى عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: يعنى أولاد الزنا.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغير علم.

وقال قتادة، عن الحسن البصرى: قد واللَّه شاركهم فى الأموال والأولاد مَجَّسُوا وهودوا ونَصَّروا وصبغوا غير صبغة الإسلام، وجَزَّؤوا من أموالهم جزءاً للشياطين[٥] ، وكذا قال قتادة سواء.

وقال أبو صالح، عن ابن عباس: هو تسميتهم أولادهم «عبد الحارث» و«عبد شمس» و«عبد فلان».

قال ابن جرير: وأولى الأقوال بالصواب أن يقال: كل مولود ولدته أنثى، عصى اللَّه فيه، بتسميته ما[٦] يكرهه اللَّه، أو بإدخاله فى غير الدين الذى ارتضاه اللَّه، أو بالزنا بأمه، أو بقتله ووأده، وغير ذلك من الأمور التى يعصى[٧] اللَّه بفعله به أو فيه، فقد دخل فى مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك الولد له أو منه؛ لأن اللَّه لم يخصص بقوله: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ﴾ معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى، فكل ماعصى اللَّه فيه ـ أو به، و أطيع فيه الشيطان ـ أو به، فهو مشاركة.

---

(١) فى ت، ف: «ورجالتهم». (٢) فى ت: « إلينا». (٣، ٤) زيادة من ف، أ.
(٥) فى ف: «الشيطان». (٦) فى ف: «بما».
(٧) فى ت: «يعفى».

وهذا الذى قاله مُتَّجه، وكل[1] من السلف، رحمهم اللَّه، فسر بعض المشاركة، فقد ثبت فى صحيح مسلم، عن عياض بن حمار[2]، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «يقول اللَّه عز وجل: إنى خلقت عبادى حُنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم[3] عن دينهم، وحَرّمت عليهم ما أحللت لهم»[4].

وفى الصحيحين أن رسول اللَّه ﷺ قال: «لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتى أهله قال: بسم اللَّه، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقَدّر بينهما ولد فى ذلك، لم يضره الشيطان أبداً»[5].

وقوله: ﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ كما أخبر تعالى عن إبليس أنه يقول إذا حصحص الحق يوم يقضى بالحق: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ الآية [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾: إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين، وحفظه إياهم، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ أى: حافظاً ومؤيداً وناصراً.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لَهيعة، عن موسى بن وَرْدَان، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن المؤمن ليُنْضى شياطينه[6]، كما ينضى أحدكم بَعيَره فى السفر»[7].

ينضى، أى: يأخذ بناصيته ويقهره.

﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦)﴾.

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه فى تسخيره لعباده الفلك فى البحر، وتسهيلها[8] لمصالح عباده، لابتغائهم من فضله[9] فى التجارة من إقليم إلى إقليم؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أى: إنما فعل هذا بكم، من فضله عليكم، ورحمته بكم.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا (٦٧)﴾.

---

(١) فى ت، ف: «فكل».
(٢) فى ف، أ: «عن ابن عباس عن عياض بن حمار». وفى ت: «حماد» بدل «حمار».
(٣) فى ت: «واجتالتهم».
(٤) صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥).
(٥) صحيح البخارى برقم (١٤١) وصحيح مسلم برقم (١٤٣٤).
(٦) فى ت: «شيطانه».
(٧) المسند (٢/ ٣٨٠).
(٨) فى ت، ف، أ: «وتسهيله لها».
(٩) فى ف، أ: «فضله لهم».

يخبر تعالى أنه إذا مس الناس ضرٌ، دعوه منيبين إليه، مخلصين له الدين؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ أى: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله، كما اتفق لعكرمة بن أبى جهل لما ذهب فاراً من رسول اللَّه ﷺ حين فتح مكة، فذهب هارباً، فركب فى البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم[١] ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لايغنى عنكم إلا أن تدعوا اللَّه وحده. فقال عكرمة فى نفسه: واللَّه لئن كان لا ينفع فى البحر غيره، فإنه لا ينفع فى البر غيره، اللهم لك علىّ عهد، لئن أخرجتنى منه لأذهبن فأضعن[٢] يدى فى يديه[٣]، فلأجدنه رؤوفاً رحيماً. فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول اللَّه ﷺ فأسلم وحسن[٤] إسلامه، رضى اللَّه عنه وأرضاه.

وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ أى: نسيتم ماعرفتم من توحيده فى البحر، وأعرضتم عن دعائه وحده لاشريك له.

﴿وَكَانَ الإِنسَانُ كَفُورًا﴾ أى: سَجيَّته هذا، ينسى النعم ويجحدها، إلا من عصم اللَّه.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً (٦٨)﴾.

يقول تعالى: أفحسبتم أن نخرجكم[٥] إلى البر أمنتم من انتقامه وعذابه!

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، وهو: المطر الذى فيه حجارة. قاله مجاهد، وغير واحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ[٦] حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤] وقد قال فى الآية الأخرى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ[٧]﴾ [هود: ٨٢]، وقال: ﴿أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ . أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

وقوله: ﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾ أى: ناصراً يرد ذلك عنكم، وينقذكم منه [والله سبحانه وتعالى أعلم][٨].

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩)﴾.

يقول تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا فى البحر، وخرجوا إلى البر[٩] ﴿أَن يُعِيدَكُمْ﴾ فى البحر مرة ثانية ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ﴾ أى: يقصف الصوارى

---

(١) فى ف: « فجاءهم». (٢) فى ت: « فاضع»، وفى ف: « فلأضعن». (٣) فى أ: « يدى محمد».
(٤) فى ت: «ﷺ فأحسن». (٥) فى ت: «أن يخرجوكم»، وفى ف، أ: «أن يخرجكم». (٦) فى ف: «عليكم» وهو خطأ.
(٧) فى ت، ف، أ: «من طين» وهو خطأ. (٨) زيادة من ف. (٩) فى ت: «إلى التراب».

ويغرق المراكب.

قال ابن عباس وغيره: القاصف: ريح البحار[١] التى تكسر المراكب وتغرقها[٢].

وقوله: ﴿ فَيُغْرِقَكُم [٣]بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ أى: بسبب كفركم وإعراضكم عن اللَّه تعالى.

وقوله: ﴿ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴾ قال ابن عباس: نصيراً.

وقال مجاهد: نصيراً ثائرًا، أى: يأخذ بثأركم بعدكم.

وقال قتادة: ولانخاف أحداً يتبعنا بشىء من ذلك.

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠) ﴾.

يخبر تعالى عن تشريفه لبنى آدم، وتكريمه إياهم، فى خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها[٤]، كما قال: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[التين: ٤] أى: يمشى قائماً منتصباً على رجليه، ويأكل بيديه ـ وغيره من الحيوانات يمشى على أربع ويأكل بفمه ـ وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً، يفقه بذلك كله وينتفع به، ويفرق بين الأشياء، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها فى الأمور الدنيوية والدينية.

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ [٥] ﴾أى: على الدواب من الأنعام والخيل والبغال، وفى ﴿ وَالْبَحْرِ ﴾ أيضًا على السفن الكبار والصغار.

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أى: من زروع وثمار، ولحوم وألبان، من سائر أنواع الطعوم[٦] والألوان، المشتهاة اللذيذة، والمناظر الحسنة، والملابس الرفيعة[٧] من سائر الأنواع، على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها، مما يصنعونه لأنفسهم، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحى.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ أى: من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات.

وقد استُدل بهذه الآية على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة، قال عبد الرزاق:

أخبرنا مَعْمَر، عن زيد بن أسلم قال: قالت الملائكة: يا ربنا، إنك أعطيت بنى آدم الدنيا، يأكلون منها ويتنعمون، ولم تعطنا ذلك فأعطناه فى الآخرة. فقال اللَّه: «وعزتى وجلالى لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى، كمن قلت له: كن فكان»[٨].

وهذا الحديث مرسل من هذا الوجه، وقد روى من وجه آخر متصلاً.

وقال[٩] الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أحمد بن محمد بن صَدَقَة البغدادى، حدثنا إبراهيم

---

(١) فى [illegible] البحارة». (٢) فى ف: « يكسر المراكب ويغرقها». (٣) فى ت: «فتغرقكم». وفى ف: « فيغرقكم».
(٤) فى أ: « وأجملها». (٥) فى ت، ف: «البر والبحر». (٦) فى ت: «الأطعمة».
(٧) فى ت، ف، أ: «المرتفعة».
(٨) تفسير عبد الرزاق(١/ ٣٢٥).
(٩) فى ف: «فقال».

ابن عبد اللَّه بن خالد المِصِّيصِيّ، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا أبو غَسَّان محمد بن مطرف، عن صفوان بن سُليم، عن عطاء بن يسار، عن عبد اللَّه بن عمرو، عن النبى ﷺ قال: « إن الملائكة قالت: يا ربنا، أعطيت بنى آدم الدنيا، يأكلون فيها(١) ويشربون ويلبسون، ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة. قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى، كمن قلت له: كن، فكان»(٢).

وقد روى ابن عساكر من طريق محمد بن أيوب الرازى، حدثنا الحسن بن على بن خلف الصيدلانى، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن، حدثنى عثمان بن حصن بن عبيدة بن عَلاَّق، سمعت عروة بن رُوَيْم اللخمى، حدثنى أنس بن مالك، عن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن الملائكة قالوا: ربنا، خلقتنا وخلقت بنى آدم، فجعلتهم يأكلون الطعام، ويشربون الشراب، ويلبسون الثياب، ويتزوجون النساء، ويركبون الدواب، ينامون(٣) ويستريحون، ولم تجعل لنا من ذلك شيئاً، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال اللَّه عز وجل: لا أجعل من خلقته بيدى، ونفخت فيه من روحى، كمن قلت له: كن، فكان»(٤).

وقال الطبرانى: حدثنا عبدان بن أحمد، حدثنا عمر(٥) بن سهل، حدثنا عبيد اللَّه بن تمام، عن خالد الحذاء، عن بشر بن شِغَاف(٦) عن أبيه، عن عبد اللَّه بن عمرو قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما شىء أكرم على اللَّه يوم القيامة من ابن آدم». قيل: يارسول اللَّه، ولا الملائكة؟ قال: «ولا الملائكة، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر» (٧). وهذا حديث غريب جداً.

﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً (٧٢) ﴾.

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة: أنه يحاسب كل أمة بإمامهم.

وقد اختلفوا فى ذلك، فقال مجاهد وقتادة: أى بنبيهم. وهذا كقوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[يونس: ٤٧].

---

(١) فى ت: «منها».

(٢) وفى إسناده إبراهيم بن عبد الله المصيصى وهو كذاب، ورواه فى المعجم الأوسط برقم (٨٧) «مجمع البحرين» من طريق طلحة بن زيد عن صفوان بن سليم به، وقال: «لم يروه عن صفوان إلا طلحة، وأبو غسان محمد بن مطرف» وفى إسناده طلحة بن زيد وهو كذاب.

(٣) فى ت: «وينامون».

(٤) وذكره الهندى فى كنز العمال (١٢/ ١٩١) وعزاه لابن عساكر من حديث أنس، وقد جاء من وجه آخر؛ فرواه الطبرانى فى مسند الشاميين من طريق أحمد بن يعلى، عن هشام بن عمار، عن عثمان بن علاق قال: سمعت عروة بن رويم يحدث عن جابر فذكره، ورواه البيهقى فى الأسماء والصفات من طريق جنيد بن حكيم، عن هشام بن عمار، عن عبد ربه بن صالح قال: سمعت عروة بن رويم يحدث عن جابر فذكره. ا. هـ. مستفاداً ذلك الزيلعى فى كتابه تخريج الكشاف.

(٥) فى ت، ف: «معمر». (٦) فى ف: «شعاب».

(٧) قال الهيثمى فى المجمع (١/ ٨٢): « رواه الطبرانى فى الكبير، وفيه عبيد الله بن تمام وهو ضعيف».

وقال بعض السلف: هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث؛ لأن إمامهم النبى ﷺ.

وقال ابن زيد: بكتابهم الذى أنزل على نبيهم، من التشريع.

واختاره ابن جرير، وروى عن ابن أبى نَجيح، عن مجاهد أنه قال: بكتبهم. فيحتمل أن يكون أراد هذا، وأن يكون أراد مارواه العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿يوم ندعو كلَّ أُناسٍ بإمامهم﴾ أى: بكتاب أعمالهم، وكذا قال أبو العالية، والحسن، والضحاك. وهذا القول هو الأرجح؛ لقوله تعالى: ﴿وكُلَّ شيء أَحْصَيْنَاهُ فى إمامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]. وقال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩].

وهذا لاينافى[1] أن يجاء بالنبى إذا حكم اللَّه بين أمته، فإنه لابد أن يكون شاهداً عليها بأعمالها، كما قال: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾، [الزمر: ٦٩]، وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١].

ولكن المراد ههنا بالإمام[2] هو كتاب الأعمال؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ أى: من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح، يقرؤه ويحب قراءته، كما قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ . إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ إلى أن قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ. وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٦].

وقوله: ﴿ وَلا يُظْلَمُونَ[3] فَتِيلاً ﴾ قد تقدم أن «الفتيل» هو الخيط المستطيل فى شق النواة.

وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً فى هذا فقال: حدثنا محمد بن يَعْمَر[4] ، ومحمد بن عثمان ابن كرامة قالا: حدثنا عبيد اللَّه بن موسى، عن إسرائيل، عن السُّدِّىّ، عن أبيه، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه، عن النبى ﷺ فى قول اللَّه : ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ قال: «يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه، ويمد له فى جسمه، ويُبَيَّض وجهه، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة تَتَلألأ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد، فيقولون: اللهم ائتنا[5] بهذا ، وبارك لنا فى هذا. فيأتيهم فيقول لهم: أبشروا، فإن لكل رجل منكم مثل هذا. وأما الكافر فَيُسْود وجهه، ويمدّ له فى جسمه، ويراه أصحابه فيقولون: نعوذ باللَّه من هذا ـ أو: من شر هذا ـ اللهم لاتأتنا به. فيأتيهم فيقولون: اللهم اخزه[6] . فيقول: أبعدكم اللَّه، فإن لكل رجل منكم مثل هذا ».

---

(١) فى ت، ف: «لا ينفى». (٢) فى ف: «بالإمام هاهنا». (٣) فى ف: «تظلمون».

(٤) فى ت، ف، أ: «معمر». (٥) فى هـ ، ت: «اعترينا»، والمثبت من ف. (٦) فى ت: «أجرنا».

ثم قال البزار: لا يروى إلا من هذا الوجه [١].

وقوله: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ﴾ أي: في الحياة الدنيا ﴿أَعْمَىٰ﴾ عن حجج اللّه وآياته وبيناته ﴿فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي: كذلك يكون ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ أي: وأضل منه كما كان في الدنيا، عياذاً باللّه من ذلك.

﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣) وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً (٧٤) إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)﴾.

يخبر تعالى عن تأييد[٢] رسوله، صلوات اللّه عليه وسلامه[٣]، وتثبيته، وعصمته وسلامته من شر الأشرار وكيد الفجار، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره، وأنه لايكله إلى أحد من خلقه، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره، ومظهر[٤] دينه على من عاداه وخالفه وناوأه، في مشارق الأرض ومغاربها، ﷺ تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً (٧٧)﴾.

قيل: نزلت في اليهود، إذ أشاروا على رسول اللّه ﷺ بسكنى الشام بلاد الأنبياء، وترك سكنى المدينة.

وهذا القول ضعيف؛ لأن هذه الآية مكية، وسكنى المدينة بعد ذلك.

وقيل: إنها نزلت بتبوك. وفي صحته نظر.

قال البيهقي، عن الحاكم، عن الأصم، عن أحمد بن عبد الجبار العُطاردي، عن يونس بن بُكَيْر، عن عبد الحميد بن بَهْرَام، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن عبد الرحمن بن غَنْم؛ أن اليهود أتوا رسول اللّه ﷺ يوماً فقالوا: يا أبا القاسم، إن كنت صادقاً أنك نبي، فالحق بالشام؛ فإن الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء. فصدق[٥] ماقالوا، فغزا غزوة تبوك، لا يريد إلا الشام. فلما بلغ تبوك، أنزل اللّه عليه آيات من سورة بني إسرائيل بعد ماختمت السورة: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿تَحْوِيلاً﴾ فأمره اللّه بالرجوع إلى المدينة، وقال: فيها محياك ومماتك، ومنها تبعث[٦].

---

(١) ورواه الترمذي في السنن برقم (٣١٣٦) من طريق عبد الله بن عبد الرحمن، عن عبيد الله بن موسى به، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

(٢) في ف: «تأييده».
(٣) في ت: «صلوات الله وسلامه عليه».
(٤) في ت: «فيظهر».

(٥) في ت، ف: «قال: فصدق».

(٦) دلائل النبوة (٥/ ٢٥٤).

وفى هذا الإسناد نظر. والأظهر أن هذا ليس[(١)] بصحيح؛ فإن النبى ﷺ لم يغز تبوك عن قول اليهود، إنما غزاها امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقوله[(٢)] تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. وغزاها ليقتص وينتقم ممن قتل أهل مؤتة، من أصحابه، واللَّه أعلم. ولو صح هذا لحمل عليه الحديث الذى رواه الوليد بن مسلم، عن عُفَير بن مَعْدان، عن سُلَيم بن عامر، عن أبى أمامة، رضى اللَّه عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أنزل القرآن فى ثلاثة أمكنة: مكة، والمدينة، والشام»[(٣)]. قال الوليد: يعنى بيت المقدس. وتفسير الشام بتبوك أحسن مما قال الوليد: إنه بيت المقدس واللَّه أعلم.

وقيل: نزلت فى كفار قريش، هموا بإخراج الرسول من بين أظهرهم، فتوعدهم اللَّه بهذه الآية، وأنهم لو أخرجوه[(٤)] لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً. وكذلك وقع؛ فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم، بعد ما اشتد أذاهم له، إلا سنة ونصف. حتى جمعهم اللَّه وإياه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم[(٥)]، وسبى سراتهم[(٦)]؛ ولهذا قال: ﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أى: هكذا عادتنا فى الذين كفروا برسلنا وآذوهم: يخرج الرسول من بين أظهرهم: ويأتيهم العذاب. ولولا أنه عليه [الصلاة و][(٧)] السلام رسول الرحمة، لجاءهم من النقم فى الدنيا ما لا قبل لأحد به؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (٧٩)﴾.

يقول تعالى لرسوله ﷺ آمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات فى أوقاتها: ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ قيل[(٨)]: لغروبها. قاله ابن مسعود، ومجاهد، وابن زيد.

وقال هُشَيم، عن مغيرة، عن الشعبى، عن ابن عباس: «دلوكها»: زوالها. ورواه نافع، عن ابن عمر. ورواه مالك فى تفسيره، عن الزهرى، عن ابن عمر. وقاله أبو بَرْزَة الأسلمى وهو رواية أيضاً عن ابن مسعود. ومجاهد. وبه قال الحسن، والضحاك، وأبو جعفر الباقر، وقتادة. واختاره ابن جرير، ومما استشهد عليه ما رواه عن ابن حميد، عن الحكم بن بشير، حدثنا عمرو بن قيس، عن ابن أبى ليلى، [عن رجل][(٩)]، عن جابر بن عبد اللَّه قال: دعوت رسول اللَّه ﷺ ومن شاء من أصحابه فطعموا عندى، ثم خرجوا حين زالت الشمس، فخرج النبى ﷺ فقال: «اخرج يا أبا بكر، فهذا حين دلكت الشمس»[(١٠)].

---

(١) فى ت: «ليس هذا». (٢) فى ف: «ولقوله».
(٣) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٨/ ٢٠١) من طريق هشام بن عمار، عن الوليد بن مسلم به، وعفير بن معدان ضعيف.
(٤) فى ت: «خرجوه». (٥) فى ت: «أشرارهم». (٦) فى ف، أ: «ذراريهم».
(٧) زيادة من ف، أ. (٨) فى ت: «قبل». (٩) زيادة من ف، أ، والطبرى.
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ٩٣).

ثم رواه عن سهل بن بكار، عن أبى عوانة، عن الأسود بن قيس، عن نبيح العنزى، عن جابر عن رسول الله ﷺ، نحوه. فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلاة الخمسة فمن قوله: ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ وهو: ظلامه، وقيل: غروب الشمس، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقوله[تعالى][1]: ﴿و قُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ يعنى: صلاة الفجر.

وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ تواتراً من أفعاله وأقواله[2]، بتفاصيل هذه الأوقات، على ما عليه عمل أهل الإسلام[3] اليوم، مما تلقوه خلفاً عن سلف، وقرناً بعد قرن، كما هو مقرر فى مواضعه، ولله الحمد.

﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال الأعمش، عن إبراهيم، عن ابن مسعود ـ وعن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه[4]، عن النبى ﷺ فى هذه الآية: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: «تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار»[5].

وقال البخارى: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن الزهرى، عن أبى سلمة ـ وسعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر». ويقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[6].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسباط، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن ابن مسعود، عن النبى ﷺ ـ وحدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة ،عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: «تشهده ملائكة الليل، وملائكة النهار».

ورواه الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، ثلاثتهم عن عُبَيْد بن أسباط بن محمد، عن أبيه، به[7]، وقال الترمذى: حسن صحيح.

وفى لفظ فى الصحيحين، من طريق مالك، عن أبى الزِّناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «يتعاقبون فيكم ملائكة الليل وملائكة النهار[8] ،ويجتمعون فى صلاة الصبح وفى صلاة العصر، فَيَعْرُجُ الذين باتوا فيكم فيسألهم ـ وهو أعلم بكم ـ كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون ،وتركناهم وهم يصلون»[9].

وقال عبد الله بن مسعود: يجتمع الحرسان[10] فى صلاة الفجر، فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء.

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى ت: «أقواله وأفعاله». (٣) فى ت: «السلام».
(٤) فى ت، ف، أ: «عنهما».
(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ٩٤).
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٧١٧).
(٧) المسند (٢/ ٤٧٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٣٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٩٣) وسنن ابن ماجة برقم (٦٧٠) وهو عند أهل السنن من رواية الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه.
(٨) فى ت: «بالليل وملائكة بالنهار».
(٩) صحيح البخارى برقم (٥٥٥) وصحيح مسلم برقم (٦٣٢).
(١٠) فى ت، ف: «الحرستان».

وكذا قال إبراهيم النَّخَعى، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد فى تفسير هذه الآية.

وأما الحديث الذى رواه ابن جرير ههنا ـ من حديث الليث بن سعد، عن زيادة، عن محمد بن كعب القرظى، عن فضالة بن عُبيد، عن أبى الدرداء، عن رسول الله ﷺ، فذكر حديث النزول وأنه تعالى يقول: «من يستغفرنى أغفر له، من يسألنى أعطه[١]، من يدعنى فأستجيب له حتى يطلع الفجر». فلذلك يقول: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ فيشهده الله، وملائكة الليل، وملائكة النهار[٢] ـ فإنه تفرد به زيادة، وله بهذا حديث فى سنن أبى داود[٣].

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾: أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة، كما ورد فى صحيح مسلم، عن أبى هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنه سئل: أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ قال: «صلاة الليل»[٤].

ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل، فإن التهجد: ما كان بعد نوم. قاله علقمة، والأسود، وإبراهيم النخعى، وغير واحد وهو المعروف فى لغة العرب. وكذلك ثبتت الأحاديث عن رسول الله ﷺ: أنه كان يتهجد بعد نومه، عن ابن عباس، وعائشة، وغير واحد من الصحابة، رضى الله عنهم، كما هو مبسوط فى موضعه[٥]، ولله الحمد والمنة.

وقال الحسن البصرى: هو ماكان بعد العشاء. ويحمل[٦] على ما بعد النوم.

واختلف فى معنى قوله: ﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾ فقيل: معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك، فجعلوا قيام الليل واجباً فى حقه دون الأمة. رواه العوفى عن ابن عباس، وهو أحد قولى العلماء، وأحد قولى الشافعى، رحمه الله، واختاره ابن جرير.

وقيل: إنما جعل قيام الليل[٧] فى حقه نافلة على الخصوص؛ لأنه قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر، وغيرُه من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التى عليه، قاله مجاهد، وهو فى المسند عن أبى أمامة الباهلى، رضى الله عنه[٨].

وقوله: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ أى: افعل هذا الذى أمرتك به، لنقيمك يوم القيامة مقاماً يحسدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم، تبارك وتعالى.

قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذى يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم من عظيم ماهم فيه من شدة ذلك اليوم.

ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن[٩] أبى إسحاق، عن

---

(١) فى ف: «أعطيه».

(٢) تفسير الطبرى (١٥/ ٩٤).

(٣) سنن أبى داود برقم (٣٨٩٢) وأوله: «من اشتكى منكم شيئًا أو اشتكاه أخ له فليقل». وزيادة منكر الحديث.

(٤) صحيح مسلم برقم (١١٦٣).

(٥) فى ف: «مواضعه». (٦) فى ت: «ويحتمل». (٧) فى ف، أ: «قيام الليل واجبا».

(٨) المسند(٥/ ٢٥٦).

(٩) فى ت: «ابن».

صلة بن زُفَر، عن حذيفة قال: يجمع الناس فى صعيد واحد، يسمعهم الداعى وينفذهم البصر، حفاة عُراة كما خلقوا قياماً، لا تكلم نفس إلا بإذنه، ينادى: يامحمد، فيقول: « لبيك وسعديك، والخير فى يديك، والشر ليس إليك ، والمهدىّ من هَدَيْت، وعبدك بين يديك، وبك وإليك، لا منجى ولا ملجأ منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانك رب البيت». فهذا المقام المحمود الذى ذكره اللَّه عزوجل[(١)] [(٢)].

ثم رواه عن بُنْدَار، عن غُنْدَر، عن شعبة، عن أبى إسحاق، به[(٣)] . وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر والثورى، عن أبى إسحاق، به[(٤)].

وقال ابن عباس: هذا المقام المحمود مقام الشفاعة. وكذا قال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد. وقاله الحسن البصرى.

وقال قتادة: هو أول من تنشق عنه الأرض[(٥)]،وأول شافع ، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذى قال اللَّه : ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

قلت: لرسول اللَّه صلى الله عليه وسلم تسليماً تشريفات [يوم القيامة][(٦)] لا يشركه فيها[(٧)] أحد، وتشريفات لا يساويه فيها أحد؛ فهو أول من تنشق عنه الأرض[(٨)]، ويبعث راكباً إلى المحشر، وله اللواء الذى آدم فمن دُونَه تحت لوائه، وله الحوض الذى ليس فى الموقف أكثر وارداً منه، وله الشفاعة العظمى عند اللَّه ليأتى لفصل القضاء بين الخلائق، وذلك بعد ما يسأل الناس آدم ثم نوحاً ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، فكل يقول: «لست لها» حتى يأتوا إلى محمد[(٩)] ﷺ فيقول: « أنا لها، أنا لها » كما سنذكر ذلك مفصلاً فى هذا الموضع، إن شاء اللَّه تعالى. ومن ذلك أنه يشفع فى أقوام قد أمر بهم إلى النار، فيردون عنها. وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته. وهو أول شفيع فى الجنة، كما ثبت فى صحيح مسلم. وفى حديث الصور: أن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته. وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم. ويشفع فى رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم. وهو صاحب الوسيلة التى هى أعلى منزلة فى الجنة، لا تليق إلا له. وإذا أذن اللَّه تعالى فى الشفاعة للعصاة[(١٠)] شفع[(١١)] الملائكة والنبيون والمؤمنون، فيشفع هو فى خلائق لا يعلم عدتهم[(١٢)] إلا اللَّه، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه فى ذلك. وقد بسطت ذلك مستقصى فى آخر كتاب «السيرة» فى باب الخصائص، وللّه الحمد والمنة.

---

(١) فى أ، ف: «الله تعالى».
(٢) تفسير الطبرى (١٥/ ٩٧).
(٣) تفسير الطبرى(١٥/ ٩٧) والرواية كما هى عند الطبرى: حدثنا محمد بن المثنى قال: حدثنا محمد بن جعفر «غندر» فلعله سبق نظر.
(٤) تفسير الطبرى (١٥/ ٩٨).
(٥) فى ت: «تنشق الأرض عنه».
(٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى ت: « فينا».
(٨) فى ت: «الأرض عنه».
(٩) فى أ، ف: « يأتوا محمداً».
(١٠) فى ت، ف: « فى العصاة».
(١١) فى أ: «تشفع».
(١٢) فى ت: «عددهم».

ولنذكر الآن[١] الأحاديث الواردة فى المقام المحمود، وبالله المستعان:

قال البخارى: حدثنا إسماعيل بن أبان، حدثنا أبو الأحوص، عن آدم بن على، سمعت ابن عمر [يقول][٢]: إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثاً، كل أمة تتبع نبيها، يقولون: يا فلان اشفع، يا فلان اشفع حتى تنتهى الشفاعة إلى النبى ﷺ، فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً[٣].

ورواه حمزة بن عبد الله، عن أبيه، عن النبى ﷺ.

قال ابن جرير: حدثنى محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا[٤] شعيب بن الليث، حدثنى[٥] الليث، عن عبيد الله بن أبى جعفر أنه قال: سمعت حمزة بن عبد الله بن عمر يقول: سمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الشمس لَتدنو حتى يبلغ[٦] العَرَقُ نصفَ الأذن، فبينما هم كذلك استغاثوا[٧] بآدم، فيقول: لست صاحب ذلك، ثم بموسى فيقول كذلك، ثم بمحمد فيشفع بين الخلق[٨]، فيمشى حتى يأخذ بحلقة باب الجنة، فيومئذ يبعثه الله مقاماً محمودا». [يحمده أهل الجنة كلهم][٩].

وهكذا رواه البخارى فى «الزكاة» عن يحيى بن بُكَيْر، وعبد الله بن صالح، كلاهما عن الليث بن سعد، به[١٠]. وزاد: «فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً، يحمده أهل الجمع كلهم».

قال البخارى: وحدثنا على بن عيَّاش، حدثنا شعيب بن أبى حَمْزة، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن جابر بن عبد الله؛ أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته، حَلَّت له شفاعتى يوم القيامة». انفرد به دون مسلم[١١].

حديث أبىّ:

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر الأزدى، حدثنا زهير بن محمد، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أبى بن كعب، عن أبيه، عن النبى ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة، كنت إمام الأنبياء وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم غير فَخْر»[١٢].

وأخرجه الترمذى، من حديث أبى عامر عبد الملك بن عَمْرو العَقَدىّ، وقال: «حسن صحيح». وابن ماجه من حديث عبد الله بن محمد بن عقيل به. وقد قدمنا فى حديث: «أبى بن كعب» فى قراءة القرآن على سبعة أحرف، قال رسول الله ﷺ فى آخره: «فقلت: اللهم، اغفر لأمتى، اللهم اغفر لأمتى، وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلىّ فيه الخلق، حتى إبراهيم عليه السلام»[١٣].

---

(١) فى ت: «الآية».
(٢) زيادة من ت، ف، أ، والبخارى.
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧١٨).
(٤) فى ت: «قال: حدثنا».
(٥) فى ت: «قال: حدثنى».
(٦) فى ت: «تبلغ».
(٧) فى ت: «استغاث».
(٨) فى ت: «الخلائق».
(٩) زيادة من أ.
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/٩٨) وصحيح البخارى برقم (١٤٧٥).
(١١) صحيح البخارى برقم (٤٧١٩).
(١٢) المسند (٥/١٣٧).
(١٣) سنن الترمذى برقم (٣٦١٣) وسنن ابن ماجة برقم (٤٣١٤).

حديث أنس بن مالك:

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبة، حدثنا قتادة، عن أنس، عن النبى ﷺ قال: « يجتمع[1] المؤمنون يوم القيامة، فيلهمون ذلك فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، فأراحنا من مكاننا هذا. فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أنت أبو[2] البشر، خلقك اللّه بيده، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كلّ شيء، فاشفع لنا إلى ربك[3] حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول لهم آدم: لست هناكم، ويذكر ذنبه الذى أصاب، فيستحيى ربه، عز وجل، من ذلك، ويقول: ولكن ائتوا نوحاً، فإنه أول رسول بعثه اللّه إلى أهل الأرض. فيأتون نوحاً فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئة[4] سؤاله ربه ما ليس له به علم، فيستحيى ربه من ذلك، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن. فيأتونه فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا موسى، عبداً كلمه اللّه، وأعطاه التوراة. فيأتون موسى فيقول: لست هناكم، ويذكر لهم النفس التى قتل بغير نفس[5]، فيستحيى ربه من ذلك، ولكن ائتوا عيسى عبد اللّه ورسوله، وكلمته وروحه، فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمداً عبداً غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فيأتونى». قال الحسن هذا الحرف[6]: « فأقوم فأمشى بين سِماطين من المؤمنين» . قال أنس: « حتى أستأذن على ربى، فإذا رأيت ربى وقعت له - أو: خررت - ساجداً لربى، فيدعنى ماشاء اللّه أن يدعنى». قال: « ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، واشفع تشفع، وسل تعطه. فأرفع رأسى، فأحمده بتحميد يُعَلِّمُنيه، ثم أشفع فيحدّ لى حداً، فأدخلهم الجنة»: «ثم[7] أعود[8] إليه الثانية، فإذا رأيت ربى وقعت [9] ـ أو: خررت ـ ساجداً لربى، فيدعنى ماشاء اللّه أن يدعنى. ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يُعَلِّمُنيه، ثم أشفع فيحدّ لى حداً، فأدخلهم الجنة، ثم أعود فى الثالثة؛ فإذا رأيت ربى وقعت - أو: خررت - ساجداً لربى، فيدعنى ماشاء اللّه أن يدعنى، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يُعَلِّمُنيه، ثم أشفع فيحد لى حداً فأدخلهم الجنة. ثم أعود الرابعة فأقول: يارب، ما بقى إلا من حبسه القرآن». فحدثنا أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال: « فيخرج من النار من قال: « لا إله إلا اللّه» وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال: «لا إله إلا اللّه» وكان فى قلبه من الخير ما يزن بُرَّة، ثم يخرج من النار من قال: «لا إله إلا اللّه» وكان فى قلبه من الخير ما يزن ذرة ».

أخرجاه[فى الصحيح][10] من حديث سعيد، به[11]. وهكذا رواه الإمام أحمد، عن عفان، عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بطوله[12].

(١) فى ف، أ: «يجمع».
(٢) فى ت: «أول».
(٣) فى ت: «ربنا».
(٤) فى ت، ف، أ: « خطيئته».
(٥) فى ف: « بغير حق».
(٦) فى ت: «الخوف».
(٧) فى ف، أ: «قال: ثم».
(٨) فى ت: « أدعو».
(٩) فى أ: «وقعت له».
(١٠) زيادة من أ.
(١١) المسند (٣/ ١١٦) وصحيح البخارى برقم (٤٤٧٦) وصحيح مسلم برقم (١٩٣).
(١٢) المسند(٣/ ٢٤٤).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حرب بن ميمون أبو الخطاب الأنصارى، عن النضر بن أنس، عن أنس قال: حدثنى نبى الله ﷺ قال: «إنى لقائم أنتظر أمتى تعبر الصراط، إذ جاءنى عيسى، عليه السلام، فقال: هذه الأنبياء قد جاءتك يامحمد يسألون ـ أو قال: يجتمعون إليك ـ ويَدْعُون الله أن يفرق بين جميع الأمم إلى حيث يشاء الله، لغمّ [(١)] ماهم فيه، فالخلق مُلجَمون بالعرق، فأما المؤمن فهو عليه كالزكْمَة، وأما الكافر فيغشاه الموت، فقال: انتظر حتى أرجع إليك. فذهب نبى الله ﷺ فقام تحت العرش، فلقى ما لم يلق مَلَك مصطفى ولا نبى مرسل. فأوحى الله، عز وجل، إلى جبريل: أن اذهب إلى محمد، وقل له: ارفع رأسك، وسل تُعطَه، واشفع تشفع. فشفَعت[(٢)] فى أمتى: أن أخرج من كل تسعة وتسعين إنساناً واحداً. فما زلت أتردد إلى ربى، عز وجل، فلا أقوم منه مقاماً إلا شفعت، حتى أعطانى الله من ذلك، أن قال: يامحمد، أَدْخِلْ [من أمتك][(٣)] من خلق الله، عز وجل، من شهد أن لا إله إلا الله يوماً واحداً مخلصاً ومات على ذلك»[(٤)].

حديث بريدة، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا الأسود بن عامر، أخبرنا أبو إسرائيل، عن الحارث بن حَصِيرة، عن ابن بُرَيْدة، عن أبيه: أنه دخل على معاوية، فإذا رجل يتكلم، فقال بريدة: يامعاوية، تأذن لى فى الكلام؟ فقال: نعم ـ وهو يرى أنه يتكلم بمثل[(٥)] ما قال الآخر ـ فقال بريدة: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: « إنى لأرجو أن أشفع يوم القيامة عدد ما على الأرض من شجرة ومدرة». قال: فترجوها أنت يا معاوية، ولا يرجوها علىّ، رضى الله عنه؟![(٦)].

حديث ابن مسعود:

قال الإمام أحمد: حدثنا عارم بن الفضل، حدثنا سعيد بن زيد، حدثنا على بن الحكم البُنَانى، عن عثمان، عن إبراهيم، عن علقمة والأسود، عن ابن مسعود قال: جاء ابنا مُلَيْكَة إلى النبى ﷺ فقالا: إن أمَّنا [كانت][(٧)] تكرم الزوج، وتعطف على الولد ـ قال: وذكر الضيف ـ غير أنها كانت وأدت فى الجاهلية؟ فقال: « أمكما فى النار». قال: فأدبرا والسوء يرى فى وجوههما، فأمر بهما فَرُدا، فَرَجَعَا والسرور[(٨)] يرى فى وجوههما؛ رجاء أن يكون قد حدث شىء، فقال: «أمى مع أمكما». فقال رجل من المنافقين: وما يغنى هذا عن أمه شيئاً! ونحن نطأ عقبيه. فقال رجل من الأنصار ـ ولم أر رجلاً قط أكثر سؤالاً منه ـ : يارسول الله، هل وعدك ربك فيها أو فيهما؟. قال: فظن أنه من شىء قد سمعه، فقال: «ما شاء الله ربى، وما أطمعنى[(٩)] فيه، وإنى لأقوم المقام المحمود يوم القيامة». فقال الأنصارى: يارسول الله، وما ذاك المقام المحمود ؟ قال: « ذاك إذا

(١) فى ت: «نعم». (٢) فى ت: «فتشفعت». (٣) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٤) المسند (٣/١٧٨) و قال الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٧٤): «رجاله رجال الصحيح».

(٥) فى ت: «بميل».

(٦) المسند (٥/٣٤٧)، وأبو إسرائيل الملائى ضعيف.

(٧) زيادة من ت، ف، أ، والمسند. (٨) فى ت: « والسوء». (٩) فى ت: « وما طمعنى».

جيء بكم حفاة عراة غرلاً، فيكون أول من يكسى إبراهيم، عليه السلام، فيقول: اكسوا خليلى. فيؤتى بريطتين بيضاوين، فيلبسهما ثم يقعده مستقبل العرش، ثم أوتى بكسوتى فألبسها، فأقوم عن يمينه مقاماً لا يقومه أحد، فيغبطنى فيه الأولون والآخرون. ويفتح نهر[1] من الكوثر إلى الحوض». فقال المنافقون: إنه ماجرى ماء قط إلا على حال أو رضراض. فقال رسول الله ﷺ: « حاله المسك، ورضراضه التُّوم».[قال المنافق: لم أسمع كاليوم. قلَّما جرى ماء قط على حال أو رضراض، إلا كان له نبتة. فقال الأنصارى: يارسول الله، هل له نبت؟ قال: «نعم، قضبان الذهب»][2]. قال المنافق: لم أسمع كاليوم، فأنه قلما ينبت قضيب إلا أورق، وإلا كان له ثمر! قال الأنصارى: يارسول الله، هل له ثمرة ؟ قال: « نعم، ألوان الجوهر، وماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، من شرب منه شربةً[3] لا يظمأ بعده، ومن حرمه لم يَرْوَ بعده»[4].

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا يحيى بن سَلَمَة بن كُهَيْل، عن أبيه، عن أبى الزّعْرَاء، عن عبد الله قال: ثم يأذن الله، عز وجل، فى الشفاعة، فيقوم روح القدس جبريل، ثم يقوم إبراهيم خليل الله، ثم يقوم عيسى أو موسى ـ قال أبو الزعراء: لا أدرى أيهما ـ قال: ثم يقوم نبيكم ﷺ رابعاً، فيشفع لا يشفع أحد بعده أكثر مما شفع، وهو المقام المحمود الذى قال الله عز وجل: ﴿**عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا**﴾[5].

حديث كعب بن مالك، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا محمد بن حرب، حدثنا الزبيدى، عن الزهرى، عن عبد الرحمن بن عبد الله [بن كعب][6] بن مالك، عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «يبعث الناس يوم القيامة، فأكون أنا وأمتى على تل، ويكسونى ربى، عز وجل، حلة خضراء[7]. ثم يؤذن لى فأقول ماشاء الله أن أقول، فذلك المقام المحمود »[8].

حديث أبى الدرداء، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا يزيد بن أبى حبيب، عن عبد الرحمن ابن جُبَير، عن أبى الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ: « أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة، وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه، فأنظر إلى ما بين يدى، فأعرف أمتى من بين الأمم، ومن خلفي مثل ذلك، وعن يمينى مثل ذلك، وعن شمالى مثل ذلك ». فقال رجل: يارسول الله، كيف تعرف أمتك من بين الأمم، فيما بين نوح إلى أمتك؟ قال: «هم غرّ مُحَجَّلُون، من أثر الوضوء، ليس أحد كذلك غيرهم، وأعرفهم أنهم يُؤتَونَ كتبهم بأيمانهم، وأعرفهم تسعى[9] بين أيديهم ذريتهم»[10].

---

(١) فى ت: «لهم» (٢) زيادة من ف، أ، والمسند. (٣) فى ت، أ: «شرابا».

(٤) المسند (١/ ٣٩٨).

(٥) ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (١١٢٩٦) من طريق بندار، عن غندر، عن شعبة، عن سلمة بن كهيل بنحوه.

(٦) زيادة من ف، أ، والمسند. (٧) فى ت: «حمراء».

(٨) المسند(٣/ ٤٥٦).

(٩) فى ت، أ: « يسعى».

(١٠) المسند (٥/ ١٩٩).

حديث أبى هريرة، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا أبو حَيَّان، حدثنا أبو زُرْعَة بن عمرو بن جرير، عن أبى هريرة، قال: أتَى رسول الله ﷺ بلحم، فَرُفع إليه الذراع ـ وكانت تعجبه ـ فَنَهَسَ منها نَهْسة(١)، ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون ممّ ذاك؟ يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد، يُسْمعهم الداعى وَيَنفذُهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم(٢) والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون. فيقول بعض الناس لبعض: [ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ ألا ترون إلى ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم عز وجل؟ فيقول بعض الناس لبعض](٣): أبوكم آدم!.

فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك؛ فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته، نفسى، نفسى، نفسى! اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً فيقولون: يانوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول نوح: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لى دعوة(٥) على قومى، نفسى، نفسى، نفسى! اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبى اللّه وخليله من أهل الأرض،[اشفع لنا إلى ربك](٦) ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغـضب بعده مثله، فذكر كذباته، نفسى، نفسى، نفسى [اذهبوا إلى غيرى](٧) اذهبوا إلى موسى .

فيأتون موسى فيقولون: ياموسى، أنت رسول اللّه، اصطفاك اللّه برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنى قتلت نفساً لم أومر بقتلها، نفسى، نفسى، نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى فيقولون: ياعيسى، أنت رسول اللّه وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ـ قال: هكذا هو ـ وكلمت الناس فى المهد ، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى محمد.

---

(٢) فى أ: « فنهش منها نهشة». (٣) فى ت: «الهم». (٤) زيادة من المسند.
(٥) فى ت، أ: «دعوة دعوتها». (٦، ٧) زيادة من ف، أ، والمسند.

فيأتونى فيقولون: يامحمد، أنت رسول اللَّه، وخاتم الأنبياء، غفر اللَّه لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فأقوم فآتى تحت العرش، فأقع ساجداً لربى، عز وجل، ثم يفتح اللَّه علىّ، ويلهمنى من محامده وحسن الثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبلى. فيقال: يامحمد، ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفع تشفع. فأقول: يارب، أمتى أمتى، يارب أمتى أمتى، يارب، أمتى أمتى! فيقال: يامحمد: أَدْخِل من أمتك من لاحساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب». ثم قال: «والذى نفس محمد بيده لما بين مِصْراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وَهَجَر، أو كما بين مكة وبُصْرَى». أخرجاه فى الصحيحين (١).

وقال مسلم، رحمه اللَّه: حدثنا الحكم بن موسى، حدثنا هِقْلُ بن زياد، عن الأوزاعى، حدثنى أبو عمار، حدثنى عبد اللَّه بن فرُّوخ، حدثنى أبو هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مُشَفَّع»(٢).

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا وَكيع، عن داود بن يزيد الزّعافرى، عن أبيه، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، سئل عنها فقال: «هى الشفاعة»(٣).

رواه الإمام أحمد عن وكيع وعن محمد(٤) بن عبيد، عن داود، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ فى قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾، قال: «هو المقام الذى أشفع لأمتى فيه»(٥).

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن الزهرى، عن على بن الحسين قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إذا كان يوم القيامة، مدّ اللَّه الأرض مدّ الأديم، حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدمه(٦)». قال النبى ﷺ: «فأكون أول من يدعى، وجبريل عن يمين الرحمن(٧) واللَّه مارآه قبلها، فأقول(٨): رب، إن هذا أخبرنى أنك أرسلته إلىّ. فيقول اللَّه تبارك وتعالى: صدق، ثم أشفع. فأقول: يارب عبادك عبدوك فى أطراف الأرض»، قال: «فهو المقام المحمود»(٩)، وهذا حديث مرسل.

---

(١) المسند (٢/٤٣٥) وصحيح البخارى برقم (٤٧١٢) وصحيح مسلم برقم (٨٩٤).
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٢٧٨).
(٣) تفسير الطبرى (١٥/٩٨).
(٤) فى هـ: «عن وكيع عن محمد بن عبيد»، والمثبت من ت.
(٥) المسند (٢/٤٤١، ٤٤٤).
(٦) فى ت، ف: «قدميه».
(٧) فى ت: «الرحمن عز وجل»، وفى ف، أ: «الرحمن تبارك وتعالى».
(٨) فى ت، ف، أ: «فاقول: أى».
(٩) تفسير عبد الرزاق (١/٣٢٨).

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا جرير، عن قابوس بن[1] أبى ظَبْيان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: كان النبى ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة، فأنزل الله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾[2].

وقال الحسن البصرى فى تفسير هذه الآية: إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه، وأراد الله قتال أهل مكة، فأمره أن يخرج إلى[3] المدينة، فهو الذى قال الله عزوجل: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾.

وقال قتادة: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يعنى: المدينة ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعنى: مكة.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهذا القول هو أشهر الأقوال.

وقال العوفى عن ابن عباس: ﴿أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ يعنى: الموت ﴿وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ يعنى: الحياة بعد الموت. وقيل غير ذلك من الأقوال. والأول أصح، وهو اختيار ابن جرير.

وقوله: ﴿وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ قال الحسن البصرى فى تفسيرها: وعده ربه لينزعن ملك فارس، وعز[4] فارس، وليجعلنه له، وملك الروم، وعز الروم، وليجعلنه له.

وقال قتادة فيها إن نبى الله ﷺ، علم ألاَّ طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله، ولحدود الله، ولفرائض الله، ولإقامة دين الله؛ فإن السلطان رحمة من الله جعله بين أظهر عباده، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض، فأكل شديدهم ضعيفهم.

قال مجاهد: ﴿سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾: حجة بينة.

واختار ابن جرير قول الحسن وقتادة، وهو الأرجح؛ لأنه لا بد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه؛ ولهذا قال[سبحانه و][5] تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وفى الحديث: «إن الله لَيَزَع بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن» أى: ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام، مالا يمتنع كثيرٌ من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد، والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع.

وقوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ تهديد ووعيد لكفار قريش؛ فإنه قد

---

(١) فى ف: «عن».

(٢) المسند (١/ ٢٢٣).

(٣) فى ت: «على». (٤) فى ت: «وغير». (٥) زيادة من ف، أ.

جاءهم من الله الحق الذى لا مرية فيه ولا قبل لهم به، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع. وزَهَق باطلهم، أى: اضمحل وهلك، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال البخارى: حدثنا الحميدى، حدثنا سفيان، عن ابن أبى نَجيح، عن مجاهد، عن أبى[(١)] مَعْمر، عن عبد الله بن مسعود قال: دخل النبى ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نُصُب، فجعل يطعنها بعود فى يده، ويقول: «﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد»[(٢)].

وكذا رواه البخارى أيضاً فى غير هذا الموضع، ومسلم، والترمذى، والنسائى، كلهم من طرق عن سفيان بن عيينة به[(٣)]. [وكذا رواه عبد الرزاق عن الثورى عن ابن أبى نجيح][(٤)].

وكذا رواه الحافظ أبو يعلى: حدثنا زهير، حدثنا شَبَابة، حدثنا المغيرة، حدثنا أبو الزبير، عن جابر، رضى الله عنه، قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنماً[(٥)] يعبدون من دون الله. فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت لوجهها، وقال: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً»[(٦)].

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا (٨٢) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كتابه الذى أنزله على رسوله محمد ﷺ ـ وهو القرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد ـ إنه: ﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى: يذهب ما فى القلوب من أمراض، من شك ونفاق، وشرك وزيغ وميل، فالقرآن يشفي من ذلك كله. وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه، فإنه يكون شفاء فى حقه ورحمة. وأما الكافر الظالم نفسه بذلك، فلا يزيده سماعه القرآن إلا بعداً وتكذيباً وكفراً. والآفة من الكافر لا من القرآن، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]. والآيات فى ذلك[(٧)] كثيرة.

---

(١) فى ت: «ابن».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٢٠).

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٤٧٨، ٤٢٨٧)، وصحيح مسلم برقم (١٧٨١) وسنن الترمذى برقم (٣١٣٨) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٢٩٧).

(٤) زيادة من أ.

(٥) فى ت: «نصبًا».

(٦) ورواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١٤/٤٨٧): حدثنا شبابة بن سوار به.

(٧) فى ت، ف: «هذا».

قال قتادة في قوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ إنه لا ينتفع به ولا يحفظه[1] ولا يعيه، فإن اللَّه جعل هذا القرآن شفاء، ورحمة للمؤمنين.

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً (٨٤) ﴾.

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو، إلا من عصم اللَّه تعالى فى حالتى سرائه وضرائه، بأنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية، وفتح ورزق ونصر، ونال ما يريد، أعرض عن طاعة اللَّه وعبادته ونأى بجانبه.

قال مجاهد: بَعُد عنا.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ [يونس: ١٢]، وقوله: ﴿ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وبأنه إذا مسه الشر ـ وهو المصائب والحوادث والنوائب ـ ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ أى: قنط أن يعود يحصل له بعد ذلك خير، كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ. إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١٠، ١١].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ﴾ قال ابن عباس: على ناحيته. وقال مجاهد: على حدته وطبيعته. وقال قتادة: على نيَّته. وقال ابن زيد: دينه.

وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى. وهذه الآية ـ واللَّه أعلم ـ تهديد للمشركين ووعيد لهم، كقوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ. وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [هود: ١٢١، ١٢٢]؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ أى: منا ومنكم، وسيجزى كل عامل بعمله، فإنه لا تخفى عليه خافية.

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥) ﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن عَلْقَمة، عن عبد اللَّه ـ هو ابن مسعود رضى اللَّه عنه ـ قال: كنت أمشى مع النبى ﷺ فى حرث فى المدينة، وهو متوكئ على عَسيب، فمر بقوم من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح. فقال بعضهم: لا تسألوه. قال: فسألوه عن الروح، فقالوا[2]: يامحمد، ما الروح؟ فما زال متوكئاً على العسيب، قال: فظننت أنه يوحى إليه، فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

(١) فى ف: «لا يحفظه ولا ينتفع به».

(٢) فى ت: « فقال بعضهم».

فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه .

وهكذا رواه البخارى ومسلم من حديث الأعمش، به[١] .ولفظ البخارى عند تفسير هذه الآية، عن عبد اللَّه بن مسعود قال : بينا أنا مع النبى[٢] ﷺ فى حَرْث، وهو متوكئ[٣] على عسيب، إذ مر اليهود[٤]، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رابكم[٥] إليه. وقال بعضهم: لا يستقبلنكم بشىء تكرهونه. فقالوا: سلوه فسألوه عن الروح، فأمسك النبى ﷺ فلم يرد عليه شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامى، فلما نزل الوحى قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ[٦] عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ الآية[٧] .

وهذا السياق يقتضى[٨] فيما يظهر بادى الرأى: أن هذه الآية مدنية، وأنها إنما نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة، مع أن السورة كلها مكية. وقد يجاب عن هذا: بأنه قد يكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك، أو أنه نزل عليه الوحى بأنه يجيبهم عما سألوا بالآية المتقدم إنزالها عليه، وهى هذه الآية: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما قال الإمام أحمد:

حدثنا قتيبة، حدثنا يحيى بن زكريا ، عن داود، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قالت قريش ليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح. فسألوه، فنزلت: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيراً كثيراً. قال: وأنزل اللَّه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩][٩] .

وقد روى ابن جرير، عن محمد بن المثنى، عن عبد الأعلى، عن داود، عن عكرمة قال: سأل أهلُ الكتاب رسولَ اللَّه ﷺ عن الروح، فأنزل اللَّه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ فقالوا: يزعم[١٠] أنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً، وقد أوتينا التوراة، وهى الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾؟ [البقرة: ٢٦٩] قال: فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]. قال: ما أوتيتم من علم، فنجاكم اللَّه به من النار، فهو كثير طيب وهو فى علم اللَّه قليل[١١] .

وقال محمد بن إسحاق، عن بعض أصحابه، عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ فلما هاجر رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة، أتاه أحبار يهود. وقالوا: يامحمد، ألم

(١) المسند (١/ ٣٨٩) وصحيح البخارى برقم (١٢٥، ٧٤٦٢) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٤).
(٢) فى ف: «مع رسول الله». (٣) فى ت، ف: «متكئ». (٤) فى ت، ف: «باليهود».
(٥) فى ت، ف: «ما رأيكم». (٦) فى ت، ف: « يسألونك».
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٧٢١).
(٨) فى ت: «تقضى».
(٩) المسند(١/ ٢٥٥).
(١٠) فى ت، ف: «تزعم».
(١١) تفسير الطبرى (١٥/ ١٠٤).

يبلغنا عنك أنك تقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أفعنيتنا أم عنيت قومك؟ فقال: «كلا قد عنيت». قالوا: إنك تتلو أنا أوتينا التوراة، وفيها تبيان كل شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «هي في علم الله قليل، وقد آتاكم ما إن عملتم به استقمتم»، وأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[لقمان: ٢٧].

وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ههنا على أقوال:

أحدها: أن المراد [بالروح][1]: أرواح بني آدم.

قال العوفي، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الآية، وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: أخبرنا عن[2] الروح؟ وكيف تعذب الروح التي في الجسد، وإنما الروح من الله؟ ولم يكن نزل عليه فيه شيء، فلم يُحرْ إليهم شيئاً. فأتاه جبريل فقال له: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ فأخبرهم النبي ﷺ بذلك، فقالوا: من جاءك بهذا؟ فقال: «جاءني به جبريل من عند الله؟» فقالوا له: والله ما قاله لك إلا عدو لنا. فأنزل الله: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ [مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ][3]﴾ الآية [البقرة: ٩٧].

وقيل: المراد بالروح ههنا: جبريل. قاله قتادة، قال: وكان ابن عباس يكتمه.

وقيل: المراد به ههنا: ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها. قال[4] علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ يقول: الروح: ملك.

وقال الطبراني: حدثنا محمد بن عبد الله بن عُرْس[5] المصري، حدثنا وهب بن رزق أبوهريرة[6]، حدثنا بشر بن بكر، حدثنا الأوزاعي، حدثنا عطاء، عن عبد الله بن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لله ملكاً، لو قيل له: التقم السموات السبع والأرضين[7] بلقمة واحدة، لفعل، تسبيحه: سبحانك حيث كنت»[8].

وهذا حديث غريب، بل منكر.

وقال أبو جعفر بن جرير، رحمه الله: حدثني علي، حدثنا عبد الله، حدثني أبو نمْران يزيد بن سَمُرَة صاحب قيسارية، عمن حدثه عن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، أنه قال في قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ قال: هو مَلَك من الملائكة، له سبعون ألف وجه، لكل وجه منها سبعون ألف لسان، لكل لسان منها [سبعون][9] ألف لغة، يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها، يخلق الله من كل تسبيحة مَلَكًا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة[10].

(١) زيادة، من ت، ف، أ. (٢) في ت، ف، أ: «ما». (٣) زيادة من ف، أ.
(٤) في ت، ف: «قاله». (٥) في ت: «ابن عباس».
(٦) في هـ، ف، أ: «رزق أبو هبيرة»، والمثبت من الطبراني. (٧) في ف: «والأرض».
(٨) المعجم الكبير (١١/ ١٩٥) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٨٠): «وهب بن رزق لم أر من ذكر له ترجمة».
(٩) زيادة من ت، ف، أ، والطبري.
(١٠) تفسير الطبري (١٥/ ١٠٥).

وهذا أثر غريب عجيب، واللَّه أعلم.

وقال السهيلى: روى عن علىّ أنه قال: هو ملك، له مائة ألف رأس، لكل رأس مائة ألف وجه، فى كل وجه مائة ألف فم، فى كل فم مائة ألف لسان، يسبح اللَّه تعالى بلغات مختلفة.

قال السهيلى: وقيل المراد بذلك: طائفة من الملائكة على صور بنى آدم.

وقيل: طائفة يرون الملائكة ولا تراهم[١]، فهم للملائكة كالملائكة لبنى آدم.

وقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أى: من شأنه، ومما استأثر بعلمه دونكم؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أى: وما أطلعكم من علمه إلا على القليل، فإنه لا يحيط أحد بشىء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى.

والمعنى: أن علمكم فى علم اللَّه قليل، وهذا الذى تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر به تعالى، ولم يطلعكم عليه، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى. وسيأتى إن شاء اللَّه فى قصة موسى والخضر: أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة، فنقر فى البحر نقرة، أى: شرب منه بمنقاره، فقال: ياموسى، ماعلمى وعلمك وعلم الخلائق فى علم اللَّه إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر. أو كما قال صلوات اللَّه وسلامه عليه؛ ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.

وقال السهيلى: قال بعض الناس: لم يجبهم عما سألوا؛ لأنهم سألوا على وجه التعنت. وقيل: أجابهم، وعول السهيلى على أن المراد بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ أى: من شرعه، أى: فادخلوا فيه، وقد علمتم ذلك لأنه لا سبيل إلى معرفة هذا من طبع ولا فلسفة، وإنما ينال من جهة الشرع. وفى هذا المسلك الذى طرقه وسلكه نظر، واللَّه أعلم.

ثم ذكر السهيلى الخلاف بين العلماء فى أن الروح هى النفس، أو غيرها، وقرر أنها ذات لطيفة كالهواء، سارية فى الجسد كسريان الماء فى عروق الشجر. وقرّر أن الروح التى ينفخها الملك فى الجنين هى النفس بشرط اتصالها بالبدن، واكتسابها بسببه صفات مدح أو ذم، فهى إما نفس مطمئنة أو أمارة بالسوء. قال: كما أن الماء هو حياة الشجر، ثم يكسب[٢] بسبب اختلاطه معها اسماً خاصاً، فإذا اتصل بالعنبة وعصر منها صار إما مُصْطَاراً أو خمراً، ولا يقال له: «ماء» حينئذ إلا على سبيل المجاز، وهكذا لا يقال للنفس: «روح» إلا على هذا النحو، وكذلك لا يقال للروح: نفس[٣] إلا باعتبار ما تؤول إليه. فحاصل ما يقول أن الروح أصل النفس ومادتها، والنفس مركبة منها ومن اتصالها بالبدن، فهى هى من وجه لا من كل وجه[٤]. وهذا معنى حسن، واللَّه أعلم.

قلت: وقد تكلم الناس فى ماهية الروح وأحكامها وصنفوا فى ذلك كتباً. ومن أحسن من تكلم على ذلك الحافظ ابن منده، فى كتاب سمعناه فى: الروح[٥].

(١) فى أ: «ولا تراهم الملائكة». (٢) فى ت، ف: «يكتسب». (٣) فى ت، ف: « نفسًا» وهو خطأ.

(٤) الروض الأنف (١/١٩٨، ١٩٩).

(٥) وللإمام ابن القيم، رحمه الله، كتاب الروح مطبوع بتحقيق بسام العموش، أكثر النقل فيه عن كتاب ابن مندة هذا وذكر خلاصته فيه.

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً (٨٦) إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (٨٧) قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (٨٩) ﴾.

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم، فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

قال ابن مسعود، رضى اللَّه عنه: يطرق الناس ريح حمراء ـ يعنى فى آخر الزمان ـ من قبل الشام، فلا يبقى فى مصحف رجل ولا فى قلبه آية، ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية .

ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم، فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم، واتفقوا[(١)] على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا، فإن هذا أمر لا يستطاع، وكيف يشبه كلام المخلوقين [(٢)] كلام الخالق، الذى لا نظير له، ولا مثال له، ولا عديل له؟!

وقد روى محمد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد، عن سعيد [ابن جبير][(٣)] أو عكرمة، عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت فى نفر من اليهود، جاؤوا رسول اللَّه ﷺ فقالوا له: إنا نأتيك بمثل ما جئتنا به، فأنزل اللَّه هذه الآية.

وفى هذا نظر؛ لأن هذه السورة مكية، وسياقها كله مع قريش، واليهود إنما اجتمعوا به فى المدينة. فاللَّه أعلم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى: بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة، ووضحنا لهم الحق وشرحناه وبسطناه، ومع هذا ﴿فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ أى: جحوداً ورداً للصواب .

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٣) ﴾.

---

(١) فى ت: «والقول». (٢) فى أ: «المخلوقين إلى». (٣) زيادة من ف، أ، والطبرى (١٥/١٠٦).

قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا يونس بن بُكَيْر، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنى شيخ من أهل مصر، قدم منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن عتبة وشيبة ابنى ربيعة، وأبا سفيان بن حرب، ورجلاً من بنى عبد الدار، وأبا البَخْتَرى أخا بنى أسد، والأسود بن المطلب بن أسد، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبا جهل بن هشام(١)، وعبد اللّه بن أبى أمية، وأمية ابن خلف، والعاص بن وائل، ونُبَيها ومُنَبِّها ابنى الحجاج السَّهْمِيَّين، اجتمعوا، أو: من اجتمع منهم، بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، فقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه(٢). فبعثوا إليه: أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك. فجاءهم رسول اللّه ﷺ سريعاً وهو يظن أنه قد بدا لهم فى أمره بداء، وكان عليهم حريصاً، يحب رُشْدَهم، ويعز عليه عَنَتُهم، حتى جلس إليهم، فقالوا: يامحمد، إنا قد بعثنا إليك لنُعْذرَ فيك، وإنا واللّه ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه(٣) ما أدخلت على قومك! لقد شتمت الآباء، وعبتَ الدين، وسفَّهت الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقى من أمر قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك! فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا، سوّدناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك بما يأتيك رئياً تراه قد(٤) غلب عليك - وكانوا(٥) يسمون التابع من الجن: الرئى - فربما كان ذلك، بذلنا أموالنا فى طلب الطب، حتى نبرئك منه، أو نُعْذر فيك .

فقال رسول اللّه ﷺ: «ما بى ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن بعثنى(٦) إليكم رسولاً، وأنزل علىّ كتاباً، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالة ربى، ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبر(٧) لأمر اللّه، حتى يحكم اللّه بينى وبينكم». أو كما قال رسول اللّه ﷺ تسليماً.

فقالوا: يامحمد، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك، فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منا بلاداً، ولا أقل مالاً، ولا أشد عيشاً منا، فاسأل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضَيَّقت علينا، ولْيبسُط لنا بلادنا، ولْيُفَجر(٨) فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يُبْعثَ لنا قُصىّ بن كلاب، فإنه كان شيخاً صدوقاً، فنسألهم عما تقول(٩)، حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألناك وصدقوك، صدقناك، وعرفنا منزلتك عند اللّه، وأنه بعثك رسولاً كما تقول!

فقال لهم رسول اللّه ﷺ: «ما بهذا بعثت، إنما جئتكم من عند اللّه بما بعثنى به، فقد بلغتكم ما أرسلت به، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر اللّه، حتى يحكم

(١) فى ت: «هاشم» وهو خطأ. (٢) فى ت: «إليه». (٣) فى ت: « قومك».
(٤) فى ف: «وقد». (٥) فى ت:« فكانوا». (٦) فى ت: «بعثنى الله».
(٧) فى ت: «أصير». (٨) فى ت: « وليخرج»، وفى ف: «وليجر».
(٩) فى ت: « ليسألهم عما يقول».

اللَّه بينى وبينكم ».

قالوا: فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك، فاسأل ربك أن يبعث ملكاً يصدقك بما تقول[١] ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جناناً، وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة، ويغنيك بها عما نراك تبتغى، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف[٢] فضل منزلتك من ربك، إن كنت رسولاً كما تزعم .

فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: « ما أنا بفاعل، ما أنا بالذى يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن اللَّه بعثنى بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردّوه علىّ أصبر لأمر اللَّه حتى يحكم اللَّه بينى وبينكم».

قالوا: فأسقط السماء، كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل .

فقال لهم رسول اللَّه ﷺ: « ذلك إلى اللَّه إن شاء فعل بكم ذلك».

فقالوا: يامحمد، أما[٣] علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب فيقدم إليك ويعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ماهو صانع فى ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، فقد بلغنا أنه إنما يعلمك هذا رجل باليمامة، يقال له: الرحمن، وإنا واللَّه لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرنا إليك يامحمد، أما واللَّه لا نتركك وما فعلت بنا حتى نهلكك أو تهلكنا. وقال قائلهم: نحن نعبد الملائكة وهى بنات اللَّه. وقال قائلهم: لن نؤمن لك حتى تأتى[٤] باللَّه والملائكة قبيلاً.

فلما قالوا ذلك قام رسول اللَّه ﷺ عنهم، وقام معه عبد اللَّه بن أبى أمية بن المغيرة بن عبد اللَّه ابن عمر بن مخزوم، وهو ابن عمته، ابن عاتكة ابنة عبد المطلب، فقال: يامحمد، عرض عليك قومك ماعرضوا، فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من اللَّه، فلم[٥] تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب، فواللَّه لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه، وأنا أنظر حتى تأتيها، وتأتى معك بنسخة منشورة، معك أربعة من الملائكة، يشهدون أنك كما تقول. وايم اللَّه، لو فعلت ذلك لظننت أنى لا أصدقك. ثم انصرف عن رسول اللَّه ﷺ، وانصرف رسول اللَّه ﷺ إلى أهله حزيناً أسفاً لما فاته، مما كان طمع فيه من قومه حين دعوه، ولما رأى من مباعدتهم إياه[٦].

وهكذا رواه زياد بن عبد اللَّه البَكَّائى، عن ابن إسحاق، حدثنى بعض أهل العلم، عن سعيد ابن جبير وعكرمة، عن ابن عباس، فذكر مثله سواء.

وهذا المجلس الذى اجتمع هؤلاء له، لو[٧] علم اللَّه منهم أنهم يسألون ذلك استرشاداً لأجيبوا

---

(١) فى ت: « يقول». (٢) فى ت : «تعرف». (٣) فى ت: « لما».

(٤) فى ف: «تأتينا». (٥) فى ت: «ثم لم».

(٦) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٩٦).

(٧) فى ف: «فلو».

إليه، ولكن علم أنهم إنما يطلبون ذلك كفراً وعناداً، فقيل للرسول: إن شئت أعطيناهم ما سألوا فإن كفروا عذبتهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «بل تفتح عليهم باب التوبة والرحمة» كما تقدم ذلك فى حديثى[١] ابن عباس والزبير بن العوام أيضاً، عند قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا . انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً. تَبَارَكَ الَّذِى إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا . بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ٧ ـ ١١].

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ الينبوع: العين الجارية، سألوه أن يجرى لهم عيناً معيناً فى أرض الحجاز هنا وهنا، وذلك[٢] سهل يسير على الله تعالى، لو شاء لفعله ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا، ولكن علم أنهم لا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقوله تعالى ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ﴾ أى: أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء وتهى، وتدلى أطرافها، فعجل ذلك فى الدنيا، وأسقطها كسفاً [أى: قطعاً، كقولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]، وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا: ﴿أَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾][٣] ﴿مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٧]. فعاقبهم الرب بعذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم. وأما نبىّ الرحمة، ونبىّ التوبة المبعوث رحمة للعالمين، فسأل إنظارهم وتأجيلهم، لعل اللّه أن يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً. وكذلك وقع، فإن من هؤلاء الذين ذكروا من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه[٤] حتى «عبد اللّه ابن أبى أمية» الذى تبع النبى ﷺ وقال له ما قال، أسلم إسلاماً تاماً، وأناب إلى اللّه عز وجل.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: هو الذهب. وكذلك هو فى قراءة ابن مسعود: «أو يكون لك بيت من ذهب»، ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ أى: تصعد[٥] فى سلم ونحن ننظر إليك ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ قال مجاهد: أى مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة: هذا كتاب من اللّه لفلان ابن فلان، تصبح موضوعة عند رأسه[٦].

---

(١) فى ف: «حديث». (٢) فى ت، ف: «وهذا». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ف: «وحسن إسلامه بعد ذلك».
(٥) فى ت: «يصعد». (٦) فى ف: « يصبح عند رأسه موضوع».

وقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾ أى: سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه فى أمر من أمور سلطانه وملكوته، بل هو الفعال لما يشاء، إن شاء أجابكم إلى ما سألتم، وإن شاء لم يجبكم، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم، وقد فعلت ذلك، وأمركم فيما سألتم إلى الله عز وجل.

قال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا على بن إسحاق، حدثنا ابن المبارك، حدثنا يحيى بن أيوب، عن عبيد الله بن زَحْر، عن على بن يزيد، عن القاسم[1]، عن أبى أمامة، عن النبى ﷺ قال: «عرض ربى عز وجل ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يارب، ولكن أشبع يوماً، وأجوع يوماً - أو نحو ذلك - فإذا جُعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك».

ورواه الترمذى فى «الزهد» عن سُوَيْد بن نصر[2]، عن ابن المبارك، به[3]. وقال: هذا حديث حسن. وعلى بن يزيد يُضَعَّفُ فى الحديث.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ﴾ أى: أكثرهم ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ ويتابعوا الرسل، إلا استعجابهم من بعثته[4] البشر رسلاً، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يونس: ٢].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦]، وقال فرعون وملؤه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وكذلك قالت[5] الأمم لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠]، والآيات فى هذا كثيرة.

ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده: أنه يبعث إليهم الرسول من جنسهم، ليفقهوا عنه ويفهموا منه، لتمكنهم من مخاطبته ومكالمته، ولو بعث إلى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ. فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢]؛ ولهذا قال ههنا: ﴿لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أى: كما أنتم فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً﴾ أى: من جنسهم، ولما كنتم أنتم بشراً، بعثنا فيكم رسلنا[6] منكم لطفاً ورحمة.

---

(١) فى ت: «ألتم». (٢) فى أ: «زهير».

(٣) المسند (٥/ ٢٤٥) وسنن الترمذى برقم (٢٣٤٧) وعبد الله بن زحر وعلى بن يزيد والقاسم ضعفاء.

(٤) فى ت: «بعثة». (٥) فى ت: «قالوا». (٦) فى ت: «رسلا».

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) ﴾.

يقول تعالى مرشداً نبيه إلى الحجة على قومه، فى صدق ما جاءهم به: أنه شاهد عليّ وعليكم، عالم بما جئتكم به، فلو كنت كاذباً [عليه](١) انتقم منى أشد الانتقام، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ .ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦].

وقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ أى: عليم بهم بمن يستحق الإنعام والإحسان والهداية، ممن يستحق الشقاء والإضلال (٢)والإزاغة؛ ولهذا قال:

﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه فى خلقه، ونفوذ حكمه، وأنه لا معقب له، بأنه من يهده فلا مضلّ له ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ﴾ أى: يهدونهم، كما قال: ﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[الكهف: ١٧].

وقوله: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾ قال الإمام أحمد:

حدثنا ابن نمير، حدثنا إسماعيل عن نُفَيْع قال(٣): سمعت أنس بن مالك يقول: قيل: يارسول الله، كيف يحشر(٤) الناس على وجوههم ؟ قال: « الذى أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم». وأخرجاه فى الصحيحين(٥).

وقال الإمام أحمد أيضاً: [حدثنا يزيد](٦) ،حدثنا الوليد بن جُمَيْع القرشى، عن أبيه، حدثنا أبو الطفيل عامر بن واثلة، عن حذيفة بن أسيد قال: قام أبو ذر فقال: يابنى غفار، قولوا ولا تحلفوا، فإن الصادق المصدوق حدثنى: أن الناس يحشرون على ثلاثة أفواج: فوج راكبين طاعمين كاسين، وفوج(٧) يمشون ويسعون، وفوج تسحبهم الملائكة على وجوههم وتحشرهم إلى النار. فقال قائل منهم: هذان قد عرفناهما، فما بال الذين يمشون ويسعون(٨)؟ قال: يلقى الله، عز وجل، الآفة على(٩) الظهر حتى لا يبقى ظهر،حتى إن الرجل لتكون له الحديقة المعجبة، فيعطيها بالشارف ذات القتب ،فلا يقدر عليها (١٠).

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «الضلال». (٣) فى ت: «نفيع كذا قال».
(٤) فى ف: «تحشر».
(٥) المسند (٣/ ١٦٧) وصحيح البخارى برقم (٤٧٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٦).
(٦) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(٧) فى ف: «وقوم». (٨) فى ت: «ويسقون». (٩) فى ت: « الأئمة هل»، وفى ف: «الأئمة على».
(١٠) المسند (٥/ ١٦٤).

وقوله: ﴿عُمْيًا﴾ أي: لا يبصرون ﴿وَبُكْمًا﴾ يعني: لا ينطقون ﴿وَصُمًّا﴾: لا يسمعون. وهذا يكون في حال دون حال جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وصماً عن الحق فجوزوا في محشرهم بذلك أحوج ما يحتاجون إليه ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ أي: منقلبهم[1] ومصيرهم ﴿جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ﴾ قال ابن عباس: سكنت[2]. وقال مجاهد: طفئت ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: لهباً ووهجاً وجمراً، كما قال: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: ٣٠].

﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩)﴾.

يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم به، من البعث على العمى والبكم والصمم، جزاؤهم الذي يستحقونه؛ لأنهم كذبوا ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي: بأدلتنا[3] وحججنا، واستبعدوا وقوع البعث ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا﴾ بالية نخرة ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك، والتفرق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية؟. فاحتج[4] تعالى عليهم، ونبههم على قدرته على ذلك، بأنه خلق السموات والأرض، فقدرته على إعادتهم أسهل من ذلك كما قال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ. إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ. فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨١، ٨٣]. .

وقال ههنا: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي: يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى، ويعيدهم كما بدأهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: جعل لإعادتهم وإقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ومدة مقدرة لابد من انقضائها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤].

وقوله: ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ﴾ أي: بعد قيام الحجة عليهم ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾: إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم.

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا (١٠٠)﴾.

---

(١) في أ: «مقبلهم». (٢) في ت: «ستكتب». (٣) في ت: «بآياتنا».

(٤) في ف: « واحتج».

يقول تعالى لرسوله صلوات اللَّه عليه وسلامه[١] قل لهم يامحمد: لو أنكم ـ أيها الناس ـ تملكون التصرف فى خزائن اللَّه، لأمسكتم خشية الإنفاق.

قال ابن عباس، وقتادة: أى الفقر أى: خشية أن تذهبوها[٢]، مع أنها لا تفرغ ولا تنفد أبداً؛ لأن هذا من طباعكم وسجاياكم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا﴾ قال ابن عباس، وقتادة[٣]: أى بخيلاً منوعاً. وقال اللَّه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ٥٣] أى: لو أن لهم نصيباً فى ملك اللَّه لما أعطوا أحداً شيئاً، ولا مقدار نقير، واللَّه تعالى يصف الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه اللَّه وهداه؛ فإن البخل والجزع والهلع صفة له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا . إِلاَّ الْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢]. ولهذا نظائر كثيرة فى القرآن العزيز، ويدل هذا على كرمه[٤] وجوده وإحسانه، وقد جاء فى الصحيحين: «يد اللَّه ملأى لا يَغيضها نفقة، سَحَّاءُ الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يَغض ما فى يمينه»[٥].

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾.

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات، وهى الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون، وهى: العصا، واليد، والسنين[٦]، والبحر، والطوفان[٧]، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات. قاله ابن عباس.

وقال محمد بن كعب: هى اليد، والعصا، والخمس فى الأعراف، والطَّمْسَة والحجر.

وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وعكرمة والشعبى، وقتادة: هى يده، وعصاه، والسنين، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

وهذا القول ظاهر جلى حسن قوى. وجعل الحسن البصرى «السنين ونقص الثمرات» واحدة، وعنده أن التاسعة هى: تلقف العصا ما يأفكون. ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]

---

(١) فى ف: «ﷺ». (٢) فى أ: «تنهبوها». (٣) فى ف، أ: «ومجاهد».

(٤) فى ف: «كرم اللّه».

(٥) صحيح البخارى برقم (٧٤١٩) وصحيح مسلم برقم (٩٩٣).

(٦) فى ت، ف، أ: ولسانه». (٧) فى ف، أ: « والطوفان والبحر».

أى: ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها، كفروا بها وجحدوا بها، واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً، وما نجعت(١) فيهم، فكذلك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك(٢) سألوا، وقالو: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى آخرها، لما استجابوا ولا آمنوا إلا أن يشاء اللَّه، كما قال فرعون لموسى ـ وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات ـ: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ قيل: بمعنى ساحر. واللَّه تعالى أعلم.

فهذه الآيات التسع التى ذكرها هؤلاء الأئمة هى المرادة ههنا، وهى المعنية فى قوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ . إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٠ ـ ١٢]. فذكر هاتين الآيتين: العصا واليد، وبين الآيات الباقيات فى «سورة الأعراف» وفصلها.

وقد أوتى موسى، عليه السلام، آيات أخرَ كثيرة، منها ضربُه الحجر بالعصا، وخروج الأنهار منه، ومنها تظليلهم الغمام، وإنزال المنّ والسلوى، وغير ذلك مما أوتوه بنو إسرائيل بعد مفارقتهم بلاد مصر، ولكن ذكر ههنا التسع الآيات التى شاهدها فرعون وقومه من أهل مصر، وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفراً وجحوداً. فأما الحديث الذى رواه الإمام [أحمد](٣):

حدثنا يزيد، حدثنا شعبة، عن عمرو بن مُرَّة قال: سمعت عبد اللَّه بن سلمة(٤) يحدث، عن صفوان بن عَسَّال المرادى، رضى اللَّه عنه، قال: قال يهودى لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبى [ﷺ](٥) حتى نسأله عن هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ فقال: لا تقل له: نبى فإنه لو سمعك لصارت له أربع أعين. فسألاه، فقال النبى ﷺ: « لا تشركوا باللَّه شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التى حرم اللَّه إلا بالحق، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله، ولا تقذفوا محصنة - أو قال: لا تفروا من الزحف ـ شعبة الشاك - وأنتم يايهود، عليكم(٦) خاصة ألا تعدوا فى السبت». فقبلا يديه ورجليه، وقالا: نشهد أنك نبى. [قال: «فما يمنعكما أن تتبعانى ؟» قالا: لأن داود، عليه السلام، دعا ألا يزال من ذريته نبى](٧)، وإنا نخشى إن أسلمنا أن تقتلنا يهود.

فهذا الحديث رواه هكذا الترمذى، والنسائى، وابن ماجه، وابن جرير فى تفسيره من طرق عن شعبة بن الحجاج، به(٨) . وقال الترمذى: حسن صحيح.

وهو حديث مشكل، وعبد اللَّه بن سلمة فى حفظه شىء، وقد تكلموا فيه، ولعله اشتبه عليه التسع الآيات بالعشر الكلمات، فإنها، وصايا فى التوراة لا تعلق لها بقيام الحجة على فرعون، واللَّه أعلم.

(١) فى ت: «وما نجوت». (٢) فى ت: «مثل». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ف: « مسلم». (٥) زيادة من ت. (٦) فى ت: «أيكم». (٧) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٨) المسند (٤/٢٣٩) وسنن الترمذى برقم (٣١٤٤) وسنن النسائى (٧/١١١) وسنن ابن ماجة برقم (٣٧٠٥) وتفسير الطبرى (١٥/١١٥).

ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ أى: حججاً وأدلة على صدق ما جئتك به ﴿ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ أى: هالكاً. قاله مجاهد وقتادة. وقال ابن عباس ملعوناً . وقال أيضاً هو والضحاك: ﴿مَثْبُورًا ﴾ أى: مغلوباً. والهالك ـ كما قال مجاهد ـ يشمل[1] هذا كله، قال عبد الله بن الزبعرى :

إذْ أجَارِى الشَّيْطَانَ فى سَنَنِ الغَـ ـىِّ وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُور[2]

[بمعنى هالك][3].

وقرأ بعضهم برفع التاء من قوله: ﴿ عَلِمْتُ ﴾ وروى ذلك عن على بن أبى طالب. ولكن قراءة الجمهور بفتح التاء على الخطاب[4] لفرعون، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ .وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٣، ١٤] .

فهذا كله مما يدل على[5] أن المراد بالتسع الآيات إنما هى مما تقدّم ذكره[6] من العصا، واليد، والسنين، ونقص من الثمرات، والطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم. التى فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه، وخوارق ودلائل على صدق موسى ووجود الفاعل المختار الذى أرسله. وليس المراد منها كما ورد فى هذا الحديث، فإن هذه الوصايا ليس فيها حجج على فرعون وقومه، وأى مناسبة بين هذا وبين إقامة البراهين على فرعون؟ وما جاء هذا الوهم إلا من قبل «عبد الله بن سلمة[7]» فإن له بعض ما يُنكر. والله أعلم . ولعل ذينك اليهوديين إنما سألا عن العشر الكلمات، فاشتبه على الراوى بالتسع الآيات، فحصل وَهْم فى ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ﴾ أى: يخليهم منها ويزيلهم[8] عنها ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا .وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ﴾ وفى هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع؛ فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول منها، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً . سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧]؛ ولهذا أورث الله رسوله[9] مكة، فدخلها عَنْوَة على أشهر القولين، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلمًا وكرمًا، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بنى إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها، وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم

(١) فى ت: «يشتمل».
(٢) البيت فى تفسير الطبرى (١٥/ ١١٧).
(٣) زيادة من ت.
(٤) فى ف: « على الخطاب فتح التاء».
(٥) فى أ: «عليه».
(٦) فى ت، ف: «ذكرها».
(٧) فى ف: « مسلم».
(٨) فى ت: « ويرسلهم».
(٩) فى ت: «ورسوله».

وثمارهم وكنوزهم، كما قال: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] وقال ههنا: ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ أى: جميعكم أنتم وعدوكم.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: ﴿لَفِيفًا﴾ أى: جميعاً.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (١٠٦)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز، وهو القرآن المجيد، أنه بالحق نزل، أى: متضمنًا للحق، كما قال تعالى: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦] أى: متضمنا علم الله الذى أراد أن يُطْلعكم عليه، من أحكامه وأمره ونهيه.

وقوله: ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ أى: ووصل إليك ـ يامحمد ـ محفوظاً محروساً، لم يُشَب بغيره، ولا زيدَ فيه ولا نُقص منه، بل وصل إليك بالحق، فإنه نزل به شديد القُوى، [القوِىّ][1] الأمين المكين المطاع فى الملأ الأعلى.

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أى: يا محمد ﴿إِلاَّ مُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعك من المؤمنين ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن عصاك من الكافرين.

وقوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ﴾ أما قراءة من قرأ بالتخفيف، فمعناه: فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مُفرقًا منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ فى ثلاث وعشرين سنة. قاله عكرمة عن ابن عباس.

وعن ابن عباس أيضًا أنه قال: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ بالتشديد، أى: أنزلناه آية آية، مبيناً مفسراً؛ ولهذا قال: ﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ﴾ أى: لتبلغه الناس وتتلوه عليهم ﴿عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ أى: مَهَل ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ أى: شيئًا بعد شىء.

﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يامحمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم: ﴿آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا﴾ أى: سواء آمنتم به أم لا، هو حق فى نفسه، أنزله الله ونوه بذكره فى سالف الأزمان[2] فى كتبه المنزلة على رسله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ﴾ أى: من صالح أهل الكتاب الذين يُمَسّكون بكتابهم ويقيمونه، ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هذا

---

(١) زيادة من ت، ف، أ.

(٢) فى أ: «الزمان».

القرآن، ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ﴾ جمع ذَقَن، وهو أسفل الوجه ﴿سُجَّدًا﴾ أى: لله، عز وجل، شكراً على ما أنعم به عليهم، من جعله إياهم أهلاً، إن أدركوا هذا الرسول الذى أنزل عليه [هذا][1] الكتاب؛ ولهذا يقولون: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ أى: تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة، وأنه لا يخلف الميعاد الذى وعدهم على ألسنة الأنبياء [المتقدمين عن بعثة محمد ﷺ؛ ولهذا قالوا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾][2].

وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ أى: خضوعاً لله عز وجل وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله، ويزيدهم الله خشوعاً، أى: إيماناً وتسليماً كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وقوله: ﴿ وَيَخِرُّونَ﴾ عطف صفة على صفة لا عطف سجود على سجود، كما قال الشاعر:

إلَى المَلك القَرْم وابن الهُمام ... ولَيْث الكَتيبَة فى المُزْدَحَمْ

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١) ﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد، لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله، عز وجل، المانعين من تسميته بالرحمن: ﴿ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ أى: لا فرق بين دعائكم له باسم «الله» أو باسم[3] «الرحمن»، فإنه ذو الأسماء الحسنى، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ إلى أن قال: ﴿ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤].

وقد روى مكحول[4]: أن رجلاً من المشركين سمع النبى ﷺ وهو يقول فى سجوده: « يارحمن يارحيم »، فقال: إنه يزعم أنه يدعو واحداً، وهو يدعو اثنين. فأنزل الله هذه الآية. وكذا روى عن ابن عباس، رواهما ابن جرير.

وقوله: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ﴾ الآية ، قال الإمام أحمد :

حدثنا هُشَيْم، حدثنا أبو بشر، عن[5] سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: نزلت[6] هذه الآية وهو متوار بمكة ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا [وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً][7]﴾ قال: كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، وسبوا من أنزله، ومن جاء به. قال: فقال الله تعالى لنبيه: ﷺ ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ ﴾ أى: بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن

---

(١) زيادة من أ. (٢) زيادة من ت، ف. (٣) فى ت: «واسم».
(٤) تفسير الطبرى (١٥/ ١٢١) وكأن الحافظ اختصره هنا.
(٥) فى ف: «حدثنا». (٦) فى ت: «قرأت». (٧) زيادة من أ.

﴿ وَلا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾.

أخرجاه فى الصحيحين من حديث أبى بشر جعفر بن إياس، به [(١)] . وكذا روى [(٢)] الضحاك عن ابن عباس، وزاد: «فلما هاجر إلى المدينة، سقط ذلك، يفعل أىّ ذلك شاء» [(٣)].

وقال محمد بن إسحاق: حدثنى داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كان رسول اللَّه ﷺ إذا جهر بالقرآن وهو يصلى، تفرقوا عنه وأبوا أن يستمعوا منه، فكان الرجل إذا أراد أن يستمع [(٤)] من رسول اللَّه ﷺ بعض ما يتلو وهو يصلى، استرق السمع دونهم فرقاً منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع [(٥)]، ذهب خشية أذاهم فلم يستمع [(٦)]، فإن خفض صوته ﷺ [(٧)] لم يستمع الذين [(٨)] يستمعون من قراءته شيئاً، فأنزل اللَّه: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ ﴾ فيتفرقوا عنك ﴿وَلا تُخَافِتْ بِهَا﴾ فلا تُسمع من أراد أن يسمعها ممن يسترق ذلك دونهم، لعله يرعوى إلى بعض ما يسمع، فينتفع به ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً ﴾.

وهكذا قال عكرمة، والحسن البصرى، وقتادة: نزلت هذه الآية فى القراءة فى الصلاة.

وقال شعبة عن أشعث بن أبى سليم [(٩)] عن الأسود بن هلال، عن ابن مسعود: لم يُخافتْ بها مَنْ أسمع أذنيه.

قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن سلمة بن علقمة، عن محمد بن سيرين قال: نبئت أن أبا بكر كان إذا صلى فقرأ خفض صوته، وأن عمر كان يرفع صوته، فقيل لأبى بكر: لم تصنع هذا ؟ قال: أناجى ربى، عز وجل، وقد علم حاجتى. فقيل: أحسنت. وقيل لعمر: لم تصنع هذا؟ قال: أطرد الشيطان، وأوقظ الوَسْنَان . قيل: أحسنت. فلما نزلت: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ قيل لأبى بكر: ارفع شيئاً، وقيل لعمر: اخفض شيئاً [(١٠)].

وقال أشعث بن سَوَّار، عن عكرمة، عن ابن عباس: نزلت فى الدعاء. وهكذا روى الثورى، ومالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة: نزلت فى الدعاء. وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وأبو عياض، ومكحول، وعروة بن الزبير.

وقال الثورى عن [ابن] [(١١)] عياش العامرى، عن عبد اللَّه بن شداد قال: كان أعراب من بنى تميم إذا سلم النبى [(١٢)] ﷺ قالوا: اللهم ارزقنا إبلاً وولداً. قال: فنزلت هذه الآية: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا ﴾ .

(١) المسند (١/ ٢٣) وصحيح البخارى برقم (٢٧٢٢) وصحيح مسلم برقم (٤٤٦).
(٢) فى ف: «رواه».
(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ١٢٣).
(٤، ٥) فى ت، ف: « يسمع».
(٦) فى ت: «يسمع».
(٧) فى ف: «وإن خفض رسول الله ﷺ صوته».
(٨) فى ت: « ولم يسمع الذى».
(٩) فى هـ ، ت: «عن أبى سليم» والمثبت من الطبرى.
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ١٢٤).
(١١) زيادة من ف.
(١٢) فى ف، أ: «رسول الله».

قول آخر: قال ابن جرير: حدثنا أبو السائب، حدثنا حفص بن غياث، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، رضى الله عنها، نزلت[١] هذه الآية فى التشهد: ﴿**وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا**﴾.

وبه قال حفص، عن أشعث بن سوار، عن محمد بن سيرين، مثله.

قول آخر: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا**﴾ قال: لا تصل مراءاة الناس، ولا تدعها مخافة الناس. وقال الثورى، عن منصور، عن الحسن البصرى: ﴿**وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا**﴾ قال: لا تحسن علانيتها وتسىء سريرتها. وكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن الحسن، به. وهُشَيْم، عن عوف، عنه به. وسعيد، عن قتادة، عنه كذلك.

قول آخر: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿**وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً**﴾ قال: أهل الكتاب يخافتون، ثم يجهر أحدهم بالحرف فيصيح به، ويصيحون هم به وراءه، فنهاه أن يصيح كما يصيح هؤلاء، وأن يخافت كما يخافت القوم، ثم كان السبيل الذى بين ذلك، الذى سن له جبريل من الصلاة.

وقوله: ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا**﴾: لما أثبت تعالى لنفسه الكريمة الأسماء الحسنى، نَزَّه نفسه عن النقائص فقال: ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ**﴾ بل هو الله الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد ،ولم يكن له كفواً أحد .

﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ**﴾ أى: ليس بذليل فيحتاج[٢] أن يكون له ولى أو وزير أو مشير، بل هو تعالى[شأنه][٣] خالق الأشياء وحده لا شريك له، ومقدرها ومدبرها[٤] بمشيئته وحده، لا شريك له.

قال مجاهد فى قوله: ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ**﴾: لم يحالف أحداً ولا يبتغى[٥] نصر أحد.

﴿**وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**﴾ أى: عظِّمه وأجلَّه عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

قال ابن جرير: حدثني يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرنى أبو صخر، عن القرظى أنه كان يقول فى هذه الآية: ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا**﴾ الآية، قال: إن اليهود والنصارى قالوا: اتخذ الله ولداً، وقال[٦] العرب: [لبيك][٧] لبيك، لا شريك لك؛ إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك. وقال الصابئون والمجوس: لولا أولياء الله لذل. فأنزل الله هذه الآية: ﴿**وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِى مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**﴾.

وقال أيضاً: حدثنا بشر، [حدثنا يزيد][٨]، حدثنا سعيد، عن قتادة: ذكر لنا أن النبى ﷺ كان

---

(١) فى ت: «أنزلت». (٢) فى أ: «فلايحتاج». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت، ف: «ومدبرها ومقدرها». (٥) فى ف: «ولم يبتغ». (٦) فى ت، ف، أ: «وقالت».
(٧) زيادة من ف. (٨) زيادة من ت، ف، أ.

يعلم أهله هذه الآية ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ الصغير من أهله[١] والكبير .

قلت: وقد جاء فى حديث أن رسول اللَّه ﷺ سماها آية العز[٢]. وفى بعض الآثار: أنها ما قرئت فى بيت فى ليلة فيصيبه سرق أو آفة. واللَّه أعلم .

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا بشر بن سيحان البصرى، حدثنا حرب بن ميمون، حدثنا موسى ابن عبيدة الرَّبَذى، عن محمد بن كعب القُرَظى، عن أبى هريرة قال: خرجت أنا ورسول اللَّه ﷺ، ويدى فى يده، فأتى على رجل رث الهيئة، فقال: « أى فلان[٣] ،ما بلغ بك ما أرى؟». قال: السقم والضرّ يارسول اللَّه. قال: « ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضر ؟ » قال: لا، قال: مايسرنى بها[٤] أن شهدت معك بدراً أو أحداً . قال: فضحك رسول اللَّه ﷺ وقال: « وهل يدرك أهل بدر وأهل أحد ما يدرك الفقير القانع ؟ ». قال: فقال[٥] أبو هريرة: يا رسول اللَّه، إياى فعلمنى قال: فقل يا أبا هريرة: «توكلت على[٦] الحى الذى لا يموت، الحمد للَّه الذى لم يتخذ ولداً، ولم يكن له شريك فى الملك، ولم يكن له ولى من الذل، وكبره تكبيراً». قال: فأتى علىّ رسول اللَّه وقد حَسُنَت حالى، قال: فقال لى: « مَهْيم ». قال: قلت: يارسول اللَّه، لم أزل[٧] أقول الكلمات التى علمتنى[٨] .

إسناده ضعيف وفى متنه نكارة. [واللَّه أعلم][٩].

---

(١) فى ف «منهم».

(٢) رواه أحمد فى مسنده (٣/ ٤٤٠) من حديث معاذ بن أنس مرفوعًا: « آية العز: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾. الآية كلها».

(٣) فى ت: « أنى تلك». (٤) فى ت: «لا يرى بها». (٥) فى ت: «فقال قال».

(٦) فى ت: «صلى» . (٧) فى ت: « لم أنزل».

(٨) مسند أبى يعلى (١٢/ ٢٣) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٥٢): «وفيه موسى بن عبيدة الربذى وهو ضعيف».

(٩) زيادة من ف، أ.

ووقع فى ت: «آخر تفسير سورة الإسراء، ولله الحمد والمنة، وبه التوفيق والعصمة، غفر الله لكاتبه ولمن قرأ فيه ولوالديه ولمشايخه ولجميع المسلمين أجمعين آمين».

[بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين][١]

تفسير سورة الكهف

وهى مكية.

ذكر ما ورد فى فضلها، والعشر الآيات من أولها وآخرها، وأنها عصمة من الدجال:

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، ، حدثنا شعبة، عن أبى إسحاق قال: سمعت البراء يقول: قرأ رجل الكهف، وفى الدار دابة، فجعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابة ـ أو: سحابة ـ قد غشيته، فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال: «اقرأ فلان، فإنها السكينة تنزلت عند القرآن، أو تنزلت للقرآن».

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث شعبة ، به[٢]. وهذا الرجل الذى كان يتلو هو: أُسَيْدُ بن الحُضَيْر، كما تقدم فى تفسير البقرة[٣] .

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا همّامَ بن يحيى، عن قتادة، عن سالم بن أبى الجعد، عن مَعْدان بن أبى طلحة، عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ قال: «من حَفظ عَشْرَ آيات من أول سورة الكهف، عُصِم من الدجال» .

رواه مسلم، وأبو داود، والنسائى، والترمذى[٤] من حديث قتادة، به[٥]. ولفظ الترمذى: «من حفظ الثلاث الآيات من أول الكهف» ، وقال: حسن صحيح .

طريق أخرى: قال [الإمام][٦] أحمد: حدثنا حجاج، حدثنا شعبة، عن قتادة، سمعت سالم بن أبى الجعد يحدّث عن معدان، عن أبى الدرداء، عن النبى ﷺ قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصِم من فتنة الدجال» .

ورواه مسلم أيضًا والنسائى، من حديث قتادة، به[٧] . وفى لفظ النسائى: «من قرأ عشر آيات من الكهف»، فذكره.

حديث آخر : وقد رواه النسائى فى «اليوم والليلة» عن محمد بن عبد الأعلى، عن خالد، عن شعبة، عن قتادة، عن سالم بن أبى الجعد، عن ثَوْبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف، فإنه عصمة له من الدجال»[٨] . فيحتمل أن سالما سمعه من ثوبان ومن

---

(١) زيادة من ت .

(٢) المسند (٤/ ٢٨١) وصحيح البخارى برقم (٣٦١٤) وصحيح مسلم برقم (٧٩٥) .

(٣) فى أول تفسير سورة البقرة، فى فضلها .

(٤) فى ف : «الترمذى والنسائى».

(٥) المسند (٥/ ١٩٦) وصحيح مسلم برقم (٨٠٩) وسنن أبى داود برقم (٤٣٢٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (٨٠٢٥) وسنن الترمذى برقم (٢٨٨٦) .

(٦) زيادة من ف .

(٧) المسند (٦/ ٤٤٦) وصحيح مسلم برقم (٨٠٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٧٨٦) .

(٨) سنن النسائى الكبرى برقم (١٠٧٨٤) .

أبى الدرداء .

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا زبَّان بن فايد[(١)]، عن سهل بن معاذ ابن أنس الجهنى، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ أول سورة الكهف وآخرها، كانت له نوراً من قدمه إلى رأسه، ومن قرأها كلها كانت له نوراً ما بين الأرض إلى السماء[(٢)]» انفرد به أحمد ولم يخرجوه[(٣)] [(٤)] .

وروى الحافظ أبو بكر بن مَرْدُوْيْه [فى تفسيره][(٥)] ،بإسناد له غريب، عن خالد بن سعيد بن أبى مريم، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة، سطع له نور من تحت قدمه إلى عَنَان السماء، يضىء له يوم القيمة، وغُفر له مابين الجمعتين»[(٦)] .

وهذا الحديث فى رفعه نظر، وأحسن أحواله الوقف .

وهكذا روى[(٧)] الإمام: «سعيد بن منصور» فى سننه، عن هُشَيْم بن بشيرٍ[(٨)] ،عن أبى هاشم[(٩)]، عن أبى مِجْلَز، عن قيس بن عباد[(١٠)]، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، أنه قال: من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة، أضاء له مِنَ النور ما بينه وبين البيت العتيق .

هكذا وقع موقوفا، وكذا[(١١)] رواه الثورى، عن أبى هاشم[(١٢)]، به[(١٣)] .من حديث أبى سعيد الخدرى .

وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه، عن أبي بكر محمد بن المؤمل، حدثنا الفضيل[(١٤)] بن محمد الشَّعرانى، حدثنا نُعَيم بن حَمَّاد، حدثنا هُشَيْم، حدثنا أبو هاشم، عن أبى[(١٥)] مِجْلَزْ، عن قيس بن عُبَاد، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين»، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه .

وهكذا رواه الحافظ أبو بكر البيهقى فى سننه، عن الحاكم[(١٦)]، ثم قال البيهقى: ورواه يحيى بن كثير، عن شعبة، عن أبى هاشم بإسناده أن النبى ﷺ قال: «من قرأ سورة الكهف كما أنزلت كانت

---

(١) فى ت: «زياد بن واقد»، وفى ف: «ثوبان بن فايد» .

(٢) فى ف: «السماء والأرض» (٣) فى ت: «يخرجه».

(٤) المسند (٤/٤٣٩) .

(٥) زيادة من ف .

(٦) ذكره المنذرى فى الترغيب (١/٥١٣)وقال: «رواه ابن مردويه بإسناد لا بأس به» .

(٧) فى ت : «رواه». (٨) فى ت :«بشر» . (٩) فى ت،أ : «هشام».

(١٠) فى ف: «عبادة». (١١) فى ت : «وهكذا» . (١٢) فى ت : «هشام» .

(١٣) ورواه أبو عبيد فى فضائل القرآن (ص١٣١) قال: حدثنا هشيم به موقوفًا. وسيأتى الاختلاف على هشيم .أما رواية الثورى: فرواها النسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٧٩٠) من طريق عبد الرحمن عن سفيان الثورى به موقوفًا .وقد حقق الفاضل محمد طرهونى فى كتابه «موسوعة فضائل القرآن» (١/٣٣٧) روايتى الرفع والوقف فأجاد وأفاد، جزاه الله خيرًا، ثم رجح أنه موقوف فى حكم المرفوع .

(١٤) فى ت: «الفضل». (١٥) فى ت :« أبو» .

(١٦) المستدرك (٢/٣٦٨) والسنن الكبرى للبيهقى (٣/٢٤٩) .

له نورًا يوم القيامة»[(١)]. [والله أعلم][(٢)] .

وفى «المختارة» للحافظ الضياء المقدسى من حديث عبد الله بن[(٣)] مصعب بن منظور بن زيد بن خالد الجهنى، عن على بن الحسين، عن أبيه، عن على مرفوعًا : «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة، فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة، وإن خرج الدجال عصم منه»[(٤)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

[رب وفقنى][(٥)]

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) ﴾ .

قد تقدم فى أول التفسير أنه تعالى يحمد نفسه المقدسة عند[(٦)] فواتح الأمور وخواتيمها، فإنه المحمود على كل حال، وله الحمد فى الأولى والآخرة؛ ولهذا حَمَد نفسه على إنزاله كتابه العزيز على رسوله الكريم محمد، صلوات الله وسلامه عليه؛ فإنه أعظم نعمة[(٧)] أنعمها الله على أهل الأرض؛ إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور، حيث جعله كتاباً مستقيما لا اعوجاج فيه ولا زيغ، بل يهدى إلى صراط مستقيم، بينا واضحا جلياً[(٨)]، نذيرًا للكافرين وبشيرًا للمؤمنين؛ ولهذا قال: **﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾** أى: لم يجعل فيه اعوجاجًا ولا زيغًا ولا ميلاً، بل جعله معتدلاً مستقيماً؛ ولهذا قال: **﴿قَيِّمًا﴾** أى : مستقيماً.

﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ أى: لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به، ينذره بأسًا شديدًا، عقوبة عاجلة فى الدنيا وآجلة فى الأخرى **﴿مِّن لَّدُنْهُ﴾** أى: من عند الله الذى لا يُعَذّب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد .

﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى: بهذا القرآن الذين صَدقوا إيمانهم بالعمل الصالح **﴿ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾** أى: مثوبة عند الله جميلة **﴿ مَّاكِثِينَ فِيهِ ﴾** فى ثوابهم عند الله، وهو الجنة، خالدين فيه **﴿أَبَدًا﴾** دائمًا لازوال له ولا انقضاء .

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ[(٩)] **قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾** قال ابن إسحاق: وهم مشركو العرب فى قولهم: نحن

---

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٢٨) «مجمع البحرين» واختلف فيه على شعبة، فرواه غندر عن شعبة موقوفًا .
(٢) زيادة من أ. (٣) فى أ: «عن».
(٤) المختارة برقم (٤٣٠) وقال: «عبد الله بن مصعب لم يذكره البخارى، ولا ابن أبى حاتم فى كتابيهما» .
(٥) زيادة من ت . (٦) فى ت : «عن» . (٧) فى ف: «نعم» .
(٨) فى ت: «جليل» . (٩) فى ت : «الذى»وهو خطأ.

نعبد الملائكة، وهم بنات الله .

﴿ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أى: بهذا القول الذى افتروه وائتفكوه من علم ﴿ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴾ أى: أسلافهم.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ : نصب على التمييز، تقديره: كبرت كلمتهم هذه كلمة.

وقيل: على التعجب، تقديره: أعظم بكلمتهم كلمة، كما تقول: أكرم بزيد رجلا، قاله بعض البصريين. وقرأ ذلك بعض قراء مكة: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ ، كما يقال: عَظُم قولُك، و كبر[١] شأنُك .

والمعنى على قراءة الجمهور أظهر؛ فإن هذا تبشيع لمقالتهم[٢] واستعظام لإفكهم؛ ولهذا قال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أى: ليس لها مستند سوى قولهم، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم؛ ولهذا قال: ﴿إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾.

وقد ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة الكريمة، فقال: حدثنى شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبة بن أبى مُعَيط، إلى أحبار اليهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، وأخبروهم بقوله؛ فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ما ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتى قدما المدينة، فسألوا أحبار يهود[٣] عن رسول الله ﷺ، ووصفوا لهم[٤] أمره وبعض قوله، وقالا[٥]: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. قال: فقالت لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بِهِن، فإن أخبركم بهن، فهو نبى مرسل، وإن لم يفعل فالرجل مُتَقول فَرَوا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنهم[٦] قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبَؤه[٧]؟ [وسلوه عن الروح، ماهو؟][٨] فإن أخبركم بذلك فهو نبى فاتبعوه، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول، فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم .

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش، فقالا: يامعشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور، فأخبروهم بها، فجاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا: يامحمد، أخبرنا: فسألوه عما أمروهم به، فقال[٩] لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم غدا بما سألتم عنه». ولم يستثن، فانصرفوا عنه، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة، لا يُحدث الله إليه فى ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبريل، عليه السلام، حتى أرجف[١٠] أهل مكة وقالوا :وعدنا محمد غدًا، واليوم خمسَ عشرةَ قد أصبحنا فيها، لايُخبرنا بشىء عما سألناه عنه. وحتى أحزنَ رسول الله ﷺ مكثُ الوحى عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل، عليه السلام، من عند الله، عز وجل، بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبَرَ ماسألوه عنه من أمر الفتية[١١] والرجل الطواف، وقول الله عز وجل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥][١٢] .

(١) فى ت: «وعظم» .
(٢) فى ت: «لمقالهم» .
(٣) فى ت: «يهودى» .
(٤) فى أ: «له» .
(٥) فى ت: «وقال» .
(٦) فى أ: «فإنه» .
(٧) فى ت، أ: «بناؤه» .
(٨) زيادة من الطبرى .
(٩) فى ت: «فقالوا» .
(١٠) فى ت: «أوجب» .
(١١) فى ت : «الفقيه» .
(١٢) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ١٢٧) .

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)﴾ .

يقول تعالى مسليًا رسوله ﷺ[1] فى حزنه على المشركين، لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ [فاطر:٨]، وقال: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقال: ﴿لَعَلَّكَ[2] بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا[3] يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣] .

باخع: أى مهلك نفسك بحزنك عليهم؛ ولهذا قال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾، يعنى: القرآن. ﴿أَسَفًا﴾ يقول: لاتهلك نفسك أسفًا .

قال قتادة: قَاتِلٌ نَفْسَكَ غضبًا وحزنًا عليهم. وقال مجاهد: جزعًا. والمعنى متقارب، أى: لا تأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات.

ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا دارًا فانية مُزيَّنة بزينة زائلة. وإنما جعلها دار اختبار لا دار قرار، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ .

قال قتادة، عن أبى نَضْرة، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدنيا خضرة حلوة[4]، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون، فاتقوا الدنيا[5]، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء»[6] .

ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها، وفراغها وانقضائها، وذهابها وخرابها، فقال: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ أى: وإنا لمصيّروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار، فنجعل كل شىء عليها هالكاً ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾: لايُنْبت ولا ينتفع به، كما قال العوفى، عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ يقول: يهلك كل شىء عليها ويبيد. وقال مجاهد: ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾: بلقعاً.

وقال قتادة: الصعيد: الأرض التى ليس فيها شجر ولا نبات.

وقال ابن زيد: الصعيد: الأرض التى ليس فيها شىء، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ[7]﴾ [السجدة: ٢٧].

وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ يعنى الأرض، إن ما عليها لفان وبائد، وإن المرجع لإلى الله[8]، فلا تأس ولا يحزنك ما تسمع وترى .

---

(١) فى أ: «صلوات الله وسلامه عليه» . (٢) فى ت: «ولعلك»، وفى أ: «لعلكم» وهو خطأ.
(٣) فى ت، أ: «على ألا» وهو خطأ . (٤) فى ف، أ: «حلوة خضرة». (٥) فى أ: «يعملون، واتقوا الدنيا».
(٦) ورواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٧٤٢) من طريق أبى مسلمة عن أبى نضرة به .
(٧) فى أ: «أفلا تبصرون». (٨) فى ت: «المرجع إلى الله»، وفى ف، أ: «إلى الله المرجع» .

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝﴾.

هذا إخبار عن قصة أصحاب[١] الكهف [والرقيم][٢]، على سبيل الإجمال والاختصار، ثم بسطها بعد ذلك فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ يعنى: يامحمد ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ أى: ليس أمرهم عجيبا[٣] فى قدرتنا وسلطاننا، فإن خلْق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر والكواكب، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، وأنه على ما يشاء قادر[٤]، ولا يعجزه شىء أعجب من أخبار أصحاب الكهف [والرقيم][٥] كما قال ابن جريج[٦]، عن مجاهد: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ يقول: قد كان من آياتنا ماهو أعجب من ذلك!

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ يقول: الذى آتيتك من العلم والسنة والكتاب، أفضل من شأن أصحاب [٧] الكهف والرقيم.

وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرت[٨] من حججى على العباد، أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم .

[وأما «الكهف» فهو: الغار فى الجبل، وهو الذى لجأ إليه هؤلاء الفتية المذكورون. وأما «الرقيم»][٩] فقال العوفى، عن ابن عباس: هو واد قريب من أيلَة. وكذا قال عطية العوفى، وقتادة .

وقال الضحاك: أما «الكهف» فهو : غار الوادى، و «الرقيم»: اسم الوادى .

وقال مجاهد: «الرقيم»: كان[١٠] بنيانهم[١١]، ويقول بعضهم: هو الوادى الذى فيه كهفهم .

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثورى، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: «الرقيم» ، قال: يزعم كعب أنها القرية .

وقال ابن جريج، عن ابن عباس: «الرقيم»: الجبل الذى فيه الكهف .

وقال ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبى نَجِيح، عن [مجاهد، عن][١٢]، ابن عباس قال: اسم ذلك الجبل بنجلوس.

وقال ابن جريج: أخبرنى وهب بن سليمان، عن شعيب الجبائى: أن اسم جبل الكهف بنجلوس، واسم الكهف حيزم، والكلب حمران .

(١) فى أ: «أهل» .
(٢) زيادة من ت .
(٣) فى ت،ف، أ: «عجيب» .
(٤) فى ت: «قدير» .
(٥) زيادة من ف، أ.
(٦) فى ت: «جرير» .
(٧) فى ت: «أصحاب أهل».
(٨) فى ت: «ما أظهر» .
(٩) زيادة من ف.
(١٠) فى أ: «كتاب» .
(١١) فى ت: «كتابتهم بهم».
(١٢) زيادة من ف.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا إسرائيل، عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: القرآن أعلمه إلا حَنَانًا، والأواه، والرقيم.

وقال ابن جريج: أخبرنى عمرو بن دينار، أنه سمع عكرمة يقول: قال ابن عباس: ما أدرى ما الرقيم؟ أكتاب أم بنيان؟

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: الرقيم: الكتاب. وقال سعيد بن جبير: [الرقيم](1): لوح من حجارة، كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف(2)، ثم وضعوه على باب الكهف.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الرقيم: الكتاب. ثم قرأ: ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين: ٩].

وهذا هو الظاهر من الآية، وهو اختيار ابن جرير قال: «الرقيم» فعيل بمعنى(3) مرقوم، كما يقال للمقتول: قتيل، وللمجروح: جريح. والله أعلم.

وقوله: ﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾: يخبر تعالى عن أولئك الفتية، الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه، فَهَرَبوا منهم فَلَجَؤوا إلى غار فى جبل ليختفوا عن قومهم، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أى: هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أى: وقدر لنا من أمرنا هذا رشدا، أى: اجعل عاقبتنا رشداً(4)، كما جاء فى الحديث: «وما قضيت لنا من قضاء، فاجعل عاقبته رشدًا»، وفى المسند من حديث بُسْر بن أبى أرطاة، عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو: «اللهم، أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها، وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة».

وقوله: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ أى: ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف، فناموا سنين كثيرة ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ ﴾ أى: من رقدتهم تلك، وخرج أحدهم بدراهم معه(5) ليشترى لهم بها طعاماً يأكلونه، كما سيأتى بيانه وتفصيله؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ أى: المختلفين فيهم ﴿ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ قيل: عدداً، وقيل: غاية، فإن الأمد الغاية كقوله(6):

سَبْقَ الجَوَاد إذَا استَولَى عَلَى الأمَد

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ

---

(١) زيادة من ف. (٢) فى أ: «أهل الكتاب». (٣) فى ت: «من».
(٤) فى ت: «عاقبته رشد»، وفى ف، أ: «عاقبته رشدا». (٥) فى ف، أ: «معينة».
(٦) هو النابغة الذبيانى، والبيت فى تفسير الطبرى (١٥/ ١٣٧).

رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦)﴾.

من ههنا شرع فى بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية ـ وهم الشباب ـ وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ، الذين قد عتوا وعَسَوا[1] فى دين الباطل؛ ولهذا كان أكثرهم المستجيبين لله ولرسوله ﷺ شباباً. وأما المشايخ من قريش، فعامتهم بَقُوا على دينهم، ولم يسلم منهم إلا القليل. وهكذا[2] أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شباباً.

قال مجاهد: بلغنى أنه كان فى آذان بعضهم القرطة يعنى: الحَلَق فألهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم. فآمنوا بربهم، أى: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو.

﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾: استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخارى وغيره[3]، ممن ذهب لى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ كما قال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ[4] هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧]، وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

وقد ذكر[5] أنهم كانوا على دين عيسى ابن مريم، عليه السلام، والله أعلم ـ والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنه[6] لو كانوا على دين النصرانية، لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم، لمباينتهم لهم. وقد تقدم عن ابن عباس: أن قريشاً بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء، وعن خبر ذى القرنين، وعن الروح، فدل هذا على أن هذا أمـر محفوظ فى كتب أهل الكتاب، وأنه متقدم على دين النصرانية، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول تعالى: وصبَّرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم، ومفارقة ما كانوا فيه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وأنهم خرجوا يوماً فى بعض أعياد قومهم، وكان لهم مجتمع فى السنة يجتمعون فيه فى ظاهر البلد، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار عنيد يقال له: «دقيانوس»، وكان يأمر الناس بذلك ويحثهم عليه ويدعوهم إليه. فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم، عرفوا[7] أن هذا الذى يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم والذبح لها، لا ينبغى إلا لله الذى خلق السموات والأرض. فجعل كل واحد

(١) فى أ: «وغشوا». (٢) فى ف: «وكذا». (٣) فى ت: «ونحوه».
(٤) فى أ: «زدناهم» وهو خطأ. (٥) فى ت: «ذكروا». (٦) فى ف: «فإنهم».
(٧) فى ت، ف: «فعرفوا».

منهم يتخلص من قومه، وينحاز منهم(١)، ويتبرز عنهم ناحية. فكان(٢) أول من جلس منهم [وحده](٣) أحدهم، جلس تحت ظل شجرة، فجاء الآخر فجلس عنده، وجاء الآخر فجلس إليهما، وجاء الآخر فجلس إليهم، وجاء الآخر، وجاء الآخر، وجاء الآخر، ولا يعرف واحد منهم الآخر، وإنما جمعهم هناك الذى جمع قلوبهم على الإيمان، كما جاء في الحديث الذى رواه البخارى تعليقاً، من حديث يحيى بن سعيد، عن عمرة، عن عائشة، رضى اللَّه عنها، قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «الأرواح جنود مُجَنَّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»(٤). وأخرجه مسلم فى صحيحه من حديث سهيل(٥)، عن أبيه، عن أبى هريرة عن النبى(٦) ﷺ(٧).

والناس يقولون: الجنسية علة الضم.

والغرض أنه جعل كل(٨) أحد منهم يكتم ما هو فيه عن أصحابه، خوفاً منهم، ولا يدرى أنهم مثله، حتى قال أحدهم: تعلمون ـ واللَّه ياقوم ـ أنه ما(٩) أخرجكم من قومكم وأفردكم عنهم، إلا(١٠) شيء فليظهر كل واحد منكم ما بأمره. فقال آخر: أما أنا فإنى [واللَّه](١١) رأيت ما قومى عليه، فعرفت أنه باطل، وإنما الذى يستحق أن يعبد [وحده](١٢) ولا يشرك به شيء هو اللَّه الذى خلق كل شيء: السموات والأرض وما بينهما. فقال الآخر: وأنا واللَّه وقع لى كذلك. وقال الآخر كذلك، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة، فصاروا يداً واحدة وإخوان صدق، فاتخذوا لهم معبداً يعبدون الله فيه، فعرف بهم قومهم، فوشوا بأمرهم إلى ملكهم، فاستحضرهم بين يديه فسألهم عن أمرهم وماهم عليه(١٣)، فأجابوه بالحق، ودعوه إلى اللَّه عز وجل؛ ولهذا أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا﴾ ولن: لنفي التأبيد، أى: لا يقع منا هذا أبداً؛ لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً؛ ولهذا قال عنهم: ﴿لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أى: باطلاً وكذباً وبهتاناً.

﴿هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أى: هلاَّ أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً؟! ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ يقولون: بل هم ظالمون كاذبون فى قولهم ذلك، فيقال: إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان باللَّه، أبى عليهم، وتَهَدّدهم وتوعدهم، وأمر بنزع لباسهم عنهم الذى كان عليهم من زينة قومهم، وأجَّلهم لينظروا فى أمرهم، لعلهم يراجعون دينهم الذى كانوا عليه. وكان هذا من لطف اللَّه بهم، فإنهم فى تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه. والفرار بدينهم من الفتنة.

وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن فى الناس، أن يفر العبد منهم خوفاً على دينه، كما جاء فى

---

(١) فى ف، أ: «عنهم». (٢) فى ت، ف: «وكان». (٣) زيادة من ت، ف، أ.
(٤) صحيح البخارى برقم (٣٣٣٦).
(٥) فى أ: «سهل». (٦) فى ف، أ: «عن رسول الله».
(٧) صحيح مسلم برقم (٢٦٣٨).
(٨) فى ت: «وأنه جعل كل»، وفى ف: «أنه كل». (٩) فى ت: «إنما».
(١٠) فى ت: «لا». (١١، ١٢) زيادة من ف. (١٣) فى ت: «عليهم».

الحديث: « يوشك أن يكون خيرُ مال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القَطْر، يفر بدينه من الفتن »[١] ففى هذه الحال تشرع العزلة عن الناس، ولا تشرع فيما عداها، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع.

فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم، واختار اللَّه تعالى لهم ذلك، وأخبر عنهم بذلك فى قوله: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ﴾ أى: وإذا فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم فى عبادتهم غير اللَّه، ففارقوهم أيضاً بأبدانكم ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ أى: يبسط عليكم رحمة[٢] يستركم بها من قومكم ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم﴾ [أى][٣]: الذى أنتم فيه، ﴿مِّرْفَقًا﴾ أى: أمرًا ترتفقون به. فعند ذلك خرجوا هُراباً إلى الكهف، فآووا إليه، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم، وتَطَلَّبهم الملك فيقال: إنه لم يظفر بهم، وعَمَّى اللَّه عليه خبرهم. كما فعل بنبيه [محمد][٤] ﷺ وصاحبه الصديق، حين لجآ إلى غار ثور، وجاء المشركون من قريش فى الطلب، فلم يهتدوا إليه مع[٥] أنهم يمرون عليه، وعندها قال النبى ﷺ حين رأى جزع الصديق فى قوله: يارسول اللَّه، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه[٦] لأبصرنا، فقال: « يا أبا بكر، ما ظنك باثنين اللَّه ثالثهما؟ »، وقد قال تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠] فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة أصحاب[٧] الكهف، وقد قيل: إن قومهم ظفروا بهم، وقفوا[٨] على باب الغار الذى دخلوه، فقالوا: ما كنا نريد منهم من العقوبة أكثر مما فعلوا بأنفسهم. فأمر الملك بردم بابه عليهم ليهلكوا مكانهم، فَفُعل [لهم][٩] ذلك. وفى هذا نظر، واللَّه أعلم؛ فإن اللَّه تعالى قد أخبر أن الشمس تدخل عليهم فى الكهف بكرة وعشية، كما قال تعالى:

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (١٧)﴾.

هذا دليل على أن باب هذا الكهف من نحو الشمال؛ لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أى: يتقلص الفىء يمنة[١٠]، كما قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة: ﴿تَّزَاوَرُ﴾ أى: تميل؛ وذلك أنها كلما ارتفعت فى الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شىء عند الزوال فى مثل ذلك المكان؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ أى: تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية المشرق، فدل على صحة ما قلناه،

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٩) من حديث أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه.
(٢) فى ت، ف: «رحمته». (٣) زيادة من ت، ف، أ. (٤) زيادة من ف.
(٥) فى ت: «ثم». (٦) فى أ: «قدمه». (٧) فى ف، أ: «أهل».
(٨) فى ت، ف: «ووقفوا». (٩) زيادة من ف. (١٠) فى ت: «عنه»، وفى أ: «يمينه».

وهذا بينٌ لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة، وسير الشمس والقمر والكواكب، وبيانه[١]: أنه[٢] لو كان باب الغار من ناحية الشرق[٣] لما دخل إليه منها شىء عند الغروب، ولو كان من ناحية القبلة لما دخله منها شىء عند الطلوع ولا عند الغروب، ولا تزاور الفىء يميناً ولا شمالاً، ولو كان من جهة الغرب[٤] لما دخلته وقت الطلوع، بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب. فتعين[٥] ما ذكرناه ولله الحمد.

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ﴿ تَّقْرِضُهُمْ﴾ : تتركهم.

وقد أخبر اللَّه تعالى بذلك وأراد منا فهمه وتدبره، ولم يخبرنا بمكان هذا الكهف فى أى البلاد من الأرض؛ إذ لا فائدة لنا فيه ولا قصد[٦] شرعى. وقد تكلف بعض المفسرين فذكروا فيه أقوالاً، فتقدم عن ابن عباس أنه قال: [هو][٧] قريب من أيلة. وقال ابن إسحاق: هو عند نِينَوَى. وقيل: ببلاد الروم. وقيل: ببلاد البلقاء. واللَّه أعلم بأى بلاد اللَّه هو. ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا اللَّه ورسوله إليه[٨]، فقد قال رسول الله ﷺ: « ماتركت شيئاً يقربكم إلى [الجنة][٩] ويباعدكم من النار، إلا وقد أعلمتكم به». فأعلمنا تعالى بصفته، ولم يعلمنا بمكانه، فقال: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ قال مالك، عن زيد بن أسلم: تميل ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أى: فى متسع منه داخلاً، بحيث لا تمسهم؛ إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم[١٠]، قاله ابن عباس.

﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ﴾ حيث أرشدهم تعالى إلى هذا الغار الذى جعلهم فيه أحياء، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقى أبدانهم ؛ ولهذا قال :﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ .

ثم قال : ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ أى: هو الذى أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم، فإنه من هداه اللَّه اهتدى،ومن أضله فلا هادى له .

﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨) ﴾.

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب اللَّه على آذانهم بالنوم، لم تنطبق[١١] أعينهم؛ لئلا[١٢] يسرع إليها البلى، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عيناً ويفتح عيناً، ثم يفتح هذه ويطبق هذه وهو راقد، كما قال الشاعر[١٣]:

---

(١) فى ت: «فبانه». .
(٢) فى ف: «أن».
(٣) فى ف، أ: «المشرق».
(٤) فى أ: « المغرب».
(٥) فى ت: «فتعى».
(٦) فى ت: «ولا تضر».
(٧) زيادة من ف.
(٨) فى ت: «الله».
(٩) زيادة من ف، وفى ت: «الله».
(١٠) فى ت: «ثيابهم وأبدانهم»، وفى ف، أ: «ثيابهم وأجسادهم».
(١١) فى ت: «تطبق».
(١٢) فى ت: «كيلا».
(١٣) هو حميد بن ثور، والبيت فى ديوانه (ص١٠٤) أ. هـ مستفاداً من حاشية ط الشعب.

يَنَامُ بإحْدَى مُقْلَتَيه ويَتَّقِي بأخْرَى الرزايا فَهْوَ يَقْظَانُ نَائِمُ

وقوله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ قال بعض السلف: يقلبون فى العام مرتين.

قال ابن عباس: لو لم يقلبوا[١] لأكلتهم الأرض.

وقوله: ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ قال ابن عباس، وقتادة ومجاهد وسعيد بن جبير[٢]: الوصيد: الفناء.

وقال ابن عباس: بالباب. وقيل: بالصعيد، وهو التراب. والصحيح أنه بالفناء، وهو الباب، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴾ [الهمزة: ٨] أى: مطبقة مغلقة. ويقال: «وَصِيد» و«أصيد».

ربض كلبهم على الباب كما جرت به عادة الكلاب.

قال ابن جريج[٣]: يحرس عليهم الباب. وهذا من سجيته وطبيعته، حيث يربض[٤] ببابهم كأنه يحرسهم، وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب ـ كما ورد فى الصحيح[٥]ـ ولا صورة ولا جُنُب ولا كافر، كما ورد به الحديث الحسن[٦]. وشملت كلبهم بركتهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال. وهذا فائدة صحبة الأخيار؛ فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن.

وقد قيل: إنه كان كلب صيد لأحدهم، وهو الأشبه. وقيل: كان كلب طباخ الملك، وكان قد وافقهم على الدين فصحبه كلبه، فاللَّه أعلم.

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة «همام بن الوليد الدمشقي»: حدثنا صَدَقَة بن عمر الغَسَّانى، حدثنا عباد المِنْقَرى، سمعت الحسن البصرى، رحمه الله، يقول: كان اسم كبش إبراهيم: جرير، واسم هدهد سليمان: عَنْقَز، واسم كلب أصحاب الكهف: قطمير، واسم عجل بنى إسرائيل الذى عبدوه: بهموت. وهبط آدم، عليه السلام، بالهند، وحواء بجدة، وإبليس بدست بيسان، والحية بأصبهان[٧].

وقد تقدم[٨] عن شعيب الجبائى أنه سماه: حمران.

واختلفوا فى لونه[٩] على أقوال لا حاصل لها، ولا طائل تحتها ولا دليل عليها، ولا حاجة إليها، بل هى مما ينهى عنه، فإن مستندها رجم بالغيب.

---

(١) فى ت: «تتقلبون»، وفى أ: «يتقلبوا».
(٢) فى ف: «ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة».
(٣) فى أ: «جرير».
(٤) فى ف: «ربض».
(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٢٢٧) من حديث ابن عمر، رضى الله عنهما.
(٦) رواه أحمد فى مسنده (١/ ٨٠) وأبو داود فى السنن برقم (٢٢٧) والنسائى فى السنن (١/ ١٤١) من حديث على بن أبى طالب مرفوعًا: «لاتدخل الملائكة بيتاً فيه صورة ولا كلب ولا جنب».
(٧) انظر: مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٧/ ١٤٣).
(٨) فى ت: «وقيل».
(٩) فى ت: «كونه».

وقوله تعالى: ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ أى: أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليهم إلا هابهم؛ لما ألبسوا من المهابة والذعر، لئلا يدنو منهم أحد ولا تمسهم[١] يد لامس، حتى يبلغ الكتاب أجله، وتنقضى رقدتهم التى شاء تبارك وتعالى فيهم، لما له فى ذلك من الحجة والحكمة[٢] البالغة، والرحمة الواسعة.

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠) ﴾.

يقول تعالى: وكما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم، لم يفقدوا من أحوالهم وهيآتهم شيئاً، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين؛ ولهذا تساءلوا بينهم: ﴿ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾؟ أى: كم رقدتم؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ كأنه كان دخولهم إلى الكهف فى أول نهار، واستيقاظهم[٣] كان فى آخر نهار؛ ولهذا استدركوا فقالوا: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ أى: اللَّه أعلم بأمركم، وكأنه حصل لهم نوع تَرَدُّد فى كثرة نومهم، فاللَّه أعلم، ثم عدلوا إلى الأهم فى أمرهم إذ ذاك[٤]، وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب، فقالوا: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ﴾ أى: فضتكم هذه. وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها، فتصدقوا منها وبقى منها؛ فلهذا قالوا: ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ أى: مدينتكم التى خرجتم منها والألف اللام للعهد.

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أى: أطيب طعاماً، كقوله: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ [النور: ٢١] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]، ومنه الزكاة التى تُطَيب[٥] المال وتطهره. وقيل: أكثر طعاماً، ومنه زكا الزرع إذا كثر، قال الشاعر[٦]:

قَبَائِلُنا سَبْعٌ وَأَنْتُمْ ثَلاثَةٌ وَلَلسَّبْعُ أزكَى مِنْ ثَلاثٍ وَأَطْيَبُ

والصحيح الأول؛ لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال، سواء كان قليلاً أو كثيرا.

وقوله: ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أى: فى خروجه وذهابه، وشرائه وإيابه، يقولون: وَلْيَتَخَفّ[٧] كل ما يقدر عليه ﴿ وَلا يُشْعِرَنَّ﴾ أى: يعلمن ﴿ بِكُمْ أَحَدًا . إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ أى: إن علموا بمكانكم، ﴿يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ يعنون أصحاب دقيانوس، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم، فلا يزالون يعذبونهم[٨] بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم[٩] فى ملتهم التى هم عليها أو

---

(١) فى أ: «أو يمسهم». (٢) فى ف: «الحكمة والحجة». (٣) فى ف: «وإيقاظهم».
(٤) فى ت: «إن ذلك». (٥) فى ت: «يطيب».
(٦) البيت فى تفسير الطبرى (١٥/ ١٤٨) غير منسوب.
(٧) فى ف، أ: «وليتخفف». (٨) فى ف: «يزالون يعذبونكم». (٩) فى ف: «يعيدوكم».

يموتوا، وإن واتوهم على العود[١] فى الدين فلا فلاح لكم[٢] فى الدنيا ولا فى الآخرة، ولهذا قال[٣]: ﴿ ولن تُفلحوا إذًا أبدًا ﴾ .

﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا (٢١) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أى: أطلعنا عليهم الناس ﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا﴾ .

ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك فى البعث وفى أمر القيامة.

وقال عكرمة: كان منهم طائفة قد قالوا: تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد. فبعث اللَّه أهل الكهف حجة[٤] ودلالة وآية على ذلك.

وذكروا أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة، فى شراء شىء لهم ليأكلوه، تنكر وخرج يمشى فى غير الجادة، حتى انتهى إلى المدينة، وذكروا أن اسمها دقسوس[٥]، وهو يظن أنه قريب العهد بها، وكان الناس قد تبدلوا قرنًا بعد قرن، وجيلاً بعد جيل، وأمة بعد أمة، وتغيرت البلاد ومن عليها، كما قال الشاعر :

أما الدّيارُ فإنّها كَديارهِم ... وأرَى رجالَ الحَى غَيْرَ رجَاله

فجعل لا يرى شيئاً من معالم البلد التى يعرفها، ولا يعرف أحداً من أهلها، لا[٦] خواصها ولا عوامها، فجعل يتحير فى نفسه ويقول: لعل بى جنوناً أو مساً، أو أنا حالم، ويقول: واللَّه ما بى شىء[٧] من ذلك، وإن عهدى بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة. ثم قال: إن تعجيل الخروج من ههنا لأولى لى. ثم عمد إلى رجل ممن يبيع الطعام، فدفع إليه ما معه من النفقة، وسأله أن يبيعه بها طعاماً. فلما رآها ذلك الرجل أنكرها وأنكر ضَرْبها، فدفعها إلى جاره، وجعلوا يتداولونها بينهم ويقولون: لعل هذا قد وجد كنزاً. فسألوه عن أمره، ومن أين له هذه النفقة؟ لعله وجدها من كنز. ومن أنت؟ فجعل يقول: أنا من أهل هذه المدينة[٨]، وعهدى بها عشية أمس وفيها دقيانوس. فنسبوه إلى الجنون، فحملوه إلى ولىّ أمرهم، فسأله عن شأنه وعن أمره حتى أخبرهم بأمره، وهو متحير فى حاله، وماهو فيه. فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف : مُتَوَلّى البلد وأهلها، حتى انتهى بهم إلى الكهف، فقال: دعونى حتى أتقدمكم فى الدخول لأعلم أصحابى،

---

(١) فى ف: «وافوهم على العودة». (٢) فى ت، ف: «لهم». (٣) فى ف: «قالوا».
(٤) فى ت: «وحجة». (٥) فى ت: «دقوس». (٦) فى ت، ف: «ولا».
(٧) فى ت: «شتى». (٨) فى ت: «النفقة».

فيقال: إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه، وأخفى اللَّه عليهم خبره[١] ، ويقال: بل دخلوا عليهم، ورأوهم وسلم عليهم الملك واعتنقهم، وكان مسلماً فيما قيل، واسمه تيدوسيس[٢]، ففرحوا به وآنسوه الكلام، ثم ودعوه[٣] وسلموا عليه، وعادوا إلى مضاجعهم، وتوفاهم اللَّه، عز وجل، فاللَّه أعلم.

قال قتادة : غزا[٤] ابن عباس مع حبيب بن مسلمة، فمروا بكهف فى بلاد الروم، فرأوا فيه عظاماً، فقال قائل: هذه عظام أهل الكهف؟ فقال ابن عباس: لقد بليت عظامهم من أكثر من ثلاثمائة سنة. رواه ابن جرير .

وقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا[٥] عَلَيْهِمْ ﴾ أى: كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ أى: فى أمر القيامة، فمن مثبت لها ومن منكر، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم ﴿ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ أى: سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾.

حكى ابن جرير فى القائلين[٦] ذلك قولين: أحدهما: أنهم المسلمون منهم. والثانى: أهل الشرك منهم، فاللَّه أعلم[٧].

والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ. ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر ؛ لأن النبى ﷺ قال: « لعن اللَّه اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد»[٨] يحذر مافعلوا. وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضى اللَّه عنه، أنه لما وجد قبر دانيال فى زمانه بالعراق، أمر أن يخفى عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التى وجدوها عنده، فيها شىء من الملاحم وغيرها .

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس فى عدة أصحاب الكهف، فحكى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضعَّف القولين الأولين بقوله: ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ أى: قول بلا علم، كمن[٩] يرمى إلى مكان لا يعرفه، فإنه لا يكاد يصيب، وإن أصاب فبلا قصد ، ثم حكى الثالث وسكت عليه أو قرره بقوله: ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ دل على صحته، وأنه هو الواقع فى نفس الأمر.

---

(١) فى ت، ف: «خبرهم». (٢) فى ت: « تيدرسين»، وفى ف: «بيدوسيس». (٣) فى ت،ف: «دعوه».
(٤) فى ت: «وعن». (٥) فى ت: «أعثرناهم» وهو خطأ. (٦) فى ت: «القائل».
(٧) فى ت: «والله أعلم».
(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٣٣٠) من حديث عائشة، رضى الله عنها.
(٩) فى أ: «لمن».

وقوله: ﴿ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ إرشاد إلى أن الأحسن فى مثل هذا المقام رد العلم إلى اللَّه تعالى، إذ لا احتياج إلى الخوض فى مثل ذلك بلا علم، لكن إذا اطلعنا على أمر قلنا به، وإلا وَقَفْنَا حيث وقفنا.

وقوله: ﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ أى: من الناس. قال قتادة: قال ابن عباس: أنا من القليل الذى استثنى اللَّه، عز وجل، كانوا سبعة. وكذا روى ابن جريج، عن[1] عطاء الخراسانى عنه، أنه كان يقول: أنا ممن استثنى اللَّه، ويقول: عدتهم سبعة.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار[2]، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا إسرائيل، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ قال: أنا من القليل، كانوا سبعة.

فهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس: أنهم كانوا سبعة، وهو موافق لما قدمناه .

وقال محمد بن إسحاق بن يَسَار عن عبد اللَّه بن أبى نَجيح، عن مجاهد قال: لقد حُدِّثتُ أنه كان على بعضهم من حداثة سنه وَضَح الوَرَق. قال ابن عباس: فكانوا كذلك ليلهم ونهارهم فى عبادة اللَّه، يبكون[3] ويستغيثون باللَّه، وكانوا ثمانية نفر: مكسلمينا[4]، وكان أكبرهم وهو الذى كلم الملك عنهم، ومجسيميلنينا وتمليخا[5]، ومرطونس، وكشطونس، وبيرونس، وديموس، ويطونس قالوش.

هكذا وقع فى هذه الرواية، ويحتمل[6] هذا من كلام ابن إسحاق، أو من بينه وبينه، فإن الصحيح عن ابن عباس أنهم كانوا سبعة، وهو ظاهر الآية. وقد تقدم عن شعيب الجبائى أن اسم كلبهم حمران[7]. وفى تسميتهم بهذه[8] الأسماء واسم كلبهم نظر فى صحته، واللَّه أعلم؛ فإن غالب ذلك مُتَلَقَّى من أهل الكتاب، وقد قال تعالى: ﴿فَلا تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ أى: سهلاً هيِّنًا؛ فإن الأمر فى معرفة[9] ذلك لا يترتب عليه كبير[10] فائدة ﴿وَلا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾ أى: فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجما بالغيب، من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد جاءك اللَّه يا محمد بالحق الذى لاشك فيه ولا مرية، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه[11] من الكتب والأقوال.

﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤)﴾.

هذا إرشاد من اللَّه لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه، إلى الأدب فيما إذا عزم على شىء ليفعله فى المستقبل، أن يرد ذلك إلى مشيئة اللَّه، عز وجل، علام الغيوب، الذى يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن رسول اللَّه ﷺ أنه [قال][12] : « قال سليمان بن داود عليهما السلام: لأطوفن الليلة على

(١) فى ت: «ابن». (٢) فى ت: «يسار». (٣) فى ت، ف أ: «يتلون».
(٤) فى هـ : «مكيليمنينا»، والمثبت من ت، ف، أ. (٥) فى ف: «شمليخا». (٦) فى ف، أ: «ويحتمل أن يكون».
(٧) فى ت: «خمران». (٨) فى ت: «بهذا». (٩) فى ت: «معرفته».
(١٠) فى ف: «كثير». (١١) فى ف: «على من تقدمه». (١٢) زيادة من ت، ف، أ.

سبعين امرأة - وفى رواية تسعين امرأة. وفى رواية: مائة امرأة ـ تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل فى سبيل اللَّه، فقيل له - وفى رواية: فقال له الملك - قل: إن شاء اللَّه. فلم يقل، فطاف بهن فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان»، قال رسول اللَّه ﷺ: « والذى نفسى بيده، لو قال: « إن شاء اللَّه» لم يحنث، وكان دَرَكًا لحاجته»، وفى رواية: « ولقاتلوا فى سبيل اللَّه فرساناً أجمعون [(١)]»[(٢)].

وقد تقدم فى أول السورة ذكر سبب نزول هذه الآية فى قول النبى ﷺ، لما سئل عن قصة أصحاب الكهف: « غداً أجيبكم». فتأخر الوحى خمسة عشر يوماً، وقد ذكرناه بطوله فى أول السورة، فأغنى عن إعادته.

وقوله: ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ قيل: معناه: وإذا نسيت الاستثناء، فاستثن عند ذكرك له. قاله أبو العالية، والحسن البصرى.

وقال هشيم، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس فى الرجل يحلف؟ قال: له أن يستثنى ولو إلى سنة، وكان يقول: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فى ذلك. قيل للأعمش: سمعته من مجاهد؟ قال [(٣)]: حدثنى به ليث بن أبى سليم، يرى[(٤)] ذهب كسائى هذا.

ورواه الطبرانى من حديث أبى معاوية، عن الأعمش، به[(٥)].

ومعنى قول ابن عباس: «أنه يستثنى ولو بعد سنة» أى: إذا نسى أن يقول فى حلفه أو كلامه «إن شاء الله» وذكر ولو بعد سنة، فالسُّنة له أن يقول ذلك، ليكون آتيا بسُنَّة الاستثناء، حتى لو كان بعد الحنث، قاله ابن جرير، رحمه الله، ونص على ذلك، لا أن يكون [ذلك][(٦)] رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة. وهذا الذى قاله ابن جرير، رحمه الله، هو الصحيح، وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه، والله أعلم.

وقال عكرمة: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أى: إذا غضبت. وهذا تفسير باللازم.

وقد قال الطبرانى: حدثنا أحمد بن يحيى الحُلْوانى، حدثنا سعيد بن سليمان، عن عباد بن العوام، عن سفيان بن حسين، عن يعلى بن مسلم، عن جابر بن زيد، عن ابن عباس: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا . إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أن تقول: إن شاء الله[(٧)]. [وهذا تفسير باللازم][(٨)].

وقال الطبرانى: حدثنا محمد بن الحارث الجُبيلى[(٩)]، حدثنا صفوان بن صالح، حدثنا الوليد بن

---

(١) فى ت، ف: «أجمعين».

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٢٤٢) رواية المائة، وبرقم (٦٧٢٠) رواية التسعين، وصحيح مسلم برقم (١٦٥٤).

(٣) فى ف: «فقال». (٤) فى ت: «ترى».

(٥) تفسير الطبرى (١٥/ ١٥١) والمعجم الكبير للطبرانى (١١/ ٦٨).

(٦) زيادة من ف. (٧) المعجم الكبير (١٢/ ١٧٩). (٨) زيادة من ف.

(٩) فى ت، ف: «الحبلى».

مسلم، عن عبد العزيز بن حُصَيْن،، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا . إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ أن تقول: إن شاء الله.

وروى الطبراني، أيضاً، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الاستثناء، فاستثن إذا ذكرت. وقال: هي خاصة برسول[1] الله ﷺ، وليس لأحد منا أن يستثني إلا في صلة من يمينه. ثم قال: تَفَرَّدَ به الوليد، عن عبد العزيز بن الحصين[2] [3].

ويحتمل في الآية وجه آخر، وهو أن يكون الله، عز وجل، قد أرشد من نسي الشيء في كلامه إلى ذكر الله تعالى؛ لأن النسيان منشؤه من الشيطان، كما قال فتى موسى: ﴿وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣]، وذكر الله تعالى يطرد الشيطان، فإذا ذهب الشيطان ذهب النسيان، فذكر الله تعالى سبب للذكر[4]؛ ولهذا قال: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ أي: إذا سُئلت عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله فيه، وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد [في ذلك][5]، وقيل غير ذلك في تفسيره، والله أعلم.

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦)﴾.

هذا خَبَر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة [سنة][6] وتسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإن تفاوت مابين كل مائة [سنة][7] بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين؛ فلهذا قال بعد الثلاثمائة: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾.

وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ أي: إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك [علم][8] في ذلك وتوقيف[9] من الله، عز وجل[10]، فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: لا يعلم ذلك إلا هو أو من أطلعه الله عليه من خَلْقه، وهذا الذي قلناه، عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف.

وقال قتادة في قوله: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾: هذا قول أهل الكتاب،

---

(١) في ت: «يارسول»، وفي ف: «لرسول».

(٢) في ف: «حصين».

(٣) المعجم الأوسط برقم (٣٣٥٧) «مجمع البحرين».

(٤) في ت: «سبب الذكر».

(٥) زيادة من ف، أ.

(٦) زيادة من أ.

(٧، ٨) زيادة من ف.

(٩) في ت: «توفيق».

(١٠) في ت، ف: «تعالى».

وقد رده الله تعالى بقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ قال: وفى[(١)] قراءة عبد الله: «وقالوا: ولبثوا»، يعنى أنه قاله الناس[(٢)].

وهكذا قال ـ كما قال قتادة ـ مُطرِّف بن عبد الله.

وفى هذا الذى زعمه قتادة نظر، فإن الذى بأيدى أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة من غير تسع، يعنون بالشمسية، ولو كان الله قد حكى قولهم لما قال: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ وظاهر الآية إنما هو من إخبار الله، لا حكاية عنهم. وهذا اختيار ابن جرير، رحمه الله. ورواية قتادة قراءة ابن مسعود منقطعة، ثم هى شاذة بالنسبة إلى قراءة الجمهور فلا يحتج بها، والله أعلم.

وقوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أى: إنه لبصير بهم سميع لهم.

قال ابن جرير: وذلك فى معنى المبالغة فى المدح، كأنه قيل: ما أبصره وأسمعه، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع، لايخفى عليه من ذلك شىء.

ثم روى عن قتادة فى قوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ فلا أحد أبصر[(٣)] من الله ولا أسمع.

وقال ابن زيد: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾: يرى أعمالهم، ويسمع ذلك منهم سميعًا بصيرًا.

وقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ أى: إنه تعالى هو الذى له الخلق والأمر، الذى لامعقّب لحكمه، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ولا مشير، تعالى وتقدس.

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨)﴾.

يقول تعالى آمرًا رسوله [عليه الصلاة والسلام][(٤)] بتلاوة كتابه العزيز وإبلاغه[(٥)] إلى الناس: ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أى: لا مغير[(٦)] لها ولا محرف ولا مؤوّل.

وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾: [عن مجاهد: ﴿مُلْتَحَدًا﴾ قال: ملجأ. وعن قتادة: وليًا ولا مولى][(٧)]. قال ابن جرير: يقول[(٨)]: «إن أنت يامحمد لم تتل ما أوحى إليك من كتب ربك، فإنه لا ملجأ لك من الله». كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة ٦٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥] أى: سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة.

---

(١) فى ت: «ومن». (٢) فى أ: «ابن عباس». (٣) فى ت: «أنصر».
(٤) زيادة من أ. (٥) فى ت «وابتلاغه».
(٦) فى ت، ف: «أى غير مغير». (٧) زيادة من أ. (٨) فى ت: «ويقول».

وقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أى: اجلس[١] مع الذين يذكرون الله ويهللونه، ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه، ويسألونه بكرة وعشياً من عباد الله، سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء. يقال: إنها نزلت فى أشراف قريش، حين طلبوا من النبى ﷺ أن يجلس معهم وحده[٢]، ولا يجالسهم[٣] بضعفاء أصحابه كبلال وعمار وصهيب [وخباب][٤] وابن مسعود، وليفرد أولئك بمجلس على حدة. فنهاه الله عن ذلك، فقال: ﴿وَلا تَطْرُدِ[٥] الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ الآية [الأنعام: ٥٢]، وأمره أن يصبر نفسه فى الجلوس[٦] مع هؤلاء ، فقال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ .

قال مسلم فى صحيحه: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، حدثنا محمد بن عبد الله الأسدى، عن إسرائيل، عن المقدام بن شُرَيْح، ، عن أبيه، عن سعد ـ هو ابن أبى وقاص ـ قال: كنا مع النبى ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبى ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا!. قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، ، وبلال، ورجلان نسيت اسميهما[٧]، فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدّث نفسه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى[٨] .

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن أبى التَّيَّاح قال: سمعت أبا الجعد يحدّث عن أبى أمامة قال: خرج رسول الله ﷺ على قاص يقص، فأمسك، فقال رسول الله ﷺ: «قُص، فلأن أقعد غدوة إلى أن تشرق الشمس، أحب إلىَّ من أن أعتق أربع رقاب»[٩] .

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا هاشم[١٠]، حدثنا شعبة، عن عبد الملك بن مَيْسَرَةَ قال: سمعت كُرْدُوس بن قيس ـ وكان قاص العامة بالكوفة ـ يقول: أخبرنى رجل من أصحاب بدر: أنه سمع النبى ﷺ يقول: «لأن أقعد فى مثل هذا المجلس أحب إلىّ من أن أعتق أربع رقاب» . قال شعبة: فقلت: أى مجلس؟ قال: كان قاصا[١١] [١٢] .

وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده: حدثنا محمد، حدثنا يزيد بن أبان، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ :«لأن أجالس قوماً يذكرون الله من صلاة الغداة[١٣] إلى طلوع الشمس، أحَبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس، ولأن أذكر الله من صلاة العصر إلى غروب الشمس أحب إلىّ من أن أعتق

---

(١) فى ت: «يجلس» . (٢) فى ت ، ف: «وحدهم» . (٣) فى ت: «تجالسهم» .
(٤) زيادة من ف . (٥) فى ت : «يطرد» . (٦) فى ت : «فى المجلس» .
(٧) فى ت: ، ف : «اسمهما» .
(٨) صحيح مسلم برقم (٢٤١٣) .
(٩) المسند (٥/ ٢٦١) .
(١٠) فى ت : «هشام» . (١١) فى ت: «وقاص» .
(١٢) المسند (٣/ ٤٧٤) وكردوس بن قيس لم يوثقه إلا ابن حبان .
(١٣) فى ت : «الغد» .

ثمانية من ولد إسماعيل دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفاً». فحسبنا دياتهم ونحن فى مجلس أنس، فبلغت ستة وتسعين[(١)] ألفاً، وههنا من يقول: «أربعة من ولد إسماعيل» واللَّه ما قال إلا ثمانية، دية كل واحد منهم اثنا[(٢)] عشر ألفاً[(٣)].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن إسحاق الأهوازى، حدثنا أبو أحمد الزبيرى، حدثنا عمرو بن ثابت، عن على بن الأقمر، عن الأغر أبى[(٤)] مسلم ـ وهو الكوفى ـ أن رسول اللَّه ﷺ مرّ برجل يقرأ سورة الكهف، فلما رأى النبى ﷺ سكت، فقال رسول الله ﷺ: « هذا المجلس الذى أمرت أن أصبر نفسى معهم».

هكذا رواه أبو أحمد، عن عمرو بن ثابت، عن على بن الأقمر، عن الأغر مرسلاً. وحدثناه يحيى بن المعلى، عن[(٥)] منصور، حدثنا محمد[(٦)] بن الصلت، حدثنا عمرو بن ثابت، عن على بن الأقمر، عن الأغر أبى مسلم[(٧)]، عن أبى هريرة وأبى سعيد قالا: جاء رسول اللَّه ﷺ، ورجل يقرأ سورة الحِجْر أو سورة الكهف، فسكت، فقال رسول اللَّه ﷺ: «هذا المجلس الذى أمرت أن أصبر نفسى معهم»[(٨)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر[(٩)]، حدثنا ميمون المَرئى، حدثنا ميمون بن سِيَاه، عن أنس بن مالك، رضى اللَّه عنه، عن رسول اللَّه ﷺ قال: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون اللَّه، لا يريدون بذلك إلا وجهه، إلا ناداهم مناد من السماء: أن قوموا مغفوراً لكم، قد بُدِّلت سيئاتُكُم حسنات»[(١٠)]. تفرد به أحمد، رحمه اللَّه.

وقال الطبرانى: حدثنا إسماعيل بن الحسن، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، عن أسامة بن زيد[(١١)]، عن أبى حازم، عن عبد الرحمن بن سهل بن حُنيف قال: نزلت على رسول اللَّه ﷺ، وهو فى بعض أبياته: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، فخرج يلتمسهم، فوجد قوماً يذكرون اللَّه، منهم ثائر الرأس، وجافى الجلد[(١٢)]، وذو الثوب الواحد، فلما رآهم جلس معهم وقال: « الحمد للّه الذى جعل فى أمتى من أمرنى الله أن أصبر نفسى معهم»[(١٣)].

عبد الرحمن هذا، ذكره أبو بكر بن أبى داود فى الصحابة[(١٤)]. وأما أبوه فمن سادات الصحابة،

---

(١) فى ت: «وسبعين». (٢) فى ت: «اثنتا».
(٣) مسند الطيالسى برقم(٢١٠٤) ويزيد بن أبان ضعيف.
(٤) فى ت: «أى». (٥) فى ت، ف: « بن ». (٦) فى ت: «أحمد».
(٧) فى ت: «الأغر بن أبى مسلم».
(٨) مسند البزار برقم(٢٣٢٥، ٢٣٢٦) «كشف الأستار»، وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٦٤): «وفيه عمرو بن ثابت أبو المقدام وهو متروك».
(٩) فى ف، أ: «بكير».
(١٠) المسند (٣/ ١٤٢) وميمون المرئى ضعيف.
(١١) فى ت: «زيدى». (١٢) فى ف: «الجلود».
(١٣) ورواه ابن منده وأبو نعيم فى الصحابة كما فى أسد الغابة(٣/ ٣٥٣) من طريق أبى حازم به.
(١٤) وتعقبه ابن الأثير بقوله: «ولا يصح، وإنما الصحبة لأبيه ولأخيه أبى أمامة، وله رؤية».

رضى الله عنهم .

وقوله: ﴿ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ قال ابن عباس: ولا تجاوزهم إلى غيرهم: يعنى: تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة.

﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ أى: شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿[وَاتَّبَعَ هَوَاهُ][١] وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ أى: أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعاً له ولا محباً لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال تعالى: ﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) ﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: وقل يا محمد للناس: هذا الذى جئتكم به من ربكم هو الحق الذى لا مرية فيه ولا شك ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أى: أرصدنا ﴿لِلظَّالِمِينَ ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ أى: سورها .

قال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا دَرَّاج، عن أبى الهيثم[٢]، عن أبى سعيد الخدرى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لسُرَادِق النار أربعة جُدُر، كثافة كل جدار مثل مسافة أربعين سنة».

وأخرجه الترمذى فى «صفة النار» وابن جرير فى تفسيره، من حديث دراج أبى السَّمح به[٣] .

[وقال ابن جريج: قال ابن عباس: ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، قال: حائط من نار][٤].

قال ابن جرير: حدثنى الحسين بن نصر والعباس بن محمد قالا: حدثنا أبو عاصم، عن عبدالله ابن أمية، حدثنى محمد بن حيى بن يعلى، عن صفوان بن يعلى، عن يعلى بن أمية قال: قال رسول الله ﷺ: « البحر هو جهنم» قال: فقيل له:[كيف ذلك ؟][٥] فتلا هذه الآية ـ أو: قرأ هذه الآية ـ: ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، ثم قال: « والله لا أدخلها أبداً أو: ما دمت حياً ـ ولا تصيبنى منها قطرة»[٦].

وقوله: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ قال ابن عباس: «المهل»: ماء غليظ مثل[٧] دردى الزيت.

---

(١) زيادة من ف. (٢) فى ت: «هشيم».

(٣) المسند(٣/ ٢٩) وسنن الترمذى برقم(٢٥٨٤) وتفسير الطبرى (١٥/ ١٥٧). ودراج عن أبى الهيثم ضعيف.

(٤، ٥) زيادة من ف.

(٦) تفسير الطبرى (١٥/ ١٥٧).

(٧) فى ت: «قيل».

وقال مجاهد: هو كالدم والقيح . وقال عكرمة: هو الشيء الذى انتهى حَرّه: وقال آخرون: هو كل شيء أذيب.

وقال قتادة: أذاب ابنُ مسعود شيئاً من الذهب فى أخدود، فلما انماع وأزبد قال: هذا أشبه شيء بالمهل .

وقال الضحاك: ماء جهنم أسود، وهى سوداء وأهلها[(١)] سود.

وهذه الأقوال ليس شيء منها ينفى الآخر، فإن المهل يجمع هذه الأوصاف الرذيلة كلها، فهو أسود منتن غليظ حار ؛ولهذا قال : ﴿ يَشْوِى الْوُجُوهَ﴾ أى: من حره، إذا أراد الكافر أن يشربه وقَرّبه من وجهه، شواه حتى يسقط جلد وجهه فيه، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد بإسناده المتقدم فى سُرادِق النار عن أبى سعيد الخدرى، عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: « ماء كالمهل ». قال[(٢)]: «كعكر الزيت فإذا قربه إليه سقطت فروة وجهه فيه» [(٣)]، وهكذا رواه الترمذى فى «صفة النار» من جامعه، من حديث رِشْدين بن سعد[(٤)]، عن عمرو بن الحارث، عن دراج، به[(٥)] . ثم قال: لا نعرفه إلا من حديث «رشدين»، وقد تكلم فيه من قبل حفظه، ، هكذا قال، وقد رواه الإمام أحمد كما تقدم عن حسن الأشيب، عن ابن لَهيعة، عن درّاج، واللَّه أعلم [(٦)].

وقال عبد اللَّه بن المبارك، وبَقيَّة بن الوليد، عن صفوان بن عمرو، عن عبد اللَّه بن بُسْر، عن أبى أمامة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ . يَتَجَرَّعُهُ﴾ [إبراهيم: ١٦، ١٧] قال : «يقرب إليه فيتكرّهه، فإذا قرب منه شَوَى وجههَ ووقعت فروةُ رأسه، فإذا شربه[(٧)] قطع أمعاءه ، يقول اللَّه تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾».

وقال سعيد بن جبير: إذا جاع أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم، فأكلوا[(٨)] منها فاختلست جلود وجوههم، فلو أن مارًا مرّ بهم يعرفهم، لعرف جلود وجوههم فيها. ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون. فيغاثون بماء كالمهل، وهو الذى قد انتهى حره، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم[(٩)] وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود.

ولهـذا قـال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه[(١٠)] الصفات [الذميمة][(١١)] القبيحة: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ أى: بئس هذا الشراب[(١٢)]، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ تُسْقَىٰ[(١٣)] مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ [الغاشية: ٥] أي: حارة، كما قال: ﴿ وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴾ [الرحمن: ٤٤].

---

(١) فى ف،أ: «شجرها».
(٢) فى ت: « قال كالمهل».
(٣) المسند(٣/ ٧٠).
(٤) فى ت: « بن الأسعد».
(٥) سنن الترمذى برقم (٢٥٨١).
(٦) فى ت: «فالله أعلم».
(٧) فى ت، ف : «شرب».
(٨) فى ت، ف: «فيأكلون».
(٩) فى ت: «جلود».
(١٠) فى ت: «بهذا».
(١١) زيادة من ف، أ.
(١٢) فى ف، أ: «شرابا».
(١٣) فى ف:« يسقى».

﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [أي: وساءت النار][1] منزلاً ومَقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق[2] كما قال في الآية الأخرى: ﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)﴾.

لما ذكر تعالى حال الأشقياء، ثنى بذكر السعداء، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاؤا به، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة، فلهم ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ والعدن: الإقامة.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت غرفهم ومنازلهم، قال [لهم][3] فرعون: ﴿ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ [الزخرف: ٥١].

﴿ يُحَلَّوْنَ﴾ أي: من الحلية ﴿ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ وقال في المكان الآخر: ﴿ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣] وفصله ههنا فقال: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ فالسندس: لباس[4] رقاع رقاق كالقمصان وما جرى مجراها، وأما الإستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق.

وقوله: ﴿ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ ﴾: الاتكاء قيل: الاضطجاع. وقيل: التربع في الجلوس. وهو أشبه بالمراد ها هنا ومنه الحديث [في][5] الصحيح: «أما أنا فلا آكل متكئاً»[6] فيه القولان.

والأرائك: جمع أريكة، وهي السرير تحت الحَجَلة، والحجلة كما يعرفه[7] الناس في زماننا هذا بالباشخاناه، والله أعلم.

قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَرٌ، عن قتادة: ﴿ عَلَى الأَرَائِكِ ﴾ قال: هي الحجال. قال معمر: وقال غيره: السُّرُر في الحجال[8].

وقوله: ﴿ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[أي: نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم ﴿ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ أي: حسنت منزلا ومقيلا ومقاماً، كما قال في النار: ﴿ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾] [الكهف: ٢٩][9]. وهكذا قابل بينهما في سورة الفرقان في قوله: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦]، ثم ذكر صفات المؤمنين فقال: ﴿ أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٥، ٧٦].

---

(١) زيادة من ف. (٢) في ت: «للارتفاع». (٣) زيادة من ت.
(٤) في ت، ف، أ: «ثياب». (٥) زيادة من ت، ف.
(٦) صحيح البخاري برقم (٥٣٩٨).
(٧) في ت، ف: «تعرفه».
(٨) تفسير عبد الرزاق (١/٣٣٩).
(٩) زيادة من ف.

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾.

يقول الله تعالى بعد ذكر[١] المشركين المستكبرين عن مجالسة[٢] الضعفاء والمساكين من المسلمين، وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم، فضرب لهم[٣] مثلاً برجلين، جعل الله ﴿لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أى: بستانين من أعناب، محفوفتين بالنخل[٤] المحدقة فى جنباتهما، وفى خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مُقبلٌ فى غاية الجود؛ ولهذا قال: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ أى: خرجت ثمرها ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا﴾ أى: ولم تنقص منه شيئاً ﴿ وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا﴾ أى: والأنهار تتخرق فيهما ههنا وههنا.

﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قيل: المراد به: المال. رُوى عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: الثمار وهو أظهر ههنا، ويؤيده القراءة الأخرى: «وكان له ثُمْر» بضم الثاء وتسكين الميم، فيكون[٥] جمع ثَمرة، كَخَشَبَة وخُشب، وقرأ آخرون: ﴿ثَمَر﴾ بفتح الثاء والميم.

فقال ـ أى صاحب هاتين [الجنتين][٦] ـ: ﴿ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أى: يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ أى: أكثر خدماً وحشماً وولداً.

قال قتادة: تلك ـ و الله ـ أمنية الفاجر: كثرة المال وعزة النفر.

وقوله: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾ أى: بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد ﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ وذلك اغترار منه، لما رأى فيها[٧] من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة فى جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف[٨]، وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة[٩]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أى: كائنة ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ أى: ولئن كان معاد ورجعة ومَرَدٌّ إلى الله، ليكونَنّ لى هناك أحسن من هذا لأنى مُحظى[١٠] عند ربى، ولولا كرامتى[١١] عليه ما أعطانى هذا، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾[فصلت: ٥٠] وقال: ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧] أى: فى الدار الآخرة، تألى على الله، عز

(١) فى ت، ف: «ذكره». (٢) فى ت: «مجالسهم». (٣) فى ت، ف، أ: «لهم ولهم».
(٤) فى ف، أ: «بالنخيل». (٥) فى ت: « فيك». (٦) زيادة من ف.
(٧) فى ف: «فيهما». (٨) فى ت: «ولايسلم». (٩) فى ت: «بالأخرى».
(١٠) فى ت، ف: «محض». (١١) فى ت: «إكرامى».

وجل، وكان سبب نزولها في العاص بن وائل، كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى، وبه الثقة .

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما أجابه صاحبه المؤمن، واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾؟ وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه، الذى خلقه وابتدأ خلق الإنسان من طين وهو آدم، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، كما قال تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة، ٢٨٠]، أى: كيف تجحدون ربكم، ودلالته عليكم ظاهرة جلية، كل أحد يعلمها من نفسه، فإنه ما من أحد من المخلوقات إلا ويعلم أنه كان معدوماً ثم وجد، وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شىء من المخلوقات؛ لأنه بمثابته، فعلم إسناد[1] إيجاده إلى خالقه، وهو الله، لا إله إلا هو، خالق كل شىء؛ ولذا[2] قال: ﴿ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي﴾ أى: أنا لا أقول بمقالتك، بل أعترف لله بالربوبية والوحدانية ﴿وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أى: بل هو الله المعبود وحده لا شريك له.

ثم قال: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا﴾ هذا تحضيض وحث على ذلك، أى: هلا إذا أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك، وأعطاك من المال والولد ما لم يعط غيرك، وقلت: ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾؛ ولهذا قال بعض السلف: من أعجبه شىء من حاله أو ولده أو ماله، فليقل: ﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ وهذا مأخوذ من هذه الآية الكريمة. وقد روى فيه حديث مرفوع أخرجه الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده:

حدثنا جرَّاح بن مَخْلَد، حدثنا عمر بن يونس، حدثنا عيسى بن عَوْن، حدثنا عبد الملك بن زُرارَة، عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل أو مال أو ولد، فيقول: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ فيرى فيه آفة دون الموت». وكان يتأول هذه الآية: ﴿ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [3].

---

(١) فى ف: «استناد». (٢) فى ف: «ولهذا».

(٣) ورواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٤٥٢٥) من طريق الحسن بن صباح، عن عمر بن يونس به.

قال الحافظ أبو الفتح الأزدى: عيسى بن عون، عن عبد الملك بن زرارة، عن أنس: لا يصح حديثه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة وحجاج، حدثنى شعبة، عن عاصم بن عبيد الله، عن عبيد مولى أبى رُهْم، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ لا قوة إلا بالله». تفرد به أحمد[١].

وقد ثبت فى الصحيح[٢]، عن أبى موسى أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنه؟ لا حول ولا قوة إلا بالله»[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا بكر[٤] بن عيسى، حدثنا أبو عوَانة، عن أبى بَلْج، عن عَمْرو بن ميمون قال: قال أبو هريرة: قال لى نبى الله ﷺ: «يا أبا هريرة، أدلك[٥] على كنز من كنوز الجنه تحت العرش؟». قال: قلت: نعم، فداك أبى وأمى. قال: «أن تقول لا قوة إلا بالله». قال أبوبَلْج: وأحسب أنه قال: «فإن الله يقول: أسلم عبدى واستسلم». قال: فقلت لعمرو ـ قال أبو بَلْج: قال عَمْرو: قلت لأبى هريرة: لا حول ولا قوة إلا بالله؟ فقال: لا، إنها في سورة الكهف: **﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾**[٦].

وقوله: **﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾** أى: فى الدار الآخرة **﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾** أى: على جنتك فى الدنيا التى ظننت أنها لا تبيد ولا تفنى **﴿حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾** قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، ومالك عن الزهرى: أى عذاباً من السماء.

والظاهر أنه مطر عظيم مزعج، يقلع زرعها وأشجارها؛ ولهذا قال: **﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾** أى: بلقعاً تراباً أملس، لا يثبت فيه قَدم.

وقال ابن عباس: كالجُرز الذى لا ينبت شيئاً.

وقوله: **﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا﴾** أى: غائراً فى الأرض، وهو ضد النابع الذى يطلب وجه الأرض، فالغائر يطلب أسفلها[٧]، كما قال تعالى: **﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾** [الملك: ٣٠] أى: جار وسائح. وقال ههنا: **﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾** والغور: مصدر بمعنى غائر، وهو أبلغ منه، كما قال الشاعر[٨]:

تَظَلّ جيادُهُ نَوْحاً عَلَيه   تُقَلّدُهُ أعنتَّها صفُوفا

بمعنى: نائحات عليه.

---

(١) المسند (٢/ ٤٦٩).

(٢) فى ف: «الصحيحين».

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٦١٠) وصحيح مسلم برقم(٢٧٠٤).

(٤) فى ف، أ: «بكير».

(٥) فى ت، ف: «ألا أدلك».

(٦) المسند (٢/ ٣٣٥).

(٧) فى ت، ف: «أسفل».

(٨) البيت فى تفسير الطبرى (١٥/ ١٦٣) غير منسوب.

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤) ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾: بأمواله، أو بثماره على القول الآخر. والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر، مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسبان[1] على جنته، التى اغتر بها[2] وألهته عن الله، عز وجل ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ قال قتادة: يُصَفِّق كفيه متأسفًا متلهفاً على الأموال التى أذهبها عليه ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا .وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ﴾ أى: عشيرة أو ولد، كما افتخر بهم واستعز ﴿يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا . هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ اختلف القراء ههنا، فمنهم من يقف على قوله: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا . هُنَالِكَ﴾ أى: فى ذلك الموطن الذى حل به عذاب الله، فلا منقذ منه، ويبتدئ [بقوله][3] ﴿ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾ ، ومنهم من يقف على: ﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ ويبتدئ بقوله: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾.

ثم اختلفوا فى قراءة ﴿الْوَلَايَةُ ﴾ فمنهم من فتح الواو، فيكون المعنى: هنالك الموالاة[4] لله، أى: هنالك[5] كل أحد[6] من مؤمن أو كافر[7]، يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب، كقوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤]، وكقوله إخباراً عن فرعون: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ . آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١].

ومنهم من كسر الواو من ﴿الْوِلَايَةُ ﴾ أى: هنالك الحكم لله الحق.

ثم منهم من رفع ﴿الْحَقُّ﴾ على أنه نعت للولاية، كقوله تعالى: ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٦].

ومنهم من خفض القاف، على أنه نعت لله عز وجل، كقوله: ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٢]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ أي: جزاء ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أى: الأعمال التى تكون لله، عز وجل، ثوابها خير، وعاقبتها حميدة رشيدة، كلها خير.

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) ﴾.

---

(١) فى ت: «الحسنات». (٢) فى ت: «اعتز». (٣) زيادة من أ .
(٤) فى ت: «الولاية». (٥) فى ت: «هناك». (٦) فى ف: «واحد».
(٧) فى ف: «وكافر».

يقول تعالى: ﴿وَاضْرِبْ﴾ يا محمد للناس ﴿مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فى زوالها وفنائها وانقضائها ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أى: ما فيها من الحَبّ، فشب وحسن، وعلاه[١] الزهر والنور والنضرة ثم بعد هذا كله ﴿أَصْبَحَ هَشِيمًا﴾ يابساً ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ أى: تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال[٢] ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أى: هو قادر على هذه الحال، وهذه الحال[٣]، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما فى سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ﴾ الآية [يونس: ٢٤]، وقال فى سورة الزمر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٢١] . وقال في سورة الحديد: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وفى الحديث الصحيح: «الدنيا حلوة خضرة»[٤].

وقوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، كقوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٥] أى: الإقبال عليه والتفرغ لعبادته، خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم، والشفقة المفرطة عليهم؛ ولهذا قال: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وغير واحد من السلف: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: الصلوات الخمس.

وقال عطاء بن أبى رباح، وسعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وهكذا سُئل أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى الله عنه، عن: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ ما هى؟ فقال: هى[٥] لا إله إلا الله، وسبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، ولاحول ولا قوة إلا بالله. رواه الإمام أحمد:

حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا حَيْوَة، أنبأنا أبو عقيل، أنه سمع الحارث مولى عثمان، رضى الله عنه، يقول: جلس عثمان يوماً وجلسنا معه، فجاءه المؤذن، فدعا بماء فى إناء، أظنه أنه سيكون فيه مُد، فتوضأ ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئى هذا، ثم قال: «من توضأ وضوئى هذا، ثم قام فصلى[٦] صلاة الظهر، غُفر له ما كان بينها وبين الصبح، ثم صلى العصر غفر له ما بينها وبين الظهر، ثم صلى المغرب غُفر له ما بينها وبين العصر، ثم صلي العشاء غُفر له ما

(١) فى ت: «وعلا». (٢) فى ت: «ذات يمين وذات شمال». (٣) فى ت: «هذه الحالة وهذه الحالة».

(٤) سبق تخريجه عند تفسير الآية الثامنة من هذه السورة.

(٥) فى ت: «هن». (٦) فى ت، ف: «يصلى».

بينها وبين المغرب، ثم لعله يبيت يتمرغ[١] ليلته، ثم إن قام فتوضأ وصلى صلاة الصبح، غُفر له ما بينها[٢] وبين صلاة العشاء وهى الحسنات يذهبن السيئات» قالوا: هذه الحسنات فما الباقيات الصالحات يا عثمان؟ قال: هي لا إله إلا الله، وسبحان اللّه، والحمد لله، والله أكبر، ولا حول ولاقوة إلا بالله[٣] . تفرد به[٤].

وروى مالك، عن عمارة بن عبد الله بن صياد[٥]، عن سعيد بن المسيب قال: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال محمد بن عَجْلان، عن عمارة قال: سألنى سعيد بن المسيب عن ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾، فقلت: الصلاة والصيام. قال[٦]: لم تصب. فقلت: الزكاة والحج. فقال: لم تصب، ولكنهن الكلمات الخمس: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال ابن جريج: أخبرنى عبد الله بن عثمان بن خُثَيْم، عن نافع بن سَرْجس، أنه أخبره أنه سأل ابن عمر عن: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر،[وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالّله. قال ابن جريج: وقال عطاء بن أبى رباح مثل ذلك.

وقال مجاهد: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: سبحان اللّه، والحمد للّه، ولا إله إلا اللّه، واللّه أكبر][٧].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمر، عن الحسن وقتاده فى قوله: ﴿الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، هُنّ الباقيات الصالحات.

قال ابن جرير: وجدت فى كتابى عن الحسن بن الصباح البزار، عن أبى نصر التمار، عن عبد العزيز بن مسلم، عن محمد بن عجلان، عن سعيد المقْبُرى، عن أبيه، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، منَ الباقيات الصالحات»[٨].

قال: وحدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا عمرو بن الحارث أن درّاجًا أبا السمح حَدّثه، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات». قيل: وما هى[٩] يا رسول الله؟ قال: «الملة». قيل: وما هى يارسول الله؟ قال: «التكبير، والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

وهكذا، رواه أحمد، من حديث دراج، به[١٠].

وبه قال ابن وهب: أخبرنى أبو صَخْر أن عبد الله بن عبد الرحمن، مولى سالم بن عبد الله

---

(١) فى ف، أ: «لعله يتمرغ». (٢) فى ت: «بينهما». (٣) فى أ: «بالله العلى العظيم».
(٤) المسند (١/ ٧١).
(٥) فى ف: «جياد». (٦) فى ف: «فقال». (٧) زيادة من ف.
(٨) تفسير الطبرى (١٥/ ١٦٧).
(٩) فى أ: «وماهن».
(١٠) تفسير الطبرى (١٥/ ١٦٧) والمسند (٣/ ٧٥).

حَدّثه قال : أرسلنى سالم إلى محمد بن كعب القرظى، فقال: قل له: القنى عند زاوية القبر، فإن لى إليك حاجة. قال: فالتقيا، فسلم أحدهما على الآخر، ثم قال سالم: ما تعد الباقيات الصالحات؟ فقال: لا إله إلا الله، وسبحان الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله . فقال له سالم: متى جعلت فيها «لا حول ولا قوة إلا بالله ؟» فقال: مازلت أجعلها. قال: فراجعه[1] مرتين أو ثلاثاً، فلم ينزع، قال: فأثبت[2] . قال سالم : أجل فأثبت[3] ،فإن أبا أيوب الأنصارى حدثنى أنه سمع رسول الله ﷺ وهو يقول: « عرج بى إلى السماء فأريت إبراهيم عليه السلام، فقال: يا جبريل، من هذا معك ؟ فقال: محمد. فرحب بى وسَهَّل، ثم قال: مر أمتك فلتكثر من غراس الجنة، فإن تربتها طيّبة وأرضها واسعة. فقلت: وما غراس الجنة؟ قال: لا حول ولا قوة إلا بالله»[4].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن يزيد، عن العوام، حدثنى رجل من الأنصار، من آل النعمان بن بشير، عن النعمان بن بشير، قال: خرج علينا رسول الله ﷺ، ونحن فى المسجد بعد صلاة العشاء، فرفع بصره إلى السماء ثم خفض، حتى ظننا أنه قد حدث فى السماء شىء، ثـم قال: «أما إنه سيكون بعدى أمراء، يكذبون ويظلمون، فمن صدقهم بكذبهم ومالأهم على ظلمهم، فليس منى ولا أنا منه، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يمالئهم[5] فهو منى وأنا منه. ألا وإن «سبحان الله، والحمد لله ،ولا إله إلا الله ،والله أكبر هُنّ الباقيات الصالحات» [6].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبان، حدثنا يحيى بن كثير، عن زيد، عن أبى سلام [عن][7] مولى لرسول الله ﷺ [أن رسول الله ﷺ][8] قال : «بخ بخ لخمس ما أثقلهن فى الميزان: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، والولد الصالح يتوفى فيحتسبه[9] والده». وقال :« بخ بخ لخمس من لقى الله مستيقناً بهن، دخل الجنة: يؤمن بالله، واليوم الآخر، وبالجنة والنار، وبالبعث بعد الموت، وبالحساب[10]»[11].

وقال الإمام أحمد: حدثنا رَوْح، حدثنا الأوزاعى، عن حسان بن عطية قال: كان شداد بن أوس، رضى الله عنه،[فى سفر][12] فنزل منزلاً، فقال لغلامه:« ائتنا بالشَّفرة نعبث بها». فأنكرت عليه، فقال: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت إلا وأنا أخطمها وأزمها غير كلمتى هذه. فلا تحفظوها على[13] ،واحفظوا ما أقول لكم : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا[14] هؤلاء الكلمات : اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر، والعزيمة على الرشد ، وأسألك[15] شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً ، وأسألك من خير

---

(١) فى ف، أ :«فراجعته». (٢) فى ف، أ: «فابيت». (٣) فى أ :«فابيت».
(٤) تفسير الطبرى (١٥/١٦٦).
(٥) فى أ: «ولم يمالئهم على ظلمهم».
(٦) المسند (٤/٢٦٧).
(٧، ٨) زيادة من ف، والمتند. (٩) فى ت: «فيحتسبنه». (١٠) فى ت، ف: «والحساب».
(١١) المسند (٤/٢٣٧)، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٨٨): «رجاله رجال الصحيح».
(١٢) زيادة من ف، والمسند. (١٣) فى ت: «على ذلك». (١٤) فى أ: «فاكثروا».
(١٥) فى ت: «وأشكرك».

ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب»[١].

ثم رواه أيضاً والنسائي[٢]، من وجه آخر عن شداد، بنحوه [٣].

وقال الطبراني: حدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا محمد بن سعد العوفي، حدثني أبي، حدثنا عمر بن الحسين، عن يونس بن نفيع الجدلي، عن سعد بن جنادة، رضي اللَّه عنه، قال: كنت في أول من أتى النبي ﷺ من أهل الطائف، فخرجت من أهلي[٤] من السراة غدوة، فأتيت منى عند العصر، فتصاعدت في الجبل ثم هبطت، فأتيت النبي ﷺ فأسلمت، وعلمني: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾، وعلمني هؤلاء الكلمات : سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، وقال: « هن الباقيات الصالحات». وبهذا الإسناد: «من قام من الليل فتوضأ ومضمض فاه، ثم قال: سبحان الله مائة مرة، والحمد لله مائة مرة، والله أكبر مائة مرة، ولا إله إلا الله مائة مرة، غفرت ذنوبه إلا الدماء فإنها لا تبطل »[٥].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ قال: هي ذكر الله، قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، وتبارك الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأستغفر الله، وصلى الله على رسول الله، والصيام، والصلاة، والحج، والصدقة، والعتق، والجهاد، والصلة، وجميع أعمال الحسنات. وهن الباقيات الصالحات، التي تبقى لأهلها في الجنة، ما دامت السموات والأرض .

وقال العوفي، عن ابن عباس : هُنّ الكلام الطيب .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هي الأعمال الصالحة كلها. واختاره ابن جرير، رحمه الله.

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا (٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾.

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة، وما يكون فيه من الأمور العظام، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا .وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴾[الطور: ٩، ١٠] أي: تذهب من أماكنها وتزول، كما قال:

---

(١) المسند (٤/ ١٢٣).

(٢) في ت: «فالنسائي».

(٣) سنن النسائي الكبرى برقم(١٢٢٧).

(٤) في ت، ف، أ: «من أهلي الطائفة».

(٥) المعجم الكبير (٦/ ٥١) وفيه الحسين العوفي ضعيف.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، وقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا. فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا. لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧]. يقول تعالى: إنه تذهب الجبال، وتتساوى المهاد، وتبقى الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي: سطحاً مستوياً لا عوج فيه ﴿وَلا أَمْتًا﴾ أى: لا وادى ولا جَبَل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [أى: بادية ظاهرة، ليس فيها مَعْلَم لأحد ولا مكان يوارى أحداً، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم لا تخفى عليه منهم خافية.

قال مجاهد، وقتاده: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾] (١) لا خَمَرَ فيها ولا غَيَابة. قال قتادة: لا بناءَ ولا شَجَر.

وقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ أى: وجمعناهم، الأولين منهم والآخرين، فلم نترك منهم أحداً، لا صغيراً ولا كبيراً، كما قال: ﴿قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ. لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩, ٥٠]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقوله: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾: يحتمل أن يكون المراد: أن جميع الخلائق يقومون بين يدى الله صفاً واحداً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، يحتمل أنهم يقومون(٢) صفوفاً صفوفا، كما قال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: هذا تقريع للمنكرين للمعاد، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد؛ ولهذا قال مخاطباً لهم: ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ أى: ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم، ولا أن هذا كائن.

وقوله: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أى: كتاب الأعمال، الذى فيه الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، والصغير والكبير ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أى: من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة، ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ أى: ياحسرتنا وويلنا(٣) على ما فرطنا فى أعمارنا ﴿مَا لِهَٰذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ أى: لا يترك ذنباً صغيراً ولا كبيراً ولا عملاً وإن صغر ﴿إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ أى: ضبطها، وحفظها.

وروى الطبرانى، بإسناده المتقدم فى الآية قبلها، إلى سعد بن جنادة قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حُنَيْن، نزلنا قفراً من الأرض، ليس فيه شىء، فقال النبى ﷺ: «اجمعوا، من وجد عُودًا فليأت به، ومن وجد حطباً أو شيئاً فليأت به. قال: فما كان إلا ساعة حتى جعلناه رُكاماً، فقال النبى ﷺ: «أترون هذا؟ فكذلك تُجْمَع الذنوبُ على الرجل منكم كما جَمَعْتُم هذا. فليتق الله رجل ولا

---

(١) زيادة من ف. (٢) فى ف، أ: «أن يقوموا». (٣) فى ت، ف، أ: «وويلتنا».

يذنب صغيرة ولا كبيرة، فإنها مُحْصَاة عليه»[١].

وقوله: ﴿وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ أى: من خير أو شر، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق: ٩] أى: تظهر المخبآت والضمائر.

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة، عن ثابت، عن أنس، عن النبى ﷺ قال: «لكل غادر لواء يومَ القيامة [يعرف به»[٢].

أخرجاه فى الصحيحين، وفى لفظ: «يُرْفَع لكل غادر لواء يوم القيامة][٣] عند استه بقدر غَدْرته، يقال: هذه غَدْرَة فلان بن فلان»[٤].

وقوله: ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ أى: فيحكم بين عباده فى أعمالهم جميعاً، ولا يظلم أحدا من خلقه، بل يغفر[٥] ويصفح ويرحم ويعذب من يشاء، بقدرته وحكمته وعدله، ويملأ النار من الكفار وأصحاب المعاصى، [ثم ينجى أصحاب المعاصى][٦] ويُخلَّد فيها الكافرون[٧] ، وهو الحاكم الذى لا يجور ولا يظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] ، وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا[٨] تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] والآيات فى هذا[٩] كثيرة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا همام بن يحيى، عن القاسم بن عبد الواحد المكى، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: بلغنى حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ، فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رَحْلى، فسرت عليه شهراً، حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله بن أنيس[١٠] فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب. فقال: ابن عبد الله؟ فقلت: نعم. فخرج يطأ ثوبه، فاعتنقنى واعتنقته، فقلت: حديث بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ فى القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعَه فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشُر الله، عز وجل، الناس يوم القيامة ـ أو قال: العبادَ ـ عُرَاةَ غُرْلاً بُهْمًا» قلت: وما بهمًا؟ قال: «ليس معهم شىء ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد، كما يسمعه من قَربَ: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وله عند أحد من أهل الجنة حق، حتى أقصه[١١] منه، ولا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وله عند رجل من أهل النار حق، حتى أقصه[١٢] منه حتى اللطمة». قال: قلنا: كيف، وإنما نأتى الله، عز وجل، عُراة غُرْلاً بُهْمًا؟ قال:

---

(١) المعجم الكبير (٦/ ٥٢). (٢) المسند (٣/ ١٤٢). (٣) زيادة من ف.
(٤) صحيح البخارى برقم (٣١٨٦) وصحيح مسلم برقم (١٧٣٧).
(٥) فى ت، ف: «يعفو». (٦) زيادة من ف.
(٧) فى ف: «الكافرين». (٨) فى ت: «ولا» وهو خطأ. (٩) فى ت: «فى هذه»، وفى ف: «فيهما».
(١٠) فى ت: «أنس». (١١، ١٢) فى ت، ف، أ: «أقضيه».

«بالحسنات والسيئات»[(١)].

وعن شعبة، عن العوام بن مُزَاحم، عن أبى عثمان، عن عثمان بن عفان، رضى اللّه عنه؛ أن رسول اللّه ﷺ قال: «إن الجَمَّاء لتقتص من القرناء يوم القيامة»[(٢)]. رواه عبد اللّه بن الإمام أحمد وله شواهد من وجوه أخر، قد ذكرناها عند قوله: ﴿ وَنَضَعُ[(٣)] الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وعند قوله تعالى: ﴿إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) ﴾.

يقول تعالى منبهاً بنى آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم، ومقرعاً لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه، الذى أنشأه وابتداه، وبألطاف رزقه غذاه، ثم بعد هذا كله والى إبليس وعادى اللّه، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ ﴾ أى: لجميع الملائكة، كما تقدم تقريره فى أول سورة «البقرة»[(٤)].

﴿اسْجُدُوا لآدَمَ ﴾ أى: سجود تشريف وتكريم وتعظيم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ .فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩].

وقوله ﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أى: خانه أصله؛ فإنه خلق من مارج من نار، وأصل خلق الملائكة من نور، كما ثبت فى صحيح مسلم عن عائشة، عن رسول اللّه ﷺ، أنه قال: «خُلِقت الملائكة من نور، وخُلِق إبليس من مارج من نار، خُلِق[(٥)] آدم مما وصف لكم»[(٦)]. فعند الحاجة نضح[(٧)] كل وعاء بما فيه، وخانه الطبع عند الحاجة، وذلك أنه كان قد تَوَسَّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم، وتعبد وتنسك، فلهذا دخل فى خطابهم، وعصى بالمخالفة.

ونبه تعالى ههنا على أنه ﴿مِنَ الْجِنِّ﴾ أى: إنه خُلِق من نار، كما قال: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢، وص: ٧٦].

قال الحسن البصرى: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قَط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم، عليه السلام، أصل البشر. رواه ابن جرير بإسناد صحيح [عنه] [(٨)] [(٩)].

---

(١) المسند (٣/ ٤٩٥).
(٢) زوائد المسند (١/ ١٢).
(٣) فى ت: «ويضع».
(٤) عند تفسير الآية: ٣٤.
(٥) فى ت، ف، ومسلم: «وخلق».
(٦) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٦).
(٧) فى أ: «نضح لكم».
(٨) زيادة من ف، أ.
(٩) تفسير الطبرى (١٥/ ١٧٠).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: كان إبليس من حى من أحياء الملائكة، يقال لهم: الجن، خلقوا من نار السموم من بين الملائكة ـ قال: وكان اسمه الحارث، وكان خازناً من خزان الجنة، وخُلقت الملائكة من نور غير هذا الحى ـ قال: وخلقت الجن الذين ذُكروا فى القرآن من مارج من نار. وهو لسان النار الذى يكون فى طرفها إذا التهبت.

وقال الضحاك أيضاً، عن ابن عباس: كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازناً على الجنان، وكان له سلطان [السماء][1] الدنيا وسلطان الأرض، وكان مما سولت له نفسه، من قضاء اللَّه أنه رأى أن له بذلك شرفاً على أهل السماء، فوقع من ذلك فى قلبه كبر[2] لا يعلمه إلا اللَّه. فاستخرج اللَّه ذلك الكبر منه حين[3] أمره بالسجود لآدم فاستكبر، وكان من الكافرين. قال ابن عباس: وقوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ أى: من خزان [الجنان، كما يقال للرجل: مكى، ومدنى، وبصرى، وكوفى. وقال ابن جريج، عن ابن عباس، نحو ذلك.

وقال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: هو من خزان][4] الجنة، وكان يدبر أمر السماء الدنيا، رواه ابن جرير من حديث الأعمش، عن حبيب بن أبى ثابت، عن سعيد، به.

وقال سعيد بن المسيب: كان رئيس ملائكة سماء[5] الدنيا.

وقال ابن إسحاق، عن خَلاَّد بن[6] عطاء، عن طاوس، عن ابن عباس قال: كان إبليس ـ قبل أن يركب المعصية ـ من الملائكة، اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض. وكان من أشد الملائكة اجتهاداً وأكثرهم علماً. فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حى يسمون جنا.

وقال ابن جُرَيْج، عن صالح مولى التَّوْأمة وشريك بن أبى نَمِر، أحدهما أو كلاهما عن ابن عباس قال: إن من الملائكة قبيلة من الجنّ، وكان إبليس منها، وكان يسوس ما بين السماء والأرض. فعصى، فسخط اللَّه عليه، فمسخه شيطاناً رجيماً ـ لعنه اللَّه ـ ممسوخاً، قال: وإذا كانت خطيئة الرجل فى كِبْر فلا تَرْجُه، وإذا كانت فى معصية فارجه.

وعن سعيد بن جُبَيْر أنه قال: كان من الجنانين، الذين يعملون فى الجنة.

وقد رُوى فى هذا آثار كثيرة عن السلف، وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها، واللَّه أعلم بحال كثير منها. ومنها ما قد يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذى بأيدينا، وفى القرآن غُنْيَةٌ عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين يَنْفُون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين، كما لهذه [الأمة من][7] الأئمة العلماء، والسادة الأتقياء والأبرار النجباء[8]، من الجهابذة النقاد، والحفاظ

---

(١) زيادة من ت، ف، أ.
(٢) فى ف: «كبر فى قلبه».
(٣) فى ت: «حتى».
(٤) زيادة من ف.
(٥) فى ت، ف: «السماء».
(٦) فى ف: «عن».
(٧) زيادة من ف.
(٨) فى أ: «البررة والنجباء».

الجياد، الذين دونوا الحديث وحرروه، وبينوا صحيحه من حسنه، من ضعيفه، من منكره وموضوعه، ومتروكه ومكذوبه، وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين، وغير ذلك من أصناف الرجال، كل ذلك صيانة للجناب النبوى والمقام المحمدى، خاتم الرسل، وسيد البشر[عليه أفضل التحيات والصلوات والتسليمات][1]، أن ينسب إليه كذب، أو يحدث عنه بما ليس [منه][2]، فرضى الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فَعَل.

وقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أى: فخرج عن طاعة الله؛ فإن الفسق هو الخروج، يقال[3]: فَسَقت الرُّطَبَة: إذا خرجت من أكمامها[4]، وفسقت الفأرة من جُحْرها: إذا خرجت منه للعيث[5] والفساد .

ثم قال تعالى مقرعاً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي﴾ أى: بدلاً عنى؛ ولهذا قال: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ .

وهذا المقام كقوله بعد ذكر القيامة وأهوالها ومصير كل من الفريقين السعداء والأشقياء فى سورة يس: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ . أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٥٩ ـ ٦٢].

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١)﴾ .

يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دونى عبيد أمثالكم، لا يملكون شيئاً، ولا أشهدتهم خلقى للسموات[6] والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها، ومدبرها ومقدرها وَحْدى، ليس معى فى ذلك شريك ولا وزير، ولامشير ولا نظير، كما قال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ . وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ الآية [سبأ: ٢٢، ٢٣]؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ قال مالك : أعواناً .

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يُخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعاً لهم وتوبيخاً:

(١) زيادة من أ. (٢) زيادة من ف. (٣) فى أ: «تقول».
(٤) فى أ: «كمامها». (٥) فى أ: «للعنت». (٦) فى ف، أ: « خلق السموات».

﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أى: فى دار الدنيا، ادعوهم اليوم، ينقذونكم مما[1] أنتم فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقوله: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ [كما قال: ﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ][2]وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٤]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ. وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا. كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ قال ابن عباس، وقتادة، وغير واحد: مَهْلكًا[3].

وقال قتادة: ذكر لنا أن عمر البكالى[4] حدث عن عبد الله بن عمرو قال: هو واد عميق، فُرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة.

وقال قتادة: ﴿مَّوْبِقًا﴾: وادياً فى جهنم.

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن سنان القزاز، حدثنا عبد الصمد، حدثنا يزيد بن درهم سمعت أنس بن مالك يقول فى قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ قال: واد فى جهنم، من قيح ودم.

وقال الحسن البصرى: ﴿مَّوْبِقًا﴾: عداوة.

والظاهر من السياق ههنا: أنه المهلك، ويجوز أن يكون وادياً فى جهنم أو غيره، إلا أن الله تعالى أخبر[5] أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين، ولا وصول لهم إلى آلهتهم التى كانوا يزعمون فى الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها فى الآخرة، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير.

وأما إن جعل الضمير فى قوله: ﴿بَيْنَهُم[6]﴾ عائداً إلى المؤمنين والكافرين، كما قال عبد الله ابن عمرو: إنه يفرق بين أهل الهدى والضلالة به، فهو كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، وقال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ. فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ. هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨ ـ ٣٠].

---

(١) فى ت: «بما». (٢) زيادة من ف. (٣) فى ت: «هلكًا».
(٤) فى أ: «البكائى». (٥) فى أ: «خير». (٦) فى ت: «بينهما».

وقوله: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أى: إنهم لما عاينوا جهنم حين[1] جىء بها تقاد بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فإذا رأى المجرمون النار، تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه، عذاب ناجز .

﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أى: ليس[2] لهم طريق يعدل بهم عنها ولابد لهم منها .

قال ابن جرير: حدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن الحارث، عن درّاج عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله[3] ﷺ أنه قال: « إن الكافر يرى[4] جهنم، فيظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين[5] سنة »[6].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن[7] لَهيعة، حدثنا درّاج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: « ينصب للكافر مقدار خمسين ألف سنة، كما لم يعمل فى الدنيا، وإن الكافر ليرى جهنم، ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة »[8].

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً (٥٤) ﴾ .

يقول تعالى: ولقد بينا للناس فى هذا القرآن، ووضحنا لهم الأمور، وفصلناها، كيلا[9] يضلوا عن الحق، ويخرجوا عن طريق الهدى. ومع هذا البيان وهذا الفرقان، الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل، إلا من هدى الله وبصره لطريق النجاة .

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهرى، أخبرنى على بن الحسين، أن حسين بن على أخبره، أن على بن أبى طالب أخبره، أن رسول اللّه[10] ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ليلة، فقال: «ألا تصليان؟» فقلت: يارسول اللّه، إنما أنفسنا بيد اللّه، فإذا شاء أن يبعثنا بَعَثَنا. فانصرف حين قلت ذلك، ولم يَرْجع إلىّ شيئًا، ثم سمعته وهو مولٍ[11] يضرب فخذه [ويقول][12] : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾. أخرجاه فى الصحيحين[13].

---

(١) فى ت: «حتى». (٢) فى ت، ف، أ: «وليس». (٣) فى ف، أ: «عن النبى».
(٤) فى ف، أ: «ليرى». (٥) فى ف: «أربعمائة».
(٦) تفسير الطبرى (١٥/ ١٧٣) ودراج عن أبى الهيثم ضعيف.
(٧) فى ت: «أبى» وهو خطأ.
(٨) المسند(٣/ ٧٥).
(٩) فى ف، : «لئلا». (١٠) فى ف، أ: «النبى». (١١) فى ت، ف، أ: «يقول».
(١٢) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.
(١٣) المسند(١/ ١١٢) وصحيح البخارى برقم (١٢٢٧) وصحيح مسلم برقم (٧٥٥).

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦) ﴾.

يخبر تعالى عن تمرد[١] الكفرة فى قديم الزمان وحديثه، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات [والآثار][٢] والدلالات الواضحات، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذى وعدوا به عياناً، كما قال أولئك لنبيهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وآخرون قالوا: ﴿ائْتِنَا[٣] بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، وقالت قريش: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٦، ٧] إلى غير ذلك [من الآيات الدالة على ذلك][٤].

ثم قال: ﴿ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ من غشيانهم بالعذاب وأخذهم عن آخرهم، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أى: يرونه عياناً مواجهة [ومقابلة][٥]، ثم قال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴾ أى: قبل العذاب مبشرين[٦] من صدقهم وآمن بهم، ومنذرين[٧] مَنْ كذبهم وخالفهم.

ثم أخبر عن الكفار بأنهم يجادلون بالباطل ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ ﴾ أى: ليضعفوا به ﴿الْحَقَّ ﴾ الذى جاءتهم به الرسل، وليس ذلك بحاصل لهم. ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴾ أى: اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التى بعث[٨] بها الرسل وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿هُزُوًا ﴾ أى: سخروا منهم فى ذلك، وهو أشد التكذيب.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا (٥٩) ﴾.

يقول تعالى: وأى عباد الله أظلم[٩] ممن ذكر بآيات الله[١٠] فأعرض عنها، أى: تناساها وأعرض

---

(١) فى ت: «ثمود». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى ت، أ: «فاتنا» وهو خطأ.
(٤، ٥) زيادة من ف، أ. (٦) فى ت، ف، أ: «مبشرون». (٧) فى ت، ف، أ: «ومنذرون».
(٨) فى ت، أ: «أبعث». (٩) فى أ: «وأى عبادى أظلم». (١٠) فى ف: «ربه».

عنها، ولم يصغ[١] لها، ولا ألقى إليها بالاً، ﴿ونَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاه﴾ أى: من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة. ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أى: قلوب هؤلاء ﴿أَكِنَّة﴾ أى: أغطية وغشاوة، ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أى: لئلا يفهموا[٢] هذا القرآن والبيان، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أى: صمم معنوى عن الرشاد، ﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

وقوله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ أى: ربك[٣] ـ يا محمد ـ غفور ذو رحمة واسعة، ﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾، كما قال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا[٤] مِن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]، وقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]. والآيات فى هذا كثيرة.

ثم أخبر أنه يحلم ويستر ويغفر، وربما هدى بعضهم من الغى إلى الرشاد، ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد، وتضع كل ذات حمل حملها؛ ولهذا قال: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ أى: ليس لهم عنه محيد ولا محيص ولا معدل.

وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أى: الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ أى: جعلناه إلى مدة معلومة ووقت [معلوم][٥] معين، لايزيد ولا ينقص، أى: وكذلك أنتم أيها المشركون، احذروا أن يصيبكم ما أصابهم، فقد كذبتم أشرف رسول[٦] وأعظم نبى، ولستم بأعز علينا منهم، فخافوا عذابى ونذر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥)﴾.

سبب قول موسى [عليه السلام][٧] لفتاه ـ وهو: يُوشع بن نُون ـ هذا الكلام: أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين، عنده من العلم ما لم يحط به موسى، فأحب الذهاب إليه، وقال لفتاه ذلك: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أى لا أزال سائراً حتى أبلغ هذا المكان الذى فيه مجمع البحرين، قال الفرزدق:

---

(١) فى ت: «يضع». (٢) فى ت: «يفهم»، وفى ف، أ: «يفهموه». (٣) فى ف، أ: «وربك».
(٤) فى ت: «ماترك عليها» وهو خطأ. (٥) زيادة من ف، أ. (٦) فى ت: «رسول الله ﷺ».
(٧) زيادة من ف، أ.

فَمَا بَرحُوا حَتَّى تَهَادَتْ نسَاؤهم ببَطْحَاء ذى قار عيابَ اللطَائم[١]

قال قتادة وغير واحد: وهما بحر فارس مما يلى المشرق، وبحر الروم مما يلى المغرب.

وقال محمد بن كعب القُرظى: مجمع البحرين عند طنجة، يعنى فى أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم.

وقوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أى: ولو أنى أسير حقباً من الزمان.

قال ابن جرير، رحمه الله: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحُقُب فى لغة قيس[٢]: سنة. ثم قد روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال: الحُقُب ثمانون سنة. وقال مجاهد: سبعون خريفاً. وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس قوله: ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ قال: دهراً. وقال قتادة، وابن زيد، مثل ذلك.

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾، وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه، وقيل له: متى فقدتَ الحوت فهو ثَمّة. فسارا حتى بلغا مجمع البحرين؛ وهناك عين يقال لها: «عين الحياة»، فناما هنالك، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء، فاضطرب[٣]، وكان فى مكتل مع يوشع [عليه السلام][٤]، وطَفَر من المكْتَل إلى البحر، فاستيقظ يُوشع، عليه السلام، وسقط الحوت فى البحر وجعل يسير فيه، والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده؛ ولهذا قال: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أى: مثل السَرَب فى الأرض.

قال ابن جريج[٥]: قال ابن عباس: صار أثره كأنه حَجَر.

وقال العوفى، عن ابن عباس: جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة[٦].

وقال محمد ـ [هو][٧] بن إسحاق ـ عن الزهرى، عن عُبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن أبىّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ حين ذكر حديث ذلك: « ما انجاب ماء منذ كان الناس غيره، ثبت[٨] مكان الحوت الذى فيه، فانجاب كالكُوّة حتى رجع إليه موسى فرأى مسلكه»، فقال: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾.

وقال قتادة: سَرب من البر[٩]، حتى أفضى إلى البحر، ثم سلك فيه فجعل لا يسلك فيه طريقاً إلا جعل[١٠] ماء جامداً.

وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ أى: المكان الذى نسيا الحوت فيه، ونُسب النسيان إليهما وإن كان يُوشَع

(١) البيت فى تفسير الطبرى (١٥/ ١٧٦).

(٢) فى ف، أ: «العرب». (٣) فى ف، أ: «فاضطربت». (٤) زيادة من ت، ف، أ.

(٥) فى ت: «جرير». (٦) فى ت، ف، أ: «كصخرة». (٧) زيادة من أ.

(٨) فى أ: « غير مثبت». (٩) فى ت، أ: «الحر». (١٠) فى ت، أ: «صار».

هو الذى نسيه، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]، وإنما يخرج من[١] المالح فى أحد القولين .

فلما ذهبا عن المكان الذى نسياه فيه مَرْحَلَةً ﴿ قَالَ﴾ موسى ﴿ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا [نَصَبًا][٢]﴾ أى: الذى جاوزا فيه المكان ﴿نَصَبًا﴾ يعنى: تعباً. ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ قال قتادة: وقرأ ابن مسعود: [«وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان][٣]، ولهذا قال: ﴿ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾ أى: طريقه ﴿ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا . قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ أى: هذا الذى نطلب ﴿فَارْتَدَّا﴾ أى :رجعا ﴿عَلَىٰ آثَارِهِمَا﴾ أى: طريقهما ﴿ قَصَصًا﴾ أى: يقصان أثر مشيهما، ويقفوان أثرهما.

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾وهذا هو الخضر، عليه السلام، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ . بذلك قال البخارى:

حدثنا الحميدى، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرنى سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفاً البِكَالِىّ يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل. قال ابن عباس: كذب عَدُوّ الله ، حدثنا أبى بن كعب، رضى الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل فَسُئِل: أى الناس أعلم؟ قال: أنا . فعتب الله عليه إذ لم يَرُدّ العلم إليه ، فأوحى الله إليه: إنّ لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. فقال موسى: يارب، وكيف لى به ؟ قال: تأخذ معك حوتاً، تجعله[٤] بمكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو[٥] ثم. فأخذ حوتا، فجعله بمكتل[٦]، ثم انطلق وانطلق معه بفتاه[٧] يُوشع بن نون عليهما[٨] السلام، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت فى المكتل، فخرج منه، فسقط فى البحر واتخذ[٩] سبيله فى البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جِريةَ الماء، فصار عليه مثل الطاق. فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ ولم يجد موسى النَّصَب حتى جاوزَا المكان الذى أمره الله به. قال له فتاه[١٠]: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قال: «فكان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً ، فقال : ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾». قال: «فرجعا[١١] يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مُسجّى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخَضِر: وَأنّى بأرضك السلام!. قال: أنا موسى. قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمنى مما عُلِّمت رشداً . ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾، ياموسى إنى على علم من علم الله علمنيه، لاتعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله عَلّمَكَه الله لا

(١) فى ف، أ: «على» .
(٢) زيادة من ف، أ.
(٣) زيادة من ف، أ، وفى هـ : «أن أذكره».
(٤) فى أ: «فتجعله».
(٥) فى أ: «منهم».
(٦) فى ف: «فى مكتل».
(٦) فى ف: «فتاه».
(٨) فى ت، ف: «عليه».
(٩) فى ف: «فاتخذ».
(١٠) فى ت: «قتادة» وهو خطأ.
(١١) فى ف: « فرجعان».

أعلمه . فقال موسى: ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قال له الخضر: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ .

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلمهم أن يحملوه[1]، فعرفوا الخضر، فحملوهم[2] بغير نول، فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قد حملونا بغير نول فعمدت[3] إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمراً. ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ[4] إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا .قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ قال: وقال رسول الله ﷺ:«كانت الأولى من موسى نسياناً ». قال: وجاء عصفور فنزل[5] على حرف السفينة فنقر فى البحر نَقْرة،[أو نقرتين][6] ،فقال له الخضر: ما علمى وعلمك فى علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه [بيده][7] فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً[8] بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا . قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾؟! قال:« وهذه أشد من الأولى»، ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي[9] عُذْرًا . فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ[10]﴾ قال : مائل. فقال الخضر بيده: ﴿فَأَقَامَهُ﴾، فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا .قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾. فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما ».

قال سعيد بن جبير: كان ابن عباس يقرأ: « وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصباً » وكان يقرأ: «وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين »[11].

ثم رواه[12] البخارى عن قتيبة، عن سفيان بن عُيينة. . . فذكر نحوه[13]، وفيه:« فخرج موسى ومعه فتاه يُوشع بن نون، ومعهما الحوت حتى انتهيا إلى الصخرة، فنزلا عندها ـ قال: فوضع موسى رأسه فنام ـ قال سفيان: وفى حديث غير[14] عمرو قال: وفى أصل الصخرة عين يقال لها:الحياة، لا يصيب من مائها شيء إلا حيى: فأصاب[15] الحوت من ماء تلك العين،قال، فتحرك وانسل من المكتل، فدخل البحر ، فلما استيقظ قال موسى لفتاه: ﴿آتِنَا غَدَاءَنَا﴾. كذا قال: وساق[16] الحديث.ووقع عصفور على حرف السفينة، فغمس منقاره فى البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمى

(١) فى ف، أ: «يحملوهم».
(٢) فى ت: «فحملوه»، وفى ف، أ: «فحملوا».
(٣) فى ف، أ: «عمدت».
(٤) فى ف، أ:« أقل لك» وهو خطأ.
(٥) فى ف، أ: «فوقع».
(٦) زيادة من أ.
(٧) زيادة من ف، أ.
(٨) فى ف، أ: «زاكية».
(٩) فى ف: «قد بلغت منى» وهو خطأ.
(١٠) فى ت: « ينقض فأقامه».
(١١) صحيح البخارى برقم (٤٧٢٥).
(١٢) فى أ: «ورواه».
(١٣) فى ت، ف، أ: «فذكره بنحوه».
(١٤) فى ت، ف، أ: «عن».
(١٥) فى ت:«قال: فأصاب».
(١٦) فى أ: «وسباق».

وعلمك وعلم الخلائق فى علم الله إلا مقدارُ ما غمس هذا العصفورُ منقاره وذكر تمامه بنحوه[١].

وقال البخارى أيضاً: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف، أن ابن جُرَيْج أخبرهم قال: أخبرنى يعلى بن مسلم وعمرو بن دينار، عن سعيد بن جبير - يزيد أحدهما على صاحبه - وغيرهما قد سمعته يحدث عن سعيد بن جبير قال: إنا لعند ابن عباس فى بيته، إذ قال: سلونى. فقلت: أى أبا عباس، جعلنى الله فداك، بالكوفة رجل قاص، يقال له: «نوف» يزعم أنه ليس بموسى بنى إسرائيل - أما عمرو فقال لى: قال[٢]: كذب عدو الله! وأما يعلى فقال لى: قال ابن عباس: حدثنى أبى بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: « موسى رسول الله، ذكَّر الناس يوماً، حتى إذا فاضت العيون، ورقت القلوب، ولى، فأدركه رجل فقال: أى رسول الله، هل فى الأرض[٣] أحد أعلم منك ؟ قال: لا. فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إلى الله، قيل: بلى. قال: أى رب، وأين؟ قال: بمجمع البحرين. قال: أى رب، اجعل لى علماً أعلم ذلك به» . قال لى عمرو: قال: حيث يفارقك الحوت، وقال لى يعلى: خذ حوتاً ميتاً حيث ينفخ فيه الروح. فأخذ حوتاً فجعله فى مكتل، فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرنى حيث يفارقك الحوت، قال: ما كلفت كبيراً. فذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ﴾ يوشع بن نون، ليست عن سعيد بن جبير، قال: « فبينا[٤] هو فى ظل صخرة فى مكان ثريان[٥]، إذ تَضَرَّب[٦] الحوت وموسى نائم، فقال فتاه: لا أوقظه، حتى إذا استيقظ نسى أن يخبره، وتَضَرَّب الحوت حتى دخل البحر، فأمسك الله عنه جَرْيَة الماء حتى كأن أثره فى حجر». [قال: فقال لي عمرو: هكذا كأن أثره فى حجر][٧]، وحلق بين إبهاميه والتى تليهما : ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ قال: «وقد قطع الله عنك النصب» ليست هذه عن سعيد - أخبره، فرجعا فوجدا خَضِراً. قال : قال[٨] عثمان بن أبى سليمان: على طنَفَسَة خضراء على كبِد[٩] البحر. قال سعيد بن جبير: مُسَجى بثوب، قد جعل طرفه تحت رجليه، وطرفه تحت رأسه، فسلم عليه موسى، فكشف عن وجهه، وقال: هل بأرض من سلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم. قال: فما شأنك ؟ قال: جئتك لتعلمنى مما علمت رشداً . قال: يكفيك[١٠] التوراة[١١] بيدك، وأن الوحى يأتيك!. ياموسى، إن لى علماً لا ينبغى لك أن تعلمه، وإن لك علماً لا ينبغى لى أن أعلمه. فأخذ طائر بمنقاره من البحر[فقال: والله ما علمى وعلمك فى جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر][١٢]، حتى إذا ركبا فى السفينة وجدا معابر صغاراً تحمل[١٣] أهل هذا الساحل إلى[١٤] هذا الساحل الآخر عرفوه، فقالوا: عبد الله الصالح؟. قال: فقلنا لسعيد: خضر؟ قال: نعم. لا نحمله بأجر. فخرقها، ووَتَدَ فيها وتداً. قال موسى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ

(١) صحيح البخارى برقم (٤٧٢٧).
(٢) فى أ : « فقال وقال».
(٣) فى ت: «هل على الأرض»، وفى ف: «هل فى الناس».
(٤) فى ت: «فبينما».
(٥) فى ف، أ: «يريان».
(٦) ف أ : «يضرب».
(٧) زيادة من ف، أ، والبخارى .
(٨) فى ف، أ : «قال لى».
(٩) فى ت: «كبده».
(١٠) فى أ: «أما يكفيك»، وفى ت: «الا تكفيك
(١١) فى ف: «أما يكفيك أن التوراة».
(١٢) زيادة من ف، أ، والبخارى .
(١٣) فى ت: «فحمد».
(١٤) فى ت،أ: «إلى أهل».

﴿شَيْئًا إِمْرًا﴾. قال مجاهد: منكراً. قال: **﴿ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾** كانت الأولى نسياناً، والوسطى شرطاً، والثالثة عمداً **﴿قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا . فَانطَلَقَا﴾** حتى لقيا غلاماً فقتله. قال يعلى: قال سعيد، وجد غلماناً يلعبون، فأخذ غلاماً كافراً ظريفاً فأضجعه، ثم ذبحه بالسكين، فقال: **﴿قَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾** لم تعمل بالحنث[1]. وابن عباس قرأها **﴿زَكِيَّةً﴾** ـ **﴿زَاكِيَةً﴾**: مُسْلِمَة، كقولك[2]: غلاماً زكيا فانطلقا، فوجدا جداراً يريد أن ينقض فأقامه، قال [سعيد][3] بيده هكذا، ورفع يده فاستقام ـ قال يعلى: حسبت أن سعيداً قال: فمسحه بيده فاستقام ـ قال: **﴿لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾** قال سعيد: أجراً نأكله **﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ ﴾** وكان أمامهم، قرأها ابن عباس: « أمامهم ملك» يزعمون عن غير سعيد أنه هُدَدُ بن بُدَدَ، والغلام المقتول[4] اسمه ـ يزعمون ـ جَيسُور[5] **﴿ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾** فأردت إذا هى مرت به أن يدعها بعيبها، فإذا جاوزه[6] أصلحوها فانتفعوا بها . ومنهم من يقول: سدوها بقارورة. ومنهم من يقول: بالقار. **﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾** وكان كافراً، **﴿ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾**. أن يحملهما حُبّه على أن يتابعاه[7] على دينه **﴿ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً﴾** كقوله: **﴿قَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾**، **﴿ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾**: هما به أرحم منهما بالأول الذى قتل[8] خضر. وزعم غير سعيد بن جبير أنهما أبدلا جارية. وأما داود بن أبى عاصم فقال عن غير واحد: إنها جارية[9].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: خطب موسى، عليه السلام، بنى إسرائيل فقال: ما أحد أعلم بالله وبأمره منى. فَأمرَ أن يلقى هذا الرجل. فذكر نحو ما تقدم بزيادة ونقصان[10] ،والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق، عن الحسن بن عمارة، عن الحكم بن عتيبة[11]، عن سعيد بن جبير قال: جلست عند ابن عباس وعنده نفر من أهل الكتاب فقال بعضهم: يا أبا العباس، إن نوفاً بن امرأة كعب، يزعم عن كعب أن موسى النبى الذى طلب العالم إنما هو موسى بن ميشا ؟ قال سعيد: فقال ابن عباس: أنوّف يقول هذا؟ قال سعيد: فقلت له: نعم، أنا سمعت نوفاً يقول[12] ذلك. قال: أنت سمعته يا سعيد؟ قال: قلت: نعم. قال: كذب نوف. ثم قال ابن عباس: حدثنى أبى بن كعب، عن رسول الله ﷺ: « أن موسى بنى إسرائيل سأل ربه فقال: أى رب، إن كان فى عبادك أحد[13] هو أعلم منى، فدلنى عليه. فقال له: نعم، فى عبادى من هو أعلم منك. ثم نعت له مكانه[14] وأذن له فى لقيه. فخرج موسى ومعه فتاه، ومعه حوت مليح، قد قيل له: إذا [15] حيى هذا الحوت فى مكان، فصاحبك هنالك، وقد أدركت حاجتك. فخرج موسى ومعه فتاه، ومعه ذلك الحوت يحملانه، فسار حتى جهده السير، وانتهى إلى الصخرة وإلى ذلك الماء، وذلك الماء ماء الحياة، من

(١) فى ت: «لم تعلم بالحنث»، وفى ف، أ: «لم تعمل الحنث». (٢) فى ت: «كقوله».
(٣) زيادة من ف، أ، والبخارى. (٤) فى ت: «المقصود». (٥) فى أ: «حيسون».
(٦) فى أ: « جاوزوا». (٧) فى ت: «تبايعاه». (٨) فى أ: «قتله».
(٩) صحيح البخارى برقم (٤٧٢٦) .
(١٠) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٤١، ٣٤٢).
(١١) فى ف، أ: «عيينة». (١٢) فى ت: «فيقول». (١٣) فى ت: «واحد».
(١٤) فى ف، أ: «بمكان». (١٥) فى أ: «إنه إذا».

شرب منه خلد، ولا يقاربه شيء ميت إلا حيي. فلما نزلا ومس الحوت الماء حيي ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ فانطلقا فلما جاوز مُنْقَلَبَه قال: موسى لفتاه: ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾، قال الفتى ـ وذكر ـ: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾. قال ابن عباس: فظهر موسى على الصخرة حتى إذا انتهيا إليها، فإذا رجل متلفف فى كساء له، فسلم موسى، فردّ عليه العالم ثم قال له: ما جاء بك إن كان لك فى قومك لَشُغل؟. قال له موسى: جئتك لتعلمنى مما علمت رشداً ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ وكان رجلاً يعلم علم الغيب قد عُلِّم ذلك ـ فقال موسى: بلى. قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾؟ أى: إنما تعرف ظاهر ما ترى من العدل، ولم تحط من علم الغيب بما أعلم. ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ وإن رأيتُ ما يخالفنى، قال: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ [وإن أنكرته][1] ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾: فانطلقا يمشيان على ساحل البحر يتعرّضان الناس، يتلمسان[2] من يحملهما، حتى مرّت بهما سفينة جديدة وثيقة، لم يمرّ بهما من السفن أحسن ولا أكمل ولا أوثق منها. فسألا أهلها أن يحملوهما، فحملوهما[3]، فلما اطمأنا فيها ولَجَّجَت بهما مع أهلها، أخرج منقاراً له ومطرقة، ثم عمد إلى ناحية منها فضرب فيها بالمنقار حتى خرقها. ثم أخذ لوحاً فطبقه عليها، ثم جلس عليها يرقعها، فقال: له موسى ـ ورأى أمراً أفظع به ـ: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا. قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أى: بما تركت من عهدك، ﴿وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾. ثم خرجا[4] من السفينة فانطلقا، حتى أتيا[5] أهل قرية، فإذا غلمان يلعبون خلفها، فيهم غلام ليس فى الغلمان غلام أظرفُ منه ولا أثري[6] ولا أوضأ[7] منه، فأخذه بيده، وأخذ[8] حجراً فضرب به رأسه حتى دمغه فقتله، قال: فرأى موسى أمراً فظيعاً لا صبر عليه، صبى صغير قتله لا ذنب له[9] قال: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً[10]﴾ أى: صغيرة ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا. قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا. قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي[11] عُذْرًا﴾ أى: قد أعذرتَ[12] فى شأنى. ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، فهدمه ثم قعد يبنيه، فضجر موسى مما يراه[13] يصنع من التكليف، وما ليس عليه صبر، قال: ﴿لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أى: قد استطعمناهم فلم يطعمونا، وضفناهم فلم يُضَيِّفونا، ثم قعدت تعمل من غير صنيعة، ولو شئت لأعطيت عليه أجراً فى عمله؟. قال: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا. أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ ـ وفى قراءة أبىّ بن كعب: «كل سفينة صالحة» ـ وإنما عبتها[14] لأرده عنها، فسلمت[15] حين رأى

(١) زيادة من ف ،أ، والطبرى.
(٢) فى ف، أ: «يلتمسان».
(٣) فى ت: «فحملوها».
(٤) فى ت: «خرجاه».
(٥) فى ف، أ: «حتى إذا أتيا».
(٦) فى ف ، أ: «ولا أبرأ».
(٧) فى أ: «ولا أضوا».
(٨) فى ف: «فأخذ».
(٩) فى ف: «عليه».
(١٠) فى أ: «زاكية».
(١١) فى ف: « قد بلغت منى» وهو خطأ.
(١٢) فى ت: «عددت»، وفى أ: «عذرت».
(١٣) فى أ : «رآه».
(١٤) فى أ: «عيبتها».
(١٥) فى ف: «فسلمت منه».

العيب الذى صنعت بها. ﴿وَأَمَّا الْغُلامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا . فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا . وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أى: ما فعلته عن نفسى، ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ وكان ابن عباس يقول: ما كان الكنز إلا علماً (١).

وقال العوفى، عن ابن عباس قال: لما ظهر موسى وقومه على مصر، أنزل قومه (٢)، فلما استقرت بهم الدار، أنزل الله: أن ذكرهم بأيام الله. فخطب قومه، فذكر ما آتاهم الله من الخير والنعمة، وذكرهم إذ نجاهم الله من آل فرعون، وذكرهم هلاك عدوهم، وما استخلفهم الله فى الأرض، وقال: كلم الله نبيكم تكليماً، واصطفانى لنفسه، وأنزل علىّ محبة منه، وآتاكم الله من كل ما سألتموه؛ فنبيكم أفضل أهل الأرض، وأنتم تقرؤون التوراة، فلم يترك نعمة أنعمها عليهم إلا وعرفهم إياها. فقال له رجل من بنى إسرائيل: هم(٣) كذلك يا نبى الله، قد عرفنا الذى تقول، فهل على الأرض أحد أعلم منك يا نبى الله؟ قال: لا. فبعث الله جبرائيل إلى موسى، عليهما السلام(٤)، فقال: إن الله [عز وجل](٥) يقول: وما يدريك أين أضع علمى؟ بلى(٦). إن على شط البحر رجلاً هو أعلم منك ـ قال ابن عباس: هو الخضر ـ فسأل موسى ربه أن يريه إياه، فأوحى إليه: أن ائت البحر، فإنك تجد على شط البحر حوتاً، فخذه فادفعه إلى فتاك، ثم الزم شط البحر، فإذا نسيت الحوت وهلك منك، فثم تجد العبد الصالح الذى تطلب. فلما طال سفر موسى نبى الله ونصب فيه، سأل فتاه عن الحوت، فقال له فتاه وهو غلامه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ لك، قال الفتى: لقد رأيت الحوت حين اتخذ سبيله فى البحر سرباً فأعجب ذلك موسى، فرجع حتى أتى الصخرة، فوجد الحوت، فجعل الحوت يضرب فى البحر ويتبعه موسى، وجعل موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء يتبع(٧) الحوت، وجعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس، حتى يكون صخرة(٨)، فجعل نبى الله يعجب من ذلك، حتى انتهى به الحوت إلى جزيرة من جزائر البحر، فلقى الخضر بها فسلم عليه، فقال الخضر: وعليك السلام، وأنى يكون السلام بهذه(٩) الأرض؟ ومن أنت؟ قال: أنا موسى. فقال(١٠) الخضر: أصاحب بنى إسرائيل؟ [قال: نعم](١١) فرحب به وقال: ما جاء(١٢) بك؟ قال: جئتك ﴿عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا . قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يقول: لا تطيق ذلك. قال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ قال: فانطلق به، وقال له: لا تسألنى عن شىء أصنعه حتى أبين لك شأنه، فذلك قوله: ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

وقال الزهرى، عن عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود، عن ابن عباس: أنه تمارى هو

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ١٨٠).
(٢) فى ت، ف، أ: «قومه مصر». (٣) فى أ: «هن».
(٤) فى ف: «جبريل عليه السلام إلى موسى عليه السلام»، وفى أ: «جبريل إلى موسى عليه السلام».
(٥) زيادة من أ. (٦) فى أ: «بل». (٧) فى أ: «حتى يتتبع».
(٨) فى ت: «حتى يكون مثل الحجر». (٩) فى أ: «وأنى يكون هذا السلام بهذا». (١٠) فى ف، أ: «فقال له».
(١١) زيادة من ف، أ، والطبرى. (١٢) فى أ: «ما حاجتك». (١٣) زيادة من ف، أ.

والحر بن قيس بن حصن الفزارى فى صاحب موسى، فقال ابن عباس: هو خضر. فمر بهما أبى بن كعب، فدعاه ابن عباس فقال: إنى تماريت أنا وصاحبى هذا فى صاحب موسى الذى سأل السبيل إلى لُقيه، فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينا موسى فى ملأ من بنى إسرائيل، إذ جاءه رجل فقال: تعلم مكان رجل أعلم منك؟ قال: لا؛ فأوحى الله إلى موسى: بلى، عبدنا خضر. فسأل موسى السبيل إلى لُقيّه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فَقَدت[1] الحوت [فهو ثمة][2] فارجع، فإنك ستلقاه. فكان موسى يتبع أثر الحوت فى البحر. فقال فتى موسى لموسى: ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾. قال موسى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ فوجدا عبدنا[3] خضراً، فكان من شأنهما ما قص الله فى كتابه[4]» [5].

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠)﴾.

يخبر تعالى عن قيل موسى، عليه السلام، لذلك [الرجل][6] العالم، وهو الخضر، الذى خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى، كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر، ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ سؤال بتلطف[7]، لا على وجه الإلزام والإجبار. وهكذا ينبغى أن يكون سؤال المتعلم من العالم. وقوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ أى: أصحبك وأرافقك، ﴿عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أى: مما علمك الله شيئاً، أسترشد به فى أمرى، من علم نافع وعمل صالح. فعندها ﴿قَالَ﴾ الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أى: أنت لا تقدر أن تصاحبنى، لما ترى [منّى][8] من الأفعال التي تخالف شريعتك، لأنى على علم من علم الله، ما علمكه الله، وأنت على علم من علم الله، ما علمنيه الله، فكل منا مكلف بأمور[9] من الله دون صاحبه، وأنت لا تقدر على صحبتى. ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾، فأنا أعرف أنك ستنكر على ما أنت معذور فيه، ولكنْ ما اطلعت على حكمته ومصلحته الباطنة التى اطلعت أنا عليها دونك ﴿قَالَ﴾ له[10] موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ أى: على ما أرى من أمورك، ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ أى: ولا أخالفك فى شىء. فعند ذلك شارطه الخضر ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ أى: ابتداءً ﴿حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أى: حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألنى.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، عن هارون بن عنترة[11]، عن أبيه، عن ابن

---

(١) فى ت: «بعدت». (٢) زيادة من أ. (٣) فى أ: «عبدًا».
(٤) فى ت: «كتابه العزيز».
(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٥/ ١٨٣).
(٦) زيادة من أ. (٧) فى ت، ف، أ: «تلطف». (٨) زيادة من أ.
(٩) فى أ: «مأمور». (١٠) فى أ: «أى». (١١) فى ف: «عرة».

عباس قال: سأل موسى ربه، عز وجل، فقال[١]: رب، أى عبادك أحب إليك ؟ قال: الذى يذكرنى ولا ينسانى. قال: فأى عبادك أقضى ؟ قال: الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى. قال: أى رب، أى عبادك أعلم ؟ قال: الذى يبتغى علم الناس إلى علمه، عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هدى، أو ترده عن ردى. قال: أى رب، فهل فى أرضك[٢] أحد أعلم منى ؟ قال: نعم. قال: فمن هو ؟ قال الخضر. قال: فأين[٣] أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة، التى ينفلت[٤] عندها الحوت. قال: فخرج موسى يطلبه، حتى كان ما ذكر الله، وانتهى موسى إليه عند الصخرة، فسلم[٥] كل واحد منهما على صاحبه. فقال له موسى: إنى أريد أن تصحبنى[٦]. قال: إنك لن تطيق[٧] صحبتى. قال: بلى. قال: فإن صحبتنى ﴿فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ قال: فسار به فى البحر[٨] حتى انتهى إلى مجمع البحور[٩]، وليس فى الأرض[١٠] مكان أكثر ماء منه. قال: وبعث الله الخطاف، فجعل يستقى منه بمنقاره، فقال لموسى: كم ترى هذا الخطاف رزأ من هذا الماء؟ قال: ما أقل ما رزأ! قال: ياموسى، فإن علمى وعلمك فى علم الله كقَدْر ما استقى هذا الخطاف من هذا الماء. وكان موسى قد حدث نفسه أن ليس أحد أعلم منه، أو تكلم به، ، فمن ثم أمر أن يأتى الخضر. وذكر تمام الحديث فى خرق السفينة، وقتل الغلام، وإصلاح الجدار، وتفسيره له ذلك.

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه، وهو الخضر، أنهما انطلقا لما توافقا واصطحبا، واشترط عليه ألاَّ يسأله عن شىء أنكره حتى يكون هو الذى يبتدئه[١١] من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه، فركبا فى السفينة. وقد تقدم فى الحديث كيف ركبا فى السفينة، وأنهم عرفوا الخضر، فحملوهما بغير نول ـ يعنى بغير أجرة ـ تكرمة للخضر. فلما استقلت بهم السفينة فى البحر، ولججت، أى: دخلت اللجة، قام الخضر فخرقها، واستخرج لوحاً من ألواحها[١٢]، ثم رقعها. فلم يملك موسى، عليه السلام، نفسه أن قال منكراً عليه: ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾. وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل، كما قال الشاعر[١٣]:

لدُوا للمَوت وابْنُوا للخَرَاب

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾: قال مجاهد: منكراً. وقال قتادة: عجباً. فعندها قال له الخضر مذكرا[١٤] بما تقدم من الشرط: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ يعنى وهذا الصنيع فعلته[١٥] قصداً،

---

(١) فى ت، ف، أ: «فقال أى». (٢) فى ت ف، أ: «فى الأرض». (٣) فى ف، أ: «وأين».
(٤) فى ت، ف: «يتفلت» (٥) فى ت: «وسلم». (٦) فى ت: «تستصحبنى».
(٧) فى ت: «تستطيع». (٨) فى ت: «فصار فى البحر»، وفى ف، أ: «فسار به إلى البحر». (٩) فى ف، أ: «البحرين».
(١٠) فى ت: «فى البحر» (١١) فى ف، أ: «يبتدئ به». (١٢) فى ت: «ألواح».
(١٣) هو أبو العتاهية، والبيت فى ديوانه (ص٤٦) أ. هـ. مستفادًا من ط ـ الشعب.
(١٤) فى ت: «مذكورًا». (١٥) فى ت: «عملته».

وهو[١] من الأمور التى اشترطت معك ألا تنكر علىّ فيها، لأنك لم تحط بها خبراً، ولها داخل هو مصلحة ،ولم تعلمه[٢] أنت. ﴿ قَالَ ﴾ أى موسى: ﴿ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ أى: لا تضيق علىّ وتُشدد[٣] علىّ؛ ولهذا تقدم فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كانت الأولى من موسى نسياناً» .

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) ﴾.

يقول تعالى : ﴿فَانطَلَقَا ﴾ أى: بعد ذلك، ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلامًا فَقَتَلَهُ﴾. وقد تقدم أنه كان يلعب مع الغلمان فى قرية من القرى، وأنه عمد إليه من بينهم، وكان أحسنهم وأجملهم وأوضأهم[٤]، فقتله، فروى أنه احتز رأسه، وقيل: رضخه بحجر. وفي رواية: اقتطفه بيده. والله أعلم.

فلما شاهد موسى، عليه السلام، هذا أنكره أشد من الأول، وبادر فقال: ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَاكِيَةً[٥] ﴾ أى صغيرة لم تعمل الحنث[٦] ،ولا حملت إثماً بعد، فقتلته ؟!﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أى: بغير مستند لقتله ﴿ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ أى: ظاهر النكارة. ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ فأكد أيضاً فى التذكار بالشرط الأول؛ فلهذا قال له موسى: ﴿ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ أى: إن اعترضت عليك بشىء بعد هذه المرة ﴿ فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ أى: قد أعذرت إلىّ مرة بعد مرة.

قال ابن جرير: حدثنا عبد اللّه بن أبى زياد، حدثنا حجاج بن محمد، عن حمزة الزيات، عن أبى إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أبى بن كعب قال: كان النبى ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له، بدأ بنفسه، فقال ذات يوم: «رحمة اللّه علينا وعلى موسى، لو لبث[٧] مع صاحبه لأبصر العجب ولكنه قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً» [مثقلة][٨] [٩].

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عنهما: إنهما انطلقا بعد المرتين الأوليين[١٠] ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾. روى

(١) فى ف :«وهى» . (٢) فى ت: «تعلم» . (٣) فى ت، ف :«ولا تشدد» .
(٤) فى ف :«وأضوأهم» . (٥) فى ت : «زاكية بغير نفس» . (٦) فى أ: «الخبث» .
(٧) فى ف، أ: «ثبت» . (٨) زيادة من ف، أ، والطبرى.
(٩) تفسير الطبرى (١٥/ ١٨٦) ورواه أبو داود فى السنن برقم (٣٩٨٤) من طريق حمزة الزيات به.
(١٠) فى أ: «الأولتين».

ابن جرير[(١)] ،عن ابن سيرين أنها الأيلة[(٢)]، وفى الحديث: « حتى إذا أتيا أهل قرية لئاما»[(٣)] أى: بخلاء ﴿فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ إسناد الإرادة ههنا إلى الجدار على سبيل الاستعارة، فإن الإرادة فى المحدثات بمعنى الميل. والانقضاض هو: السقوط.

وقوله: ﴿فَأَقَامَهُ﴾ أى: فردّه إلى حالة الاستقامة، وقد تقدم فى الحديث أنه ردّه بيديه، ودعمه حتى ردّ ميله[(٤)]. وهذا خارق فعند ذلك قال موسى له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ[(٥)] عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أى: لأجل أنهم لم يضيفونا كان ينبغى ألاَّ تعمل لهم مجاناً[(٦)] ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [أى: لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتنى عن شىء بعدها فلا تصاحبنى، فهو فراق بينى وبينك][(٧)]، ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ﴾ أى: بتفسير ﴿مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩)﴾.

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى، عليه السلام، وما كان أنكر ظاهره وقد أظهر اللَّه الخضر، عليه السلام، على[(٨)] باطنة فقال إن: السفينة[(٩)] إنما خرقتها لأعيبها؛[لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صالحة، أى: جيدة ﴿غَصْبًا﴾ فأردت أن أعيبها][(١٠)] ، لأرده عنها لعيبها[(١١)]، فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شىء ينتفعون به غيرها. وقد قيل: إنهم أيتام.

و[قد][(١٢)] روى ابن جريج[(١٣)] عن وهب بن سليمان، عن شعيب الجبائى؛ أن اسم ذلك الملك هُدَدُ[(١٤)] بن بُدَدَ، وقد تقدم أيضاً فى رواية البخارى، وهو مذكور فى التوراة فى ذرية «العيص بن إسحاق» وهو من الملوك المنصوص عليهم فى التوراة، واللَّه أعلم[(١٥)].

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١)﴾.

قد تقدم أن هذا الغلام كان اسمه جَيْسُور. وفى الحديث عن ابن عباس، عن أبى بن كعب، عن النبى ﷺ قال: « الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً ». رواه ابن جرير من حديث ابن إسحاق، عن سعيد، عن ابن عباس، به؛ ولهذا قال: ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا

(١) فى أ: «جريج».
(٢) فى ت: «الأيكة».
(٣) رواه أحمد فى مسنده (١١٩/٥) من طريق أبى إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أبى بن كعب، رضى الله عنهما.
(٤) فى ت: «بيده وعمه حتى ردّ مثله».
(٥) فى ت: «اتخذت» وهو خطأ.
(٦) فى ت: «يعمل مجانا».
(٧) زيادة من ف، أ.
(٨) فى ت، ف، أ: «على حكمة».
(٩) فى ت: «فقال له السفينة»، وفى ف: «أما السفينة».
(١٠) زيادة من ف، أ.
(١١) فى ت: «لعينها».
(١٢) زيادة من ف، أ.
(١٣) فى ت: «جرير».
(١٤) فى أ: «هود».
(١٥) فى ف: «فالله أعلم».

وَكُفْرًا﴾ أى: يحملهما حبه على متابعته على الكفر.

قال قتادة: قد فرح به أبواه حين ولد، وحزنا عليه حين قتل، ولو بقى كان فيه هلاكهما، فليرض[١] امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه[٢] فيما يحب.

وصح فى الحديث: «لا يقضى الله للمؤمن قضاء[٣] إلا كان خيراً له». وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: ٢١٦].

وقوله [تعالى][٤]: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أى: ولداً أزكى من هذا، وهما أرحم به منه، قاله ابن جريج.

وقال قتادة: أبر بوالديه.

وقد تقدم أنهما بدلا جارية. وقيل: لما قتله الخضر كانت أمه حاملاً بغلام مسلم. قاله ابن جريج[٥].

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)﴾.

فى هذه الآية دليل على إطلاق القرية على المدينة؛ لأنه قال أولاً ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ [الكهف: ٧٧] وقال ههنا: ﴿فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ﴾[محمد: ١٣]، ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يعنى: مكة والطائف.

ومعنى الآية: أن هذا الجدار[٦] إنما أصلحه[٧] لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما.

قال عكرمة، وقتادة، وغير واحد: كان تحته مال مدفون لهما. وهذا ظاهر السياق من الآية، وهو اختيار ابن جرير، رحمه الله.

وقال العوفى عن ابن عباس: كان تحته كنز علم. وكذا قال سعيد بن جبير، وقال مجاهد: صحف فيها علم، وقد ورد فى حديث مرفوع ما يقوى ذلك، قال الحافظ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار فى مسنده المشهور: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى، حدثنا بشر بن المنذر، حدثنا الحارث بن عبد الله اليَحْصَبى، عن عياش[٨] بن عباس القتبانى[٩]، عن ابن حُجَيرة[١٠]، عن

(١) فى ت، ف، أ: «فرضى». (٢) فى ف: «من قضائه له». (٣) فى أ: «للمؤمنين قضاء».
(٤) زيادة من ت. (٥) فى ت: «ابن جرير». (٦) فى ت: «الجار».
(٧) فى ف: «أصلحته». (٨) فى ت، ف، أ: «عباس». (٩) فى أ: «الغسانى».
(١٠) فى هـ: «أبى حجيرة» والصواب ما أثبتناه من مسند البزار.

أبى ذر، رضى الله عنه، [رفعه][(١)] قال: «إن الكنز الذى ذكر[(٢)] اللَّه فى كتابه: لوح من ذهب مصمت مكتوب فيه: عجبت لمن أيقن بالقدر لم نصب[(٣)]؟ وعجبت لمن ذكر النار لم ضَحِك[(٤)]؟ وعجبت لمن ذكر الموت لم غفل؟ لا إله إلا اللَّه، محمد رسول اللَّه»[(٥)].

بشر بن المنذر هذا يقال له: قاضى المصيصة. قال الحافظ أبو جعفر العقيلى: فى حديثه وهم[(٦)].

وقد روى فى هذا آثار عن السلف، فقال ابن جرير فى تفسيره: حدثنى يعقوب، حدثنى الحسن ابن حبيب بن ندبة[(٧)]، حدثنا سلمة[(٨)]، عن نعيم العنبرى ـ وكان من جلساء الحسن ـ قال: سمعت الحسن ـ يعنى البصرى ـ يقول فى قوله: ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا ﴾ قال: لوح من ذهب مكتوب فيه: بسم اللَّه الرحمن الرحيم، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن؟ وعجبت لمن يوقن[(٩)] بالموت كيف يفرح؟ وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها؟ لا إله إلا اللَّه، محمد رسول اللَّه.

وحدثنى يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى عبد اللَّه بن عياش[(١٠)]، عن عُمَر[(١١)] مولى غُفْرَةَ[(١٢)] قال: إن الكنز الذى قال اللَّه فى السورة التى يذكر فيها الكهف: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قال: كان لوحاً من ذهب مُصْمَت مكتوبا فيه: بسم اللَّه الرحمن الرحيم، عجبٌ لمن عرف النار[(١٣)] ثم ضحك! عجبٌ[(١٤)] لمن أيقن بالقدر ثم نصب! عجبٌ لمن أيقن بالموت ثم أمن! أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وحدثنى أحمد بن حازم الغفارى، حدثتنا هَنَّادَة بنت مالك الشيبانية قالت: سمعت صاحبى حماد ابن الوليد الثقفى يقول: سمعت جعفر بن محمد يقول فى قول اللَّه تعالى[(١٥)]: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ قال: سطران ونصف لم يتم الثالث: عجبت للموقن بالرزق كيف يتعب وعجبت للموقن[(١٦)] بالحساب كيف يغفل؟ وعجبت للموقن[(١٧)] بالموت كيف يفرح؟ وقد قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] قالت: وذكر أنهما حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاح، وكان بينهما وبين الأب الذى حفظا به سبعة آباء، وكان نساجاً.

وهذا الذى ذكره هؤلاء الأئمة، وورد به الحديث المتقدم وإن صح، لا ينافى قول عكرمة: إنه كان مالاً لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب، وفيه مال جزيل، أكثر ما زادوا أنه كان مودعاً فيه علم[(١٨)]، وهو حكم ومواعظ، واللَّه أعلم.

وقوله: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته، وتشمل بركة

---

(١) زيادة من ت، ف، أ. (٢) فى ف، أ: «ذكره». (٣) فى ف، أ: «ينصب».
(٤) فى ت، ف: «يضحك»، وفى أ: «ضحك».
(٥) مسند البزار برقم (٢٢٢٩) «كشف الأستار» وقد روى موقوفًا من طرق عن ابن عباس وعلى، رضى الله عنهما، لكن أسانيدها ضعيفة.
(٦) ميزان الاعتدال (٢/ ٣٢٥). (٧) فى ف، أ: «بدنة». (٨) فى ت: «مسلم».
(٩) فى ت، ف: «يؤمن». (١٠) فى أ، ف: «بن عباس». (١١) فى ف: «عن عمرو».
(١٢) فى ف: «عفرة». (١٣) فى ت: «عجبت لمن عرف الموت». (١٤) فى ت: «عجبت».
(١٥) فى ف: «عز وجل». (١٦) فى ت: «للموقف». (١٧) فى ت: «للموتى».
(١٨) فى ف: «علما».

عبادته لهم فى الدنيا والآخرة، بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلى أعلى درجة فى الجنة لتقر عينه بهم، كما جاء فى القرآن ووردت السنة[١] به. قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: حفظا بصلاح أبيهما، ولم يذكر لهما صلاح، وتقدم أنه كان الأب السابع. [فاللّه أعلم][٢].

وقوله: ﴿**فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا**﴾: ههنا أسند الإرادة إلى اللّه تعالى؛ لأن بلوغهما الحلم[٣] لا يقدر عليه إلا اللّه؛ وقال فى الغلام: ﴿**فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ**﴾ وقال فى السفينة: ﴿**فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا**﴾، فاللّه أعلم.

وقوله: ﴿**رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي**﴾ أى: هذا الذى فعلته فى هذه الأحوال الثلاثة، إنما هو من رحمة اللّه بمن ذكرنا من أصحاب السفينة، ووالدى الغلام، وولدى الرجل الصالح، ﴿**وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي**﴾، لكنى أمرت به ووقفت عليه، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخَضر، عليه السلام، مع ما تقدم من[٤] قوله: ﴿**فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا**﴾.

وقال آخرون: كان رسولاً. وقيل: بل كان ملكاً. نقله الماوردى فى تفسيره.

وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن نبياً. بل كان ولياً. فاللّه أعلم.

وذكر ابن قتيبة فى المعارف أن اسم الخضر بَلْيَا بن مَلْكان بن فالغ بن غابر بن شالخ بن أرفخشذ ابن سام بن نوح، عليه السلام[٥].

قالوا: وكان يكنى أبا العباس، ويلقب بالخضر، وكان من أبناء الملوك، ذكره النووى فى تهذيب الأسماء، وحكى هو وغيره فى كونه باقياً إلى الآن ثم إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وابن الصلاح إلى بقائه، وذكروا فى ذلك حكايات وآثاراً عن السلف وغيرهم وجاء ذكره فى بعض الأحاديث. ولا يصح شيء من ذلك، وأشهرها أحاديث[٦] التعزية، وإسناده ضعيف.

ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف ذلك، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ**﴾ [الأنبياء: ٣٤] وبقول النبى ﷺ يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة، لا تعبد في الأرض»[٧]، وبأنه لم ينقل أنه جاء إلى رسول اللّه ﷺ [ولا حضر عنده، ولا قاتل معه. ولو كان حياً لكان من أتباع النبى ﷺ][٨] وأصحابه؛ لأنه عليه السلام[٩] كان مبعوثاً إلى جميع الثقلين: الجنّ والإنس، وقد قال: «لو كان موسى وعيسى حَيَّيْن ما[١٠] وسعهما إلا اتباعى»[١١]، وأخبر قبل موته بقليل: أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تَطْرِفُ، إلى غير ذلك من الدلائل.

---

(١) فى ف: «به السنة».
(٢) زيادة من ف، أ.
(٣) فى ت: «الحكم».
(٤) فى ف: «فى».
(٥) المعارف (ص٤٢).
(٦) فى ت: «حديث».
(٧) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٧٦٣) من حديث عمر، رضى الله عنه.
(٨) زيادة من ف، أ.
(٩) فى أ: «ﷺ».
(١٠) فى ت، ف: «لما».
(١١) ذكره ابن أبى العز فى شرح الطحاوية فى سياقه وعلق عليه الشيخ ناصر الألبانى فى تخريج الطحاوية بقوله: «كذا الأصل، وكأنه يشير إلى الحديث الذى ذكره شيخه ابن كثير فى تفسير سورة الكهف بلفظ: «لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعى». وهو حديث محفوظ، دون ذكر «عيسى» فيه، فإنه منكر عندى لم أره فى شيء من طرقه، وهى مخرجة فى إرواء الغليل برقم (١٥٨٩)».

قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابن المبارك، عن مَعْمَر، عن همام بن مُنَبِّه، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه، عن النبى ﷺ [فى الخَضر قال][١] : « إنما سمى «خضراً»؛ لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هى تحته [تهتز][٢] خضراء »[٣].

ورواه أيضاً عن عبد الرزاق. وقد ثبت أيضاً فى صحيح البخارى، عن همام، عن أبى هريرة، أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إنما سمى الخضِر؛ لأنه جلس على فَرْوَة، فإذا هى تهتز [من خلفه][٤] خضراء»[٥].

والمراد بالفروة ههنا[٦] :الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات ، قاله عبد الرزاق . وقيل: المراد بذلك وجه الأرض .

وقوله: ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ أى: هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً، ولم تصبر حتى أخبرك به ابتداء ، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال :﴿ [مَا لَمْ] [٧]تَسْطِع ﴾ وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلاً فقال: ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ فقابل الأثقل بالأثقل، والأخف، بالأخف، كما قال تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه، ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧]، وهو أشق من ذلك، فقابل كلاً بما يناسبه لفظاً ومعنى، واللَّه أعلم.

فإن قيل : فما بال فتى موسى ذكر فى أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك ؟

فالجواب: أن المقصود بالسياق إنما هو قصة موسى مع الخضر وذكر ما كان بينهما ، وفتى موسى معه تبع، وقد صرح فى الأحاديث المتقدمة فى الصحاح وغيرها أنه يوشع بن نون، وهو الذى كان يلى بنى إسرائيل بعد موسى، عليهما السلام. وهذا يدل على ضعف ما أورده ابن جرير فى تفسيره حيث قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة[٨] ،حدثنى ابن إسحاق، عن الحسن بن عمارة، عن أبيه، عن عكرمة قال: قيل لابن عباس: لم نسمع لفتى موسى بذكر من حديث وقد كان معه؟ فقال ابن عباس فيما يذكر من حديث الفتى قال: شرب الفتى من الماء [فخلد، فأخذه][٩] العالم، فطابق به سفينة ثم أرسله فى البحر، فإنها تموج به إلى يوم القيامة؛ وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب[١٠] .

إسناد ضعيف، والحسن متروك، وأبوه غير معروف .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ

---

(١) زيادة من ف،أ، والمسند. (٢) زيادة من ف، أ، والمسند.

(٣) المسند (٢/٣١٢).

(٤) زيادة من ف، أ، والبخارى.

(٥) صحيح البخارى برقم (٣٤٠٢).

(٦) فى ت: «ههنا بالفروة». (٧) زيادة من ف . (٨) فى ف: «مسلم».

(٩) زيادة من ف ، أ، والطبرى، وفى هـ: «فحار» .

(١٠) تفسير الطبرى (١٥/١٨٢) .

﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) ﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ ﴾ يامحمد ﴿ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ أي: عن خبره. وقد قدمنا أنه بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون[١] منهم ما يمتحنون به النبي ﷺ، فقالوا: سلوه عن رجل طواف في الأرض، وعن فتية لا يدرى ما صنعوا، وعن الروح، فنزلت سورة الكهف.

وقد أورد ابن جرير ههنا، والأموى في مغازيه، حديثاً أسنده وهو ضعيف، عن عقبة بن عامر، أن نفراً من اليهود جاؤوا يسألون النبي ﷺ عن ذي القرنين، فأخبرهم بما جاؤوا له ابتداء، فكان فيما أخبرهم به: «أنه كان شاباً[٢] من الروم، وأنه بنى الإسكندرية، وأنه علا به ملك في السماء، وذهب به إلى السد، ورأى أقواماً وجوههم مثل وجوه الكلاب». وفيه طول ونكارة، ورفعه لا يصح، وأكثر ما فيه أنه من أخبار بني إسرائيل. والعجب أن أبا زُرْعَة الرازي، مع جلالة قدره، ساقه بتمامه في كتابه دلائل النبوة، وذلك غريب منه، وفيه من النكارة أنه من الروم، وإنما الذي كان من الروم الإسكندر الثاني ابن فيليبس المقدوني، الذي تؤرخ به الروم، فأما الأول فقد ذكره الأزرقي وغيره أنه طاف بالبيت مع إبراهيم الخليل، عليه السلام، أول ما بناه وآمن به واتبعه، وكان معه[٣] الخضر، عليه السلام، وأما الثاني فهو، اسكندر بن فيليبس المقدوني اليوناني، وكان وزيره أرسطاطاليس الفيلسوف المشهور، والله أعلم. وهو الذي تؤرخ به من مملكته ملة الروم. وقد كان قبل المسيح، عليه السلام، بنحو من ثلثمائة سنة، فأما الأول المذكور في القرآن فكان في زمن الخليل، كما ذكره الأزرقي وغيره، وأنه طاف مع الخليل بالبيت العتيق لما بناه إبراهيم، عليه السلام، وقرب إلى الله قرباناً، وقد ذكرنا طرفاً[٤] من أخباره في كتاب «البداية والنهاية»[٥]، بما فيه كفاية، ولله الحمد.

قال وهب بن منبه: كان ملكاً، وإنما سمى ذا القرنين لأن؛ صفحتي رأسه كانتا من نحاس، قال: وقال بعض أهل الكتاب: لأنه ملك الروم وفارس. وقال بعضهم: كان في رأسه شبه القرنين، وقال سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي الطفيل قال: سئل علي، رضي الله عنه، عن ذي القرنين، فقال: كان عبداً ناصحَ الله فناصَحَه، دعا قومه إلى الله فضربوه[٦] على قرنه فمات، فأحياه الله، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات، فسمى ذا القرنين.

وكذا رواه شعبة، عن القاسم بن أبي بَزَّة عن أبي الطفيل، سمع علياً يقول ذلك.

ويقال: إنما سمى ذا القرنين؛ لأنه بلغ المشارق والمغارب، من حيث يطلع[٧] قرن الشمس ويغرب.

وقوله: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: أعطيناه ملكاً عظيماً متمكناً، فيه له من جميع ما يؤتى[٨] الملوك، من التمكين والجنود[٩]، وآلات الحرب والحصارات؛ ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض، ودانت له البلاد، وخضعت له ملوك العباد، وخدمته الأمم، من العرب والعجم؛ ولهذا ذكر

---

(١) في ت: «يسألونك».
(٢) في ت: «ماشيا».
(٣) في أ: «وكان وزيره».
(٤) في ف، أ: «طرفا صالحاً».
(٥) البداية والنهاية (٢/ ٩٥).
(٦) في ت، ف، أ: «فضرب».
(٧) في ت، ف: «تطلع».
(٨) في ف: «تؤتى».
(٩) في ف: «من الجنود والتمكن».

بعضهم أنه إنما سمى ذا القرنين؛ لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها .

وقوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والسدى، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: يعنى علماً .

وقال قتادة أيضاً فى قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ قال: منازل الأرض وأعلامها.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ قال: تعليم الألسنة، كان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم .

وقال ابن لَهيعة: حدثنى سالم بن غَيْلان، عن سعيد بن أبى هلال؛ أن معاوية بن أبى سفيان قال[١] لكعب الأحبار: أنت تقول: إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريا ؟ فقال له كعب: إن كنت قلت ذلك، فإن اللَّه تعالى قال: ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾.

وهذا الذى أنكره معاوية، رضى اللَّه عنه، على كعب الأحبار هو الصواب[٢] ،والحق مع معاوية فى الإنكار؛ فإن معاوية كان يقول عن كعب: «إن كنا لنبلو[٣] عليه الكذب» يعنى: فيما ينقله، لا أنه كان يتعمد نقل ما ليس فى صحيفته[٤]، ولكن الشأن فى صحيفته[٥] أنها من الإسرائيليات التي غالبها مبدل مصحف محرف مختلق[٦] ،ولا حاجة لنا مع خبر اللَّه ورسول اللَّه [ﷺ[٧]] إلى شىء منها بالكلية، فإنه دخل منها على الناس شر كثير[٨] ،وفساد عريض. وتأويل كعب قول اللَّه: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ واستشهاده فى ذلك على ما يجده فى صحيفته من أنه كان يربط خيله بالثريا غير صحيح ولا مطابق؛ فإنه لا سبيل للبشر إلى شىء من ذلك، ولا إلى الترقى[٩] فى أسباب السموات. وقد قال اللَّه فى حق بلقيس: ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل:٢٣] أى: مما يؤتى مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين يسر اللَّه له الأسباب، أى: الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرَّسَاتيق والبلاد والأراضى وكسر الأعداء، وكبت ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك. قد أوتى من كل شىء مما[١٠] يحتاج إليه مثله سبباً، واللَّه أعلم.

وفى «المختارة» للحافظ الضياء المقدسى،من طريق قتيبة،عن أبى عوانة،عن سماك بن حرب، عن حبيب بن حماز[١١] قال : كنت عند على، رضى اللَّه عنه، وسأله رجل عن ذى القرنين: كيف بلغ المشارق والمغارب ؟ فقال سبحان اللَّه سخر له السحاب، وقَدَّر له الأسباب، وبسط له اليد[١٢].

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ

(١) فى ت: «يقول» .
(٢) فى أ : «الطنوب» .
(٣) فى أ: «لنتلوا» .
(٤، ٥) فى ف، أ: «صحفه» .
(٦) فى أ: «مخلق».
(٧) زيادة من ف، أ .
(٨) فى ت: «كبير».
(٩) فى ف: «الرقى».
(١٠) فى أ: «ما» .
(١١) فى ت، ف، أ: «حماد» .
(١٢) المختارة برقم (٤٠٩) .

نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا (٨٧) وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا (٨٨) ﴾ .

قال ابن عباس: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ يعني: بالسبب المنزل][1] . وقال مجاهد: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ : منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب.

وفي رواية عن مجاهد: ﴿ سَبَبًا ﴾ قال: طريقا في[2] الأرض .

وقال قتادة: أي اتبع منازل الأرض ومعالمها [3].

وقال الضحاك: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أي: المنازل [4].

وقال سعيد بن جبير في قوله: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ قال: علماً. وهكذا قال عكرمة وعبيد بن يعلى، والسدي.

وقال مطر: معالم وآثار كانت قبل ذلك .

وقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ أي: فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب، وهو مغرب الأرض. وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فمتعذر، وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار في الأرض مدّة والشمس تغرب من ورائه فشيء لا حقيقة له. وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب، واختلاق[5] زنادقتهم وكذبهم[6] .

وقوله: ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ أي: رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله، يراها كأنها تغرب فيه، وهي لا تفارق الفلك الرابع الذي هي مثبتة فيه لاتفارقه[7] .

والحمئة مشتقة على إحدى القراءتين[8] من «الحمأة» وهو الطين، كما قال تعالى: ﴿ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر: ٢٨] أي: طين أملس[9] . وقد تقدم بيانه.

وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب[10]، حدثني نافع بن أبي نعيم، سمعت عبد الرحمن الأعرج يقول: كان ابن عباس يقول[11] ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ثم فسرها: ذات حمأة. قال نافع: وسئل عنها كعب الأحبار فقال: أنتم أعلم بالقرآن مني، ولكني أجدها في الكتاب تغيب في طينة سوداء[12] .

وكذا روى غير واحد عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد وغير واحد.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا محمد بن دينار، عن سعد[13] بن أوس، عن مِصْدَع، عن ابن

---

(١) زيادة من ف ، أ .
(٢) في هـ، ت، ف: «طرفي»، والمثبت من الطبري، أ.
(٣) في ت: «ومغاربها» .
(٤) في ت: «المنزل».
(٥) في ت: «واختلاف» .
(٦) في ف: «وكذبتهم» .
(٧) في ت: «يفارقه» .
(٨) في ت: «على أحد الروايتين» .
(٩) في ت: «إبليس» .
(١٠) في ت: «حدثنا وهب» .
(١١) في ف، أ: «يقرأ» .
(١٢) تفسير الطبري (١٦/ ١٠) .
(١٣) في ت: «سعيد» .

عباس، عن أبيّ بن كعب؛ أن النبى ﷺ أقرأه ﴿حَمِئَة﴾[١] .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: «وجدها تغرب فى عين حامية» يعنى: حارة. وكذا قال الحسن البصرى .

وقال ابن جرير: والصواب أنهما قراءتان مشهورتان، فأيهما قرأ القارئ فهو مصيب[٢] .

قلت: ولا منافاة بين معنييهما، إذ قد تكون حارة لمجاورتها وَهْج الشمس عند غروبها، وملاقاتها الشعاع بلا حائل و﴿حَمِئَة﴾ فى ماء وطين أسود، كما قال كعب الأحبار وغيره .

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا[٣] العوام، حدثني مولى لعبد اللَّه بن عمرو، عن عبد اللَّه قال: نظر رسول اللَّه ﷺ إلى الشمس حين غابت، فقال: «فى نار اللَّه الحامية [فى نار اللَّه الحامية][٤]، لولا ما يزعها من أمر اللَّه، لأحرقت ما على الأرض».

قلت: ورواه الإمام أحمد، عن يزيد بن هارون[٥] . وفى صحة رفع هذا الحديث نظر، ولعله من كلام عبد اللَّه بن عمرو، من زاملتيه اللتين وجدهما يوم اليرموك، واللَّه أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا حجاج بن حمزة، حدثنا محمد ـ يعنى ابن بشر ـ حدثنا عمرو بن ميمون، أنبأنا ابن حاضر، أن ابن عباس ذكر له أن معاوية بن أبى سفيان قرأ الآية التى فى سورة الكهف «تغرب فى عين حامية» قال ابن عباس لمعاوية ما نقرؤها[٦] إلا ﴿حَمِئَة﴾ فسأل معاوية عبد اللَّه ابن عمرو كيف تقرؤها: فقال عبد اللَّه: كما قرأتها. قال ابن عباس: فقلت لمعاوية: فى بيتى نزل القرآن؟ فأرسل إلى كعب فقال له: أين تجد الشمس تغرب فى التوراة ؟ [فقال له كعب: سل أهل العربية، فإنهم أعلم بها، وأما أنا فإنى أجد الشمس تغرب فى التوراة][٧] فى ماء وطين. وأشار بيده إلى المغرب. قال ابن حاضر: لو أنى عندكما أفدتك[٨] بكلام تزداد فيه بصيرة فى حمئة. قال ابن عباس: وإذاً ما هو؟ قلت: فيما يؤثر من قول تُبّع، فيما ذكر به ذا القرنين فى تخلقه بالعلم واتباعه إياه:

بَلَـغَ المشَـــارِقَ والمغَــارِبَ يَبْتَغِـى ... أَسْبَـــابَ أمـــْرٍ مِـنْ[٩] حكيـم مُرْشِــد

فَرَأى مَغيبَ[١٠] الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبها ... فِى عَيْنِ ذِى خلُب وَثَاط[١١] حَرْمَد[١٢] [١٣]

قال[١٤] ابن عباس: ما الخُلَب؟ قلت: الطين بكلامهم. [يعنى بكلام حمير][١٥] . قال: ما الثاط؟

---

(١) مسند الطيالسى برقم (٥٣٦) .

(٢) فى ت: «المصيب» . (٣) فى ت: «حدثنا» . (٤) زيادة من ف،أ، والطبرى.

(٥) المسند (٢/٢٠٧) .

(٦) فى ت: «تقرأها» . (٧) زيادة من ف، أ، والطبرى.

(٨) فى أ: «لأفدتك» . (٩) فى ت: «من أمر». (١٠) فى ت أ: «فوجد مغاب» وفى ف: «فرأى مغاب» .

(١١) فى أ: «وأناط» . (١٢) فى ت: «وقاص»، وفى ف :«وناط» .

(١٣) البيتان فى لسان العرب، مادة (ثأط) وهما لأمية بن أبى الصلت .

(١٤) فى ف: «فقال» . (١٥) زيادة من ت، ف.

قلت: الحمأة. قال: فما الحرْمَد؟ قلت: الأسود. قال: فدعا ابن عباس رجلاً أو غلاماً فقال: اكتب ما يقول هذا الرجل.

وقال سعيد بن جبير: بينا ابن عباس يقرأ سورة الكهف فقرأ: ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ فقال كعب: والذى نفس كعب بيده ما سمعت أحداً يقرؤها كما أنزلت فى التوراة غير ابن عباس، فإنا نجدها فى التوراة: تغرب فى مدرة سوداء.

وقال أبو يعلى الموصلي: حدثنا إسحاق بن أبى إسرائيل، حدثنا هشام بن يوسف قال: فى تفسير ابن جريج ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ قال: مدينة لها اثنا عشر ألف باب، لولا أصوات أهلها لسمع الناس وُجُوب الشمس حين تجب.

وقوله: ﴿ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ أى: أمّة من الأمم، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بنى آدم.

وقوله: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ معنى هذا: أن اللّه تعالى مكنه منهم(١)، وحكمه فيهم، وأظفره بهم(٢) وخيره: إن شاء قتل وسبى، وإن شاء منّ أو فدى(٣). فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه(٤) فى قوله: ﴿ أَمَّا مَن ظَلَمَ ﴾ أى: من استمر على كفره وشركه بربه ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ قال قتادة: بالقتل: وقال السدى: كان يحمى لهم بقر النحاس ويضعهم فيها(٥) حتى يذوبوا. وقال وهب بن منبه: كان يسلط الظلمة، فتدخل أفواههم وبيوتهم، وتغشاهم من جميع جهاتهم، واللّه أعلم.

وقوله(٦): ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ أى: شديداً بليغاً وجيعاً أليماً. وفيه(٧) إثبات المعاد والجزاء.

وقوله: ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ ﴾ أى: تابعنا على ماندعوه إليه من عبادة اللّه وحده لا شريك له ﴿ فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ﴾ أى: فى الدار الآخرة عند اللّه، عز وجل ﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ قال مجاهد: معروفاً.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١) ﴾.

يقول: ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها(٨)، وكان كلما مرّ بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى اللّه عز وجل، فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم آنافهم، واستباح أموالهم، وأمتعتهم واستخدم من كل أمة ما يستعين به مع جيوشه على أهل(٩) الإقليم المتاخم لهم. وذكر فى أخبار بنى إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمائة سنة يجوب(١٠) الأرض طولها والعرض(١١)، حتى بلغ المشارق والمغارب. ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال الله تعالى: ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ

(١) فى ت: «فيهم». (٢) فى ت: «وأظفره عليهم»، وفى ف، أ: «وأظهره عليهم».
(٣) فى ف، أ: «وافتدى». (٤) فى ت: «وثباته». (٥) فى ف: «فيه».
(٦) فى ت: «فقوله». (٧) فى أ: «وفى هذا». (٨) فى ت: «من مطلع الشمس إلى مغربها».
(٩) فى أ: «قتال». (١٠) فى ف، أ: «يخرب». (١١) فى ف، أ: «طولها وعرضها».

قَوْمٍ﴾ أى: أمة **﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾** أى: ليس لهم بناء يكنهم، ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس.

قال سعيد بن جبير: كانوا حُمراً قصاراً، مساكنهم الغيران، أكثر معيشتهم من السمك.

وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا سهل[١] بن أبى الصلت، سمعت الحسن وسئل عن قوله تعالى: **﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾** قال: إن أرضهم[٢] لاتحمل البناء، فإذا طلعت الشمس تغوروا[٣] فى المياه، فإذا غربت خرجوا يتراعون كما ترعى البهائم. قال[٤] الحسن: هذا حديث سمرة[٥].

وقال قتادة: ذكر لنا أنهم بأرض لاتنبت لهم شيئاً، فهم إذا طلعت الشمس دخلوا فى أسراب، حتى إذا زالت[٦] الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم.

وعن سلمة بن كُهَيْل أنه قال: ليس لهم أكنان، إذا طلعت الشمس طلعت عليهم، فلأحدهم أذنان يفترش إحداهما[٧] ويلبس الأخرى.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن قتادة فى قوله: **﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾** قال: هم الزنج[٨].

وقال ابن جريج فى قوله: **﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾** قال: لم يبنوا فيها بناء قط، ولم يبن عليهم فيها بناء قط، كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسراباً لهم[٩] حتى تزول الشمس، أو دخلوا البحر، وذلك أن أرضهم ليس فيها[١٠] جبل، جاءهم جيش مرة فقال لهم أهلها: لا تطلعن عليكم الشمس وأنتم بها. قالوا: لا نبرح حتى تطلع الشمس، ما هذه العظام؟ قالوا: هذه جيفُ جيش طلعت عليهم الشمس ههنا فماتوا. قال: فذهبوا هاربين فى الأرض.

وقوله: **﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾** قال مجاهد، والسدى: علماً، أى: نحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه، لايخفى علينا منها شىء، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض، فإنه تعالى: **﴿لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ﴾** [آل عمران: ٥].

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ

---

(١) فى أ: «سهيل». (٢) فى ت: «أرضيكم». (٣) فى ت: «فقعدوا»، وفى أ: «يغوروا».

(٤) فى ت، ف: «فقال».

(٥) ورواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ١٢) من طريق إبراهيم بن المستمر، عن أبى داود به.

(٦) فى ت: «غربت». (٧) فى ف، أ: «واحدة».

(٨) تفسير عبد الرزاق (١/ ٣٤٦).

(٩) فى ت: «أسرابا بهم». (١٠) فى أ: «بها».

وبينهم ردمًا ﴿٩٥﴾ آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارًا قال آتوني أفرغ عليه قطرًا ﴿٩٦﴾ ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن ذى القرنين: ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ أى: ثم سلك طريقاً من مشارق الأرض ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ وهما جبلان متناوحان بينهما ثُغْرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك، فيعيثون فيهم فساداً، ويهلكون الحرث والنسل، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم، عليه السلام، كما ثبت فى الصحيحين: « إن الله تعالى يقول : يا آدم. فيقول: لبيك وسعديك. فيقول: ابعث بَعْثَ النار. فيقول: وما بَعْثُ النار ؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة؟ فحينئذ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فيقال: إن فيكم أمّتين، ما كانتا فى شيء إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج»[١].

وقد حكى النووى[٢] ،رحمه الله، فى شرح «مسلم» عن بعض الناس: أن يأجوج ومأجوج خلقوا من منى خرج من آدم فاختلط بالتراب، فخلقوا من ذلك[٣] ، فعلى هذا يكونون مخلوقين من آدم، وليسوا من حواء. وهذا قول غريب جداً، [ثم][٤] لا دليل عليه لا من عقل ولا [من][٥] نقل، ولا يجوز الاعتماد ههنا على ما يحكيه بعض أهل الكتاب، لما عندهم من الأحاديث[٦] المفتعلة، والله أعلم .

وفي مسند[٧] الإمام أحمد، عن سَمُرَة؛ أن رسول الله ﷺ قال: « وَلَدُ نوح ثلاثة: سام أبوالعرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك»[٨]. فقال بعض العلماء: هؤلاء من نسل يافث أبى الترك ، قال: [إنما[٩]سموا هؤلاء تركاً؛ لأنهم تركوا من وراء السد من[١٠] هذه الجهة، وإلا فهم أقرباء أولئك، ولكن كان فى أولئك بغى وفساد وجراءة[١١]. وقد ذكر ابن جرير ههنا عن وهب بن منبه أثراً طويلاً عجيباً فى سير ذى القرنين، وبنائه السد، وكيفية ما جرى له، وفيه طول وغرابة ونكارة فى أشكالهم وصفاتهم، [وطولهم][١٢] وقصر بعضهم، وآذانهم[١٣]. وروى ابن أبى حاتم أحاديث غريبة فى ذلك لا تصح [١٤] أسانيدها، والله أعلم .

وقوله: ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ [أى][١٥]: لاستعجام كلامهم وبعدهم

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٣٠) وصحيح مسلم برقم (٢٢٢) من حديث أبى سعيد، رضى الله عنه.
(٢) فى أ: «النواوى».
(٣) شرح النووى (٣/ ٩٧).
(٤) زيادة من ف، أ. (٥) زيادة من ت، ف. (٦) فى ت: «من الأكاذيب».
(٧) فى ف، أ: «المسند».
(٨) المسند (٥/ ٩).
(٩) فى أ: «وإنما». (١٠) فى أ: «فمن». (١١) فى أ: «وجرأة» .
(١٢) زيادة من ف، أ.
(١٣) تفسير الطبرى (١٦/ ١٤).
(١٤) فى ف، أ: «لايصح». (١٥) زيادة من ف، أ.

عن الناس.

﴿ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ قال ابن جريج عن عطاء، عن ابن عباس: أجراً عظيماً، يعنى: أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم ما لا يعطونه إياه، حتى يجعل بينهم وبينهم سداً. فقال ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير: ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ أى: إن الذى أعطانى الله من الملك والتمكين[1] خير لى من الذى تجمعونه، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾ [النمل: ٣٦]. وهكذا قال ذو القرنين: الذى أنا فيه خير من الذى تبذلونه، ولكن ساعدونى ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ أى: بعملكم وآلات البناء، ﴿ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا . آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾، والزبر: جمع زُبْرَة، وهى القطعة منه، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وهى كاللبنة[2]، يقال: كل لبنة [زنة][3] قنطار بالدمشقى، أو تزيد عليه.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ أى: وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً. واختلفوا فى مساحة عرضه وطوله على أقوال. ﴿ قَالَ انفُخُوا ﴾ أى: أجج[4] عليه النار حتى صار كله ناراً، ﴿ قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، والسُّدى: هو النحاس. وزاد بعضهم: المذاب. ويستشهد بقوله تعالى: ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ [سبأ: ١٢] ولهذا يشبه[5] بالبرد المحبر.

قال ابن جرير: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: ذكر لنا أن رجلاً قال: يارسول الله، قد رأيت سد يأجوج ومأجوج، قال: «انعته لى» قال: كالبرد المحبر، طريقة سوداء. وطريقة حمراء. قال: «قد رأيته». هذا حديث مرسل[6].

وقد بعث الخليفة الواثق فى دولته بعض أمرائه، ووجه[7] معه جيشاً سرية، لينظروا إلى السد ويعاينوه وينعتوه له إذا رجعوا. فتوصلوا من بلاد إلى بلاد، ومن مُلْك إلى مُلْك، حتى وصلوا إليه، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس، وذكروا أنهم رأوا فيه باباً عظيماً، وعليه[8] أقفال عظيمة، ورأوا بقية اللبن والعمل فى برج هناك. وأن عنده حرساً[9] من الملوك المتاخمة له، وأنه منيف عال[10] شاهق، لا يستطاع ولا ما حوله من الجبال. ثم رجعوا إلى بلادهم، وكانت غيبتهم أكثر من سنتين،

---

(١) فى أ: «والتمكن». (٢) فى أ: «اللبنة». (٣) زيادة من ف، أ.

(٤) فى ف: «أججوا». (٥) فى أ: «شبه».

(٦) وقد روى موصولاً من طرق: فرواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف(٢/ ٣١٢) من طريق أبى الجماهر ـ سعيد بن بشير ـ عن قتادة، عن رجل، عن أبى بكرة الثقفى: أن رجلا أتى النبى ﷺ فقال: إنى قد رأيته، فذكر نحوه. ورواه البزار فى مسنده كما فى تخريج الكشاف(٢/ ٣١٣) من طريق عبد الملك بن أبى نعامة، عن يوسف بن أبى مريم، عن أبى بكرة بنحوه مطولا. ورواه ابن مردويه أيضًا من طريق سفيان، عن سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن رجل من أهل المدينة أنه قال للنبى ﷺ، فذكر نحوه.

(٧) فى ف، أ: « وجهز». (٨) فى ت: «وعلى». (٩) فى ف، أ: «سرحًا».

(١٠) فى ت، ف، أ: «عالٍ منيف».

وشاهدوا أهوالاً وعجائب.

ثم قال اللَّه تعالى :

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا [١] فوق هذا السد ولا قدروا على نقبه من أسفله. ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاً بما يناسبه فقال: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ وهذا دليل على أنهم لم[٢] يقدروا على نقبه، ولا على شيء منه.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد:

حدثنا روح، حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة، حدثنا أبو رافع، عن أبى هريرة، عن رسول اللَّه ﷺ قال: « إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السد كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً فيعودون إليه كأشد ما كان، حتى إذا بلغت مدتهم وأراد اللَّه أن يبعثهم على الناس[٣] [حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس][٤] قال الذى عليهم: ارجعوا فستحفرونه غداً إن شاء اللَّه. ويستثنى، فيعودون إليه وهو كهيئته[٥] حين تركوه، فيحفرونه ويخرجون[٦] على الناس، فينشفون المياه، ويتحصن الناس منهم فى حصونهم، فيرمون بسهامهم إلى السماء، [فترجع وعليها هيئة الدم، فيقولون: قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء][٧]. فيبعث الله عليهم نغفا[٨] فى أقفائهم، فيقتلهم بها. قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، إن دواب الأرض لتسمن، وتشكر شكرًا من لحومهم ودمائهم»[٩].

ورواه أحمد أيضاً عن حسن ـ هو ابن موسى الأشيب ـ عن سفيان، عن قتادة، به[١٠]. وكذا رواه [١١] ابن ماجه، عن أزهر بن مروان، عن عبد الأعلى، عن سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة قال: حدث أبو رافع. وأخرجه الترمذى، من حديث أبى عوانة، عن قتادة[١٢]. ثم قال: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

---

(١) فى ف، أ: «يصعدوا من».
(٢) فى ت: «لا».
(٣) فى أ: « على النار».
(٤) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٥) فى أ: «كهيئة».
(٦) فى ت: «ويخرجونهم».
(٧) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٨) فى أ: « نغيفا».
(٩) المسند (٢/ ٥١٠).
(١٠) المسند(٢/ ٥١١).
(١١) فى أ: «رواه الإمام».
(١٢) سنن ابن ماجة برقم (٤٠٨٠) وسنن الترمذى برقم (٣١٥٣).

وهذا إسناد قوى، ولكن فى[1] رفعه نكارة؛ لأن ظاهر الآية يقتضى أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ولا من نقبه، لإحكام بنائه وصلابته وشدته. ولكن هذا قد روى عن كعب الأحبار: أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه حتى لا يبقى منه[2] إلا القليل، فيقولون: غداً نفتحه. فيأتون من الغد وقد عاد كما كان، فيلحسونه حتى لا يبقى منه[3] إلا القليل، فيقولون كذلك، ويصبحون وهو كما كان، فيلحسونه ويقولون: غداً نفتحه. ويلهمون أن يقولوا: «إن شاء اللَّه»، فيصبحون وهو كما فارقوه، فيفتحونه. وهذا مُتَّجه، ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب. فإنه كثيراً ما كان يجالسه[4] ويحدثه، فحدث به أبو هريرة، فتوهم[5] بعض الرواة عنه أنه مرفوع، فرفعه، واللَّه أعلم.

ويؤكد ما قلناه[6] ـ من أنهم لم يتمكنوا من نقبه ولا نقب شيء منه، ومن نكارة هذا المرفوع ـ قول الإمام أحمد:

حدثنا سفيان، عن الزهرى، عن عروة، عن [زينب بنت أبى سلمة، عن حبيبة بنت أم حبيبة بنت أبى سفيان، عن أمها أم حبيبة، عن][7] زينب بنت جحش زوج النبى ﷺ- قال سفيان: أربع نسوة - قالت: استيقظ النبى ﷺ من نومه. وهو محمر وجهه، وهو يقول: «لا إله إلا اللَّه! ويل للعرب[8] من شر قد اقترب! فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا». وحَلَّق. قلت: يا رسول اللَّه، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث».

هذا حديث صحيح، اتفق البخارى ومسلم على إخراجه، من حديث الزهرى[9]، ولكن سقط فى رواية البخارى ذكر حبيبة، وأثبتها مسلم. وفيه أشياء[10] عزيزة نادرة قليلة الوقوع فى صناعة[11] الإسناد، منها رواية الزهرى عن عروة، وهما تابعيان ومنها[12] اجتماع أربع نسوة فى سنده، كلهن يروى بعضهن عن بعض. ثم كل منهن صحابية[13]، ثم ثنتان ربيبتان وثنتان زوجتان، رضى اللَّه عنهن.

وقد روى نحو هذا عن أبى هريرة أيضاً، فقال البزار: حدثنا محمد بن مرزوق، حدثنا مُؤمَّل بن إسماعيل، حدثنا وهيب[14]، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «فُتِح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا» وعقد التسعين. وأخرجه البخارى ومسلم من حديث وهيب[15]، به[16].

---

(١) فى ف، أ: «ولكن متنه فى». (٢) فى ف: «فيه». (٣) فى ف، أ: «فيه».
(٤) فى ت: «كان كثيرًا ما يجالسه». (٥) فى ت: «فيقرهم». (٦) فى أ: «قلنا».
(٧) زيادة من ف، أ، والمسند. (٨) فى ت: «للغريب».
(٩) المسند (٦/٤٢٨) وصحيح البخارى برقم (٧١٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٨٠).
(١٠) فى أ: «إسناد». (١١) فى ت: «صياغة». (١٢) فى أ: «وفيما».
(١٣) فى أ: «منهم صاحبيه».
(١٤، ١٥) فى ت: «وهب».
(١٦) صحيح البخارى برقم (٧١٣٦) وصحيح مسلم برقم (٢٨٨١).

وقوله: ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ أى: لما بناه ذو القرنين ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ﴾ أى: بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العيث[١] فى الأرض والفساد. ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ أى: إذا اقترب الوعد الحق ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ أى: ساواه[٢] بالأرض. تقول العرب: ناقة دكاء: إذا كان ظهرها مستوياً لا سنام لها. وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أى: مساوياً للأرض[٣].

وقال عكرمة فى قوله: ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ قال: طريقاً كما كان.

﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ أى: كائناً لا محالة.

وقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ [يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ] [٤] ﴾ أى: الناس يومئذ أى: يوم يدك[٥] هذا السد ويخرج هؤلاء فيموجون فى الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم، وهكذا قال السدى فى قوله: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ قال: ذاك حين يخرجون على الناس. وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال، كما سيأتى بيانه [إن شاء الله تعالى][٦] عند قوله: ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ . وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧] وهكذا قال ههنا: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ قال ابن زيد فى قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ قال: هذا أول يوم القيامة، ﴿وَنُفِخَ[٧] فِي الصُّورِ﴾ على أثر ذلك ﴿ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾.

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أى: يوم القيامة يختلط الإنس والجن.

روى ابن جرير، عن محمد بن حميد، عن يعقوب القمى[٨]، عن هارون بن عنترة، عن شيخ من بنى فزارة[٩] فى قوله: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ قال: إذا ماج الإنس والجن قال إبليس: أنا أعلم لكم علم هذا الأمر. فيظعن إلى المشرق فيجد الملائكة قد بطنوا[١٠] الأرض، ثم يظعن إلى المغرب فيجد الملائكة بطنوا[١١] الأرض، فيقول: «ما من محيص». ثم يظعن يميناً وشمالاً إلى أقصى الأرض فيجد الملائكة بطنوا[١٢] الأرض فيقول: «ما من محيص». فبينما هو كذلك، إذ عرض له طريق كالشراك، فأخذ عليه هو وذريته، فبينما هم عليه إذ هجموا على النار، فأخرج الله خازناً من خزان النار، فقال: يا إبليس، ألم تكن لك المنزلة عند ربك؟! ألم تكن فى الجنان؟! فيقول: ليس هذا يوم عتاب، لو أن الله فرض علىّ فريضة لعبدته فيها عبادة لم يعبده مثلها أحد من

(١) فى أ: «العبث». (٢) فى ت، أ: «واساه». (٣) فى ت: «الأرض».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) فى ت: «بذكر».
(٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى ت: «ينفخ». (٨) فى أ: «العمى». (٩) فى أ: «قرارة».
(١٠ـ ١٢) فى أ: «قد تطبقوا».

خلقه. فيقول: فإن اللَّه قد فرض عليك فريضة. فيقول: ماهى؟ فيقول: يأمرك أن تدخل النار. فيتلكأ عليه، فيقول به وبذريته بجناحيه فيقذفهم فى النار. فتزفر النار[١] زفرة لا يبقى ملك مقرب ولا نبى مُرسل إلا جثا لركبتيه[٢].

وهكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث يعقوب القمى به. رواه من وجه آخر عن يعقوب، عن هارون بن عنترة، عن أبيه، عن ابن عباس: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾ قال: الجن والإنس، يموج بعضهم فى بعض.

وقال الطبرانى: حدثنا عبد اللَّه بن محمد بن العباس الأصفهانى[٣]، حدثنا أبو مسعود أحمد بن الفرات، حدثنا أبو داود الطيالسى، حدثنا المغيرة بن مسلم، عن أبى إسحاق، عن وهب بن جابر، عن عبد اللَّه بن عمرو، عن النبى ﷺ قال: «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم، ولو أرسلوا لأفسدوا على الناس معايشهم، ولن يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً، وإن من ورائهم ثلاث أمم: تاويل، وتايس[٤] ومنسك»[٥].

هذا حديث غريب، بل منكر ضعيف.

وروى النسائى من حديث شعبة عن النعمان بن سالم، عن عمرو بن أوس، عن أبيه، عن جده أوس بن أبى أوس مرفوعاً: «إن يأجوج ومأجوج لهم نساء، يجامعون ما شاؤوا، وشجر يلقحون ما شاؤوا، ولا يموت منهم رجل إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً»[٦].

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِى الصُّورِ﴾: والصور كما جاء فى الحديث: «قرن ينفخ فيه» والذى ينفخ فيه إسرافيل، عليه السلام، كما قد تقدم فى الحديث بطوله، والأحاديث فيه كثيرة.

وفى الحديث عن عطية، عن ابن عباس وأبى سعيد مرفوعاً: «كيف أنعم، وصاحب القَرْن قد التقم القَرْن، وحنى جبهته واستمع متى يؤمر». قالوا: كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا اللَّه ونعم الوكيل، على اللَّه توكلنا»[٧].

وقوله: ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ أى: أحضرنا الجميع للحساب، ﴿قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ. لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

---

(١) فى أ: «جهنم».

(٢) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٣).

(٣) فى ف، أ: «الأصبهانى». (٤) فى ت، ف: «تاريس».

(٥) الحديث فى مسند الطيالسى برقم (٢٢٨٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٨/ ٦): «رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ورجاله ثقات».

تنبيه: وقع فى مجمع الزوائد «تاول وتاريس ومنسك» وعند الطيالسى «تاويل وتاريس وتارليس ومنسك» وفى المطالب العالية «تاويل وتاريس وناسك».

(٦) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٣٤).

(٧) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٤٣١) وقال: «هذا حديث حسن».

﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا (١٠١) أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً (١٠٢) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة: أنه يعرض عليهم جهنم، أى: يبرزها لهم ويظهرها، ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، ليكون ذلك أبلغ فى تعجيل الهم والحزن لهم.

وفى صحيح مسلم، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: « يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك [يجرونها][1]» [2] .

ثم قال مخبراً عنهم : ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي ﴾ أى: تعاموا وتغافلوا وتصاموا[3] عن قبول الهدى واتباع الحق، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] ، وقال ههنا : ﴿وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ أى: لا يعقلون عن الله أمره ونهيه .

ثم قال ﴿ أَفَحَسِبَ[4] الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ أى: اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك، وينتفعون بذلك؟ ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨٢]؛ ولهذا أخبر أنه قد أعدّ لهم جهنم يوم القيامة منزلاً .

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (١٠٦) ﴾ .

قال البخارى: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عَمْرو، عن مُصْعَب قال : سألت أبى ـ يعنى سعد بن أبى وقاص ـ: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾: أهم الحَرُورية؟ قال: لا ، هم اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ، وأما النصارى كفروا بالجنة، وقالوا: لا طعام فيها ولا شراب. والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه. وكان سعد رضى الله عنه، يسميهم الفاسقين[5].

(١) زيادة من ف،أ، ومسلم.
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٢).
(٣) فى أ: «تصامموا» .
(٤) فى ت: «أفحسبتم» وهو خطأ.
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٢٨) .

وقال على بن أبى طالب[(١)] ، والضحاك، وغير واحد: هم الحرورية.

ومعنى هذا عن على، رضى اللَّه عنه: أن هذه الآية الكريمة تشمل الحرورية كما تشمل اليهود والنصارى وغيرهم، لا أنها نزلت فى هؤلاء على الخصوص ولا هؤلاء[(٢)] ، بل هى أعم من هذا؛ فإن هذه الآية مكية قبل خطاب اليهود والنصارى وقبل[(٣)] وجود الخوارج بالكلية، وإنما هى عامة فى كل من عبد اللَّه على غير طريقة مرضية يحسب أنه مصيب فيها، وأن عمله مقبول، وهو مخطئ، وعمله مردود ،كما قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ . تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ [الغاشية: ٢ ـ ٤] وقوله[(٤)] تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾[الفرقان: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩] .

وقال فى هذه الآية الكريمة : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم ﴾ أى :نخبركم ﴿ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾؟ ثم فسرهم فقال : ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة، ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ أى: يعتقدون أنهم على شىء، وأنهم مقبولون محبوبون.

وقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ أى: جحدوا آيات اللَّه فى الدنيا، وبراهينه التى أقام على وحدانيته، وصدق رسله، وكذبوا بالدار الآخرة، ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ أى: لا نثقل موازينهم؛ لأنها خالية عن الخير[(٥)] .

قال البخارى: حدثنا محمد بن عبد اللَّه، حدثنا سعيد بن أبى مريم، أخبرنا المغيرة، حدثنى أبو الزِّناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة، عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «إنه ليأتى الرجل العظيم السمين[(٦)] يوم القيامة، لايزن عند اللَّه جناح بعوضة» وقال: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾». وعن يحيى بن بُكَيْر، عن مغيرة بن عبد الرحمن، عن أبى الزناد، مثله[(٧)] .

هكذا ذكره عن يحيى بن بكير معلقاً[(٨)] . وقد رواه مسلم عن أبى بكر محمد بن إسحاق، عن يحيى بن بكير، به[(٩)] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى، حدثنا أبو الوليد، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن صالح مولى التَّوْأمة، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « يؤتى بالرجل الأكول الشروب العظيم، فيوزن بحبة فلا يزنها». قال: وقرأ: ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾.

وكذا رواه ابن جرير، عن أبى كريب، عن أبى الصلت، عن ابن أبى الزناد، عن صالح مولى

---

(١) فى ت : «طلحة» . (٢) فى أ : «هو» . (٣) فى ت : «وقيل» .
(٤) فى ت، ف، أ: «وقال» . (٥) فى ت : «من الخير» . (٦) فى ت: «السمين العظيم» .
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٧٢٩) .
(٨) فى ت: «مغلقًا» .
(٩) صحيح مسلم برقم (٢٧٨٥) .

التوأمة، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، مرفوعاً [١] فذكره بلفظ البخارى سواء .

وقال أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار: حدثنا العباس بن محمد، حدثنا عون بن عُمَارة [٢]، حدثنا هشام بن حسان، عن واصل، عن عبد اللَّه بن بريدة، عن أبيه قال: كنا عند رسول اللَّه ﷺ، فأقبل رجل من قريش يخطر فى حلة له. فلما قام على النبى ﷺ قال: «يابريدة، هذا ممن لايقيم اللَّه له يوم القيامة وزناً» [٣] .

ثم قال: تفرّد به واصل مولى أبى عنبسة [٤] وعون [٥] بن عُمَارة [٦]، وليس بالحافظ، ولم يتابع عليه. وقد قال ابن جرير أيضًا: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن شمر [٧] ، عن أبى يحيى، عن كعب قال: يؤتى يوم القيامة برجل عظيم طويل، فلا يزن عند اللَّه جناح بعوضة، اقرؤوا : ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [٨] .

وقوله: ﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا ﴾ أى: إنما جازيناهم بهذا الجزاء جهنم، بسبب كفرهم واتخاذهم آيات اللَّه ورسله هزواً، استهزؤوا بهم ، وكذبوهم أشد التكذيب .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً (١٠٨) ﴾ .

يخبر تعالى عن عباده السعداء، وهم الذين آمنوا باللَّه ورسله، وصدقوهم فيما جاؤوا به بأن لهم جنات الفردوس.

قال مجاهد: الفردوس هو: البستان بالرومية .

وقال كعب، والسدى، والضحاك: هو البستان الذى فيه شجر الأعناب.

وقال أبو أمامة [٩] :الفردوس: سرة [١٠] الجنة.

وقال قتادة: الفردوس: ربوة الجنة وأوسطها وأفضلها.

وقد روى هذا مرفوعاً من حديث سعيد بن بشير [١١] ،عن قتادة، عن الحسن، عن سَمُرَة، عن النبى ﷺ: « الفردوس [١٢] :ربوة الجنة، أوسطها وأحسنها» [١٣] .

---

(١) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٩) .

(٢) فى ت: «عامر» .

(٣) مسند البزار برقم (٢٩٥٦) «كشف الأستار».

(٤) فى ت: «مولى عن عبيد»، وفى ف، أ: «مولى أبى عيينة» .

(٥) فى ف، أ: «وعنه عون» . (٦) فى ت : «عامر» . (٧) فى ت: «سمرة» .

(٨) تفسير الطبرى (١٦/ ٢٩) .

(٩) فى ت : «أسامة» . (١٠) فى ت : «شجرة» . (١١) فى ف ، أ: «بشر» .

(١٢) فى ت: «والفردوس» .

(١٣) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٧/ ٢١٣) من طريق أبى الجماهر، عن سعيد بن بشير به .

وهكذا رواه إسماعيل بن مسلم، عن الحسن، عن سمرة مرفوعاً. وروى عن قتادة، عن أنس ابن مالك مرفوعاً بنحوه. وقد نقله[١] ابن جرير، رحمه الله[٢].

وفي الصحيحين: « إذ سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط[٣] الجنة، ومنه تُفَجَّرُ أنهار الجنة »[٤].

وقوله: ﴿ نُزُلاً ﴾ أى: ضيافة، فإن النزل هو الضيافة.

وقوله: ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى: مقيمين ساكنين[٥] فيها، لا يظعنون عنها أبداً، ﴿لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ أى: لا يختارون[٦] غيرها، ولا يحبون سواها، وكما قال الشاعر[٧]:

فَحَلَّتْ سُوَيدا القَلْبِ لاَ أنَا بَاغياً ... سواها ولا عَنْ حُبِّها أتَحوّلُ

وفى قوله: ﴿ لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾ تنبيه على رغبتهم فيها، وحبهم لها، مع أنه قد يتوهم[٨] فيمن هو مقيم فى المكان دائماً أنه يسأمه أو يمله، فأخبر أنهم مع هذا الدوام والخلود السرمدى، لا يختارون عن مقامهم ذلك متحولاً ولا انتقالاً ولا ظعناً[٩] ولا رحلة[١٠] ولا بدلاً[١١].

﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾.

يقول تعالى: قل يا محمد: لو كان ماء البحر مداداً للقلم الذى تكتب[١٢] به كلمات ربى وحكمه وآياته الدالة[١٣] عليه، ﴿ لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ [أى: لفرغ البحر][١٤] قبل أن يفرغ من كتابة ذلك ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ ﴾ أى: بمثل البحر آخر، ثم آخر، وهلم جرا، بحور تمده ويكتب بها، لما نفدت كلمات الله، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[لقمان: ٢٧].

قال الربيع بن أنس: إن مثل علم العباد كلهم فى علم الله كقطرة من ماء البحور[١٥] كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾.

---

(١) فى أ: «ذكر ذلك كله».

(٢) تفسير الطبرى (١٦/ ٣٠) ورواه الترمذى فى السنن برقم (٣١٧٤) من طريق روح بن عبادة، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس، رضى الله عنه، وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) فى ت: «وأوسطه».

(٤) صحيح البخارى برقم (٧٤٢٣).

(٥) فى ف، أ: «ماكثين». (٦) فى ت: «لا تختارون».

(٧) هو النابغة الجعدى، والبيت فى مغنى اللبيب (ص٢٦٥) أ.هـ مستفاداً من حاشية ط ـ الشعب.

(٨) فى أ: «أنه قد توهم». (٩) فى ت: «ضعفا». (١٠) فى أ: «رحيلة».

(١١) فى ت، ف، أ: «بديلا». (١٢) فى ف: «يكتب». (١٣) فى ت، ف، أ: «والدلالات».

(١٤) زيادة من ت، ف، أ. (١٥) فى ت: «البحر».

يقول: لو كان البحر مدادا [لكلمات الله][١]، والشجر كله أقلام[٢]، لانكسرت الأقلام وفنى ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء؛ لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثنى عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه، إن ربنا كما يقول وفوق مانقول[٣]، إن مثل نعيم الدنيا أولها وآخرها فى نعيم الآخرة[٤] كحبة من خردل فى خلال الأرض [كلها][٥].

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾.

روى الطبرانى من طريق هشام بن عمار، عن إسماعيل بن عياش، عن عمرو بن قيس الكوفى، أنه سمع معاوية بن أبى سفيان أنه قال: هذه آخر آية أنزلت[٦].

يقول لرسوله محمد ﷺ[٧]: ﴿ **قُلْ** ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم: ﴿ **إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ** ﴾ فمن زعم[٨] أنى كاذب، فليأت بمثل ماجئت به، فإنى لا أعلم الغيب فيما[٩] أخبرتكم به من الماضى، عما سألتم من قصة أصحاب الكهف، وخبر ذى القرنين، مما هو مطابق[١٠] فى نفس الأمر، لولا ما أطلعنى الله عليه، وأنا أخبركم ﴿ **أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ** ﴾ الذى أدعوكم إلى عبادته، ﴿ **إِلَٰهٌ وَاحِدٌ** ﴾ لا شريك له، ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ** ﴾ أى: ثوابه وجزاءه الصالح، ﴿ **فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا** ﴾، وهو ما كان موافقاً لشرع الله، ﴿ **وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾ وهو الذى يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل. لابد أن يكون خالصاً لله، صواباً[١١] على شريعة رسول الله [ﷺ][١٢]. وقد روى ابن أبى حاتم من حديث معمر، عن عبد الكريم الجزرى، عن طاوس قال: قال رجل: يارسول الله، إنى أقف المواقف أريد وجه الله، وأحب أن يرى موطنى. فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً. حتى نزلت هذه الآية: ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾.

وهكذا أرسل هذا مجاهد، وغير واحد.

وقال الأعمش: حدثنا حمزة أبو عمارة مولى بنى هاشم، عن شَهْر بن حَوْشَب قال: جاء رجل إلى عبادة بن الصامت فقال: أنبئنى عما أسألك عنه: أرأيت رجلاً يصلى، يبتغي وجه الله، ويحب أن يُحْمَد، ويصوم ويبتغي وجه الله، ويحب أن يحمد، ويتصدق ويبتغى وجه الله، ويحب أن يحمد، ويحج ويبتغى وجه الله، ويحب أن يحمد، فقال عبادة: ليس له شيء، إن الله تعالى يقول: «أنا خير شريك، فمن كان له معى شريك[١٣] فهو له كله، لاحاجة لى فيه»[١٤].

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى أ: «والشجر أقلام كلها». (٣) فى ت، أ: «يقول».
(٤) فى أ: «الجنة». (٥) زيادة من ت، ف، أ.
(٦) المعجم الكبير(١٩/ ٣٩٢) وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٤): «رجاله ثقات».
(٧) فى ت، ف، أ: «صلوات الله وسلامه عليه». (٨) فى ف، أ: «يزعم». (٩) فى أ: «مما».
(١٠) فى ت، أ: «المطابق». (١١) فى ت: «صوابًا خالصاً له». (١٢) زيادة من ف، أ.
(١٣) فى أ: «شرك».
(١٤) تفسير الطبرى (١٦/ ٣٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبد اللّه بن الزبير، ثنا كثير بن زيد، عن ربيح بن عبدالرحمن بن أبى سعيد الخدرى، عن أبيه، عن جده قال: كنا نتناوب رسول اللّه ﷺ، فنبيت عنده، تكون[١] له الحاجة، أو يطرقه أمر من الليل، فيبعثنا. فكثر المحتسبون[٢] وأهل النُّوب، فكنا نتحدث، فخرج علينا رسول اللّه ﷺ فقال: « ما هذه النجوى ؟ [ألم أنهكم عن النجوى][٣]». قال: فقلنا: تبنا إلى اللّه، أى نبىّ اللّه، إنما كنا فى ذكر المسيح، وفرقنا منه، فقال: « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندى ؟ » قال: قلنا: بلى. قال: « الشرك الخفى، أن يقوم الرجل يصلى لمكان الرجل »[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا عبد الحميد ـ يعنى ابن بَهْرَام ـ قال: قال شَهْر بن حَوْشَب: قال ابن غنم: لما دخلنا مسجد الجابية أنا وأبو الدرداء، لقينا عبادة بن الصامت، فأخذ يمينى بشماله، وشمال أبى الدرداء بيمينه، فخرج يمشى بيننا ونحن نتناجى، واللّه أعلم بما نتناجى به، فقال عبادة بن الصامت: إن طال بكما عمر أحدكما أو كليكما، لتوشكان[٥] أن تريا الرجل من ثبج المسلمين ـ يعنى من وسط ـ قرأ القرآن على لسان محمد ﷺ فأعاده وأبداه، وأحل حلاله وحرم[٦] حرامه، ونزل عند منازله، لا يَحُورُ فيكم إلا كما يَحُور[٧] رأس الحمار الميت. قال: فبينما نحن كذلك، إذ طلع شداد بن أوس، رضى اللّه عنه، وعوف بن مالك، فجلسا إلينا، فقال شداد: إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « من الشهوة الخفية والشرك». فقال عبادة بن الصامت، وأبو الدرداء: اللهم غفراً. أو لم يكن رسول اللّه ﷺ قد حدثنا أن الشيطان قد يئس أن يعبد فى جزيرة العرب . وأما الشهوة الخفية[٨] فقد عرفناها، هى شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها، فما هذا الشرك الذى تخوفنا به ياشداد؟ فقال شداد: أرأيتكم لو رأيتم رجلاً يصلى لرجل، أو يصوم لرجل، [أو تصدق له، أترون أنه قد أشرك ؟ قالوا: نعم، واللّه إنه من صلى لرجل أو صام له][٩] أو تصدق له، لقد أشرك. فقال شداد: فإنى سمعت رسول اللّه ﷺ [يقول][١٠] : «من صلى يرائى فقد أشرك، ومن صام يرائى فقد أشرك، ومن تصدق يرائى فقد أشرك؟» فقال[١١] عوف بن مالك عند ذلك: أفلا يعمد اللّه إلى ما ابتغى به وجهه من ذلك العمل كله، فيقبل ما خلص له ويدع ما أشرك به؟ فقال شداد عن ذلك: فإنى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : «إن اللّه يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بى، من أشرك بى شيئاً فإن [حَشْده][١٢]عمله قليله وكثيره لشريكه الذى أشرك به، وأنا عنه غنى »[١٣].

طريق [أخرى][١٤] لبعضه: قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحُبَاب، حدثنى عبد الواحد بن زياد، أخبرنا عبادة بن نُسىّ، عن شداد بن أوس، رضى اللّه عنه، أنه بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: شىء سمعته من رسول اللّه ﷺ [يقوله فذكرته][١٥] فأبكانى، سمعت رسول اللّه يقول: « أتخوف على أمتى الشرك والشهوة الخفية ». قلت: يارسول اللّه، أتشرك أمتك [من بعدك؟][١٦] قال: « نعم،

---

(١) فى ت، ف: « تأذن»، وفى أ : «نأذن». (٢) فى أ: «المجسسون».
(٣) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٤) المسند(٣/ ٣٠) وفى إسناده ربيح بن عبد الرحمن قال أحمد: ليس بمعروف، وقال البخارى: منكر الحديث.
(٥) فى أ: «ليوشكان». (٦) فى ت: «فحرم». (٧) فى ت، ف، أ: « لايجوز منكم إلا كما يجوز».
(٨) فى أ : «حفية». (٩، ١٠) زيادة من ف، أ، والمسند. (١١) فى ف، أ: «قال». (١٢) زيادة من ف، أ.
(١٣) المسند (٤/ ١٢٥). (١٤ـ ١٦) زيادة من ف، أ.

أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً، ولا حجراً ولا وثناً، ولكن يراؤون بأعمالهم، والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائماً فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه [١]».

ورواه ابن ماجه من حديث الحسن بن ذَكْوَان، عن عبادة بن نُسيّ، به[٢]. وعبادة فيه ضعف وفى سماعه من شداد نظر .

حديث آخر: قال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا الحسين[٣] بن علىّ بن جعفر الأحمر، حدثنا علىّ ابن ثابت، حدثنا قيس بن[٤] أبى حصين، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: « يقول اللّه يوم القيامة: أنا خير شريك، من [٥] أشرك بى أحداً فهو له كله».

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت العلاء يحدث عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، يرويه عن ربه، عز وجل، أنه قال: « أنا خير الشركاء، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى، فأنا منه برىء، وهو للذى أشرك ». تفرّد به من هذا الوجه [٦].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا لَيْث، عن يزيد ـ يعنى ابن الهاد ـ عن عمرو، عن محمود بن لبيد؛ أن رسول اللّه ﷺ قال: « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر يارسول اللّه ؟قال: « الرياء ، يقول اللّه يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون فى الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء » [٧].

حديث آخر: قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن بكر[٨]، أخبرنا عبد الحميد ـ يعنى ابن جعفر ـ أخبرنى أبى، عن زياد بن ميناء، عن أبى سعيد بن أبى فضالة الأنصارى ـ وكان من الصحابة ـ أنه قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « إذا جمع اللّه الأولين والآخرين ليوم القيامة ليوم لا ريب فيه، نادى مناد: من كان أشرك فى عمل عمله للّه أحداً، فليطلب ثوابه من عند غير اللّه، فإن اللّه أغنى الشركاء عن الشرك ».

وأخرجه الترمذى وابن ماجه،[من حديث محمد بن][٩]بكر [١٠] وهو البُرسانى، به[١١].

حديث آخر : قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عبد الملك، حدثنا بكار، حدثنى أبى - يعنى عبد العزيز بن أبى بكرة[١٢] - عن أبى بكرة، رضى اللّه عنه، قال : قال رسول اللّه ﷺ: « من سمَّع سمَّع اللّه به، ومن راءى راءى اللّه به »[١٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا معاوية، حدثنا شيبان، عن فراس، عن عطية، عن أبى سعيد

(١) فى أ: «صيامه».
(٢) المسند(٤/١٢٣) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٠٥).
(٣) فى ف، أ: «الحسن». (٤) فى أ: «عن». (٥) فى أ: «فمن».
(٦) المسند (٢/٣٠١) ورواه ابن خزيمة فى صحيحه برقم(٩٣٨) من طريق محمد بن جعفر به.
(٧) المسند(٥/٤٢٨) وقال الهيثمى فى المجمع (١/١٠٢): «رجاله رجال الصحيح».
(٨) فى ف، أ: «بكير». (٩) زيادة من ف، أ. (١٠) فى ف، أ: «بكير».
(١١) المسند (٤/٢١٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٥٤) وسنن ابن ماجة برقم (٤٢٠٣).
(١٢) فى ف، أ: «بكر».
(١٣) المسند(٥/٤٥).

الخدرى، عن رسول اللّه ﷺ قال: « من يرائى يرائى اللّه به، ومن يسمع يسمع اللّه به »[١].

حديث آخر: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، حدثنى عمرو بن مرة، قال: سمعت رجلاً فى بيت أبى عبيدة؛ أنه سمع[٢] عبد اللّه بن عمرو يحدث ابن عمر[٣]، أنه سمع رسول اللّه ﷺ يقول: « من سَمَّع الناس بعمله سَمَّع اللّه به، سامع خلقه وصغره وحقره »[قال][٤]: فذرفت عينا عبد اللّه[٥].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا عمرو بن يحيى الأيلى، حدثنا الحارث بن غسان، حدثنا أبوعمران الجونى، عن أنس، رضى اللّه عنه، قال: قال رسول اللّه ﷺ: «تعرض أعمال بنى آدم بين يدى اللّه، عز وجل، يوم القيامة فى صحف مختومة[٦]، فيقول اللّه: ألقوا هذا، واقبلوا هذا، فتقول الملائكة: يارب، واللّه ما رأينا منه إلا خيراً. فيقول: إن عمله كان لغير وجهى، ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهى».

ثم قال الحارث بن غسان: روى عنه جماعة وهو بصرى ليس به بأس[٧].

وقال ابن وهب: حدثنى يزيد بن عياض، عن عبد الرحمن الأعرج، عن عبد اللّه[٨] بن قيس الخزاعى، أن رسول اللّه ﷺ قال: « من قام رياء وسمعة، لم يزل[٩] فى مقت اللّه حتى يجلس»[١٠].

وقال أبو يعلى: حدثنا محمد بن أبى بكر، حدثنا محمد بن دينار، عن إبراهيم الهجرى عن أبى الأحوص، عن عوف[١١] بن مالك، عن ابن مسعود، رضى اللّه عنه، قال: قال رسول اللّه ﷺ: «من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو، فتلك[١٢] استهانة استهان بها ربه، عز وجل»[١٣].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عمرو السَّكونى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا ابن عياش[١٤]، حدثنا عمرو بن قيس الكندى؛ أنه سمع معاوية بن أبى سفيان تلا هذه الآية ﴿ **فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾، وقال: إنها آخر آية نزلت من القرآن[١٥].

---

(١) المسند (٣/ ٤٠).
(٢) فى أ: «ليسمع».
(٣) فى أ: «عمرو».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) المسند(٢/ ١٦٢).
(٦) فى أ: «مختمة».
(٧) مسند البزار برقم (٣٤٣٥) «كشف الأستار».
(٨) فى أ: «عبد الرحمن».
(٩) فى ت، أ: «يزد».
(١٠) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٢٣): «رواه الطبرانى وفيه يزيد بن عياض وهو متروك». وله شاهد من حديث أبى هند الدارى رواه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٧٠).
(١١) فى ت، ف، أ: «عروة».
(١٢) فى أ: «فذلك».
(١٣) مسند أبى يعلى (٩/ ٥٤) وحسنه الحافظ ابن حجر فى المطالب العالية(٣/ ١٨٣) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٢١): «فيه إبراهيم ابن مسلم الهجرى وهو ضعيف».
(١٤) فى ت، أ: «ابن عباس».
(١٥) تفسير الطبرى (١٦/ ٣٢).

وهذا أثر مشكل، فإن هذه الآية [هى][(١)] آخر سورة الكهف. والكهف كلها مكية، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها ما ينسخها[(٢)] ولا يغير حكمها[(٣)]، بل هى مثبتة محكمة، فاشتبه ذلك على بعض الرواة، فروى بالمعنى ما فهمه، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن على بن الحسن بن شقيق، حدثنا النضر بن شميل، حدثنا أبو قُرَّة، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ فى ليلة: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، كان له من نور، من عدن أبين إلى [مكة][(٤)] حَشْوُهُ الملائكة»[(٥)]. غريب جداً.

آخر [تفسير][(٦)] سورة الكهف ولله الحمد[(٧)]

(١) زيادة من أ.
(٢) فى أ: « آية تنسخها ».
(٣) فى ت، ف: «بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) مسند البزار برقم (٣١٠٨) «كشف الأستار»، وأبو قرة الأسدى جهله الذهبى وابن حجر، وقال الذهبى: «تفرد عنه النضر بن شميل». وقال ابن حجر: «أخرج ابن خزيمة حديثه فى صحيحه وقال: لا أعرفه بعدالة ولا جرح».
(٦) زيادة من ت.
(٧) فى ت: «والحمد لله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، غفر الله لمن كتبه ولمن كان سببًا فى كتابته.

تفسير سورة مريم [عليها السلام][(١)]

وهى مكية.

وقد روى محمد بن إسحاق فى السيرة من حديث أم سلمة، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود، فى قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة: أن جعفر بن أبى طالب، رضى اللّه عنه، قرأ صدر هذه السورة على النجاشى وأصحابه [(٢)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كٓهيعٓصٓ (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم فى أول سورة البقرة .

وقوله: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ أى :هذا ذكر رحمة الله بعبده زكريا.

وقرأ يحيى بن يعمر «ذَكَّرَ رحمة ربك عَبْدَهُ زَكَرِيَّا».

[و][(٣)]﴿زَكَرِيَّا﴾: يمد ويقصر قراءتان مشهورتان. وكان نبياً عظيماً من أنبياء بنى إسرائيل. وفى صحيح البخارى: أنه كان نجارًا، أى: كان يأكل من عمل يديه فى النجارة .

وقوله: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾: قال بعض المفسرين: إنما أخفى دعاءه، لئلا ينسب فى طلب الولد إلى الرعونة لكبره . حكاه الماوردى.

وقال آخرون: إنما أخفاه لأنه أحب إلى اللّه. كما قال قتادة فى هذه الآية ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾: إن اللّه يعلم القلب التقى[(٤)] ، ويسمع الصوت الخفى.

وقال بعض السلف: قام من الليل، عليه السلام، وقد نام أصحابه، فجعل يهتف بربه يقول خفية: يارب، يارب، يارب فقال اللّه: لبيك، لبيك، لبيك.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ أى :ضعفت[(٥)] وخارت القوى ، ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ أى:

(١) زيادة من ت، ف، أ.

(٢) رواه الإمام أحمد من حديث أم سلمة (٥/ ٢٩٠) ومن حديث ابن مسعود (١/ ٤٦١).

(٣) زيادة من ت، ف. (٤) فى ت: «النقى». (٥) فى ت ،ف: «ضعف».

اضطرم المشيب فى السواد، كما قال ابن دُرَيد فى مقصورته [(١)]:

إمَّا[(٢)] تَرَىْ رأسِى حَاكىَ لونُهُ طُرَّةَ صُبْـحٍ تَحتَ أَذْيَـالِ الدُّجَـى
واشْتَعَلَ المُبْيَـضُ فـى مُسْوَدّه مِثْلَ اشتِعَالِ النَّارِ فى جَمر[(٣)] الغَضَا

والمراد من هذا: الإخبار عن الضعف والكبر، ودلائله الظاهرة والباطنة.

وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أى: ولم أعهد منك إلا الإجابة[(٤)] فى الدعاء، ولم تردنى قط فيما سألتك.

وقوله: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾: قرأ الأكثرون بنصب «الياء» من ﴿الْمَوالِى﴾ على أنه مفعول ، وعن الكسائى أنه سكن الياء، كما قال الشاعر :

كَأَنَّ أَيْديهنّ فى القَاعِ الفَرِقْ أيدى جَوَارٍ يَتَعَاطَيْنَ الوَرِقْ[(٥)]

وقال الآخر :

فَتَى لو يُبَارِى الشَّمسَ أَلْقَتْ قِنَاعَها أو القَمَرَ السَّارى لأَلْقَى المَقَالِدَا

ومنه قول أبى تمام حبيب بن أوس الطائى :

تَغَاير الشّعرُ فيه[(٦)] إذ سَـهِـرت لَهُ حَتَّى ظَنَنْتُ قَـوافيه سَتقـتتلِ[(٧)]

وقال مجاهد، وقتادة، والسدى: أراد بالموالى العصبة. وقال أبو صالح: الكلالة.

وروى عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضى اللَّه عنه، أنه كان يقرؤها: «وإنى خَفَّت الموالى من ورائى» بتشديد «الفاء» بمعنى: قلت عصباتى[(٨)] من بعدى.

وعلى القراءة الأولى، وجه خوفه أنه خشى أن يتصرفوا [من][(٩)] بعده فى الناس تصرفاً سيئاً، فسأل اللَّه ولداً، يكون نبياً من بعده، ليسوسهم بنبوته وما يوحى إليه. فأجيب فى ذلك، لا أنه خشى من وراثتهم له ماله، فإن النبى أعظم منزلة وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلي ما هذا حده[(١٠)] أن يأنف[(١١)] من وراثة عصباته[(١٢)] له، ويسأل أن يكون له ولد، فيحوز[(١٣)] ميراثه دونه دونهم. **هذا وجه.**

الثانى: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجارا يأكل من كسب[(١٤)] يديه، ومثل هذا لا يجمع مالاً ولا سيما الأنبياء، عليهم السلام، فإنهم كانوا أزهد شىء فى الدنيا.

الثالث: أنه قد ثبت فى الصحيحين من غير وجه: أن رسول اللَّه ﷺ قال: « لا نُورَث ، ما

(١) انظر: شرح مقصورة ابن دريد (ص ٢) . ا. هـ. مستفاداً من حاشية ط ـ الشعب.
(٢) فى أ: «ما». (٣) فى ت، ف، أ: «جزل». (٤) فى أ: «إجابة».
(٥) الرجز فى اللسان مادة (فرق) غير منسوب.
(٦) فى ت: «منه».
(٧) البيت فى ديوان أبى تمام (٢٢٧) أ. هـ. مستفادًا من حاشية ط ـ الشعب.
(٨) فى أ: «عصابتى». (٩) زيادة من ت، ف. (١٠) فى أ: « حسده».
(١١) فى أ: «يأتنف». (١٢) فى أ : «عصابته». (١٣) فى ف، أ: «ليجوز».
(١٤) فى أ: «من عمل».

تركنا فهو صدقة»[١]. وفى رواية عند الترمذى بإسناد صحيح: «نحن معشر الأنبياء لا نورث»[٢]. وعلى[٣] هذا فتعين حمل قوله: ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي ﴾ على ميراث النبوة؛ ولهذا قال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾، كما قال تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ [النمل: ١٦] أى: فى النبوة ؛ إذ لو كان فى المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان فى الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر فى جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويثبته[٤] ما صح فى الحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا فهـو صدقة».

قال مجاهد فى قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ [قال][٥]: كان وراثته علماً وكان زكريا من ذرية يعقوب .

وقال هشيم: أخبرنا إسماعيل بن أبى خالد، عن أبى صالح فى قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ قال: [قد][٦] يكون نبياً كما كانت آباؤه أنبياء.

وقال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، عن الحسن: يرث نبوته وعلمه.

وقال السُّدِّى: يرث نبوتى ونبوة آل يعقوب.

وعن مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ قال: نبوتهم.

وقال جابر بن نوح ويزيد بن هارون، كلاهما عن إسماعيل بن أبى خالد، عن أبى صالح فى قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ قال: يرث مالى، ويرث من آل يعقوب النبوة.

وهذا اختيار ابن جرير فى تفسيره.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا[٧] معمر، عن قتادة: أن رسول الله[٨] ﷺ قال: «يرحم اللَّه زكريا، وما كان عليه من ورثة، ويرحم اللَّه لوطاً، إن كان ليأوى إلى ركن شديد»[٩].

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا جابر بن نوح، عن مبارك ـ هو[١٠] ابن فضالة ـ عن الحسن قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «رحم اللَّه أخى زكريا، ما كان عليه من ورثة ماله حين يقول: ﴿هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا . يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾»[١١].

---

(١) جاء من حديث عائشة، وأبى بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وطلحة، وعثمان بن عفان، والزبير بن العوام أما حديث عائشة فرواه البخارى: (٦٧٣٠) ومسلم برقم (١٧٥٨). وأما حديث أبو بكر فرواه البخارى برقم (٣٧/١) ومسلم برقم (١٧٥٩). وأما حديث عمر بن الخطاب وعثمان وطلحة والزبير، فرواه البخارى برقم (٣٠٩٤، ٦٧٢٨، ٧٣٠٥) ومسلم برقم (١٧٥٧).

(٢) لم أجده فى سنن الترمذى المطبوع بهذا اللفظ. وانظر كلام الحافظ ابن حجر عن هذه الرواية والوجوه التى تحمل عليها فى الفتح (٨/١٢).

(٣) فى ف: «فعلى».

(٤) فى أ: «ونبينه».

(٥) زيادة من ف.

(٦) زيادة من ف،أ.

(٧) فى ت: «حدثنا».

(٨) فى ف،أ: «أن النبى».

(٩) تفسير عبد الرزاق (٥/٢) وقد وصل طرفه الثانى: «يرحم الله لوطًا لقد كان يأوى إلى ركن شديد». الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ٣٥٠) من طريق الزهرى عن سعيد وأبى سلمة عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(١٠) فى ف: «وهو».

(١١) تفسير الطبرى (٣٧/١٦).

وهذه مرسلات لاتعارض الصحاح، واللَّه أعلم .

وقوله: ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ أى مرضياً عندك وعند خلقك، تحبه وتحببه إلى خلقك فى دينه وخلقه .

﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧) ﴾ .

هذا الكلام يتضمن محذوفاً، وهو أنه أجيب إلى ما سأل فى دعائه فقيل[له][١] : ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ ﴾، كما قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ . فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [آل عمرن: ٣٨، ٣٩].

وقوله: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾: قال قتادة، وابن جريج، وابن زيد: أى لم يسم أحد قبله بهذا الاسم، واختاره ابن جرير، رحمه اللَّه.

وقال مجاهد: ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ أى: شبيهاً.

أخذه من معنى قوله: ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥] أى: شبيهاً.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى لم تلد العواقر قبله مثله.

وهذا دليل على أن زكريا، عليه السلام، كان لا يولد له، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها، بخلاف إبراهيم وسارة، عليهما السلام، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق على كبرهما[٢] لا لعقرهما[٣] ؛ ولهذا قال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾ [الحجر: ٥٤] مع أنه كان قد ولد له قبله[٤]، إسماعيل بثلاث عشرة سنة وقالت امرأته: ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ . قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود: ٧٢، ٧٣].

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) ﴾ .

هذا تعجب من زكريا، عليه السلام، حين أجيب إلى ما سأل، وبُشِّر بالولد، ففرح فرحاً شديداً، وسأل عن كيفية ما يولد له، والوجه الذى يأتيه منه الولد، مع أن امرأته [كانت][٥] عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها، ومع أنه قد كبر وعتا، أى عسا عظمه ونحل[٦] ولم يبق فيه لقاح ولاجماع.

تقول العرب للعود إذا يبس: «عَتَا يَعْتو عِتيا وعُتُوا، وعَسَا يَعْسو عُسوا وعِسيا».

(١) زيادة من ف،أ. (٢) فى أ: «لكبرهما». (٣) فى أ: «لا لعقرها».
(٤) فى ت، أ: «أنه قد كان ولد له قبل»، وفى ف: «أنه كان ولد له قبل». (٥) زيادة من ف،أ. (٦) فى أ: «وقحل».

وقال مجاهد: ﴿عتيًا﴾ بمعنى: نحول [(١)] العظم.

وقال ابن عباس وغيره. ﴿عتيًا﴾ يعنى: الكبر.

والظاهر أنه أخص من الكبر.

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا هُشَيْم، أخبرنا حُصَيْن، عن عِكْرمة، عن ابن عباس قال: لقد علمت السنة كلها، غير أنى لا أدرى أكان رسول الله ﷺ يقرأ فى الظهر والعصر أم لا؟ ولا أدرى كيف كان يقرأ هذا الحرف: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ أو ﴿عسيًا﴾.

ورواه الإمام أحمد عن سُرَيْج [(٢)] بن النعمان، وأبو داود، عن زياد بن أيوب، كلاهما عن هشيم، به.

﴿قَالَ﴾ أى الملك مجيباً لزكريا عما استعجب منه: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أى: إيجاد الولد منك ومن زوجتك هذه لا من غيرها ﴿هَيِّنٌ﴾ أى: يسير سهل على الله.

ثم ذكر له ما هو أعجب مما سأل عنه، فقال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن زكريا، عليه السلام، أنه ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾ أى: علامة ودليلاً على وجود ما وعدتنى، لتستقر نفسى ويطمئن قلبى بما وعدتنى كما قال إبراهيم، عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ الآية [البقرة: ٢٦٠]. ﴿قَالَ آيَتُكَ﴾ أى: علامتك ﴿أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أى: أن تحبس [(٤)] لسانك عن الكلام ثلاث ليال وأنت صحيح سوى من غير مرض ولا علة [(٥)].

قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، ووهب [ابن منبه] [(٦)]، والسدى وقتادة وغير واحد: اعتقل لسانه من غير مرض.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أى: متتابعات.

والقول الأول عنه وعن الجمهور أصح [(٧)]، كما قال تعالى فى [أول] [(٨)] آل عمران: ﴿قَالَ رَبِّ

---

(١) فى أ: «يعنى قحول».

(٢) فى ف، أ: «شريح».

(٣) تفسير الطبرى (١٦/٣٩)، والمسند (١/٢٤٩) وسنن أبى دوذ برقم (٨٠٩).

(٤) فى ف: «تحتبس». (٥) فى أ: «وعلامة». (٦) زيادة من ت، ف، أ.

(٧) فى ف، أ: «واضح». (٨) زيادة من أ.

اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ [آل عمران: ٤١].

وقال مالك، عن زيد بن أسلم: ﴿ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ من غير خرس.

وهذا دليل على أنه لم يكن يكلم الناس فى هذه الليالى الثلاث وأيامها ﴿إِلاَّ رَمْزًا ﴾ أى: إشارة؛ ولهذا قال فى هذه الآية الكريمة: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ ﴾ أى: الذى بشر فيه بالولد، ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ أى: أشار إشارة خفية سريعة: ﴿أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أى: موافقة له فيما أمر به فى هذه الأيام الثلاثة زيادة على أعماله، وشكراً للّه على ما أولاه.

قال مجاهد: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ أى: أشار. وبه قال وهب، وقتادة.

وقال مجاهد فى رواية عنه: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ أى: كتب لهم فى الأرض. كذا قال السدى.

﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا(١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥) ﴾.

وهذا أيضاً تضمن(١) محذوفاً، تقديره: أنه وجد هذا الغلام المبشر به، وهو يحيى، عليه السلام، وأن اللّه علمه الكتاب، وهو التوراة التى كانوا يتدارسونها بينهم، ويحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار. وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً، فلهذا نوه بذكره، وبما أنعم به عليه وعلى والديه، فقال: ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ أى: تعلم الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ ﴾ أى: بجد وحرص واجتهاد ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أى: الفهم والعلم والجد والعزم، والإقبال على الخير، والإكباب عليه، والاجتهاد فيه وهو صغير حدث [السن](٢).

قال عبد اللّه بن المبارك: قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب. قال: ما للعب خلقت (٣)، قال: فلهذا أنزل اللّه: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

وقوله: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ يقول: ورحمة من عندنا. وكذا قال عكرمة، وقتادة، والضحاك وزاد: لايقدر عليها غيرنا. وزاد قتادة: رُحِم بها زكريا.

وقال مجاهد: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾: وتعطفاً من ربه عليه.

وقال عكرمة: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا ﴾ [قال: محبة عليه. وقال ابن زيد: أما الحنان فالمحبة. وقال عطاء بن أبى رباح: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾](٤)، قال: تعظيماً من لدنا(٥).

---

(١) فى أ: «يضمن». (٢) زيادة من أ. (٣) فى ف، أ: «خلقنا».
(٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى أ: «الدنيا».

وقال ابن جريج: أخبرنى عمرو بن دينار، أنه سمع عكرمة عن ابن عباس قال: لا واللَّه ما أدرى[١] ما حناناً .

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير، عن منصور: سألت سعيد بن جبير عن قوله: ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾، فقال: سألت عنها عباس، فلم يحر[٢] فيها شيئاً .

والظاهر من هذا السياق أن: ﴿وَحَنَانًا [مِّن لَّدُنَّا][٣] ﴾معطوف على قوله: ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ أى: وآتيناه الحكم وحناناً، ﴿وَزَكَاةً﴾ أى: وجعلناه ذا حنان وزكاة، فالحنان هو المحبة فى شفقة وميل كما تقول العرب: حنّت الناقة على ولدها، وحنت المرأة على زوجها. ومنه سميت المرأة «حَنَّة» من الحَنَّة، وحن الرجل إلى وطنه، ومنه التعطف والرحمة، كما قال الشاعر[٤]:

تَحَنَّنْ[٥] عَلَى هَدَاكَ المليكُ فإنَّ لِكُل مَقام مَقَالا

وفى المسند للإمام أحمد، عن أنس، رضى اللَّه عنه، أن[٦] رسول اللَّه ﷺ قال: «يبقى رجل فى النار ينادى ألف سنة: ياحنان يامنان»[٧].

وقد يُثنَّى[٨]، ومنهم من يجعل ما ورد من[٩] ذلك لغة بذاتها، كما قال طرفة :

أَبَا مُنْذر أفنيتَ فاستْبق بَعْضنَا حَنَانْيكَ بَعْض الشَّر أهْونُ مِنْ بَعْض[١٠]

وقوله: ﴿وَزَكَاةً﴾ معطوف على﴿وَحَنَانًا ﴾ فالزكاة الطهارة من الدنس والآثام والذنوب.

وقال قتادة: الزكاة[١١] العمل الصالح.

وقال الضحاك وابن جريج: العمل الصالح الزكى .

وقال العوفيين ابن عباس: ﴿وَزَكَاةً﴾ [قال: بركة][١٢] ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا﴾: طهر، فلم يعمل بذنب.

وقوله: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾: لما ذكر تعالى طاعته لربه، وأنه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقى، عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما، ومجانبته[١٣] عقوقهما، قولاً وفعلاً [وأمراً][١٤] ونهياً؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾. ثم قال بعد هذه الأوصاف الجميلة جزاء له على ذلك: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ أى: له الأمان فى هذه الثلاثة الأحوال.

وقال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الخلق فى ثلاثة مواطن: يوم يولد، فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم. ويوم يبعث، فيرى نفسه فى محشر عظيم. قال: فأكرم اللَّه فيها يحيى بن زكريا فخصه بالسلام عليه، فقال: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ

(١) فى ت، أ: «لا أدرى». (٢) فى ف، أ: «يخبر». (٣) زيادة من ف، أ.
(٤) هو الحطيئة، والبيت فى اللسان، مادة «حنن». (٥) فى أ: «تعطف». (٦) فى ت، ف، أ: «عن».
(٧) المسند (٣/ ٢٣٠).
(٨) فى أ: «يعنى». (٩) فى أ: «فى».
(١٠) البيت فى ديوانه (ص ٢٠٨) أ.هـ مستفادًا من حاشية ط ـ الشعب.
(١١) فى ت: «والزكاة».
(١٢) زيادة من ف،أ. (١٣) فى ف: «ومجانبة». (١٤) زيادة من أ.

يُبْعَثُ حَيًّا ﴾. رواه ابن جرير عن أحمد بن منصور المروزى عن صدقة بن الفضل عنه.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معْمر، عن قتادة ،فى قوله: ﴿جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾، قال: كان ابن المسيب يذكر قال: قال النبى ﷺ: « ما من أحد يلقى اللَّه يوم القيامة إلا ذا ذنب، إلا يحيى بن زكريا ». قال قتادة ما أذنب ولا همّ بامرأة ، مرسل[1].

وقال محمد بن إسحاق،عن يحيى بن سعيد،عن سعيد بن المسيب، حدثنى ابن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ قال[2]: « كل بنى آدم يأتى يوم القيامة وله ذنب، إلا ما كان من يحيى بن زكريا»[3] ابن إسحاق هذا مدلس ،وقد عنعن هذا الحديث، فاللَّه أعلم .

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أخبرنا على بن زيد، عن يوسف بن مِهْران، عن ابن عباس، أن رسول اللَّه ﷺ قال : « ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ، أو همَّ بخطيئة، ليس يحيى بن زكريا، وما ينبغى لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى»[4].

وهذا أيضاً ضعيف ؛لأن على بن زيد بن جدعان له منكرات كثيرة، واللَّه أعلم.

وقال سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة: أن حسن قال: إن يحيى وعيسى، عليهما السلام، التقيا، فقال له عيسى: استغفر لى،أنت خير منى . فقال له الآخر:استغفر لى فأنت[5] خير منى. فقال له عيسى: أنت خير منى، سَلَّمتُ على نفسى، وسلم اللَّه عليك، فَعرُف واللَّه فضلهما .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١) ﴾ .

لما ذكر تعالى قصة زكريا، عليه السلام، وأنه أوجد منه، فى حال كبره وعقم زوجته، ولداً زكياً طاهراً مباركاً ـ عطف بذكر قصة مريم فى إيجاده ولدها عيسى، عليهما[6] السلام، منها من غير أب، فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة[7]؛ ولهذا ذكرهما فى آل عمران وههنا وفى سورة الأنبياء، يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما فى المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمة سلطانه، وأنه على ما يشاء

---

(١) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٧).

(٢) فى ت: «أنه قال».

(٣) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٤٤) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٧٣) من طريق محمد بن إسحاق به، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» ووفقه الذهبى، ورجح أبو حاتم وقفه، وقال لابنه: «لا يرفعون هذا الحديث».

(٤) المسند (١/ ٢٥٤).

(٥) فى أ: «أنت». (٦) فى ف، أ : «عليه». (٧) فى أ: «ومتشابهة».

قادر[١] ، فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ وهى مريم بنت عمران، من سلالة داود، عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب فى بنى إسرائيل. وقد ذكر اللَّه تعالى قصة ولادة أمّها لها فى« آل عمران»، وأنها نذرتها محررة، أى: تخدم[٢] مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] ونشأت فى بنى إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت[٣] إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة[٤] والتبتل والدؤوب، وكانت فى كفالة زوج أختها ـ وقيل: خالتها ـ زكريا نبى بنى إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم، الذى يرجعون إليه فى دينهم. ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره، ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] فذكر أنه كان يجد عندها ثمر[٥] الشتاء فى الصيف وثمر[٦] الصيف فى الشتاء، كما تقدم بيانه فى« آل عمران». فلما أراد اللَّه تعالى ـ وله الحكمة والحجة البالغة ـ أن يُوجد منها عبده ورسوله عيسى، عليه السلام، أحد الرسل أولى العزم الخمسة العظام، ﴿انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ أى: اعتزلتهم وتنحت عنهم، وذهبت إلى شرق المسجد المقدس.

قال السدى: لحيض أصابها. وقيل لغير ذلك. قال أبو كُدَيْنَة، عن قابوس بن أبي ظِبْيان، عن أبيه، عن ابن عباس قال: إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه، وما صرفهم عنه إلا قيل ربك: ﴿فَانتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾، قال: خرجت مريم مكاناً شرقياً، فصلوا قبل مطلع الشمس. رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا إسحاق بن شاهين، حدثنا خالد بن عبد اللَّه، عن داود، عن عامر، عن ابن عباس قال: إنى لأعلم خلق اللَّه لأى شىء اتخذت النصارى المشرق قبلة؛ لقول اللَّه تعالى[٧]: ﴿فَانتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ واتخذوا[٨] ميلاد عيسى قبلة[٩].

وقال قتادة: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾: شاسعاً متنحياً.

وقال محمد بن إسحاق: ذهبت بقلتها تستقى [من][١٠] الماء.

وقال نَوْف البِكَالِّى: اتخذت لها منزلاً تتعبد فيه. فاللَّه[١١] أعلم.

وقوله: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أى: استترت منهم وتوارت، فأرسل اللَّه تعالى إليها جبريل، عليه السلام، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أى: على صورة إنسان تام كامل.

قال مجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن جُرَيْج[١٢]، ووهب بن مُنَبِّه، والسُّدِّى فى قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يعنى: جبريل، عليه السلام.

---

(١) فى ت، أ: «قدير».
(٢) فى أ: «لخدمة».
(٣) فى ت: «وكانت».
(٤) فى ت: «والعظمة».
(٥ ، ٦) فى أ: «ثمرة».
(٧) فى ت: «لقول الله عز وجل»، وفى ف: «لقوله».
(٨) فى أ: «فاتخذوا».
(٩) تفسير الطبرى (١٦/ ٤٥).
(١٠) زيادة من ت، ف، أ.
(١١) فى ت: «والله».
(١٢) فى ت: «وابن جرير».

وهذا الذى قالوه هو ظاهر القرآن؛ فإنه تعالى قد قال فى الآية الأخرى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ. عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤].

وقال أبو جعفر الرازى(١)، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أبى بن كعب قال: إن روح عيسى، عليه السلام، من جملة الأرواح التى أخذ عليها العهد فى زمان آدم، وهو الذى تمثل لها بشراً سوياً، أى: روح عيسى، فحملت الذى خاطبها وحل فى فيها.

وهذا فى غاية الغرابة والنكارة، وكأنه إسرائيلى.

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أى: لما تَبَدى لها الملك فى صورة بشر، وهى(٢) فى مكان منفرد وبينها وبين قومها حجاب، خافته وظنت أنه يريدها على نفسها، فقالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أى: إن كنت تخاف اللّه. تذكير(٣) له باللّه، وهذا هو المشروع فى الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل، فخوفته أولاً باللّه، عز وجل.

قال ابن جرير: حدثنى أبو كُرَيْب، حدثنا أبو بكر، عن عاصم قال: قال أبو وائل ـ وذكر قصة مريم ـ فقال: قد علمت أن التقى ذو نُهْيَة حين قالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا. قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أى: فقال لها الملك مجيباً لها ومزيلاً ما(٤) حصل عندها من الخوف على نفسها: لست مما تظنين، ولكنى رسول ربك، أى: بعثنى إليك، ويقال: إنها لما ذكرت الرحمن انتفض جبريل فرقا(٥) وعاد إلى هيئته وقال: «إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاماً زكيا».

[هكذا قرأ أبو عمرو بن العلاء أحد مشهورى القراء. وقرأ الآخرون: ﴿لأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا﴾](٦) وكلا القراءتين له وجه حسن، ومعنى صحيح، وكل تستلزم(٧) الأخرى.

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أى: فتعجبت مريم من هذا وقالت: كيف يكون لى غلام؟ أى: على أى صفة يوجد هذا الغلام منى، ولست بذات زوج، ولايتصور منى الفجور؛ ولهذا قالت: ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾. والبغى: هى الزانية؛ ولهذا جاء فى الحديث نهى عن مهر البغى. ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أى: فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت: إن اللّه قد قال: إنه سيوجد منك غلاماً، وإن لم يكن لك بعل ولا توجد(٨) منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قادر(٩)؛ ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أى: دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم وخالقهم، الذى نوع(١٠) فى خلقهم، فخلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه فلا إله غيره ولا رب سواه.

وقوله: ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أى ونجعل(١١) هذا الغلام رحمة من اللّه نبياً من الأنبياء يدعو إلى عبادة

---

(١) فى أ: «وقال أبو جعفر الرازى عن أبيه».
(٢) فى ت، ف، أ: «وهو».
(٣) فى أ: «تذكر».
(٤) فى أ: «لما».
(٥) فى ف، أ: «فزعًا».
(٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى أ: «يستلزم».
(٨) فى ت ،ف، أ: «ولا يوجد».
(٩) فى أ: «قدير».
(١٠) فى ت، ف، أ: «تنوع».
(١١) فى ت، ف، أ: «ويجعل».

اللَّه تعالى وتوحيده، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦] أي: يدعو إلى عبادة الله ربه في مهده[١] وكهولته.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبد الرحيم بن إبراهيم ـ دُحَيْمُ ـ حدثنا مروان، حدثنا العلاء بن الحارث الكوفي، عن مجاهد قال: قالت مريم، عليها السلام: كنت إذا خلوت حدثني عيسى وكلمني وهو في بطني، وإذا كنت مع الناس سبح في بطني وكبر .

وقوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم اللَّه تعالى وقدره ومشيئته. ويحتمل أن يكون من خبر اللَّه تعالى لرسوله محمد ﷺ وأنه كنى بهذا عن النفخ في فرجها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وقال: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

قال محمد بن إسحاق: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: أن اللَّه قد عزم على هذا، فليس منه بد، واختار هذا أيضاً ابن جرير في تفسيره، ولم يحك غيره، واللَّه أعلم .

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن مريم أنها لما قال لها جبريل عن اللَّه تعالى ما قال، أنها استسلمت لقضاء اللَّه تعالى[٢]. فذكر غير واحد من علماء السلف أن الملك ـ وهو جبريل عليه السلام ـ عند ذلك نفخ في جيب درعها، فنزلت النفخة حتى ولجت في الفرج، فحملت بالولد بإذن اللَّه تعالى. فلما حملت به ضاقت ذرعاً به[٣]، ولم تدر ماذا تقول[٤] للناس، فإنها تعلم أن الناس لايصدقونها فيما تخبرهم به، غير أنها أفشت سرها وذكرت أمرها لأختها امرأة زكريا. وذلك أن زكريا، عليه السلام، كان قد سأل اللَّه الولد، فأجيب إلى ذلك، فحملت امرأته، فدخلت عليها مريم فقامت إليها فاعتنقتها، وقالت: أشعرت يامريم أني حبلى ؟ فقالت لها مريم: وهل علمت أيضاً أني حبلى؟ وذكرت لها شأنها وماكان من خبرها وكانوا بيت إيمان وتصديق، ثم كانت امرأة زكريا بعد ذلك إذا واجهت[٥] مريم تجد الذي في جوفها[٦] يسجد للذي في بطن مريم، أي: يعظمه ويخضع له، فإن السجود كان في ملتهم عند السلام مشروعاً، كما سجد ليوسف أبواه وإخوته، وكما أمر اللَّه الملائكة أن تسجد[٧] لآدم، عليه السلام، ولكن حرم في ملتنا هذه تكميلاً لتعظيم جلال الرب تعالى .

قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين قال: قرئ على الحارث بن مسكين وأنا أسمع، قال: أخبرنا عبد الرحمن بن القاسم قال : قال مالك، رحمه اللَّه: بلغني أن عيسى ابن مريم ويحيى بن

---

(١) في ت، أ: «المهد». (٢) في ت: «الله عز وجل». (٣) في أ: «بهما».
(٤) في ت: «يقول». (٥) في أ: «وجهت». (٦) في ف: «بطنها». (٧) في ف، أ: «يسجدوا».

زكريا ابنا خالة، وكان حملهما جميعاً معاً، فبلغنى أن أم يحيى قالت لمريم: إنى أرى أن ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك . قال مالك: أرى ذلك لتفضيل عيسى، عليه السلام؛ لأن اللّه جعله يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص.

ثم اختلف المفسرون فى مدة حمل عيسى، عليه السلام، فالمشهور عن الجمهور أنها حملت به تسعة أشهر. وقال عكرمة: ثمانية أشهر ـ قال: ولهذا لا يعيش ولد لثمانية أشهر.

وقال ابن جُرَيْج: أخبرنى المغيرة بن عثمان[١] بن عبد اللّه الثقفى، سمع ابن عباس وسئل عن حَبَل مريم، قال: لم يكن إلا أن حملت فوضعت[٢].

وهذا غريب، وكأنه أخذه من ظاهر قوله تعالى: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا . فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ فالفاء وإن كانت للتعقيب، ولكن تعقيب[٣] كل شىء بحسبه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ [المؤمنون: ١٢ـ١٤]، فهذه الفاء للتعقيب بحسبها. وقد ثبت فى الصحيحين: أن بين كل صفتين أربعين يوماً[٤]. وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣] . فالمشهور الظاهر ـ واللّه على كل شىء قدير ـ أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن؛ ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل عليها وكان معها فى المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها البيت المقدس، يقال له: يوسف النجار، فلما رأى ثقل بطنها وكبره، أنكر ذلك من أمرها، ثم صرفه ما[٥] يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها، ثم تأمّل ما هى فيه، فجعل أمرها يجوس فى فكره، لا يستطيع صرفه عن نفسه، فحمل نفسه على أن عرض لها فى القول، فقال: يا مريم، إنى سائلك عن أمر فلا تعجلى علىّ . قالت: وما هو ؟ قال: هل يكون قط شجر[٦] من غير حَب؟ وهل يكون زرع من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير أب؟ فقالت: نعم ـ فهمت[٧] ما أشار إليه ـ أما قولك: «هل يكون شجر من غير حب وزرع من غير بذر؟» فإن اللّه قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب، ولا بذر «وهل خلق يكون من غير أب؟»[٨] ، فإن اللّه قد خلق آدم من غير أب ولا أم. فصدقها، وسلَّم لها حالها.

ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة، انتبذت منهم مكاناً قصياً، أي: قاصياً منهم بعيداً عنهم، لئلا تراهم ولا يروها.

قال محمد بن إسحاق: فلما حملت به وملأت قلتها[٩] ورجعت، استمسك عنها الدم وأصابها ما يصيب الحامل على الولد من الوصب والترحم وتغير اللون، حتى فَطَرَ لسانها، فما دخل على أهل بيت ما دخل على آل زكريا، وشاع الحديث فى بنى إسرائيل، فقالوا: « إنما صاحبها يوسف»، ولم يكن معها فى الكنيسة غيره ، وتوارت من الناس، واتخذت من دونهم حجاباً، فلا[١٠] يراها أحد ولا

---

(١) فى أ: «ابن عتبة». (٢) فى ت، أ: «وضعت». (٣) فى أ: «تعقب».
(٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه وسيأتى عند تفسير الآية: ٥ من سورة الحج.
(٥) فى ف : «لما». (٦) فى ف: «شجر قط». (٧) فى أ: «وفهمت».
(٨) فى أ :« وهل يكون ولد من غير أب». (٩) فى أ:« قلبها». (١٠) فى ف، أ: «فلم».

تراه.

وقوله: ﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ [أى: فاضطرها وألجأها الطلق إلى جذع النخلة][١]. وهى نخلة فى المكان التى تنحت إليه.

وقد اختلفوا فيه، فقال السدى: كان شرقى محرابها الذى تصلى فيه من بيت المقدس.

وقال وهب بن مُنَبِّه: ذهبت هاربة، فلما كانت بين الشام وبلاد مصر، ضربها الطلق.

وفى رواية عن وهب: كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس، فى قرية هناك يقال لها: «بيت لحم».

قلت: وقد تقدم فى حديث[٢] الإسراء، من رواية النسائى عن أنس، رضى الله عنه، والبيهقى عن شَدَّاد بن أوس، رضى اللّه عنه: أن ذلك ببيت لحم. فاللّه أعلم، وهذا هو المشهور الذى تلقاه الناس بعضهم عن بعض، ولا تشك فيه النصارى أنه ببيت لحم، وقد تلقاه الناس. وقد ورد به الحديث إن صح .

وقوله تعالى إخباراً عنها: ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾، فيه دليل على جواز تمنى الموت عند الفتنة؛ فإنها عرفت أنها ستبتلى وتمتحن بهذا المولود الذى لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد، ولا يصدقونها فى خبرها، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة، تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية ،فقالت :﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾ أى: قبل هذا الحال، ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أى: لم أخلق ولم أك شيئاً. قاله ابن عباس.

وقال السدى: قالت وهى تطلق من الحبل ـ استحياء من الناس: يا ليتنى مت قبل هذا الكرب الذى أنا فيه، والحزن بولادتى المولود من غير بَعْل ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ نُسىَ فتُرِك طلبه، كخِرَق الحيض التى إذا ألقيت وطرحت لم تطلب ولم تذكر. وكذلك كل شىء نُسِى وترك فهو نَسِىّ.

وقال قتادة :﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أى: شيئاً لا يعرف، ولا يذكر، ولايدرى من أنا.

وقال الربيع بن أنس: ﴿ وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾: وهو[٣] السقط.

وقال ابن زيد: لم أكن شيئاً قط.

وقد قدمنا الأحاديث الدالة على النهى عن تمنى الموت إلا عند الفتنة، عند قوله: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (٢٤) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (٢٦) ﴾.

---

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى ت، ف: «أحاديث». (٣) فى ف، أ: «أى».

قرأ بعضهم: ﴿مَن تَحْتِهَا﴾ بمعنى[1] : الذى تحتها. وقرأ آخرون. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ على أنه حرف جر.

واختلف المفسرون فى المراد بذلك من هو؟ فقال العوفى وغيره، عن ابن عباس: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾: جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها. وكذا قال سعيد بن جبير، والضحاك، وعمرو بن ميمون، والسدى، وقتادة: إنه الملك جبريل، عليه الصلاة والسلام، أى: ناداها من أسفل الوادى.

وقال مجاهد: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ قال: عيسى ابن مريم. وكذا قال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة قال: قال الحسن: هو ابنها. وهو إحدى[2] الروايتين عن سعيد بن جبير: أنه ابنها، قال: أو لم[3] تسمع اللَّه يقول: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾؟ [مريم: ٢٩] واختاره ابن زيد، وابن جرير فى تفسيره[4].

وقوله: ﴿أَلاَّ تَحْزَنِي﴾ أى: ناداها قائلاً: لا تحزنى، ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قال سفيان الثورى وشعبة، عن أبى إسحاق، عن البراء بن عازب: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قال: الجدول. وكذا قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: السرىّ: النهر. وبه قال عمرو بن ميمون: نهر تشرب منه.

وقال مجاهد: هو النهر بالسريانية.

وقال سعيد بن جُبُيْر: السرى: النهر الصغير بالنبطية.

وقال الضحاك: هو النهر الصغير بالسريانية.

وقال إبراهيم النَّخَعِى: هو النهر الصغير.

وقال قتادة: هو الجدول بلغة أهل الحجاز.

وقال وهب بن مُنَبِّه: السرى: هو ربيع الماء.

وقال السدى: هو النهر. واختار هذا القول ابن جرير. وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع، فقال الطبرانى:

حدثنا أبو شعيب الحَرَّانى: حدثنا يحيى بن عبد اللَّه البَابلُتِّى[5]، حدثنا أيوب بن نَهِيك، سمعت عكرمة مولى ابن عباس يقول: سمعت ابن عمر يقول: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إن السرى الذى قال اللَّه لمريم: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾: نهر أخرجه اللَّه لتشرب منه»[6]. وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه. وأيوب بن نهيك هذا هو الحبلى[7]، قال فيه أبو حاتم الرازى: ضعيف. وقال أبو زُرْعَة: منكر الحديث. وقال أبو الفتح الأزدى: متروك الحديث.

(١) فى أ: «أى». (٢) فى ت: «أحد». (٣) فى ت، أ: «ولم».
(٤) تفسير الطبرى (١٦/٥٢).
(٥) فى أ: «يحيى بن عبد النابلتى».
(٦) المعجم الكبير (١٢/٣٤٦).
(٧) فى، أ: «الحلبى».

وقال آخرون: المراد بالسرى: عيسى، عليه السلام. وبه قال الحسن، والربيع بن أنس، ومحمد ابن عَبَّاد بن جعفر. وهو إحدى الروايتين عن قتادة، وقول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، والقول الأول أظهر؛ ولهذا قال بعده: ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أى: وخذى إليك بجذع النخلة. قيل: كانت يابسة، قاله ابن عباس. وقيل: مثمرة. قال مجاهد: كانت عجوة. وقال الثورى، عن أبى داود[١] نُفَيْع الأعمى: كانت صَرَفَانة[٢].

والظاهر أنها كانت شجرة، ولكن لم تكن فى إبان ثمرها، قاله وهب بن منبه؛ ولهذا امتن عليها بذلك، أن جعل عندها طعاماً وشراباً، فقال: ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا . فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أى: طيبى نفساً؛ ولهذا قال عمرو بن ميمون: ما من شىء خير للنفساء من التمر والرطب، ثم تلا هذه الآية الكريمة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا شَيْبَان، حدثنا مسرور بن سعيد التميمى[٣]، حدثنا عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى، عن عُرْوة بن رُوَيْم، عن على بن أبى طالب قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « أكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من الطين الذى خلق منه آدم، عليه السلام، وليس من الشجر شىء[٤] يُلَقَّح غيرها ». وقال رسول اللَّه ﷺ: « أطعموا نساءكم الوُلَّدَ الرطَبَ، فإن لم يكن رطب فتمر، وليس من الشجرة شجرة أكرم على اللَّه من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران».

هذا حديث منكر جداً، ورواه أبو يعلى، عن شيبان، به[٥].

وقرأ بعضهم قوله: ﴿ تُسَاقِطْ ﴾ بتشديد السين، وآخرون بتخفيفها. وقرأ أبو نَهِيك: ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾، وروى أبو إسحاق عن البراء: أنه قرأها: ﴿ تُسَاقِطْ ﴾[٦] أى: الجذع. والكل متقارب .

وقوله: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أى: مهما رأيت من أحد، ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾، المراد بهذا القول: الإشارة إليه بذلك. لا أن[٧] المراد به القول اللفظى، لئلا ينافى: ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾.

قال أنس بن مالك فى قوله: ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾ أى: صمتاً[٨]. وكذا قال ابن عباس، والضحاك. وفى رواية عن أنس: «صوماً وصمتاً»، وكذا قال قتادة وغيرهما.

والمراد أنهم كانوا إذا صاموا فى شريعتهم يحرم عليهم الطعام والكلام، نص على ذلك السدى،

---

(١) فى ت: «عن أبى الأسود». (٢) فى ف، أ: « صوفانة». (٣) فى ت: «التيمى».

(٤) فى ف: «وليس شىء من الشجر».

(٥) مسند أبى يعلى (١/ ٣٥٣) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٦/ ١٢٣) وابن عدى فى الكامل (٦/ ٤٣١) من طريق مسرور بن سعد التميمى به، وقد ذكر له ابن عدى ثلاث علل:

١ ـ تفرد به مسرور عن الأوزاعى فهو منكر.

٢ ـ أنه منقطع بين عروة بن رويم وعلى بن أبى طالب.

٣ ـ أن مسرور بن سعيد غير معروف. قلت: وضعفه ابن حبان والعقيلى.

(٦) فى أ: «يساقط». (٧) فى ت: «لأن». (٨) فى أ: «صوتًا».

وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد.

وقال أبو إسحاق، عن حارثة قال: كنت عند ابن مسعود، فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر، فقال: ما شأنك؟ قال أصحابه: حلف ألا يكلم الناس اليوم. فقال عبد اللّه بن مسعود: كَلِّم الناس وسلم عليهم، فإنما تلك امرأة علمت أن أحداً لا يصدقها أنها حملت من غير زوج. يعنى بذلك مريم، عليها السلام، ليكون عذراً لها إذا سئلت. رواه ابن أبى حاتم، وابن جرير، رحمهما اللّه.

وقال عبد الرحمن بن زيد: لما قال عيسى لمريم: ﴿أَلاَّ تَحْزَنِي﴾، قالت: وكيف لا أحزن وأنت معى؟! لا ذاتُ زوج ولا مملوكة، أى شيء عذرى عند الناس؟ يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، قال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾، قال: هذا كله من كلام عيسى لأمه. وكذا قال وهب.

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ذلك، وألا تكلم أحداً من البشر، فإنها[(١)] ستكفى أمرها ويقام بحجتها[(٢)]، فسلمت لأمر اللّه، عز وجل، واستسلمت لقضائه، وأخذت ولدها ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾، فلما رأوها كذلك، أعظموا أمرها واستنكروه جداً، وقالوا: ﴿ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ أى: أمراً عظيماً. قاله مجاهد، وقتادة، والسدى، وغير واحد.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد اللّه بن أبى زياد، حدثنا سَيَّار[(٣)]، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا أبو عمران الجَوْنى، عن نوف البِكَالىّ قال: وخرج قومها فى طلبها، وكانت من أهل بيت نبوة وشرف. فلم يحسوا[(٤)] منها شيئاً، فرأوا[(٥)] راعى بقر فقالوا: رأيت فتاة كذا وكذا نَعْتُها؟ قال: لا، ولكن رأيت الليلة من بقرى ما لم أره منها قط. قالوا: وما رأيت؟ قال: رأيتها[(٦)] سُجَّداً نحو هذ الوادى. قال عبد اللّه بن أبى زياد: وأحفظ عن سيار أنه قال: رأيت نوراً ساطعاً. فتوجهوا حيث قال لهم، فاستقبلتهم مريم، فلما رأتهم قعدت وحملت ابنها في حجرها، فجاؤوا حتى قاموا عليها، ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أمراً عظيماً. ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ أى: يا شبيهة هارون فى العبادة ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ أى: أنت من بيت طيب طاهر، معروف بالصلاح

---

(١) فى ف، أ: «فإنه». (٢) فى ف: «وتقام حجتها». (٣) فى ت: «سفيان»، وفى أ: «شيبان».
(٤) فى ت: «يحسبوا». (٥) فى أ: «فَلَقوا». (٦) فى ف، أ: «رأيتها الليلة».

والعبادة والزهادة[١] ، فكيف صدر هذا منك؟

قال على بن أبى طلحة[٢]، والسدى: قيل لها: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ أى: أخى موسى، وكانت من نسله[٣]، كما يقال للتميمى: يا أخا تميم، وللمضرى: يا أخا مضر.

وقيل: نسبت إلى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون، فكانت تقاس[٤] به فى العبادة، والزهادة.

وحكى ابن جرير عن بعضهم: أنهم شبهوها برجل فاجر كان فيهم. يقال له: هارون. ورواه ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير.

وأغرب من هذا كله ما رواه ابن أبى حاتم.

حدثنا على بن الحسين الهِسِنْجَانى[٥] ، حدثنا ابن أبى مريم، حدثنا المفضل بن فَضَالة، حدثنا أبو صخر، عن القُرَظى فى قول اللَّه عز وجل: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾، قال: هى أخت هارون لأبيه وأمه، وهى أخت موسى أخى هارون التى قَصَّت أثر موسى، ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١].

وهذا القول خطأ محض؛ فإن اللَّه تعالى قد ذكر فى كتابه أنه قفَّى بعيسى بعد الرسل، فدل على أنه آخر الأنبياء بعثاً وليس بعده إلا محمد صلوات اللَّه وسلامه عليه[٦]؛ ولهذا ثبت فى الصحيح عند البخارى، عن أبى هريرة، رضى اللَّه عنه، عن النبى[٧] ﷺ أنه قال: « أنا أولى الناس بابن مريم، إلا أنه[٨] ليس بينى وبينه نبى» ولو كان الأمر كما زعم محمد بن كعب القرظى، لم يكن متأخراً عن الرسل سوى محمد. ولكان قبل سليمان و[٩] داود؛ فإن اللَّه قد ذكر أن داود بعد موسى، عليهما السلام، فى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] فذكر القصة إلى أن قال: ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾ الآية [البقرة: ٢٥١]، والذى جرأ القرظى على هذه المقالة ما فى التوراة بعد خروج موسى وبنى إسرائيل من البحر، وإغراق فرعون وقومه، قال: وكانت مريم بنت عمران أخت موسى وهارون النبيين، تضرب بالدف هى والنساء معها يسبحن اللَّه ويشكرنه على ما أنعم به على بنى إسرائيل. فاعتقد القرظى أن هذه هى أم عيسى. وهى[١٠] هفوة وغلطة شديدة، بل هى باسم هذه، وقد كانوا يسمون بأسماء[١١] أنبيائهم وصالحيهم، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد اللَّه بن إدريس، سمعت أبي يذكره[١٢] عن سِمَاك، عن علقمة بن وائل، عن المغيرة ابن شعبة قال: بعثنى رسول اللَّه ﷺ إلى نجران ، فقالوا: أرأيت ماتقرؤون: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾،

(١) فى ت: «والزهاد». (٢) فى أ: «طالب». (٣) فى ت: «قبيلته».
(٤) فى ت، ف: «تقاسى». (٥) فى : «الحجستانى». (٦) فى ف: «عليه وسلامه».
(٧) فى ف، أ: «عن رسول الله ». (٨) فى أ: «إن أولى الناس بابن مريم لأنا إن». (٩) فى أ: «بن».
(١٠) فى ف، أ: «وهذه». (١١) فى ف، أ : «باسم». (١٢) فى أ: «يذكر».

وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ؟ قال: فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « ألا أخبرتهم أنهم كانوا يَتَسَمّون[١] بالأنبياء والصالحين قبلهم؟ ».

انفرد بإخراجه مسلم، والترمذى، والنسائى، من حديث عبد الله بن إدريس، عن أبيه، عن سماك، به[٢]، وقال الترمذى: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن إدريس.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن سعيد بن أبى صدقة، عن محمد بن سيرين قال نُبِّئت أن كعباً قال: إن قوله: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾: ليس بهارون أخى موسى. قال: فقالت له عائشة: كذبت، قال[٣]: يا أم المؤمنين، إن كان النبى ﷺ قاله، فهو أعلم وأخبر، وإلا فإنى أجد بينهما ستمائة سنة. قال: فسكتت[٤]. وفى هذا التاريخ نظر .

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قوله: ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ قال: كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح، ولايعرفون بالفساد، [ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به، وآخرون يعرفون بالفساد][٥] ويتوالدون به. وكان هارون مصلحاً محبباً، فى عشيرته، وليس بهارون أخى[٦] موسى، ولكنه هارون آخر، قال: وذكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفاً، كلهم يسمون هارون، من بنى إسرائيل .

وقوله: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أى: إنهم لما استرابوا فى أمرها واستنكروا قضيتها[٧]، وقالو لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرْية، وقد كانت يومها ذلك صائمة، صامتة فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهكمين بها، ظانين أنها تزدرى بهم وتلعب بهم : ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾؟

قال ميمون بن مِهْران: ﴿ فَأَشَارَتْ [إِلَيْهِ][٨] ﴾، قالت: كلموه. فقالوا: على ما جاءت به من الداهية تأمرنا أن نكلم من كان فى المهد صبيا! .

وقال السدى: لما أشارت إليه غضبوا، وقالوا: لَسُخْرِيَتُها[٩] بنا حين تأمرنا أن نكلم هذا الصبى أشد علينا من زناها.

﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ أى: من هو موجود فى مهده فى حال صباه وصغره، كيف يتكلم؟ قال: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ ، أول شىء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى[١٠]، وبرأ الله عن الولد، وأثبت لنفسه العبودية لربه.

وقوله: ﴿ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾: تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة.

---

(١) فى ف، أ: «يسمون».

(٢) المسند (٤/ ٢٥٢) وصحيح مسلم برقم (٢١٣٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٥٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣١٥).

(٣) فى ف، أ: «فقال».

(٤) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٨).

(٥) زيادة من ف، أ، والطبرى.

(٦) فى أ: «وليس أخى بهارون».

(٧) فى ف، أ: «قصتها».

(٨) زيادة من ف، أ.

(٩) فى أ: « لسخرتها».

(١٠) فى ف، أ: «عز وجل».

قال نوف البكَالي: لما قالوا لأمه ما قالوا، كان يرتضع ثديه، فنزع الثدى من فمه، واتكأ على جنبه الأيسر، وقال: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، إلى قوله: ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾.

وقال حماد بن سلمة، عن ثابت البنُاني: رفع إصبعه السبابة فوق منكبه، وهو يقول: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ الآية .

وقال عكرمة: ﴿ آتَانِيَ الْكِتَابَ ﴾ أى: قضى أنه[1] يؤتينى الكتاب فيما قضى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن المصفى، حدثنا يحيى بن سعيد[2]، عن عبد العزيز بن زياد، عن أنس بن مالك، رضى اللّه عنه، قال: كان عيسى ابن مريم قد درس الإنجيل وأحكمه[3] فى بطن أمه فذلك قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

يحيى بن سعيد العطار الحمصى: متروك.

وقوله: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾، قال مجاهد، وعمرو بن قيس، والثورى: وجعلنى معلماً للخير. وفى رواية عن مجاهد: نفَّاعاً .

وقال ابن جرير: حدثنى سليمان بن عبد الجبار، حدثنا محمد بن يزيد[4] بن خُنَيس المخزومى، سمعت وُهَيب بن الورد مولى بنى مخزوم قال: لقى عالم عالماً هو فوقه فى العلم، فقال له: يرحمك اللّه، ما الذى أعلن من عملى؟ قال: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ فإنه دين اللّه الذى بعث به أنبياءه إلى عباده ، وقد أجمع الفقهاء على قول اللّه :﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾، وقيل: ما بركته؟ قال: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أينما كان.

وقوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

وقال عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك بن أنس فى قوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾، قال: أخبره بما هو كائن من أمره إلى أن يموت[5]، ما أثبتها لأهل القدر .

وقوله: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ أى: وأمرنى ببر والدتى، ذكره بعد طاعة الله ربه؛ لأن اللّه تعالى كثيراً ما يقرن[6] بين الأمر بعبادته وطاعة الوالدين، كما قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

وقوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ أى: ولم يجعلنى جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدتى، فأشقى بذلك.

قال سفيان الثورى: الجبار الشقى: الذى يقبل[7] على الغضب.

---

(١) فى ف، أ: «أن».
(٢) فى أ: «يحيى بن سعيد العطار».
(٣) فى أ: «واحكمها».
(٤) فى أ: «زيد».
(٥) فى أ: «أمره حتى يموت».
(٦) فى أ: «قرن كثيراً».
(٧) فى ف: «يقتل».

وقال بعض السلف: لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً، ثم قرأ: ﴿وبرًا بوالدتي ولم يجعلني جبارًا شقيًا﴾، قال: ولاتجد سيئ الملكة إلا وجدته مختالاً فخوراً، ثم قرأ: ﴿وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخورا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال قتادة: ذكر لنا أن أمرأة رأت ابن مريم يحيى الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص، فى آيات سلطه الله عليهن، وأذن له فيهن، فقالت: طوبى للبطن الذى حملك والثدى الذى أرضعت به، فقال نبى الله عيسى، عليه السلام، يجيبها: طوبى لمن تلا كلام[1] الله، فاتبع ما فيه ولم يكن جباراً شقياً.

وقوله: ﴿ والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًا﴾: إثبات منه لعبوديته لله عز وجل، وأنه مخلوق من خلق الله يحيا[2]، ويموت ويبعث كسائر الخلائق، ولكن له السلامة فى هذه الأحوال التى هى أشق ما يكون على العباد، [صلوات الله وسلامه عليه][3].

﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون (٣٤) ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون (٣٥) وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم (٣٦) فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم(٣٧) ﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: عليه ذلك الذى قصصنا[4] عليك من خبر عيسى، ﴿قول الحق الذي فيه يمترون ﴾ أى: يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به؛ ولهذا قرأ الأكثرون: «قول الحق» برفع قول. وقرأ عاصم، وعبد الله بن عامر: ﴿ قول الحق﴾.

وعن ابن مسعود أنه قرأ: «ذلك عيسى ابن مريم قَالُ الحق»، والرفع أظهر إعراباً، ويشهد له قوله تعالى: ﴿ الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾ [آل عمرن: ٦٠].

ولما ذكر تعالى أنه خلقه عبداً نبياً، نزه نفسه المقدسة فقال: ﴿ ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه﴾ أى: عما يقول هؤلاء الجاهلون الظالمون المعتدون علواً كبيراً، ﴿إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ أى: إذا أراد شيئاً فإنما يأمر به، فيصير[5] كما يشاء، كما قال تعالى: ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون .الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾ [آل عمران: ٥٩، ٦٠].

وقوله ﴿ وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ أى: ومما[6] أمر عيسى به[7] قومه وهو فى مهده، أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربهم وربه[8]، وأمرهم بعبادته، فقال: ﴿فاعبدوه هذا

(١) فى أ: «كتاب».
(٢) فى أ: «يحيى ويميت».
(٣) زيادة من أ.
(٤) فى ف: «قصصناه».
(٥) فى ت: «فتصير».
(٦) فى ت: «ربما».
(٧) فى ت، ف، أ: «به عيسى».
(٨) فى ت، ف: «ربه وربهم».

صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أى: هذا الذى جئتكم به عن الله صراط مستقيم، أى: قويم، من اتبعه رشد وهدى، ومن خالفه ضل وغوى.

وقوله: ﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ أى: اختلفت[١] أقوال أهل الكتاب فى عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبده[٢] ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصَمَّمَت طائفة ـ وهم جمهور اليهود، عليهم لعائن الله ـ على أنه ولد زنْيَة، وقالوا: كلامه هذا سحر. وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم[٣] الله. وقال آخرون: هو ابن اللَّه. وقال آخرون: ثالث ثلاثة. وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله. وهذا هو قول الحق، الذى أرشد الله إليه[٤] المؤمنين. وقد روى [نحو هذا][٥] عن عمرو بن ميمون، وابن جريج، وقتادة، وغير واحد من السلف والخلف.

قال عبد الرزاق: أخبرنا[٦] مَعْمَر، عن قتادة فى قوله: ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾، قال: اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر، أخرج كل قوم عالمهم، فامتروا[٧] فى عيسى حين رفع، فقال أحدهم: هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا، وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء ـ وهم اليعقوبية. فقال الثلاثة: كذبت. ثم قال اثنان منهم للثالث: قل[٨] أنت فيه. قال: هو ابن الله ـ وهم النسطورية. فقال الاثنان: كذبت. ثم قال أحد الاثنين للآخر: قل فيه. قال: هو ثالث ثلاثة: الله إله، وهو إله، وأمه إله ـ وهم الإسرائيلية ملوك[٩] النصارى، عليهم لعائن اللَّه. قال الرابع: كذبت، بل هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته، وهم المسلمون. فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قالوا، فاقتتلوا فَظُهِرَ على المسلمين، وذلك قول الله تعالى: ﴿ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران: ٢١] وقال[١٠] قتادة: وهم الذين قال اللَّه: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾، قال: اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً[١١].

وقد روى ابن أبى حاتم، عن ابن عباس، وعن عروة بن الزبير، وعن بعض أهل العلم، قريباً من ذلك. وقد ذكر غير واحد من علماء التاريخ من أهل الكتاب وغيرهم: أن قسطنطين جمعهم فى محفل كبير من مجامعهم الثلاثة المشهورة عندهم، فكان جماعة الأساقفة[١٢] منهم ألفين ومائة وسبعين أسقفاً، فاختلفوا فى عيسى ابن مريم، عليه السلام، اختلافاً متبايناً، فقالت كل شرذمة فيه قولاً، فمائة تقول فيه قولاً[١٣]، وسبعون تقول[١٤] فيه قولاً آخر، وخمسون تقول[١٥] فيه شيئاً آخر، ومائة وستون تقول شيئاً، ولم يجتمع على مقالة واحدة أكثر من ثلاثمائة وثمانية منهم، اتفقوا على قول وصَمَّمُوا عليه[١٦]، ومال[١٧] إليهم الملك، وكان فيلسوفاً، فقدمهم ونصرهم وطرد من عداهم، فوضعوا له الأمانة الكبيرة، بل هى الخيانة العظيمة، ووضعوا له كتب القوانين، وشرَّعوا له أشياء[١٨]،

---

(١) فى أ: «اختلف».
(٢) فى ت: «عبد الله».
(٣) فى ف، أ: «يكلم».
(٤) فى ت: «فيه».
(٥) زيادة من أ.
(٦) فى ت: «حدثنا».
(٧) فى أ: «فامتتروا».
(٨) فى أ: «قلت».
(٩) فى ت: «ملك».
(١٠) فى ت، ف، أ: «قال».
(١١) تفسير عبد الرزاق (٢/٩).
(١٢) فى ت: «الأساومة».
(١٣) فى أ: «شيئا».
(١٤، ١٥) فى ف، أ: «يقولون».
(١٦) فى ت: «عليهم».
(١٧) فى ف، أ: «فمال».
(١٨) فى أ: «شيئًا».

وابتدعوا بدعاً كثيرة، وحرَّفوا دين المسيح، وغيروه، فابتنى حينئذ لهم[١] الكنائس الكبار فى مملكته كلها: بلاد الشام، والجزيرة، والروم، فكان مبلغ الكنائس فى أيامه ما يقارب اثنتى عشرة[٢] ألف كنيسة، وبنت أمه هيلانة قُمَامة على المكان الذى صلب فيه المصلوب[٣] الذى تزعم اليهود والنصارى أنه المسيح، وقد كذبوا بل، رفعه الله إلى السماء.

وقوله: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾: تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله، وافترى، وزعم أن له ولدا. ولكن أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة وأجلهم حلماً وثقة بقدرته عليهم؛ فإنه الذى لا يعجل على من عصاه، كما جاء فى الصحيحين: « إن الله ليملى[٤] للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾ [هود: ١٠٢]. وفى الصحيحين أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: « لا أحد أصبر على أذىً سمعه[٥] من الله، إنهم يجعلون له ولدا، وهو يرزقهم ويعافيهم»[٦]. وقد قال الله تعالى: ﴿ **وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ**﴾ [الحج: ٤٨] وقال تعالى: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ** ﴾ [إبراهيم: ٤٢]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ أى: يوم القيامة. وقد جاء فى الحديث الصحيح المتفق على صحته، عن عبادة بن الصامت، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله [ورسوله][٧]، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل »[٨].

﴿ **أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٨) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)** ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار [يوم القيامة][٩] أنهم أسْمَعُ شىء وأبْصَرُه كما قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ**﴾ [السجدة: ١٢] أى: يقولون ذلك حين لاينفعهم ولا يجدى[١٠] عنهم شيئاً، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب، لكان نافعاً لهم ومنقذاً من عذاب الله؛ لهذا قال: ﴿ **أَسْمِعْ بِهِمْ**[١١] **وَأَبْصِرْ** ﴾ أى: ما أسمعهم وأبصرهم ﴿ **يَوْمَ يَأْتُونَنَا**﴾ يعنى: يوم القيامة ﴿ **لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ**﴾ أى: فى الدنيا ﴿**فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ أى: لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك.

---

(١) فى ت، ف، أ: «فابتنى لهم حينئذ». (٢) فى أ: «اثنى عشر»، وهو خطأ والصواب ما بالأصل.
(٣) فى ت: «المصلون». (٤) فى ت: «إنه ليملى». (٥) فى ت: «يسمعه».
(٦) صحيح البخارى برقم (٦٠٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٤).
(٧) زيادة من ف، أ، والبخارى ومسلم.
(٨) صحيح البخارى برقم (٣٤٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٩).
(٩) زيادة من ف، أ. (١٠) فى ت: «يجزى». (١١) فى أ: «به».

ثم قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ أى: أنذر الخلائق يوم الحسرة، ﴿إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ﴾ أى: فصل بين أهل الجنة وأهل النار، ودخل كل إلى ما صار إليه مخلداً فيه، ﴿وَهُمْ﴾ أى: اليوم ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ عما أنذروا به ﴿وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: لايُصَدِّقون به.

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى سعيد [الخدرى][1] قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟» قال: «فيشرئبون [فينظرون][2] ويقولون: نعم، هذا الموت». قال: «فيقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ قال: «فيشرئبون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت» قال: «فيؤمر به[3] فيذبح» قال: «ويقال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت» قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ وأشار بيده[4]. قال: «أهل الدنيا فى غفلة الدنيا».

هكذا رواه الإمام أحمد وقد أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما، من حديث الأعمش، به[5]. ولفظهما قريب من ذلك. وقد روى هذا الحديث الحسن بن عرفة: حدثنى أسباط بن محمد، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة مرفوعاً، مثله. وفى سنن ابن ماجه وغيره، من حديث محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، بنحوه[6]. وهو فى الصحيحين عن ابن عمر[7]. ورواه ابن جُرَيْج قال: قال ابن عباس: فذكر من قبله نحوه[8]. ورواه أيضاً عن أبيه أنه سمع عبيد بن عمير يقول فى قصصه: يؤتى بالموت كأنه دابة، فيذبح والناس ينظرون[9]. وقال سفيان الثورى، عن سلمة بن كُهَيْل، حدثنا أبو الزعراء، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ فى قصة ذكرها، قال: فليس نفس إلا وهى تنظر إلى بيت فى الجنة وبيت فى النار، وهو يوم الحسرة. [فيرى أهل النار البيت الذى كان قد أعده الله لهم لو آمنوا، فيقال لهم: لو آمنتم وعملتم صالحا، كان لكم هذا الذى ترونه فى الجنة. فتأخذهم الحسرة][10]. قال: ويرى أهل الجنة البيت الذى فى النار، فيقال: لولا أن مَنَّ الله عليكم...[11].

وقال السدى، عن زياد، عن زرِّ بن حُبَيْش، عن ابن مسعود فى قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ﴾ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، أتى بالموت فى صورة كبش أملح، حتى يوقف بين الجنة والنار، ثم ينادى مناد: ياأهل الجنة، هذا الموت الذي كان يُميتُ الناس فى الدنيا، فلا يبقى أحد فى أهل عليين ولا فى أسفل درجة فى الجنة إلا نظر إليه، ثم ينادى: يا أهل

---

(١) زيادة من ف. (٢) زيادة من ف، أ، والمسند. (٣) فى ت: «فيؤتى بهم».
(٤) المسند(٣/٩).
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٧٣٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٤٩).
(٦) سنن ابن ماجه برقم (٤٣٢٧).
(٧) صحيح البخارى برقم (٦٥٤٨) وصحيح مسلم برقم(٢٨٥٠).
(٨) أخرجه الطبرى فى تفسيره(١٦/٦٦).
(٩) أخرجه الطبرى فى تفسيره (١٦/٦٧).
(١٠) زيادة من ف، أ، والطبرى
(١١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/٦٦).

النار، هذا الموت الذى كان يميت الناس فى الدنيا، فلا يبقى أحد فى ضحضاح من نار ولا فى أسفل درك من جهنم، إلا نظر إليه، ثم يذبح بين الجنة والنار، ثم ينادى: يا أهل الجنة، هو الخلود أبد الآبدين، ويا أهل النار، هو الخلود أبد الآبدين، فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتاً من فرح ماتوا، ويشهق أهل النار شهقة لو كان أحد ميتاً من شهقة ماتوا فذلك قوله: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ ﴾ . يقول: إذا ذبح الموت. رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾: من أسماء يوم القيامة، عظمه الله وحذره عباده.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ قال: يوم القيامة، وقرأ: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾: يخبر تعالى أنه الخالق المالك المتصرف، وأن الخلق كلهم يهلكون ويبقى هو، تعالى وتقدس ولا أحد يَدّعى مُلْكاً ولا تصرفاً، بل هو الوارث لجميع خلقه، الباقى بعدهم، الحاكم فيهم، فلا تظلم نفس شيئاً ولا جناح بعوضة ولا مثقال ذرة.

قال ابن أبى حاتم: ذكر هدبة بن خالد القيسى: حدثنا حزم بن أبى حزم القُطَعى قال: كتب عمر ابن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن صاحب الكوفة: أما بعد، فإن الله كتب على خلقه حين خلقهم الموت، فجعل مصيرهم إليه، وقال فيما أنزل من كتابه الصادق الذى حفظه بعلمه، وأشهد ملائكته على خلقه: أنه يرث الأرض ومن عليها، وإليه يرجعون.

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥) ﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ[1]: واذكر فى الكتاب إبراهيم واتلُه على قومك، هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، واذكر لهم ما كان من خبر إبراهيم خليل الرحمن الذين[2] هم من ذريته، ويدعون أنهم على ملته، وهو[3] كان صديقاً نبياً ـ مع أبيه ـ كيف نهاه عن عبادة الأصنام، فقال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ أى: لا ينفعك ولا يدفع عنك ضرراً .

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾: يقول: فإن كنت من صلبك وترى أنى أصغر منك، لأنى ولدك، فاعلم أنى قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه أنت ولا اطلعت عليه ولا جاءك بعد، ﴿ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أى: طريقاً مستقيماً موصلاً إلى نيل المطلوب، والنجاة من المرهوب.

(١) فى ف: «صلوات الله وسلامه عليه». (٢) فى ت، ف: «الذى». (٣) فى ف: «وقد».

﴿ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ أى: لا تطعه[1] فى عبادتك هذه الأصنام، فإنه هو الداعي إلى ذلك، والراضى به، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠] وقال: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء: ١١٧].

وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ أى: مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه، فطرده وأبعده، فلا تتبعه تصر مثله .

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ ﴾ أى: على شركك وعصيانك لما آمرك به، ﴿فَتَكُونَ[2] لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ يعنى: فلا يكون لك مولى ولا ناصراً ولا مغيثاً إلا إبليس، وليس إليه ولا إلى غيره من الأمر شيء، بل اتباعك له موجب لإحاطة العذاب بك، كما قال تعالى: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل: ٦٣].

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن جواب أبى إبراهيم [لولده إبراهيم][3] فيما دعاه إليه أنه قال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ يعنى: [إن كنت لا][4] تريد عبادتها ولا ترضاها، فانته عن سبها وشتمها وعيبها، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصتُ منك وشتمتك وسببتك، وهو[5] قوله: ﴿ لأَرْجُمَنَّكَ﴾، قاله ابن عباس، والسدى، وابن جريج، والضحاك، وغيرهم .

وقوله: ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾: قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن إسحاق: يعنى دهراً .

وقال الحسن البصرى: زماناً طويلاً .

وقال السدى : ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ قال: أبداً .

وقال على بن أبى طلحة، والعوفى، عن ابن عباس: ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ قال: سوياً سالماً، قبل أن تصيبك منى عقوبة. وكذا قال الضحاك، وقتادة وعطية الجدلى و[أبو][6] مالك، وغيرهم، واختاره ابن جرير .

فعندها قال إبراهيم لأبيه: ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ ﴾ كما قال تعالى فى صفة المؤمنين: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥].

---

(١) فى أ: «لا تطيعه» وهو خطأ، والصواب ما بالأصل. (٢) فى ت: «فيكون». (٣) زيادة من ف، أ.
(٤) زيادة من ف، أ، وفى هـ : «أما». (٥) فى أ: «وهى». (٦) زيادة من ف، أ.

ومعنى قول إبراهيم لأبيه: ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ﴾ يعنى: أما أنا فلا ينالك منى مكروه ولا أذى، وذلك لحرمة الأبوة ، ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ أى: ولكن سأسأل الله تعالى فيك أن يهديك ويغفر ذنبك، ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ قال ابن عباس وغيره: لطيفاً، أى: فى أن هدانى لعبادته والإخلاص له. وقال مجاهد وقتادة، وغيرهما :﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ قال[1]: [و][2]عوّده الإجابة.

وقال السدى: «الحفي»: الذى يَهتَم بأمره .

وقد استغفر إبراهيم لأبيه مدة طويلة، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق، عليهما السلام، فى قوله: ﴿ رَبَّنَا[3] اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾[إبراهيم: ٤١].

وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين فى ابتداء الإسلام، وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل فى ذلك حتى أنزل الله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ الآية [الممتحنة: ٤] ، يعنى إلا فى هذا القول، فلا[4] تتأسوا به. ثم بين تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك، ورجع عنه، فقال[5] تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة ١١٣، ١١٤].

وقوله: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي ﴾ أى: أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التى تعبدونها [من دون الله][6] ، ﴿ وَأَدْعُو رَبِّي ﴾ أى: وأعبد ربى وحده لا شريك له، ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ و«عسى» هذه موجبة لا محالة، فإنه، عليه السلام، سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ.

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠) ﴾.

يقول: فلما اعتزل الخليل أباه وقومه فى الله، أبدله الله من هو خير منهم، ووهب له إسحاق ويعقوب، يعنى ابنه وابن إسحاق ،كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]، وقال: ﴿ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١].

ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب، وهو نص القرآن فى سورة البقرة: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة: ١٣٣]. ولهذا إنما ذكر هاهنا إسحاق ويعقوب، أى: جعلنا له نسلا وعقبا أنبياء، أقر الله بهم

---

(١) فى أ: «قالوا».
(٢) زيادة من ت.
(٣) فى ت، ف، أ: «رب».
(٤) فى ت: «ولا».
(٥) فى ت: «وقال».
(٦) زيادة من ف، أ.

عينه فى حياته؛ ولهذا قال: ﴿ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾، فلو لم يكن يعقوب قد نُبِّئ فى حياة إبراهيم، لما اقتصر عليه، ولذكر ولده يوسف، فإنه نبى أيضاً كما قال رسول الله ﷺ فى الحديث المتفق على صحته، حين سئل عن خير الناس، فقال: «يوسف نبى الله، ابن يعقوب نبى الله، ابن إسحاق نبي الله، ابن إبراهيم خليل الله »[1] . وفى اللفظ الآخر: « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسفُ بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم »[2].

وقوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى الثناء الحسن. وكذا قال السدى، ومالك بن أنس.

وقال ابن جرير: إنما قال: ﴿ عَلِيًّا ﴾؛ لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ويمدحونهم، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣) ﴾.

لما ذكر تعالى إبراهيم الخليل وأثنى عليه، عَطَف بذكر الكليم، فقال: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا ﴾ قرأ بعضهم بكسر اللام، من الإخلاص فى العبادة.

قال الثورى[3]، عن عبد العزيز بن رُفَيع[4]، عن أبى لبابة[5] قال: قال الحواريون: يا روح الله، أخبرنا عن المخلص لله. قال: الذى يعمل لله، لا يحب أن يحمده الناس.

وقرأ الآخرون[6] بفتحها، بمعنى أنه كان مصطفى، كما قال تعالى: ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ ﴾[الأعراف: ١٤٤] .

﴿ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا ﴾، جُمِع له بين الوصفين، فإنه كان من المرسلين الكبار أولى[7] العزم الخمسة، وهم: نوح وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين .

وقوله : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ ﴾ أى: الجبل ﴿ الأَيْمَنِ ﴾ أى: من جانبه الأيمن من موسى حين ذهب يبتغى من تلك النار جذوة، رآها تلوح فقصدها، فوجدها فى جانب الطور الأيمن منه[8]، عند شاطئ الوادى. فكلمه الله تعالى، ناداه وقربه وناجاه[9] . قال ابن جرير: حدثنا ابن بشار[10]، حدثنا يحيى ـ هو القطان ـ حدثنا سفيان، عن عطاء بن السائب[11]، عن سعيد بن جبير ،عن ابن عباس : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ قال: أدنى حتى سمع[12] صريف القلم.

(١) صحيح البخارى برقم (٣٣٧٤) وصحيح مسلم برقم (٢٣٧٨).
(٢) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٨).
(٣) فى أ: «قال العوفى».
(٤) فى ت: «نفيع».
(٥) فى ت: «تمامة».
(٦) فى أ: «قرأ آخرون».
(٧) فى ت: «وأولى».
(٨) فى ت، ف، أ: «منه غربية».
(٩) فى ت: «ناداه أو قربه فناجاه».
(١٠) فى ت: «ابن يسار».
(١١) فى ت: «ابن يسارى»، وفى أ: «ابن يسار».
(١٢) فى ت: «يسمع».

وهكذا قال مجاهد، وأبو العالية، وغيرهم. يعنون صريف القلم بكتابة التوراة.

وقال السدى: ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ قال: أدخل فى السماء فكلم، وعن مجاهد نحوه.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ قال: نجا بصدقه(١).

قال ابن أبى حاتم: حدثنا عبد الجبار بن عاصم، حدثنا محمد بن سلمة الحرانى، عن أبى الوصل، عن شهر بن حَوْشَب، عن عمرو بن معد يكرب قال: لما قرب الله موسى نجياً بطور سيناء، قال: يا موسى، إذا خلقت لك قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجة تعين على الخير، فلم أخزن عنك من الخير شيئاً، ومن أخزن عنه هذا فلم أفتح له من الخير شيئاً.

وقوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ أى: وأجبنا سؤاله وشفاعته فى أخيه، فجعلناه نبياً، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَأَخِي هَرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ [القصص: ٣٤]، وقال(٢) : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٣٦]، وقال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ . وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٣، ١٤]؛ ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد فى أحد شفاعة فى الدنيا أعظم من شفاعة موسى فى هارون أن يكون نبياً، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾.

قال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، عن داود، عن عكرمة قال: قال ابن عباس: قوله: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴾ ، قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد: وهب له نبوته.

وقد ذكره ابن أبى حاتم معلقاً، عن يعقوب وهو ابن إبراهيم الدورقى، به .

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥) ﴾.

هذا(٣) ثناء من الله تعالى على إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه ﴿كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ .

قال(٤) ابن جريج: لم يَعِدْ ربه عدة إلا أنجزها، يعنى: ما التزم قط عبادة(٥) بنذر إلا قام بها، ووفاها حقها.

وقال ابن جرير: حدثنى يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرنى عمرو بن الحارث، أن سهل بن عقيل حدثه، أن إسماعيل النبى، عليه السلام، وعد رجلاً مكاناً أن يأتيه، فجاء ونسى الرجل، فظل به إسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد، فقال: ما برحت من ههنا ؟ قال: لا. قال: إنى نسيت. قال: لم أكن لأبرح حتى تأتينى. فلذلك ﴿ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾.

---

(١) فى ت: «الصدقه».
(٢) فى ت، ف: «إلى أن قال».
(٣) فى أ: «وهذا».
(٤) فى ت: «قالت».
(٥) فى ف، أ: «عبادة قط».

وقال سفيان الثورى: بلغنى أنه أقام فى ذلك المكان ينتظره حولاً حتى جاءه.

وقال ابن[(١)] شوْذَب: بلغنى أنه اتخذ ذلك الموضع سكناً.

وقد روى أبو داود فى سننه، وأبو بكر محمد بن جعفر الخرائطى فى كتابه «مكارم الأخلاق» من طريق إبراهيم بن طَهْمَان، عن عبد الله [(٢)] بن مَيْسَرة، عن عبد الكريم ـ يعنى: ابن عبد الله بن شَقيق ـ عن أبيه، عن عبد الله بن أبى الحمساء قال: بايعت رسول الله ﷺ قبل أن يبعث فبقيت له علىّ بقية، فوعدته أن آتيه بها في مكانه ذلك، قال: فنسيت[(٣)] يومى والغد، فأتيته فى اليوم الثالث وهو فى مكانه ذلك، فقال لى: «يا فتى، لقد شققت[(٤)] علىّ، أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك» لفظ الخرائطى[(٥)]، وساق آثاراً حسنة فى ذلك.

ورواه ابن مَنْده أبو عبد الله فى كتاب «معرفة الصحابة»، بإسناده[(٦)] عن إبراهيم بن طَهْمَان، عن بُدَيْل بن ميسرة، عن عبد الكريم، به [(٧)].

وقال بعضهم: إنما قيل له: ﴿صَادِقَ الْوَعْدِ﴾؛ لأنه قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فصدق فى ذلك.

فَصدْقُ الوعد من الصفات الحميدة، كما أن خُلْفَه من الصفات الذميمة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣]، وقال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[(٨)].

ولما كانت هذه صفات المنافقين، كان التلبس بضدها من صفات المؤمنين، ولهذا أثنى الله على عبده ورسوله إسماعيل بصدق الوعد، وكذلك كان رسول الله ﷺ صادق الوعد أيضاً، لا يعد أحداً شيئاً إلا وفّى له به، وقد أثنى على أبى العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، فقال: «حدثنى فصدقنى، ووعدنى فوفى لى»[(٩)]. ولما توفى النبى ﷺ قال الخليفة أبو بكر الصديق: من كان له عند رسول الله ﷺ عدةٌ أو دَيْن فليأتنى أنجز له، فجاءه[(١٠)] جابر بن عبد الله، فقال: إن رسول الله ﷺ كان قال: «لو جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا»، يعنى: ملء كفيه، فلما جاء مال البحرين أمر الصديق جابراً، فغرف بيديه من المال، ثم أمره بِعَدِّه، فإذا هو خمسمائة درهم، فأعطاه مثليها معها[(١١)].

وقوله: ﴿وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾: فى هذا دلالة على شرف إسماعيل على أخيه إسحاق؛ لأنه إنما

(١) فى ت: «أبو». (٢) فى سنن أبى داود: «بديل». (٣) فى ت: «نسيت».
(٤) فى ت: «لو أشفقت».
(٥) سنن أبى داود برقم (٤٩٩٦) ومكارم الأخلاق برقم (١٧٧).
(٦) فى ت، أ: «إنه بإسناده».
(٧) ورواه ابن الأثير فى أسد الغابة (٣/١١٣) بإسناده إلى إبراهيم بن طهمان عن بديل بن ميسرة مثله.
(٨) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٣) ومسلم فى صحيحه برقم (٥٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٩) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٧٢٩) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٤٤٩) من حديث المسور بن مخرمة رضى الله عنه.
(١٠) فى أ: «فجاء».
(١١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢٦٨٣) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٣١٤).

وصف[١] بالنبوّة فقط، وإسماعيل وصف[٢] بالنبوّة والرسالة. وقد ثبت فى صحيح مسلم[٣] أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل. . . . » وذكر تمام الحديث، فدل على صحة ما قلناه.

وقوله: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ : هذا أيضاً من الثناء الجميل، والصفة الحميدة، والخلة السديدة[٤]، حيث كان مثابراً على طاعة ربه آمراً بها لأهله[٥]، كما قال تعالى لرسوله: ﴿ أْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ [طه: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ﴾ الآية [التحريم:٦] أى: مروهم بالمعروف، وانهوهم عن المنكر، ولا تدعوهم هملاً فتأكلهم النار يوم القيامة، وقد جاء في الحديث، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى، وأيقظ امرأته، فإن أبت نَضَح في وجهها الماء. رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت، وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت[٦] فى وجهه الماء » أخرجه أبو داود، وابن ماجه[٧].

وعن أبى سعيد، وأبى هريرة، رضى الله عنهما، عن النبى ﷺ قال: « إذا استيقظ الرجل من الليل وأيقظ امرأته، فصليا ركعتين، كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات ». رواه أبو داود، والنسائى، وابن ماجه ،واللفظ له[٨].

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) ﴾.

وهذا[٩] ذكر إدريس، عليه السلام، بالثناء عليه، بأنه[١٠] كان صديقاً نبياً، وأن الله رفعه مكاناً علياً. وقد تقدم فى الصحيح: أن رسول الله ﷺ مرّ به فى ليلة الإسراء وهو فى السماء الرابعة.

وقد روى ابن جرير ههنا أثراً غريباً عجيباً، فقال: حدثنى يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أخبرني جرير بن حازم، عن سليمان الأعمش، عن شَمِر بن عطية، عن هلال بن يساف قال: سأل ابن عباس كعباً،وأنا حاضر، فقال له: ما قول الله ـ عز وجل ـ لإدريس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ فقال كعب: أما إدريس فإن الله أوحى إليه أنى أرفع لك كل يوم مثل عمل جميع بني آدم، فأحب أن يزداد عملاً[١١]، فأتاه خليل له من الملائكة فقال: إن الله أوحى إليّ كذا وكذا، فكلم لى[١٢] ملك الموت، فَلْيؤخرنى حتى أزداد عملاً. فحمله بين جناحيه، حتى صعد به إلى السماء، فلما كان فى السماء الرابعة تلقاهم مَلَك الموت منحدراً، فكلم ملكَ الموت فى الذى كلمه فيه إدريس، فقال: وأين إدريس؟ فقال: هو ذا على ظهرى. قال ملك الموت: فالعجب! بعثت وقيل لى: اقبض روح إدريس

(١، ٢) فى ف: «وصفه».
(٣) لفظه عند مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٧٦): «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى من كنانة قريشًا»، والله أعلم.
(٤) فى ت: «الشديدة». (٥) فى ف: «أهله». (٦) فى ت: «فنضحت».
(٧) سنن أبى داود برقم (١٤٥٠) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٣٦).
(٨) سنن أبى داود برقم (١٤٥١) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٤٠٦) وسنن ابن ماجه برقم (١٣٣٥).
(٩) فى ت: «وهكذا». (١٠) فى أ: «فإنه». (١١) فى ف، أ: «تزداد علمًا».
(١٢) فى ت: «له».

فى السماء الرابعة». فجعلت أقول: كيف[١] أقبض روحه فى السماء الرابعة، وهو فى الأرض؟ فقبض روحه هناك، فذلك[٢] قول الله: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾[٣].

هذا من أخبار كعب الأحبار الإسرائيليات، وفى بعضه نكارة، والله أعلم.

وقد رواه[٤] ابن أبى حاتم من وجه آخر، عن ابن عباس: أنه سأل كعباً، فذكر نحو ماتقدم، غير أنه قال لذلك الملك: هل لك أن تسأله ـ يعنى: ملك الموت ـ كم بقي من أجلى لكى أزداد من العمل وذكر باقيه[٥]، وفيه: أنه لما سأله عما بقي من أجله، قال[٦]: لا أدرى حتى أنظر. ثم نظر، قال: إنك تسألنى[٧] عن رجل ما بقى من عمره إلا طرفة عين، فنظر الملك[٨] تحت جناحه إلى إدريس، فإذا[٩] هو قد قبض، عليه السلام، وهو لا يشعر به.

ثم رواه من وجه آخر عن ابن عباس: أن إدريس كان خياطاً، فكان[١٠] لا يغرز إبرة إلا قال: «سبحان الله»، فكان يمسى حين يمسى[١١]، وليس فى الأرض أحد أفضل عملاً منه. وذكر بقيته كالذى قبله، أو نحوه.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد فى قوله: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال: إدريس رفع ولم يمت، كما رفع عيسى.

وقال سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال: [رفع إلى][١٢] السماء الرابعة.

وقال العوفى عن ابن عباس: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال: رفع إلى السماء السادسة فمات بها. وهكذا قال الضحاك بن مُزَاحم.

وقال الحسن، وغيره، فى قوله: ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال: الجنة.

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (٥٨) ﴾.

يقول تعالى: هؤلاء النبيون ـ وليس المراد [هؤلاء][١٣] المذكورين فى هذه السورة فقط، بل جنس الأنبياء، عليهم السلام، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس ـ ﴿ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴾ الآية.

---

(١) فى ف: «فكيف». (٢) فى ف: «فهذا».
(٣) تفسير الطبرى (١٦/ ٧٢).
(٤) فى أ: «وقد روى». (٥) فى أ: «وذكر ما فيه». (٦) فى ف، أ: «فقال».
(٧) فى ف، أ: «لتسألنى». (٨) فى أ: «ملك الموت». (٩) فى ت: «قال».
(١٠) فى ف: «وكان». (١١) فى أ: «وكان يمشى حين يمشى». (١٢) زيادة من ف، أ.
(١٣) زيادة من ف، أ.

قال السدى وابن جرير، رحمه الله: [فالذي عنى به من ذرية آدم: إدريس، والذى عنى به من ذرية من حملنا مع نوح: إبراهيم][١] ، والذى عنى به من ذرية إبراهيم: إسحاق ويعقوب وإسماعيل، والذى عنى به من ذرية إسرائيل: موسى، وهارون، وزكريا، ويحيى وعيسى ابن مريم .

قال ابن جرير: ولذلك[٢] فرّق أنسابهم، وإن كان يجمع جميعهم آدم؛ لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح فى السفينة، وهو إدريس، فإنه جد نوح.

قلت: هذا هو الأظهر أن إدريس فى عمود نسب نوح، عليهما السلام. وقد قيل: إنه من أنبياء بنى إسرائيل، أخذا من حديث الإسراء، حيث قال فى سلامه على النبى ﷺ: «مرحباً بالنبى الصالح، والأخ الصالح»، ولم يَقُل: « والولد الصالح»، كما قال آدم وابراهيم[٣] ،عليهما السلام .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس، أنبأنا ابن وهب، أخبرنى ابن لَهِيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، عن عبد الله بن محمد[٤] أن إدريس أقدم من نوح بعثه الله إلى قومه، فأمرهم أن يقولوا: « لا إله إلا الله»، ويعملوا[٥] ما شاؤوا فأبوا، فأهلكهم الله عز وجل.

[ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنسُ الأنبياء، أنها كقوله تعالى فى سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ][٦] إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ . وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ .وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى أن قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾[الأنعام: ٨٣ـ ٩٠] وقال تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ[٧]﴾[غافر: ٧٨]. وفى صحيح البخارى، عن مجاهد: أنه سأل ابن عباس: أفى«ص» سجدة؟قال[٨]: نعم، ثم تلا هذه الآية: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾، فنبيكم ممن أُمِرَ أن يقتدى بهم، قال: وهو منهم، يعنى داود[٩].

وقال الله تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أى: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حُجَجه ودلائله وبراهينه، سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة، وحمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة.

«والبُكِىّ»: جمع باك، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود هاهنا، اقتداء بهم، واتباعاً لمنوالهم[١٠].

قال سفيان الثورى، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن أبى مَعْمَر قال: قرأ عمر بن الخطاب، رضى

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى أ: «وكذلك». (٣) فى ت: «إبراهيم وآدم».
(٤) فى ف، أ: «ابن عمر» (٥) فى ف، أ: «ويعملون» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه.
(٦) زيادة من ت، ف، أ. (٧) فى ت، ف، أ: «عليك وكلم الله موسى تكليما». (٨) فى ف، أ: «فقال».
(٩) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٧).
(١٠) فى ف، أ: «لمواليهم».

الله عنه، سورة مريم، فسجد وقال: هذا السجود، فأين البكى؟ يريد البكاء.

رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، وسَقَط من روايته ذكر «أبي معمر» فيما رأيت[١]، والله[٢] أعلم.

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠) ﴾.

لما ذكر تعالى حزْبَ السعداء، وهم الأنبياء، عليهم السلام، ومن اتبعهم، من القائمين بحدود الله وأوامره، المؤدين فرائض الله، التاركين لزواجره ـ ذكر أنه **﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾** أي: قرون أخر، **﴿ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ ﴾** ـ وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع؛ لأنها عماد الدين وقوامه، وخير أعمال العباد ـ وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيلقون غيا، أي: خَسَاراً يوم القيامة.

وقد اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة هاهنا، فقال قائلون: المراد بإضاعتها تَرْكُها بالكلية، قاله محمد بن كعب القُرَظي، وابن زيد بن أسلم، والسدي، واختاره ابن جرير. ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد، وقول عن الشافعي إلى تكفير تارك الصلاة، للحديث[٣]: «بين العبد وبين الشرك تَرْكُ الصلاة»[٤]، والحديث الآخر: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر»[٥]. وليس هذا محل بسط هذه المسألة.

وقال الأوزاعي، عن موسى بن سليمان، عن القاسم بن مُخَيمرة في قوله: **﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾**، قال: إنما أضاعوا المواقيت، ولو كان تركاً كان كفراً.

وقال وكيع، عن المسعودي، عن القاسم بن عبد الرحمن، والحسن بن سعد، عن ابن مسعود أنه قيل له: إن الله يكثر ذكر الصلاة في القرآن: **﴿ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾** و **﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾** و **﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾**؟ قال ابن مسعود: على مواقيتها. قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك؟ قال: ذاك[٦] الكفر.

[و][٧] قال مسروق: لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس، فيكتب من الغافلين، وفي إفراطهن الهلكة، وإفراطهن: إضاعتهن عن وقتهن.

وقال الأوزاعي، عن إبراهيم بن يزيد[٨]: أن عمر بن عبد العزيز قرأ: **﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾**، ثم قال: لم تكن[٩] إضاعتهم تركها، ولكن أضاعوا الوقت.

---

(١) تفسير الطبري (١٦/ ٧٣).

(٢) في ف، أ: «فالله». (٣) في أ: «الحديث».

(٤) رواه مسلم في صحيحه برقم (٨٢) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٥) رواه الترمذي في السنن برقم (٢٦٢١) والنسائي في السنن (١/ ٢٣١) من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

(٦) في ت، ف، أ: «ذلك». (٧) زيادة من ت، ف. (٨) في أ: «زيد». (٩) في ت، ف، أ: «يكن».

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ قال: عند قيام الساعة، وذهاب صالحى أمة محمد ﷺ، ينزو بعضهم على بعض فى الأزقة، وكذا روى ابن جُرَيج، عن مجاهد، مثله [(١)].

وروى جابر الجُعْفي، عن مجاهد، وعكرمة، وعطاء بن أبى رباح: أنهم من هذه الأمة. يعنون فى آخر الزمان.

وقال ابن جرير: حدثني الحارث، حدثنا الحسن الأشيب، حدثنا شريك، عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾، قال: هم فى هذه، الأمة[(٢)]، يتراكبون تراكب الأنعام والحمر فى الطرق، لا يخافون الله فى السماء، ولا يستحيون الناس فى الأرض.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنان الواسطى، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا حيوة، حدثنا بشير بن أبى عمرو الخولانى: أن الوليد بن قيس حدثه، أنه سمع أبا سعيد الخدرى يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلف بعد ستين سنة، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيا. ثم يكون خلف يقرؤون القرآن لا يعدو تراقيهم. ويقرأ القرآن ثلاثة: مؤمن، ومنافق، وفاجر». قال بشير[(٣)]: قلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المؤمن مؤمن به. والمنافق كافر به، والفاجر يأكل به.

وهكذا رواه أحمد عن أبى عبد الرحمن، المقرئ[(٤)]، به[(٥)].

وقال ابن أبى حاتم أيضاً: حدثنى أبى، حدثنا إبراهيم بن موسى، أنبأنا عيسى بن يونس، حدثنا عبيد الله بن عبد الرحمن بن مَوْهَب[(٦)]، عن مالك، عن[(٧)] أبى الرجال؛ أن عائشة كانت ترسل بالشىء صدقة لأهل الصُّفَّة، وتقول: لا تعطوا منه بربريا ولا بربرية، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «هم الخلف الذين قال الله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ ﴾». هذا حديث غريب[(٨)].

وقال أيضاً: حدثنى أبي، حدثنا عبد الرحمن بن الضحاك، حدثنا الوليد، حدثنا حَرِيز[(٩)]، عن شيخ من أهل المدينة؛ أنه سمع محمد بن كعب القُرَظِى يقول فى قوله[(١٠)]: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ الآية، قال: هم أهل الغرب[(١١)]، يملكون وهم شر من ملك.

---

(١) فى ت: «منكم». (٢) فى ت، ف: «الآية». (٣) فى ف، أ: «بشر».
(٤) فى ف، أ: «المقبرى».
(٥) المسند (٣/٣٨).
(٦) فى ف، أ: «ابن وهب». (٧) فى ف: «ابن».
(٨) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٢٤٤) من طريق الحسن بن على عن إبراهيم بن موسى به.
وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وتعقبه الذهبى بقوله: «عبيد الله مختلف فى توثيقه، ومالك لا أعرفه ثم هو منقطع».
(٩) فى ت، ف، أ: «ابن جرير». (١٠) فى ف: «قول الله عز وجل». (١١) فى ت: «القرى»، وفى أ: «المغرب».

وقال كعب الأحبار: والله إنى لأجد صفة المنافقين فى كتاب الله عز وجل: شرابين للقهوات تراكين[١] للصلوات، لعابين بالكعبات، رقادين عن العتمات، مفرطين فى الغدوات، تراكين للجمعات[٢] قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾.

وقال الحسن البصرى: عطلوا المساجد، ولزموا الضيعات.

وقال أبو الأشهب العُطَاردى: أوحى الله ـ تعالى ـ إلى داود: يا داود، حَذّر وأنذر أصحابك أكل الشهوات؛ فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عنى محجوبة، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدى إذا آثر شهوة من شهواته على[٣] أن أحرمه طاعتى.

وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب حدثنا أبو [السمح][٤] التميمى، عن أبي قبيل[٥]، أنه سمع عقبة[٦] بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى أخاف على أمتى اثنتين: القرآن [واللبن، أما اللبن][٧] فيتبعون الرّيف، ويتبعون الشهوات ويتركون الصلوات، وأما القرآن فيتعلمه المنافقون، فيجادلون به المؤمنين»[٨].

ورواه عن حسن بن موسى، عن ابن[٩] لهيعة، حدثنا أبو قبيل، عن عقبة، به مرفوعاً بنحوه تفرد به[١٠].

وقوله: ﴿**فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿**فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾ أى: خسرانا. وقال قتادة: شراً.

وقال سفيان الثورى، وشعبة، ومحمد بن إسحاق، عن أبى إسحاق السَّبيعى، عن أبى عبيدة، عن عبد الله بن مسعود: ﴿**فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾ قال: واد فى جهنم، بعيد القعر، خبيث الطعم.

وقال الأعمش، عن زياد، عن أبى عياض فى قوله: ﴿**فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾ قال: واد فى جهنم من قيح ودم.

وقال الإمام أبو جعفر ابن جرير: حدثني عباس بن أبى طالب، حدثنا محمد بن زياد بن زيان، حدثنا شرقى بن قطامى، عن لقمان بن عامر الخزاعى قال: جئت أبا أمامة صُدَىّ بن[١١] عَجْلان الباهلى فقلت: حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ، قال: فدعا بطعام، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن صخرة زنة عشر[١٢] أواق قذف بها من شفير جهنم، ما بلغت قعرها خمسين خريفاً،

---

(١) فى أ: «تاركين». (٢) فى أ: «للجماعات». (٣) فى أ: «عليه».
(٤) زيادة من ف، أ، والمسند. (٥) فى أ: «عن ابن قنبل». (٦) فى ت: «عبد الله».
(٧) فى هـ، ت، ف، أ: «الكنى، أما الكنى» والمثبت فى المسند.
(٨) المسند (٤/ ١٥٦) والمراد باللبن كما قال الحربى: «أظنه أراد يتباعدون عن الأمصار وعن صلاة الجماعة، ويطلبون مواضع اللبن فى المراعى والبوادى».
(٩) فى ت: «أبى».
(١٠) المسند (٤/ ١٤٦).
(١١) فى ت: «حدثنى». (١٢) فى ف: «عشر عشر»، وفى أ: «عشر عشراوات».

ثم تنتهى إلى غى وآثام ». قال: قلت: وما غى وآثام؟ قال: « بئران فى أسفل جهنم، يسيل فيهما صديد أهل النار، وهما اللتان[1] ذكر الله فى كتابه: ﴿ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾» وقوله فى الفرقان: ﴿ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾[2].

هذ حديث غريب ورفعه منكر.

وقوله: ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾، أى: إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات، فإن الله يقبل توبته، ويحسن عاقبته، ويجعله من ورثة جنة النعيم؛ ولهذا قال: ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾، وذلك؛ لأن التوبة تجُبُّ ما قبلها. وفى الحديث الآخر: « التائب من الذنب كمن لا ذنب له »[3]؛ ولهذا لا يُنْقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التى عملوها شيئاً، ولا قوبلوا بما عملوه قبلها فينقص[4] لهم مما عملوه بعدها؛ لأن ذلك ذهب هَدَراً وترك نسيا، وذهب مَجَّانا، من كرم الكريم، وحلم الحليم.

وهذ الاستثناء ههنا كقوله فى سورة الفرقان: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا . إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (٦١) لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلاَّ سَلامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (٦٣) ﴾.

يقول تعالى: الجنات التى يدخلها[5] التائبون من ذنوبهم، هى﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أى: إقامة ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ﴾ بظهر الغيب، أى: هى من الغيب الذى يؤمنون به وما رأوه؛ وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم.

وقوله: ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾، تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره؛ فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله، كقوله: ﴿و كَانَ[6] وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ [المزمل: ١٨] أى: كائنا لا محالة.

وقوله ههنا: ﴿ مَأْتِيًّا﴾ أى: العباد صائرون إليه، وسيأتونه.

ومنهم من قال: ﴿مَأْتِيًّا﴾ بمعنى: آتيا؛ لأن كل ما أتاك فقد أتيته، كما تقول العرب: أتت علىّ خمسون سنة، وأتيت على خمسين سنة، كلاهما بمعنى[واحد][7].

---

(١) فى ف: «اللذان».

(٢) تفسير الطبرى (١٦/ ٧٥).

(٣) جاء من حديث أنس بن مالك، وابن مسعود، وأبو سعيد الأنصارى، وابن عباس، رضى الله عنهم، وأجودها حديث ابن مسعود. أخرجه ابن ماجه فى السنن برقم (٤٢٥٠) لكنه فيه انقطاع.

(٤) فى ف: «فنقص».

(٥) فى ت: «يدخل إليها».

(٦) فى ت: «إنه كان» وهو خطأ، وفى أ: «كان وعده مفعولاً» وهو الصواب.

(٧) زيادة من ف، أ.

وقوله: ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ أى: هذه[(١)] الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له، كما قد يوجد فى الدنيا .

وقوله: ﴿ إِلَّا سَلَامًا ﴾ استثناء منقطع، كقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا [(٢)]. إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦] .

وقوله : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أى: فى مثل وقت البُكُرات ووقت العَشيّات، لا أن[(٣)] هناك ليلا أو نهارًا [(٤)]، ولكنهم فى أوقات تتعاقب، يعرفون مضيها بأضواء وأنوار، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معْمَر ، عن هَمَّام، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ: « أول زُمْرَة تلج الجنة صُوَرهم على صورة القمر ليلة البدر، لايبصُقون فيها، ولا يتمخطون[(٥)] فيها، ولا يتَغَوّطون، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم [(٦)] الألوّة، ورَشْحُهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مُخّ ساقيهما[(٧)] من وراء اللحم؛ من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا».

أخرجاه فى الصحيحين، من حديث معمر، به[(٨)] .

وقال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن[(٩)] ابن إسحاق، حدثنى الحارث بن[(١٠)] فضيل الأنصارى، عن محمود بن لبيد الأنصارى، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة، فى قبة خضراء، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً»[(١١)] . تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ قال: مقادير الليل والنهار.

وقال ابن جرير :حدثنا على بن سهم، حدثنا الوليد بن مسلم قال: سألت زهير بن محمد، عن قول الله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ قال : ليس فى الجنة ليل، هم فى نور أبداً، ولهم مقدار الليل والنهار، يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب، وبفتح [(١٢)]الأبواب .

وبهذا الإسناد عن الوليد بن مسلم، عن خُلَيْد، عن الحسن البصرى، وذكر أبواب الجنة، فقال: أبواب[(١٣)] يُرى ظاهرها من باطنها، فتكلم وتكلم، فَتُهَمْهِم[(١٤)] انفتحى انغلقى، فتفعل.

---

(١) فى ت، ف: «أى: فى هذه» . (٢) فى ت: «تأثيم». (٣) فى ت: «إلا أن» .
(٤) فى ف: «ونهاراً» . (٥) فى ف: «يمتخطون». (٦) فى أ: « ومجامرهم من».
(٧) فى ف: «ساقها» .
(٨) المسند (٢/ ٣١٦) وصحيح البخارى برقم (٣٢٢٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٤) .
(٩) فى ت: «عن موسى بن إسحاق». (١٠) فى ت: «ثم» .
(١١) المسند (١/ ٢٦٦) وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٢٩٤): «إسناد رجاله ثقات» .
(١٢) فى ت، ف : «فتح» . (١٣) فى ت: «أبواب الجنة». (١٤) فى ت: «فيفهمهم»، وفى ف، أ: «فتفهم» .

وقال قتادة في قوله : ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾: فيها ساعتان: بكرة وعشى: ليس ثم[1] ليل ولا نهار، وإنما هو ضوء ونور .

وقال مجاهد ليس [فيها] [2] بكرة ولا عشى، ولكن يُؤتون به على ما كانوا يشتهون فى الدنيا.

وقال الحسن، وقتادة، وغيرهما: كانت العرب، الأنْعَم فيهم، من يتغدّى ويتعشى، ونزل[3] القرآن على ما فى أنفسهم[4] من النعيم ،فقال تعالى: ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

وقال ابن مهدى، عن حماد بن زيد، عن هشام، عن الحسن :﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ قال: البكور يرد على العشى، والعشى يرد على البكور، ليس فيها ليل.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا سليم[5] بن منصور بن عمار، حدثنى أبى، حدثنا محمد بن زياد قاضى أهل شَمْشَاط[6] عن عبد الله بن جرير[7] ،عن أبى سلمة بن عبدالرحمن، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: « ما من غداة من غدوات الجنة، وكل الجنة غدوات، إلا أنه يزف إلى ولى الله فيها زوجة من الحور العين، أدناهن التى خلقت من الزعفران»[8].

قال أبو محمد: هذا حديث منكر.

[وقوله تعالى][9]: ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ أى: هذه الجنة التى وصفنا بهذه الصفات العظيمة هى التى نورثها عبادنا المتقين، وهم المطيعون لله ـ عز وجل ـ فى السراء والضراء، والكاظمون[10] الغيظ والعافون[11] عن الناس، وكما قال تعالى فى أول سورة المؤمنين : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ إلى أن قال: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ. الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١ـ١١] .

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥) ﴾ .

قال الإمام أحمد: حدثنا يَعْلى ووَكيع قالا: حدثنا عمر بن ذَرّ، عن أبيه، عن سعيد بن جُبَيْر،عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل: « ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ » قال: فنزلت ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية .

انفرد بإخراجه البخارى، فرواه عند تفسير هذه الآية عن أبى نعيم، عن عمر بن ذَرّ، به. ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير، من حديث عمر بن ذر، به[12] .وعندهما زيادة فى آخر الحديث، فكان

---

(١) فى أ: «ثمت». (٢) زيادة من ف، أ . (٣) فى أ: «فنزل» .

(٤) فى ف : «نفوسهم» . (٥) فى جميع النسخ: «سليمان» والمثبت من الجرح والتعديل ٤/ ١/ ١٧٦ .

(٦) فى أ: «شمياط» . (٧) فى ت ،ف، أ : «جدير » .

(٨) ورواه ابن عدى فى الكامل (٦/ ٣٩٤) من طريق سليم بن منصور بن عمار به وقال: «ولايعرف هذا إلا لمنصور بهذا الإسناد»، ومنصور بن عمار ضعفه العقيلى وقال أبو حاتم: ليس بالقوى .

(٩) زيادة من ت، وفى أ: «وقوله» . (١٠) فى ت، ف: «والكاظمين» . (١١) فى ت، ف: «والعافين».

(١٢) المسند (١/ ٢٣١)، (١/ ٢٣٣) وصحيح البخارى برقم (٤٧٣١) وتفسير الطبرى (١٦/ ٧٨) .

ذلك الجواب لمحمد ﷺ.

وقال العوفى، عن ابن عباس: احتبس جبريل عن رسول الله ﷺ، فوجد رسول الله ﷺ من ذلك وحزن، فأتاه جبريل وقال: يا محمد، ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ .

وقال مجاهد: لبث جبريل عن محمد ﷺ اثنتى عشرة ليلة، ويقولون [قُلِي](١) ، فلما جاءه قال: ياجبريل، لقد رِثْتَ عليّ ،حتى ظن المشركون كل ظن. فنزلت ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ [لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ](٢) وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ قال: وهذه الآية كالتى فى الضحى.

وكذلك قال الضحاك بن مُزَاحم، وقتادة، والسدى، وغير واحد: إنها نزلت فى احتباس جبريل.

وقال الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: أبطأ جبريل النـزول علـى رسول الله ﷺ أربعين يومًا، ثم نزل، فقال له النبى ﷺ: «ما نزلت حتى اشتقت إليك ». فقال له جبريل: بل أنا كنت إليك أشوق، ولكنى مأمور، فأوحِيَ إلى جبريل أن قل له: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ الآية. رواه ابن أبى حاتم، رحمه الله، وهو غريب .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مجاهد قال: أبطأت الرسلُ على النبى ﷺ، ثم أتاه جَبريل فقال لـه: ما حبسك يا جبريل؟ فقال له جبريل: وكيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم، ولا تُنْقُون براجمكم، ولا تأخذون شواربكم، ولا تستاكون؟ ثم قرأ : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ إلى آخر الآية.

وقد قال الطبرانى: حدثنا أبو عامر النحوى، حدثنا محمد بن إبراهيم الصورى، حدثنا سليمان ابن عبد الرحمن [الدمشقى](٣) حدثنا إسماعيل بن عياش، أخبرنى ثعلبة بن مسلم، عن أبى كعب مولى ابن عباس، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ؛ أن جبريل أبطأ عليه، فذكر ذلك له ، فقال: وكيف وأنتم لاتَسْتَنُّون، ولا تُقَلِّمُون أظفاركم، ولا تقصون شواربكم، ولا تُنْقُون رواجبكم .

وهكذا رواه الإمام أحمد، عن أبى اليمان، عن إسماعيل بن عياش، به نحوه(٤) .

وقال الإمام أحمد: حدثنا سَيَّار، حدثنا جعفر بن سليمان، حدثنا المغيرة بن حبيب ـ [ختن](٥) مالك بن دينار ـ حدثنى شيخ من أهل المدينة، عن أم سلمة قالت: قال لى رسول الله ﷺ: «أصلحى لنا المجلس ، فإنه ينزل(٦) ملك إلى الأرض، لم ينزل إليها قط»(٧) .

وقوله :﴿ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا ﴾ قيل: المراد: ما بين أيدينا: أمر الدنيا، وما خلفنا: أمر الآخرة، ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾: ما بين النفختين. هذا قول أبى العالية، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن

---

(١) زيادة من ت، ف، أ . (٢) فى ت، ف ، أ: «إلى قوله» . (٣) زيادة من ت، ف، أ .

(٤) المعجم الكبير (١١/ ٤٣١) والمسند (١/ ٢٤٣) وفى إسناده أبو كعب مولى ابن عباس، قال أبو زرعة: «لايسمى ولا يعرف إلا فى هذا الحديث» .

(٥) فى هـ، ت، ف: «عن»، والمثبت من أ، والمسند . (٦) فى ف، أ :«يتنزل» .

(٧) المسند (٦/ ٢٩٦) .

جبير. وقتادة، في رواية عنهما، والسدى، والربيع بن أنس.

وقيل: ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾: ما نستقبل من أمر الآخرة، ﴿وَمَا خَلْفَنَا ﴾ أى: ما مضى من الدنيا، ﴿ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ أى: ما بين الدنيا والآخرة. يروى نحوه عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والضحاك، وقتادة، وابن جريج، والثورى. واختاره ابن جرير أيضاً، والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾: قال مجاهد [والسُّدِّى][1]: معناه: ما نسيك ربك.

وقد تقدم عنه أن هذه الآية كقوله: ﴿وَالضُّحَىٰ. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ـ٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يزيد بن محمد بن عبد الصمد الدمشقى، حدثنا محمد بن عثمان[2] ـ يعنى أبا الجماهر[3] ـ حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة، عن أبيه، عن أبى الدرداء يرفعه قال: « ما أحل الله فى كتابه فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت [عنه][4] فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسى[5] شيئاً» ثم تلا هذه الآية: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[6].

وقوله: ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ [أى: خالق ذلك ومدبره، والحاكم فيه والمتصرف الذى لا معقب لحكمه، ﴿ فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ][7]هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هل تعلم للرب مثلاً أو شبهاً.

وكذلك قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن جريج وغيرهم.

وقال عكرمة، عن ابن عباس: ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى، وتقدس اسمه.

﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠) ﴾.

يُخْبِر تعالى عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ

---

(١) زيادة من ت، ف.
(٢) فى ت: «ابن عباس».
(٣) فى أ: «أبا الجماهير».
(٤) زيادة من ت، ف، أ.
(٥) فى أ: «لينسنا».
(٦) ورواه البزار فى مسنده برقم (١٢٣) من طريق سليمان بن عبد الرحمن عن إسماعيل بن عياش به وقال: «إسناده صالح».
ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٧٥) ومن طريقه البيهقى فى السنن الكبرى (١٠/ ١٢) عن طريق أبى نعيم الفضل بن دكين عن عاصم بن رجاء عن أبيه به وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».
وله شاهد من حديث سلمان رضى الله عنه.
(٧) زيادة من ت، ف، أ.

فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]، وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ. وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩]، وقال ههنا: ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا. أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ يستدل، تعالى، بالبداءة على الإعادة، يعني أنه، تعالى، [قد][1] خلق الإنسان ولم يك شيئاً، أفلا يعيده وقد صار شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وفى الصحيح: « يقول الله تعالى: كذبنى ابن آدم ولم يكن له أن يكذبنى، وآذانى ابن آدم ولم يكن له أن يؤذينى ، أما تكذيبه إياى فقوله: لن يعيدنى كما بدأنى، وليس أول الخلق بأهون علىّ من آخره ، وأما أذاه إياى فقوله: إن لى ولداً ، وأنا الأحد الصمد، الذى لم يلد ولم يولد[2] ،ولم يكن له[3] كفواً أحد »[4] .

وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ أقسم الرب، تبارك وتعالى، بنفسه الكريمة، أنه لابد أن يحشرهم جميعاً وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله، ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾.

قال العوفى، عن ابن عباس : يعنى: قعوداً ،كقوله: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨].

وقال السدى فى قوله: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾: يعنى: قياماً ، وروى عن مرة، عن ابن مسعود [مثله][5].

وقوله : ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ يعنى: من كل أمة. قاله مجاهد، ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾.

قال الثورى، عن [على بن الأقمر][6]، عن أبى الأحوص، عن ابن مسعود قال : يحبس الأول على الآخر، حتى إذا تكاملت العدة[7]، أتاهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر، فالأكابر جرما ،وهو قوله: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾.

وقال قتادة: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ قال: ثم لننزعن من أهل كل[8] دين قادتهم [ورؤساءهم][9] فى الشر. وكذا قال ابن جريج، وغير واحد من السلف. وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ. وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩] .

وقوله : ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾: «ثم» ههنا لعطف الخبر على الخبر، والمراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلّد فيها، وبمن[10] يستحق تضعيف

---

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى ت، ف، أ: «ألد ولم أولد» . (٣) فى ف، أ: «لى» .
(٤) صحيح البخاى برقم (٤٩٧٥) .
(٥) زيادة من ف، أ . (٦) زيادة من ت، ف، أ، وفى هـ: «أبى»والمثبت من الطبرى.
(٧) فى ت: «المغيرة». (٨) فى ت، ف: «من كل أهل» . (٩) زيادة من ت، ف، أ .
(١٠) فى ت، ف، أ: «ومن» .

العذاب، كما قال فى الآية المتقدمة: ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ﴾ .

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)﴾ .

قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا خالد بن سليمان، عن كثير بن زياد البُرْسانى، عن أبى سُمَيَّة قال: اختلفنا فى الورود، فقال بعضنا: لا يدخلها مؤمن. وقال بعضهم: يدخلونها جميعاً، ثم ينجى الله الذين اتقوا. فلقيت جابر بن عبد الله، فقلت له: إنا اختلفنا فى الورود، فقال: يردونها جميعاً ـ وقال سليمان مَرَّةً [١] يدخلونها جميعاً ـ وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه، وقال: صُمَّتا، إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها، فتكون على المؤمن[٢] برداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار ضجيجاً من بردهم، ثم ينجى الله الذين اتقوا، ويذر الظالمين فيها جثياً »[٣] .غريب ولم يخرجوه .

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا مروان بن معاوية، عن بكار بن[٤] أبى مروان، عن خالد بن مَعْدَان قال: قال أهل الجنة بعد ما دخلوا الجنة: ألم يعدنا ربنا الورود على النار ؟ قال: قد مررتم عليها وهى خامدة .

وقال عبد الرزاق، عن ابن عيينة، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس بن أبى حازم قال: كان عبد الله بن رَوَاحة واضعاً رأسه فى حِجْر امرأته، فبكى، فبكت امرأته فقال[٥]: ما يبكيك ؟ فقالت:[٦] رأيتك تبكى فبكيت. قال: إنى ذكرت قول الله عز وجل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ[٧] إِلاَّ وَارِدُهَا﴾، فلا أدرى أنجو منها أم لا؟[٨] ،وفى رواية: وكان مريضاً .

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب، حدثنا ابن يَمَان، عن مالك بن مِغْول، عن أبى إسحاق: كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال: يا ليت أمى لم تلدنى ثم يبكى، فقيل: مايبكيك يا أبا ميسرة ؟ فقال: أخبرنا أنا واردوها، ولم نُخْبَرْ أنا صادرون عنها [٩] .

وقال عبد الله بن المبارك، عن الحسن البصرى قال: قال رجل لأخيه: هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم. قال: فهل أتاك أنك صادر عنها ؟ قال: لا. قال: ففيم الضحك؟ [قال فما رُئى ضاحكاً حتى لحق بالله][١٠] .

---

(١) فى أ: «سليمان بن مرة» . (٢) فى ف: «المؤمنين» .
(٣) المسند (٣/٣٢٨) وقال المنذرى فى الترغيب (٢/٣٠٦): «رجاله ثقات».
(٤) فى ف: «عن» . (٥) فى ف: «قال» . (٦) فى أ: «قالت» .
(٧) فى ت: «وما منكم» .
(٨) تفسير عبد الرزاق (٢/١١) .
(٩) تفسير الطبرى (١٦/٨٢) .
(١٠) زيادة من ف، أ، والطبرى.

وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا ابن عيينة، عن عمرو، أخبرنى من سمع ابن عباس يخاصم نافع ابن الأزرق، فقال ابن عباس: الورود[1]: الدخول؟ فقال نافع: لا، فقرأ ابن عباس: ﴿ **إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وردوا أم لا؟ وقال: ﴿ **يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ** ﴾ [هود: ٩٨]: أوردٌ هو[2] أم لا؟ أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر هل نخرج منها أم لا؟ وما أرى الله مخرجك منها بتكذيبك فضحك نافع[3].

وروى ابن جريج، عن عطاء قال: قال أبو راشد الحَرُورى ـ وهو نافع بن الأزرق ـ: ﴿ **لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا** ﴾ [الأنبياء: ١٠٢]، فقال ابن عباس: ويلك: أمجنون أنت؟ أين قوله: ﴿ **يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ** ﴾[هود: ٩٨]، ﴿ **وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا** ﴾[مريم: ٨٦]، ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا** ﴾؟ والله إن كان دعاء من مضى: اللهم أخرجنى من النار سالماً، وأدخلنى الجنة غانماً[4].

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن عبيد المحاربى، حدثنا أسباط، عن عبد الملك، عن عبيد الله، عن مجاهد قال: كنت عند ابن عباس، فأتاه رجل يقال له: أبو راشد، وهو نافع بن الأزرق، فقال له: يا ابن عباس، أرأيت قول الله: ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا** ﴾؟ قال: أما أنا وأنت يا أبا راشد فسنردها، فانظر: هل نصدر عنها أم لا[5].

وقال أبو داود الطيالسى: قال شعبة، أخبرنى عبد الله بن السائب، عمن سمع ابن عباس يقرؤها [كذلك][6]: «وإن منهم إلا واردها» يعنى: الكفار[7].

وهكذا روى عمرو بن الوليد الشَّنِّى[8]، أنه سمع عكرمة يقرؤها كذلك: «وإن منهم إلا واردها»، قال: وهم الظلمة. كذلك كنا نقرؤها. رواه ابن أبى حاتم وابن جرير.

وقال العوفى، عن ابن عباس قوله: ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا** ﴾ يعنى: البر والفاجر، ألا تسمع إلى قول الله لفرعون: ﴿ **يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ** ﴾ ﴿ **وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا** ﴾، فسمى الورود فى النار دخولاً، وليس بصادر.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، عن إسرائيل، عن السدى، عن مُرَّة، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا** ﴾: قال رسول الله ﷺ: «يرد الناس [النار][9] كلهم، ثم يصدرون عنها بأعمالهم».

---

(١) فى ت: «المورود».

(٢) فى ت: «أوردهم»، وفى أ: «أوردوها».

(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١١).

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٨٢).

(٥) تفسير الطبرى (١٦/ ٨٤).

(٦) زيادة من ت، ف، أ.

(٧) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٨٣).

(٨) فى أ: «السنى».

(٩) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.

ورواه الترمذى عن عبد بن حميد، عن عبيد الله، عن إسرائيل، عن السدى به[١] . ورواه من طريق شعبة، عن السدى، عن مرة، عن ابن مسعود موقوفا[٢] [٣] .

هكذا وقع هذا الحديث ههنا مرفوعاً. وقد رواه أسباط، عن السدى، عن مُرّة عن عبد الله بن مسعود قال: يرد الناس جميعاً الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمر مثل البرق [٤] ، ومنهم من يمر مثل الريح، ومنهم من يمر مثل الطير، ومنهم من يمر كأجود الخيل، ومنهم من يمر كأجود الإبل، ومنهم من يمر كعدو الرجل، حتى إن آخرهم مراً رجل نوره على موضعى[٥] إبهامى قدميه، يمر يتكفأ[٦] به الصراط، والصراط دَحْضٌ مَزَلّة، عليه حَسَك كَحَسَك القَتَاد، حافتاه ملائكة، معهم كلاليب من نار، يختطفون بها الناس. وذكر تمام الحديث. رواه [٧]ابن أبى حاتم .

وقال ابن جرير: حدثنا خلاد بن أسلم، حدثنا النضر، حدثنا إسرائيل، أخبرنا أبو إسحاق، عن أبى الأحوص[٨] عن عبد الله: قوله: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ قال: الصراط على جهنم مثل حد السيف، فتمر الطبقة الأولى كالبرق، والثانية كالريح، والثالثة كأجود الخيل، والرابعة كأجود البهائم، ثم يمرون والملائكة يقولون: اللهم سَلّم سَلّم .

ولهذا شواهد فى الصحيحين وغيرهما، من رواية أنس، وأبى سعيد، وأبى هريرة، وجابر، وغيرهم، من الصحابة، رضى الله عنهم [٩] .

وقال ابن جرير: حدثنى يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة عن الجُرَيرى، عن [أبى السليل][١٠] ،عن غُنَيْم ابن قيس قال: ذكروا ورود النار، فقال كعب: تمسك النار للناس[١١] كأنها مَتْن[١٢] إهالة حتى يستوى عليها أقدام الخلائق، برهم وفاجرهم، ثم يناديها مناد: أن امسكى أصحابك، ودعى أصحابى. قال: فتخسف بكل ولى لها، ولهى أعلم بهم[١٣] من الرجل بولده، ويخرج المؤمنون ندية ثيابهم. قال كعب: ما بين منكبى الخازن من خزنتها مسيرة سنة، مع كل واحد منهم عمود ذو شعبتين[١٤] ، يدفع به الدفع فيصرع به فى النار سبعمائة ألف[١٥] .

---

(١) المسند (١/ ٤٣٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٥٩) وقال: «حديث حسن، ورواه شعبة عن السدى فلم يرفعه» .

(٢) فى ت، ف: «مرفوعا».

(٣) سنن الترمذى برقم (٣١٦٠) .

(٤) فى ف، أ: «البرق الخاطف». (٥) فى أ: «موضع». (٦) فى أ: «فيمر فيكفأ» .

(٧) فى ت، ف : «ورواه» . (٨) فى ت: «مولى الأحوص» .

(٩) أما حديث أنس فرواه البيهقى فى شعب الإيمان برقم (٣٦٧) وضعَّف إسناده .
وأما حديث أبى هريرة فهو فى صحيح البخارى برقم (٦٥٧٣) وصحيح مسلم برقم (١٨٢) .
وأما حدث أبى سعيد فهو فى صحيح البخارى برقم (٦٥٧٤) وصحيح مسلم برقم (١٨٣).

(١٠) فى هـ: «ابن أبى ليلى» والمثبت من ت، ف، أ، والطبرى .

(١١) فى ف، أ: «الناس» . (١٢) فى أ: «بين» . (١٣) فى أ: «فتخسف بكل وليها وهى أعلم بهم» .

(١٤) فى ت، ف، أ : «عمود وشعبتين» .

(١٥) تفسير الطبرى (١٦/ ٨٢) .

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبى سفيان، عن جابر، عن أم مُبَشِّر، عن حفصة قالت: قال رسول الله ﷺ: « إنى لأرجو ألا يدخل النار ـ إن شاء الله ـ أحد شهد بدراً والحديبية » قالت[1]: فقلت: أليس الله يقول ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾؟ قالت[2]: فسمعته يقول: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [3].

وقال [الإمام][4] أحمد أيضاً: حدثنا ابن إدريس، حدثنا الأعمش، عن أبى سفيان[5]، عن جابر، عن أم مبشر ـ امرأة زيد بن حارثة ـ قالت: كان رسول الله ﷺ فى بيت حفصة، فقال: « لا يدخل النار أحد شهد بدراً والحديبية » قالت حفصة: أليس الله يقول: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾[6].

وفى الصحيحين، من حديث الزهرى، عن سعيد، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول ﷺ: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار، إلا تَحِلَّة القسم » [7].

وقال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرنى الزهرى، عن ابن المسيب، عن أبى هريرة؛ أن النبى ﷺ قال: « من مات له ثلاثة لم تمسه النار إلا تحلة القسم » يعنى الورود [8].

وقال أبو داود الطيالسى: حدثنا زَمْعَة، عن الزهرى، عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد، تمسه النار إلا تحلة القسم ». قال الزهرى: كأنه يريد هذه الآية: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [9].

وقال ابن جرير: حدثنا عمران بن بكار الكلاعى[10]، حدثنا أبو المغيرة[11]، حدثنا عبد الرحمن ابن يزيد بن تميم، حدثنا إسماعيل بن عبيد الله، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ يعود رجلاً من أصحابه وعكًا، وأنا معه، ثم قال: « إن الله تعالى يقول: هى نارى أسلطها على عبدى المؤمن؛ لتكون حظه من النار فى الآخرة » غريب ولم يخرجوه من هذا الوجه [12].

وحدثنا أبو كريب، حدثنا ابن يمان، عن عثمان بن الأسود، عن مجاهد قال: الحمى حظ كل مؤمن من النار، ثم قرأ: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ .

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن، حدثنا ابن لَهِيعَة، حدثنا زَبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ قال: « من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ حتى يختمها عشر

---

(١) فى ت: «قال». (٢) فى أ: «قال».
(٣) المسند (٦/ ٢٨٥).
(٤) زيادة من ت. (٥) فى ت: «شقيق».
(٦) المسند (٦/ ٣٦٢).
(٧) صحيح البخارى برقم(٦٦٥٦) وصحيح مسلم برقم (٢٦٣٢).
(٨) تفسير عبد الرزاق(٢/ ١١).
(٩) مسند الطيالسى برقم (٢٣٠٤).
(١٠) فى ت: «الخلاعى». (١١) فى ت: «أبو شعبة».
(١٢) تفسير الطبرى (٦/ ٨٣١) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٣/ ٣٨٢) من طريق محمد بن يحيى عن أبى المغيرة به.

مرات، بنى الله له قصراً فى الجنة ». فقال عمر: إذاً نستكثر يا رسول الله، فقال رسول الله [ﷺ: «لله][1] أكثر وأطيب»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «من قرأ ألف آية فى سبيل الله، كُتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا، إن شاء الله. ومن حرس من وراء المسلمين فى سبيل الله متطوعاً لا بأجرة[3] سلطان، لم ير النار بعينيه إلا تحلة القسم،قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾، وإن الذكر فى سبيل [الله][4] يُضْعَفُ فوق النفقة بسبعمائة ضعف». وفى رواية: «بسبعمائة ألف ضعف»[5].

وروى أبو داود، عن أبى الطاهر، عن ابن وهب، عن يحيى بن أيوب [وسعيد بن أبى أيوب][6] كلاهما عن زبان[7]، عن سهل، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ: « إن الصلاة والصيام والذكر تضاعف على النفقة فى سبيل الله بسبعمائة ضعف »[8].

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ قال: هو المر عليها[9].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾، قال: ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهريها، وورود المشركين: أن يدخلوها، وقال النبى ﷺ: « الزالون والزالات يومئذ كثير، وقد أحاط بالجسر يومئذ سِمَاطان من الملائكة، دعاؤهم: يا ألله سلم سلم »[10].

وقال السدى، عن مرة، عن ابن مسعود فى قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾قال: قسماً واجباً.

وقال مجاهد: [حتماً][11]، قال: قضاء. وكذا قال ابن جريج[12].

وقوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أى: إذا مرّ الخلائق كلهم على النار، وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوى المعاصى، بحسبهم، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم. فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التى كانت فى الدنيا، ثم يشفعون فى أصحاب الكبائر من المؤمنين، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون[13]، فيخرجون خلقاً كثيراً قد أكلتهم النار، إلا دارات وجوههم ـ وهى مواضع السجود ـ وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما فى قلوبهم من الإيمان، فيخرجون أولاً من كان فى قلبه مثقال دينار من إيمان، ثم الذى يليه، ثم الذى يليه، [ثم الذى يليه][14] حتى يخرجوا من كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ثم يخرج الله من النار

(١) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٢) المسند(٣/ ٤٣٧).
(٣) فى ت، ف: «بأجر».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) رواه أحمد فى مسنده(٣/ ٤٣٧) من حديث معاذ بن أنس رضى الله عنه.
(٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى أ: «ريان».
(٨) سنن أبى داود برقم (٢٤٩٨).
(٩) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١١).
(١٠) تفسير الطبرى(١٦/ ٨٣).
(١١) زيادة من ف، أ.
(١٢) فى ت: «ابن جرير».
(١٣) فى ت: «فيشفع الله الملائكة والنبيين والمؤمنين».
(١٤)زيادة من ف، أ.

من قال يوماً من الدهر: « لا إله إلا الله»[١] وإن لم يعمل خيراً قط، ولا يبقى فى النار إلا من وجب عليه الخلود، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا (٧٤) ﴾.

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى[٢] عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان: أنهم يصدون عن ذلك، ويعرضون ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ [أى: أحسن منازل وأرفع دوراً وأحسن نديا][٣]، وهو مجمع الرجال للحديث، أى: ناديهم أعمر وأكثر وارداً وطارقاً، يعنون: فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل، وأولئك [الذين هم][٤] مختفون مستترون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ونحوها من[٥] الدور على الحق؟. كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]. وقال قوم نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]؛ ولهذا قال تعالى راداً عليهم شبهتهم: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ ﴾ أى: وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم، ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِءْيًا ﴾ أى: كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالا.

[و][٦] قال الأعمش، عن أبى ظَبْيَان، عن ابن عباس: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ قال: المقام: المنزل، والندى: المجلس، والأثاث: المتاع، والرئى: المنظر.

وقال العوفى، عن ابن عباس: المقام: المسكن، والندى: المجلس والنعمة والبهجة التى كانوا فيها، وهو كما قال الله لقوم فرعون حين[٧] أهلكهم وقص شأنهم فى القرآن: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ [٨]وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ [الدخان: ٢٥، ٢٦]، فالمقام: المسكن والنعيم، والندى: المجلس والمجمع الذى كانوا يجتمعون فيه، وقال [الله][٩] فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط[١٠]: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، والعرب تسمى المجلس: النادى.

وقال قتادة: لما رأوا أصحاب محمد ﷺ فى عيشهم خشونة، وفيهم قشافة، تَعَرّض[١١] أهل الشرك بما تسمعون[١٢]: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾. وكذا قال مجاهد، والضحاك.

ومنهم من قال فى الأثاث: هو المال. ومنهم من قال: المتاع. ومنهم من قال: الثياب، والرئى: المنظر كما قال ابن عباس، ومجاهد وغير واحد.

---

(١) فى ف: «من قال: لا إله إلا الله يوما من االدهر». (٢) فى ف: «يتلى». (٣، ٤) زيادة من ف، أ.
(٥) فى ت: «فى». (٦) زيادة من ت. (٧) فى ت: «حتى».
(٨) فى ت، ف، أ: «وكنوز». (٩) زيادة من: ت، ف. (١٠) فى أ: «لوط إذ قال».
(١١) فى ت: «وفيهم». (١٢) فى ت، ف، أ: «يسمعون».

وقال الحسن البصرى: يعنى الصور. وكذا قال مالك: ﴿أَثَاثًا وَرِءْيًا﴾: أكثر أموالاً وأحسن صوراً. والكل متقارب صحيح.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (٧٥)﴾.

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، لهؤلاء المشركين بربهم المدعين، أنهم على الحق وأنكم على الباطل: ﴿مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ﴾ أى: منا ومنكم، ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ أى: فأمهله الرحمن[(١)] فيما هو فيه، حتى يلقى ربه وينقضى[(٢)] أجله، ﴿إِمَّا الْعَذَابَ﴾ يصيبه، ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ بغتة تأتيه، ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حينئذ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [أى][(٣)]: فى مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندى.

قال مجاهد فى قوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾: فليدعه الله فى طغيانه. هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير، رحمه الله.

وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه[(٤)]، كما ذكر تعالى مباهلة اليهود فى قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦] أى: ادعوا على المبطل منا ومنكم بالموت[(٥)] إن كنتم تدعون أنكم على الحق، فإنه لا يضركم الدعاء، فنكلوا عن ذلك، وقد تقدم تقرير ذلك فى سورة «البقرة» مبسوطا، ولله الحمد. وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصارى فى سورة «آل عمران» حين[(٦)] صمموا على الكفر، واستمروا على الطغيان والغلو فى دعواهم أن عيسى ولد الله، وقد ذكر الله حُجَجه وبراهينه على عبودية عيسى، وأنه مخلوق كآدم، قال[(٧)] بعد ذلك: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] فنكلوا أيضاً عن ذلك.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (٧٦)﴾.

لما ذكر[الله][(٨)] تعالى إمداد من هو فى الضلالة فيما هو فيه وزيادته على ما هو عليه، أخبر بزيادة المهتدين هُدى كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

---

(١) فى ت، ف، أ: «الله». (٢) فى أ: «ويقضى». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى أ: «وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون على هدى قيامهم».
(٥) فى ف: «أى ادعوا بالموت على المبطل منا ومنكم». وفى أ: «أى ادعوا بالموت على المبطل منا أو منكم».
(٦) فى أ: «حتى». (٧) فى ت: «وقال». (٨) زيادة من ت.

وقوله: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾: قد تقدم تفسيرها، والكلام عليها، وإيراد الأحاديث المتعلقة بها في سورة «الكهف».

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾ أي: جزاءً ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ أي: عاقبة ومراداً على صاحبها.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمر بن راشد، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال: جلس رسول الله ﷺ ذات يوم، فأخذ عوداً يابساً فَحَطَّ ورقة ثم قال: «إن قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح[١]، خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن، هن الباقيات الصالحات، وهن[٢] من كنوز الجنة». قال أبو سلمة: فكان أبو الدرداء إذا ذكر هذا الحديث قال: لأُهللنّ الله، ولأكبرن الله، ولأسبحن الله، حتى إذا رآنى الجاهل حسب أنى مجنون[٣].

وهذا ظاهره[٤] أنه مرسل، ولكن قد يكون من رواية أبى سلمة، عن أبى الدرداء، والله أعلم. وهكذا وقع فى سنن ابن ماجه، من حديث أبى معاوية، عن عُمر[٥] بن راشد، عن يحيى، عن أبى سلمة، عن أبى الدرداء، فذكر نحوه[٦].

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠)﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً، وكان لى على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه. فقال: لا، والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد[٧] [فقلت: لا، والله لا أكفر بمحمد ﷺ][٨] حتى تموت ثم تبعث. قال: فإنى إذا مت ثم بعثت جئتنى ولى ثم مال وولد، فأعطيتك. فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ إلى قوله: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

أخرجه صاحبا الصحيح وغيرهما، من غير وجه، عن الأعمش به[٩]، وفى لفظ البخارى: كنت قيناً بمكة، فعملت للعاص بن وائل سيفاً، فجئت أتقاضاه. فذكر الحديث، وقال: ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ قال: موثقاً.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا الثورى، عن الأعمش، عن أبى الضُّحَى، عن مسروق قال: قال خَبَّاب

---

(١) فى أ: «كما يحط ورق هذا الشجر الريح». (٢) فى أ: «وهو».
(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٢).
(٤) فى أ: «وهذا ظاهر». (٥) فى ت: «عمرو».
(٦) سنن ابن ماجه برقم (٣٨١٣) وقال البوصيرى فى الزوائد(٣/ ١٩٤): «هذا إسناد ضعيف».
(٧) فى ت: «محمد». (٨) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٩) المسند (٤/ ١١١) وصحيح البخارى برقم (٢٠٩١)، (٤٧٣٤، ٤٧٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٥).

ابن الأرت: كنت قيناً بمكة، فكنت أعمل للعاص بن وائل، قال: فاجتمعت لى عليه دراهم، فجئت لأتقاضاه[١]، فقال لى: لا أقضيك[٢] حتى تكفر بمحمد. فقلت: لا أكفر بمحمد حتى تموت ثم تبعث. قال: فإذا بعثت كان لي مال وولد. قال: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله: ﴿**أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا**﴾ إلى قوله: ﴿**وَيَأْتِينَا فَرْدًا**﴾[٣].

وقال العَوْفِىّ عن ابن عباس: إن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يطلبون العاص بن وائل السهمى بدين، فأتوه يتقاضونه، فقال: ألستم تزعمون أن فى الجنة ذهباً وفضة وحريراً، ومن كل الثمرات؟ قالوا: بلى. قال: فإن موعدكم[٤] الآخرة، فوالله لأوتين مالاً وولداً، ولأوتين مثل كتابكم الذى جئتم به. فضرب الله مثله فى القرآن فقال[٥]: ﴿**أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا**﴾ إلى قوله: ﴿ **وَيَأْتِينَا فَرْدًا**﴾.

وهكذا قال مجاهد، وقتادة، وغيرهم: إنها نزلت فى العاص بن وائل.

وقوله: ﴿**لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا**﴾: قرأ بعضهم بفتح «الواو» من «ولداً» وقرأ آخرون بضمها، وهو بمعناه، قال رُؤْبَة:

الحمْدُ للهِ العــــزيز فَرْداً   لَمْ يتخــذ مِنْ وُلْد شىءٍ وُلْدا[٦]

وقال الحارث بن حلزة:

ولَقَد رأيتُ معَـــاشراً   قد تمـــــرُوا مالاً وَوُلْدا[٧]

وقال الشاعر:

فَلَيت فُلاناً كانَ فى بَطْن أمه   وَليتَ فُلاناً كان وُلْد حِمَار[٨]

وقيل: إن «الوُلْد» بالضم جمع، «والوَلَد» بالفتح مفرد، وهى لغة قيس، والله أعلم.

وقوله: ﴿**أَطَّلَعَ الْغَيْبَ**﴾: إنكار على هذا القائل، ﴿**لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا**﴾ يعنى: يوم القيامة، أى: أعلم ماله فى الآخرة حتى تَألى[٩] وحلف على ذلك، ﴿ **أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**﴾: أم له عند الله عهد سيؤتيه ذلك؟ وقد تقدم عند البخارى: أنه الموثق.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿ **أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**﴾ قال: لا إله إلا الله، فيرجو بها[١٠]. وقال محمد بن كعب القرظى: ﴿ **أَمِ اتَّخَذَ**[١١] **عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا** ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، ثم قرأ: ﴿**أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**﴾.

---

(١) فى ف، أ: «أتقاضاه». (٢) فى أ: «فقال لى أقضيك».
(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٣).
(٤) فى ت: «قال فموعدكم». (٥) فى ت: «فقالوا».
(٦) الرجز فى تفسير الطبرى (١٦/ ٩٢).
(٧) البيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ٩٢).
(٨) البيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ٩٢) واللسان مادة «ولد» غير منسوب.
(٩) فى أ: «حتى مالاً». (١٠) فى أ: «فيرجونها».
(١١) فى ف: «أم اتخذ»، وفى هـ: «إلا من اتخذ»، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه.

وقوله: ﴿ كَلاَّ ﴾: هى حرف رَدْع لما قبلها وتأكيد لما بعدها، ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ أى: منْ طَلَبه ذلك وحُكْمه لنفسه بما تمناه، وكفره بالله العظيم، ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾ أى: فى الدار الآخرة، على قوله ذلك، وكفره [بالله][1] فى الدنيا، ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أى: من مال وولد، نسلبه منه، عكس ما قال: إنه يُؤْتى فى الدار الآخرة مالاً وولداً، زيادة على الذى له فى الدنيا، بل فى الآخرة يُسلَب منَ الذى كان له فى الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ أى: من المال والولد.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾، [قال: نرثه][2].

وقال مجاهد: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾: ماله وولده، وذلك الذى قال العاص بن وائل.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال: ما عنده، وهو قوله: ﴿لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا﴾ وفى حرف ابن مسعود: «ونرثه ما عنده».

وقال قتادة: ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾: لا مال له، ولا ولد.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ قال: ما جمع من الدنيا، وما عمل فيها، قال: ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ قال: فرداً من ذلك، لا يتبعه قليل ولا كثير.

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) ﴾.

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم: أنهم اتخذوا من دونه آلهة، لتكون تلك الآلهة ﴿عِزًّا﴾ يعتزون بها ويستنصرونها.

ثم أخبر أنه ليس الأمر كما زعموا، ولا يكون ما طمعوا، فقال: ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ أى: يوم القيامة ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أى: بخلاف ما ظنوا فيهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ . وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ[3]﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

وقرأ أبو نَهِيك: «كلٌّ سيكفرون بعبادتهم».

وقال السدى [4]: ﴿ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ أى: بعبادة الأوثان. وقوله: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أى: بخلاف ما رَجَوا منهم.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ قال: أعواناً.

قال مجاهد: عوناً عليهم، تُخاصِمهم وتُكذّبهم.

(١، ٢) زيادة من ف. (٣) فى ت: «كافرون»، وهو خطأ.

(٤) فى ت: «السندى».

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: قرناء .

وقال قتادة: قرناء فى النار، يلعن بعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم ببعض.

وقال السدى : ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: الخصماء الأشداء فى الخصومة .

وقال الضحاك : ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ قال: أعداء.

وقال ابن زيد: الضد: البلاء .

وقال عكرمة: الضد: الحسرة.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: تغويهم إغواء.

وقال العوفى عنه: تحرضهم على محمد وأصحابه.

وقال مجاهد: تُشليهم إشلاء[1] .

وقال قتادة: تزعجهم إزعاجاً إلى معاصى اللّه .

وقال سفيان الثورى: تغريهم إغراء وتستعجلهم استعجالا.

وقال السدى: تطغيهم طغيانا .

وقال عبد الرحمن بن زيد: هذا كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[الزخرف: ٣٦] .

وقوله: ﴿ فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أى: لا تعجل يا محمد على هؤلاء فى وقوع العذاب بهم ، ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أى: إنما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط، وهم صائرون لا محالة إلى عذاب الله ونكاله، ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧] ،﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾[آل عمران: ١٧٨] ،﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[لقمان: ٢٤] ،﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٣٠] .

قال السدى: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾: السنين، والشهور، والأيام، والساعات .

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ قال: نعد أنفاسهم فى الدنيا.

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا (٨٦) لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧) ﴾ .

(١) فى ف : «تمليهم إملاء».

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين، الذين خافوه فى الدار الدنيا[١]، واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم، وأطاعوهم فيما أمروهم به، وانتهوا عما عنه زجروهم: أنه[٢] يحشرهم يوم القيامة وفداً إليه. والوفد: هم القادمون ركباناً، ومنه الوفود وركوبهم على نجائب من نور، من مراكب الدار الآخرة، وهم قادمون على خير موفود إليه، إلى دار كرامته ورضوانه. وأما المجرمون المكذبون للرسل المخالفون لهم، فإنهم يساقون عنفا إلى النار، ﴿وِرْدًا﴾: عطاشاً، قاله [عطاء][٣]، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغير واحد. وههنا يقال: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن خالد[٤]، عن عمرو بن قيس الملائى، عن ابن مرزوق: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال: يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره أحسن صورة رآها، وأطيبها ريحاً، فيقول: من أنت؟ فيقول: أما تعرفنى؟ فيقول: لا، إلا أن الله قد طيب ريحك وحسن وجهك. فيقول: أنا عملك الصالح، وهكذا كنت فى الدنيا، حسن العمل طيبه، فطالما ركبتك فى الدنيا ، فهلم اركبنى. فيركبه، فذلك قوله: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ .

وقال على بن أبى طلحة ،عن ابن عباس :﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال: ركباناً.

وقال ابن جرير: حدثنى ابن المثنى، حدثنا ابن مهدى، عن شعبة[٥]، عن إسماعيل، عن رجل، عن أبى هريرة: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾قال: على الإبل.

وقال ابن جُريج: على النجائب.

وقال الثورى: على الإبل النوق .

وقال قتادة : ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال: إلى الجنة .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه: حدثنا سُوَيْد بن سعيد، أخبرنا على بن مُسْهِر، عن عبد الرحمن بن إسحاق، حدثنا النعمان بن سعد قال: كنا جلوساً عند علىّ، رضى الله عنه، فقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ قال: لا، والله ما على أرجلهم يحشرون، ولا يحشر الوفد على أرجلهم، ولكن بنوق لم ير[٦] الخلائق مثلها، عليها رحائل من ذهب، فيركبون عليها، حتى يضربوا أبواب الجنة[٧] .

وهكذا رواه ابن أبى حاتم وابن جرير، من حديث عبد الرحمن بن إسحاق المدنى، به. وزاد: «عليها رحائل الذهب، وأزمتها الزبرجد» والباقى مثله.

وروى ابن أبى حاتم ههنا حديثا غريباً جداً مرفوعاً، عن على، فقال:

حدثنا أبى، حدثنا أبو غسان مالك بن إسماعيل النهدى، حدثنا مسلمة بن جعفر البَجَلى،

---

(١) فى ف: «الآخرة» . (٢) فى أ: «أن» . (٣) زيادة من ف،أ.
(٤) فى ف: «أبو خالد» . (٥) فى أ: «سعيد» . (٦) فى ف، أ: «لم تر» .
(٧) زوائد المسند (١/ ١٥٥) وتفسير الطبرى (١٦/ ٩٦) .

سمعت أبا معاذ البصرى قال: إن عليا كان ذات يوم عند رسول الله ﷺ فقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ فقال: ما أظن الوفد إلا الركب[(١)] يا رسول الله. فقال رسول الله[(٢)] ﷺ: «والذى نفسى بيده، إنهم إذا خرجوا من قبورهم يستقبلون ـ أو: يؤتون ـ بنوق بيض لها أجنحة، وعليها رحال الذهب، شُرُك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مد البصر، فينتهون إلى شجرة ينبع من أصلها عينان، فيشربون من إحداهما، فتغسل ما فى بطونهم من دنس، ويغتسلون من الأخرى فلا تشعث أبشارهم ولا أشعارهم بعدها أبداً، وتجرى عليهم نضرة النعيم، فينتهو أو: فيأتون باب الجنة، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب، فيضربون بالحلقة على الصفيحة[(٣)] فيسمع[(٤)] لها طنين يا على، فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل، فتبعث قيمها فيفتح له، فإذا رآه خرّ له – قال مسلمة[(٥)]: أراه قال: ساجداً – فيقول: ارفع رأسك، إنما أنا قيمك، وكلت بأمرك. فيتبعه ويقفو أثره، فتستخف الحوراء العجلةُ فتخرج من خيام الدر والياقوت حتى تعتنقه، ثم تقول: أنت ـ حبّى، وأنا حبّك، وأنا الخالدة التى لا أموت، وأنا الناعمة التى لا أبأس، وأنا الراضية التى لا أسخط، وأنا المقيمة التى لا أظعن. فيدخل بيتاً من أسّه إلى سقفه مائة ألف ذراع، بناؤه على جندل اللؤلؤ طرائق: أصفر وأحمر وأخضر، ليس منها طريقة تشاكل صاحبتها. وفى البيت سبعون سريراً، على كل سرير سبعون حشية، على كل حشية سبعون زوجة، على كل زوجة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء الحلل، يقضى جماعها فى مقدار ليلة من لياليكم هذه. الأنهار من تحتهم تطرد، أنهار من ماء غير آسن ـ قال: صاف لا كَدَر فيه[(٦)] ـ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، لم يخرج من ضروع الماشية، وأنهار من خمر لذة للشاربين، لم يعتصرها[(٧)] الرجال بأقدامهم[(٨)]، وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل، فيستحلى[(٩)] الثمار، فإن شاء أكل قائماً، وإن شاء قاعداً، وإن شاء متكئاً، ثم تلا: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ [الإنسان: ١٤]، فيشتهى الطعام، فيأتيه طير أبيض، وربما قال: أخضر[(١٠)]، فترفع أجنحتها، فيأكل من جنوبها أى الألوان شاء، ثم تطير فتذهب، فيدخل الملك فيقول: سلام عليكم: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الزخرف: ٧٢]، ولو أن شعرة من شعر الحوراء[(١١)] وقعت لأهل الأرض، لأضاءت الشمس معها سواد فى نور»[(١٢)].

هكذا وقع فى هذه الرواية مرفوعاً، وقد رويناه فى المقدمات من كلام على، رضى الله عنه، بنحوه، وهو أشبه بالصحة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ أى: عطاشا، ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ أى: ليس لهم من يشفع لهم، كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض، كما قال تعالى مخبراً عنهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن

---

(١) فى أ: «الركوب». (٢) فى أ: «النبى». (٣) فى ف: «الصفحة».
(٤) فى أ: «فلو تسمع». (٥) فى ف، أ: «سلمة». (٦) فى ف: «فيها».
(٧) فى ف، أ: «يعصرها». (٨) فى أ: «بأقدامها». (٩) فى ف، أ: «فيستميل».
(١٠) فى ف، أ: «خضر». (١١) فى ف: «الحور العين، وفى، أ: «من شعر الحور».
(١٢) ورواه ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة برقم (٧) من طريق الضحاك بن مزاحم، عن الحارث، عن على أنه سأل النبى ﷺ عن هذه الآية: ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ فذكر نحوه.

شَافِعِينَ . وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[الشعراء: ١٠٠، ١٠١] .

وقوله : ﴿ **إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**﴾: هذا استثناء منقطع، بمعنى: لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والقيام بحقها.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس : ﴿ **إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**﴾ قال: العهد: شهادة أن لا إله إلا الله، ويبرأ إلى الله من الحول والقوة، ولا يرجو إلا الله، عز وجل.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عثمان بن خالد الواسطى، حدثنا محمد بن الحسن الواسطى، عن المسعودى، عن عون بن عبد الله، عن أبى فاختَةَ، عن الأسود بن يزيد قال: قرأ عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ هذه الآية: ﴿ **إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**﴾، ثم قال: اتخذوا عند الله عهداً، فإن الله يقول يوم القيامة: «من كان له عند الله عهد فليقم» قالوا: يا أبا عبد الرحمن، فَعلمنا. قال: قولوا: اللهم، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، فإنى أعهد إليك فى هذه الحياة الدنيا أنك إن تكلنى إلى عمل تقربنى من الشر وتباعدنى[(١)] من الخير، وإنى لا أثق إلا برحمتك، فاجعل[(٢)] لى عندك عهداً تُؤدّيه إلىّ يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد.

قال المسعودى: فحدثنى زكريا، عن القاسم بن عبد الرحمن، أخبرنا ابن مسعود: وكان يُلْحِقُ بهن :خائفاً مستجيراً مستغفراً، راهباً راغباً إليك[(٣)] .

ثم رواه من وجه آخر، عن المسعودى ،بنحوه .

﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)**﴾ .

لما قرر تعالى فى هذه السورة الشريفة عبودية عيسى، عليه السلام، وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرع فى مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً ـ تعالى وتقدّس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً ـ فقال: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ**﴾ أى :فى قولكم هذا ،﴿**شَيْئًا إِدًّا** ﴾[(٤)] قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ومالك: أى عظيماً .

ويقال: ﴿**إِدًّا** ﴾ بكسر الهمزة وفتحها، ومع مدّها أيضاً ،ثلاث لغات، أشهرها الأولى .

---

(١) فى ف، أ :«ويباعدونى» . (٢) فى أ: «فاجعله» .

(٣) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٧٧) من طريق عبد الرحمن بن سعد عن المسعودى عن عون عن الأسود بن يزيد عن ابن مسعود بنحوه، ولم يذكر أبا فاختة، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» .

(٤) فى ف: « ﴿**شيئا إدًّا**﴾ أى: فى قولكم هذا» .

وقوله : ﴿تكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفطَّرْنَ منْهُ وتَنشَقُّ الأَرْضُ وتَخرُّ الْجبَالُ هَدًّا . أَن دَعَوْا للرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ أى: يكاد يكون ذلك عند سماعهن[1] هذه المقالة من فجرة بنى آدم، إعظاماً للرب وإجلالاً؛ لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له ،ولا كفء له، بل هو الأحد الصمد:

وفى كُل شَىءٍ له آيــةٌ تَدُل على أنه واحِدُ

قال ابن جرير: حدثنى على، حدثنا عبد الله، حدثنى معاوية، عن علىّ، عن ابن عباس، فى قوله : ﴿تكَادُ السَّموَاتُ يتفطَّرْنَ منْهُ وتَنشَقُّ الأَرْضُ وتَخرُّ الْجبَالُ هدًّا . أَن دَعَوْا للرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ قال: إن الشرك[2] فزعت منه السموات والأرض والجبال، وجميع الخلائق إلا الثقلين، فكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين، وقال رسول الله ﷺ: «لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة». قالوا: يا رسول الله، فمن قالها فى صحته ؟ قال: «تلك أوجب وأوجب». ثم قال: «والذى نفسى بيده، لو جىء بالسموات والأرضين[3] وما فيهن، وما بينهن، وما تحتهن، فوضعن فى كفة الميزان، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله فى الكفة الأخرى، لرجحت بهن»[4] .

هكذا رواه ابن جرير، ويشهد له حديث البطاقة، والله أعلم .

وقال الضحاك: ﴿تكَادُ السَّموَاتُ يتفطَّرْنَ منْهُ﴾ أى: يتشققن فَرَقاً [5] من عظمة الله .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ﴾ أى: غضباً لله، عز وجل .

﴿وتَخرُّ الْجبَالُ هدًّا ﴾ قال ابن عباس: هدماً .

وقال سعيد بن جبير: ﴿هدًّا ﴾: ينكسر بعضها على بعض متتابعات .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن سُوَيْد المقبرى، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا مسْعَر، عن عون بن[6] عبد الله قال: إن الجبل لينادى الجبل باسمه: يا فلان، هل مر بك اليوم ذاكرُ الله عز وجل [7]؟ فيقول: نعم، ويستبشر. قال عون: لهى[8] للخير أسمع، أفيسمعن[9] الزور والباطل إذا قيل ولايسمعن[10] غيره، ثم قرأ: ﴿تكَادُ السَّموَاتُ يتفطَّرْنَ منْهُ وتَنشَقُّ الأَرْضُ وتَخرُّ الْجبَالُ هدًّا . أَن دَعَوْا للرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾[11] .

---

(١) فى ف، أ: «سماعهم» . (٢) فى أ: «الشريك» . (٣) فى أ: «والأرض» .

(٤) تفسير الطبرى (١٦/ ٩٨) .

(٥) فى ف: «فرعًا»، وفى أ: «أى ينشق فزعًا» . (٦) فى ف: «ابن» .

(٧) فى ف، أ: «ذاكر الله تعالى» . (٨) فى أ: «فهى» . (٩) فى ف، أ: «أفيستمعن» .

(١٠) فى ف، أ: «يستمعن» .

(١١) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (١١٧٦) من طريق ابن أبى عمر، عن سفيان، عن مسعر به، ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٩/ ١٠٧) من طريق سعيد بن منصور، عن سفيان، عن مسعر ، عن عون، عن ابن مسعود، بنحوه. وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٧٩): «رجاله رجال الصحيح» .

وقال ابن أبى حاتم أيضاً: حدثنا المنذر بن شاذان، حدثنا هَوْذَة ، حدثنا عوف، عن غالب بن عَجْرَد، حدثنى رجل من أهل الشام فى مسجد منَى قال: بلغنى أن الله لما خلق الأرض وخلق ما فيها من الشجر، لم يكن فى الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منها منفعة - أو قال: كان لهم فيها منفعة ـ ولم تزل الأرض والشجر بذلك، حتى تكلم فجرة بنى آدم بتلك الكلمة العظيمة، قولهم: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾، فلما تكلموا بها اقشعرت الأرض، وشكاك الشجر.

وقال كعب الأحبار: غضبت الملائكة، واستعرت النار[١]، حين قالوا ما قالوا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن أبى عبدالرحمن السلمى ، عن أبى موسى، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أحد[٢] أصبر على أذى يسمعه[٣] من الله، إنه يشرك به، ويجعل له ولداً، وهو يعافيهم ويدفع عنهم، ويرزقهم».

أخرجاه فى الصحيحين[٤]. وفى لفظ: «إنهم يجعلون له ولداً، وهو يرزُقُهم ويعافيهم» .

وقوله: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أى: لا يصلح له، ولا يليق به لجلاله وعظمته؛ لأنه لا كفء له من خلقه[٥]؛ لأن جميع الخلائق عبيد له؛ ولهذا قال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أى: قد علم عدَدَهم منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ذَكَرهم وأنثاهم، وصغيرهم وكبيرهم ، ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ أى: لا ناصر له ولا مجير إلا الله وحده لا شريك له، فيحكم فى خلقه بما يشاء، وهو العادل الذى لا يظلم مثقال ذَرّة، ولا يظلم أحداً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)﴾ .

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وهى الأعمال التى ترضى الله، عزوجل، لمتابعتها الشريعة المحمدية - يغرس لهم فى قلوب عباده الصالحين مودة، وهذا أمر لابد منه، ولا محيد[٦] عنه. وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا أبو عوَانة، حدثنا سُهَيل، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل، إنى أحب فلاناً فأحبه. قال: فيحبه جبريل». قال: «ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يحب فلاناً». قال: «فيحبه أهل السماء، ثم يُوضَع له القبول فى الأرض، وإن الله إذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال: يا جبريل، إنى أبغضُ فلاناً

(١) فى ف، أ: «وأسعرت جهنم» . (٢) فى ف: «لا أحد» . (٣) فى ف، أ: «سمعه» .
(٤) المسند (٤/٤٠٥) وصحيح البخارى برقم (٦٠٩٩) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٤) .
(٥) فى ف، أ: «الخلق» . (٦) فى أ: «فلا محيد» .

فأبغضه». قال: «فيبغضه جبريل، ثم ينادى فى أهل السماء: إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه». قال: «فيُبْغضُه أهل السماء، ثم يوضع له البغضاء فى الأرض».

ورواه مسلم من حديث سُهَيْل[١] . ورواه أحمد والبخارى، من حديث ابن جُرَيْج، عن موسى ابن عتبة[٢] ، عن نافع مولى ابن عمر، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، بنحوه[٣] .

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر[٤]، حدثنا ميمون أبو محمد المرئى، حدثنا محمد بن عباد المخزومى، عن ثوبان، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ قال:[٥] «إن العبد ليلتمس مرضات[٦] الله، فلا يزال كذلك[٧] فيقول الله، عز وجل، لجبريل: إن فلاناً عبدى يلتمس أن يرضينى؛ ألا وإن رحمتى عليه، فيقول جبريل:« رحمة الله على فلان»، ويقولها[٨] حملة العرش، ويقولها من حولهم، حتى يقولها أهل السموات السبع، ثم يهبط إلى الأرض»[٩] .

غريب، ولم يخرجوه من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شَرِيك، عن محمد بن سعد الواسطى، عن أبى ظَبْيَة، عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقة من الله ـ قال شريك: هى المحبة ـ والصيت من السماء، فإذا أحب الله عبداً قال لجبريل، عليه السلام: إنى أحب فلاناً، فينادى جبريل: إن ربكم يمق[١٠] ـ يعنى: يحب ـ فلاناً، فأحبوه ـ وأرى شريكاً قد قال: فتنزل له المحبة فى الأرض ـ وإذا أبغض عبداً قال لجبريل: إنى أبغض فلاناً فأبغضه»، قال: «فينادى جبريل: إن ربكم يبغض فلاناً فأبغضوه». قال: أرى شريكاً قد قال : فيجرى له البغضُ فى الأرض»[١١] .

غريب ولم يخرجوه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو داود الحَفَرِىّ، حدثنا عبد العزيز - يعنى ابن محمد، وهو الدّرَاوَرْدى ـ عن سهيل بن[١٢] أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة؛ أن النبى ﷺ قال: «إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: إنى قد أحببت فلاناً، فأحبه، فينادى فى السماء، ثم ينزل له المحبة فى أهل الأرض، فذلك قول الله، عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾».

---

(١) المسند (٢/ ٤١٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٣٧) .
(٢) فى ف، أ: «ابن عيينة» .
(٣) المسند (٢/ ٤/ ٥) وصحيح البخارى برقم (٦٠٤٠) .
(٤) فى ف، أ: «ابن بكير» .
(٥) فى ف، أ: «أنه قال».
(٦) فى أ: «فرحات» .
(٧) فى أ: «بذلك» .
(٨) فى ت: «ويقول» .
(٩) المسند (٥/ ٢٧٩) .
(١٠) فى أ: «يمقه» .
(١١) المسند (٥/ ٢٦٣) .
(١٢) فى ف: «عن» .

رواه مسلم والترمذى كلاهما عن قتيبة، عن الدراوردى، به[١] . وقال الترمذى: حسن صحيح .

وقال على بن أبى طلحة ،عن ابن عباس فى قوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال :حباً .

وقال مجاهد، عنه: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ قال: محبة فى الناس فى الدنيا.

وقال سعيد بن جبير، عنه: يحبهم ويُحببهم، يعنى: إلى خلقه المؤمنين. كما قال مجاهد أيضاً، والضحاك وغيرهم .

وقال العوفى، عن ابن عباس أيضاً: الود من المسلمين فى الدنيا، والرزق الحسن، واللسان الصادق .

وقال قتادة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾: إى والله، فى قلوب أهل الإيمان، ذكر[٢] لنا أن هَرِم بن حَيَّان كان يقول: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم .

وقال قتادة: وكان عثمان بن عفان، رضى الله عنه، يقول: ما من عبد يعمل خيراً، أو شراً، إلا كساه الله، عز وجل، رداء عمله .

وقال ابن أبى حاتم، رحمه الله: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِى، عن الربيع بن صَبِيح، عن الحسن البصرى، رحمه الله قال: قال رجل: والله لأعبدن الله عبادة أذكر بها، فكان لا يرى فى حين صلاة إلا قائماً يصلى، وكان أول داخل إلى المسجد وآخر خارج، فكان لا يعظم، فمكث بذلك سبعة أشهر، وكان لا يمر على قوم إلا قالوا: «انظروا إلى هذا المرائى»، فأقبل على نفسه فقال: لا أرانى أذكر إلا بِشَرّ، لأجعلن عملى كله لله، عز وجل، فلم يزد على أن[٣] قلب نيته، ولم يزد على العمل الذى كان يعمله، فكان يمر بعد بالقوم، فيقولون: رحم الله فلاناً الآن، وتلا الحسن: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾.

وقد روى ابن جرير أثراً أن هذه الآية نزلت فى هجرة عبد الرحمن بن عوف. وهو خطأ، فإن هذه السورة بتمامها[٤] مكية لم ينزل منها شىء بعد الهجرة ، ولم يصح سند ذلك، والله أعلم .

وقوله : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ﴾ يعنى: القرآن ، ﴿بِلِسَانِكَ ﴾ أى: يا محمد، وهو اللسان العربى المبين الفصيح الكامل ، ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ﴾ أى: المستجيبين لله المصدقين لرسوله، ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ أى: عوجاً عن الحق مائلين إلى الباطل .

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: ﴿ قَوْمًا لُّدًّا﴾: لا يستقيمون.

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٦٣٧) وسنن الترمذى برقم (٣١٦١) .

(٢) فى أ: «وذكر» . (٣) فى أ: «أنه». (٤) فى أ: «بكمالها» .

وقال الثورى، عن إسماعيل ـ وهو السُّدِّى ـ عن أبى صالح: ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾: عوجاً عن الحق .

[وقال الضحاك: هو الخصم. وقال القرظى: الألد: الكذاب][1] .

وقال الحسن البصرى : ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾: صماً.

وقال غيره صم آذان القلوب[2] .

وقال قتادة: ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾: يعنى قريشاً .

وقال العوفى، عن ابن عباس : ﴿قَوْمًا لُّدًّا﴾: فجاراً .وكذا روى ليث بن أبى سليم عن مجاهد.

وقال ابن زيد: الألد: الظلوم ،وقرأ قول الله : ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾[البقرة: ٢٠٤] .

وقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أى: من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله، ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ أى: هل ترى منهم أحداً، أو تسمع لهم ركزاً.

قال ابن عباس، وأبو العالية، وعكرمة، والحسن البصرى، وسعيد بن جُبَير، والضحاك، وابن زيد: يعنى: صوتاً .

وقال الحسن، وقتادة: هل ترى عيناً، أو تسمع صوتاً.

والركز فى أصل اللغة: هو الصوت الخفى، قال الشاعر[3]:

فَتَوجست[4] رِكْزَ الأنيس فَرَاعَهَا ... عَنْ ظَهْر غَيب والأنيسُ سَقَامُها

آخر تفسير «سورة مريم» ولله الحمد والمنة. ويتلوه إن شاء الله تعالى تفسير «سورة طه» والحمد لله

---

(١) زيادة من أ .

(٢) فى أ: «وقال غيرهم آذان القلوب» .

(٣) البيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ١٠٢) غير منسوب، وهو للبيد بن ربيعة من معلقته فى ديوانه (ص٣١١) ا.هـ. مستفاداً من حاشية ط ـ الشعب .

(٤) فى ف: «فتوحشت» .

تفسير سورة طه

وهى مكية.

روى إمام الأئمة محمد بن إسحاق بن خزيمة فى كتاب «التوحيد»، عن زياد بن أيوب، عن إبراهيم بن المنذر الحِزَامى، حدثنا إبراهيم بن مهاجر بن مسمار، عن عمر بن حفص بن ذَكْوَان، عن مولى الحُرقة - يعنى عبد الرحمن بن يعقوب ـ عن أبى هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه قرأ «طه» و«يس» قبل أن يخلق آدم بألف عام، فلما سمعت الملائكة قالوا: طوبى لأمة ينزل عليهم هذا[(١)]، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لألسن تتكلم[(٢)] بهذا»[(٣)].

هذا حديث غريب، وفيه نكارة، وإبراهيم بن مهاجر وشيخه تُكلِّم فيهما.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ (٣) تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ (٥) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ (٦) وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ (٨) ﴾.

تقدم الكلام على الحروف المقطعة فى أول سورة «البقرة» بما أغنى عن إعادته.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسين بن محمد بن شنبة[(٤)] الواسطى، حدثنا أبو أحمد - يعنى: الزبيرى ـ أنبأنا إسرائيل عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: طه: يا رجل. وهكذا روى عن مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، [وعطاء][(٥)]، ومحمد بن كعب، وأبى مالك، وعطية العوفى، والحسن، وقتادة، والضحاك، والسدى، وابن أبزى أنهم قالوا: «طه» بمعنى: يا رجل.

وفى رواية عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، والثورى: أنها[(٦)] كلمة بالنبطية معناها: يا رجل. وقال أبو صالح هى مُعَرّبة.

وأسند القاضى عياض فى كتابه «الشفاء» من طريق عبد بن حميد فى تفسيره: حدثنا هاشم بن

---

(١) فى ف: «هذا عليهم». (٢) فى أ: «تكلم».

(٣) التوحيد (ص ١٠٩) ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٦٠٧) واللالكائى فى شرح السنة برقم (٣٦٨) من طريق إبراهيم بن المنذر به.

قال ابن حبان: «هذا متن موضوع»، وقال ابن عدى: «لم أجد لإبراهيم ـ أى: ابن مهاجر ـ حديثًا أنكر من هذا؛ لأنه لا يرويه غيره».

(٤) فى ف: «شيبة». (٥) زيادة من ف، أ. (٦) فى أ: «أنه».

[القاسم][١] عن ابن جعفر، عن الربيع بن أنس قال: كان النبى ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل اللَّه تعالى ﴿طه﴾، يعنى: طأ الأرض يا محمد، ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾. ثم قال: ولا خفاء بما فى هذا من الإكرام وحسن [٢] المعاملة[٣].

وقوله ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ قال جُوَيبر، عن الضحاك: لما أنزل اللَّه القرآن على رسوله، قام به هو وأصحابه، فقال المشركون من قريش: ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى! فأنزل اللَّه تعالى: ﴿طه . مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ . إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

فليس الأمر كما زعمه المبطلون، بل من آتاه اللَّه العلم فقد أراد به خيراً كثيراً، كما ثبت فى الصحيحين، عن معاوية قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من يُرد اللَّه به خيراً يفقهه فى الدين»[٤].

وما أحسن الحديث الذى رواه الحافظ أبو القاسم الطبرانى فى ذلك حيث قال:

حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا العلاء بن سالم، حدثنا إبراهيم الطالقانى، حدثنا ابن المبارك، عن سفيان، عن سِمَاك بن حرب، عن ثعلبة بن الحكم قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يقول اللَّه تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قَعَد على كرسيه لقضاء عباده: إنى لم أجعل علمى وحكمتى فيكم[٥] إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم، ولا أبالى»[٦].

إسناده جيد وثعلبة بن الحكم هذا [هو الليثى][٧] ذكره أبو عمر فى استيعابه، وقال: نزل البصرة، ثم تحول إلى الكوفة، وروى عنه سماك بن حرب[٨].

وقال مجاهد فى قوله: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾: هى كقوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْ﴾ [المزمل: ٢٠]، وكانوا يعلقون الحبال بصدورهم فى الصلاة.

وقال قتادة: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾: لا، واللَّه ما جعله شقاء، ولكن جعله رحمة ونوراً، ودليلاً إلى الجنة.

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾: إن اللَّه أنزل كتابه، وبعث رسله[٩] رحمة، رحم بها العباد، ليتذكر ذاكر، وينتفع رجل بما سمع من كتاب اللَّه، وهو ذكر أنزل اللَّه فيه حلاله وحرامه.

وقوله: ﴿تَنزِيلاً [١٠] مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ أى: هذا القرآن الذى جاءك يا محمد

---

(١) زيادة من ف، أ، والشفا.
(٢) فى ف: «أو حسن»، وفى أ: «وأحسن».
(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/ ٢٦).
(٤) صحيح البخارى برقم (٧١) وصحيح مسلم برقم (١٠٣٧).
(٥) فى ف: «علمى فيكم وحكمتى».
(٦) المعجم الكبير (٢/ ٨٤) وقال الهيثمى فى المجمع (١/ ١٢٦): «رجاله موثقون».
(٧) زيادة من ف، أ.
(٨) الاستيعاب (١/ ٢٠٤).
(٩) فى أ: «رسوله».
(١٠) فى ف: «تنزيل».

[هو][١] تنزيل من [ربك][٢] رب كل شىء ومليكه، القادر على ما يشاء، الذى خلق الأرض بانخفاضها وكثافتها، وخلق السموات العلى فى ارتفاعها ولطافتها. وقد جاء فى الحديث الذى صححه الترمذى وغيره. أن سُمْك كل سماء مسيرة خمسمائة عام، وبُعْد ما بينها والتى[٣] تليها [مسيرة][٤] خمسمائة عام[٥].

وقد أورد[٦] ابن أبى حاتم ههنا حديث الأوعال[٧]، من رواية العباس عم رسول اللَّه ﷺ ورضى اللَّه عنه.

وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾: تقدم الكلام على ذلك فى سورة الأعراف، بما أغنى عن إعادته أيضاً، وأن المسلك الأسلم فى[٨] ذلك طريقة السلف، إمرار ما جاء فى ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل.

وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ أى: الجميع ملكه وفى قبضته، وتحت تصريفه ومشيئته وإرادته وحكمه، وهو خالق ذلك ومالكه وإلهه، لا إله سواه، ولا رب غيره.

وقوله: ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ﴾ قال محمد بن كعب: أى ما تحت الأرض السابعة.

وقال الأوزاعى: إن يحيى بن أبى كثير حدثه أن كعباً سُئِل فقيل له: ما تحت هذه الأرض؟ فقال: الماء. قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض. قيل: وما تحت الأرض؟ قال: الماء. قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض، قيل: وما تحت الأرض؟ قال: الماء. قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض، قيل: وما تحت الأرض؟ قال: الماء. قيل: وما تحت الماء؟ قال: الأرض، قيل: وما تحت الأرض؟ قال: صخرة. قيل: وما تحت الصخرة؟ قال: ملك. قيل: وما تحت الملك؟ قال: حوت معلق طرفاه بالعرش، قيل: وما تحت الحوت؟ قال: الهواء والظلمة وانقطع العلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد اللَّه ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا عبد اللَّه بن عَيَّاش، حدثنا عبد اللَّه بن سليمان عن دَرَّاج، عن عيسى بن هلال الصَّدَفى، عن عبد اللَّه بن عَمْرو قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن الأرضين بين كل أرض والتى تليها مسيرة خمسمائة عام، والعليا منها على ظهر حوت، قد التقى طرفاه فى السماء، والحوت على صخرة، والصخرة بيد الملك، والثانية سجن[٩] الريح، والثالثة فيها حجارة جهنم، والرابعة فيها كبريت جهنم، والخامسة فيها حيات جهنم، والسادسة فيها عقارب جهنم، والسابعة فيها سَقَر، وفيها إبليس مُصَفَّد بالحديد، يد أمامه ويد خلفه،

(١، ٢) زيادة من ف، وفى أ: «يا محمد تنزيل من ربك». (٣) فى أ: «وبين التى».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) سنن الترمذى برقم (٣٢٩٨) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه، وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه».
(٦) فى ف: «روى».
(٧) سيأتى حديث الأوعال بطوله عند تفسير الآية: ٧ من سورة غافر.
(٨) فى أ: «من». (٩) فى أ: «مسجن».

فإذا أراد الله أن يطلقه لما يشاء أطلقه»[١] .

هذا حديث غريب جداً ورفعه فيه نظر.

وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده: حدثنا أبو موسى الهروى، عن العباس بن الفضل [قال]:[٢] قلت: ابن الفضل الأنصارى؟ قال: نعم، [عن القاسم][٣] بن عبد الرحمن، عن محمد بن على، عن جابر بن عبد الله قال: كنت مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، فأقبلنا راجعين فى حر شديد، فنحن متفرقون بين واحد واثنين، منتشرين، قال: وكنت فى أول العسكر: إذ عارضنا رجل فَسَلَّم، ثم قال: أيكم محمد؟ ومضى أصحابى ووقفت معه، فإذا رسول الله ﷺ قد أقبل فى وسط العَسْكر على جمل أحمر، مُقَنَّع بثوبه على رأسه من الشمس، فقلت: أيها السائل، هذا رسول الله قد أتاك. فقال: أيهم هو؟ فقلت: صاحب البَكْر الأحمر. فدنا منه، فأخذ بخطام راحلته، فكف عليه رسول الله ﷺ، فقال[٤]: أنت محمد؟ قال: «نعم». قال: إنى أريد أن أسألك عن خصال، لا يعلمهن أحد من أهل الأرض إلا رجل أو رجلان، فقال رسول الله ﷺ: «سل عما شئت». فقال: يا محمد، أينام النبى؟ فقال رسول الله ﷺ: «تنام عيناه ولا ينام قلبه». قال: صدقت. ثم قال: يا محمد، مِنْ أين يشبه الولد أباه وأمه؟ قال[٥]: «ماء الرجل أبيض غليظ، وماء المرأة أصفر رقيق، فأىّ الماءين غلب على الآخر نزع الولد». فقال[٦]: صدقت. فقال: ما للرجل من الولد وما للمرأة منه؟ فقال: «للرجل العظام والعروق والعصب، وللمرأة اللحم والدم والشعر[٧]» قال: صدقت. ثم قال: يا محمد، ما تحت هذه، يعنى الأرض؟ فقال رسول الله ﷺ: «خلق». فقال: فما تحتهم؟ قال: «أرض». قال: فما تحت الأرض؟ قال: «الماء». قال: فما تحت الماء؟ قال: «ظلمة». قال: فما تحت الظلمة؟ قال: « الهواء». قال: فما تحت الهواء؟ قال: « الثرى». قال: فما تحت الثرى؟ ففاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، وقال: «انقطع علم المخلوقين عند علم الخالق، أيها السائل، ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». قال: فقال: صدقت، أشهد أنك رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس، هل تدرون من هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا جبريل ﷺ[٨] »[٩] .

هذا حديث غريب جداً، وسياق عجيب، تفرد به القاسم بن عبد الرحمن هذا، وقد قال فيه يحيى بن معين: «ليس يساوى شيئاً»، وضعفه أبو حاتم الرازى، وقال ابن عدى: لا يعرف .

---

(١) ورواه ابن منده فى كتاب التوحيد برقم (٦٣) من طريق حرملة بن يحيى عن عبد الله بن وهب بنحوه .
ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٥٩٤) من طريق بحر بن نصر عن عبد الله بن وهب عن عبد الله بن عياش عن عبد الله بن سليمان، عن دراج عن أبى الهيثم عن عيسى بن هلال عن عبد الله بن عمرو بمثله، فزاد أبو الهيثم فى إسناده .
وقال: «صحيح ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبى. قلت: «بلى منكر فيه عبد الله بن عياش ضعفه أبو داود وعند مسلم أنه: ثقة، ودراج وهو كثير المناكير» .

(٢) فى ف، أ: «ابن عباس» . (٣) زيادة من ف . (٤) فى ف: «قال» .

(٥) فى أ: «فقال» . (٦) فى ف، أ: «قال» . (٧) فى ف، أ: «والكبد» .

(٨) فى ف: «عليه السلام» .

(٩) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٥/ ٥٥٢) من حديث جابر رضى الله عنه .

قلت: وقد خلط فى هذا الحديث، ودخل عليه شىء فى شىء، وحديث فى حديث. وقد يُحْتَمل أنه تَعَمَّد ذلك، أو أدخل عليه فيه، فاللّه أعلم.

وقوله: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أى: أنزل هذا القرآن الذى خلق [الأرض والسموات العلى، الذى يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي][1] السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الفرقان: ٦].

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: السر ما أسرّ ابن آدم فى نفسه، ﴿وَأَخْفَى﴾: ما أخفى على ابن آدم مما هو فاعله قبل أن يعلمه فاللّه يعلم ذلك كله، فَعلْمه فيما مضى من ذلك وما بقى عِلْم واحد، وجميع الخلائق فى ذلك عنده كنفس واحدة، وهو قوله: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقال الضحاك: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ قال: السر: ما تحدث به نفسك، وأخفى: ما لم تحدث به نفسك بعد.

وقال سعيد بن جبير: أنت تعلم ما تسر اليوم، ولا تعلم ما تسر غداً، واللّه يعلم ما تسر اليوم، وما تسر غداً.

وقال مجاهد: ﴿وَأَخْفَى﴾ يعنى: الوسوسة.

وقال أيضاً هو وسعيد بن جبير: ﴿وَأَخْفَى﴾ أى: ما هو عامله مما لم يحدث به نفسه.

وقوله: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [أى: الذى أنزل القرآن عليك هو اللّه الذى لا إله إلا هو ذو الأسماء الحسنى][2] والصفات العلى.

وقد تقدم بيان الأحاديث الواردة فى الأسماء الحسنى فى أواخر سورة «الأعراف» وللّه الحمد والمنة.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ⑨ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ⑩﴾.

من ههنا شَرَع، تبارك وتعالى، فى ذكر قصة موسى[عليه السلام][3]، وكيف كان ابتداء الوحى إليه وتكليمه إياه، وذلك بعد ما قضى موسى الأجَل الذى كان بينه وبين صهْره فى رعاية الغنم وسار بأهله قيل: قاصداً بلاد مصر، بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين، ومعه زوجته، فأضل الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال، فى برد وشتاء، وسحاب وظلام

---

(١) زيادة من ف.

(٢، ٣) زيادة من ف .

وضباب، وجعل يقدح بزند معه[١] ليُورىَ ناراً، كما جرت له العادة به، فجعل لا يقدح شيئاً، ولا يخرج منه شرر ولا شيء. فبينا هو كذلك، إذ آنس من جانب الطور ناراً، أى: ظهرت له نار من جانب الجبل الذى هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشرهم: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾، أى: شهاب[٢] من نار. وفى الآية الأخرى: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ [القصص: ٢٩]، وهى: الجمر الذى معه لهب، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩] ،دلّ على وجود البرد، وقوله: ﴿بِقَبَسٍ﴾ دلّ على وجود الظلام.

وقوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أى: من يهدينى الطريق، دلّ على أنه قد تاه عن الطريق، كما قال الثورى، عن أبى سعد الأعور، عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ قال: من يهدينى إلى الطريق. وكانوا شاتين وضلوا الطريق، فلما رأى النار قال: إن لم أجد أحداً يهدينى إلى الطريق آتكم[٣] بنار توقدون بها.

﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ (١٣) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (١٦) ﴾.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أى: النار واقترب[٤] منها، ﴿نُودِيَ يَا مُوسَىٰ﴾ وفى الآية الأخرى: ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]، وقال هاهنا ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ أى: الذى يكلمك ويخاطبك، ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ قال على بن أبى طالب، وأبو ذر، وأبو أيوب، وغير واحد من السلف: كانتا من جلد حمار غير ذكىّ.

وقيل: إنما أمره بخلع نعليه تعظيماً للبقعة.

قال سعيد بن جبير: كما يؤمر الرجل أن يخلع نعليه إذا أراد أن يدخل[٥] الكعبة.

وقيل: ليطأ الأرض المقدسة بقدميه حافياً غير منتعل. وقيل: غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿ طُوًى﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هو اسم للوادى.

وكذا قال غير واحد، فعلى هذا يكون عطف بيان.

وقيل: عبارة عن الأمر بالوطء بقدميه.

---

(١) فى ف: «له». (٢) فى ف: «بشهاب». (٣) فى أ: «آتيتكم».
(٤) فى ف: «وقرب»، وفى أ: «واقرب». (٥) فى ف، أ: «أراد دخول».

وقيل: لأنه قُدّس مرتين، وطوى له البركة وكررت: والأول أصح، كقوله[١]: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[النازعات: ١٦] .

وقوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ كقوله : ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾[الأعراف: ١٤٤] أى: على جميع الناس منَ الموجودين فى زمانه.

و[قد][٢] قيل: إن اللَّه تعالى قال: ياموسى، أتدرى لم خصصتك بالتكليم من بين الناس؟ [قال: لا. قال:][٣] لأنى لم يتواضع لى أحد تواضعك.

وقوله : ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ أى: اسمع الآن ما أقول لك وأوحيه إليك ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾: هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا اللَّه، وحده لا شريك لـه.

وقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ أى: وحّدنى وَقُم بعبادتى من غير شريك، ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ قيل: معناه: صَلِّ لتذكرنى. وقيل: معناه: وأقم الصلاة عند ذكرك لى .

ويشهد لهذا الثانى ما قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا المثنى بن سعيد، عن قتادة، عن أنس، عن النبى ﷺ قال: «إذا رَقَد أحدكم عن الصلاة، أو غفل عنها، فليصلها إذا ذكرها؛ فإن اللَّه تعالى قال: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾»[٤] .

وفى الصحيحين عن أنس قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «من نام عن صلاة أو نسيها، فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك»[٥] .

وقوله : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ أى: قائمة لا محالة، وكائنة لابد منها.

وقوله : ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ قال الضحاك، عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها: «أكاد أخفيها من نفسى»، يقول: لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: من نفسه. وكذا قال مجاهد، وأبو صالح، ويحيى بن رافع.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس : ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ يقول: لا أطلع عليها أحداً غيرى .

وقال السدى: ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا قد أخفى اللَّه عنه علم الساعة، وهى فى قراءة ابن مسعود: «إنى أكاد أخفيها من نفسى»، يقول: كتمتها من الخلائق، حتى لو استطعت أن أكتمها من نفسى لفعلت .

وقال قتادة: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ وهى فى بعض القراءة أخفيها من نفسى، ولعمرى لقد أخفاها اللَّه من

---

(١) فى ف: «لقوله» . (٢، ٣) زيادة من ف، أ.

(٤) المسند (٣/ ١٨٤).

(٥) صحيح البخارى برقم (٥٩٧) وصحيح مسلم برقم (٦٨٤).

الملائكة المقربين، ومن الأنبياء والمرسلين.

قلت: وهذا كقوله تعالى: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً﴾[الأعراف: ١٨٧] أى: ثقل علمها على أهل السموات والأرض.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة حدثنا مِنْجَاب، حدثنا أبو نُمَيْلة، حدثنى محمد بن سهل الأسدى، عن وِقَاء قال: أقرأنيها سعيد بن جبير (أَكاد أَخْفِيها)، يعنى: بنصب[١] الألف وخفض الفاء، يقول: أظهرها، ثم [قال][٢]: أما سمعت قول الشاعر[٣]:

دَأبَ شَهْرَين، ثم شهراً دَمِيكاً بأريكَين يَخْفِيان غَمِيرًا

وقال الأسدى: الغَمِير: نبت رطب، ينبت فى خلال يبس. والأريكين: موضع، والدميك: الشهر التام. وهذا الشعر لكعب بن زهير.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾، أى: أقيمها لا محالة، لأجزى كل عامل بعمله، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[الزلزلة: ٧، ٨]، و﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

وقوله: ﴿فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾، المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين، أى: لا تتبعوا [سبيل][٤] من كذب بالساعة، وأقبل على ملاذه فى دنياه، وعصى مولاه، واتبع هواه، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ أى: تهلك وتعطب[٥] قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ [الليل: ١١].

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَىٰ (٢١)﴾.

هذا برهان من الله تعالى لموسى، عليه السلام، ومعجزة عظيمة، وخرق للعادة باهر، دال[٦] على أنه لا يقدر على مثل هذا إلا الله عز وجل، وأنه لا يأتى به إلا نبى مرسل، وقوله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ﴾، قال بعض المفسرين: إنما قال له ذلك على سبيل الإيناس له. وقيل: إنما قال له

---

(١) فى أ: «ونصب». (٢) زيادة من ف.

(٣) هو كعب بن زهير، والبيت فى ديوانه (ص١٧٤) أ.هـ مستفادا من حاشية الشعب.

(٤) زيادة من ف، أ.

(٥) فى ف، أ: «وتردى أى هلك وعطب» وفى أ: «ردى».

(٦) فى ف، أ: «باهرة دالة».

ذلك على وجه التقرير، أى: أما هذه التى فى يمينك عصاك التى تعرفها، فسترى ما نصنع بها الآن، ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ استفهام تقرير. ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ أى: أعتمد عليها فى حال المشى ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ أى: أهز بها الشجرة ليسقط ورقها، لترعاه غنمى .

قال عبد الرحمن بن القاسم: عن الإمام مالك: والهش: أن يضع الرجل المِحْجَن فى الغصن، ثم يحركه حتى يسقط ورقه وثَمَره، ولا يكسر العود، فهذا الهش، ولا يَخْبط. وكذا قال ميمون بن مهران أيضاً .

وقوله: ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ أى: مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك .

وقد تكلف[١] بعضهم لذكر شىء من تلك المآرب التى أبهمت، فقيل: كانت تضىء له بالليل، وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تظله، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة .

والظاهر أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى صيرورتها ثعباناً، فما كان يفر منها هارباً، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية[٢] ، وكذا قول بعضهم: إنها كانت لآدم، عليه السلام. وقول الآخر: إنها هى الدابة التى تخرج قبل يوم القيامة. وروى عن ابن عباس أنه قال :كان اسمها ماشا. والله أعلم بالصواب.

وقوله تعالى :﴿[قَالَ][٣] أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ أى: هذه العصا التى فى يدك يا موسى، ألقها ﴿فَأَلْقَاهَا[٤] فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ أى: صارت فى الحال حَيَّة عظيمة، ثعباناً طويلاً، يتحرك حركة سريعة، فإذا هى تهتز كأنها جان، وهو[٥] أسرع الحيات حركة، ولكنه صغير، فهذه فى غاية الكبر، وفى غاية سرعة الحركة، ﴿تَسْعَىٰ﴾ أى: تمشى وتضطرب.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن عَبْدَة، حدثنا حفص بن جُمَيْع، حدثنا سِمَاك، عن عكرمة، عن [ابن عباس][٦] : ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾: ولم تكن قبل ذلك حية، فمرت بشجرة فأكلتها، ومرت بصخرة فابتلعتها، فجعل موسى يسمع وقع الصخرة فى جوفها، فولى مدبراً، فنودى أن: ياموسى، خذها. فلم يأخذها، ثم نودى الثانية أن: خذها ولا تخف. فقيل له فى الثالثة: إنك من الآمنين. فأخذها.

وقال وهب بن مُنَبّه فى قوله :﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ قال: فألقاها على وجه الأرض، ثم حانت نظرة فإذا أعظم[٧] ثعبان نظر إليه الناظرون، فَدَبَّ يلتمس كأنه يبتغى شيئاً يريد أخْذَه، يمر بالصخرة مثل الخَلِفَة من الإبل فيلتقمها، ويطعن بالناب من أنيابه فى أصل الشجرة العظيمة فيجتثها، عيناه توقدان ناراً، وقد عاد المِحْجَن منها عُرفاً. قيل: شعر مثل النيازك، وعاد الشعبتان منها مثل القَلِيب الواسع، فيه أضراس وأنياب، لها صريف، فلما عاين ذلك موسى ولى مدبراً ولم يُعَقِّب،

---

(١) فى أ: «تكلم» . (٢) فى أ: «الإسرائيليات» . (٣) زيادة من ف .
(٤) فى ف: «فألقيها» . (٥) فى ف: «وهى» . (٦) زيادة من ف .
(٧) فى ف: «بأعظم» .

فذهب حتى أمعن، ورأى أنه قد أعجزَ الحية، ثم ذكر ربه فوقف استحياء منه، ثم نودى: يا موسى أنْ: ارجع حيث كنت. فرجع موسى وهو شديد الخوف، فقال: ﴿خُذْهَا ﴾ بيمينك ﴿وَلا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾، وعلى موسى حينئذ مدْرَعة من صوف، فدخلها بخلال من عيدان، فلما أمره بأخذها أدلى طرف المدرعة على يده، فقال له ملك[1]: أرأيت ياموسى، لو أذن اللّه بما تحاذر أكانت المدرعة تغنى عنك شيئاً؟ قال: لا، ولكنى ضعيف، ومن ضَعْف خلقت. فكشف عن يده ثم وضعها على فم الحية، حتى سمع حسّ الأضراس والأنياب، ثم قَبض فإذا هى عصاه التى عهدها، وإذا يده فى موضعها الذى كان يضعها إذا توكأ بين الشعبتين؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأُولَى﴾ أى: إلى حالها[2] التى تعرف قبل ذلك.

﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣) اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي(٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَٰرُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥) ﴾ .

وهذا بُرهان ثان لموسى، عليه السلام، وهو أن اللّه أمره أن يدخل يده فى جيبه، كما صرح به فى الآية الأخرى، وهاهنا عبر عن ذلك بقوله: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾، وقال فى مكان آخر: ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾[القصص: ٣٢].

وقال مجاهد: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾: كفه تحت عضده .

وذلك أن موسى، عليه السلام، كان إذا أدخل يده فى جيبه ثم أخرجها، تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر .

وقوله: ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أى: من غير بَرَص ولا أذى، ومن غير شين. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحاك، والسدى، وغيرهم.

وقال الحسن البصرى: أخرجها ـ واللّه ـ كأنها مصباح، فعلم موسى أنه قد لقى ربه عز وجل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ .

وقال وهب: قال له ربه: ادْنُهْ: فلم يزل يدنيه حتى شدّ ظهره بجذع الشجرة، فاستقر وذهبت عنه الرعدة، وجمع يده فى العصا، وخضع برأسه وعنقه.

وقوله: ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أى: اذهب إلى فرعون ملك مصر، الذى خَرَجت فاراً منه

---

(١) فى ف: «مالك» .

(٢) فى ف: «حالتها» .

وهارباً، فادعه إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له، ومره فَلْيُحْسِن إلى بنى إسرائيل ولا يعذبهم، فإنه قد طغى وبَغَى، وآثر الحياة الدنيا، ونسى الرب الأعلى.

قال وهب بن مُنَبِّه: قال اللّه لموسى: انطلق برسالتى فإنك بعينى وسمعى، وإنى[(١)] معك أيدى ونَصْرِى، وإنى قد ألبستك جُنَّةً من سلطانى لتستكمل بها القوة فى أمرى، فأنت جند عظيم من جندى، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقى، بطر نعمتى، وأمن مكرى، وغرته الدنيا عنى، حتى جَحَد حقى، وأنكر ربوبيتى، وزعم أنه لا يعرفنى، فإنى أقسم بعزتى، لولا القدر الذى وضعت بينى وبين خلقى، لبطشت به بطشة جبار، يغضب لغضبه السموات والأرض، والجبال والبحار، فإن أمرت السماء حصبته، وإن أمرت الأرض ابتلعته، وإن أمرت الجبال دمرته، وإن أمرت البحار غرقته، ولكنه هان علىّ، وسقط من عينى، ووسعه حلمى، واستغنيت بما عندى، وحقى إنى أنا الغنىّ لا غنىّ غيرى، فبلغه رسالتى، وادعه إلى عبادتى وتوحيدى وإخلاصى، وذكره أيامى[(٢)]، وحذره نقمتى وبأسى، وأخبره أنه لا يقوم شىء لغضبى، وقل له فيما بين ذلك قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى، وخَبِّره[(٣)] أنى إلى العفو والمغفرة أسرع منى إلى الغضب والعقوبة، ولا يروعنك ما ألبسته من لباس الدنيا، فإن ناصيته بيدى، ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذنى. وقل له: أجب ربك فإنه واسع المغفرة، وقد أمهلك أربعمائة سنة، فى كلها أنت مبارزه بالمحاربة، تسبه وتتمثل به وتصدّ عباده عن سبيله وهو يمطر عليك السماء، وينبت لك الأرض، [و][(٤)] لم تسقم ولم تهرم ولم تفتقر [ولم تغلب][(٥)] ولو شاء أن يعَجِّل لك العقوبة لفعل، ولكنه ذو أناة وحلم عظيم. وجاهده بنفسك وأخيك وأنتما تحتسبان بجهاده[(٦)]. فإنى لو شئت أن آتيه بجنود لا قبل له بها لفعلت، ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذى قد أعجبته نفسه وجموعه أن الفئة القليلة ـ ولا قليل منى ـ تغلب الفئة الكثيرة بإذنى، ولا تعجبنكما[(٧)] زينته، ولا ما متّع به، ولا تمدا إلى ذلك أعينكما، فإنها زهر[(٨)] الحياة الدنيا، وزينة المترفين. ولو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة، ليعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما، فعلت، ولكنى أرغب بكما عن ذلك، وأزويه عنكما. وكذلك أفعل بأوليائى، وقديماً ما جرت عادتى فى ذلك، فإنى لأذودُهم عن نعيمها ورخائها، كما يذود الراعى الشفيق إبله عن مبارك الغرة، وما ذاك لهوانهم علىّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتى سالماً موفراً لم تكْلَمْه الدنيا.

واعلم أنه لم يتزين لى العباد بزينة هى أبلغ مما[(٩)] عندى من الزهد فى الدنيا، فإنها زينة المتقين، عليهم منها لباس يُعْرَفون به من السكينة والخشوع، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود، أولئك أوليائى حقاً حقاً، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك، وذلل قلبك ولسانك، واعلم أنه من أهان لى

---

(١) فى ف: «وإن». (٢) فى أ: «وذكره. آياتى». (٣) فى ف: «وأخبره».
(٤) زيادة من ف. (٥) زيادة من أ. (٦) فى أ: «وإنما يحتسب أن يجاهده».
(٧) فى ف، أ: «يعجبكما». (٨) فى ف، أ: «زهرة». (٩) فى ف، أ «فيما».

ولياً أو أخافه، فقد بارزنى بالمحاربة، وبادأنى وعرض لى نفسه ودعانى إليها، وأنا أسرع شىء إلى نصرة أوليائى، أفيظن الذى يحاربنى أن يقوم لى، أم يظن الذى يعادينى أن يعجزنى، أم[١] يظن الذى يبارزنى أن يسبقنى أو يفوتنى. وكيف وأنا الثائر لهم فى الدنيا والآخرة، لا أَكِلُ مضطرهم[٢] إلى غيرى.

رواه ابن أبى حاتم.

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾: هذا سؤال من موسى، عليه السلام، لربه عز وجل، أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطب جسيم. بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم، وأشدهم كفراً، وأكثرهم جنوداً، وأعمرهم ملكاً، وأطغاهم وأبلغهم تمرداً، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف اللَّه، ولا يعلم لرعاياه إلهاً غيره.

هذا وقد مكث موسى فى داره مدة وليداً عندهم، فى حجر فرعون، على فراشه، ثم قتل منهم نفساً فخافهم أن يقتلوه، فهرب منهم هذه المدة بكمالها. ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل إليهم نذيراً يدعوهم إلى اللَّه عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي. وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أى: إن لم تكن أنت عونى ونصيرى، وعضدى وظهيرى، وإلا فلا طاقة لى بذلك.

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي . يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾، وذلك لما كان أصابه من اللثغ، حين عرض عليه التمرة والجمرة، ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه، كما سيأتى بيانه، وما سأل أن يزول ذلك بالكلية، بل بحيث[٣] يزول العى، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة. ولو سأل الجميع لزال، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة، ولهذا بقيت بقية، قال اللَّه تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] أى: يفصح بالكلام.

وقال الحسن البصرى: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴾ قال: حل عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أعطى.

وقال ابن عباس: شكا موسى إلى ربه ما يتخوف من آل فرعون فى القتيل، وعقدة لسانه، فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءاً ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فآتاه سؤله، فحل عقدة من لسانه.

وقال ابن أبى حاتم: ذُكِرَ عن عَمْرو بن عثمان، حدثنا بَقِيّة، عن أرطاة بن المنذر، حدثنى بعض أصحاب محمد بن كعب، عنه قال: أتاه ذو قرابة له. فقال له: ما بك بأس لولا أنك تلحن فى كلامك، ولست تعرب فى قراءتك؟ فقال القرظى: يا بن أخى، ألست أفهمك إذا حدثتك[٤]؟. قال:

---

(١) فى أ: «أو». (٢) فى ف، أ : «نصرتهم». (٣) فى أ: «بحيث ما».
(٤) فى أ : «حدثت».

نعم. قال: فإن موسى، عليه السلام، إنما سأل ربه أن يحل[1] عقدة من لسانه كي يفقه بنو إسرائيل كلامه، ولم يزد عليها. هذا لفظه.

وقوله: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي . هَٰرُونَ أَخِي﴾: وهذا أيضاً سؤال من موسى فى أمر خارجى عنه، وهو مساعدة أخيه هارون له.

قال الثورى، عن أبى سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال: فَنُبِّئَ هارون ساعتئذ حين نبئ موسى، عليهما السلام.

وقال ابن أبى حاتم: ذكر عن ابن نُمَير، حدثنا أبو أسامة، عن هشام بن عروة[2]، عن أبيه، عن عائشة أنها خرجت فيما كانت تعتمر، فنزلت ببعض الأعراب، فسمعت رجلاً يقول: أىّ أخ كان فى الدنيا[3] أنفع لأخيه؟ قالوا: ما ندرى. قال: والله أنا أدرى[4]. قالت: فقلت فى نفسى: فى حلفه لا يستثنى، إنه ليعلم أى أخ كان فى الدنيا أنفع لأخيه. قال: موسى حين سأل لأخيه النبوة. فقلت: صدق والله. قلت: وفى[5] هذا قال الله تعالى فى الثناء على موسى، عليه السلام: ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقوله: ﴿اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي﴾ قال مجاهد: ظهرى ﴿وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ أى: فى مشاورتى، ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا . وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾، قال مجاهد: لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً، حتى يذكر الله قائما وقاعداً ومضطجعاً. وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ أى: فى اصطفائك لنا، وإعطائك إيانا النبوة، وبعثتك لنا إلى عدوك فرعون، فلك الحمد على ذلك.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا (٤٠)﴾.

هذه[6] إجابة من الله لرسوله موسى، عليه السلام، فيما سأل من ربه عز وجل، وتذكير[7] له بنعمه السالفة عليه، فيما كان ألهم أمه حين كانت ترضعه، وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه؛ لأنه كان قد ولد فى السنة التى يقتلون فيها الغلمان. فاتخذت له تابوتاً، فكانت[8] ترضعه ثم تضعه فيه، وترسله فى البحر ـ وهو النيل ـ وتمسكه إلى منزلها بحبل فذهبت مرة لتربطه[9] فانفلت منها

---

(١) فى ف، أ: «يحلل». (٢) فى أ: «هشام بن عون». (٣) فى ف، أ: «فى الدنيا كان».
(٤) فى ف: «أنا والله أدرى». (٥) فى أ: «ومن». (٦) فى ف، أ: «هذا».
(٧) فى ف، أ: «وتذكيرًا» (٨) فى ف، أ: «وكانت». (٩) فى ف، أ: «لتربط الحبل».

وذهب به البحر، فحصل لها من الغم والهم ما ذكره الله عنها فى قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠] ،فذهب به البحر إلى دار فرعون ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨] ،أى قدراً مقدوراً[١] من الله، حيث كانوا هم يقتلون الغلمان[٢] من بنى إسرائيل، حذراً من وجود موسى، فحكم الله ـ وله السلطان العظيم، والقدرة التامة ـ ألا يربى إلا على فراش فرعون، ويغذى بطعامه وشرابه، مع محبته وزوجته له؛ ولهذا قال: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [أى: عند عدوك، جعلته يحبك.

قال سلمة بن كُهَيل: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾][٣] قال :حببتك إلى عبادى.

﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ قال أبو عمران الجونى: تربى بعين الله.

وقال قتادة: تغذى على عينى .

وقال معمر بن المثنى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ بحيث أرى.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعنى أجعله فى بيت الملك ينعم ويترف، غذاؤه عندهم غذاء الملك، فتلك الصنعة.

وقوله: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ وذلك أنه لما استقر عند آل فرعون، عرضوا عليه المراضع، فأباها، قال الله عز وجل: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ فجات أخته وقالت[٤]: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]. تعنى[٥]: هل أدلكم على من ترضعه[٦] لكم بالأجرة؟ فذهبت به وهم معها إلى أمه، فعرضت عليه ثديها، فقبله، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً، واستأجروها على إرضاعه فنالها بسببه سعادة ورفعة وراحة فى الدنيا وفى الآخرة[٧] أغنم وأجزل؛ ولهذا جاء فى الحديث: «مثل الصانع الذى يحتسب[٨] فى صنعته الخير، كمثل أم موسى، ترضع ولدها وتأخذ أجرها»[٩].

وقال تعالى هاهنا: ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ ﴾ أى: عليك، ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ يعنى: القبطى، ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾: وهو ما حصل له بسبب عزم آل فرعون على قتله[١٠]، ففر منهم هارباً، حتى ورد ماء مدين، وقال له ذلك الرجل الصالح: ﴿لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

وقوله: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ قال الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى، رحمه الله، فى كتاب التفسير من سننه، قوله: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾:

---

(١) فى أ: «أى قدراً مقدراً». (٢) فى أ : «العلماء». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ف، أ: «فقالت». (٥) فى ف، أ: «يعنى». (٦) فى ف: «يرضعه».
(٧) فى أ: «الأخرى». (٨) فى ف، أ : «يحسب».
(٩) روى أبو داود فى المراسيل برقم (٣٣٢) من طريق جبير بن نفير نحوه ولفظه «مثل الذين يغزون من أمتى ويأخذون الجعل ويتقوون على عدوهم به مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها».
(١٠) فى ف : «آل فرعون ليقتلوه» وفى أ: «ليقتله».

حديث الفتون

حدثنا عبد اللَّه بن محمد، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا أصبغ بن زيد، حدثنا القاسم بن أبى أيوب، أخبرنى سعيد بن جبير، قال: سألت عبد اللَّه بن عباس عن قول اللَّه، عز وجل، لموسى، عليه السلام: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ فسألته عن الفتون ما هو؟ فقال: استأنف النهار يا بن جبير، فإن لها حديثاً طويلاً. فلما أصبحت غدوت إلى[1] ابن عباس لأنتجز منه ما وعدنى من حديث الفتون، فقال: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم، عليه السلام[2]، أن يجعل فى ذريته أنبياء وملوكاً، فقال بعضهم: إن بنى إسرائيل ينتظرون ذلك، ما [3] يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم،فقال فرعون: فكيف ترون؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار، يطوفون فى بنى إسرائيل، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه. ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بنى إسرائيل يموتون بآجالهم، والصغار يذبحون، قالوا: يوشك أن تفنوا بنى إسرائيل، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التى[4] كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر، فيقل أبناؤهم[5]، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار؛ فإنهم لن يكثروا[6] بمن تستحيون منهم فتخافوا مكاثرتهم إياكم، ولم يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم، فأجمعوا أمرهم على ذلك.

فحملت أم موسى بهارون فى العام الذى لا يذبح فيه الغلمان، فولدته علانية آمنة. فلما كان من قابل حملت بموسى، عليه السلام، فوقع فى قلبها الهَمّ والحزن، وذلك من الفتون ـ يا بن جبير ـ ما دخل عليه فى بطن أمه، مما يراد به، فأوحى اللَّه [جل ذكره][7] إليها أن: ﴿لَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧] فأمرها إذا ولدت أن تجعله فى تابوت ثم تلقيه[8] فى اليم. فلما ولدت فعلت ذلك، فلما توارى عنها ابنُها أتاها الشيطان، فقالت فى نفسها: ما فعلت بابنى، لو ذبح عندى فواريته وكفنته، كان أحب إلىّ من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه.

فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فُرْضَة مستقى جوارى امرأة فرعون، فلما رأينه أخذنه فهممن أن يفتحن التابوت، فقال بعضهن[9]: إن فى هذا مالاً، وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدناه فيه، فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئاً حتى رفعنه[10] إليها. فلما فتحته رأت فيه غلاماً، فألقى عليه منها[11] محبة لم يلق منها على أحد قط. وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً من ذكر كل شىء، إلا من ذكر موسى.

فلما سمع الذباحون بأمره، أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه، وذلك من الفتون يابن

(١) فى ف، أ: «على».
(٢) فى ف، أ: ﷺ.
(٣) فى ف: «ما كانوا».
(٤) فى أ: «الذى».
(٥) فى أ: «بناتهم».
(٦) فى أ: «يكبروا».
(٧) زيادة من ف، أ.
(٨) فى ف، أ: «وتلقيه».
(٩) فى أ: «بعضهم».
(١٠) فى ف، أ: «دفعنه».
(١١) فى ف، أ: «عليها منه».

جبير، فقالت لهم: أقروه، فإن هذا الواحد لا يزيد فى بنى إسرائيل حتى آتى فرعون فأستوهبه منه، فإن وهبه لى كنتم قد أحسنتم وأجملتم، وإن أمر بذبحه لم ألُمكُم.

فأتت فرعون فقالت: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ [القصص: ٩] فقال فرعون: يكون لك، فأما لى فلا حاجة لى فيه. فقال رسول اللّه ﷺ: «والذى يُحْلَف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له[١]، كما أقرت امرأته، لهداه اللّه كما هداها، ولكن [٢] حرمه ذلك». فأرسلت إلى من حولها، إلى كل امرأة لها لبن لتختار له ظئراً، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت، فأحزنها ذلك، فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس، ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها، فلم يقبل، وأصبحت أم موسى والهاً، فقالت لأخته: قصى أثره واطلبيه، هل تسمعين له ذكراً، أحىّ ابنى أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت ما كان اللّه وعدها فيه، فبصرت به أخته عن جنب وهم لا يشعرون - والجُنُب: أن يسمو بصر الإنسان إلى شىء بعيد[٣]، وهو إلى جنبه[٤]، وهو لا يشعر به - فقالت من الفرح حين أعياهم الظُّؤُرات: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون. فأخذوها فقالوا: ما يدريك؟ ما نصحهم له؟ هل يعرفونه[٥]؟ حتى شكوا فى ذلك، وذلك من الفتون يابن جبير. فقالت: نصحهم[٦] له وشفقتهم عليه رغبتهم فى ظؤرة الملك، ورجاء منفعة الملك. فأرسلوها فانطلقت إلى أمها[٧]، فأخبرتها الخبر. فجاءت أمه، فلما وضعته فى حجرها نزا إلى ثديها فمصَّه، حتى امتلأ جنباه رياً، وانطلق البشراء إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئراً. فأرسلت إليها. فأتت بها وبه، فلما رأت ما يصنع بها قالت: امكثى ترضعى ابنى هذا، فإنى لم أحب شيئاً حبه قط. قالت أم موسى: لا أستطيع أن أدع بيتى وولدى فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتى، فيكون معى لا آلوه خيراً [فعلت، وإلا][٨] فإنى غير تاركة بيتى وولدى. وذكرت أم موسى ما كان اللّه وعدها فيه، فتعاسرت على امرأة فرعون، وأيقنت أن اللّه منجز وعده[٩]، فرجعت به إلى بيتها من يومها، [وأنبته][١٠] اللّه نباتاً حسناً وحفظه[١١] لما قد قضى فيه.

فلم يزل بنو إسرائيل، وهم فى ناحية القرية، ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم، فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى: أتريني[١٢] ابنى؟ فَوَعَدَتْها يوماً [١٣] تريها إياه فيه، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظُؤُرها وقهارمتها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابنى اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك[١٤]، وأنا باعثة أميناً يحصى[١٥] ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والنحل

(١) في ف، أ: « أن يكون له قرة عين».
(٢) فى أ: «ولكن الله حرمه».
(٣) فى ف، أ: «الشىء البعيد».
(٤) فى ف، أ: «ناحية».
(٥) فى ف، أ: «تعرفونه».
(٦) فى ف، أ: «نصيحتهم».
(٧) فى ف، أ: « أمه».
(٨) زيادة من ف، أ، والطبرى.
(٩) فى ف، أ: «موعوده».
(١٠) فى ف: «فانبته».
(١١) فى أ: «حفظ».
(١٢) فى أ: «تريني».
(١٣) فى أ: «يوما أن».
(١٤) فى أ: «ذلك فيه».
(١٥) فى ف: «يحصى كل».

والكرامة[١] تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها نحلته[٢] وأكرمته، وفرحت به، ونحلت أمه لحسن أثرها عليه، ثم قالت: لآتين به فرعون فَلَيَنْحَلَنَّه[٣] وليكرمنه، فلما دخلت به عليه جعله في حجره، فتناول موسى لحية فرعون يمدها[٤] إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء اللَّه لفرعون: ألا ترى ما وعد اللَّه إبراهيم نبيه، إنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك، فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه. وذلك من الفتون يابن جبير بعد كل بلاء ابتلى به، وأريد به[٥].

فجاءت امرأة فرعون فقالت[٦]: ما بدا لك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟ فقال[٧]: ألا ترينه يزعم أنه يصرعني ويعلوني! فقالت: اجعل بيني وبينك أمراً يعرف فيه الحق، ائت بجمرتين ولؤلؤتين، فَقَرِّبْهُنَّ إليه، فإن بطش باللؤلؤتين[٨] واجتنب الجمرتين فاعرف[٩] أنه يعقل، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين، علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل. فقرب إليه فتناول الجمرتين، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة: ألا ترى؟ فصرفه اللَّه عنه بعد ما كان قد همّ به، وكان اللَّه بالغاً فيه أمره.

فلما بلغ أشده وكان من الرجال، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بني إسرائيل معه بظلم ولا سخرة، حتى امتنعوا كل الامتناع، فبينما موسى، عليه السلام، يمشي في ناحية المدينة، إذا[١٠] هو برجلين يقتتلان، أحدهما فرعوني والآخر إسرائيلي، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فغضب موسى غضباً شديداً؛ لأنه تناوله وهو يعلم منزلته[١١] من بني إسرائيل وحفظه لهم، لا يعلم الناس إلا أنما ذلك من الرضاع، إلا أم موسى، إلا أن يكون اللَّه[سبحانه][١٢] أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره. فوكز[١٣] موسى الفرعوني فقتله، وليس يراهما أحد إلا اللَّه عز وجل والإسرائيلي، فقال موسى حين قتل الرجل: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥]. ثم قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦] فأصبح في المدينة خائفاً يترقب الأخبار، فأتى فرعون، فقيل له: إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون فخذ لنا بحقنا[١٤] ولا ترخص لهم. فقال: ابغوني قاتله، ومن يشهد عليه، فإن الملك وإن كان صَغْوه مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بينة ولا ثبت، فاطلبوا لي علم ذلك آخذ لكم بحقكم. فبينما هم يطوفون ولا[١٥] يجدون ثبتاً، إذا بموسى[١٦] من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلي يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلي على الفرعوني، فصادف موسى قد ندم على ما كان منه وكره الذي رأى، فغضب الإسرائيلي وهو يريد أن يبطش بالفرعوني، فقال:

---

(١) في ف: «والكرامة والنحل». (٢) في أ: «بجلته». (٣) في أ: «فليبجلنه».
(٤) في ف، أ: «فمدها». (٥) في ف، أ: «به فتونا». (٦) في أ: «فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون فقالت».
(٧) في ف: «فقالت». (٨) في ف: «باللؤلؤ». (٩) في أ: «فعرفت».
(١٠) في ف: «إذ». (١١) في ف: «منزله». (١٢) زيادة من أ.
(١٣) في ف، أ: «فوكزه». (١٤) في ف، أ: «بحقك». (١٥) في ف: «لا».
(١٦) في ف: «موسى».

للإسرائيلى لما فعل بالأمس واليوم: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾. فنظر الإسرائيلى إلى موسى بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذى قتل فيه الفرعونى، فخاف أن يكون بعد ما قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص:١٨] أن يكون إياه أراد، ولم يكن أراده، وإنما أراد الفرعونى. فخاف الإسرائيلى وقال: ﴿يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القصص:١٩] وإنما قاله[١] مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله، فتتاركا، وانطلق الفرعونى فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلى من الخبر حين يقول: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾. فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون فى الطريق الأعظم يمشون على هينتهم يطلبون موسى ،وهم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة، فاختصر طريقاً حتى سبقهم إلى موسى، فأخبره[٢]. وذلك من الفتون يابن جبير.

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين، لم يلق بلاء قبل ذلك، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل، فإنه قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ . وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: ٢٢، ٢٣] يعنى بذلك حابستين غنمهما، فقال لهما: ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا[٣] :ليس لنا قوة نزاحم القوم، إنما ننتظر فضول حياضهم. فسقى لهما، فجعل يغترف فى الدلو ماء كثيراً، حتى كان أول الرعاء، فانصرفتا[٤] بغنمهما إلى أبيهما، وانصرف موسى، عليه السلام، فاستظل بشجرة، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤]. واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حُفَّلاً بطاناً فقال: إن لكما اليوم لشأنا، فأخبرتاه بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأتت موسى فدعته، فلما كلمه قال: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:٢٥]. ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ولسنا فى مملكته، فقالت إحداهما: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٦] فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته؟ وما أمانته؟ فقالت: أما قوته، فما رأيت منه فى الدلو حين سقى لنا، لم أر رجلاً قط أقوى فى ذلك السقى منه، وأما الأمانة فإنه نظر إلىّ حين أقبلت إليه وشخصت له، فلما علم أنى امرأة صوّب رأسه فلم يرفعه، حتى بلغته رسالتك. ثم قال لى: امشى خلفى، وانعتى لى الطريق. فلم يفعل هذا إلا وهو أمين، فسرى عن أبيها وصدقها، وظن به الذى قالت.

فقال له: هل لك ﴿أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص:٢٧] ففعل فكانت على نبى الله موسى ثمانى سنين واجبة، وكانت سنتان عدة منه، فقضى الله عنه عدته فأتمها عشراً.

قال سعيد ـ وهو ابن جبير ـ : فلقينى رجل من أهل النصرانية من علمائهم قال: هل تدرى أىّ

(١) فى ف ، أ: «قال له». (٢) فى ف، أ: «فأخبره الخبر». (٣) فى ف: «فقالتا».
(٤) فى ف: «وانصرفتا».

الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا. وأنا يومئذ لا أدرى. فلقيت ابن عباس، فذكرت له ذلك، فقال: أما علمت أن ثمانياً كانت على نبى اللّه واجبة، لم يكن لنبى اللّه أن ينقص[1] منها شيئاً، ويعلم أن اللّه كان قاضياً عن موسى عدته التى وعده فإنه قضى عشر سنين. فلقيت النصرانى فأخبرته ذلك، فقال: الذى سألته فأخبرك أعلم منك بذلك. قلت: أجل، وأولى.

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص اللّه عليك فى القرآن، فشكا إلى اللّه تعالى[2] ما يتخوف من آل فرعون فى القتيل وعقدة لسانه، فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون، يكون له ردءاً، ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه. فآتاه اللّه سؤله، وحل عقدة من لسانه، وأوحى اللّه إلى هارون وأمره أن يلقاه. فاندفع موسى بعصاه حتى لقى هارون، عليهما[3] السلام. فانطلقا جميعاً إلى فرعون، فأقاما على بابه حيناً لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد، فقالا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه:٤٧]. قال: فمن ربكما؟ فأخبره بالذى قص اللّه عليك فى القرآن؟ قال: فما تريدان؟ وذكره القتيل، فاعتذر بما قد سمعت. قال: أريد أن تؤمن باللّه، وترسل معى بنى إسرائيل؟ فأبى عليه وقال: ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٤]. فألقى عصاه [فإذا هى][4] حية تسعى عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون. فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها، فاقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفها عنه. ففعل، ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء ـ يعنى من غير برص ـ ثم ردها فعادت إلى لونها الأول. فاستشار الملأ حوله فيما رأى، فقالوا[5] له: هذان ساحران ﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ [طه:٦٣]، يعنى: ملكهم الذى هم فيه والعيش، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئاً مما طلب، وقالوا له: اجمع السحرة[6]، فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما. فأرسل إلى[7] المدائن فحشر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا: بم يعمل هذا الساحر؟ قالوا: يعمل بالحيات. قالوا: فلا واللّه ما أحد فى الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال والعصى الذى نعمل. وما أجرنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربى وخاصتى، وأنا صانع إليكم كل شىء أحببتم، فتواعدوا يوم الزينة، وأن يحشر الناس ضحى.

قال سعيد بن جبير: فحدثنى ابن عباس: أن يوم الزينة الذى أظهر اللّه فيه موسى على فرعون والسحرة، هو يوم عاشوراء.

فلما اجتمعوا فى صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر، ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠]، يعنون موسى وهارون استهزاء بهما، فقالوا: يا موسى ـ لقدرتهم بسحرهم ـ ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾ [الأعراف: ١١٥]، ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ [طه: ٦٦]، ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤] فرأى

(١) فى ف: « نبى الله ﷺ لينقص». (٢) فى ف، أ: «الله سبحانه». (٣) فى ف: «عليه».
(٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى ف: «فقالا». (٦) فى ف: «اجمع السحرة لهما».
(٧) فى ف، أ: «فى».

موسى من سحرهم ما أوجس فى نفسه خيفة فأوحى اللَّه إليه أن ألق عصاك، فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فاغرة فاها، فجعلت العصى تلتبس بالحبال حتى صارت جَزَراً إلى الثعبان، تدخل فيه، حتى ما أبقت عصا ولا حبالاً[١] إلا ابتلعته، فلما عرفت[٢] السحرة ذلك قالوا: لو كان هذا سحراً لم يبلغ من سحرنا كل هذا، ولكنه أمر من اللَّه عز وجل، آمنا باللَّه[٣] وبما جاء به موسى، ونتوب إلى اللَّه مما كنا عليه. فكسر اللَّه ظهر فرعون فى ذلك[٤] الموطن وأشياعه، وظهر الحق، وبطل ما كانوا يعملون ﴿فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٩] وامرأة فرعون بارزة متبذلة[٥] تدعو اللَّه بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه، وإنما كان حزنها وهمها لموسى.

فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بنى إسرائيل، فإذا مضت أخلف موعده وقال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟. فأرسل اللَّه على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، كل ذلك يشكو إلى موسى ويطلب إليه أن يكفها عنه، ويواثقه على أن يرسل معه بنى إسرائيل، فإذا كف ذلك أخلف موعده، ونكث عهده.

حتى أمر اللَّه موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل فى المدائن حاشرين، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة، وأوحى اللَّه إلى البحر: إذا ضربك عبدى موسى بعصاه فانفلق اثنتى عشرة فرقة، حتى يجوز موسى ومن معه، ثم التق على من بقى بَعْدُ من فرعون وأشياعه. فنسى موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر وله قَصِيف، مخافة أن يضربه موسى بعصاه وهو غافل فيصير عاصياً للَّه.

فلما تراءى الجمعان وتقاربا، قال أصحاب موسى: إنا لمدركون، افعل ما أمرك به ربك، فإنه لم يكذب ولم تكذب. قال وعدنى[٦] أن إذا أتيت البحر انفرق اثنتى عشرة فرقة، حتى أجاوزه. ثم ذكر بعد ذلك العصا فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى، فلما أن جاز موسى وأصحابه كلهم البحر، ودخل فرعون وأصحابه، التقى عليهم البحر كما أمر، فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه: إنا نخاف ألا يكون فرعون غرق ولا نؤمن بهلاكه. فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه.

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩]. قد رأيتم من العِبَر وسمعتم ما يكفيكم ومضى. فأنزلهم موسى منزلاً وقال[٧]: أطيعوا هارون، فإنى قد استخلفته عليكم، فإنى ذاهب إلى ربى. وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها، فلما أتى ربه وأراد

---

(١) فى ف، أ: «حبلا».
(٢) فى ف: «عرف» وفى أ: «علم».
(٣) فى أ: «به».
(٤) فى ف، أ: «هذا».
(٥) فى ف: «مبتذلة».
(٦) فى ف: «وعدنى ربى».
(٧) فى ف، أ: «وقال لهم».

أن يكلمه فى ثلاثين يوماً وقد صامهن، ليلهن ونهارهن، وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فم الصائم، فتناول موسى من نبات الأرض شيئاً فمضغه، فقال له ربه حين أتاه: لم أفطرت؟ وهو أعلم بالذى كان، قال: يارب، إنى كرهت أن أكلمك إلا وفمى طيب الريح. قال: أوما علمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب من ريح المسك، ارجع فصم عشراً ثم ائتنى. ففعل موسى، عليه السلام، ما أمر[١] به، فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم فى الأجل، ساءهم ذلك. وكان هارون قد خطبهم وقال: إنكم قد خرجتم من مصر، ولقوم فرعون عندكم عوارى وودائع، ولكم فيهم مثل ذلك وأنا[٢] أرى أنكم تحتسبون[٣] ما لكم عندهم، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية، ولسنا برادّين إليهم شيئاً[٤] من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا، فحفر حفيراً، وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقذفوه فى ذلك الحفير، ثم أوقد عليه النار فأحرقه، فقال[٥]: لا يكون لنا ولا لهم.

وكان السامرى من قوم يعبدون البقر، جيران لبنى إسرائيل ولم يكن من بنى إسرائيل، فاحتمل مع موسى وبنى إسرائيل حين احتملوا، فقضى له أن رأى أثراً فقبض[٦] منه قبضة، فمر بهارون، فقال له هارون، عليه السلام: يا سامرى، ألا تلقى ما فى يدك؟ وهو قابض عليه، لا يراه أحد طوال ذلك، فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذى جاوز بكم البحر، ولا ألقيها لشىء إلا أن تدعو اللَّه إذا ألقيتها أن يكون ما أريد. فألقاها، ودعا له هارون، فقال: أريد أن يكون عجلاً. فاجتمع ما كان فى الحفيره من متاع أو حلية أو نحاس أو حديد، فصار عجلاً أجوف. ليس فيه روح، وله خوار.

قال ابن عباس: لا واللَّه، ما كان له صوت قط، إنما كانت الريح تدخل فى[٧] دبره وتخرج من فيه، فكان ذلك الصوت من ذلك.

فتفرق بنو إسرائيل فرقاً، فقالت فرقة: يا سامرى ما هذا؟ وأنت أعلم به. قال: هذا ربكم ولكن موسى أضل الطريق. وقالت فرقة: لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى، فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأيناه، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى. وقالت فرقة: هذا عمل الشيطان، وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق، وأشرب فرقة في قلوبهم الصدق بما قال السامرى فى العجل، وأعلنوا التكذيب به، فقال لهم هارون: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾[طه: ٩٠]. قالوا[٨]: فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوماً ثم أخلفنا، هذه أربعون يوماً قد مضت؟ وقال[٩] سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو يطلبه ويتبعه.

فلما كلم اللَّه موسى وقال له ما قال، أخبره بما لقى قومه من بعده، ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ [طه:٨٦]، فقال لهم ما سمعتم فى القرآن، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وألقى

---

(١) فى ف، أ: «أمره». (٢) فى ف: «وإنى». (٣) فى ف: «تحتسبوا».
(٤) فى ف: «شيئا إليهم». (٥) فى ف: «وقال». (٦) فى ف، أ: «فأخذ».
(٧) فى ف، أ: «من». (٨) فى أ: «هكذا قالوا». (٩) فى ف: «فقال».

الألواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره، واستغفر له وانصرف[١] إلى السامرى فقال له: ما حملك على ماصنعت؟ قال: قبضت قبضة من أثر الرسول، وفطنت لها[٢] وعُمّيت عليكم فقذفتها ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي . قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٦، ٩٧]، ولو كان إلها لم يخلص إلى ذلك منه. فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأى هارون، فقالوا لجماعتهم: يا موسى، سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها، فيكفر عنا ما عملنا. فاختار موسى قومه سبعين رجلا لذلك، لا يألو الخير، خيارَ بنى إسرائيل، ومن لم يشرك فى العجل، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض، فاستحيا نبى اللَّه من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل فقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ [الأعراف: ١٥٥] وفيهم من كان اطلع الله منه[٣] على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به، فلذلك رجفت بهم الأرض، فقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]. فقال: يا رب، سألتك التوبة لقومى، فقلت: إن رحمتى كتبتها لقوم غير قومى، هلا أخرتنى حتى تخرجنى فى أمة ذلك الرجل المرحومة؟ فقال له: إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم[٤] مَنْ لقى من والد وولد، فيقتله بالسيف، ولا[٥] يبالى من قتل فى ذلك الموطن، وتاب أولئك الذين كان خفى على موسى وهارون واطلع اللَّه من ذنوبهم فاعترفوا بها، وفعلوا ما أمروا، وغفر اللَّه للقاتل والمقتول.

ثم سار بهم موسى، عليه السلام[٦]، متوجهاً نحو الأرض المقدسة، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب، فأمرهم بالذى أمر به أن يبلغهم من الوظائف، فثقل ذلك عليهم، وأبوا أن يُقرّوا بها، فنتق اللَّه عليهم الجبل كأنه ظلة، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل، والكتاب بأيديهم، وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم. ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون خَلْقُهُم خَلْق منكر ـ وذكروا من ثمارهم أمراً عجيباً من عظمها ـ فقالوا: يا موسى إن فيها قوماً جبارين، لا طاقة لنا بهم، ولا ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون. قال رجلان من الذين يُخَافُون ـ قيل ليزيد: هكذا قرأه؟ قال: نعم من الجبارين، آمنا بموسى، وخرجا إليه، فقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم، فإنهم لا قلوب لهم ولا مَنَعة عندهم، فادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ـ ويقول أناس: إنهم[٧] من قوم موسى. فقال الذين يخافون، بنو إسرائيل: ﴿[قَالُوا][٨] يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، فأغضبوا موسى، فدعا عليهم وسماهم فاسقين، ولم يدع عليهم قبل ذلك، لما رأى

---

(١) فى ف: «فانصرف». (٢) فى ف: «إليها». (٣) فى ف: «الله اطلع منه».
(٤) فى ف: «منهم كل». (٥) فى ف: «لا». (٦) فى ف، أ: «ﷺ».
(٧) فى ف، أ: «إنهما». (٨) زيادة من أ.

منهم من المعصية وإساءتهم حتى كان يومئذ فاستجاب اللَّه له وسماهم كما سماهم[١] فاسقين، فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض، يصبحون كل يوم فيسيرون، ليس لهم قرار، ثم ظلل عليهم الغمام فى التيه، وأنزل عليهم المنّ والسلوى، وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتسخ، وجعل بين ظهرانيهم[٢] حجراً مربعاً، وأمر موسى فضربه بعصاه. فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، فى كل ناحية ثلاث[٣] أعين، وأعلم كل سِبْط عينهم[٤] التى يشربون منها، فلا يرتحلون من مَنْقَلَة إلا وجدوا ذلك الحجر معهم بالمكان الذى كان فيه بالأمس.

رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبى ﷺ، وصَدَّق ذلك عندى أن معاوية سمع ابن عباس يحدث[٥] هذا الحديث، فأنكر عليه أن يكون الفرعونى الذى أفشى على موسى أمر القتيل الذى قتل، فقال: كيف يُفْشى عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلى الذى حضر ذلك؟. فغضب ابن عباس، فأخذ بيد معاوية فانطلق به إلى سعد بن مالك الزهرى، فقال له: يا أبا إسحاق، هل تذكر يوم حدثنا رسول اللَّه ﷺ عن قتيل موسى الذى قتل من آل فرعون؟ الإسرائيلى الذى أفشى عليه أم الفرعونى؟ قال: إنما أفشى عليه الفرعونى، بما سمع من الإسرائيلى الذى شهد على ذلك وحضره.

هكذا رواه الإمام النسائى فى السنن الكبرى، وأخرجه أبو جعفر بن جرير وابن أبى حاتم فى تفسيريهما[٦]، كلهم من حديث يزيد بن هارون به[٧]، وهو موقوف من كلام ابن عباس، وليس فيه مرفوع إلا قليل منه، وكأنه تلقاه ابن عباس، رضى اللَّه عنه[٨]، مما أبيح نقله من الإسرائيليات عن كعب الأحبار أو غيره، واللَّه أعلم. وسمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول ذلك أيضاً.

﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾.

يقول تعالى مخاطباً لموسى، عليه السلام: إنه لبث مقيماً فى أهل «مدين» فاراً من فرعون وملئه، يرعى على صهره، حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقاً لقدر اللَّه وإرادته من غير ميعاد، والأمر كله للَّه[٩] تبارك وتعالى، وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء؛ ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ [يَا مُوسَىٰ][١٠]﴾ قال مجاهد: أى على موعد.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة فى قوله: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ﴾ قال: على قدر

(١) فى ف، أ: «كما سماهم موسى». (٢) فى ف: «أظهرهم». (٣) فى ف: «ثلاثة».
(٤) فى أ: «منهم». (٥) فى أ: «حدث». (٦) فى أ: «فى تفسيرهما».
(٧) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٢٦) وتفسير الطبرى (١٦/ ١٢٥).
(٨) فى ف، أ: «عنهما». (٩) فى ف: «له». (١٠) زيادة من ف، أ.

الرسالة والنبوّة.

وقوله: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أى: اصطفيتك واجتبيتك رَسُولاً لنفسى، أى: كما أريد وأشاء.

وقال البخارى عند تفسيرها: حدثنا الصَّلْتُ بن محمد، حدثنا مهدىّ بن ميمون، حدثنا محمد ابن سِيرين عن أبى هريرة، عن رسول اللّه ﷺ قال: «التقى آدم وموسى، فقال موسى: أنت الذى أشقيت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ فقال آدم: وأنت الذى اصطفاك اللّه برسالته واصطفاك لنفسه، وأنزل عليك التوراة؟ قال: نعم. قال: فوجدتَه قد كتب عَلَىّ قبل أن يخلقنى؟ قال: نعم. فحَجّ آدم موسى» أخرجاه [١].

﴿اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ أى: بحُجَجى وبراهينى ومعجزاتى، ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ قال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس: لا تُبْطئا.

وقال مجاهد، عن ابن عباس: لا تَضْعُفا.

والمراد أنهما لا يفتران فى ذكر اللّه، بل يذكران اللّه فى حال مواجهة فرعون، ليكون ذكرُ اللّه عوناً لهما عليه، وقوّة لهما وسلطاناً كاسراً له، كما جاء فى الحديث: «إن عبدى كل عبدى للذى[٢] يذكرنى وهو مُنَاجِز قِرْنه»[٣].

﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾، أى: تمرّد وعتا وتَجَهْرم على اللّه وعصاه، ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون فى غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة اللّه من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين، كما قال يزيد الرقاشى عند قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾: يا من يتحبب إلى من يعاديه فكيف بمن يتولاه ويناديه؟

وقال وهب بن مُنَبِّه: قولا له: إنى إلى العفو والمغفرة أقربُ منى إلى الغضب والعقوبة.

وعن عكرمة فى قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾، قال: لا إله إلا اللّه، وقال[٤] عمرو بن عبيد، عن الحسن البصرى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾: أعْذِرا إليه، قولا له: إن لك رباً ولك معاداً، وإن بين يديك جنة وناراً.

وقال بقيَّة، عن على بن هارون، عن رجل، عن الضحاك بن مُزَاحم، عن النَّزَّال بن سَبْرَة، عن على فى قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ قال: كَنِّه.

وكذا روى عن سفيان الثورى: كَنّه بأبى مُرَّة.

(١) صحيح البخارى برقم (٤٧٣٦).

(٢) فى أ: «الذى».

(٣) رواه الترمذى فى السنن برقم (٣٥٨٠) من حديث عمارة بن زعكرة رضى الله عنه.

وقال: الترمذى «هذا حديث غريب ولانعرفه إلا من هذا الوجه، وليس إسناده بالقوى».

(٤) فى أ: «وعن».

والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين قريب سهل، ليكون أوقع فى النفوس وأبلغ وأنجع، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ الآية [النحل: ١٢٥] .

[قوله](١): ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أى: لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة، ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾ أى: يُوجد طاعة من خشية ربه، كما قال تعالى: «لمن أراد أن يذكر أو يخشى»(٢) فالتذكر: الرجوع عن المحذور، والخشية: تحصيل الطاعة.

وقال الحسن البصرى[فى قوله](٣) : ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ يقول: لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون: أهلكه قبل أن أعذر(٤) إليه.

وهاهنا نذكر شعر زيد بن عمرو بن نفيل ،ويروى لأمَيّة بن أبى الصَّلْت فيما ذكره ابن إسحاق:

وأنت الذى من فضل مَنٍّ ورحمة ... بعثت إلى موسى رسولاً مناديا
فقلت له يا اذهب وهارون فادعُوَا ... إلى اللّه فرعون الذى كان باغيا
فقولا له هل أنت سوّيت هذه ... بلا وتد حتى استقلت كما هيا
وقولا له آأنت رفَّعت هذه ... بلا عمد؟ أرفق إذن بك بانيا
وقولا له آأنت سويت وسطها ... منيراً إذا ما جنَّه الليل هاديا
وقولا له من يخرج الشمس بكرةً ... فيصبح مامست من الأرض ضاحيا
وقولا له من ينبت الحب فى الثرى ... فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه فى رؤوسه(٥) ... ففى ذاك آيات لمن كان واعيا(٦)

﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨)﴾ .

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون، عليهما السلام، أنهما قالا مستجيرين باللّه تعالى شاكيَيْن

(١) زيادة من ف، وفى أ: «وقوله» .
(٢) هكذا في كل النسخ، وليست آية .
(٣) زيادة من أ .
(٤) فى ف: «تعذرا»، وفى أ: «يعذر» .
(٥) فى أ: «دويبة» .
(٦) السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٢٨) .

إليه: ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾، يعنيان أن يَبْدُر إليهما بعقوبة، أو يعتدى عليهما، فيعاقبهما وهما لا يستحقان منه ذلك.

قال عبد الرحمن بن زيد: ﴿ أَن يَفْرُطَ ﴾: يَعْجَل.

وقال مجاهد: يبسط علينا.

وقال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾: يعتدى.

﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ أى: لا تخافا منه، فإننى معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى علىّ من أمركم شىء، واعلما أن ناصيته بيدى، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذنى وبعد أمرى، وأنا معكما بحفظى ونصرى وتأييدى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطَّنَافسىّ، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبى عبيدة، عن عبد اللَّه قال: لما بعث اللَّهُ عَزّ وجل موسى إلى فرعون قال: رب، أىّ شىء أقول؟ قال: قل: هيا شراهيا. قال الأعمش: فَسَّرَ ذلك: الحى قبل كل شىء، والحى بعد كل شىء.

إسناد جيد، وشىء غريب.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، قد تقدم فى حديث «الفتون» عن ابن عباس أنه قال: مكثا[(١)] على بابه حيناً لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد.

وذكر محمد بن إسحاق بن يسار: أن موسى وأخاه هارون خرجا، فوقفا بباب فرعون يلتمسان الإذن عليه وهما يقولان: إنا رسل[(٢)] رب العالمين، فآذنوا بنا هذا الرجل، فمكثا فيما بلغنى سنتين يَغْدوان ويروحان، لا يعلم بهما ولا يجترئ أحد على أن يخبره بشأنهما، حتى دخل عليه بَطَّال له يلاعبه ويُضْحكه، فقال له: أيها الملك، إن على بابك رجلاً يقول قولاً عجيباً، يزعم أن له إلهاً[(٣)] غيرك أرسله إليك. قال: ببابى؟ قال: نعم. قال: أدخلوه، فدخل ومعه أخوه هارون وفى يده عصاه، فلما وقف على فرعون قال: إنى رسول رب العالمين. فعرفه فرعون.

وذكر السّدّى أنه لما قدم بلاد مصر، ضاف أمّه وأخاه وهما لا يعرفانه، وكان طعامهما[(٤)] ليلتئذ الطعثلل[(٥)] وهو اللفت، ثم عرفاه وسلما عليه، فقال له موسى: يا هارون، إن ربى قد أمرنى أن آتى هذا الرجل فرعون فأدعوه إلى اللَّه، وأمر[(٦)] أن تعاوننى. قال: افعل ما أمرك ربك. فذهبا، وكان ذلك ليلاً، فضرب موسى باب القصر بعصاه، فسمع فرعون فغضب وقال[(٧)]: من يجترئ على هذا

---

(١) فى ف: «عن ابن عباس أنهما مكثا فى بابه»، وفى أ: «عن ابن عباس أنه قال: مكثا فى بابه».
(٢) فى أ: «رسول».
(٣) فى أ: «أن له إله» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه.
(٤) فى أ: «وكان طعامهم».
(٥) فى أ: «الطفسل».
(٦) في ف، أ: «وأمرك».
(٧) فى ف، أ: «فقال».

الصنيع؟ فأخبره السدنة والبوابون[1] بأن ههنا رجلاً مجنوناً يقول: إنه رسول اللَّه. فقال: علىّ به. فلما وقفا بين يديه قالا وقال لهما ما ذكر[2] اللَّه فى كتابه.

وقوله: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أى: بدلالة ومعجزة من ربك، ﴿وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ أى: والسلام عليك إن اتبعت الهدى.

ولهذا لما كتب رسول اللَّه ﷺ إلى هرقل عظيم الروم [كتاباً، كان أوله: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم، من محمد رسول اللَّه إلى هرقل عظيم الروم][3] سلام على من اتبع الهدى. أما بعد،[فإنى أدعوك بدعاية الإسلام][4] فأسلم تسلم يؤتك اللَّه أجرك مرتين».

وكذلك لما كتب مسيلمة إلى رسول اللَّه ﷺ كتاباً صُورتُه: «من مسيلمة رسول اللَّه إلى محمد رسول اللَّه ،سلام عليك. أما بعد، فإنى قد أشركت[5] فى الأمر مَعَكَ، فلك المدر[6] ولى الوَبَر، ولكن قريش[7] قوم يعتدون». فكتب إليه رسول الله ﷺ: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين»[8].

ولهذا قال موسى وهارون، عليهما السلام، لفرعون: ﴿وَالسَّلامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ . إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أى: قد أخبرنا الله فيما أوحاه إلينا من الوحى المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله وتولى عن طاعته، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ . وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا .فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات ٣٧ ـ ٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ . لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى .الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الليل: ١٤ ـ ١٦]، وقال تعالى: ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّىٰ .وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢]. أى: كذب بقلبه وتولى بفعله.

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَىٰ (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّى وَلا يَنسَى (٥٢)﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون أنه قال لموسى منكرًا وجود الصانع الخالق، إله كل شىء وربه ومليكه، قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ﴾، أى: الذى بعثك وأرسلك مَنْ هو؟ فإنى لا أعرفه، وما علمت لكم من إله غيرى، ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس يقول: خلق لكل شىء زَوْجة.

---

(١) فى أ: «والبوابين» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه.

(٢) فى ف: «ذكره». (٣، ٤) زيادة من ف، أ.

(٥) فى ف، أ: «اشتركت». (٦) فى أ: «فلك الدر». (٧) فى ف، أ: «قريشًا».

(٨) السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٠٠).

وقال الضحاك عن ابن عباس: جعل الإنسان إنسانًا، والحمار حمارًا، والشاة شاةً.

وقال ليث بن أبى سُلَيم، عن مجاهد: أعطى كل شىء صورته.

وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: سَوّى خلق كل دابة.

وقال سعيد بن جبير فى قوله: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، قال: أعطى كل ذى خَلْق ما يصلحه من خلْقه، ولم يجعل للإنسان من خَلْق الدابة، ولا للدابة من خلق الكلب، ولا للكلب[١] من خلق الشاة، وأعطى كل [٢] شىء ما ينبغى له من النكاح، وهيّأ كلّ شىء على ذلك، ليس شىء منها يشبه شيئًا من أفعاله[٣] فى الخَلْق والرزق والنكاح.

وقال بعض المفسرين: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣] أى: قدر قدرًا، وهدى الخلائق إليه، أى: كَتَبَ الأعمال والآجال والأرزاق، ثم الخلائق ماشون على ذلك، لا يحيدون عنه، ولا يقدر أحد على الخروج منه. يقول: ربنا الذى خلق [الخلق][٤]، وقدر القَدَر، وجَبَل الخليقة على ما أراد.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾: أصح الأقوال فى معنى ذلك: أن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذى أرسله هو الذى خلق ورزق وقدر فهدى، شرع يحتج بالقرون الأولى، أى: الذين لم يعبدوا الله، أى: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول، لم يعبدوا ربك[٥]، بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى فى جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم[٦] عند الله مضبوط عليهم، وسيجزيهم بعملهم فى كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، أى: لا يشذ عنه[٧] شىء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئًا. يصف علمه تعالى بأنه بكل شىء محيط، وأنه لا ينسى شيئًا، تبارك وتعالى وتقدس، فإن علم المخلوق يعتريه نقصانان[٨] أحدهما: عدم الإحاطة بالشىء، والآخر نسيانه بعد علمه، فنزه نفسه عن ذلك.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥) وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦)﴾.

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه، عز وجل، حين سأله فرعون عنه، فقال: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، ثم اعترض الكلام بين ذلك، ثم قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

---

(١) فى أ: «ولا للخلق».
(٢) فى ف، أ: «كل ذى».
(٣) فى ف: «من فعاله».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) فى ف، أ: «لم يعبدوه».
(٦) فى ف، أ: «علمهم».
(٧) فى ف: «عليه».
(٨) فى ف، أ: «نقصان».

﴿مِهَادًا﴾، وفي قراءة بعضهم: «مهداً» أي: قرارًا تستقرون[(١)] عليها وتقومون وتنامون عليها[(٢)] وتسافرون[(٣)] على ظهرها، ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: جعل لكم طرقا تمشون في مناكبها، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ أي: [من][(٤)] ألوان النباتات من زروع، وثمار، من حامض وحلو، وسائر الأنواع.

﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ أي: شيء لطعامكم وفاكهتكم، وشيء لأنعامكم لأقواتها خضرا ويابسًا.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي: لدلالات وحججا[(٥)] وبراهين ﴿لِّأُولِي النُّهَى﴾ أي: لذوي العقول السليمة المستقيمة، على أنه لا إله إلا الله، ولا رب سواه.

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ أي: من الأرض مبدؤكم، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي: وإليها تصيرون إذا متم وبليتم، ومنها نخرجكم تارة أخرى. ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ٢٥].

وفي الحديث الذي في السنن أن رسول الله ﷺ حضر جنازة، فلما دفن الميت أخذ قبضة من التراب فألقاها في القبر ثم قال[(٦)]: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ ثم [أخذ][(٧)] أخرى وقال: ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾. ثم أخذ أخرى وقال: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾، يعني: فرعون، أنه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات، وعاين ذلك وأبصره، فكذب بها وأباها كفرًا وعنادًا وبغيًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩)﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون أنه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى، وهي إلقاء عصاه فصارت ثعبانًا عظيما ونزع يده من تحت جناحه فخرجت[(٨)] بيضاء من غير سوء فقال: هذا سحر، جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس، فيتبعونك وتكاثرنا بهم، ولا يتم هذا معك، فإن عندنا سحرًا مثل

---

(١) في ف: «يستقرون». (٢) في ف: «ويقومون وينامون عليها». (٣) في ف: «ويسافرون».
(٤) زيادة من ف، أ. (٥) في أ: «وحجج» وهو خطأ والصواب ما أثبتناه. (٦) في أ: «وقال».
(٧) زيادة من ، ف، أ. (٨) في أ: «فتخرج».

سحرك، فلا يغرنك ما أنت فيه ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ أى: يومًا نجتمع نحن وأنت فيه، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر فى مكان معين ووقت معين فعند ذلك ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ وهو يوم عيدهم ونَوروزُهم وتفرغهم من أعمالهم واجتماعهم جميعهم؛ ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء، ومعجزات الأنبياء، وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية، ولهذا قال: ﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ﴾ أى: جميعهم ﴿ضُحًى﴾ أى: ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح، وهكذا شأن الأنبياء، كل أمرهم واضح، بيّن، ليس فيه خفاء ولا ترويج؛ ولهذا لم يقل «ليلاً» ولكن نهارًا ضحى.

قال ابن عباس: وكان يوم الزينة يوم عاشوراء.

وقال السدى، وقتاده، وابن زيد: كان يوم عيدهم.

وقال سعيد بن جبير: يوم سوقهم.

ولا منافاة. قلت: وفى مثله أهلك الله فرعون وجنوده، كما ثبت فى الصحيح.

وقال وهب بن مُنَبِّه: قال فرعون: يا موسى، اجعل بيننا وبينك أجلاً ننظر فيه. قال موسى: لم أومر بهذا، إنما أمرت بمناجزتك، إن أنت لم تخرج دخلت إليك. فأوحى الله إلى موسى أن اجعل بينك وبينه أجلاً وقل له أن يجعل هو. قال فرعون: اجعله إلى أربعين يومًا. ففعل.

وقال مجاهد، وقتادة: ﴿مَكَانًا سُوًى[1]﴾: مَنْصَفًا. وقال السدى: عدلا. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ [مستوى][2] يتبين الناس ما[3] فيه، لا يكون صَوَب[4] ولا شىء يتغيب بعض ذلك عن بعض مستوٍ حتى[5] يُرى.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ (٦٤)﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن فرعون أنه لما تواعد هو بموسى [6]، عليه السلام، إلى وقت ومكان معلومين، تولى، أى: شرع فى جمع السحرة من مدائن مملكته، كل من ينسب[7] إلى سحر فى ذلك الزمان. وقد كان السحر فيهم كثيرًا نافقًا جدًا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩].

---

(١) فى أ: «سويا».
(٢) زيادة من ف، أ.
(٣) فى أ: «وما».
(٤) فى أ: «ولاصوت».
(٥) فى ف، أ: «مستوى».
(٦) فى أ: «تواعد هو وموسى».
(٧) فى أ: «كل من يسب».

﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ أى: اجتمع الناس لميقات يوم معلوم وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف له أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة وأقبل موسى، عليه السلام، يتوكأ على عصاه، ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدى فرعون صفوفًا، وهو يحرضهم ويحثهم، ويرغبهم فى إجادة عملهم فى ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم، فيقولون: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ[(١)] إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[الشعراء: ٤١، ٤٢]. ﴿قَالَ[(٢)] لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أى: لا تُخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها، وأنها مخلوقة، وليست مخلوقة، فتكونون قد كذبتم على الله، ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ أى: يهلككم بعقوبة هلاكًا لا بقية له، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ . فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾قيل: معناه: أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقائل يقول: ليس هذا بكلام ساحر، إنما هذا كلام نبى. وقائل يقول: بل هو ساحر. وقيل غير ذلك، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾أى: تناجوا فيما بينهم، ﴿قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ هذه لغة لبعض العرب، جاءت هذه القراءة على إعرابها، ومنهم من قرأ: ﴿إِنْ هَٰذَيْنِ لَسَاحِرَانِ﴾، وهذه اللغة المشهورة، وقد توسع النحاة فى الجواب عن القراءة الأولى بما ليس هذا موضعه.

والغرض أن السحرة قالوا فيما بينهم: تعلمون[(٣)] أن هذا الرجل وأخاه ـ يعنون: موسى وهارون ـ ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر، يريدان فى هذا اليوم أن يغلباكم وقومكم ويستوليا على الناس، وتتبعهما العامة ويقاتلا فرعون وجنوده، فينتصرا عليه ويخرجاكم من أرضكم.

وقوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ أى: ويستبدا بهذه الطريقة، وهى السحر، فإنهم كانوا معظمين بسببها، لهم أموال وأرزاق عليها، يقولون[(٤)]: إذا غلب هذان أهلكاكم وأخرجاكم من الأرض، وتفردا بذلك، وتمحضت لهما الرياسة بها دونكم.

وقد تقدم فى حديث الفتون عن[(٥)] ابن عباس [قال][(٦)] فى قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ يعنى: ملكهم الذى هم فيه والعيش.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا هُشَيْم، عن عبد الرحمن بن إسحاق، سمع الشعبى يحدث عن على فى قوله: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ قال: يصرفا[(٧)] وجوه الناس إليهما.

وقال مجاهد: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ قال: أولى الشرف والعقل والأسنان.

وقال أبو صالح: ﴿بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ أشرافكم وسرواتكم. وقال عكرمة: بخيركم. وقال قتادة: وطريقتهم المثلى يومئذ بنو إسرائيل، كانوا أكثر القوم عددًا وأموالاً، فقال عدو الله: يريدان أن يذهبا بها لأنفسهما.

---

(١) فى ف: «إنكم». (٢) فى أ: «فقال». (٣) فى ف، أ: «يعلمون».
(٤) فى ف: «يقولان». (٥) فى ف، أ: «أن». (٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى ف، أ: «يصرفان».

وقال عبد الرحمن بن زيد: ﴿ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴾، بالذى أنتم عليه.

وقوله: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ﴾ أى اجتمعوا كلكم[1] صفًا واحدًا، وألقوا ما فى أيديكم مرة واحدة، لتبهروا الأبصار، وتغلبوا هذا وأخاه، ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾ أى: منا ومنه، أما نحن فقد وَعَدنا هذا الملك العطاء الجزيل، وأما هو فينال الرياسة العظيمة.

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) ﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن السحرة حين توافقوا هم وموسى، عليه السلام، أنهم قالوا لموسى: ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ ﴾ أى: أنت أولاً ﴿ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ . قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾ أى: أنتم أولاً ليُرى ماذا تصنعون من السحر، وليظهر للناس جلية أمرهم، ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾. وفى الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٤٤] وقال تعالى: ﴿سَحَرُوا[2] أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وقال هاهنا ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ .

وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد، بحيث يخيل للناظر[3] أنها تسعى باختيارها، وإنما كانت حيلة، وكانوا جمًا غفيرًا وجمعًا كبيرًا[4]، فألقى كل منهم عصا وحبلا، حتى صار الوادى ملآن حيات يركب بعضها بعضًا.

وقوله ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ أى خاف على الناس أن يَفْتَتنوا بسحرهم ويغتروا بهم قبل أن يلقى ما فى يمينه، فأوحى الله تعالى إليه فى الساعة الراهنة أن ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ ﴾ يعنى: عصاه، فإذا هى ﴿ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ﴾ وذلك أنها صارت تنّينًا[5] عظيمًا هائلاً ذا عيون وقوائم وعنق ورأس وأضراس، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق[6] منها شيئًا إلا تلقفته وابتلعته، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانًا جَهْرة، نهارًا ضحوة. فقامت المعجزة، واتضح البرهان، وبطل ما كانوا يعملون[7]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن موسى الشيبانى[8]، حدثنا حماد بن خالد، حدثنا ابن معاذ ـ أحسبه الصائغ ـ عن الحسن، عن جُنْدَب بن عبد الله البجلى قال: قال رسول الله

---

(١) في أ: «كلهم». (٢) فى ف: «فسحروا». (٣) فى ف، أ: «للناظرين».
(٤) فى ف، أ: «كثيرًا». (٥) فى ف، أ: «ثعبانًا». (٦) فى ف: «لم يبق».
(٧) فى ف، أ : «ووقع الحق وبطل السحر». (٨) فى ف: «ابن الشيبانى».

ﷺ «إذا أخذتم ـ يعنى: الساحر ـ فاقتلوه»، ثم قرأ: ﴿وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ قال: «لا يؤمن به حيث وجد».

وقد روى أصله الترمذى موقوفًا ومرفوعًا(١).

فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه، ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه، علموا علم اليقين أن هذا الذى فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل، وأنه حق لا مرية فيه، ولا يقدر على هذا إلا الذى يقول للشىء كن فيكون، فعند ذلك وقعوا سُجَّدًا لله وقالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَىٰ وَهَرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨].

ولهذا قال ابن عباس، وعُبَيد بن عُمَير: كانوا أول النهار سحرة، وفى آخر النهار شهداء بررة.

قال محمد بن كعب: كانوا ثمانين ألفًا، وقال القاسم بن أبى بَزَّة: كانوا سبعين ألفًا.

وقال السدى: بضعة وثلاثين ألفًا.

وقال الثورى: عن عبد العزيز بن رُفَيع، عن أبى ثمامة: كان(٢) سحرة فرعون تسعة عشر ألفًا.

وقال محمد بن أبى إسحاق: كانوا خمسة عشر ألفًا.

وقال كعب الأحبار: كانوا اثنى عشر ألفًا.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن على بن حمزة، حدثنا(٣) على بن الحسين بن واقد، عن أبيه، عن يزيد النحوى، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: كانت السحرة سبعين رجلاً، أصبحوا سحرة وأمسوا شهداء.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا المسيب بن واضح بمكة، حدثنا ابن المبارك قال: قال الأوزاعى: لما خرَّ السحرة سُجَّدًا رُفعت لهم الجنة حتى نظروا إليها.

قال: وذُكر عن سعيد بن سلام: حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن سليمان، عن سالم الأفطس، عن سعيد بن جبير قوله: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ قال: رأوا منازلهم تبنى لهم وهم فى سجودهم. وكذا قال عكرمة والقاسم بن أبى بَزَّة.

---

(١) سنن الترمذى برقم(١٤٦٠) من طريق إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن جندب رضى الله عنه وقال: «هذا حديث لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكى يضعف فى الحديث، وإسماعيل بن مسلم العبدى البصرى قال وكيع: هو ثقة ويروى عن الحسن أيضًا والصحيح عن جندب موقوف، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم».
تنبيه:
ذكر الحافظ المزي هذا الحديث في كتابه تحفة الأشراف(٢/٤٤٦) من مسند جندب الخير الأزدى لا من مسند جندب بن عبد الله البجلى رضى الله عنهما فليتنبه».

(٢) فى أ: «كانوا».

(٣) فى أ: «حدثنا محمد بن موسى حدثنى على بن الحسين».

﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ (٧١) قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِى فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ(٧٣)﴾.

يقول تعالى مخبرًا عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرته الحق بالباطل، حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم وغُلب كل الغَلَب ـ شرع فى المكابرة والبهت، وعدل إلى استعمال جاهه وسلطانه فى[1] السحرة، فتهددهم وأوعدهم[2]، وقال ﴿آمَنتُمْ لَهُ﴾ أى: صدقتموه ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ أى: وما أمرتكم بذلك، وافتتم[3] علىّ فى ذلك. وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بَهْت وكذب: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ أى: أنتم إنما أخذتم السحر عن موسى، واتفقتم أنتم وإياه علىّ وعلى رعيتى، لتظهروه، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

ثم أخذ يتهددهم فقال: ﴿فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أى: لأجعلنكم مثلة [ولأقتلكنم][4] ولأشهرنكم.

قال ابن عباس: فكان أول من فعل ذلك. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ أى أنتم تقولون: إنى وقومى على ضلالة، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى. فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه.

فلما صال عليهم بذلك وتوعدهم، هانت عليهم أنفسهم فى الله عز وجل، و ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أى: لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين. ﴿وَالَّذِى فَطَرَنَا﴾ يحتمل أن يكون قسمًا، ويحتمل أن يكون معطوفًا على البينات.

يعنون: لا[5] نختارك على فاطرنا وخالقنا الذى أنشأنا من العدم، المبتدئ خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت.

﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ أى: فافعل ما شئت وما وَصَلَت إليه يدك، ﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أى: إنما لك تَسَلُّط فى هذه الدار، وهى دار الزّوال ونحن قد رغبنا فى دار القرار[6].

---

(١) فى ف: «إلى». (٢) فى ف: «وتوعدهم» وفى أ: «فهددهم وتوعدهم». (٣) فى ف: «واقسم» وفي أ: «واقشم».
(٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى ف، أ: «لن». (٦) فى أ: «البقاء».

﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ أى: ما كان منا من الآثام، خصوصًا ما أكرهتنا عليه من السحر لنعارض به آية الله تعالى ومعجزة نبيه.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا سفيان بن عُيَيْنَة، عن أبى سعيد، عن عكرمة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ قال: أخذ فرعون أربعين غلامًا من بنى إسرائيل، فأمر أن يعلموا السحر بالفَرَمَا، وقال: علموهم تعليمًا لا يعلمه[1] أحد فى الأرض. قال ابن عباس: فهم من الذين آمنوا بموسى، وهم من الذين قالوا: ﴿[إِنَّا][2] آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾.

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقوله: ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أى: خير لنا منك ﴿وَأَبْقَى﴾ أى: أدوم ثوابًا مما كنت وعدتنا ومنيتنا. وهو رواية عن ابن إسحاق، رحمه الله.

وقال محمد بن كعب القُرَظِى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ ﴾ أى: لنا منك إن أطيع، ﴿وَأَبْقَى﴾ أى: منك عذابًا إن عُصِىَ.

وروى نحوه عن ابن إسحاق أيضًا:

والظاهر أن فرعون ـ لعنه الله ـ صمم على ذلك وفعله بهم، رحمهم الله؛ ولهذا قال ابن عباس وغيره من السلف: أصبحوا سحرة، وأمسَوْا شهداء.

﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى (٧٤) وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ (٧٦) ﴾.

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدى، ويرغبونه فى ثوابه الأبدى المخلد، فقالوا: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ أى: يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم، ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى﴾ كقوله: ﴿لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ .ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١١ ـ ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا إسماعيل، أخبرنا سعيد بن يزيد، عن أبى نَضْرَة، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا

---

(١) فى أ: «يغلبهم».

(٢) زيادة من ف.

يحيون ولكن [الناس][(١)] تصيبهم النار بذنوبهم، فتميتهم إماتة، حتى إذا صاروا فحمًا، أذن فى الشفاعة، جيء بهم ضبائر، ضبائر، فَبُثُّوا على أنهار الجنة، فيقال: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم[(٢)]، فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل» فقال رجل من القوم: كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية.

وهكذا أخرجه مسلم فى كتابه الصحيح من رواية شعبة وبشر بن المفضل، كلاهما عن أبى مَسْلَمة[(٣)] سعيد بن يزيد به[(٤)].

وقال ابن أبى حاتم: ذكر عن عبد الوارث بن عبد الصمد بن عبد الوارث قال: حدثنا أبى، حدثنا حيَّان، سمعت سليمان التَّيْمي، عن أبى نَضْرَة، عن أبى سعيد؛ أن رسول الله ﷺ خَطَب فأتى على هذه الآية: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى﴾ ، قال النبى ﷺ: «أما أهلها الذين هم أهلها، فلا يموتون فيها ولا يحيون، وأما الذين ليسوا من أهلها، فإن النار تمسهم، ثم يقوم الشفعاء فيشفعون، فتجعل الضبائر، فيؤتى[(٥)] بهم نهرا يقال له: الحياة ـ أو: الحيوان ـ فينبتون كما ينبت القثّاء فى حميل السيل».

وقوله : ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ أى: ومن لقى ربه يوم المعاد مؤمن القلب، قد صدق ضميره بقوله وعمله، ﴿فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ أى: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمساكن الطيبات.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، أنبأنا هَمَّام، حدثنا زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار ، عن عبادة بن الصامت، عن النبى ﷺ قال: «الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج[(٦)] الأنهار الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس».

ورواه الترمذى، من حديث يزيد بن هارون، عن همام، به[(٧)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقى، أخبرنا خالد بن يزيد ابن أبى مالك، عن أبيه قال: كان يقال: الجنة مائة درجة، فى كل درجة مائة درجة، بين[(٨)] كل درجتين كما بين السماء والأرض، فيهن الياقوت والحلى، فى كل درجة أمير، يرون له الفضل والسؤدد.

وفى الصحيحين: «أن أهل عليين ليرون من فوقهم كما ترون الكوكب الغابر فى أفق السماء، لتفاضل ما بينهم» .قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء؟ قال:«بلى والذى نفسى بيده، رجال

---

(١) زيادة من ف، والمسند. (٢) فى ف، أ: «علينا». (٣) فى ف، أ: «سلمة».
(٤) المسند (٣/ ١١)، وصحيح مسلم برقم (١٨٥).
(٥) فى ف: «فيؤتون». (٦) فى ف: «يخرج».
(٧) المسند(٥/ ٣١٦)، وسنن الترمذى برقم (٢٥٣١).
(٨) فى ف، أ: «ما بين».

آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[(١)] . وفى السنن: «وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعما»[(٢)].

وقوله: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي ﴾ أى: إقامة وهو بدل من الدرجات العلى، ﴿[تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ][(٣)] خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى: ماكثين أبدا، ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أى: طهر نفسه من الدنس والخَبَث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له، وصدق[(٤)] المرسلين فيما جاؤوا به من خَبَر وطلب.

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (٧٩) ﴾.

يقول تعالى مخبرًا أنه أمر موسى، عليه السلام، حين أبى فرعون أن يرسل معه بنى إسرائيل، أن يسرى بهم فى الليل، ويذهب بهم من قبضة فرعون. وقد بسط الله هذا المقام فى غير هذه السورة الكريمة. وذلك أن موسى لما خرج ببنى إسرائيل أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب، فغضب فرعون غضبًا شديدًا وأرسل فى المدائن حاشرين، أى: من يجمعون له الجند من بلدانه ورَسَاتيقه، يقول: ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ . وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤، ٥٥] ثم لما جمع جنده واستوسق له جيشه، ساق فى طلبهم ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠] أى: عند طلوع الشمس ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ أى: نظر كل من الفريقين إلى الآخر ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[الشعراء: ٦١، ٦٢]، ووقف موسى ببنى إسرائيل، البحر أمامهم، وفرعون وراءهم، فعند ذلك أوحى الله إليه أن ﴿اضْرِب لَّهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ ، فضرب البحر بعصاه، وقال: «انفلق[(٥)] بإذن الله»، ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[الشعراء: ٦٣] أى: الجبل العظيم. فأرسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابسا كوجه الأرض؛ ولهذا قال: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا ﴾ أى: من فرعون، ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ يعنى: من البحر أن يغرق قومك .

ثم قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ[(٦)] ﴾ أى: البحر ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ أى: الذى هو معروف ومشهور. وهذا يقال عند الأمر المعروف المشهور، كما[(٧)] قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ . فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤]، وكما قال الشاعر:

أَنَا أَبُو النَّجْم وَشِعْرِى شِعْرِى

أى: الذى يعرف، وهو مشهور.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٥٥) وصحيح مسلم برقم (٢٨٣٠) من حديث سهل بن سعد رضى الله عنه.

(٢) سنن أبى داود برقم (٣٩٨٧) وسنن ابن ماجه برقم (٩٦).

(٣) زيادة من ف، أ.

(٤) فى ف: «واتبع».

(٥) فى أ: «انفلق على».

(٦) فى ف، أ: «اليم ما غشيهم».

(٧) فى ف: «وكما».

وكما تقدمهم[1] فرعون فسلك بهم فى اليم فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد، كذلك ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾[هود:٩٨].

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ (٨٢) ﴾.

يذكر تعالى نعمه على بنى إسرائيل العظام، ومننه الجسام، حيث نَجَّاهم من عدوهم فرعون، وأقر أعينهم منه، وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا فى صبيحة واحدة، لم ينج منهم أحد، كما قال [تعالى][2]: ﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾[البقرة: ٥٠].

وقال البخارى: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا رَوْح بن عبادة، حدثنا شعبة، حدثنا أبو بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهود تصوم عاشوراء، فسألهم فقالوا: هذا اليوم الذى أظفر الله فيه موسى على فرعون، فقال: «نحن أولى بموسى فصوموه» رواه مسلم أيضا فى صحيحه[3].

ثم إنه تعالى واعد موسى وبنى إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذى كلمه تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هناك[4]. وفى غُضُون ذلك عَبَدَ بنو إسرائيل العجل، كما يقصه تعالى قريبا.

وأما المن والسلوى، فقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة «البقرة»[5] وغيرها. فالمن: حُلوى كانت تنزل عليهم من السماء. والسّلوى: طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كل، قدر الحاجة إلى الغد، لطفًا من الله، ورحمةً بهم، وإحسانًا إليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أى: كلوا من هذا [الرزق][6] الذى رزقتكم، ولا تطغوا فى رزقى، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما آمركم به، ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ أى: أغضب عليكم ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾. قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى: فقد شقى.

وقال شُفَىّ بن ماتع: إن فى جهنم قصراً يرمى الكافر من أعلاه، فيهوى فى جهنم أربعين خريفًا قبل أن يبلغ الصلصال، وذلك قوله: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾. رواه ابن أبى حاتم.

وقوله: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أى: كل من تاب إلىّ تبتُ عليه من أى ذنب كان، حتى إنه تعالى تاب[7] على من عبد العجل من بنى إسرائيل.

---

(١) فى ف: «يقدمهم».
(٢) زيادة من ف.
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٧٣٧)، وصحيح مسلم برقم (١١٣٠).
(٤) فى ف، أ: «هنالك».
(٥) عند تفسير الآية:٥٧ وما بعدها.
(٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى ف، أ: «أنه تاب تعالى».

وقوله: ﴿تَابَ﴾ أي :رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو نفاق أو معصية.

وقوله: ﴿وآمَن﴾ أي: بقلبه[١]، ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ أي: بجوارحه.

وقوله: ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي ثم لم يشكك.

وقال سعيد بن جبير: ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ أي: استقام على السنة والجماعة. ورُوي نحوه عن مجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف.

وقال قتاده: ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ أي: لزم الإسلام حتى يموت.

وقال سفيان الثوري: ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ أي: علم أن لهذا[٢] ثوابًا.

وثم هاهنا لرتيب الخبر على الخبر، كقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧].

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) ﴾.

لما سار موسى، عليه السلام، ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون، وافوا[٣] ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩] وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها[٤] له عشرًا، فتمت [له][٥] أربعين ليلة، أي: يصومها ليلاً ونهارًا. وقد تقدم في حديث «الفتون» بيان ذلك. فسارع موسى، عليه السلام، مبادرًا إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ . قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي﴾ أي: قادمون ينزلون قريبًا من الطور، ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ أي: لتزداد عني رضا، ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث في بني إسرائيل، وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك

(١) في ف: «قلبه». (٢) في ف: «هذا». (٣) في ف، أ: «وأتوا».
(٤) في ف، أ: «أتمها». (٥) زيادة من ف، أ.

السامرى. وفى الكتب الإسرائيلية: أنه كان اسمه هارون أيضًا، وكتب الله تعالى له فى هذه المدة الألواح المتضمنة التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥] أى: عاقبة الخارجين عن طاعتى المخالفين لأمرى.

وقوله ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أى: بعد ما أخبره تعالى بذلك، فى غاية الغضب والحَنَق عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتَسَلَّم التوراة التى فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم. وهم قوم قد عبدوا غير الله ما يَعْلَمُ كل عاقل له لب [وحزم][1] بطلان[2] [ما هم فيه][3] وسخافة عقولهم وأذهانهم؛ ولهذا رجع إليهم غضبان أسفًا، والأسف: شدة الغضب.

وقال مجاهد: ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أى: جزعًا. وقال قتادة، والسدى: ﴿أَسِفًا﴾ أى: حزينًا على ما صنع قومه من بعده.

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أى: أما وعدكم على لسانى كل خير فى الدنيا والآخرة، وحسن العاقبة كما شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم، وإظهاركم عليه، وغير ذلك من أياديه عندكم؟ ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾، أى: فى انتظار ما وعدكم الله. ونسان ما سلف من[4] نعمه، وما بالعهد من قدم. ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ «أم» هاهنا بمعنى «بل»، وهى للإضراب عن الكلام الأول، وعدول إلى الثانى، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي. قَالُوا ﴾ أى: بنو إسرائيل فى جواب ما أنبهم[5] موسى وقرعهم: ﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أى: عن قدرتنا واختيارنا.

ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد، يخبرونه عن تورعهم كما كان بأيديهم من حُلى القبط الذى كانوا قد استعاروه منهم، حين خرجوا من مصر، ﴿فَقَذَفْنَاهَا ﴾ أى: ألقيناها عنا. وقد تقدم فى حديث «الفتون» أن هارون، عليه السلام، هو الذى كان أمرهم بإلقاء الحلى فى حفيرة فيها نار.

وفى رواية السُّدِّىّ، عن أبى مالك، عن ابن عباس: إنما أراد هارون أن يجتمع الحلى كله فى تلك الحفيرة[6]، ويجعل حجرًا واحدًا. حتى إذا رجع موسى يرى[7] فيه ما يشاء. ثم جاء [بعد][8] ذلك السامرى فألقى عليها تلك القبضة التى أخذها من أثر الرسول، وسأل هارون أن يدعو الله أن يستجيب له فى دعوته، فدعا له هارون ـ وهو لا يعلم ما يريد ـ فأجيب له[9]، فقال السامرى عند ذلك: أسأل الله أن يكون عجلاً. فكان عجلاً له خُوار، أى: صوت، استدراجًا وإمهالاً ومحنة واختبارًا؛ ولهذا قالوا: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ. فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبادة بن البَخْترى[10]، حدثنا يزيد بن هارون أخبرنا حَمَّاد

(١) زيادة من ف، أ.
(٢) فى ف: «بضلال».
(٣) زيادة من ف، أ وفى هـ: «ما لقيه».
(٤) فى ف: «فى».
(٥) فى أ: «نبيهم».
(٦) فى ف: «الحفرة».
(٧) فى ف، أ: «رأى».
(٨) زيادة من ف، أ.
(٩) فى ف، أ: «فيه».
(١٠) فى ف: «البحترى».

عن سماك، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس؛ أن هارون مَرَّ بالسامرى وهو ينحت العجل، فقال له: ما تصنع؟ فقال: أصنع ما يضر ولا ينفع. فقال هارون: اللهم اعطه ما سأل على ما فى نفسه، ومضى هارون، فقال[1] السامرى: اللهم إنى أسألك أن يَخُورَ فَخَار، فكان إذا خار سجدوا له، وإذا خار رفعوا رؤوسهم.

ثم رواه من وجه آخر عن حماد وقال: [أعمل][2] ما ينفع ولا يضر.

وقال السدى: كان يخور ويمشى.

فقالوا ـ أى: الضُّلاَّل منهم، الذين افتتنوا بالعجل وعبدوه ـ : ﴿ هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ أى: نسيه هاهنا، وذهب يتطلبه. كذا تقدم فى حديث «الفتون» عن ابن عباس. وبه قال مجاهد.

وقال سِماك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ فَنَسِيَ﴾ أى: نسى أن يذكركم أن هذا إلهكم.

وقال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس فقالوا: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ﴾ ، قال: فعكفوا عليه وأحبوه حبًا لم يحبوا شيئًا قط يعنى مثله، يقول الله: ﴿فَنَسِيَ﴾ أى: ترك ما كان عليه من الإسلام، يعنى: السامرى.

قال الله تعالى ردًا عليهم، وتقريعًا لهم، وبيانًا لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه: ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾ أى: العجل ﴿أَفَلا يَرَوْنَ﴾ أنه لا يجيبهم إذا سألوه، ولا إذا خاطبوه، ﴿وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا﴾ أى: فى دنياهم ولا فى أخراهم.

قال ابن عباس، رضى الله عنه[3]: لا والله ما كان خواره إلا أن يدخل الريح فى دبره فيخرج من فيه، فيسمع له صوت.

وقد تقدم فى متون الحديث[4] عن الحسن البصرى: أن هذا العجل اسمه بهموت.

وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط، فألقوها عنهم، وعبدوا العجل. فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء فى الحديث الصحيح عن ابن عمر: أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب ـ يعنى: هل يصلى فيه أم لا؟ ـ فقال ابن عمر، رضى الله عنه[5]: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ ـ يعنى: الحسين ـ وهم يسألون عن دم البعوض؟[6].

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) ﴾.

(١) فى ف: «وقال». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى ف، أ: «عنهما».
(٤) فى ف، أ: «حديث الفتون». (٥) فى ف، أ: «عنهما».
(٦) صحيح البخارى برقم (٥٩٩٤).

يخبر تعالى عما كان من نَهْى هارون، عليه السلام، لهم عن عبادة العجل، وإخباره إياهم: إنما هذا فتنة لكم ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ الذى خلق كل شىء فقدره تقديراً، ذو العرش المجيد، الفعال لما يريد ﴿فَاتَّبِعُونِى﴾ أى: فيما آمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه.

﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ أى: لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه. وخالفوا هارون فى ذلك وحاربوه، وكادوا أن يقتلوه.

﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى (٩٣) قَالَ يَابْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلا بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى (٩٤)﴾.

يقول مخبراً عن موسى، عليه السلام، حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، فامتلأ عند ذلك غيظًا[1]، وألقى ما كان فى يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وقد قدمنا فى «الأعراف» بسط ذلك، وذكرنا هناك حديث: «ليس الخبر كالمعاينة».

وشرع يلوم أخاه[2] هارون فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا .أَلاَّ تَتَّبِعَنِ﴾ أى: فتخبرنى بهذا الأمر أول ما وقع، ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ أى: فيما كنت تقدمت إليك، وهو قوله: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

قال ﴿يَابْنَؤُمَّ﴾ تَرَفَّقَ له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه؛ لأن ذكر الأم هاهنا أرق وأبلغ، أى: فى الحنو والعطف؛ ولهذا قال: ﴿يَابْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلا بِرَأْسِى إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾.

هذا اعتذار من هارون عند موسى فى سبب تأخره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم، ﴿قَالَ إِنِّى خَشِيتُ﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لى: لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ أى: وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم.

قال ابن عباس: وكان هارون هائبًا له مطيعًا.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِىُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِى الْيَمِّ نَسْفاً (٩٧) إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِى لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً (٩٨)﴾.

(١) فى ف: «غضبا». (٢) فى ف: «أخوه».

يقول موسى، عليه السلام، للسامرى: ما حملك على ما صنعت؟ وما الذى عرض لك حتى فعلت ما فعلت؟

قال محمد بن إسحاق، عن حكيم بن جبير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: كان السامرى رجلاً من أهل بَاجَرْمَا، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حُبُّ عبادة البقر فى نفسه، وكان قد أظهر الإسلام مع بنى إسرائيل. وكان اسم السامرى: موسى بن ظفر.

وفى رواية عن ابن عباس: [إنه][1] كان من كرمان.

وقال قتادة: كان من قرية اسمها سامرا.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ أى: رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون، ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ أى: من أثر فرسه. وهذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عَمَّار بن الحارث، أخبرنا عبيد الله بن موسى، أخبرنا إسرائيل، عن السدى، عن أبى بن عمارة، عن على، رضى الله عنه، قال: إن جبريل، عليه السلام، لما نزل فصعد بموسى إلى السماء، بصر به السامرى من بين الناس، فقبض قبضة من أثر الفرس قال: وحمل جبريل موسى خلفه، حتى إذا دنا من باب السماء، صعد وكتب الله الألواح[2] وهو يسمع صرير الأقلام فى الألواح. فلما أخبره أن قومه قد فتنوا من بعده قال: نزل موسى، فأخذ العجل فأحرقه. غريب.

وقال مجاهد: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾ قال: من تحت حافر فرس[3] جبريل، قال: والقبضة ملء الكف، والقبضة بأطراف الأصابع.

قال مجاهد: نبذ السامرى، أى: ألقى ما كان فى يده على حلية بنى إسرائيل، فانسبك عجلا جسدًا له خوار حفيف الريح فيه، فهو خواره.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن يحيى، أخبرنا على بن المدينى، حدثنا يزيد بن زُرَيْع، حدثنا عمارة، حدثنا عكرمة؛ أن السامرى رأى الرسول، فألقى فى روعه أنك إن أخذت من أثر هذا الفرس قبضة فألقيتها فى شىء، فقلت له: «كن فكان» فقبض قبضة من أثر الرسول، فيبست أصابعه على القبضة، فلما ذهب موسى للميقات وكان بنو إسرائيل استعاروا حلى آل فرعون، فقال لهم السامرى: إنما أصابكم من أجل هذا الحلى، فاجمعوه. فجمعوه، فأوقدوا عليه، فذاب، فرآه السامرى فألقى فى روعه أنك لو قذفت هذه القبضة فى هذه فقلت: «كن»، كان. فقذف القبضة وقال: «كن»، فكان عجلاً له خوار، فقال: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ﴾.

ولهذا قال: ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أى: ألقيتها مع من ألقى، ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أى: حَسَّنته وأعجبها إذ ذاك، ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أى: كما أخذت ومَسَسْتَ ما لم

(١) زيادة من أ. (٢) فى ف: «وكتب الله الأقلام فى الألواح». (٣) فى ف: «فرس حافر».

يكن أخذه ومسه من أثر الرسول، فعقوبتك فى الدنيا أن تقول: «لا مساس»، أى: لا تماسّ الناس ولا يمسونك.

﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿ لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ أى: لا محيد لك عنه.

وقال قتادة: ﴿أَن تَقُولَ لا مِسَاسَ﴾ قال: عقوبة لهم، وبقاياهم اليوم يقولون: لا مساس.

وقوله: ﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ قال الحسن، وقتادة، وأبو نَهِيك: لن تغيب عنه.

وقوله: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَهِكَ﴾ أى: معبودك، ﴿ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ أى: أقمت على عبادته، يعنى: العجل ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس، والسدى: سَحَله[1] بالمبارد، وألقاه على النار.

وقال قتادة: استحال العجل من الذهب لحمًا ودمًا، فحرقه بالنار، ثم ألقاه، أى: رماده[2] فى البحر؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن رجاء، أنبأنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عمارة بن[3] عبد وأبى عبد الرحمن، عن على، رضى الله عنه، قال: إن موسى لما تعجل إلى ربه، عمد السامرى فجمع ما قدر عليه من حلى نساء بنى إسرائيل، ثم صوره عجلاً، قال: فعمد موسى إلى العجل، فوضع عليه المبارد، فبرّده بها، وهو على شط نهر، فلم يشرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفر وجهه مثل الذهب. فقالوا لموسى: ما توبتنا[4]؟ قال: يقتل بعضكم بعضًا.

وهكذا قال السدى: وقد تقدم فى تفسير سورة «البقرة»، ثم فى حديث «الفتون» بسط ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ [وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾، يقول لهم موسى، عليه السلام: ليس هذا إلهكم، إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو][5] ،أى: لا يستحق ذلك على العباد إلا هو، ولا تنبغى العبادة إلا له، فإن كل شىء فقير إليه، عبد لربه.

وقوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ نصب على التمييز، أى: هو عالم بكل شىء، ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، فلا﴿ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ: ٣]، ﴿ وَمَا[6] تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦] والآيات فى هذا كثيرة جدًا.

﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ

---

(١) فى ف: «ينتحله». (٢) فى ف: «ثم ألقى رماده». (٣) فى ف: «عن».
(٤) فى ف، أ: «ما يريد منا». (٥) زيادة من ف، أ. (٦) فى ف: «ولا».

فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١)﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: كما قصصنا عليك خبر موسى، وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية والأمر الواقع، كذلك نقص عليك الأخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص، هذا ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا﴾ أى: عندنا ﴿ذِكْرًا﴾، وهو القرآن العظيم، الذى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]، الذى لم يعط نبى من الأنبياء [منذ بعثوا إلى أن ختموا](١)، بمحمد ﷺ تسليماً، كتابًا مثله ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر ما سبق وخبر ما هو كائن، وحُكْمُ الفصل بين الناس منه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أى: كذب به وأعرض عن اتباعه أمرًا وطلبًا، وابتغى الهدى فى غيره، فإن الله يضله ويهديه إلى سواء الجحيم؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ أى: إثمًا، كما قال[الله](٢) تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود:١٧].

وهذا عام فى كل من بلغه القرآن من العرب والعجم، أهل الكتاب وغيرهم، كما قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[الأنعام:١٩]. فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع، فمن اتبعه هدى، ومن خالفه وأعرض عنه ضَلَّ وشقى فى الدنيا، والنار موعده يوم القيامة؛ ولهذا قال: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا .خَالِدِينَ فِيهِ﴾ أى: لا مَحيد لهم عنه ولا انفكاك، ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ أى: بئس الحمل حملهم(٣).

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤)﴾.

ثبت فى الحديث أن رسول الله ﷺ سُئِل عن الصُّور، فقال: « قَرنٌ يُنفَخ فيه»(٤).

وقد جاء فى حديث «الصور» من رواية أبى هريرة: أنه قرن عظيم، الدَّارة منه بقدر السموات والأرض، ينفخ فيه إسرافيل، عليه السلام.

وجاء فى الحديث: «كيف أنعمُ وصاحب القَرْن قد التقم القَرْن، وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له» فقالوا: يارسول اللّه، كيف نقول؟ قال: «قولوا: حسبنا اللّه ونعم الوكيل، على اللّه توكلنا»(٥).

وقوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ قيل: معناه زُرْق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال.

﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾: قال ابن عباس: يتسارّون(٦) بينهم، أى: يقول بعضهم لبعض: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا

(١، ٢) زيادة من ف. (٣) فى ف: «عليهم».

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٢/ ١٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما.

(٥) سبق الحديث فى الكلام عن الصور عند الآية: ٧٣ من تفسير سورة الأنعام.

(٦) فى ف: «يتشاورون».

عشْرًا﴾ أى: فى الدار الدنيا، لقد كان لبثكم فيها قليلاً، عشرة أيام أو نحوها.

قال اللّه تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أى: فى حال تناجيهم بينهم، ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ أى: العاقل الكامل فيهم، ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْمًا﴾ أى: لقصر مدة الدنيا فى أنفسهم [يوم المعاد؛ لأن الدنيا كُلَّها وإن تكررت أوقاتها وتعاقبت لياليها وأيامها](١) وساعاتها كأنها يوم واحد؛ ولهذا تستقصر مدة(٢) الحياة الدنيا يوم القيامة: وكان غرضهم فى ذلك [درء](٣) قيام الحجة عليهم، لقصر المدة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ . قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[المؤمنون: ١١٢ـ ١١٤] أى: إنما كان لُبْثكم فيها قليلاً، لو كنتم تعلمون لآثرتم الباقى على الفانى، ولكن تصرفتم فأسأتم التصرف، قَدَّمتم الحاضر الفانى على الدائم الباقى.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا (١٠٨)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أى: هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ أى: يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييراً، ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أى: الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أى: بساطاً واحداً.

والقاع: هو المستوى من الأرض. والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل: الذى لا نبات فيه. والأول أولى، وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم؛ ولهذا قال: ﴿لا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا﴾ أى: لا ترى فى الأرض يومئذ وادياً ولا رابية، ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً، كذلك(٤) قال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن البصرى، والضحاك، وقتادة، وغير واحد من السلف.

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ﴾ أى: يوم يرون هذه الأحوال والأهوال، يستجيبون مسارعين إلى الداعى، حيثما أمروا بادروا إليه، ولو كان هذا فى الدنيا لكان أنفع لهم، ولكن حيث(٥) لا ينفعهم، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾[مريم: ٣٨]، وقال: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾[القمر: ٨].

قال محمد بن كعب القُرَظى: يحشر اللّه الناس يوم القيامة فى ظلمة، وتطوى(٦) السماء،

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى ف: «يستقصر الكافرون مدة». (٣) زيادة من ف، أ.
(٤) فى أ: «وكذا». (٥) فى ف: «حيث كان». (٦) فى ف: «ويطوى».

وتتناثر(١) النجوم، وتذهب(٢) الشمس والقمر، وينادى مناد، فيتبع الناس الصوت [فيأتونه](٣)، فذلك قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ﴾.

وقال قتادة: ﴿لا عِوَجَ لَهُ﴾ لا يميلون عنه.

وقال أبو صالح: ﴿لا عِوَجَ لَهُ﴾: لا عوج عنه.

وقوله: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾: قال ابن عباس: سكنت: وكذا قال السدى.

﴿فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾: قال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: يعنى: وطء الأقدام. وكذا قال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، والربيع بن أنس، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾: الصوت الخفى. وهو رواية عن عكرمة، والضحاك.

وقال سعيد بن جبير: ﴿فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾: الحديث، وسره، ووطء الأقدام. فقد جمع سعيد كلا القولين وهو محتمل، أما وطء الأقدام فالمراد سعى الناس إلى المحشر، وهو مشيهم فى سكون وخضوع. وأما الكلام الخفى فقد يكون فى حال دون حال، فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾[هود: ١٠٥].

﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أى: يوم القيامة ﴿لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ﴾ أى: عنده ﴿إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ كقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾[الأنبياء: ٢٨] وقال: ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

وفى الصحيحين، من غير وجه، عن رسول الله ﷺ، وهو سيد ولد آدم، وأكرم الخلائق على الله عز وجل أنه قال: «آتى تحت العرش، وأخر(٤) لله ساجداً، ويَفْتح علىّ بمحامد لا أحصيها الآن، فيدعنى(٥) ما شاء الله أن يدعنى، ثم يقول: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع(٦)، واشفع تشفع». قال: «فيحد لى حدًا، فأدخلهم الجنة، ثم أعود»، فذكر أربع مرات، صلوات الله وسلامه عليه

(١) فى ف: «ويتناثر».
(٢) فى ف: «ويذهب».
(٣) زيادة من ف، أ.
(٤) فى ف، أ: «فأخر».
(٥) فى ف: «ويدعنى».
(٦) فى ف: «تسمع».

وعلى سائر الأنبياء.

وفى الحديث [أيضاً][١] : «يقول تعالى: أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان، فيُخْرجُون خلقاً كثيراً، ثم يقول: أخرجوا من النار من كان فى قلبه نصف مثقال من إيمان، أخرجوا من النار من كان فى قلبه ما يزن ذرّة، من كان فى قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرّة من إيمان» الحديث[٢].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أى: يحيط علماً بالخلائق كلهم، ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾، كقوله: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ قال ابن عباس، وغير واحد: خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحى الذى لايموت، القيوم: الذى لا ينام، وهو قيم على كل شىء، يدبره ويحفظه، فهو الكامل فى نفسه، الذى كل شىء فقير إليه، لا قوام له إلا به.

وقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ أى: يوم القيامة، فإن اللّه سيؤدى كل حق إلى صاحبه، حتى يقتص للشاة الجَمَّاء من الشاة القرناء.

وفى الحديث: «يقول اللّه تعالى: وعزتى وجلالى، لا يجاوزنى اليوم ظلم ظالم[٣]».

وفى الصحيح: «إياكم والظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»[٤]. والخيبة كل الخيبة لمن لقى اللّه وهو مشرك به؛ فإن اللّه تعالى يقول: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان: ١٣].

وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا﴾: لما ذكر الظالمين ووعيدهم، ثنى بالمتقين وحكمهم، وهو أنهم لا يُظْلَمون ولا يُهضَمون، أى: لا يزاد فى سيئاتهم ولا ينقص من حسناتهم[٥]. قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والحسن، وقتادة، وغير واحد. فالظلم: الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره، والهضم: النقص.

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)﴾.

يقول: ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعاً لا محالة، أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً، بلسان

---

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) انظر: أحاديث الشفاعة عند تفسير الآية: ٧٩ من سورة الإسراء.

(٣) فى ف، أ: «الظالم».

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٣٩٠) من حديث جابر بلفظ: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة».

(٥) فى ف: «سيئاته ولا ينقص من حسناته».

عربي مبين فصيح[١]، لا لبس فيه ولا عيّ، ﴿وَصَرَّفْنَا[٢] فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتركون المآثم والمحارم والفواحش، ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ وهو إيجاد الطاعة وفعل القربات، ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي: تنزه وتقدس[٣] الملك الحق، الذي هو حق، ووعده حق، ووعيده حق، ورسله حق، والجنة حق، والنار حق، وكل شيء منه حق. وعدله تعالى ألاّ يعذب أحداً قبل الإنذار وبعثة الرسل والإعذار إلى خلقه؛ لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، كقوله تعالى في سورة «لا أقسم بيوم القيامة»: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ .ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٦ـ١٩]، وثبت في الصحيح عن ابن عباس؛ أن رسول اللّه ﷺ كان يعالج من الوحي شدّة، فكان مما يحرّك لسانه، فأنزل[٤] اللّه هذه الآية[٥]. يعني: أنه، عليه السلام، كان إذا جاءه جبريل بالوحي، كلما قال جبريل آية قالها معه، من شدّة حرصه على حفظ[٦] القرآن، فأرشده اللّه تعالى إلى ما هو الأسهل والأخف في حقه؛ لئلا يشق عليه. فقال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أي: أن نجمعه في صدرك، ثم تقرأه على الناس من غير أن تنسى منه شيئاً، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ .ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ وقال في هذه الآية: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي: بل أنصت، فإذا فرغ الملك من قراءته عليك فاقرأه بعده، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي: زدني منك علماً.

قال ابن عُيينة، رحمه اللّه: ولم يزل ﷺ في زيادة [من العلم][٧]، حتى توفاه اللّه عز وجل.

ولهذا جاء في الحديث: «إن اللّه تابع الوحي على رسوله، حتى كان الوحي أكثر ما كان يوم تُوفّي رسول اللّه ﷺ»[٨].

وقال ابن ماجه: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا عبد اللّه بن نُمَير، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن ثابت، عن أبي هريرة، رضي اللّه عنه، قال: كان رسول اللّه ﷺ يقول: «اللهم، انفعني بما علَّمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً، والحمد للّه على كل حال»[٩].

وأخرجه الترمذي، عن أبي كُرَيْب، عن عبد اللّه بن نُمَير، به. وقال: غريب من هذا الوجه. ورواه البزار عن عمرو بن علي الفلاس، عن أبي عاصم، عن موسى بن عبيدة، به. وزاد في آخره: «وأعوذ باللّه من حال أهل النار».

---

(١) في ف: «فصيح اللسان». (٢) في أ: «وصرفنا ما فيه»، وهو خطأ. (٣) في ف: «تقدس وتنزه».
(٤) في ف: «فنزل».
(٥) صحيح البخاري برقم (٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(٦) في ف، أ: «تحفظ». (٧) زيادة من ف.
(٨) رواه البخاري في صحيحه برقم(٤٩٨٢) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٩) سنن ابن ماجه برقم (٢٥١) وسنن الترمذي برقم (٣٥٩٩).

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢) ﴾.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس قال: إنما سمى الإنسان لأنه عهد إليه فنسى. وكذا رواه على بن أبى طلحة، عنه.

وقال مجاهد والحسن: تَرَكَ.

وقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه، وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلاً.

وقد تقدم الكلام على هذه القصة فى سورة «البقرة»، وفى «الأعراف»، وفى «الحجر»، و«الكهف»[(١)]، وسيأتى فى آخر سورة «ص»[(٢)] [إن شاء الله تعالى][(٣)]. يذكر فيها تعالى خَلْقَ آدم وأمْرَه الملائكة بالسجود له تشريفاً وتكريماً، ويبين عداوة إبليس لبنى آدم ولأبيهم قديماً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ أى: امتنع واستكبر، ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ يعنى: حواء، عليهما السلام، ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ أى: إياك أن يسعى[(٥)] فى إخراجك منها، فتتعب وتَعْنَى وتشقى فى طلب رزقك، فإنك ههنا فى عيش رغيد هنيء، لا[(٦)] كلفة ولا مشقة.

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾: إنما قرن بين الجوع والعُرْى؛ لأن الجوع ذل الباطن، والعرى ذُلّ الظاهر .

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ : وهذان أيضاً متقابلان، فالظمأ: حر الباطن، وهو العطش. والضحى: حر الظاهر.

وقوله: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾: قد تقدم أنه[(٧)] ﴿دَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]؛ ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]. وقد

---

(١) انظر: تفسير سورة البقرة، الآيات: ٣٠ ـ ٣٨، وتفسير سورة الأعراف، الآيات: ١١ـ٢٤، وتفسير سورة الحجر، الآيات: ٢٨ ـ ٤٠، وتفسير سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٢) عند تفسير الآيات: ٧١ ـ٨٥.

(٣) زيادة من ف، أ.

(٤) فى ف: «وبين».

(٥) فى ف: «تسعى».

(٦) فى ف، أ: «بلا».

(٧) فى ف: «أنهما».

تقدم أن الله تعالى أوحى إلى آدم وزوجته أن يأكلا من كل الثمار، ولا يقربا هذه الشجرة المعينة فى الجنة. فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها، وكانت شجرةَ الخلد ـ يعنى: التى من أكل منها خلد ودام مكثه. وقد جاء فى الحديث ذكر شجرة الخلد، فقال أبو داود الطيالسى:

حدثنا شعبة عن أبى الضحاك[١]، سمعت أبا هريرة يحدث، عن النبى ﷺ قال: «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام، ما يقطعها وهى شجرة الخلد». ورواه الإمام أحمد[٢].

وقول: ﴿فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ قال ابن أبى حاتم:

حدثنا على بن الحسين بن إشكاب، حدثنا على بن عاصم، عن سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة، عن الحسن، عن أبىّ بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم رجلاً طوالاً، كثير شعر[٣] الرأس، كأنه نخلة سَحُوق. فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته. فلما نظر إلى عورته جعل يَشْتَد فى الجنة، فأخذتْ شعرَه شجرة، فنازعها، فنادى الرحمن: يا آدم، منِّى تفر؟ فلما سمع كلام الرحمن قال: يارب، لا، ولكن استحياء[٤]، أرأيت إن تبت ورجعت، أعائدى إلى الجنة؟ قال: نعم» فذلك قوله: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾[٥].

وهذا منقطع بين الحسن وأبىّ بن كعب، فلم يسمعه منه، وفى رفعه نظر أيضاً.

وقوله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾: قال مجاهد: يرقعان كهيئة الثوب. وكذا قال قتادة، والسدى.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا جعفر،عن[٦] عون، حدثنا سفيان، عن ابن أبى ليلى، عن المنْهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ قال: ينزعان ورق التين، فيجعلانه على سوآتهما.

وقوله: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ. ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾، قال البخارى:

حدثنا قتيبة، حدثنا أيوب بن النجار، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «حاجّ موسى آدمَ، فقال له: أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومنى على أمر قد كتبه الله علىّ قبل أن يخلقنى ـ أو: قدره الله علىّ قبل أن يخلقنى ـ» قال رسول الله ﷺ:«فحج آدم موسى»[٧].

---

(١) فى ف، أ: «أبى الضحى».

(٢) مسند الطيالسى برقم (٢٥٤٧)، والمسند للإمام أحمد (٢/ ٤٥٥).

(٣) فى ف: «الشعر». (٤) فى ف، أ: «أستحيى».

(٥) سبق تخريج الحديث عند تفسير الآية: ٣٧ من سورة البقرة.

(٦) فى ف، أ: «ابن».

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٧٣٨).

وهذا الحديث له طرق فى الصحيحين، وغيرهما من المسانيد[(١)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى أنس بن عياض، عن الحارث بن أبى ذُبَابَ، عن يزيد بن هرمز قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول اللَّه ﷺ: «حَجَّ آدم وموسى عند ربهما، فحج آدمُ موسى، قال موسى: أنت الذى خلقك اللَّه بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك فى جنته، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك؟ قال آدم: أنت موسى الذى اصطفاك اللَّه برسالته وكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شىء، وقربك نَجِياً، فبكم وجدتَ اللَّه كتب التوراة [قبل أن أخلق][(٢)] ؟قال موسى: بأربعين عاماً. قال آدم: فهل وجدتَ فيها ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ قال: نعم. قال: أفتلومنى على أن عملتُ عملاً كتب اللَّه علىّ أن أعمله قبل أن يخلقنى بأربعين سنة». قال رسول اللَّه ﷺ :«فحج آدم موسى».

قال الحارث: وحدثنى عبد الرحمن بن هُرمزُ بذلك، عن أبى هريرة، عن رسول ﷺ[(٣)].

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) ﴾.

يقول تعالى لآدم وحواء وإبليس: اهبطوا منها جميعاً، أى: من الجنة كلكم. وقد بسطنا ذلك فى سورة «البقرة».

﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: قال: آدم وذريته، وإبليس وذريته.

وقوله: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾، قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان.

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾: قال ابن عباس: لا يضل فى الدنيا، ولا يشقى فى الآخرة .

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أى: خالف أمرى، وما أنزلته على رسولى، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه، ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أى: فى الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره [ضيق][(٤)] حَرَج لضلاله، وإن تَنَعَّم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه

---

(١) انظر: صحيح البخارى برقم (٤٧٣٦) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٢).

(٢) زيادة من ف، أ.

(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦٥٢) من طريق أنس بن عياض عن الحارث بن أبى ذباب عن يزيد بن هرمز وعبد الرحمن الأعرج عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٤) زيادة من ف، أ.

ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو فى قلق وحيرة وشك، فلا يزال فى ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: الشقاء.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، قال: كل مال[١] أعطيته عبداً من عبادى، قل أو كثر، لا يتقينى فيه، فلا خير فيه، وهو الضنك فى المعيشة. ويقال: إن قوماً ضُلالاً، أعرضوا عن الحق، وكانوا فى سعة من الدنيا متكبرين، فكانت معيشتهم ضنكاً؛ [و][٢] ذلك أنهم كانوا يرون أن اللَّه ليس مخلفاً لهم معايشهم، من سوء ظنّهم باللَّه والتكذيب، فإذا كان العبد يكذب باللَّه، ويسىء الظن به والثقة به اشتدت عليه معيشته، فذلك الضنك.

وقال الضحاك: هو العمل السيئ، والرزق الخبيث، وكذا قال عكرمة، ومالك بن دينار.

وقال سفيان بن عيينة، عن أبى حازم، عن أبى سلمة، عن أبى سعيد فى قوله: ﴿مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: يضيق عليه قبره، حتى تختلف أضلاعه فيه. قال أبو حاتم الرازى: النعمان بن أبى عياش[٣] : يكنى أبا سلمة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعة، حدثنا صفوان، حدثنا الوليد، حدثنا عبد اللَّه بن لهيعة، عن درَّاج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد قال: قال رسول اللَّه ﷺ فى قول اللَّه عز وجل: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: «ضمة القبر». الموقوف أصح[٤].

وقال ابن أبى حاتم أيضاً: حدثنا الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا دراج أبو السمح، عن ابن حُجَيرة ـ اسمه عبد الرحمن ـ عن أبى هريرة، عن رسول اللَّه ﷺ قال: «المؤمن فى قبره فى روضة خضراء، ويرحب له فى قبره سبعون ذراعاً، وينوّر له قبره كالقمر ليلة البدر، أتدرون فيم أنزلت هذه الآية: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾؟ أتدرون ما المعيشة الضنك؟» قالوا: اللَّه ورسوله أعلم. قال: «عذاب الكافر فى قبره، والذى نفسى بيده، إنه ليسلط عليه تسعة وتسعون تِنِّيناً، أتدرون ما التنين؟ تسعة وتسعون حية، لكل حية سبعة رؤوس، ينفخون فى جسمه، ويلسعونه ويخدشونه إلى يوم يبعثون»[٥].

رفعه منكر جداً.

وقال البزار: حدثنا محمد بن يحيى الأزدى، حدثنا محمد بن عمرو[٦]، حدثنا هشام بن سعد، عن سعيد بن أبى هلال، [عن أبى حُجَيرة][٧]، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ فى قول اللَّه عز وجل: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: «المعيشة الضنك الذى قال اللَّه تعالى: أنه يسلط عليه تسعة وتسعون

---

(١) فى هـ: «ما» والمثبت من ف، أ. (٢) زيادة من ف. (٣) فى ف: «عياض».
(٤) والمرفوع فى إسناده دراج عن أبى الهيثم وهو ضعيف.
(٥) ورواه أبو يعلى فى مسنده (١١/ ٥٢١) من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج به.
(٦) فى ف: «محمد بن عمر». (٧) زيادة من ف، أ.

حية، ينهشون لحمه حتى تقوم الساعة»[١].

وقال أيضاً: حدثنا أبو زُرْعة، حدثنا أبو الوليد، حدثنا حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ قال: «عذاب القبر». إسناد جيد[٢].

وقوله: ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾: قال مجاهد، وأبو صالح، والسدى: لا حجة له.

وقال عكرمة: عُمّى عليه كل شىء إلا جهنم.

ويحتمل أن يكون المراد: أنه يُحشَر أو يبعث[٣] إلي النار أعمى البصر والبصيرة أيضاً، كما قال تعالى: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧]. ولهذا يقول: ﴿ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ أى: فى الدنيا، ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ أى: لما أعرضت عن آيات اللّه، وعامَلْتها معاملة من لم يذكرها، بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها، كذلك نعاملك [اليوم][٤] معاملة من ينساك[٥]، ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا ﴾ [الأعراف:٥١] فإن الجزاء من جنس العمل. فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه، فليس داخلاً فى هذا الوعيد الخاص، وإن كان مُتَوَعداً عليه من جهة أخرى، فإنه قد وردت السنة بالنهى الأكيد، والوعيد الشديد فى ذلك، قال الإمام أحمد:

حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا خالد، عن يزيد بن أبى زياد، عن عيسى بن فائد، عن رجل، عن سعد بن عبادة، رضى اللّه عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل قرأ القرآن فنسيه، إلا لقى اللّه يوم يلقاه وهو أجذم»[٦].

ثم رواه الإمام أحمد من حديث يزيد بن أبى زياد، عن عيسى بن فائد، عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ،فذكر مثله سواء[٧].

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ (١٢٧) ﴾.

يقول تعالى: وهكذا نجازى المسرفين المكذبين بآيات اللّه فى الدنيا والآخرة، ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ [الرعد:٣٤] ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ أى: أشد ألماً من عذاب الدنيا، وأدوم عليهم، فهم مخلدون فيه؛ ولهذا قال رسول اللّه ﷺ للمتلاعنين :«إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة».

---

(١) مسند البزار برقم (٢٢٣٣) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٧/٦٧): «فيه من لم أعرفه».

(٢) وروى من حديث أبى سعيد مثله، ورواه الحاكم فى المستدرك وابن أبى شيبة فى المصنف.

(٣) فى ف: « أن يبعث أو يحشر». (٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى ف، أ: «نسيك».

(٦) المسند (٥/ ٢٨٥).

(٧) المسند (٥/ ٣٢٣).

﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى (١٢٨) وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠) ﴾.

يقول تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ﴾ لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به: يا محمد، كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسل قبلهم، فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التى خلفوهم فيها، يمشون فيها، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ أى: العقول الصحيحة والألباب المستقيمة، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال فى سورة «الم السجدة»: ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أى: لولا الكلمة السابقة من اللّه وهو أنه[1] لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى الذى ضربه اللّه تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة، لجاءهم العذاب بغتة؛ ولهذا قال لنبيه مسلياً له: ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ﴾ أى: من تكذيبهم لك، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ يعنى: صلاة الفجر، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ يعنى: صلاة العصر، كما جاء فى الصحيحين عن جرير بن عبد اللّه البَجَلىّ، رضى اللّه عنه، قال: كنا جلوساً عند رسول اللّه ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تُضَامُّون فى رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا»، ثم قرأ هذه الآية[2].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان بن عيينة، عن عبد الملك بن عمير، عن عمارة بن رُوَيْبة قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «لن يَلِجَ النارَ أحد صلى قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها».

رواه مسلم من حديث عبد الملك بن عمير، به[3].

وفى المسند والسنن، عن ابن عمر قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر فى ملكه مسيرة ألفى سنة، ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه، وإن أعلاهم منزلة لَمَنْ ينظر إلى اللّه عز وجل فى اليوم مرتين»[4].

---

(١) فى ف: «أن».

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٥٤) وصحيح مسلم برقم(٦٣٣).

(٣) المسند (٤/١٣٦)، وصحيح مسلم برقم (٦٣٤).

(٤) المسند(٢/١٣) وسنن الترمذى برقم (٣٣٣٠) وقال: «هذا حديث غريب».

وقوله: ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ أى: من ساعاته فتهجد به. وحمله بعضهم على المغرب والعشاء، ﴿وأَطْرَافَ النَّهارِ﴾ فى مقابلة آناء الليل، ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾[الضحى: ٥].

وفى الصحيح: «يقول اللَّه: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك. فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: إنى أعطيكم أفضل من ذلك. فيقولون: وأى شىء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى، فلا أسخط عليكم بعده أبداً»(١).

وفى الحديث [الآخر](٢) يقال: «يا أهل الجنة، إن لكم(٣) عند اللَّه موعداً يريد أن يُنْجزكُمُوه. فيقولون: وما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويزحزحنا عن النار، ويدخلنا(٤) الجنة؟ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فواللَّه ما أعطاهم خيراً من النظر إليه، وهى(٥) الزيادة»(٦).

﴿ ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢) ﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد، صلوات الله وسلامه عليه: لا تنظر إلى هؤلاء المترفين(٧) وأشباههم ونظرائهم، وما فيه من النعم(٨)، فإنما هو زهرة زائلة، ونعمة حائلة، لنختبرهم بذلك، وقليل من عبادى الشكور.

وقال مجاهد: ﴿أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ يعنى: الأغنياء، فقد آتاك [الله](٩) خيراً مما آتاهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ . لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٧، ٨٨]، وكذلك(١٠) ما ادخره تعالى لرسوله فى الدار الآخرة أمر عظيم لا يُحَدّ ولا يوصف، كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥] ولهذا قال: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

وفى الصحيح: أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول اللَّه ﷺ فى تلك المشربة التى كان قد اعتزل فيها نساءه، حين آلى منهن، فرآه متوسداً مضطجعاً على رمال حصير. وليس فى البيت إلا صُبْرَة من قَرَظ، وأَهَب(١١) معلقة، فابتدرت عينا عمر بالبكاء، فقال رسول اللَّه: «مايبكيك(١٢)؟»

(١) صحيح البخارى برقم (٦٥٤٩) من حديث أبى سعيد رضى الله عنه.
(٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى ف: «بكم».
(٤) فى ف: «تبيض وجوهنا وتثقل موازيننا وتزحزحنا عن النار وتدخلنا». (٥) فى أ: «وهو»
(٦) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٨١) من حديث صهيب رضى الله عنه.
(٧) من أ: « إلى ما متعنا به هؤلاء المسرفين». (٨) فى ف، أ: «النعيم». (٩) زيادة من ف، أ.
(١٠) فى ف: «ولذلك». (١١) فى أ: «واهية».
(١٢) فى ف: «ما يبكيك يا عمر؟».

فقال: يارسول اللَّه، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة اللَّه من خلقه؟ فقال: «أوفى شك أنت يا ابن الخطاب؟ أولئك قوم عُجِّلت طيباتهم فى حياتهم الدنيا»[١].

فكان، صلوات الله وسلامه عليه[٢]، أزهد الناس فى الدنيا مع القدرة عليها، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا، فى عباد اللَّه، ولم يدخر لنفسه شيئاً لغد.

قال ابن أبى حاتم: أنبأنا يونس، أخبرنى ابن وهب، أخبرنى مالك، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يَسَار، عن أبى سعيد؛ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم، ما يفتح اللَّه[٣] من زهرة [٤] الدنيا». قالوا: وما زهرة الدنيا يارسول اللَّه؟ قال: «بركات الأرض»[٥].

وقال قتادة والسدى: زهرة الحياة الدنيا، يعنى: زينة الحياة الدنيا.

وقال قتادة ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾: لنبتليهم.

وقوله ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أى: استنقذهم من عذاب اللَّه بإقام الصلاة، واصطبر أنت على فعلها ،كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم: ٦].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرنى هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه: أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ويَرْفأ، وكان له ساعة من الليل يصلى فيها، فربما لم يقم[٦]، فنقول: لا يقوم الليلة كما كان يقوم، وكان إذا [استيقظ أقام][٧] ـ يعنى: أهله ـ وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[٨].

وقوله: ﴿لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ يعنى[٩]: إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾[الطلاق: ٢، ٣] وقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨] ولهذا قال: ﴿لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾، وقال الثورى: ﴿لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ﴾ أى: لا نكلفك الطلب.

وقال ابن أبى حاتم [أيضا][١٠]: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، عن هشام، عن أبيه؛ أنه كان إذا دخل على أهل الدنيا، فرأى من دنياهم طرفاً فإذا رجع إلى أهله، فدخل الدار

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٩١٣).

(٢) فى ف، أ: «عليه وسلامه». (٣) فى أ: «يفتح الله لكم». (٤) فى أ: «زهرة الحياة الدنيا».

(٥) أصله فى صحيح البخارى برقم (٢٨٤٢) وصحيح مسلم برقم (١٠٥٢) من طريق عطاء عن أبى سعيد الخدرى ولفظه: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا».

(٦) فى ف،أ: «لم ينم». (٧) زيادة من ف، أ.

(٨) ورواه مالك فى الموطأ (١/ ١١٩) عن زيد بن أسلم عن أبيه بنحوه.

(٩) فى ف: «أى».

(١٠) زيادة من ف، أ.

قرأ: ﴿ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَيك﴾ إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَرْزُقك﴾، ثم يقول: الصلاة الصلاة، رحمكم الله.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن أبى زياد القَطَوَانى، حدثنا سَيَّار، حدثنا جعفر، عن ثابت قال: كان النبى ﷺ إذا أصابه خصاصة نادى أهله: «يا أهلاه، صلوا، صلوا». قال ثابت: وكانت(١) الأنبياء إذا نزل بهم(٢) أمر، فزعوا إلى الصلاة(٣).

وقد روى الترمذى وابن ماجه، من حديث عمران بن زائدة، عن أبيه، عن أبى خالد الوالبى، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم، تَفَرَّغْ لعبادتى أَمْلأ صدرك غنى، وأسدّ فقرك، وإن لم تفعل ملأتُ صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك»(٤).

وروى ابن ماجه من حديث الضحاك، عن الأسود، عن ابن مسعود: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «مَنْ جعَل الهموم هَما واحداً، هَمّ المعاد، كفاه الله همّ دنياه. ومن تشعبت به الهموم فى أحوال الدنيا، لم يبال الله فى أى أوديته هلك»(٥).

وروى أيضاً من حديث شعبة، عن عُمَر بن سليمان(٦)، عن عبد الرحمن بن أبان، عن أبيه، عن زيد بن ثابت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كانت الدنيا هَمَّه، فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِبَ له. ومن كانت الآخرة نيَّته، جمع له أمره، وجعل غناه فى قلبه، وأتته الدنيا وهى راغمة»(٧).

﴿والْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أى: وحسن العاقبة فى الدنيا والآخرة، وهى الجنة، لمن اتقى الله.

وفى الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت الليلة كأنا فى دار عقبة بن رافع، وأنا أتينا برطب [من رطب](٨) ابن طاب، فأولت ذلك أن العاقبة لنا فى(٩) الدنيا، والرفعة وأن ديننا قد طاب»(١٠).

﴿وَقَالُوا لَوْلا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِن رَّبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى (١٣٣) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى (١٣٤) قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ

---

(١) فى ف: «وكان». (٢) فى أ: «بها».
(٣) ورواه الإمام أحمد فى الزهد برقم (٤٨) عن سيار به، دون قول ثابت.
(٤) سنن الترمذى برقم (٢٤٦٦) وسنن ابن ماجه برقم (٤١٠٧) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».
(٥) سنن ابن ماجه برقم (٤١٠٦).
(٦) فى ف: «عمرو بن سليم».
(٧) سنن ابن ماجه برقم (٤١٠٥).
وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٧١): «هذا إسناد صحيح، رجاله ثقات».
(٨) زيادة من ف، أ، ومسلم. (٩) فى ف: «فى الدار الدنيا».
(١٠) صحيح مسلم برقم (٢٢٧٠) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.

اهْتَدَى (١٣٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الكفار فى قولهم: ﴿ **لَوْلا** ﴾ أى: هلا ﴿ **يَأْتِينَا** ﴾ محمد ﴿**بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ**﴾ أى: بعلامة دالة على صدقه فى أنه رسول الله؟ قال الله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الأُولَى**﴾ يعنى: القرآن العظيم الذى أنزله عليه الله[1] وهو أمى، لا يحسن الكتابة، ولم يدارس أهل الكتاب، وقد جاء فيه أخبار الأولين، بما كان منهم[2] فى سالف الدهور، بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها؛ فإن القرآن مُهَيمن عليها، يُصدِّق الصحيح، ويُبَيِّن خطأ المكذوب فيها وعليها. وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة «العنكبوت»: ﴿ **وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ[3] عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ . أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١] وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من نبى إلا وقد أوتى من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ، وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[5] .

وإنما ذكر هاهنا أعظم الآيات التى أعطيها، عليه السلام، وهو القرآن، وله من المعجزات ما لا يحد ولا يحصر، كما هو مودع فى كتبه، ومقرر فى مواضعه.

ثم قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً**﴾ أى: لو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل[6] إليهم هذا الرسول الكريم، وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا: ﴿**رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً**﴾ قبل أن تهلكنا، حتى نؤمن به ونتبعه؟ كما قال: ﴿ **فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ**﴾، يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون ﴿**وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ**﴾ [يونس: ٩٧] ،كما قال تعالى: ﴿ **وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ**﴾[الأنعام: ١٥٥ـ ١٥٧] وقال: ﴿ **وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا**﴾[فاطر: ٤٢] وقال: ﴿**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ . وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٠٩، ١١٠] .

---

(١) فى ف: «أنزله الله عليه» . (٢) فى ف، أ: «فيهم» . (٣) فى ف: «نزل» .
(٤) فى ف: «فقل» .
(٥) صحيح البخارى برقم (٤٩٨١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .
(٦) فى ف، أ: «يرسل» .

ثم قال تعالى ﴿قُلْ﴾ أى: يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده ﴿كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ﴾ أى: منا ومنكم ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أى: فانتظروا، ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أى: الطريق المستقيم، ﴿وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ إلى الحق وسبيل الرشاد، وهذا كقوله[1] تعالى ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢]، ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾[القمر: ٢٦].

آخر تفسير سورة طه، ولله الحمد والمنة

---

(١) فى هـ: «قوله» والمثبت من ف، أ .

سورة الأنبياء

وهى مكية.

قال البخارى: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غُنْدَر، حدثنا شعبة عن أبى إسحاق: سمعت عبد الرحمن بن يزيد[(١)]، عن عبد الله قال: بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هن من العتاق الأول، وهن من تلادى[(٢)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ (٥) مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (٦)﴾.

هذا تنبيه من الله، عز وجل، على اقتراب الساعة ودنوها، وأن الناس فى غفلة عنها، أى: لا يعملون لها، ولا يستعدون من أجلها.

وقال النسائى: حدثنا أحمد بن نصر، حدثنا هشام بن عبد الملك أبو الوليد الطيالسى، حدثنا أبومعاوية، حدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ ﴿فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ قال: «فى الدنيا»[(٣)]، وقال تعالى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقال [تعالى][(٤)]: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ . وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١، ٢].

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة الحسن بن هانئ أبى نُوَاس الشاعر أنه قال: أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول:

النَّاس فى غَفَلاتِهِمْ وَرَحا المنيَّة تَطْحَنُ

فقيل له: من أين أخذ[(٥)] هذا؟ قال[(٦)]: من قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾[(٧)].

---

(١) فى أ: «زيد».

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٣٩).

(٣) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٣٢).

(٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى ف، أ: «أخذت». (٦) فى ف، أ: «فقال».

(٧) تاريخ دمشق (٤/ ٦١١ «المخطوط»).

[وروى في ترجمة «عامر بن ربيعة»، من طريق موسى بن عبيدة الآمدي، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه، عن عامر بن ربيعة: أنه نزل به رجل من العرب، فأكرم عامر مثواه، وكلّم فيه رسول الله ﷺ، فجاءه الرجل فقال: إني استقطعت من رسول الله ﷺ وادياً في العرب، وقد أردت أن أقطعَ لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك. فقال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾][(١)] [(٢)].

ثم أخبر تعالى أنهم لا يُصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار، فقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾أي: جديد إنزاله﴿إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾كما قال ابن عباس: مالكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حَرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه، وكتابكم أحدث الكتب بالله تقرؤونه محضاً لم يشب. ورواه البخاري بنحوه[(٣)].

وقوله: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: قائلين فيما بينهم خفيةً ﴿هَلْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ يعنونَ رسولَ الله ﷺ، يستبعدون كونه نبياً؛ لأنه بَشَرٌ مثلهم، فكيف اختص بالوحي دونهم؛ ولهذا قال: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟ أي: أفتتبعونه فتكونون كمن أتى[(٤)] السحر وهو يعلم أنه سحر. فقال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ أي: الذي يعلم ذلك، لا يخفى عليه خافية، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين، الذي لايستطيع أحد أن يأتي بمثله، إلا الذي يعلم السر في السموات والأرض.

وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [أي: السميع][(٥)] لأقوالكم، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالكم. وفي هذا تهديد لهم ووعيد.

وقوله: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَرَاهُ﴾: هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم، واختلافهم فيما يصفون به[(٦)] القرآن، وحيرتهم فيه، وضلالهم عنه. فتارة يجعلونه سحراً، وتارة يجعلونه شعراً، وتارة يجعلونه أضغاث أحلام، وتارة يجعلونه مفترى، كما قال: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٤٨، والفرقان: ٩].

وقوله: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾: يعنون ناقة صالح، وآيات موسى وعيسى. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الآية][(٧)] [الإسراء: ٥٩]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ما آتينا قرية من القرى الذين بعث فيهم الرسل آية على يَدَيْ نبيها فآمنوا بها، بل كذبوا، فأهلكناهم

(١) زيادة من ف، أ.
(٢) تاريخ دمشق (٨/ ٦٨٠ «المخطوط».
(٣) صحيح البخاري برقم (٧٥٢٢).
(٤) في أ: «يأتي».
(٥) زيادة من ف، أ.
(٦) في ف، أ: «فيه».
(٧) زيادة من ف.

بذلك، أفهؤلاء يؤمنون بالآيات لو[١] رأوْها دون أولئك؟ كلا، بل **﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾**[يونس: ٩٦، ٩٧] .

هذا كله، وقد شاهدوا من الآيات الباهرات، والحجج القاطعات، والدلائل البينات، على يدى رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى، وأبهر وأقطع وأقهر، مما شُوهِدَ مع غيره من الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

قال ابن أبى حاتم، رحمه الله: ذكر عن زيد بن الحباب، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا الحارث بن زيد الحضرمى، عن على بن رباح اللخمى، حدثنى من شهد عبادة بن الصامت، يقول: كنا فى المسجد ومعنا أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، يُقْرِئُ بعضنا بعضا القرآن، فجاء عبد الله بن أبى بن سلول، ومعه نُمْرُقة وزِرْبِيّة، فوضع واتكأ، وكان صبيحاً فصيحاً جدلاً، فقال: يا أبا بكر، قل لمحمد يأتينا بآية كما جاء الأولون؟ جاء موسى بالألواح، وجاء داود بالزبور، وجاء صالح بالناقة، وجاء عيسى بالإنجيل وبالمائدة . فبكى أبو بكر، رضى الله عنه، فخرج رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: قوموا إلى رسول الله[٢] ﷺ نستغيث به من هذا المنافق. فقال رسول الله ﷺ: «إنه لا يقام لى، إنما يقام لله عز وجل». فقلنا: يارسول الله، إنا لقينا من هذا المنافق. فقال: «إن[٣] جبريل قال[٤] لى: اخرج فأخبر بنعم الله التى أنعم بها عليك، وفضيلته التى فُضِّلت بها، فبشرنى أنى بعثت إلى الأحمر والأسود، وأمرنى أن أنذر الجن، وآتانى كتابه وأنا أمّى، وغفر ذنبى ما تقدم وما تأخر، وذكر اسمى فى الأذان وأيدنى[٥] بالملائكة، وآتانى النصر، وجعل الرعب أمامى، وآتانى الكوثر، وجعل حوضى من أعظم الحياض يوم القيامة، ووعدنى المقام المحمود والناس مهطعون مقنعو[٦] رؤوسهم، وجعلنى فى أول زمرة تخرج من الناس، وأدخل فى شفاعتى سبعين ألفاً من أمتى الجنة بغير حساب وآتانى السلطان والملك، وجعلنى فى أعلى غرفة فى الجنة فى جنات النعيم[٧] ،فليس فوقى أحد إلا الملائكة الذين يحملون العرش، وأحل لى[٨] الغنائم[٩]، ولم تحل لأحد كان قبلنا».

وهذا الحديث غريب جداً .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ⑦ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ⑧ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ⑨﴾ .

يقول تعالى رادًا على من أنكر بعثة الرسل من البشر: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً يوحِي[١٠] إِلَيْهِمْ﴾**

(١) فى ف: «ولو» . (٢) فى ف: «إلى رسوله». (٣) فى ف: «أتى».
(٤) فى ف: «فقال». (٥) فى أ: «وأمرنى». (٦) فى ف: «مقنعى».
(٧) فى ف، أ: «عدن». (٨) فى ف، أ: «لى ولأمتى». (٩) فى أ: «المغانم».
(١٠) فى ف، أ: : «نوحى».

أى: جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر، لم يكن فيهم أحد من الملائكة، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً يوحي[1] إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿قل مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقال تعالى حكاية عمن تقدم من الأمم أنهم أنكروا ذلك فقالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ أى: اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف: هل كان الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة؟ إنما كانوا بشراً، وذلك من تمام نعمَ الله على خلقه؛ إذ بعث فيهم رسلاً[2] منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم.

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ أى: بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] أى: قد كانوا بشرا من البشر، يأكلون ويشربون مثل الناس، ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة، وليس ذلك بضار لهم ولا ناقص منهم شيئاً، كما توهمه المشركون فى قولهم: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا. أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٧، ٨].

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ أى: فى الدنيا، بل كانوا يعيشون ثم يموتون، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وخاصتهم أنهم يوحى إليهم من الله عز وجل، تنزل عليهم الملائكة عن الله بما يحكم[3] فى خلقه مما يأمر به وينهى عنه.

وقوله: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾ أى: الذى وعدهم ربهم: «ليهلكن الظالمين»، صدقهم الله وعده ففعل ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ﴾ أى: أتباعهم من المؤمنين، ﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ أى: المكذبين بما جاءت الرسل به.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠) وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)﴾.

يقول تعالى منبهاً على شرف القرآن، ومحرضاً لهم على معرفة قدره: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، قال ابن عباس: شَرَفُكم.

وقال مجاهد: حديثكم. وقال الحسن: دينكم.

---

(١) فى ف، أ: «نوحى». (٢) فى ف، أ: «رسولا»، وهو خطأ. (٣) فى ف: «يحكمه».

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. وقوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾: هذه صيغة تكثير، كما قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن[1] مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]. وقوله: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ أي: أمة أخرى بعدهم ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا﴾ أي: تيقنوا أن العذاب واقع[2] بهم، كما وعدهم نبيهم، ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ أي: يفرون هاربين، ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ﴾: هذا تهكم بهم قدراً أي: قيل لهم قدراً: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور، والعيشة والمساكن الطيبة.

قال قتادة: استهزاء بهم.

﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ أي: عما كنتم فيه من أداء شكر النعمة.

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك، ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ أي: ما[3] زالت تلك المقالة، وهي الاعتراف بالظلم، هجيراهم حتى حصدناهم حصداً[4] وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)﴾.

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق، أي: بالعدل والقسط، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١]، وأنه لم يخلق ذلك عبثاً ولا لعباً، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ[5] وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾: قال ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا﴾ يعني: من عندنا، يقول: وما خلقنا جنة ولا ناراً، ولا موتاً، ولا بعثاً، ولا حساباً.

وقال الحسن، وقتادة، وغيرهما: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ اللهو: المرأة بلسان أهل اليمن.

---

(١) في ف: «وكأين». (٢) في ف: «تيقنوا العذاب أنه واقع». (٣) في ف: «فما».
(٤) في ف، أ: «جعلناهم حصيدًا خامدين». (٥) في ف، أ: «السماوات».

وقال إبراهيم النَّخعِي: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ﴾ من الحور العين.

و قال عكرمة والسدى: المراد باللهو هاهنا: الولد.

وهذا والذى قبله متلازمان، وهو كقوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ﴾ [الزمر:٤]، فنزه نفسه عن اتخاذ الولد مطلقاً، لا سيما عما يقولون من الإفك والباطل، من اتخاذ عيسى ،أو العزير[١] ،أو الملائكة، ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣].

وقوله: ﴿إِن كُنَّا فَاعِلِينَ﴾: قال قتادة، والسدى، وإبراهيم النخعى، ومغيرة بن مِقْسَم، أى: ماكنا فاعلين.

وقال مجاهد: كل شىء فى القرآن «إن» فهو إنكار.

وقوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾ أى: نبين الحق فيدحض الباطل؛ ولهذا قال: ﴿فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ أى: ذاهب مضمحل، ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ﴾ أى: أيها القائلون: للّه ولد، ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ أى: تقولون وتفترون.

ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له، ودأبهم فى طاعته ليلاً ونهاراً، فقال: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ﴾ يعنى: الملائكة، ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ أى: لا يستنكفون عنها، كما قال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٧٢].

وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أى: لايتعبون ولايَملُّون، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً، مطيعون قصداً وعملاً، قادرون عليه، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن أبى دُلامة البغدادى، أنبأنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن صفوان بن مُحرِز، عن حكيم بن حِزَام قال: بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه، إذ قال لهم: «هل تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شىء. فقال رسول الله ﷺ: «إنى لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تئط، ومافيها موضع شِبْر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم». غريب ولم يخرجوه[٢].

ثم رواه ابن أبى حاتم من طريق يزيد بن زُرَيْع، عن سعيد، عن قتادة مرسلاً.

وقال أبو إسحاق[٣]، عن حسان بن مخارق، عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: جلست إلى كعب الأحبار وأنا غلام، فقلت له: أرأيت قول الله [للملائكة][٤]: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا

(١) فى ف: «أو عزير».

(٢) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٣/ ٢٠١) والطحاوى فى مشكل الآثار برقم (١١٣٤) من طريق عبد الوهاب بن عطاء به، وله شاهد من حديث أبى ذر الغفارى أخرجه الترمذى فى السنن برقم (٢٣١٢) وقال: «هذا حديث حسن غريب».

(٣) فى هـ، ف، أ: «محمد بن إسحاق» والمثبت من الطبرى ١٧/ ٧٠.

(٤) زيادة من ف، أ.

يفترون﴾ أما يشغلهم عن التسبيح الكلام والرسالة والعمل؟. فقال: فمن هذا الغلام؟ فقالوا: من بني عبد المطلب، قال: فقبل رأسي، ثم قال لي: يابني، إنه جعل لهم التسبيح، كما جعل لكم النفس، أليس تتكلم وأنت تتنفس و[1] تمشي وأنت تتنفس؟.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣)﴾.

ينكر[2] تعالى على من اتخذ من دونه آلهة، فقال: بل **﴿اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ﴾** أي: أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض؟ أي: لايقدرون على شيء من ذلك، فكيف جعلوها لله نداً وعبدوها معه.

ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والأرض، فقال: **﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ﴾** أي: في السماء والأرض، **﴿لَفَسَدَتَا﴾**، كقوله تعالى: **﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾** [المؤمنون: ٩١]، وقال هاهنا: **﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾** أي: عما يقولون إن له ولداً أو شريكاً، سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذين يفترون ويأفكون علواً كبيراً.

وقوله: **﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾** أي: هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يعترض عليه أحد، لعظمته وجلاله وكبريائه، وعلوه وحكمته وعدله ولطفه، **﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾** أي: وهو سائل خلقه عما يعملون، كقوله: **﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [الحجر: ٩٢، ٩٣] وهذا كقوله تعالى: **﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾** [المؤمنون: ٨٨].

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)﴾.

يقول تعالى: بل **﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ﴾** يا محمد: **﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾** أي: دليلكم على ماتقولون، **﴿هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ﴾** يعني: القرآن، **﴿وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾** يعني: الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولون وتزعمون، فكل كتاب أنزل على كل نبي أرسل، ناطق بأنه لا إله إلا الله، ولكن أنتم أيها المشركون لا تعلمون الحق، فأنتم معرضون عنه؛ ولهذا قال: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ يُوحَى[3] إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾**، كما قال: **﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ**

---

(١) في ف: «وأنت تمشي». (٢) في ف: «فينكر». (٣) في ف، أ: «نوحي».

آلهة يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فكل نبى بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والفطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم، وحجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد.

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩) ﴾.

يقول تعالى رداً على من زعم أن له ـ تعالى وتقدس ـ ولداً من الملائكة، كمن قال ذلك من العرب: إن الملائكة بنات الله، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أى: الملائكة عباد الله مكرمون عنده، فى منازل عالية ومقامات سامية، وهم له فى غاية الطاعة قولاً وفعلاً ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أى: لا يتقدمون بين يديه بأمر، ولا يخالفونه فيما أمر[1] به بل يبادرون إلى فعله، وهو تعالى علِمَه محيط بهم، فلا يخفى عليه منهم خافية، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾، كقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، فى آيات كثيرة فى معنى ذلك.

﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ﴾ أى: من خوفه ورهبته ﴿مُشْفِقُونَ . وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ﴾ أى: من ادعى منهم أنه إلـه من دون الله، أى: مع الله، ﴿فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أى: كل من قال ذلك، وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه، كقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾.

يقول تعالى منبهاً على قدرته التامة، وسلطانه العظيم فى خلقه الأشياء، وقهره لجميع المخلوقات، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: الجاحدون لإلهيته العابدون[2] معه غيره، ألم يعلموا

---

(١) فى ف، أ: «أمرهم».
(٢) فى أ: «العابدين».

أن الله هو المستقل بالخلق، المستبد بالتدبير، فكيف يليق أن يعبد غيره أو يشرك به ما سواه، ألم[١] يروا ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ أى: كان الجميع متصلاً بعضه ببعض متلاصق متراكم، بعضه فوق بعض فى ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه. فجعل السموات سبعاً، والأرض[٢] سبعاً، وفصل بين سماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض؛ ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾ أى: وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء:

فَفِى كُلِّ شىء لَهُ آيَة   تَدُلّ على أنَّه وَاحد

قال سفيان الثورى، عن أبيه، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس: الليل كان قبل أو النهار؟ فقال: أرأيتم السموات والأرض حين كانتا رتقاً، هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا إبراهيم بن أبى حمزة، حدثنا حاتم، عن حمزة بن أبى محمد، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر؛ أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾؟. قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله، ثم تعال فأخبرنى بما قال لك. قال: فذهب إلى ابن عباس فسأله. فقال ابن عباس: نعم، كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت. فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات. فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: الآن قد علمت أن ابن عباس قد أوتى فى القرآن علماً، صدق ـ هكذا كانت. قال ابن عمر: قد كنت أقول: ما يعجبنى جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه قد أوتى فى القرآن علماً.

وقال عطية العَوْفى: كانت هذه رتقاً لا تمطر، فأمطرت. وكانت هذه رتقاً لا تنبت، فأنبتت.

وقال إسماعيل بن أبى خالد: سألت أبا صالح الحنفى عن قوله: ﴿أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾، قال: كانت السماء واحدة، ففتق منها سبع سموات، وكانت الأرض واحدة ففتق منها سبع أرضين.

وهكذا قال مجاهد، وزاد: ولم تكن السماء والأرض متماستين.

وقال سعيد بن جبير: بل كانت السماء والأرض ملتزقتين، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض، كان ذلك فتقهما الذى ذكر الله فى كتابه.

وقال الحسن، وقتادة، كانتا جميعاً، ففصل بينهما بهذا الهواء.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ أى: أصل كل الأحياء منه.

---

(١) فى أ: «أو لم».   (٢) فى ف، أ: « والأرضين ».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو الجماهر[(١)]، حدثنا سعيد بن بشير، حدثنا قتادة عن أبي ميمونة[(٢)]، عن أبي هريرة أنه قال: يانبي الله، إذا رأيتك قرت عيني، وطابت نفسي، فأخبرني عن كل شيء، قال: «كل شيء خلق من ماء».

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا همام، عن قتادة، عن أبي ميمونة، عن أبي هريرة قال: قلت: يارسول الله، إني إذا رأيتك طابت نفسي، وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء. قال: «كل شيء خلق من ماء» قال: قلت: أنبئني عن أمر إذا عملتُ به دخلت الجنة. قال: «أفْش السلام، وأطعم الطعام، وصِل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام، ثم ادخل الجنَّة بسلام»[(٣)].

ورواه أيضاً عبد الصمد وعفان وبَهْز، عن همام[(٤)]. تفرد به أحمد، وهذا إسناد على شرط الصحيحين، إلا أن أبا ميمونة من رجال السنن، واسمه سليم، والترمذي يصحح له. وقد رواه سعيد ابن أبي عَرُوبة، عن قتادة مرسلاً، والله[(٥)] أعلم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالاً أرسى الأرض بها وقرّرها وثقلها؛ لئلا تميد بالناس، أي: تضطرب وتتحرك، فلا يحصل لهم عليها قرار[(٦)] لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع، فإنه باد للهواء والشمس، ليشاهد أهلها السماء ومافيها من الآيات الباهرات، والحكم والدلالات؛ ولهذا قال: ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أي: لئلا تميد بهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً﴾ أي: ثغراً في الجبال، يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم، كما هو المشاهد في الأرض، يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة ـ ثغرة ـ ليسلك الناس فيها من هاهنا إلى هاهنا؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا﴾ أي: على الأرض وهي كالقبة عليها، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقال: ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ [الشمس: ٥]، ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، والبناء هو نصب القبة، كما قال رسول الله ﷺ: «بُني الإسلام على خمس» أي: خمس[(٧)] دعائم، وهذا لا يكون إلا في الخيام، على ما[(٨)] تعهده العرب.

﴿مَّحْفُوظًا﴾ أي: عالياً محروساً أن يُنال. وقال مجاهد: مرفوعا.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدَّشْتكي، حدثني

---

(١) في ف، أ: «الجماهير». (٢) في ف، أ: «أبي ميمون».

(٣) المسند (٢/ ٢٩٥) ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٢٩) من طريق يزيد بن هارون وصححه.
ورواه ابن حبان في صحيحه برقم (٦٤٢) «موارد» من طريق أبي عامر العقدي عن همام به.

(٤) المسند (٢/ ٣٢٣ ـ ٤٩٣) من طريق عبد الصمد، (٢/ ٣٢٣) من طريق عفان، (٢/ ٣٢٤) من طريق بهز.
وقال الهيثمي في المجمع (٥/ ١٦): «رجاله رجال الصحيح، خلا أبي ميمونة وهو ثقة».

(٥) في ف: «فالله». (٦) في ف: «قرار عليها». (٧) في ف: «خمسة».

(٨) في ف: «كما».

أبى، عن أبيه، عن أشعث ـ يعنى ابن إسحاق القُمِّى ـ عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس، قال رجل: يارسول الله، ما هذه السماء ،قال :« موج مكفوف عنكم »(١) إسناد غريب.

وقوله: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾، كقوله: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف:١٠٥] أى: لايتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم، والارتفاع الباهر، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات فى ليلها،وفى نهارها(٢) من هذه الشمس التى تقطع الفلك بكماله، فى يوم وليلة فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الذى(٣) قدرها وسخرها وسيرها.

وقد ذكر ابن أبى الدنيا، رحمه الله، فى كتابه «التفكر والاعتبار»: أن بعض عباد بنى إسرائيل تعبد ثلاثين سنة، وكان الرجل منهم إذا تعبد ثلاثين سنة أظلته غمامة، فلم ير ذلك الرجل شيئاً مما كان يرى لغيره، فشكى ذلك إلى أمه، فقالت له: يابنى، فلعلك أذنبت فى مدة عبادتك هذه، فقال: لا والله ما أعلم، قالت: فلعلك هممت؟ قال: لا(٤)، ولاهممت. قالت: فلعلك رفعت بصرك إلى السماء ثم رددته بغير فكر؟ فقال: نعم، كثيراً. قالت: فمن هاهنا أتيت.

ثم قال منبهاً على بعض آياته: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى: هذا فى ظلامه وسكونه، وهذا بضيائه وأنسه، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى، وعكسه الآخر . ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾، هذه لها نور يخصها، وفلك بذاته، وزمان على حدة، وحركة وسير خاص، وهذا بنور خاص آخر، وفلك آخر، وسير آخر، وتقدير آخر ،﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠] ،أى: يدورون.

قال ابن عباس: يدورون كما يدور المغزل فى الفلكة.وكذا قال مجاهد: فلا يدور المغزل إلا بالفلكة، ولا الفلكة إلا بالمغزل، كذلك النجوم والشمس والقمر، لا يدورون إلا به، ولا يدور إلا بهن، كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام:٩٦].

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾.

يقول تعالى :﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أى: يامحمد، ﴿الْخُلْدَ﴾ أى: فى الدنيا بل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ .وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧].

وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الخضر، عليه السلام، مات وليس بحى إلى الآن؛ لأنه بشر، سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً، وقد قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن

(١) ورواه أبو الشيخ فى العظمة برقم (٥٣٩) من طريق أحمد بن القاسم عن أحمد بن عبد الرحمن الدشتكى به.
(٢) فى ف، أ: «النهار». (٣) فى ف، أ: «الله». (٤) فى ف، أ: «بل والله».

قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾.

وقوله: ﴿أَفَإِن مِّتَّ﴾ أى: يامحمد، ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾؟! أى: يؤملون أن يعيشوا بعدك، لا يكون هذا، بل كل إلى فناء؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، وقد روى عن الشافعى، رحمه الله، أنه أنشد واستشهد بهذين البيتين:

تمنى رجـــال أن أموت، وإن أمُتْ فتلْكَ سَبيل لَسْت فيهَا بأوْحَـــد

فقُلْ للّذى يَبْغى خلاف الذى مضـى: تَهيَّأ لأخْرى مثْلها فـكَأن قد[1]

وقوله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ أى: نختبركم بالمصائب تارة، وبالنعم أخرى، لننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنط، كما قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَنَبْلُوكُم﴾، يقول: نبتليكم بالشر والخير فتنة، بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية والهدى والضلال . .

وقوله: ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ أى: فنجازيكم بأعمالكم.

﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧)﴾.

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه، ﴿وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى: كفار قريش كأبى جهل وأشباهه ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا﴾ أى: يستهزئون بك وينتقصونك، يقولون: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ يعنون: أهذا الذى يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم، قال تعالى: ﴿وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أى: وهم كافرون بالله، ومع هذا يستهزئون برسول الله، كما قال فى الآية الآخرى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً . إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الفرقان: ٤١ ، ٤٢].

وقوله ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَكَانَ[2] الإِنسَانُ عَجُولاً﴾ [الإسراء: ١١] أى: فى الأمور.

قال مجاهد: خلق الله آدم بعد كل شىء من آخر النهار، من يوم خلق الخلائق فلما أحيا الروح عينيه ولسانه ورأسه، ولم يبلغ[3] أسفله قال: يارب، استعجل بخلقى قبل غروب الشمس.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سنَان، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا محمد بن علقمة بن وقاص الليثى، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير يوم طلعت فيه

---

(١) البيتان ذكرهما البيهقى فى مناقب الشافعى (٢/ ٦٢) والرازى فى مناقب الشافعى (ص ١١٩).

(٢) فى ف: «وخلق». (٣) فى ف: «تبلغ».

الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة، وفيه أهبط منها، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة لا يوافقها مؤمن يصلى - وقبض أصابعه قَلّلَها[١] - فسأل الله خيراً، إلا أعطاه إياه». قال أبو سلمة: فقال عبد الله بن سلام: قد عرفت تلك الساعة، وهى آخر ساعات النهار من يوم الجمعة، وهى التى خلق الله فيها آدم، قال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[٢].

والحكمة فى ذكر عجلة الإنسان ها هنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول، صلوات الله [وسلامه][٣] عليه، وقع فى النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلت[٤]، فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ لأنه تعالى يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر؛ ولهذا قال: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ أى: نقمى وحكمى واقتدارى على من عصانى، ﴿فَلا تَسْتَعْجِلُونِ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠)﴾.

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم، تكذيباً وجحوداً وكفراً وعناداً واستبعاداً، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، قال الله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ أى: لو تيقنوا أنها واقعة بهم لا محالة لما استعجلوا، ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال فى هذه الآية: ﴿حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ وقال: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم، ﴿وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أى: لا ناصر لهم كما قال: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤].

وقوله: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً[٥]﴾ أى: «تأتيهم النار بغتة»، أى: فجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ أى: تذعرهم[٦] فيستسلمون لها حائرين، لا[٧] يدرون ما يصنعون، ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ أى: ليس لهم حيلة فى ذلك، ﴿وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أى: ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١)﴾

---

(١) فى أ: «يقللها».

(٢) أخرج مالك فى الموطأ (١/١٠٨) من طريق يزيد بن الهاد عن محمد بن إبراهيم عن أبى سلمة عن أبى هريرة نحوه دون ذكر الآية وأخرج الشيخان أوله والله أعلم.

(٣) زيادة من ف، أ.

(٤) فى ف، أ: «واستعجلت ذلك».

(٥) فى ف: «بغتة فتبهتهم».

(٦) فى ف، أ: «تدعوهم».

(٧) فى ف: «حائرون ولا».

قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) ﴾.

يقول تعالى مسلياً لرسوله[صلوات الله وسلامه عليه][(١)] عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب: ﴿**وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ**﴾ يعنى: من العذاب الذى كانوا يستبعدون وقوعه، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [الأنعام: ٣٤].

ثم ذكر تعالى نعمته على عبيده فى حفظه لهم بالليل والنهار، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التى لاتنام، فقال: ﴿**قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ**﴾؟ أى: بدل الرحمن بمعنى غيره كما قال الشاعر[(٢)]:

جَارية لَمْ تَلْبَس المُرقَّقا ... وَلَم تَذق منَ البُقول الفُستُقا

أى: لم تذق بدل البقول الفستق.

وقوله تعالى: ﴿**بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ**﴾ أى: لا يعترفون[(٣)] بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه، ثم قال: ﴿ **أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا**﴾ استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ، أى: ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا ؟ ليس الأمر كما توهموا ولا كما [(٤)] زعموا ؛ولهذا قال: ﴿**لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ** ﴾ أى: هذه [الآلهة][(٥)] التى استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم.

وقوله: ﴿**وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ**﴾: قال العوفى، عن ابن عباس: ﴿**وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ**﴾ أى: يجارون[(٦)] وقال قتادة لا يصحبون [من الله][(٧)] بخير وقال غيره: ﴿**وَلا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ**﴾: يمنعون .

﴿ **بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥) وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا**

---

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) هو أبو نخيلة يعمر بن حزن، والبيت فى اللسان مادة (فسق) وصدره:

دسته لم تأكل المرققا

وقد حمل صاحب اللسان قوله بأنه ظن الفستق من البقول.

(٣) فى ف، أ: «لا يعرفون». (٤) فى ف، أ: « ولا قد كما». (٥) زيادة من ف، أ.

(٦) فى ف، أ: «يجازون». (٧) زيادة من ف.

حَاسِبِينَ (٤٧)﴾.

يقول تعالى مخبراً عن المشركين: إنما غرهم وحملهم على ماهم فيه من الضلال، أنهم مُتّعوا فى الحياة الدنيا، ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه، فاعتقدوا أنهم على شىء.

ثم قال واعظاً لهم: ﴿**أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا**﴾، اختلف المفسرون فى معناه، وقد أسلفناه فى سورة «الرعد»، وأحسن ما فسر بقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[الأحقاف: ٢٧].

وقال الحسن البصرى: يعنى بذلك ظهور الإسلام على الكفر.

والمعنى: أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه، وإهلاكه الأمم المكذبة والقرى الظالمة، وإنجائه لعباده المؤمنين؛ ولهذا قال: ﴿**أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ يعنى: بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأرذلون.

وقوله: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ**﴾ أى: إنما أنا مبلغ[(١)] عن الله ما أنذركم[(٢)] به من العذاب والنكال، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إلىّ، ولكن لايجدى هذا عمن أعمى الله بصيرته، وختم على سمعه وقلبه؛ ولهذا قال: ﴿**وَلا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ**﴾.

وقوله: ﴿**وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾ أى: ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شىء من عذاب الله، ليعترفن بذنوبهم، وأنهم كانوا ظالمين أنفسهم فى الدنيا.

وقوله: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا**﴾ أى: ونضع الموازين العدل ليوم القيامة. الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه.

وقوله: ﴿**فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ**﴾ كما قال تعالى: ﴿**وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٤٠]، وقال لقمان: ﴿**يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**﴾ [لقمان: ١٦].

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[(٣)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا إبراهيم بن إسحاق الطَّالَقَانى، حدثنا ابن المبارك، عن ليث بن سعد، حدثنى عامر بن يحيى، عن أبى عبد الرحمن الحبلى، قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يستخلص رجلاً من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يقول أتنكر من هذا شيئاً؟

---

(١) فى ف، أ: «مبلغكم». (٢) فى ف، أ: «أنذرتكم».

(٣) صحيح البخارى برقم (٧٥٦٣) وصحيح مسلم برقم (٢٦٩٤).

أظلمتك كتبتى الحافظون؟ قال: لا يارب، قال: أفلك عذر، أو حسنة؟» قال: فيبهت الرجل فيقول: لا، يارب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك. فيخرج له بطاقة فيها: «أشهد أن لا إله إلا الله، و أن[1] محمداً عبده ورسوله» فيقول: أحضروه، فيقول: يارب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم، قال: « فتوضع السجلات فى كفة [والبطاقة في كفة][2]»، قال: «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» قال: «ولا يثقل شىء بسم الله الرحمن الرحيم»[3].

ورواه الترمذى وابن ماجه، من حديث الليث بن سعد ، به،[4] وقال الترمذى: حسن غريب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا قتيبة، حدثنا ابن لَهِيعة، عن عمرو بن يحيى، عن أبى عبد الرحمن الحبلى، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الموازين[5] يوم القيامة، فيؤتى بالرجل، فيوضع فى كفة، فيوضع[6] ما أحصى عليه، فتمايل[7] به الميزان» قال: «فيبعث به إلى النار» قال: فإذا أدبر به إذا[8] صائح من عند الرحمن عز وجل يقول: [لاتعجلوا][9]، فإنه قد بقى له، فيؤتى ببطاقة فيها «لا إله إلا الله» فتوضع مع الرجل فى كفة[10]، حتى يميل به الميزان»[11].

وقال الإمام أحمد أيضاً: حدثنا أبو نوح قراد[12]، أنبأنا ليث بن سعد، عن مالك بن أنس، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة؛ أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، جلس بين يديه، فقال: يارسول الله، إن لى مملوكين، يكذبوننى، ويخونوننى، ويعصوننى، وأضربهم وأشتمهم، فكيف أنا منهم؟ فقال له رسول الله ﷺ: « يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم، إن[13] كان عقابك إياهم دون ذنوبهم، كان فضلا لك [عليهم][14] وإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم، كان كفافا لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، اقتص لهم منك الفضل الذى يبقى[15] قبلك ». فجعل الرجل يبكى بين يدى رسول الله ﷺ ويهتف، فقال رسول الله ﷺ: « ماله أما يقرأ كتاب الله؟: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾». فقال الرجل: يارسول الله، ما أجد شيئاً خيراً من فراق هؤلاء- يعنى عبيده - إنى أشهدك أنهم أحرار كلهم[16].

---

(١) فى ف: «وأشهد أن».
(٢) زيادة من ف، والترمذى وابن ماجه.
(٣) المسند (٢/ ٢١٣).
(٤) سنن الترمذى برقم (٢٦٣٩) وسنن ابن ماجه برقم (٤٣٠٠).
(٥) فى ف: «يوضع الميزان».
(٦) فى ف: « ويوضع».
(٧) فى ف: «فيمايل».
(٨) فى ف: «فإذا».
(٩) زيادة من ف، والمسند.
(١٠) فى ف: «كفته».
(١١) المسند (٢/ ٢٢١).
(١٢) فى ف، أ: «مراراً».
(١٣) فى ف: «فإن».
(١٤) زيادة من ف، والمسند.
(١٥) فى ف: «بقى».
(١٦) المسند (٦/ ٢٨٠).

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهما، وبين كتابيهما؛ ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾.

قال مجاهد: يعنى: الكتاب. وقال أبو صالح: التوراة، وقال قتادة: التوراة، حلالها وحرامها، وما فرق الله بين الحق والباطل. وقال ابن زيد: يعنى: النصر.

وجامع القول فى ذلك: أن الكتب السماوية تشتمل على التفرقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغى والرشاد، والحلال والحرام، وعلى ما يحصل نوراً فى القلوب، وهداية وخوفاً وإنابة وخشية؛ ولهذا قال: ﴿الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أى: [تذكيراً][(١)] لهم وعظة.

ثم وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾، كقوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢]، ﴿وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أى: خائفون وجلون.

ثم قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾ يعنى: القرآن العظيم، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أى: أفتنكرونه وهو فى غاية [الجلاء][(٢)] والظهور ؟ .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم، عليه السلام، أنه آتاه رشده من قبل، أى: من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾[الأنعام: ٨٣]، وما يذكر من الأخبار عنه[(٣)] فى إدخال أبيه له فى السرب، وهو رضيع، وأنه خرج به بعد أيام، فنظر إلى الكواكب والمخلوقات، فتبصر فيها وما قصه كثير من المفسرين وغيرهم ـ فعامتها أحاديث بنى إسرائيل، فما وافق منها الحق بما بأيدينا عن المعصوم قبلناه لموافقته الصحيح، وما خالف شيئاً من ذلك رددناه، وما ليس فيه موافقة ولا مخالفة لا نصدقه ولا نكذبه، بل نجعله وقفاً، وما كان من هذا الضرب منها فقد ترخص كثير من السلف فى روايتها، وكثير من ذلك مما لا فائدة فيه، ولا حاصل له

(١، ٢) زيادة من ف. (٣) فى ف: «عنه من الأخبار».

مما ينتفع به فى الدين. ولو كانت فيه فائدة تعود على المكلفين فى دينهم لبينته هذه الشريعة الكاملة الشاملة. والذى نسلكه[١] فى هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائيلية، لما فيها من تضييع الزمان، ولما اشتمل عليه كثير منها من الكذب المروج عليهم، فإنهم لاتفرقة[٢] عندهم بين صحيحها وسقيمها كما حرره الأئمة الحفاظ المتقنون من هذه الأمة.

والمقصود هاهنا: أن الله تعالى أخبر أنه قد آتى إبراهيم رشده، من قبل، أى: من قبل ذلك، وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أى: وكان أهلاً لذلك.

ثم قال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ هذا هو الرشد الذى أوتيه من صغره، الإنكار على قومه فى عبادة الأصنام من دون الله، عز وجل، فقال: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ أى: معتكفون على عبادتها.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن محمد الصباح، حدثنا أبو معاوية الضرير، حدثنا سعد بن طريف، عن الأصبغ بن نباتة، قال: مر علىّ،على قوم يلعبون بالشطرنج، فقال: ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون؟ لأن يمس صاحبكم جمراً حتى يطفأ خير له من أن يمسها.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ :لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال؛ ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم فى ضلال على غير الطريق المستقيم.

فلما سفه أحلامهم، وضلل آباءهم، واحتقر آلهتهم ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ يقولون[٣]: هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعباً أو محقاً فيه؟ فإنا لم نسمع به قبلك. ﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾ أى: ربكم الذى لا إله غيره، هو الذى خلق السموات [والأرض][٤] وما حوت من المخلوقات الذى ابتدأ خلقهن، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أى: وأنا أشهد أنه لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨) قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) ﴾.

ثم أقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم، أى: ليحرصن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا[٥] مدبرين أى: إلى عيدهم. وكان لهم عيد يخرجون إليه.

---

(١) فى هـ: «يذكر» والمثبت من ف. (٢) فى ف: «لا معرفة». (٣) فى ف: «يقول».
(٤) زيادة من ف. (٥) فى ف: «تولوا».

قال السدى: لما اقترب[١] وقت ذلك العيد قال أبوه: يابنى، لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا! فخرج معهم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض. وقال: إنى سقيم، فجعلوا يمرون عليه وهو صريع، فيقولون: مه! فيقول: إنى سقيم، فلما جاز عامتهم وبقى ضعفاؤهم قال: ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾ فسمعه أولئك.

وقال أبو إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله قال: لما خرج قوم إبراهيم، إلى عيدهم مروا عليه فقالوا: يا إبراهيم ألا تخرج معنا ؟ قال: إنى سقيم. وقد كان بالأمس قال: ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ فسمعه ناس منهم.

وقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أى: حطاماً كسرها كلها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ يعنى: إلا الصنم الكبير عندهم كما قال: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: ٩٣].

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾: ذكروا أنه وضع القدوم فى يد كبيرهم، لعلهم يعتقدون أنه هو الذى غَارَ لنفسه، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار، فكسرها.

﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على قدم إلهيتها، وعلى سخافة عقول عابديها ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى: فى صنيعه هذا ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ أى: قال من سمعه يحلف أنه ليكيدنهم: ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾ أى: شاباً ﴿يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عوف، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا جرير بن عبد الحميد، عن قابوس [عن أبيه][٢]، عن ابن عباس قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً، ولا أوتى العلم عالم إلا وهو شاب، وتلا هذه الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾.

وقوله: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أى: على رؤوس الأشهاد فى الملإ الأكبر بحضرة الناس كلهم، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم أن يتبين[٣] فى هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم وقلة عقلهم[٤] في عبادة هذه الأصنام التى لاتدفع عن نفسها ضراً، ولا تملك[٥] لها نصراً، فكيف يطلب منها شيء من ذلك ؟.

﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ يعنى: الذى تركه لم يكسره ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ وإنما أراد بهذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون، فإن هذا لا يصدر عن هذا الصنم؛ لأنه جماد.

وفي الصحيحين من حديث هشام بن حسان عن محمد بن سيرين، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم، عليه السلام، لم يكذب غير ثلاث: ثنتين فى ذات الله[٦]، قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾» قال: «وبينا هو يسير فى أرض جبار من الجبابرة ومعه

---

(١) فى ف: «قرب». (٢) زيادة من ف. (٣) فى ف، أ: «يبين».
(٤) فى ف: «عقولهم». (٥) فى ف: «ولا تستطيع». (٦) فى ف، أ: «كتاب».

سارة، إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار رجل، فقال: إنه قد نزل بأرضك رجل معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاء، فقال: ما هذه المرأة منك؟ قال: هى أختى. قال: فاذهب فأرسل بها إلىّ، فانطلق إلى سارة فقال: إن هذا الجبار[١] سألنى عنك فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى عنده، فإنك أختى فى كتاب الله، وأنه ليس في الأرض مسلم غيرى وغيرك، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلى. فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها، فتناولها، فأخذ أخذاً شديداً، فقال: ادعى الله لى ولا أضرك، فدعت له فأرسل، فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد. ففعل ذلك الثالثة فأخذ، [فذكر][٢] مثل المرتين الأولين[٣]، فقال: ادعى الله فلا أضرك. فدعت، له فأرسل، ثم دعا أدنى حجابه، فقال: إنك لم تأتنى بإنسان، وإنما[٤] أتيتنى بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر، فأخرجت وأعطيت هاجر، فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته، قال[٥]: مَهْيَم ؟ قالت: كفى الله كيد الكافر الفاجر، وأخدمنى هاجر » قال محمد بن سيرين[٦]: وكان[٧] أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال: فتلك أمكم يابنى ماء السماء[٨].

﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾.

يقول تعالى مخبراً[٩] عن قوم إبراهيم حين قال لهم ما قال: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أى: بالملامة فى عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم، فقالوا: ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أى: فى ترككم لها مهملة لا حافظ عندها، ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أى: ثم أطرقوا في الأرض فقالوا: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾ قال قتادة: أدركت القوم حيرة سوء فقالوا: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾.

وقال السدى: ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ أى: فى الفتنة.

وقال ابن زيد: أى فى الرأى.

وقول قتادة أظهر في المعنى؛ لأنهم إنما فعلوا ذلك حيرة وعجزاً؛ ولهذا قالوا له: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾، فكيف تقول لنا: سلوهم إن كانوا ينطقون، وأنت تعلم أنها لاتنطق فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ أى: إذا كانت لاتنطق[١٠]، وهى لا تضر ولا تنفع، فلم تعبدونها من دون الله ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا

---

(١) فى ف: «الجبار قد سألنى». (٢) زيادة من ف، والسنن. (٣) فى ف، أ: «الأولتين».
(٤) فى ف: «ولكنك». (٥) فى ف: «وقال». (٦) فى ف، أ: «إدريس».
(٧) فى ف: «فكان».
(٨) لم أجده فى الصحيحين من طريق هشام بن حسان وإنما هو فى السنن:
فرواه أبو داود فى السنن برقم (٢٢١٢) من طريق عبد الوهاب الثقفى عن هشام بن حسان.
ورواه النسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٣٧٤) من طريق أبى أسامة عن هشام بن حسان.
وهو فى الصحيحين من طريق أيوب عن محمد بن سيرين؛ صحيح البخارى برقم (٥٠٨٤)، وصحيح مسلم برقم (٢٣٧١).
(٩) فى ف، أ: «يخبر تعالى». (١٠) فى أ: «كان لا ينطق».

تعْقِلُونَ ﴾ أى: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ، الذى لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر؟ فأقام عليهم الحجة، وألزمهم بها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ**﴾ الآية [الأنعام: ٨٣].

﴿ **قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ (٧٠)** ﴾.

لما دَحَضت حجتهم، وبان عجزهم، وظهر الحق، واندفع الباطل، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم ، فقالوا: ﴿**حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ**﴾. فجمعوا حطباً كثيراً جداً ـ قال السدى: حتى إن كانت المرأة تمرض، فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحريق إبراهيم ـ ثم جعلوه فى جَوْبَة من الأرض، وأضرموها ناراً، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع، لم توقد قط نار[1] مثلها، وجعلوا إبراهيم، عليه السلام، فى كفة المنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس من الأكراد ـ قال شُعَيب الجبائى: اسمه هيزن ـ فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، فلما ألقوه قال: «حسبى الله ونعم الوكيل»، كما رواه البخارى، عن ابن عباس أنه قال: «حسبى[2] الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم حين ألقى فى النار، وقالها[3] محمد حين قالوا: ﴿ **إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾[آل عمران: ١٧٣][4] .

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا ابن هشام، حدثنا إسحاق[5] بن سليمان، عن أبى جعفر، عن عاصم، عن أبى صالح، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « لما ألقى إبراهيم، عليه السلام، فى النار قال: اللهم، إنك فى السماء واحد، وأنا فى الأرض واحد أعبدك»[6] .

ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال: لا إله إلا أنت سبحانك لك الحمد، ولك الملك، لا شريك لك[7] .

وقال شعيب الجبائى: كان عمره ست عشرة سنة. فالله أعلم.

وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو فى الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، [وأما من الله فبلى][8] .

(١) فى ف، «نار قط» . (٢) فى ف: «حسبنا» . (٣) فى ف: «وقال» .

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٥٦٣) .

(٥) فى ف، أ: «أبو إسحاق» .

(٦) ورواه البزار فى مسنده برقم (٢٣٤٩) «كشف الأستار» وأبو نعيم فى الحلية (١٩١١) والخطيب فى تاريخ بغداد (١٠/٣٤٦) من طريق أبي هشام الرفاعى به .

وقال البزار: «لا نعلم رواه عن عاصم إلا أبا جعفر، ولا عنه إلا إسحاق، ولم نسمعه إلا من أبى هشام» قلت: عاصم بن عمر ابن حفص متكلم فيه .

(٧) رواه الطبرى فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٥/٦٤٢) عن أرقم .

(٨) زيادة من ف .

وقال سعيد بن جبير ـ ويروى[١] عن ابن عباس أيضاً ـ قال: لما أُلقىَ إبراهيم جعل خازن المطر يقول: متى أومر بالمطر فأرسله؟ قال: فكان[٢] أمر الله أسرع من أمره، قال الله :[عز وجل][٣]﴿ **يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ قال: لم[٤] يبق نار فى الأرض إلا طفئت.

وقال كعب الأحبار: لم ينتفع [أحد][٥] يومئذ بنار، ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه.

وقال الثورى، عن الأعمش، عن شيخ، عن على بن أبى طالب :﴿ **قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ [قال: بَرَدَتْ عليه حتى كادت تقتله، حتى قيل: ﴿**وَسَلامًا**﴾][٦]، قال: لا تضرّيه.

وقال ابن عباس، وأبو العالية: لولا أن الله عز وجل قال: ﴿**وَسَلامًا**﴾ لآذى إبراهيم بَرْدُها.

وقال جُوَيبر، عن الضحاك :﴿**كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ**﴾ قال: صنعوا له حظيرة من حَطَب جَزْل، وأشعلوا فيه النار من كل جانب، فأصبح ولم يصبه منها شىء حتى أخمدها الله ـ قال: ويذكرون أن جبريل كان معه يمسح وجهه من العرق، فلم يُصِبْه منها شىء غيرُ ذلك.

وقال السدى : كان معه فيها ملك الظل .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا مِهْران، حدثنا إسماعيل بن أبى خالد، عن المِنْهَال بن عمرو قال: أخبرت أن إبراهيم ألقى فى النار، فقال: كان[٧] فيها إما خمسين وإما أربعين، قال: ما كنت أياماً وليالى قط أطيب عيشاً إذ كنت فيها، وددت أن عيشى وحياتى كلها مثل عيشى إذ كنت فيها.

وقال أبو زُرْعَة بن عمرو بن جرير، عن أبى هريرة قال: إن أحسن [شىء][٨] قال أبو إبراهيم ـ لما رفع عنه الطبق وهو فى النار، وجده يرشح جبينه ـ قال عند ذلك: نعمَ الربّ ربك يا إبراهيم.

وقال قتادة: لم يأت يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار، إلا الوزَغ ـ وقال الزهرى: أمر النبى ﷺ بقتله وسماه فويسقاً[٩].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب، حدثنى عمى، حدثنا جرير بن حازم، أن نافعاً حدثه قال: حدثتنى مولاة[١٠] الفاكه بن المغيرة المخزومى قالت: دخلت على عائشة فرأيت فى بيتها رمحا. فقلت: يا أم المؤمنين، ما تصنعين بهذا الرمح ؟ فقالت: نقتل به هذه الأوزاغ، إن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حين ألقى فى النار، لم يكن[١١] فى الأرض دابة إلا تطفئ النار، غير الوزَغ، فإنه كان ينفخ على إبراهيم»، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله[١٢] .

---

(١) فى ف، أ: «وروى» . (٢) فى ف: «وكان» . (٣) زيادة من ف .
(٤) فى ف، أ: «فلم» . (٥، ٦) زيادة من ف . (٧) فى ف: «فكان» .
(٨) زيادة من ف .
(٩) جاء من حديث أم شريك: رواه البخارى برقم (٣٣٠٧) ومسلم فى صحيحه برقم (٢٢٣٧) .
(١٠) فى ف،أ: «حدثنى مولاه» . (١١) فى ف : «تكن» .
(١٢) ورواه أحمد فى المسند (٦/ ٨٣ ، ١٠٩) وابن ماجه فى السنن برقم (٣٢٣١) من طريق نافع عن سائبة مولاة الفاكه به .

وقوله: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ أى: المغلوبين الأسفلين؛ لأنهم أرادوا بنبى الله كيداً، فكادهم الله ونجاه من النار، فغلبوا هنالك.

وقال عطية العوفى: لما أُلقىَ إبراهيم فى النار، جاء ملكهم لينظر إليه فطارت شرارة فوقعت على إبهامه ،فأحرقته مثل الصوفة .

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣) وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم، أنه سلمه الله من نار قومه، وأخرجه من بين أظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام، إلى الأرض المقدسة منها، كما قال الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أُبىّ بن كعب فى قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ قال: الشام، وما من ماء عذب إلا يخرج من تحت الصخرة. وكذا قال أبو العالية أيضاً.

وقال قتادة: كانا بأرض العراق، فأنجيا إلى الشام، [وكان يقال للشام: عماد دار الهجرة، وما نقص من الأرض زِيدَ فى الشام][(١)] وما نقص من الشام زيد فى فلسطين. وكان يقال: هى أرض المحشر والمنشر، وبها ينزل عيسى ابن مريم، عليه السلام، وبها يهلك المسيح الدجال.

وقال كعب الأحبار فى قوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ : إلى حران.

وقال السدى: انطلق إبراهيم ولوط قِبَل الشام، فلقى إبراهيم سارة، وهى ابنة ملك حران، وقد طعنت على قومها فى دينهم، فتزوجها على ألا يغيرها .

رواه ابن جرير، وهو غريب [والمشهور أنها ابنة عمه، وأنه خرج بها مهاجراً من بلاده][(٢)] .

وقال العَوفى، عن ابن عباس: إلى مكة؛ ألا تسمع قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران ٩٦].

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ قال عطاء، ومجاهد: عطية.

وقال ابن عباس، وقتادة، والحكم بن عُيينة: النافلة ولد الولد، يعنى: أن يعقوب ولد إسحاق، كما قال : ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[هود: ٧١].

(١، ٢) زيادة من ف .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: سأل واحداً فقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[الصافات: ١٠٠]، فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة .

﴿وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أى: الجميع أهل خير وصلاح، ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً﴾ أى: يقتدى بهم، ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أى: يدعون إلى الله بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾ من باب عطف الخاص على العام، ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ أى: فاعلين لما يأمرون الناس به.

ثم عطف بذكر لوط ـ وهو لوط بن هاران بن آزر ـ كان قد آمن بإبراهيم، واتبعه، وهاجر معه، كما قال تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ [العنكبوت: ٢٦] ، فآتاه الله حكماً وعلماً، وأوحى إليه، وجعله نبياً، وبعثه إلى سَدُومَ وأعمالها، فخالفوه وكذبوه، فأهلكهم الله ودمَّر عليهم، كما قص خبرهم فى غير موضع من كتابه العزيز؛ ولهذا قال: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ .وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ .

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧) ﴾ .

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح، عليه السلام، حين دعا على قومه لما كذبوه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾[القمر: ١٠] ، ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا . إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] ، ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ [1] وَأَهْلَهُ﴾ أى: الذين آمنوا به كما قال: ﴿وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] .

وقوله: ﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ أى: من الشدة والتكذيب والأذى، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل، فلم يؤمن به منهم إلا القليل، وكانوا يقصدون لأذاه[2]، ويتواصون قرناً بعد قرن، وجيلاً بعد جيل على خلافه.

وقوله : ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ أى: ونجيناه وخلصناه منتصراً من القوم ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أى: أهلكهم الله بعامة، ولم يُبْقِ على وجه الأرض منهم أحدًا؛ إذ[3] دعا عليهم نبيهم .

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ

(١) فى ف، أ: «ونجيناه» . (٢) فى ف: «أذاه» . (٣) فى ف: «كما» .

وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴿٨٢﴾ ﴾ .

قال أبو إسحاق، عن مُرّة، عن ابن مسعود: كان ذلك الحرث كرماً قد نَبَتَتْ عناقيده. وكذا قال شُرَيْح.

قال ابن عباس: النَّفْشُ: الرعى.

وقال شُرَيح، والزهرى، وقتادة: النَّفْشُ بالليل. زاد قتادة: والهَمْلُ بالنهار.

قال ابن جرير: حدثنا أبو كُرَيْب وهارون بن إدريسَ الأصم قالا: حدثنا المحاربى، عن أشعث، عن أبى إسحاق، عن مُرّة، عن ابن مسعود فى قوله: ﴿**وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ**﴾ قال: كرم قد أنبتت عناقيده، فأفسدته. قال: فقضى داود بالغَنَم لصاحب الكَرْم، فقال سليمان: غيرُ هذا يا نبى الله! قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيُصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: ﴿ **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ**﴾.

وهكذا روى العَوْفى، عن ابن عباس .

وقال حماد بن سلمة، عن على بن زيد، حدثنا[(١)] خليفة، عن ابن عباس قال: فحكم[(٢)] داود بالغنم لأصحاب الحرث، فخرج الرِّعاء معهم الكلاب، فقال لهم سليمان: كيف قضى بينكم؟ فأخبروه، فقال: لو وليت أمركم لقضيتُ بغير هذا! فأخبر بذلك داود، فدعاه فقال: كيف تقضى بينهم؟ قال[(٣)]: أدفع الغنم إلى صاحب الحرث، فيكون له أولادها وألبانها وسلاؤها ومنافعها ويبذُر أصحاب الغنم لأهل الحرث مثلَ حرثهم، فإذا بلغ الحرث الذى كان عليه أخذ أصحاب الحرث الحرثَ وردوا الغنم إلى أصحابها.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا خُدَيْج، عن أبى إسحاق، عن مُرَّة، عن مسروق قال: الحرث الذى نفشت فيه الغنم إنما كان كرما نفشت فيه الغنم، فلم تَدَع فيه ورقة ولا عنقوداً من عنب إلا أكلته، فأتوا داود، فأعطاهم رقابها، فقال سليمان: لا، بل تؤخذ الغنم فيعطاها[(٤)] أهلُ الكرم، فيكون لهم لبنها ونفعها، ويعطى أهل الغنم الكرم فيصلحوه ويعمروه[(٥)] حتى يعود كالذى كان ليلة نَفَشت فيه الغنم، ثم يُعطَى أهل الغنم غنمهم، وأهل الكرم كرمهم .

(١) فى ف: «حدثنى» . (٢) فى ف، أ: «قضى» . (٣) فى ف: «فقال» .
(٤) فى ف: «فتعطى» . (٥) فى ف: «فيعمروه ويصلحوه» .

وهكذا قال شُرَيح، ومُرَّة، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد وغير واحد.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن أبى زياد، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا إسماعيل، عن عامر، قال: جاء رجلان إلى شُرَيح، فقال أحدهما: إن شاة هذا قطعت غزلاً لى، فقال شريح: نهاراً أم ليلا؟ فإن كان نهاراً فقد برئ صاحب الشاة، وإن كان ليلاً ضَمِن، ثم قرأ: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ﴾ الآية .

وهذا الذى قاله شُرَيح شبيه بما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، من حديث الليث بن سعد، عن الزهرى، عن حرَام بن مُحَيِّصة[١] ؛ أن ناقة البراء بن عازب دخلت حائطاً، فأفسدت فيه، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وما أفسدت المواشى بالليل ضامن على أهلها[٢] . وقد عُلِّل هذا الحديث، وقد بسطنا الكلام عليه فى كتاب «الأحكام» وبالله التوفيق.

وقوله: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: قال ابن أبى حاتم:

حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن حميد؛ أن إياس بن معاوية لما استقضى أتاه الحسن فبكى، قال[٣] : ما يبكيك ؟ قال[٤]: يا أبا سعيد، بلغنى أن القضاة: رجل اجتهد فأخطأ، فهو فى النار، ورجل مال به الهوى فهو فى النار، ورجل اجتهد فأصاب فهو فى الجنة. فقال الحسن البصرى: إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان، عليهما السلام، والأنبياء حكماً يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالى: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾، فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود. ثم قال ـ يعنى: الحسن ـ: إن الله اتخذ على الحكماء ثلاثاً: لا يشترون به ثمناً قليلاً، ولا يتبعون فيه الهوى، ولا يخشون فيه أحداً، ثم تلا: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ] [٥]﴾ [ص: ٢٦] وقال : ﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلا﴾ [المائدة: ٤٤].

قلت: أما الأنبياء، عليهم السلام، فكلهم معصومون مُؤيَّدون من الله عز وجل. وهذا مما لا خلاف[٦] فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف، وأما من سواهم فقد ثبت فى صحيح البخارى، عن عمرو بن العاص أنه قال: قال رسول الله ﷺ:«إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران،

---

(١) فى ف: «عن حرام عن الزهرى بن محيصة» .

(٢) المسند (٥/ ٤٣٥) وسنن أبى داود برقم (٣٥٧٠) وسنن ابن ماجه برقم (٢٣٣٢) .

تنبيه:

هذا الطريق إنما هو طريق ابن ماجه، أما أحمد فرواه عن مالك وسفيان ومعمر عن الزهرى، وأما أبو داود فرواه عن معمر والأوزاعى عن الزهرى .

(٣، ٤) فى ف، أ :«فقال» . (٥) زيادة من ف، أ . (٦) فى ف: «ما لا اختلاف فيه» .

وإذا اجتهد فأخطأ[١] فله أجر»[٢]، فهذا الحديث يرد نصا ما توهمه «إياس» من أن القاضى إذا اجتهد فأخطأ فهو فى النار، والله أعلم.

وفى السنن : «القضاة ثلاثة: قاض فى الجنة، وقاضيان في النار: رجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو فى النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه، فهو فى النار[٣].

وقريب من هذه القصة المذكورة فى القرآن ما رواه الإمام أحمد فى مسنده ،حيث قال:

حدثنا على بن حَفْص، أخبرنا وَرْقاء عن أبى الزِّنَاد، عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « بينما امرأتان معهما ابنان لهما، جاء[٤] الذئب فأخذ أحد الابنين، فتحاكمتا إلى داود، فقضى به للكبرى، فخرجتا. فدعاهما سليمان فقال: هاتوا السكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها، لا تَشُقُّه، فقضى به للصغرى »[٥] .

وأخرجه البخارى ومسلم فى صحيحهما[٦] وبوّب عليه النسائى فى كتاب القضاء: (باب الحاكم يوهم خلاف الحكم ليستعلم الحق)[٧] .

وهكذا القصة التى أوردها الحافظ أبو القاسم ابن عساكر فى ترجمة «سليمان عليه السلام» من تاريخه، من طريق الحسن بن سفيان، عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن مجاهد، عن ابن عباس ـ فذكر قصة مطولة[٨] ملخصها ـ :أن امرأة حسناء فى زمان بنى إسرائيل، راودها عن نفسها أربعة من رؤسائهم، فامتنعت على[٩] كل منهم، فاتفقوا فيما بينهم عليها، فشهدوا عليها عند داود، عليه السلام، أنها مكَّنت من نفسها كلباً لها، قد عودته ذلك منها، فأمر برجمها. فلما كان عشية ذلك اليوم، جلس سليمان، واجتمع معه وِلْدانٌ، مثله، فانتصب حاكماً وتزيا أربعة منهم بزىّ أولئك، وآخر بزىّ المرأة، وشهدوا عليها بأنها مكنت من نفسها كلباً، فقال سليمان: فرقوا بينهم. فقال لأولهم: ما كان لون الكلب؟ فقال: أسود. فعزله، واستدى الآخر فسأله عن لونه، فقال: أحمر. وقال الآخر: أغبش. وقال الآخر: أبيض. فأمر بقتلهم، فحكى ذلك لداود، فاستدعى من فوره بأولئك الأربعة، فسألهم متفرقين عن لون ذلك الكلب، فاختلفوا عليه، فأمر بقتلهم[١٠] .

---

(١) فى ف : «وأخطأ» .

(٢) صحيح البخاري برقم (٧٣٥٢) .

(٣) سنن أبى داود برقم (٣٥٧٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (٥٩٢٢) وسنن ابن ماجه برقم (٢٣١٥).

(٤) فى ف: «إذ جاء».

(٥) المسند (٢/ ٣٢٢) .

(٦) فى ف: «صحيحيهما».

(٧) صحيح البخارى برقم (٦٧٦٩) وصحيح مسلم برقم (١٧٢٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (٥٩٥٨) والباب فيه «التوسعة للحاكم في أن يقول للشيء الذى لا يفعله افعل ليستبين له الحق» .

(٨) فى ف: «طويلة» .

(٩) فى أ: «عن» .

(١٠) تاريخ دمشق (٧/ ٥٦٥ «المخطوط») .

وقوله: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾: وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا تَرَنَّم به تقف الطير فى الهواء، فتجاوبه، وتَرد عليه الجبال تأويباً؛ ولهذا لمَّا مَرَّ النبى ﷺ على أبى موسى الأشعرى، وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب [جداً][1] ،فوقف واستمع لقراءته، وقال: «لقد أوتى هذا من مزامير آل داود ». قال يارسول الله، لو علمت أنك تسمع[2] لحبرته لك تحبيراً[3] .

وقال أبو عثمان النهدى: ما سمعت صوت صَنْج ولا بربط ولا مزمار مثل صوت أبى موسى، رضى الله عنه، ومع هذا قال: لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود.

وقوله: ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُم[4] مِّنْ بَأْسِكُمْ ﴾ يعنى صنعة الدروع.

قال قتادة: إنما كانت الدروع قبله صفائح، وهو أول من سردها حلَقاً. كما قال تعالى: ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ .أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ﴾ [سبأ: ١٠، ١١] أى: لا توسع الحلقة فتقلق[5] المسمار، ولا تغلظ المسمار فتقَدّ الحَلْقة ؛ولهذا قال: ﴿لِيُحْصِنَكُم[6] مِّنْ بَأْسِكُمْ ﴾ يعنى: فى القتال، ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ أى: نعم الله عليكم، لما ألهم به عبده داود، فعلمه ذلك من أجلكم.

وقوله :﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أى: وسخرنا لسليمان الريح العاصفة، ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ يعنى أرض الشام، ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾. وذلك أنه كان له بساط من خشب، يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة، والخيل والجمال والخيام والجند، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته، ثم تحمله فترفعه وتسير به، وتظله الطير من الحر، إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل وتوضع آلاته وخشبه[7] ،قال الله تعالى: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦] ،وقال: ﴿ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢].

قال ابن أبى حاتم: ذكر عن سفيان بن عيينة، عن أبى سنَان، عن سعيد بن جبير قال: كان يُوضَع لسليمان ستمائة ألف كرسى، فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن، ثم يأمر الطير فتظلهم، ثم يأمر الريح فتحمله ﷺ[8] .

وقال عبد الله بن عُبَيْد بن عمير: كان سليمان يأمر الريح، فتجتَمع كالطَّود العظيم، كالجبل، ثم يأمر بفراشه فيوضع على أعلى مكان منها، ثم يدعو بفرَس من ذوات الأجنحة، فترتفع[9] حتى تصعد[10] على فراشه، ثم يأمر الريح فترتفع به كُل شَرَف دون السماء، وهو مطأطئ رأسه، ما يلتفت يميناً ولا شمالاً، تعظيماً لله عز وجل، وشكراً لما يعلم من صغر ما هو فيه فى ملك الله

(١) زيادة من ف، أ.
(٢) فى ف: «تستمع» .
(٣) سبق الحديث فى فضائل القرآن .
(٤) فى ف، أ: «لتحصنكم» .
(٥) فى ف: «فتفلق» .
(٦) فى ف: «لتحصنكم» .
(٧) فى أ: «وحشمه» .
(٨) فى أ: «فتحملهم عليه السلام» .
(٩) فى ف، أ: «فيرتفع» .
(١٠) فى ف، أ: «يصعد».

تعالى[١] حتى تضعه[٢] الريح حيث شاء أن تضعه[٣] .

وقوله: ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ أى: فى الماء يستخرجون اللآلئ [وغير ذلك. ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ ﴾ أى: غير ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ.]‏[٤] وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾[ص: ٣٧، ٣٨] .

وقوله: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ [٥]حَافِظِينَ﴾ أى: يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء، بل كل فى قبضته وتحت قهره لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه، بل هو مُحكَّم[٦] فيهم، إن شاء أطلق، وإن شاء حبس منهم من يشاء؛ ولهذا قال: ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾.

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ (٨٤) ﴾ .

يذكر تعالى عن أيوب، عليه السلام، ما كان أصابه من البلاء، فى ماله وولده وجسده[٧] ،وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شىء كثير، وأولاد كثيرة، ومنازل مرضية. فابتلى فى ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلى فى جسده ـ يقال: بالجذام فى سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر بهما الله عز وجل، حتى عافه الجليس، وأفردَ فى ناحية من البلد، ولم يبق من الناس أحد[٨] يحنو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بأمره[٩] ،ويقال: إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله، وقد قال النبى ﷺ: « أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل»[١٠] وفى الحديث الآخر: « يبتلى الرجل على قدر دينه، فان كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه »[١١] .

وقد كان نبى الله أيوب ،عليه السلام ،غاية فى الصبر ،وبه يضرب المثل فى ذلك.

وقال يزيد بن ميسرة: لما ابتلى الله أيوب، عليه السلام، بذهاب الأهل والمال والولد، ولم يبق له شىء،أحسن الذكر، ثم قال: أحمدك رب الأرباب، الذى أحسنت إلى،أعطيتنى المال والولد، فلم يبق من قلبى شعبة، إلا قد دخله ذلك، فأخذت ذلك كله منى، وفرَّغت قلبى، ليس يحول بينى وبينك شىء، لو يعلم عدوى إبليس بالذى صنعت، حسدنى. قال: فلقى إبليس من ذلك منكراً.

قال: وقال أيوب، عليه السلام: يارب، إنك أعطيتنى المال والولد، فلم يقم على بابى أحد يشكونى لظلم ظلمته، وأنت تعلم ذلك. وأنه كان يوطأ لى الفراش فأتركها وأقول لنفسى:

---

(١) فى ف، أ: «عز وجل» . (٢) فى ف: «يضعه» . (٣) فى ف، أ: «حيث يشاء أن يضعه» .
(٤) زيادة من ف، أ . (٥) فى ف: «له» . (٦) فى ف، أ: «يحكم» .
(٧) فى ف: «وجسده وولده» . (٨) فى ف: «أحد من الناس» . (٩) فى ف: «بأوده» .
(١٠) رواه أحمد فى المسند (١/ ١٧٢) والترمذى فى السنن برقم (٢٣٩٨) وابن ماجه فى السنن برقم (٤٠٢٣) من حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه. وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح» .
(١١) هو جزء من الحديث المتقدم ، والله أعلم .

يانفس،إنك لم تخلقى لوطء الفرش[١] ،ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك. رواه ابن أبى حاتم.

وقد ذكر عن وهب بن منبه فى خبره قصة طويلة، ساقها ابن جرير وابن أبى حاتم بالسند عنه، وذكرها غير واحد من متأخرى المفسرين، وفيها غرابة تركناها لحال الطول[٢].

وقد روى أنه مكث فى البلاء مدة طويلة، ثم اختلفوا فى السبب المهيج له على هذا الدعاء، فقال الحسن وقتادة: ابتلى أيوب، عليه السلام، سبع سنين وأشهراً، ملقى على كُنَاسَة بنى إسرائيل، تختلف الدواب فى جسده ففرج الله عنه، وَعَظَّم له الأجر، وأحسن عليه الثناء.

وقال وهب بن منبه: مكث فى البلاء ثلاث سنين، لا يزيد ولا ينقص.

وقال السدى: تساقط لحم أيوب حتى لم يبق إلا العصب والعظام، فكانت امرأته تقوم عليه وتأتيه بالزاد يكون فيه، فقالت له امرأته لما طال وجعه: يا أيوب، لو دعوت ربك[٣] يفرج عنك؟ فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحاً، فهل[٤] قليل للّه أن أصبر له سبعين سنة؟ فجزَعَت من ذلك فخرجت، فكانت تعمل للناس بأجر وتأتيه بما تصيب فتطعمه، وإن إبليس انطلق إلى رجلين من فلسطين كانا صديقين له وأخوين، فأتاهما فقال: أخوكما أيوب أصابه من البلاء كذا وكذا، فأتياه وزوراه واحملا معكما من خمر أرضكما، فإنه إن شرب منه برَأ. فأتياه، فلما نظرا إليه بكيا، فقال: من أنتما؟ فقالا[٥]: نحن فلان وفلان! فرحَّب بهما وقال: مرحباً بمن لا يجفونى عند البلاء، فقالا: يا أيوب، لعلك كنت تُسر شيئاً وتظهر غيره، فلذلك ابتلاك الله؟ فرفع رأسه إلى السماء ثم قال:هو يعلم، ما أسررت شيئاً أظهرت غيره. ولكن ربى ابتلانى لينظر أأصبر أم أجزع، فقالا له: يا أيوب، اشرب من خمرنا فإنك إن شربت منه برَأت. قال: فغضب وقال جاءكما الخبيث فأمركما بهذا ؟ كلامكما وطعامكما وشرابكما علىّ حرام. فقاما من عنده، وخرجت امرأته تعمل للناس فخبزت لأهل بيت لهم صبى، فجعلت لهم قرصاً[٦]، وكان ابنهم نائماً، فكرهوا أن يوقظوه، فوهبوه لها. فأتت به إلى أيوب، فأنكره وقال: ما كنت تأتينى بهذا، فما بالك اليوم؟ فأخبرته الخبر. قال: فلعل الصبى قد استيقظ، فطلب القرص فلم يجده فهو يبكى على أهله. [فانطلقى به إليه. فأقبلت حتى بلغت درجة القوم، فنطحتها شاة لهم، فقالت: تعس أيوب الخطاء! فلما صعدت وجدت الصبى قد استيقظ وهو يطلب القرص، ويبكى على أهله][٧]، لا يقبل منهم شيئاً غيره، فقالت: رحم الله أيوب فدفعت القرص إليه ورجعت. ثم إن إبليس أتاها فى صورة طبيب، فقال لها: إن زوجك قد طال سُقمه، فإن أراد أن يبرأ فليأخذ ذباباً فليذبحه باسم صنم بنى فلان فإنه يبرأ ويتوب بعد ذلك. فقالت ذلك لأيوب، فقال: قد أتاك الخبيث. للّه علىّ إن برأت أن أجلدك مائة جلدة. فخرجت تسعى عليه، فحظر عنها الرزق، فجعلت لا تأتى أهل بيت فيريدونها، فلما اشتد عليها ذاك وخافت على أيوب

---

(١) فى ف: «الفراش».

(٢) تفسير الطبرى (٤٢/١).

(٣) فى ف، أ: «الله».

(٤) فى أ: «فهو».

(٥) فى ف، أ: «قالا».

(٦) فى ف، أ: «قرصة».

(٧) زيادة من ف، أ.

الجوع حلقت من شعرها قرناً فباعته من صبية من بنات الأشراف، فأعطوها طعاماً طيباً كثيراً فأتت به أيوب، فلما رآه أنكره وقال: من أين لك هذا؟ قالت: عملت لأناس فأطعمونى. فأكل منه، فلما كان الغد خرجت فطلبت أن تعمل فلم تجد فحلقت أيضاً قرناً فباعته من تلك الجارية، فأعطوها من ذلك الطعام، فأتت به أيوب، فقال: والله لا أطعمه حتى أعلم من أين هو؟ فوضعت خمارها، فلما رأى رأسها محلوقاً جزع جزعاً شديداً، فعند ذلك دعا ربه عز وجل: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، حدثنا أبو عمران الجَوْنى، عن نَوْف البِكَالى؛ أن الشيطان الذى عرج فى أيوب كان يقال له: «سوط»[(١)]، قال: وكانت امرأة أيوب تقول: «ادع الله فيشفيك»، فجعل لا يدعو، حتى مر به نفر من بنى إسرائيل، فقال بعضهم لبعض: ما أصابه ما أصابه إلا بذنب عظيم أصابه، فعند ذلك قال: «رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين».

وحدثنا أبى، حدثنا أبو سلمة، حدثنا جرير بن حازم، عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال: كان لأيوب، عليه السلام، أخوان فجاءا يوماً، فلم يستطيعا أن يدنوا منه، من ريحه، فقاما من بعيد، فقال أحدهما للآخر: لو كان الله علم من أيوب خيراً ما ابتلاه بهذا؟ فجزع أيوب من قولهما جَزعا لم يجزع من شىء قط، فقال: اللهم، إن كنت تعلم أنى لم أبت ليلة قط شبعان[(٢)] وأنا أعلم مكان جائع، فصدقنى. فصدق من السماء وهما يسمعان. ثم قال: اللهم، إن كنت تعلم أنى لم يكن لى قميصان قط، وأنا أعلم مكان عار، فَصَدَقنى فصدق من السماء وهما يسمعان. اللهم[(٣)] بعزتك ثم خر ساجداً، ثم قال[(٤)]: اللهم بعزتك لا أرفع رأسى أبداً حتى تكشف عنى. فما رفع رأسه حتى كشف عنه.

وقد رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر مرفوعاً بنحو هذا فقال: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب أخبرنى نافع بن يزيد، عن عُقَيل، عن الزهرى، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من إخوانه، كانا من أخص إخوانه، كانا[(٥)] يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: تَعَلَّم ـ والله ـ لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين. فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف[(٦)] ما به. فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب، عليه السلام: لا أدرى ما تقول، غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما، كراهة أن يذكرا الله إلا فى حق. قال: وكان يخرج فى حاجته[(٧)]، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه، فأوحى إلى

(١) فى ف، أ: «مبسوط». (٢) فى ف: «شبعانا». (٣) فى ف، أ: «ثم قال: اللهم».
(٤) فى ف: «فقال». (٥) فى ف، أ: «له». (٦) فى ف: «فكشف».
(٧) فى ف: «حاجة».

أيوب فى مكانه: أن اركض برجلك، هذا مغتسل بارد وشراب»[(١)].

رفع هذا الحديث غريب جداً.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أخبرنا على بن زيد، عن يوسف بن مِهْران، عن ابن عباس، قال: وألبسه الله حلة من الجنة، فتنحى أيوب فجلس فى ناحية، وجاءت امرأته، فلم تعرفه، فقالت: يا عبد الله، أين ذهب المبتلى الذى كان ها هنا؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئاب، فجعلت تكلمه ساعة، فقال: ويحك! أنا أيوب! قالت: أتسخر منى يا عبد الله؟ فقال: ويحك! أنا أيوب، قد رد الله على جسدى.

وبه قال ابن عباس: ورد عليه ماله وولده عيانا، ومثلهم معهم.

وقال وهب بن منبه: أوحى الله إلى أيوب: قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم، فاغتسل بهذا الماء، فإن فيه شفاءك، وقرب عن صاحبتك[(٢)] قرباناً، واستغفر لهم، فإنهم قد عصونى فيك. رواه ابن أبى حاتم.

[وقال][(٣)] أيضاً: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا همام، عن قتادة، عن النضر ابن أنس، عن بَشير[(٤)] بن نَهِيك، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: «لما عافى الله أيوب، أمطر عليه جراداً من ذهب، فجعل يأخذ بيده ويجعله فى ثوبه». قال: «فقيل له: يا أيوب، أما تشبع؟ قال: يا رب، ومن يشبع من رحمتك».

أصله فى الصحيحين[(٥)]، وسيأتى فى موضع آخر.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾: قد تقدم عن ابن عباس أنه قال: ردوا عليه بأعيانهم. وكذا رواه العوفى، عن ابن عباس أيضاً. وروى مثله عن ابن مسعود ومجاهد، وبه قال الحسن وقتادة.

وقد زعم بعضهم أن اسم زوجته رحمة، فإن كان أخذ ذلك من سياق الآية فقد أبعد النَّجْعَة، وإن كان أخذه من نقل أهل الكتاب، وصح ذلك عنهم، فهو مما لا يصدق ولا يكذب. وقد سماها ابن عساكر فى تاريخه ـ رحمه الله تعالى ـ قال: ويقال: اسمها ليا ابنة مِنَشَّا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، قال: ويقال: ليا بنت يعقوب، عليه السلام، زوجة أيوب كانت معه بأرض البَثَنِيَّة.

وقال مجاهد: قيل له: يا أيوب، إن أهلك لك فى الجنة، فإن شئت أتيناك بهم، وإن شئت

---

(١) ورواه ابن حبان فى صحيحه برقم (٢٠٩١) «موارد» من طريق حرملة بن يحيى عن ابن وهب بنحوه.
(٢) فى ف: «صحابتك». (٣) زيادة من أ. (٤) فى ف: «بشر».
(٥) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/٥٨٢) من طرق عن عمرو بن مرزوق به، وسيأتى أصل الحديث فى صحيح البخارى عند تفسير الآية: ٤٢ من سورة ص.

تركناهم لك فى الجنة، وعوضناك مثلهم. قال: لا بل اتركهم لى فى الجنة. فتُركوا له فى الجنة وعوض مثلهم فى الدنيا.

وقال حماد بن زيد، عن أبى عمران الجَوْنى، عن نَوف البِكَالى قال: أوتى أجرهم فى الآخرة، وأعطى مثلهم فى الدنيا. قال: فحدثت به مُطَرِّفًا، فقال: ما عرفت وجهها قبل اليوم.

وهكذا روى عن قتادة، والسدى، وغير واحد من السلف، والله أعلم.

وقوله: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أى: فعلنا به ذلك رحمة من الله به، ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ أى: وجعلناه فى ذلك قدوة، لئلا يظن أهل البلاء إنما فعلنا بهم ذلك[١] لهوانهم علينا، وليتأسوا به فى الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما[٢] يشاء، وله الحكمة البالغة فى ذلك.

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٦) ﴾.

أما إسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، وقد تقدم ذكره فى سورة مريم، وكذلك إدريس، عليه السلام[٣].

وأما ذو الكفل فالظاهر من السياق أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبى. وقال آخرون: إنما كان رجلاً صالحاً، وكان ملكاً عادلا، وحكماً مقسطاً، وتوقف ابن جرير فى ذلك، فالله أعلم.

وقال ابن جُرَيج، عن مجاهد فى قوله: ﴿وَذَا الْكِفْلِ﴾ قال: رجل صالح غير نبى، تكفل لنبى قومه أن يكفيه أمر قومه ويقيمهم له ويقضى بينهم بالعدل، ففعل ذلك، فَسُمى: ذا الكفل. وكذا روَى ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد أيضاً.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عفان، حدثنا وُهَيب، حدثنا داود، عن مجاهد قال: لما كبر اليسع قال: لو أنى استخلفت رجلا على الناس يعمل عليهم فى حياتى، حتى أنظر كيف يعمل؟ فجمع الناس، فقال: من يتقبل منى بثلاث: أستخلفه يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب. قال: فقام رجل تزدريه العين، فقال: أنا. فقال: أنت تصوم النهار، وتقوم الليل، ولا تغضب؟ قال: نعم، قال: فردهم[٤] ذلك اليوم، وقال مثلها فى اليوم الآخر، فسكت الناس، وقام ذلك الرجل وقال[٥]: أنا. فاستخلفه، قال: وجعل إبليس يقول للشياطين: عليكم بفلان. فأعياهم ذلك[٦]، قال: دعونى[٧] وإياه، فأتاه فى صورة شيخ كبير فقير، فأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة ـ

---

(١) فى ف: «إنما فعل ذلك بهم».
(٢) فى ف: «فيما».
(٣) انظر: تفسير الآيات: ٥٤ ـ ٥٧.
(٤) فى ف، أ: «فيردهم».
(٥) فى ف: «فقال».
(٦) فى ف، أ: «ذلك الرجل».
(٧) فى أ: «دعونى أنا وإياه».

وكان لا ينام الليل والنهار إلا تلك النومة ـ فدق الباب، فقال: من هذا؟ قال: شيخ كبير مظلوم. قال: فقام ففتح الباب، فجعل يقص عليه، فقال: إن بينى وبين قومى خصومة، وإنهم ظلمونى، وفعلوا بى وفعلوا. وجعل يُطَول عليه حتى حصر الرواح وذهبت القائلة، فقال[١]: إذا رحت فأتنى آخذ لك بحقك. فانطلق، وراح. فكان فى مجلسه، فجعل ينظر هل يرى الشيخ؟ فلم يره، فقام يتبعه، فلما كان الغد جعل يقضى بين الناس، وينتظره ولا[٢] يراه، فلما رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه، أتاه فدق الباب، فقال: من هذا؟ قال[٣]: الشيخ الكبير المظلوم. ففتح له[٤] فقال: ألم أقل لك إذا قعدت فأتنى؟ قال: إنهم أخبث قوم، إذا عرفوا[٥] أنك قاعد قالوا: نحن نعطيك حقك. وإذا قمت جحدونى. قال: فانطلق، فإذا رحت فأتنى. قال: ففاتته القائلة، فراح فجعل ينتظره[٦] ولا يراه، وشق عليه النعاس، فقال لبعض أهله: لا تدعن أحداً يَقرب هذا الباب حتى أنام، فإنى قد شق علىّ النوم. فلما كان تلك الساعة أتاه[٧] فقال له الرجل: وراءك وراءك؟ فقال: إنى قد أتيته أمس، فذكرت له أمرى، فقال: لا، والله لقد أمرنا ألا ندع أحداً يقربه. فلما أعياه نظر فرأى كُوَّة فى البيت، فتسور منها، فإذا هو فى البيت، وإذا هو يدق الباب من داخل، قال: فاستيقظ الرجل فقال: يا فلان، ألم آمرك؟ فقال[٨]: أما من قبلى والله فلم تؤتَ، فانظر من أين أتيت؟ قال: فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه، وإذا الرجل معه فى البيت، فعرفه، فقال: أعدو الله؟ قال: نعم، أعييتنى فى كل شىء، ففعلت ما تَرَى لأغضبك. فسماه الله ذا الكفل؛ لأنه تكفل بأمر، فوفى به[٩].

وهكذا رواه بن أبى حاتم، من حديث زهير بن إسحاق، عن داود، عن مجاهد، بمثله.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن مسلم، قال: قال ابن عباس: كان قاض فى بنى إسرائيل، فحضره الموت، فقال: من يقوم مقامى على ألا يغضب؟ قال: فقال رجل: أنا. فسمى ذا الكفل. قال: فكان[١٠] ليله جميعاً يصلى، ثم يصبح صائماً فيقضى بين الناس ـ قال: وله[١١] ساعة يقيلها ـ قال: فكان كذلك، فأتاه الشيطان عند نومته، فقال له أصحابه: ما لك؟ قال: إنسان مسكين، له على رجل حق، وقد غلبنى عليه. قالوا: كما أنت حتى يستيقظ ـ قال: وهو فوق نائم ـ قال: فجعل يصيح عمدا حتى يوقظه[١٢]، قال: فسمع، فقال: ما لك؟ قال: إنسان مسكين، له على رجل حق. قال: اذهب فقل له يعطيك. قال: قد أبى. قال: اذهب أنت إليه. قال: فذهب، ثم جاء من الغد، فقال: ما لك؟ قال: ذهبت إليه فلم يرفع بكلامك رأساً. قال: اذهب إليه فقل له يعطيك حقك، قال: فذهب، ثم جاء من الغد حين قال، قال: فقال له أصحابه: اخرج، فعل الله بك، تجىء كل يوم حين ينام، لا

---

(١) فى ف: «وقال».
(٢) فى ف، أ: «فلا».
(٣) فى ف: «فقال».
(٤) فى ف: «ففتح الباب».
(٥) فى ف، أ: «اعترفوا».
(٦) فى ف: «ينتظر».
(٧) فى ف: «جاءه».
(٨) فى ت: «قال».
(٩) تفسير الطبرى (١٧/ ٥٩).
(١٠) فى ف: «فقال».
(١١) فى ف: «فله».
(١٢) فى ف: «يغضبه».

تدعه ينام؟. فجعل[١] يصيح: من أجل أنى إنسان مسكين، لو كنت غنيا؟ قال: فسمع أيضاً، فقال: ما لك؟ قال: ذهبت إليه فضربنى. قال: امش حتى أجىء معك. قال: فهو ممسك بيده، فلما رآه ذهب معه نَتَر يده منه [٢] فَفَر.

وهكذا روى عن عبد الله بن الحارث، ومحمد بن قيس، وابن حُجَيرة الأكبر، وغيرهم من السلف، نحو من هذه القصة، والله أعلم.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو الجماهر[٣]، أخبرنا سعيد بن بشير، حدثنا قتادة، عن أبى كنانة بن الأخنس قال: سمعت الأشعرى وهو يقول على هذا المنبر: ما كان ذو الكفل بنبى، ولكن كان ـ يعنى: فى بنى إسرائيل ـ رجل صالح يصلى كل يوم مائة صلاة، فتكفل له ذو الكفل من بعده، فكان يصلى كل يوم مائة صلاة، فسمى ذا الكفل.

وقد رواه ابن جرير من حديث عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة قال: «قال أبو موسى الأشعرى. . .» فذكره منقطعا[٤]، والله أعلم.

وقد روى الإمام أحمد حديثاً غريباً فقال:

حدثنا أسباط بن محمد، حدثنا الأعمش، عن عبد الله بن عبد الله، عن سعد[٥] مولى طلحة، عن ابن عمر قال: سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين ـ حتى عدّ سبع مرات ـ ولكن قد سمعته أكثَرَ من ذلك، قال: «كان الكفل من بنى إسرائيل، لا يتورّع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا، على أن يَطَأها، فلما قعد منها[٦] مَقعدَ الرجل من امرأته، أرعدَت[٧] وبكت، فقال: ما يبكيك؟ أكرَهتُك؟ قالت: لا، ولكن هذا عمل لم أعمله قط، وإنما حَمَلنى عليه الحاجة. قال: فتفعلين هذا ولم تفعليه قط؟ فَنَزَل[٨] فقال: اذهبى فالدنانير لك. ثم قال: والله لا يَعصى الله الكفل أبداً. فمات من ليلته، فأصبح مكتوباً على بابه: قد غفر الله للكفل»[٩].

هكذا وقع فى هذه الرواية «الكفل»، من غير إضافة، فالله أعلم. وهذا الحديث لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة[١٠]، وإسناده غريب، وعلى كل تقدير فلفظ الحديث إن كان «الكفل»، ولم يقل: «ذو الكفل»، فلعله رجل آخر، والله أعلم.

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ

---

(١) فى ف، أ: «قال: فجعل». (٢) فى أ: «منه فذهب». (٣) فى ف، أ: «أبو الجماهير».
(٤) تفسير الطبرى (١٧/ ٦٠).
(٥) فى ف، أ: «سعيد». (٦) فى أ: «معها». (٧) فى أ: «ارتعدت».
(٨) فى ف: «ثم نزل».
(٩) المسند (٢/ ٢٣).
(١٠) قلت: بل أخرجه الترمذى فى السنن برقم (٢٤٩٦) من طريق عبيد بن أسباط عن أبيه به، وقال: «هذا حديث حسن قد رواه شيبان وغير واحد عن الأعمش نحو هذا ورفعوه وروى بعضهم عن الأعمش فلم يرفعه».

سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾.

هذه القصة مذكورة ها هنا وفى سورة «الصافات» وفى سورة «ن»[1] وذلك أن يونس بن مَتَّى، عليه السلام، بعثه الله إلى أهل قرية «نينوى»، وهى قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله، فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضبا لهم، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث. فلما تحققوا منه ذلك، وعلموا أن النبى لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وفرقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل، وجأروا[2] إليه، ورغت الإبل وفُصْلانها، وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وحُمْلانها، فرفع الله عنهم العذاب، قال الله تعالى: ﴿**فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ**[3] **الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ**﴾ [يونس: ٩٨].

وأما يونس، عليه السلام، فإنه ذهب فركب مع قوم فى سفينة فَلَجَّجت بهم، وخافوا أن يغرقوا[4]. فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، فوقعت القرعة على يونس، فأبوا[5] أن يلقوه، ثم أعادوا القرعة فوقعت عليه أيضاً، فأبوا، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً، قال الله تعالى: ﴿**فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ**﴾ [الصافات: ١٤١]، أى: وقعت عليه القرعة[6]، فقام يونس، عليه السلام، وتجرد من ثيابه، ثم ألقى نفسه فى البحر، وقد أرسل الله، سبحانه وتعالى، من البحر الأخضر ـ فيما قاله ابن مسعود ـ حوتاً يشق البحار، حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة، وأوحى الله إلى ذلك الحوت ألا تأكل له لحماً، ولا تهشم له عظما؛ فإن يونس ليس لك رزقا، وإنما بطنك له يكون سجناً.

وقوله: ﴿**وَذَا النُّونِ**﴾ يعنى: الحوت، صحت الإضافة إليه بهذه النسبة.

وقوله: ﴿**إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا**﴾: قال الضحاك: لقومه، ﴿**فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ**﴾ [أى: نضيق عليه فى بطن الحوت. يُروَى نحو هذا عن ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وغيرهم، واختاره[7] ابن جرير، واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿**وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا**﴾ [الطلاق: ٧].

وقال عطية العَوفى: ﴿**فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ**﴾][8]، أى: نقضى عليه، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير، فإن العرب تقول: قدَر وقدّر بمعنى واحد، وقال الشاعر:

---

(١) سورة الصافات الآيات: ١٣٩ ـ ١٤٨)، وسورة نون (القلم) الآيات: ٤٨ ـ ٥٠.
(٢) فى ت: «ولجؤوا».
(٣) فى ت: «العذاب».
(٤) فى ت، ف: «تغرق بهم».
(٥) فى ت: «فأتوا».
(٦) فى ف: «فوقعت القرعة عليه».
(٧) فى ت: «واختارهم».
(٨) زيادة من ت، ف، أ.

تباركت ما تَقْدرْ يكُنْ، فَلَكَ الأمْرُ   فَلاَ عَائد ذَاكَ الزَّمَانُ الذى مَضَى

ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢]، أى: قُدِّر.

وقوله: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾: قال ابن مسعود: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل. وكذا روى عن ابن عباس[(١)]، وعمرو بن ميمون، وسعيد بن جُبَير، ومحمد بن كعب، والضحاك، والحسن، وقتادة.

وقال سالم بن أبى الجعد: ظلمةُ حُوت فى بطن حوت[(٢)]، فى ظلمة البحر.

قال ابن مسعود، وابنُ عباس وغيرهما: وذلك أنه ذهب به الحوتُ فى البحار يَشُقُّها، حتى انتهى به إلى قرار البحر، فسمع[(٣)] يونسُ تسبيح الحصى فى قراره، فعند ذلك وهنالكَ قال: ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ﴾.

وقال عوف: لما صار يونس فى بطن الحوت، ظن أنه قد مات، ثم حرك رجليه فلما تحركت سجد مكانه، ثم نادى: يا رب[(٤)]، اتخذت لك مسجداً[(٥)] فى موضع ما اتخذه[(٦)] أحد.

وقال سعيد بن الحسن البصرى: مكث فى بطن الحوت أربعين يوماً. رواهما[(٧)] ابن جبير.

وقال محمد بن إسحاق بن يَسَار، عمن حدثه، عن عبد الله بن رافع ـ مولى أم سلمة ـ سمعتُ أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لما أراد الله حَبْسَ يونس فى بطن الحوت، أوحى الله إلى الحوت أن خذه، ولا تخدش لحما ولا تكسر عظما، فلما انتهى به إلى أسفل البحر، سمع يونس حساً، فقال فى نفسه: ما هذا؟ فأوحى الله إليه، وهو فى بطن[(٨)] الحوت: إن هذا تسبيح دواب البحر. قال: فَسَبَّح وهو فى بطن الحوت، فسمع[(٩)] الملائكة تسبيحه فقالوا: يا ربنا، إنا نسمع صوتاً ضعيفاً [بأرض غريبة][(١٠)] قال: ذلك عبدى يونس، عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر. قالوا: العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عملٌ صالح؟. قال: نعم». قال: «فشفعوا له عند ذلك، فأمر الحوت فقذفه فى الساحل، كما قال الله عز وجل[(١١)]: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾» [الصافات: ١٤٥].

ورواه ابن جرير[(١٢)]، ورواه البزار فى مسنده، من طريق محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن رافع، عن أبى هريرة، فذكره بنحوه، ثم قال: لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد[(١٣)]، وروى ابن عبد الحق من حديث شعبة، عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سَلَمَة[(١٤)]،

---

(١) فى ف: «ابن مسعود».
(٢) فى ف، أ: «حوت آخر».
(٣) فى ت، أ: «حتى يسمع»، وفى ف: «حتى سمع».
(٤) فى ت: «رب الحوت».
(٥) فى ت: «مسجد».
(٦) فى ف، أ: «ما أخذه».
(٧) فى ت: «رواها».
(٨) فى ف: «وهو ببطن».
(٩) فى ف، أ: «فسمعت».
(١٠) زيادة من ف، أ.
(١١) فى ت: «الله تعالى».
(١٢) تفسير الطبرى (١٧/ ٦٥).
(١٣) مسند البزار برقم (٢٢٥٤) «كشف الأستار».
(١٤) فى ت، ف: «مسلم».

عن علي مرفوعاً: لا ينبغي لعبد أن يقول: «أنا[١] خير من يونس بن متى»؛ سبح لله في الظلمات[٢].

وقد روى هذا الحديث بدون هذه الزيادة، من حديث ابن عباس، وابن مسعود، وعبد الله بن جعفر، وسيأتي أسانيدها في سورة «ن»[٣].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الرحمن بن أخي ابن وهب، حدثنا عمي: حدثني أبو صخر: أن يزيد الرقاشي حدثه قال: سمعت أنس بن مالك ـ ولا أعلم إلا أن أنسا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ـ أن يونس النبي، عليه السلام، حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت، قال: «اللهم، لا إله إلا أنت، سبحانك، إني كنت من الظالمين». فأقبلت هذه الدعوة تحف بالعرش[٤]، فقالت الملائكة: يا رب، صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة؟ فقال: أما تعرفون ذاك[٥]؟ قالوا: لا، يا رب[٦]، ومن هو؟ قال: عبدي يونس. قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يُرفَع له عَمَلٌ متقبل[٧]، ودعوة مجابة؟. [قال: نعم][٨]. قالوا: يا رب، أَوَلا[٩] ترحم ما كان يصنع[١٠] في الرخاء فتنجيَه من البلاء؟ قال: بلى. فأمر الحوت فطرحه في العراء[١١].

وقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ أي: أخرجناه من بطن الحوت، وتلك الظلمات، ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إذا كانوا في الشدائد ودَعَونا منيبين إلينا، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء، فقد جاء الترغيب في الدعاء بها عن سيد الأنبياء، قال الإمام أحمد:

حدثنا إسماعيل بن عُمَر، حدثنا يونس بن أبي إسحاق الهمداني، حدثنا إبراهيم بن محمد[١٢] ابن سعد، حدثني والدي محمد عن أبيه سعد، ـ وهو ابن أبي وقاص ـ قال: مررت بعثمان بن عفان، رضي الله عنه، في المسجد، فسلمت عليه، فملأ عينيه مني ثم لم يَردُدْ عليَّ السلام، فأتيت عمر بن الخطاب فقلت: يا أمير المؤمنين، هل حدث في الإسلام شيء؟ مرتين، قال: لا، وما ذاك؟ قلت: لا، إلا أني مررتُ بعثمان[١٣] آنفا في المسجد، فسلمت عليه، فملأ عينيه مني، ثم لم يَرْدُد[١٤] علي السلام. قال: فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه، فقال: ما منعك ألا تكون رَدَدت على أخيك

---

(١) في ف: «أنا عند الله خير».

(٢) كذا (ابن عبد الحق)، وأظنه تحريف عن عبد بن حميد، إلا أني لا أجزم بذلك، وقد ذكره الهندي في كنز العمال (١٢/ ٤٧٦) وعزاه لابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن مردويه وابن عساكر في تاريخه.

(٣) كذا قال الحافظ ابن كثير، وإنما ذكره هناك من حديث ابن مسعود وأبي هريرة رضي الله عنهما.
فأما حديث ابن عباس: فرواه البخاري في صحيحه برقم (٣٣٩٥) ومسلم في صحيحه برقم (٢٣٧٧).
وأما حديث عبد الله بن جعفر: فرواه أبو داود في السنن برقم (٤٦٧٠).

(٤) في ت: «نحو العرش» وفي ف: «تحت العرش».
(٥) في ف: «ذلك».
(٦) في ت، ف: «يا ربنا».

(٧) في ت، ف: «متقبلاً».
(٨) زيادة من ف، أ.
(٩) في ت، ف، أ: «أفلا».

(١٠) في ت، ف: «يصنعه».

(١١) ورواه ابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة برقم (٣٢) من طريق أحمد بن صالح عن عبد الله بن وهب به.

(١٢) في ت: «محمد بن إبراهيم».
(١٣) في ف، أ: «بعثمان بن عفان رضي الله عنه».

(١٤) في ت: «يرد».

السلام؟ قال: ما فعلتُ. قال سعد: قلتُ: بلى[١]. حتى حلفَ وحلفت، قال: ثم إن عثمان ذكرَ فقال: بلى، وأستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بى آنفا وأنا أحدّث نفسى بكلمة سمعتُها من رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرتها قط إلا تَغْشَى بصرى وقلبى غشَاوة. قال سعد: فأنا أنبئك بها، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا [أول دعوة][٢] ثم جاء أعرابى فشغله، حتى قامَ رسولُ الله ﷺ فاتبعته، فلما أشفقت أن يسبقنى إلى منزله ضربت بقدمى الأرض، فالتفت إلىّ رسولُ الله ﷺ فقال: «من هذا؟ أبو إسحاق؟» قال: قلت: نعم، يا رسول الله. قال: «فمه؟» قلت: لا والله، إلا أنك ذكرتَ لنا أول دعوة، ثم جاء هذا الأعرابى فشغلك. قال: «نعم، دعوةُ ذى النون، إذ هو فى بطن الحوت: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، فإنه لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قط إلا استجاب له».

ورواه الترمذى، والنسائى فى «اليوم والليلة»، من حديث إبراهيم بن محمد بن سعد، عن أبيه، عن سعد[٣]، به[٤].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن كَثِير بن زيد، عن المطلب بن حنطب ـ قال أبو خالد: أحسبه عن مصعب، يعنى: ابن سعد ـ عن سعد[٥] قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا بدعاء يونس، استُجِيب[٦] له». قال أبو سعيد: يريد به ﴿وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[٧].

وقال ابن جرير: حدثنى عمران بن بكّار الكَلاَعى، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا أبو يحيى بن عبد الرحمن، حدثنى بِشْر بن منصور، عن على بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن مالك ـ وهو ابن أبى وقاص ـ يقول: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «اسم الله الذى إذا دُعِى به أجاب، وإذا سُئِل به أعطى، دعوةُ يونس بن متى». قال: قلت[٨]: يا رسول الله، هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: هى ليونس بن متى خاصة وللمؤمنين عامة، إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله عز وجل: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ . فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. فهو شرط من الله لمن دعاه به»[٩].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن أبى سُرَيج، حدثنا داود بن المُحَبَّر بن قَحْذَم المقدسى، عن كثير بن معبد قال: سألت الحسن، قلت: يا أبا سعيد، اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى؟ قال: ابنَ أخى، أما تقرأ القرآن؟ قول الله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ

(١) فى ف: «ويلى». (٢) زيادة من ف، أ، والمسند. (٣) فى ت: «ابن سعيد».
(٤) المسند (١/ ١٧٠) وسنن الترمذى برقم (٣٥٠٥) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٤٩٢).
(٥) فى ت: «عن سعيد». (٦) فى ت: «استجبت».
(٧) ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٨٤) من طريق يحيى بن عبد الحميد، وابن عدى فى الكامل (٦/ ٦٨) من طريق أبى هشام الرفاعى كلاهما عن أبى خالد الأحمر به.
(٨) فى ت، ف: «فقلت».
(٩) تفسير الطبرى (١٧/ ٦٥).

مُغَاضِبًا﴾ إلى قوله: ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾، ابن أخى، هذا اسم الله الأعظم، الذى إذا دُعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)﴾.

يخبر تعالى عن عبده زكريا، حين طلب أن يَهَبَه الله ولدا، يكون من بعده نبياً. وقد تقدمت القصة مبسوطة فى أول سورة «مريم» وفى سورة «آل عمران» أيضا، وها هنا أخصر منهما؛ ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ أى: خفية عن قومه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أى: لا ولدَ لى ولا وارثَ يقوم بعدى فى الناس، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾، دعاء وثناء مناسب للمسألة.

قال الله تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أى: امرأته.

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير: كانت عاقراً لا تلد، فولدت.

وقال عبد الرحمن بن مهدى[1]، عن طلحة بن عمرو، عن عطاء: كان فى لسانها طول فأصلحها الله. وفى رواية: كان فى خَلْقها شىء فأصلحها الله. وهكذا قال محمد بن كعب، والسدّى. والأظهر من السياق الأول.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أى: فى عمل القُرُبات وفعل الطاعات، ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ قال الثورى: ﴿رَغَبًا﴾ فيما عندنا، و﴿رَهَبًا﴾ مما عندنا، ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى مصدقين بما أنزل الله. وقال مجاهد: مؤمنين حقا. وقال أبو العالية: خائفين. وقال أبو سِنَان: الخشوع هو الخوف اللازم للقلب، لا يفارقه أبداً. وعن مجاهد أيضاً ﴿خَاشِعِينَ﴾ أى: متواضعين. وقال الحسن، وقتادة، والضحاك: ﴿خَاشِعِينَ﴾ أى: متذللين لله عز وجل. وكل هذه الأقوال متقاربة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطَّنَافسىّ، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق بن[2] عبد الله القرشى، عن عبد الله بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر، رضى الله عنه، ثم قال: أما بعد، فإنى أوصيكم بتقوى الله، وتُثنُوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

---

(١) فى ت: «ابن منبه». (٢) فى ت، ف: «عن».

﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١) ﴾.

هكذا قَرَن تعالى[1] قصة مريم وابنها عيسى، عليه السلام، بقصة زكريا وابنه يحيى، عليهما السلام، فيذكر أولا قصة زكريا، ثم يتبعها بقصة مريم؛ لأن تلك مُوَطِّئة لهذه، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير قد طَعَن فى السن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد فى حال شبابها، ثم يذكر قصة مريم وهى أعجب، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر. هكذا وقع فى سورة «آل عمران»، وفى سورة «مريم»، وها هنا ذكر قصة زكريا، ثم أتبعها بقصة مريم، فقوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ يعنى: مريم، عليها السلام، كما قال فى سورة التحريم: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ أى: دلالة على أن الله على كل شىء قدير، وأنه يخلق ما يشاء، و﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. وهذا كقوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١].

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عَمْرو بن على، حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مُخَلَّد[2]، عن شَبِيب[3] ـ يعنى: ابن بشر[4] ـ عن عكرمة، عن ابن عباس، فى قوله: ﴿لِّلْعَالَمِينَ ﴾ قال: العالمين: الجن والإنس.

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤) ﴾.

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله: ﴿إِنَّ[5] هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، يقول: دينكم دين واحد.

وقال الحسن البصرى؛ فى[6] هذه الآية: بين لهم ما يتقون وما يأتون ثم قال: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى: سنتكم سنة واحدة. فقوله: ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾: إنّ واسمها، و﴿ أُمَّتُكُمْ﴾ خبر إن، أى: هذه شريعتكم التى بينت لكم ووضحت لكم، وقوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ نصب[7] على الحال؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢]، وقال رسول الله ﷺ: «نحن معشر الأنبياء أولاد عَلاَّت ديننا واحد»، يعنى: أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨].

---

(١) فى ت: «يقرن الله تعالى» وفى ف، أ: «يقرن تعالى». (٢) فى ف: «عن مجلز». (٣) فى ت، ف، أ: «شعيب».
(٤) فى ف: «بشير». (٥) فى ت، ف: «وإن». (٦) فى ت: «من».
(٧) فى ت: «نصيب».

وقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ أى: اختلفت الأمم على رسلها، فمن بين مَصَدق لهم ومكذب؛ ولهذا قال: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ أى: يوم القيامة، فيجازَى كل بحسب عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؛ ولهذا قال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أى: قلبه مصدق، وعمل عملا صالحا، ﴿فَلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾، كقوله: ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠] أى: لا يُكْفَر سعيُه، وهو عمله، بل يُشْكَر، فلا يظلم مثقال ذرة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ أى: يُكتب جميعُ عمله، فلا يَضيع عليه منه شىء.

﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧)﴾.

يقول تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾: قال ابن عباس: وجب، يعنى: قدراً مُقَدراً[١] أن أهل كل[٢] قرية[٣] أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة. هكذا صرح به ابن عباس، وأبو جعفر الباقر، وقتادة، وغير واحد.

وفى رواية عن ابن عباس: ﴿أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ أى: لا يتوبون.

والقول الأول أظهر، والله أعلم.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾: قد قدمنا أنهم من سلالة آدم، عليه السلام، بل هم من نسل نوح أيضا[٤]، من أولاد يافث أبى الترك، والترك شرذمة منهم، تُركوا من وراء السد الذى بناه ذو القرنين.

وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا . وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٨، ٩٩]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ أى: يسرعون فى المشى إلى الفساد.

والحَدَب: هو المرتفع من الأرض، قاله ابن عباس، وعكرمة، وأبو صالح، والثورى وغيرهم، وهذه صفتهم فى حال خروجهم، كأن السامع مشاهد لذلك، ﴿وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]: هذا إخبار عالم ما كان وما يكون، الذى يعلم غيب السموات والأرض، لا إله إلا هو.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن مثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن عُبَيد الله بن أبى يزيد قال: رأى ابنُ عباس صبيانا ينزو بعضهم على بعض، يلعبون، فقال ابن عباس: هكذا

---

(١) فى ت، ف: «مقدورا».
(٢) فى ت، ف: «إن كل أهل».
(٣) فى ت: «القرية».
(٤) فى ف، أ: «عليه السلام».

يخرج يأجوج ومأجوج[١].

وقد ورد ذكر خروجهم فى أحاديث متعددة من السنة النبوية:

فالحديث الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن ابن إسحاق، عن عاصم بن عُمَر بن قتادة، عن محمود بن لَبِيد، عن أبى سعيد الخدرى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُفتَح يأجوجُ ومأجوجُ، فيخرجون كما قال الله عز وجل: ﴿[وَهُم][٢] **مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ**﴾، فيغشونَ الناس، وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم[٣]، ويضمون إليهم مواشيَهم، ويشربون مياه الأرض، حتى إن بعضَهم ليمر بالنهر، فيشربون ما فيه حتى يتركوه يَبَسا، حتى إن مَنْ بعدهم ليمر بذلك النهر فيقول[٤]: قد كان ها هنا ماء مرةً، حتى إذا لم يبقَ من الناس أحد إلا أحدٌ فى حصن أو مدينة قال قائلهم: هؤلاء أهلُ الأرض، قد فرغنا منهم، بقى أهلُ السماء. قال: «ثم يهزّ أحدُهم حربته، ثم يرمى بها إلى السماء، فترجع إليه مُخْتَضبَةً دما؛ للبلاء والفتنة. فبينما هم على ذلك إذ بعث الله عز وجل دودا فى أعناقهم كنَغَف الجراد الذى يخرج فى أعناقه، فيصبحون[٥] موتى لا يُسمَع لهم حِس، فيقول المسلمون: ألا رجل يَشْرى نفسه، فينظر ما فعل هذا العدو؟» قال: «فيتجرّد رجل منهم محتسبا نفسه، قد أوطنها على أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتى، بعضهم على بعض، فينادى: يا معشر المسلمين، ألا أبشروا، إن الله عز وجل قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم ويُسَرِّحون مواشيهم، فما يكون لها رعى إلا لحومهم، فَتَشْكر عنه كأحسن ما شكرَت عن شىء من النبات أصابته قط.

ورواه ابن ماجه، من حديث يونس بن بُكَيْر، عن ابن إسحاق، به[٦].

الحديث الثانى: قال [الإمام][٧] أحمد أيضا: حدثنا الوليد بن مسلم أبو العباس الدمشقى، حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثنى يحيى بن جابر الطائى ـ قاضى حمص ـ حدثنى عبد الرحمن ابن جُبَير بن نُفَير الحضرمى، عن أبيه، أنه سمع النوّاس بن سمْعانَ الكلابى قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غَداة، فخَفَض فيه ورَفَع، حتى ظننَّاه فى طائفة النخل، [فلما رُحْنَا إليه عرف ذلك فى وجوهنا، فسألناه فقلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال الغداة، فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه فى طائفة النخل][٨]. فقال: «غير الدجال أخْوَفُنى عليكم، فإن يخرج وأنا فيكم فأنا حَجِيجُه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتى على كل مسلم: إنه شاب جَعْدُ قَطَط عينه

---

(١) تفسير الطبرى (١٧/ ٧٠).
(٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «وحضرتهم». (٤) فى ت: «فيقولون».
(٥) فى ت: «فيحصون».
(٦) المسند (٣/ ٧٧) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٧٩)، وقال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٢٦٠): «هذا إسناد صحيح رجاله ثقات».
(٧) زيادة من ت، ف، أ. (٨) زيادة من ت، ف، أ، والمسند.

طافية، وإنه يخرج خَلَّةَ بين الشام والعراق، فعاث يمينا وشمالا، يا عباد الله اثبتوا».

قلنا: يا رسول الله، ما لبثه فى الأرض؟ قال: «أربعين يوما، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم».

قلنا: يا رسول الله، فذاك اليوم الذى هو كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم وليلة؟ قال: «لا، اقدروا له قدره».

قلنا: يا رسول الله، فما إسراعه فى الأرض؟ قال: «كالغيث استدبرته الريح». قال: «فيمر بالحى فيدعوهم فيستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، وتروح عليهم سارحتهم وهى أطول ما كانت ذُرًى، وأمده خواصر، وأسبغه ضروعا. ويمر بالحى فيدعوهم فيردون عليه قولَه، فتتبعه أموالهم، فيصبحون مُمْحلين، ليس لهم من أموالهم. ويمر بالخَربة فيقول لها: أخرجى كنوزك، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل». قال: «ويأمر برجل فيُقتَل، فيضربه بالسيف فيقطعه جَزْلتين رَمْيَةَ الغَرَض، ثم يدعوه فيقبل إليه [يتهلل وجهه][(١)].

فبينما هم على ذلك، إذ بعث الله عز وجل المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة[(٢)] البيضاء، شرقى دمشق، بين مَهْرُودَتَين واضعا يَدَه على أجنحة مَلَكين، فيتبعه فيدركه، فيقتله عند باب لُدّ الشرقى».

قال: «فبينما هم كذلك، إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى ابن مريم: أنى قد أخرجت عبادا من عبادى لا يَدَانِ لك بقتالهم، فَحَوِّز عبادى إلى الطور، فيبعث الله عز وجل يأجوج ومأجوج، وهم كما قال الله: ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله عز وجل، فيرسل الله عليهم نَغَفاً فى رقابهم، فيصبحون فَرْسى، كموت نفس واحدة.

فيهبط عيسى وأصحابه، فلا يجدون فى الأرض بيتا إلا قد ملأه زَهَمُهم ونَتْنهُم، فيرغب عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل عليهم طيراً كأعناق البُخْت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله».

قال ابن جابر[(٣)]: فحدثنى عطاء بن يزيد السَّكْسَكى[(٤)]، عن كعب ـ أو غيره ـ قال: فتطرحهم بالمَهْبِل. [قال ابن جابر: فقلت: يا أبا يزيد، وأين المَهْبِل؟][(٥)]، قال: مطلع الشمس.

قال: «ويرسل الله مطراً لا يكُن[(٦)] منه بيت مَدَر ولا وَبَر أربعين يوما، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَفَة، ويقال للأرض: أنبتى ثمرتك، ورُدى بركتك». قال: «فيومئذ يأكل النفر من الرمانة ويستظلون بقِحْفها، ويُبَارك فى الرِسْل، حتى إن اللِّقْحَةَ من الإبل لتكفى الفِئَامَ من الناس، واللقحة من البقر تكفى الفخذ، والشاة من الغنم تكفى أهل البيت».

(١) زيادة من ف، أ، والمسند. (٢) فى ت: «المنازل». (٣) فى ت: «جرير».
(٤) فى ت: «السلسلى». (٥) زيادة من ف، أ، والمسند. (٦) فى ت: «يكون».

قال: «فبينما هم على ذلك[(١)]، إذ بعث الله عز وجل ريحا طيبة تحت آباطهم، فتقبض روح كل مسلم ـ أو قال: كل مؤمن ـ ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمير، وعليهم تقوم الساعة».

انفرد[(٢)] بإخراجه مسلم دون البخارى، فرواه مع بقية أهل السنن من طرق، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، به[(٣)]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

الحديث الثالث: قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بشر، حدثنا محمد بن عمرو، عن ابن حَرْمَلَة، عن خالته قالت: خطب رسول الله ﷺ وهو عاصب أصبعه من لدغة عَقْرب، فقال: «إنكم تقولون: «لا عدو[(٤)]»، وإنكم لا تزالون تقاتلون عدواً، حتى يأتى يأجوج ومأجوج عراض الوجوه، صغار العيون، صُهْبَ الشّعاف، من كل حَدَب ينسلون، كأن وجوههم المَجَانّ المُطرَقة»[(٥)].

وكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث محمد بن عمرو، عن خالد بن عبد الله بن حَرْمَلَة المدلجى، عن خالة له، عن النبى ﷺ، فذكر مثله[(٦)].

الحديث الرابع: قد تقدم فى تفسير آخر سورة الأعراف من رواية الإمام أحمد، عن هُشَيْم، عن العَوَّام، عن جَبَلَة ابن سُحَيْم، عن مُؤثر بن عَفَازَةَ، عن ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى، عليهم السلام، قال: فتذاكروا أمر الساعة، فردوا أمرهم إلى إبراهيم، فقال: لا علم لى بها[(٧)]، فردوا أمرهم إلى موسى، فقال: لا علم لى بها[(٨)]. فردوا أمرهم إلى عيسى، فقال: أما وَجْبَتها فلا يعلم بها أحد إلا الله، وفيها عهد إلى ربى أن الدجال خارج». قال: «ومعى قضيبان، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص» قال: «فيهلكه الله إذا رآنى، حتى إن الحجر والشجر يقول: يا مسلم إن تحتى كافراً، فتعال فاقتله». قال: «فيهلكهم الله، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم». قال: «فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَب يَنسلون، فيطؤون بلادهم، لا[(٩)] يأتون على شىء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه». قال: «ثم يرجع الناس إلىّ يشكونهم، فأدعو الله عليهم، فيهلكهم ويميتهم، حتى تَجوى الأرض من نَتْن ريحهم، وينزل الله المطر فيجترف أجسادهم، حتى يقذفهم فى البحر. ففيما عهد إلىّ ربى أن ذلك إذا كان كذلك، أن الساعة كالحامل المُتِمّ، لا يدرى أهلها متى تَفْجُؤهم بولادها ليلا أو نهارا».

ورواه ابن ماجه، عن محمد بن بشار، عن يزيد بن هارون، عن العَوَّام بن حَوْشَب، به[(١٠)]،

(١) فى ف: «هم كذلك». (٢) فى ت: «وانفرد».

(٣) المسند (٤/ ١٨١) وصحيح مسلم برقم (٢١٣٧) وسنن أبى داود برقم (٤٣٢١) وسنن الترمذى برقم (٢٢٤٠) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٠٧٨٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٧٥).

(٤) فى ت، ف، أ: «لا عدو لكم».

(٥) المسند (٥/ ٢١٧).

(٦) فى ت، أ: «مثله سواء». (٧، ٨) فى ت: «فيها».

(٩) فى ت، ف: «ولا».

(١٠) المسند (١/ ٣٧٥) وسنن ابن ماجه برقم (٤٠٨١) وسبق عند تفسير الآية: ١٨٧ من سورة الأعراف.

نحوه وزاد: «قال العوّام، ووجد تصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾.

ورواه ابن جرير ها هنا من حديث جبلة، به[١].

والأحاديث فى هذا كثيرة جدا، والآثار عن السلف كذلك.

وقد روى ابنُ جرير وابن أبى حاتم، من حديث مَعْمَر، عن غير واحد، عن حميد بن هلال، عن أبى الصَّيف قال: قال كعب: إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج، حفروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل قالوا: نجىء غدا فنخرج، فيعيده الله كما كان. فيجيئون من الغد فيجدونه قد أعاده الله كما كان، فيحفرون حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم يقول: نجىء غدا فنخرج إن شاء الله. فيجيئون من الغد فيجدونه كما تركوه، فيحفرون حتى يخرجوا. فتمر الزمرة الأولى بالبحيرة، فيشربون ماءها، ثم تمر الزمرة الثانية فيلحسون طينها، ثم تمر الزمرة الثالثة فيقولون[٢]: قد كان ها هنا مرة ماء، ويفر الناس منهم، فلا يقوم لهم شىء. ثم يرمون بسهامهم إلى السماء فترجع إليه مُخَضَّبة بالدماء فيقولون: غلبنا أهل الأرض وأهل السماء. فيدعو عليهم عيسى ابن مريم، عليه السلام، فيقول: «اللهم، لا طاقة ولا يَدَين لنا بهم، فاكفناهم بما شئت»، فيسلط الله عليهم دودا يقال له: النغف، فيفرس[٣] رقابهم، ويبعث الله عليهم طيرا تأخذهم بمناقيرها فتلقيهم فى البحر، ويبعث الله عينا يقال لها: «الحياة» يطهر الله الأرض وينبتها، حتى إن الرمانة ليشبع منها السَّكْن». قيل: وما السَّكن يا كعب؟ قال: أهل البيت ـ قال: «فبينما الناس كذلك إذ أتاهم الصَّريخ أن ذا السُّويقَتَين يريده. قال: فيبعث[٤] عيسى ابن مريم طليعة سبعمائة، أو بين السبعمائة والثمانمائة، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله ريحا يمانية طيبة، فيقبض فيها روح كل مؤمن، ثم يبقى عَجَاج[٥] الناس، فيتسافدون كما تَسَافَدُ البهائم، فَمَثَل الساعة كمثل رجل يطيف حول فرسه ينتظرها متى تضع؟ قال كعب: فمن تكلف بعد قولى هذا شيئا ـ أو بعد علمى هذا شيئا ـ فهو المتكلف[٦].

هذا من أحسن سياقات كعب الأحبار، لما شهد له من صحيح الأخبار.

وقد ثبت فى الحديث أن عيسى ابن مريم يحجّ البيت العتيق، وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان ابن داود، حدثنا عمران، عن قتادة، عن عبد الله بن أبى عُتْبَةَ، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «ليُحَجَّنَّ هذا البيت، وليُعْتَمَرنّ بعد خروج يأجوج ومأجوج». انفرد بإخراجه البخارى[٧].

---

(١) تفسير الطبرى (١٧/ ٧٢).
(٢) فى ت: «فيقول». (٣) فى ت: «فيفرش». (٤) فى ت: «فيبعث الله عيسى».
(٥) فى ت، ف: «عجاج من».
(٦) تفسير الطبرى (١٧/ ٧١).
(٧) المسند (٣/ ٢٧) وصحيح البخارى برقم (١٥٩٣).

وقوله: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ يعنى: يوم القيامة، إذا وُجدت هذه الأهوال والزلازل والبلابل، أزفت الساعة واقتربت، فإذا كانت ووقعت قال الكافرون: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨]. ولهذا قال تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى: من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ أى: يقولون: ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ أى: فى الدنيا، ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، يعترفون بظلمهم لأنفسهم، حيث لا ينفعهم ذلك.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)﴾.

يقول تعالى مخاطبا لأهل مكة من مشركى قريش، ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، قال ابن عباس: أى وقودها، يعنى كقوله: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

وقال ابن عباس أيضا: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ بمعنى: شجر جهنم. وفى رواية قال: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ يعنى: حطب جهنم، بالزنجية.

وقال مجاهد، وعكرمة، وقتادة: حطبها. وهى كذلك فى قراءة على وعائشة ـ رضى الله عنهما.

وقال الضحاك: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أى: ما يرمى به فيها.

وكذا قال غيره. والجميع قريب.

وقوله: ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أى: داخلون، ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ يعنى: لو كانت هذه الأصنام والأنداد التى اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار، ولما دخلوها، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أى: العابدون ومعبوداتهم، كلهم فيها خالدون، ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾، كما قال: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦]، والزفير: خروج أنفاسهم، والشهيق: ولوج أنفاسهم، ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن محمد الطَّنَافسىّ، حدثنا ابن فُضَيْل، حدثنا عبدالرحمن ـ يعنى: المسعودى ـ عن أبيه قال: قال ابن مسعود: إذا بقى من يخلد فى النار، جُعلوا فى توابيت من نار، فيها مسامير من نار، فلا يَرَى أحد منهم أنه يعذب فى النار غيره، ثم تلا

عبدالله: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ﴾.

ورواه ابن جرير، من حديث حجاج بن محمد، عن المسعودى، عن يونس بن خبّاب[1] ، عن ابن مسعود فذكره.

وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى﴾: قال عكرمة: الرحمة. وقال غيره: السعادة، ﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله، عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسُله[2]، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة، وأسلفوا الأعمال الصالحة فى الدنيا، كما قال: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]: وقال ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فكما أحسنوا العمل فى الدنيا، أحسن الله مآلهم وثوابهم، فنجاهم من العذاب، وحصَّل[3] لهم جزيل الثواب، فقال: ﴿ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أى: حريقها فى الأجساد.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن عمار، حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبيه، عن الجريرى[4] ، عن أبى عثمان: ﴿لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾، قال: حيات على الصراط[5] تلسعهم، فإذا لسعتهم قال: حَسَ حَسَ.

وقوله: ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾: فسلمهم من المحذور والمرهوب، وحصل لهم المطلوب والمحبوب.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن أبى سُرَيج، حدثنا محمد بن الحسن بن أبى يزيد الهمدانى، عن ليث بن أبى سليم، عن ابن عم النعمان بن بشير، عن النعمان بن بشير قال ـ وسَمَرَ مع على ذات ليلة، فقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ قال: أنا منهم، وعمر منهم، وعثمان منهم، والزبير منهم، وطلحة منهم، وعبد الرحمن منهم ـ أو قال: سعد منهم ـ قال: وأقيمت الصلاة فقام، وأظنه يجر ثوبه، وهو يقول: ﴿لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾.

وقال شعبة، عن أبى بشر، عن يوسف المكى، عن محمد بن حاطب[6] قال: سمعت عليا يقول فى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى﴾ قال: عثمان وأصحابه.

ورواه ابن أبى حاتم أيضاً، ورواه ابن جرير من حديث يوسف بن سعد ـ وليس بابن ماهك ـ عن محمد بن حاطب، عن على، فذكره ولفظه: عثمان منهم.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾: فأولئك أولياء الله يمرون على الصراط مراً هو أسرع من البرق، ويبقى الكفار فيها جِثياً.

---

(١) فى ت: «ابن حبان». (٢) فى ت: «ورسوله». (٣) فى ت: «وجعل».
(٤) فى ت، ف، أ: «عن أبى عثمان الجريرى». (٥) فى ت: «على الصراط المستقيم». (٦) فى ت: «خاطب».

فهذا مطابق لما ذكرناه، وقال آخرون: بل نزلت استثناء من المعبودين، وخرج منهم عَزير والمسيح، كما قال حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج وعثمان بن عطاء، عن عطاء، عن ابن عباس: **﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾**، ثم استثنى فقال: **﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾**، فيقال[1]: هم الملائكة، وعيسى، ونحو ذلك مما يعبد من دون الله عز وجل. وكذا قال عكرمة، والحسن، وابن جريج[2].

وقال الضحاك، عن ابن عباس فى قوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾** قال: نزلت فى عيسى ابن مريم وعُزَير، عليهما السلام.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا الحسين بن عيسى بن مَيْسَرَة، حدثنا أبو زُهَير، حدثنا سعد بن طَرِيف، عن الأصبغ، عن علىّ فى قوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾** قال: كل شىء يعبد من دون الله فى النار إلا الشمس والقمر وعيسى ابن مريم. إسناده ضعيف.

وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: **﴿أُوْلَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾**، قال: عيسى، وعُزَيْز، والملائكة.

وقال الضحاك: عيسى، ومريم، والملائكة، والشمس، والقمر. وكذا روى عن سعيد بن جُبَيْر، وأبى صالح وغير واحد.

وقد روى ابن أبى حاتم فى ذلك حديثاً غريباً جدا، فقال: حدثنا الفضل بن يعقوب الرُّخَّانى، حدثنا سعيد بن مسلمة بن عبد الملك، حدثنا الليث بن أبى سليم، عن مُغيث، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ فى قوله: **﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾** قال: عيسى، وعُزَيز، والملائكة[3].

وذكر بعضهم قصة ابن الزِّبَعْرَى ومناظرةَ المشركين، قال أبو بكر بن مَرْدُويه:

حدثنا محمد بن على بن سهل، حدثنا محمد بن حسن الأنماطى، حدثنا إبراهيم بن محمد بن عَرْعَرَة، حدثنا يزيد بن أبى حكيم، حدثنا الحكم ـ يعنى: ابن أبان ـ عن عكرمة، عن ابن عباس قال: جاء عبد الله بن الزبعرى إلى النبى ﷺ فقال: تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية: **﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾**، فقال ابن الزبعرى: قد عُبدت الشمس والقمر والملائكة، وعُزَير وعيسى ابن مريم، كل هؤلاء فى النار مع آلهتنا؟ فنزلت: **﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا[4] بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾**، ثم نزلت: **﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾**. رواه الحافظ أبو عبد الله فى كتابه «الأحاديث المختارة».

---

(١) فى ف: «فقال». (٢) فى ت: «وابن ماجه وابن جريج».
(٣) وفى إسناده سعيد بن مسلمة وشيخه ليث بن أبى سليم وهما ضعيفان.
(٤) فى ت: «مثلا».

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا قَبِيصة بن عقبة، حدثنا سفيان ـ يعنى: الثورى ـ عن الأعمش، عن أصحابه، عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ قال المشركون: فالملائكة[1]، وعُزَير، وعيسى يُعْبَدون من دون الله؟ فنزلت: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾، الآلهة التى يعبدون، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

وروى عن أبى كُدَيْنَة، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس مثل ذلك، وقال فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾.

وقال [الإمام][2] محمد بن إسحاق بن يسار[3]، رحمه الله، فى كتاب «السيرة»: وجلس رسول الله ـ فيما بلغنى ـ يوماً مع الوليد بن المغيرة فى المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفى المسجد[4] غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، وتلا عليه وعليهم ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ﴾[5]، ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزِّبَعْرَى السهمى حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة لعبد الله بن الزبعرى: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب آنفاً ولا قعد، وقد زعم محمد أنَّا وما نعبد[6] من آلهتنا هذه حصب جهنم. فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لَخَصمته، فسلوا محمداً: كل ما يُعْبَد[7] من دون الله فى جهنم مع من عَبَده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيراً، والنصارى تعبد عيسى ابن مريم؟ فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس، من قول عبد الله بن الزبعرى، ورأوا أنه قد احتج وخاصم.

فَذُكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «كل مَنْ أحَبَّ أن يُعْبَدَ من دون الله فهو مع من عبده، إنهم إنما يعبدون الشياطين[8] ومن أمرَتْهم[9] بعبادته. وأنزل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ أى: عيسى وعزير ومن عُبِدوا من الأحبار والرهبان، الذين مضوا على طاعة الله، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أرباباً من دون الله. ونزَل فيما يذكرون، أنهم يعبدون الملائكة، وأنهم بنات الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩]، ونزَل فيما ذُكر من أمر عيسى، وأنه يعبد من دون الله، وعَجَب الوليد ومن حَضَره من حُجَّته وخصومته: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ . وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ

---

(١) فى ت: «والملائكة». (٢) زيادة من ف، أ.
(٣) فى ت: «ابن بشار». (٤) فى ف: «المجلس».
(٥) فى ت، ف: «أنتم لها واردون. لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون. لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون».
(٦) فى ت: «تعبدون». (٧) فى ت: «يعبدون». (٨) فى ت، ف: «الشيطان».
(٩) فى ف: «أمرهم».

فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا ﴾ [الزخرف: ٥٧ ـ ٦١] أى: ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلاً على علم الساعة، يقول: **﴿فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾** [الزخرف ٦١]. [(١)]

وهذا الذى قاله ابن الزبعرى خطأ كبير؛ لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة فى عبادتهم الأصنام التى هى جماد لا تعقل، ليكون ذلك تقريعاً وتوبيخاً لعابديها؛ ولهذا قال: **﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾**، فكيف يُورَد عَلَى هذا المسيح والعزير[(٢)] ونحوهما، ممن[(٣)] له عمل صالح، ولم يَرْضَ بعبادة من عبده. وعوّل ابن جرير فى تفسيره فى الجواب على أن «ما» لما لا يعقل عند العرب.

وقد أسلم عبد الله بن الزبعرى بعد ذلك، وكان من الشعراء المشهورين. وكان يهاجى المسلمين أولا، ثم قال معتذراً.

يا رَسُـولَ المليـك، إنّ لسانـى   رَاتِقٌ مَا فتَقْتُ إذْ أنَا بُورُ
إذْ أجَارى الشَّيطَانَ فى سَنَن الغَى   وَمَنْ مَالَ مَيْلَه مَثْبُور[(٤)]

وقوله: **﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾**: قيل المراد بذلك الموت. رواه عبد الرزاق، عن يحيى بن ربيعة عن عطاء.

وقيل: المراد بالفزع الأكبر: النفخة فى الصور. قاله العَوْفى عن ابن عباس، وأبو سِنَان سعيد[(٥)] ابن سنان الشيبانى، واختاره ابن جرير فى تفسيره.

وقيل: حين يُؤْمَر بالعبد إلى النار. قاله الحسن البصرى.

وقيل: حين تُطبق النار على أهلها. قاله سعيد بن جُبَيْر، وابن جُرَيج.

وقيل: حين يُذبَح الموت بين الجنة والنار. قاله أبو بكر الهذلى[(٦)]، فيما رواه ابن أبى حاتم، عنه.

وقوله: **﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾**، يعنى: تقول لهم الملائكة، تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم: **﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾** أى: قابلوا[(٧)] ما يسركم.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)﴾.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٥٨) ،ورواه الطبرى فى تفسيره (١٧/٧٦).
(٢) فى ف: «وعزير».   (٣) فى ت: «وممن».
(٤) البيتين فى السيرة النبوية لابن هشام (٢/٤١٩).
(٥) فى ت، ف، أ: «سعد».   (٦) فى ف، أ: «الهمدانى».   (٧) فى ت: «فاملوا».

يقول تعالى: هذا كائن يوم القيامة، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] وقد قال البخارى:

حدثنا مُقَدم بن محمد، حدثنى عمى القاسم بن يحيى، عن عُبَيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ، قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضَين، وتكون السموات بيمينه»(١).

انفرد به من هذا الوجه البخارى، رحمه الله.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن أحمد بن الحجاج الرَّقِّى، حدثنا محمد بن سلمة، عن أبى الواصل(٢)، عن أبى المليح الأزدى(٣)، عن أبى الجوزاء الأزدى، عن ابن عباس قال: يطوى الله(٤) السموات السبع بما فيها من الخليقة والأرضين السبع بما فيها من الخليقة، يطوى ذلك كله(٥) بيمينه، يكون ذلك كله فى يده بمنزلة خردلة.

وقوله: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾: قيل: المراد بالسجل [الكتاب. وقيل: المراد بالسجل](٦) هاهنا: مَلَك من الملائكة.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا يحيى بن يمان، حدثنا أبو الوفاء الأشجعى، عن أبيه، عن ابن عمر فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ قال: السجل: مَلَك، فإذا صعد بالاستغفار قال: اكتبها نوراً.

وهكذا رواه ابن جرير، عن أبى كُرَيْب، عن ابن يمان، به.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن أبى جعفر(٧) محمد بن على بن الحسين أن السجل ملك.

وقال السدى فى هذه الآية: السجل: مَلَك موكل بالصحف، فإذا مات الإنسان رفع(٨) كتابُه إلى السجل فطواه، ورفعه إلى يوم القيامة.

وقيل: المراد به اسم رجل صحابى، كان يكتب للنبى ﷺ الوحى:

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعة، حدثنا نصر بن على الجَهْضَمىّ، حدثنا نوح بن قيس، عن عمرو بن مالك، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس: [﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتَابِ﴾](٩)، قال: السجل: هو الرجل.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٧٤١٢).
(٢) فى ت: «المواصل». (٣) فى ت: «الأودى». (٤) فى ت: «إليه».
(٥) فى ف: «كله ذلك». (٦) زيادة من ف. (٧) فى ت: «أبى حفص».
(٨) فى ت: «دفع». (٩) زيادة من ف.

قال نوح: وأخبرنى يزيد بن كعب ـ هو العَوْذى ـ عن عمرو بن مالك، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس قال: السجل كاتب[١] للنبى ﷺ.

وهكذا رواه أبو داود والنسائى عن قتيبة بن سعيد[٢]، عن نوح بن قيس، عن يزيد بن كعب، عن عمرو بن مالك، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس، قال: السجل كاتب[٣] للنبى ﷺ[٤].

ورواه ابن جرير عن نصر بن على الجهضمى، كما تقدم. ورواه ابن عدى من رواية يحيى بن عمرو بن مالك النُّكْرىّ عن أبيه، عن أبى الجوزاء، عن ابن عباس قال: كان للنبى[٥] ﷺ كاتب يسمى[٦] السجل وهو قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾، قال: كما يطوى السجل الكتاب، كذلك نطوى السماء، ثم قال: وهو غير محفوظ[٧].

وقال الخطيب البغدادى فى تاريخه: أنبأنا أبو بكر البَرْقَانى، أنبأنا محمد بن محمد بن يعقوب الحجاجى، أنبأنا أحمد بن الحسن الكرخى، أن حمدان بن سعيد حدثهم، عن عبد الله بن نمير، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، قال: السجلّ: كاتب للنبى ﷺ[٨].

وهذا منكر جداً من حديث نافع عن ابن عمر، لا يصح أصلا، وكذلك ما تقدم عن ابن عباس، من رواية أبى داود وغيره، لا يصح أيضاً. وقد صرح جماعة من الحفاظ بوضعه ـ وإن كان فى سنن أبى داود ـ منهم شيخنا الحافظ الكبير أبو الحجاج المِزِّى، فَسَح الله فى عمره، ونَسَأ فى أجله، وختم له بصالح عمله، وقد أفردت لهذا الحديث جزءاً على حدة[٩]، ولله الحمد. وقد تصدى الإمام أبو جعفر بن جرير للإنكار على هذا الحديث، ورده أتم رد، وقال: لا يُعرَف فى الصحابة أحد[١٠] اسمه السجِل، وكُتَّاب النبى ﷺ معروفون، وليس فيهم أحد اسمه السجل، وصَدَق رحمه الله فى ذلك، وهو من أقوى الأدلة على نكَارة هذا الحديث. وأما مَنْ ذكر فى أسماء الصحابة هذا، فإنما اعتمد على هذا الحديث، لا على غيره، والله أعلم. والصحيح عن ابن عباس أن السجل هى الصحيفة، قاله على بن أبى طلحة والعوفى، عنه. ونص على ذلك مجاهد، وقتادة، وغير واحد. واختاره ابن جرير؛ لأنه المعروف فى اللغة، فعلى هذا يكون معنى الكلام: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أى: على [هذا][١١] الكتاب، بمعنى المكتوب، كقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣]، أى: على الجبين، وله نظائر فى اللغة، والله أعلم.

وقوله: ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ يعنى: هذا كائن لا محالة، يوم يعيد الله الخلائق خلقاً جديداً، كما بدأهم هو القادر على إعادتهم[١]، وذلك واجب الوقوع، لأنه من

---

(١) فى ت: «كانت». (٢) فى ت: «سعد». (٣) فى ت: «كانت».
(٤) سنن أبى داود برقم (٢٩٣٥) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٣٣٥).
(٥) فى ت: «كان لرسول الله». (٦) فى ت: «كانت تسمى».
(٧) الكامل (٧/ ٢٠٥)
(٨) تاريخ بغداد (٨/ ١٧٥).
(٩) فى أ: «حدته». (١٠) فى ف: «لا يعرف أحد فى الصحابة». (١١) زيادة من ف، أ.

جملة وعد الله الذى لا يخلف ولا يبدل، وهو القادر على ذلك. ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وابن جعفر المعنى[٢]، قالا[٣]: حدثنا شعبة، عن المغيرة بن النعمان، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال: «إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غُرْلا كما بدأنا أول خلق نعيده، وعداً علينا إنا كنا فاعلين»؛ وذكر تمام الحديث، أخرجاه فى الصحيحين من حديث شعبة. ورواه[٤] البخارى عند هذه الآية فى كتابه[٥].

وقد روى ليث بن أبى سليم، عن مجاهد، عن عائشة عن النبى[٦] ﷺ، نحو ذلك.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ قال: نهلك كل شىء، كما كان أول مرة.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾.

يقول تعالى مخبرا عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين، من السعادة فى الدنيا والآخرة، ووراثة الأرض فى الدنيا والآخرة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]. وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ [وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا][٧]﴾، الآية [النور: ٥٥].

وأخبر تعالى أن هذا مكتوب مسطور فى الكتب الشرعية والقدرية فهو كائن لا محالة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾، قال الأعمش: سألت سعيد بن جُبَير عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ فقال الزبور: التوراة، والإنجيل، والقرآن[٨].

وقال مجاهد: الزبور: الكتاب.

وقال ابن عباس، والشعبى، والحسن، وقتادة، وغير واحد: الزبور: الذى أنزل على داود، والذكر: التوراة، وعن ابن عباس: الزبور: القرآن.

وقال سعيد بن جُبَير: الذكر: الذى فى السماء.

---

(١) فى ت: «إعادته». (٢) فى هـ، ت، ف، أ: «وابن جعفر، وعفان المعنى» والمثبت من المسند.
(٣) فى ت: «قالوا». (٤) فى ت: «وذكره»، وفى ف، أ: «ذكره».
(٥) المسند (١/ ٢٣٥) وصحيح البخارى برقم (٤٦٢٥)، (٤٧٤٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٦٠).
(٦) فى ت، ف: «عن رسول الله». (٧) زيادة من ف، أ. (٨) فى أ: «الفرقان».

وقال مجاهد: الزبور: الكتبُ بعد الذكر، والذكر: أمّ الكتاب عند الله.

واختار ذلك ابن جرير رحمه الله(١)، وكذا قال زيد بن أسلم: هو الكتاب الأول. وقال الثورى: هو اللوح المحفوظ. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الزبور: الكتب التى نُزّلت على الأنبياء، والذكر: أم الكتاب الذى (٢)يكتب فيه الأشياء قبل ذلك.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أخبر الله سبحانه(٣) فى التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض، أن يُورثَ أمةَ محمد ﷺ الأرض ويدخلهم الجنة، وهم الصالحون.

وقال مجاهد، عن ابن عباس: ﴿ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ قال: أرض الجنة. وكذا قال أبو العالية، ومجاهد، وسعيد بن جُبَير، والشعبى، وقتادة، والسدى، وأبو صالح، والربيع بن أنس، والثورى [رحمهم الله تعالى](٤) .

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أى: إن فى هذا القرآن الذى أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغاً: لَمَنْفعةَ وكفاية لقوم عابدين، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم.

وقوله [تعالى](٥): ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾: يخبر تعالى أن الله جَعَل محمداً ﷺ رحمة للعالمين، أى: أرسله رحمة لهم كلّهم، فمن قَبِل هذه الرحمةَ وشكَر هذه النعمةَ، سَعد فى الدنيا والآخرة، ومن ردّها وجحدها خسر فى الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ. جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ(٦) الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]، وقال الله تعالى فى صفة القرآن: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وقال مسلم فى صحيحه: حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا مروان الفَزَارىّ، عن يزيد بن كَيْسَان، عن ابن أبى حازم، عن أبى هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين، قال: «إنى لم أبعَثْ لَعَّاناً، وإنما بُعثْتُ رحمة». انفرد بإخراجه مسلم(٧).

وفى الحديث الآخر: «إنما أنا رحمة مهداة». رواه عبد الله بن أبى عرابة، وغيره، عن وَكِيع، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة مرفوعا(٨). قال إبراهيم الحربى: وقد رواه غيره عن وكيع،

(١) تفسير الطبرى (١٧/ ٨١).
(٢) فى ت: «أم الكتاب والذى». (٣) فى ف: «الله تعالى». (٤) زيادة من ف، أ.
(٥) زيادة من ت، وفى ف، أ: «عز وجل». (٦) فى ت، ف، أ: «فبئس».
(٧) صحيح مسلم برقم (٢٥٥٩).
(٨) رواه أبو الحسن السكرى فى «الفوائد المنتقاة» (٢/١٥٧). كما فى السلسلة الصحيحة (١/ ٨٠٣) للألبانى ـ حدثنا عبد الله بن محمد ابن أسد، حدثنا حاتم بن منصور الشاشى قال: حدثنا عبد الله بن أبى عرابة الشاشى به.
ورواه غيره متصلاً:
فرواه عبد الله بن نصر الأصم عن وكيع عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة مرفوعاً. =

فلم يذكر أبا هريرة[١]. وكذا قال البخارى، وقد سئل عن هذا الحديث، فقال: كان عند حفص بن غياث مرسلا.

قال الحافظ ابن عساكر: وقد رواه مالك بن سُعَير بن الْخِمْس، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة مرفوعا[٢]. ثم ساقه من طريق أبى بكر بن المقرئ وأبى أحمد الحاكم، كلاهما عن بكر ابن محمد بن إبراهيم الصوفى: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى، عن أبى أسامة، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس[٣] بن أبى حازم، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة».

ثم أورده من طريق الصَّلْت بن مسعود، عن سفيان بن عيينة، عن مِسْعَر[٤]، عن سعيد بن خالد، عن رجل، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله بعثنى رحمة مهداة، بُعثتُ برفع قوم وخفض آخرين»[٥].

قال أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أحمد بن محمد بن نافع الطحان، حدثنا أحمد بن صالح قال: وجدت كتاباً بالمدينة عن عبد العزيز الدّراوردى وإبراهيم بن محمد بن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف، عن محمد بن صالح التمار، عن ابن [شهاب][٦]، عن محمد بن جُبَير بن مطعم، عن أبيه قال: قال أبو جهل حين قدم [مكة][٧] منصرفه عن حَمْزَة: يا معشر قريش، إن محمداً نزل يثرب وأرسل طلائعه، وإنما يريد أن يصيب منكم شيئا، فاحذروا أن تمروا طريقَه أو تقاربوه[٨]، فإنه كالأسد الضارى؛ إنه حَنِق عليكم؛ لأنكم نفيتموه نفى القِرْدَان عن المناسم[٩]، والله إن له لَسحْرَةً، ما رأيته قط ولا أحداً من أصحابه إلا رأيت معهم الشيطان، وإنكم قد عرفتم عداوة ابنى قَيلَةَ ـ يعنى: الأوس والخزرج ـ لهو عدو استعان بعدو، فقال له مطعم بن عدى: يا أبا الحكم، والله ما رأيتُ أحداً أصدقَ لساناً، ولا أصدق موعداً، من أخيكم الذى طردتم، وإذ فعلتم الذى فعلتم فكونوا أكف الناس عنه. قال [أبو سفيان][١٠] بن الحارث: كونوا أشدّ ما كنتم عليه، إن[١١] ابنى قيلَةَ إن ظفَرُوا بكم لم يرْقُبوا فيكم إلاً ولا ذمة، وإن أطعتمونى ألجأتموهم خير كنابة، أو تخرجوا محمداً

= خرجه ابن عدى فى الكامل (٤/ ٢٣١) من طريق عمر بن سنان عن عبد الله بن نصر.
وقال: «هكذا حدثناه عمر بن سنان عن عبد الله بن نصر عن وكيع عن الأعمش، وهذا غير محفوظ عن وكيع عن الأعمش، إنما يرويه مالك بن سعيد عن الأعمش، وعبد الله بن نصر هذا له غير ما ذكرت مما أنكرت عليه».

(١) رواه ابن أبى شيبة فى المصنف (١١/ ٥٠٤) عن وكيع مرسلاً، ورواه ابن سعد فى الطبقات (١/ ١٨٢) عن وكيع مرسلاً، ورواه البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ١٥٧) من طريق إبراهيم بن عبد الله عن وكيع مرسلاً.

(٢) ورواه البزار فى مسنده برقم (٢٣٦٩) «كشف الأستار» والبيهقى فى دلائل النبوة (١/ ١٥٨) من طريق زياد بن يحيى عن مالك بن سعيد به، وقال البزار: «لا نعلم أحداً وصله إلا مالك بن سعيد، وغيره يرسله».

(٣) فى ت، أ: «حسن». (٤) فى أ: «عن شعبة».

(٥) وذكره السيوطى فى الجامع الصغير ورمز له الألبانى بالضعف.

(٦، ٧) زيادة من أ. (٨) فى ت: «أو تحاربوه». (٩) فى أ: «الناس».

(١٠) زيادة من أ. (١١) فى ت: «فإن».

من بين ظهرانيهم، فيكون وحيدا مطرودا، وأما [ابنا قَيْلة فوالله ما هما][١] وأهل [دهلك][٢] فى المذلة إلا سواء وسأكفيكم حدهم، وقال:

سَأَمْنَحُ جَانباً منّى غَليظاً   عَلَى مَا كَانَ مِنْ قُربٍ وبُعْد
رجَالُ الخَزْرَجيَّة أهْلُ ذُل   إذا مَا كَانَ هَزْلٌ بَعْدَ جِـد

فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: «والذى نفسى بيده، لأقتلنهم ولأصلبنَّهم ولأهدينهم وهم كارهون، إنى رحمة بعثنى الله، ولا يَتوفَّانى حتى يظهر الله دينه، لى خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحى الذى يمحى الله بى الكفر، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب»[٣].

وقال أحمد بن صالح: أرجو أن يكون الحديث صحيحاً.

وقال الإمامُ أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، حدثنى عَمْرو بن قَيس، عن عمرو بن أبى قُرّة الكِنْدىّ قال: كان حُذيفةُ بالمدائن، فكان يذكر أشياء قالها رسولُ الله ﷺ، فجاء حذيفةُ إلى سَلْمان فقال سلمان: يا حذيفةَ، إنّ رسولَ الله ﷺ[كان يغضب فيقول، ويرضى فيقول: لقد علمت أنّ رسول الله ﷺ][٤] خطَب فقال: «أيما رجل من أمتى سَبَبتُه [سَبَّةً][٥] فى غَضَبى أو لعنته لعنةً، فإنما أنا رجل من ولد آدم، أغضب كما يغضبون، وإنما بعثنى رحمةً للعالمين، فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة».

ورواه أبو داود، عن أحمد بن يونس، عن زائدة[٦].

فإن قيل: فأىّ رحمة حصلت لمن كَفَر به؟ فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير: حدثنا إسحاق ابن شاهين، حدثنا إسحاق الأزرق، عن المسعودى، عن رجل يقال له: سعيد، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قال: من آمن بالله واليوم الآخر، كُتِبَ له الرحمة فى الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن بالله ورسوله عُوفِى مما أصاب الأمم من الخسف والقذف[٧].

وهكذا رواه ابن أبى حاتم، من حديث المسعودى، عن أبى سعد ـ وهو سعيد بن المرزبان البقّال ـ عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، فذكره بنحوه، والله أعلم.

وقد رواه أبو القاسمُ الطبرانى عن عبدان بن أحمد، عن عيسى بن يونس الرَمْلى، عن أيوب ابن سُوَيد، عن المسعودى، عن حبيب بن أبى ثابت، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قال: من تبعه كان له رحمة فى الدنيا والآخرة، ومن لم يتبعه عُوفِى مما كان يبتلى به سائر الأمم من الخسف والقذف[٨].

(١، ٢) زيادة من ت، أ.
(٣) المعجم الكبير (٢/ ١٢٣).
(٤، ٥) زيادة من ت، أ، والمسند
(٦) المسند (٥/ ٤٣٧) وسنن أبى داود برقم (٤٦٥٩).
(٧) تفسير الطبرى (١٧/ ٨٣).
(٨) المعجم الكبير (١٢/ ٢٣).

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢)﴾.

يقول تعالى آمراً رسوله، صلوات الله وسلامه عليه، أن يقول للمشركين: **﴿إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾** أى: متبعون على ذلك، مستسلمون منقادون[١] له. **﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾** أى: تركوا ما دعوتهم إليه، **﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾** أى: أعلمتكم أنى حَرْب لكم، كما أنكم حَرْبٌ لى، برىء منكم كما أنكم بُرآء منى، كقوله: **﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾** [يونس: ٤١]. وقال: **﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾** [الأنفال: ٥٨]: ليكن[٢] علمك وعلمهم بنبذ العهود على السواء، وهكذا ها هنا، **﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾** أى: أعلمتكم ببراءتى منكم، وبراءتكم منى؛ لعلمى بذلك.

وقوله: **﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾** أى: هو واقع لا محالة، ولكن لا علم لى بقربه ولا ببعده، **﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾** أى: إن الله يعلم الغيب جميعَه، ويعلم ما يظهره العباد وما يسرون، يعلم الظواهر والضمائر، ويعلم السر وأخفى، ويعلم ما العباد عاملون فى أجهارهم وأسرارهم، وسيجزيهم على ذلك، على القليل والجليل.

وقوله: **﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾** أى: وما أدرى لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين.

قال ابن جرير: لعل تأخير ذلك[٣] عنكم فتنة لكم، ومتاع إلى أجل مسمى[٤]. وحكاه عون، عن ابن عباس، والله أعلم.

﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ أى: افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق.

قال قتادة: كان الأنبياء، عليهم السلام، يقولون: **﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾** [الأعراف: ٨٩]، وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك.

وعن مالك، عن زيد بن أسلم: كان رسول الله ﷺ إذا شهد قتالا قال: **﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾**

وقوله: **﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾** أى: على ما يقولون ويفترون من الكذب، ويتنوعون فى مقامات التكذيب والإفك، والله المستعان عليكم فى ذلك[٥].

---

(١) فى ت: «متقاربين». (٢) فى ت: «لكن». (٣) فى أ: «هذا».
(٤) تفسير الطبرى (١٧/ ٨٤).
(٥) وقع فى ت: «آخر تفسير «سورة الأنبياء» عليهم السلام، ولله الحمد والمنة، عفا الله لمن نظر فيه ولكاتبه وللمسلمين أجمعين».

تفسير سورة الحج

[وهى مكية][1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾.

يقول تعالى آمرا عباده بتقواه، ومخبرا لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة وزلازلها وأحوالها. وقد اختلف المفسرون فى زلزلة الساعة: هل هى بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عَرَصَات القيامة؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة الأرض قبل قيام الناس من أجداثهم؟ كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴾[الزلزلة: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً . فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٤، ١٥]، وقال تعالى: ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا ﴾ [الواقعة: ٤ـ٦].

فقال قائلون: هذه الزلزلة كائنة فى آخر عمر الدنيا، وأول أحوال الساعة.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بَشَّار، حدثنا يحيى، حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عَلْقَمَة فى قوله: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، قال: قبل الساعة.

ورواه ابن أبى حاتم من حديث الثورى، عن منصور والأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، فذكره. قال: وروى عن الشعبى، وإبراهيم، وعُبَيْد بن عُمَيْر، نحو ذلك.

وقال أبو كُدَيْنَةَ، عن عطاء، عن عامر الشعبى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ الآية، قال: هذا فى الدنيا قبل يوم القيامة.

وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير مُسْتَنَدَ مَنْ قال ذلك فى حديث الصُّور، من رواية إسماعيل ابن رافع قاضى أهل المدينة، عن يزيد بن أبى زياد، عن رجل من الأنصار، عن محمد بن كعب القرظى، عن رجل، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصُّور، فأعطاه إسرافيل، فهو واضعه على فِيه، شاخص ببصره إلى العرش، ينتظر متى يؤمر». قال أبو هريرة: يارسول الله، وما الصور؟

قال: «قرن» قال: فكيف هو؟ قال: «قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات، الأولى نفخة الفزع،

(١) زيادة من ت.

والثانية نفخة الصَّعْق، والثالثة نفخة [(١)] القيام لرب العالمين، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول: انفخ نفخة الفزع. فيفزعُ أهل السموات وأهل الأرض، إلا من شاء الله، ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتر، وهى التى يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥] فَيُسير الله الجبال، فتكون سرابا وتُرج الأرض بأهلها رجا، وهى التى يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ . قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٦ـ ٨]، فتكون الأرض، كالسفينة الموبقة [(٢)] فى البحر، تضربها الأمواج تكفؤها بأهلها، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح. فيمتد الناس على ظهرها، فتذهل المراضع، وتضع الحوامل. ويشيب [(٣)] الولدان، وتطير الشياطين هاربة، حتى تأتى الأقطار، فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها، فترجع، ويولى [(٤)] الناس مدبرين، ينادى بعضهم بعضا، وهو الذى يقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ التَّنَادِ [(٥)]. يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣] فبينما هم على ذلك إذا انصدعت الأرض من قطر إلى قطر، فرأوا أمرا عظيما، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به، ثم نظروا إلى السماء فإذا هى كالمهل، ثم خسف شمسها وخُسفَ قمرها، وانتثرت نجومها، ثم كُشطت عنهم» قال رسول الله ﷺ: «والأموات لا يعلمون بشىء من ذلك» قال أبو هريرة: فمن استثنى الله حين يقول: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن [(٦)] شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]؟ قال: أولئك الشهداء، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون، وقاهم الله شر ذلك اليوم وآمنهم، وهو عذاب الله يبعثه على شرار خلقه، وهو الذى يقول الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [(٧)].

وهذا الحديث قد رواه الطبرانى، وابن جرير، وابن أبى حاتم، وغير واحد [(٨)]، مطولا جداً. والغرض منه أنه دل على أن هذه الزلزلة [(٩)] كائنة قبل يوم الساعة، وأضيفت إلى الساعة لقربها منها، كما يقال: أشراط الساعة، ونحو ذلك، والله أعلم.

وقال آخرون: بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال، كائن يوم القيامة فى العرصات، بعد القيام من القبور. واختار ذلك ابن جرير. واحتجوا بأحاديث:

الأول: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن هشام، حدثنا [(١٠)] قتادة، عن الحسن، عن عمران [ابن] [(١١)] حُصَين؛ أن رسول الله ﷺ قال وهو فى بعض أسفاره، وقد تفاوت بين أصحابه السير، رفع بهاتين الآيتين صوته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ

---

(١) فى ت: «والنفخة الثالثة». (٢) فى ت: «المرسية». (٣) فى ت، أ: «وتشيب».
(٤) فى ت: «وتولى». (٥) فى ت: «التنادى». (٦) فى ت: «ما».
(٧) تفسير الطبرى (١٧/ ٨٥).
(٨) حديث الصور سبق عند تفسير الآية ٧٣ من سورة الأنعام.
(٩) فى ت: «الزلزلة له». (١٠) فى ت: «عن». (١١) زيادة من ت، أ، والمسند.

مُرْضعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾، فلما سمع أصحابه بذلك حَثْوا المُطى، وعرفوا أنه عند قول يقوله، فلما تأشهوا حوله قال: «أتدرون أى يوم ذاك؟ يوم ينادى آدم، عليه السلام، فيناديه ربه عز وجل، فيقول: يا آدم، ابعث بعثك إلى النار فيقول: يارب، وما بعث النار؟ فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فى النار، وواحد فى الجنة». قال فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى ذلك قال: «أبشروا واعملوا، فوالذى نفس محمد بيده، إنكم لمع [1]خَليقتين ما كانتا مع شىء قط إلا كثرتاه: يأجوج ومأجوج، ومن هلك من بنى آدم وبنى إبليس» قال: فسُرِّى عنهم، ثم قال: اعملوا وأبشروا، فوالذى نفس محمد بيده، ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعيرة، أو الرقمة فى ذراع الدابة».

وهكذا رواه الترمذى والنسائى فى كتاب التفسير من سننيهما، عن محمد بن بَشَّار، عن يحيى ـ وهو القَطَّان ـ عن هشام ـ وهو الدستوائى ـ عن قتادة، به [2] بنحوه. وقال الترمذى: حسن صحيح.

طريق أخرى لهذا الحديث: قال[3] الترمذى: حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنا ابن جُدعان، عن الحسن، عن عمران بن حُصَيْن؛ أن النبى ﷺ قال: لما نزلت: **﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ[4] اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾** إلى قوله: **﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾**، قال: أنزلت عليه هذه، وهو فى سفر، فقال: «أتدرون أى يوم ذلك؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذلك يوم يقول الله لآدم: ابعث بعث النار. قال: يارب، وما بعث النار؟ قال: تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة» فأنشأ المسلمون يبكون، فقال رسول الله ﷺ: «قاربوا وسَدِّدوا، فإنها لم تكن نبوة قط إلا كان بين يديها جاهلية» قال: «فيؤخذ العدد من الجاهلية، فإن تمت وإلا كُمِّلت من المنافقين، وما مثلكم والأمم إلا كمثل الرَّقْمة فى ذراع الدابة، أو كالشامة [5] فى جنب البعير» ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا» ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» فكبروا، ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة» فكبروا، قال: ولا أدرى أقال الثلثين أم لا؟

وكذا رواه الإمام أحمد عن سفيان بن عُيَيْنَة[6]، ثم قال الترمذى أيضا: هذا حديث حسن صحيح.

وقد روى عن سعيد بن أبى عَرُوبة عن الحسن، عن عمران بن الحصين. وقد رواه ابن أبى حاتم من حديث سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة، عن الحسن والعلاء بن زياد العدوى، عن عمران بن الحصين[7]، فذكره.

---

(١) فى ت: «مع».

(٢) المسند (٤/ ٤٣٥) وسنن الترمذى برقم (٣١٦٩) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٤٠).

(٣) فى ت: «وقال». (٤) فى ت: «يأيها الذين آمنوا» وهو خطأ. (٥) فى ت: «وكالشامة».

(٦) سنن الترمذى برقم (٣١٦٨) والمسند (٤/ ٤٣٢).

(٧) فى ت: «ابن حصين».

وهكذا روى ابن جرير عن بُنْدَار، عن غُنْدَرَ، عن عوف، عن الحسن قال: بلغنى أن رسول الله ﷺ لما قفل من غزوة العُسرة ومعه أصحابه بعدما شارف المدينة قرأ: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وذكر الحديث [١]، فذكر نحو سياق ابن جُدْعَان، فالله أعلم.

الحديث الثانى: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن الطَّبَّاع، حدثنا أبو سفيان ـ [يعنى] [٢] المعمرى ـ عن مَعْمَر، عن قتادة، عن أنس قال: نزلت: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ وذكر ـ يعنى: نحو سياق الحسن عن عمران ـ غير أنه قال: «ومن هلك من كفرة الجن والإنس».

رواه ابن جرير بطوله، من حديث معمر [٣].

الحديث الثالث: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد ـ يعنى: ابن العوام ـ حدثنا هلال بن خباب [٤]، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: تلا [٥] رسول الله ﷺ هذه الآية فذكر نحوه، وقال فيه: «إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة»، ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة» ثم قال: «إنى لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة» ففرحوا، وزاد أيضاً: «وإنما أنتم جزء من ألف جزء» [٦].

الحديث الرابع: قال البخارى عند هذه الآية: حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبى، حدثنا الأعمش، حدثنا أبو صالح، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك. فينادى بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار. قال: يارب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف ـ أراه قال ـ تسعمائة وتسعة وتسعين [٧]. فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فشق ذلك على الناس حتى تغيرت وجوههم، قال النبى ﷺ: «من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين [٨]، ومنكم واحد، ثم أنتم فى الناس كالشعرة السوداء فى جنب الثور الأبيض، أو كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الأسود، وإنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة». فكبرنا، ثم قال: «ثلث أهل الجنة». فكبرنا، ثم قال: «شطر أهل الجنة» فكبرنا [٩].

وقد رواه البخارى أيضا فى غير هذا الموضع، ومسلم، والنسائى فى تفسيره، من طرق، عن الأعمش، به [١٠].

---

(١) تفسير الطبرى (١٧/ ٨٦).
(٢) زيادة من أ.
(٣) تفسير الطبرى (١٧/ ٨٧).
(٤) فى ت: «ابن حبان». (٥) فى ت: «قال».
(٦) ورواه البزار فى مسنده برقم (٢٢٣٥) «كشف الأستار» حدثنا أبو بكر بن إسحاق عن سعد بن سليمان به، وقال: «لا نعلمه يروى عن ابن عباس إلا بهذا الإسناد».
وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٦٩): «قلت فى الصحيح بعضه، رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير هلال بن خباب وهو ثقة».
(٧، ٨) فى ت: « وتسعون».
(٩) صحيح البخارى برقم (٤٧٤١).
(١٠) صحيح البخارى برقم (٣٣٤٨، ٧٤٨٣) وصحيح مسلم برقم (٢٢٢) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٣٩).

الحديث الخامس: قال الإمام أحمد: حدثنا عمار [١] بن محمد ـ ابن أخت سفيان الثورى ـ وعبيدة المعنى، كلاهما عن إبراهيم بن مسلم، عن أبى الأحوص، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث يوم القيامة مناديا [ينادى] [٢]: يا آدم، إن الله يأمرك أن تبعث بعثاً من ذريتك إلى النار، فيقول آدم: يارب، من هم؟ فيقال له: من كل مائة تسعة وتسعين». فقال رجل من القوم: من هذا الناجى منا بعد هذا يارسول الله؟ قال [٣]: «هل تدرون ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى صدر البعير» [٤].

انفرد بهذا السند وهذا السياق الإمام أحمد.

الحديث السادس: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن حاتم بن أبى صغيرة، حدثنا ابن أبى مُلَيْكَةَ؛ أن القاسم بن محمد أخبره، عن عائشة، عن النبى ﷺ قال: «إنكم تحشرون يوم القيامة حُفاة عراة غرلا». قالت عائشة: يارسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة، إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك». أخرجاه فى الصحيحين [٥].

الحديث السابع: قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن إسحاق، حدثنا ابن لَهِيعة، عن خالد بن أبى عِمْران، عن القاسم بن محمد، عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟ قال: «يا عائشة، أما عند ثلاث فلا، أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف، فلا. وأما عند تطاير الكتب فإما يعطى بيمينه أو يعطى بشماله، فلا. وحين يخرج عُنُق من النار فينطوى عليهم، ويتغيظ عليهم، ويقول ذلك العنق: وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة، وكلت بثلاثة: وكلت بمن ادعى مع الله إلها آخر، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووكلت بكل جبار عنيد» قال: «فينطوى [٦] عليهم، ويرميهم فى غمرات، ولجهنم جسر أدق من الشعر وأحد من السيف، عليه كلاليب وحسك يأخُذْنَ من شاء الله، والناس عليه كالطرف وكالبرق وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، والملائكة يقولون: رب، سَلِّم، سَلِّم. فناج مسلم، ومخدوش مسلم، ومكوّر [٧] فى النار على وجهه [٨] » [٩].

والأحاديث فى أهوال يوم القيامة والآثار كثيرة جدا، لها موضع آخر، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ أى: أمر كبير، وخطب جليل، وطارق مفظع، وحادث هائل، وكائن عجيب.

والزلزال [١٠]: هو ما يحصل للنفوس من الفزع، والرعب كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾[الأحزاب: ١١].

---

(١) فى ت: «عمارة». (٢) زيادة من ف، أ، والمسند. (٣) فى ت: «فقال».
(٤) المسند (١/ ٣٨٨).
(٥) المسند (٦/ ٥٣) وصحيح البخارى برقم (٦٥٢٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٥).
(٦) فى ت: «وينطوى». (٧) فى أ: «ومكبوب». (٨) فى ت: «وجوههم».
(٩) المسند (٦/ ١١٠).
(١٠) فى ت: «والزلازل».

ثم قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾: هذا من باب ضمير الشأن؛ ولهذا قال مفسراً له: ﴿تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أى: تشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها، والتى هى أشفق الناس عليه، تدهش عنه فى حال إرضاعها له؛ ولهذا قال: ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، ولم يقل: «مرضع» وقال: ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أى: عن رضيعها قبل فطامه.

وقوله: ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ أى: قبل تمامه لشدة الهول، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى﴾ وقرئ: «سَكْرَى» أى: من شدة الأمر الذى [قد] (١) صاروا فيه قد دهشت عقولهم، وغابت أذهانهم، فمن رآهم حسب أنهم سكارى، ﴿وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤)﴾.

يقول تعالى ذاماً لمن كذب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضاً عما أنزل الله على أنبيائه، متبعاً فى قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد، من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلال (٢) والبدع، المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء، ولهذا قال فى شأنهم وأشباههم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أى: علم صحيح، ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ. كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قال مجاهد: يعنى الشيطان، يعنى: كتب عليه كتابة قدرية ﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أى: اتبعه وقلده، ﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أى: يضله فى الدنيا ويقوده فى الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المؤلم المزعج المقلق.

وقد قال السدى، عن أبى مالك: نزلت هذه الآية فى النضر بن الحارث. وكذلك (٣) قال ابن جريج.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا عمرو بن سلم (٤) البصرى، حدثنا عمرو بن المحرم أبو قتادة، حدثنا المعمر (٥)، حدثنا أبو كعب المكى قال: قال خبيث من خُبثاء قريش: أخبرنا (٦) عن ربكم، من ذهب هو، أو من فضة هو، أو من نحاس هو؟ فقعقعت السماء قعقعة ـ والقعقعة فى كلام العرب: الرعد ـ فإذا قِحْف رأسه ساقط بين يديه.

وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد: جاء يهودى فقال: يامحمد، أخبرنى عن ربك: من أى شىء هو؟ من در أم من ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ

---

(١) زيادة من ت. (٢) فى ت: «الضلالة». (٣) فى ف: «وكذا».
(٤) فى ت، ف: «ابن مسلم». (٥) فى ت: «المعتمر». (٦) فى ت: «حدثنا».

عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧)﴾.

لما ذكر تعالى المخالف للبعث، المنكر للمعاد، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد، بما يشاهد من بدئه للخلق[١]، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أى: فى شك ﴿مِّنَ الْبَعْثِ﴾ وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أى: أصل بَرْئه [٢] لكم من تراب، وهو الذى خلق منه آدم، عليه السلام ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أى: ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ ذلك أنه إذا استقرت النطفة فى رحم المرأة، مكثت أربعين يوما كذلك، يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله، فتمكث كذلك أربعين يوما، ثم تستحيل فتصير مضغة ـ قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ـ ثم يشرع فى التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ويدان، وصدر وبطن، وفخذان ورجلان، وسائر الأعضاء. فتارة تُسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أى: كما تشاهدونها، ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أى: وتارة تستقر فى الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها، كما قال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، قال: هو السقط مخلوق وغير مخلوق. فإذا مضى عليها أربعون يوما، وهى مضغة، أرسل الله تعالى إليها ملكا فنفخ [٣] فيها الروح، وسواها كما يشاء الله عز وجل[٤]، من حسن وقبيح، وذكر وأنثى، وكتب رزقها وأجلها، وشقى أو سعيد، كما ثبت فى الصحيحين، من حديث الأعمش، عن زيد بن وهب، عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ:« إن خلق أحدكم يُجمع فى بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون عَلَقة مثل ذلك، ثم يكون مُضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات: بكتب عمله وأجله ورزقه، وشقى أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح»[٥].

وروى ابن جرير، وابن أبى حاتم من حديث داود بن أبى هند، عن الشعبى، عن علقمة، عن عبدالله قال: النطفة إذا استقرت فى الرحم، أخذها[٦] ملك بكفه قال[٧]: يارب، مخلقة أو غير

---

(١) فى ت:«بما شاهد من بين يديه للخلق»، وفى ف: «بما يشاهده من بين يديه للخلق».
(٢) فى ت، ف: «تربه». (٣) فى أ: «فينفخ». (٤) فى ف، أ: «الله تعالى».
(٥) صحيح البخارى برقم (٦٥٩٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٣).
(٦) فى هـ، ت، ف: «جاءها»، والمثبت من الدر المنثور ٣٤٥/٣. (٧) فى ت، ف:«فقال».

مخلقة؟ فإن قيل: «غير مخلقة» لم تكن نسمة، وقذفتها الأرحام دما. وإن قيل: «مخلقة»، قال: أى رب، ذكر أو أنثى؟ شقى أو سعيد؟ ما الأجل؟ وما الأثر؟ وبأى أرض يموت[(١)]؟ قال: فيقال للنطفة: من ربك؟ فتقول: الله. فيقال: من رازقك؟ فتقول: الله. فيقال له: اذهب إلى أم الكتاب، فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة. قال: فتخلق فتعيش فى أجلها، وتأكل رزقها، وتطأ أثرها، حتى إذا جاء أجلها ماتت، فدفنت فى ذلك المكان، ثم تلا عامر الشعبى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ فإذا بلغت مضغة نكست فى الخلق الرابع فكانت نسمة، فإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام دماً، وإن كانت مخلقة نكست فى الخلق.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن عمرو بن دينار، عن أبى الطفيل، عن حذيفة بن أسيد ـ يبلغ به النبى ﷺ ـ قال: «يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين أو خمس وأربعين، فيقول: أى رب، أشقى أم سعيد؟ فيقول الله، ويكتبان، فيقول: أذكر أم أنثى؟ فيقول الله ويكتبان، ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله، ثم تطوى الصحف، فلا يزاد على ما فيها ولا ينتقص[(٢)]».

ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينة، ومن طرق أخر، عن أبى الطُّفَيل، بنحو معناه[(٣)].

وقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أى: ضعيفا فى بدنه، وسمعه وبصره وحواسه، وبطشه وعقله. ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئا، ويلطف[(٤)] به، ويحنن عليه والديه فى آناء الليل وأطراف النهار؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾أى: يتكامل[(٥)] القوى ويتزايد، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر. ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى﴾، أى: فى حال شبابه وقواه، ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾، وهو الشيخوخة والهَرَم وضعف القوة والعقل والفهم، وتناقص الأحوال من الخَرَف[(٦)] وضعف الفكر؛ ولهذا قال: ﴿لِكَيْلا[(٧)] يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

وقد قال الحافظ أبو يعلى [أحمد][(٨)] بن على بن المثنى الموصلى فى مسنده: حدثنا منصور بن أبى مزاحم[(٩)]، حدثنا خالد الزيات، حدثنى داود أبو سليمان، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر ابن حزم الأنصارى، عن أنس بن مالك ـ رفع الحديث ـ قال: «المولود حتى يبلغ الحنث، ما عمل من حسنة، كتبت لوالده أو لوالدته[(١٠)]، وما عمل من سيئة لم تكتب عليه ولا على والديه، فإذا بلغ الحنث جرى الله عليه القلم أمر الملكان اللذان معه أن يحفظا وأن يشددا، فإذا بلغ أربعين سنة فى

---

(١) فى ف: «تموت». (٢) فى ف: «ولاينقص».
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٦٤٤).
(٤) فى أ: «ويتلطف». (٥) فى ت: «تتكامل». (٦) فى ت، ف، أ: «من الحزن».
(٧) فى ت: «لا». (٨) زيادة من ت، ف،أ. (٩) فى أ:«ابن أبى عاصم».
(١٠) فى ت، ف: «لوالديه».

الإسلام أمنه الله من البلايا الثلاث: الجنون، والجذام، والبرص. فإذا بلغ الخمسين، خفف الله حسابه. فإذا بلغ ستين رزقه الله الإنابة إليه بما يحب، فإذا بلغ السبعين أحبه أهل السماء، فإذا بلغ الثمانين كتب الله حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وشفعه فى أهل بيته، وكان أسير الله فى أرضه، فإذا بلغ أرذل العمر ﴿ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، كتب الله له مثل ما كان يعمل فى صحته من الخير، فإذا عمل سيئة لم تكتب عليه»[١].

هذا حديث غريب جدا، وفيه نكارة شديدة. ومع هذا قد رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده مرفوعا وموقوفا فقال:

حدثنا أبو النضر، حدثنا الفرج، حدثنا محمد بن عامر، عن محمد بن عبد الله العامرى[٢]، عن عمرو بن جعفر، عن أنس قال: إذا بلغ الرجلِ المسلم أربعين سنة، أمنه الله من أنواع البلايا، من الجنون والجذام والبرص[٣]، فإذا بلغ الخمسين لَيَّن الله حسابه، وإذا بلغ الستين رزقه الله إنابة يحبه عليها، وإذا بلغ السبعين أحبه الله، وأحبه أهل السماء، وإذا بلغ الثمانين تقبل الله حسناته، ومحا عنه سيئاته، وإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمى أسير الله فى الأرض، وشفع فى أهله [٤].

ثم قال: حدثنا هاشم، حدثنا الفرج، حدثنى محمد بن عبد الله العامرى، عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، عن النبى ﷺ، مثله[٥].

ورواه الإمام أحمد أيضا: حدثنا أنس بن عياض، حدثنى يوسف بن أبى ذرة [٦] الأنصارى، عن جعفر بن عمرو بن أمية الضَّمْرى، عن أنس بن مالك؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ما من معمر يعمر فى الإسلام أربعين سنة، إلا صرف الله عنه ثلاثة أنواع من البلاء: الجنون والجذام والبرص[٧]. . . . وذكر تمام الحديث، كما تقدم سواء[٨].

ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبد الله بن شبيب، عن أبى شيبة، عن عبد الله بن عبد الملك[٩]، عن أبى قتادة العُذْرى، عن ابن أخى الزهرى، عن عمه، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد يعمر فى الإسلام أربعين سنة، إلا صرف الله عنه أنواعا من البلاء: الجنون والجذام والبرص، فإذا بلغ خمسين سنة لين الله له الحساب، فإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه بما يحب، فإذا بلغ سبعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسمى أسير الله، وأحبه أهل السماء[١٠]، فإذا بلغ الثمانين تقبل الله منه حسناته وتجاوز عن سيئاته، فإذا بلغ التسعين غَفَر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وسُمى أسير الله فى أرضه، وشفع فى أهل بيته»[١١].

---

(١) مسند أبى يعلى (٦/ ٣٥٢).
(٢) فى ت، ف: «العاملى».
(٣) فى ف: «البرص والجذام».
(٤) المسند (٢/ ٨٩).
(٥) المسند (٢/ ٨٩).
(٦) فى هـ، ت، ف: «أبى بردة»، والتصويب من كتب الرجال.
(٧) فى ت: «أو الجذام أو البرص».
(٨) المسند (٣/ ٢١٧) وفى إسناده يوسف بن أبى ذرة وهو ضعيف.
(٩) فى ت: «عبد الله بن مالك».
(١٠) فى أ: «السماوات».
(١١) مسند البزار برقم (٣٥٨٨) «كشف الأستار».

وقوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾: هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، كما يحيى الأرض الميتة الهامدة، وهى القحلَة التى لا نبت فيها ولا شيء[١].

وقال قتادة: غبراء متهشمة. وقال السدى: ميتة.

﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى: فإذا أنزل الله عليها المطر ﴿اهْتَزَّتْ﴾ أى: تحركت وحيَيت بعد موتها، ﴿وَرَبَتْ﴾ أى: ارتفعت لما سكن فيها الثرى، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون، من ثمار وزروع، وأشتات النباتات فى اختلاف ألوانها وطعومها، وروائحها وأشكالها ومنافعها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أى: حسن المنظر طيب الريح.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أى: الخالق المدبر الفعال لما يشاء، ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [أى: كما أحيا الأرض الميتة وأنبت منها هذه الأنواع؛ ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾][٢]، ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]، فـ ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أى: كائنة لا شك فيها ولا مرية، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ أى: يعيدهم بعد ما صاروا فى قبورهم رمما، ويوجدهم بعد العدم، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٨٠] والآيات فى هذا كثيرة[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا بَهز[٤]، حدثنا حماد بن سلمة قال: أنبأنا يعلى عن عطاء، عن وكيع ابن حُدُس[٥]، عن عمه أبى رَزين العقيلى ـ واسمه لَقيط بن عامر[٦] ـ أنه قال: يا رسول الله، أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة؟ وما آية ذلك فى خلقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أليس كلكم ينظر إلى القمر مُخْليا به؟» قلنا: بلى. قال: «فالله أعظم». قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيى الله الموتى، وما آية ذلك فى خلقه؟ قال: «أما مررت بوادى أهلك محلا[٧]» قال: بلى. قال: «ثم مررت به يهتز خضرا؟». قال: بلى. قال: «فكذلك يحيى الله الموتى، وذلك آيته فى خلقه».

ورواه أبو داود وابن ماجه، من حديث حماد بن سلمة، به[٨].

ثم رواه الإمام أحمد أيضا: حدثنا على بن إسحاق، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن سليمان بن موسى، عن أبى رَزين العُقَيْلى قال: أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يارسول الله، كيف يحيى الله الموتى؟ قال: «أمررت بأرض من أرضك مُجْدبةً، ثم مررت بها

(١) فى ت: «التى لا ينبت فيها شيئا». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى ت: «لكثيرة».
(٤) فى ت: «يزيد».
(٥) فى ت: «عدس»، وفى ف، أ: «عدى».
(٦) فى ت: «ليث بن أبى عامر». (٧) فى أ: «ممحلا».
(٨) المسند (٤/ ١١) وسنن أبى داود برقم (٤٧٣١) وسنن ابن ماجه برقم (١٨٠).

مخصبة؟» قال: نعم. قال: «كذلك النشور»[١].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عُبَيس[٢] بن مرحوم، حدثنا بُكَير بن أبى السُّمَيط، عن قتادة، عن أبى الحجاج، عن معاذ بن جبل قال: من علم أن الله هو الحق المبين، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور ـ دخل الجنة. [والله أعلم][٣].

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠) ﴾.

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلّدين فى قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾، ذكر فى هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾، أى: بلا عقل صحيح، ولا نقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأى والهوى.

وقوله: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾: قال ابن عباس وغيره: مستكبراً عن الحق إذا دعى إليه.

وقال مجاهد، وقتادة، ومالك عن زيد بن أسلم: ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ﴾ أى: لاوى عنقه، وهى رقبته، يعنى: يعرض عما يدعى إليه من الحق رقَبَته استكباراً، كقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ .فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: ٦١]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٥]: وقال لقمان لابنه: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨] أى: تميله عنهم استكباراً عليهم، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾: قال بعضهم: هذه لام العاقبة؛ لأنه قد لا يقصد ذلك، ويحتمل أن تكون لام التعليل. ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين[٤]، أو يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الذى يجعله ممن يضل عن سبيل الله.

ثم قال تعالى: ﴿ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو الإهانة والذل، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لَقَّاه الله المذلة فى الدنيا، وعاقبه فيها قبل الآخرة؛ لأنها أكبر هَمّه ومبلغ علمه، ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ

(١) المسند (٤/ ١١).
(٢) فى ف، أ: «عيسى». (٣) زيادة من ف، أ. (٤) فى ت، ف: «المعاندون».

الْحَرِيقِ . ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ أى: يقال له هذا تقريعاً وتوبيخا، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، كقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ. ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ .ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ .إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان: ٤٧ ـ ٥٠].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن الصبّاح، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا هشام، عن الحسن قال: بلغنى أن أحدهم يُحرق فى اليوم سبعين ألف مرة.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣)﴾.

قال مجاهد، وقتادة، وغيرهما: ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾: على شك[(١)].

وقال غيرهم: على طرف. ومنه حرف الجبل، أى: طرفه، أى: دخل فى الدين على طرف، فإن وجد ما يحبه استقر، وإلا انشمر.

وقال البخارى: حدثنا إبراهيم بن الحارث، حدثنا يحيى بن أبى بُكَيْر[(٢)]، حدثنا إسرائيل، عن أبى حَصين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجل يَقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاما، ونُتجَت خيلُه، قال: هذا دين صالح. وإن لم تلد امرأته، ولم تُنتَج[(٣)] خيله قال: هذا دين سوء[(٤)].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثني أبى، عن أبيه، عن أشعث بن إسحاق القُمِّى، عن جعفر بن أبى المغيرة، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس قال: كان ناس من الأعراب يأتون النبى ﷺ فيُسْلمون، فإذا رجعوا إلى بلادهم، فإن وجدوا عام غَيث وعام خصب وعام ولاد حسن، قالوا: «إن ديننا هذا لصالح، فتمسَّكُوا به». وإن وجدوا عام جُدوبة وعام ولاد سَوء وعام قحط، قالوا: «ما فى ديننا هذا خير». فأنزل الله على نبيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾.

وقال العوفى، عن ابن عباس: كان أحدهم إذا قَدم المدينة، وهى أرض وبيئة[(٥)]، فإن صح بها جسمه، ونُتجت فرسه مهراً حسنا، وولدت امرأته غلاماً، رضى به واطمأن إليه، وقال: «ما أصبت منذ كنتُ على ديني هذا إلا خيرا». وإن أصابته فتنة ـ والفتنة: البلاء ـ أى: وإن أصابه وجع المدينة،

---

(١) فى ت: «على شدة». (٢) فى ف: «ابن أبى بكر». (٣) فى ت، ف: «ينتج».

(٤) صحيح البخارى برقم (٤٧٤٢).

(٥) فى هـ، ت: «وهم أرض دونه» والمثبت من ف، أ.

وولدت امرأته جارية، وتأخرت عنه الصدقة، أتاه الشيطان فقال: والله ما أصبت منذ كنت على دينكَ هذا إلا شراً. وذلك الفتنة.

وهكذا ذكر قتادة، والضحاك، وابن جُريج، وغير واحد من السلف، فى تفسير هذه الآية.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هو المنافق، إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت، انقلب فلا يقيم على العبادة إلا لِمَا صلح من دنياه، فإن[1] أصابته فتنة أو شدة أو اختبار أو ضيق، ترك دينه ورجع إلى الكفر.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أى: ارتد كافراً.

وقوله: ﴿ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ﴾ أى: فلا هو حَصَّل من الدنيا على شىء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها فى غاية الشقاء والإهانة؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أى: هذه هى الخسارة العظيمة، والصفقة الخاسرة.

وقوله: ﴿ يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ﴾ أى: من الأصنام والأنداد، يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها، وهى لا تنفعه ولا تضره، ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ. يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ أى: ضرره فى الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما فى الآخرة فضرره محقق متيقن.

وقوله: ﴿لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾: قال مجاهد: يعنى الوثن، يعنى: بئس هذا الذى دعا به من دون الله مولى، يعنى: ولياً وناصراً، ﴿وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ وهو المخالط والمعاشر.

واختار ابن جرير أن المراد: لبئس ابن العم والصاحب من يعبد [الله][2] على حرف، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾.

وقول مجاهد: إن المراد به الوثن، أولى وأقرب إلى سياق الكلام، والله أعلم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤)﴾.

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء، عطف بذكر الأبرار السعداء، من الذين آمنوا بقلوبهم، وصدّقوا إيمانهم بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، [وتركوا المنكرات][3]، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات، فى روضات الجنات.

ولما ذكر أنه أضل أولئك، وهدى هؤلاء، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ

(١) فى ت، ف، أ: «فإذا». (٢) زيادة من ت، ف، أ. (٣) زيادة من ف، أ.

فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾.

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ فى الدنيا والآخرة، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أى: بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ أى: سماء بيته، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ يقول: ثم ليختنق به. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وأبو الجوزاء، وقتادة، وغيرهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَلْيَمْدُدْ [(١)] بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أى: ليتوصل إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتى محمداً من السماء، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ذلك عنه، إن قدر على ذلك.

وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر فى المعنى، وأبلغ فى التهكم؛ فإن المعنى: من ظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ. يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]؛ ولهذا قال: ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾.

قال السدى: يعنى: مِنْ شأن محمد[(٢)] ﷺ.

وقال عطاء الخراسانى: فلينظر هل يشفى ذلك ما يجد فى صدره من الغيظ.

وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ﴾ أى: القرآن ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أى: واضحات فى لفظها ومعناها، حجةً من الله على الناس ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ أى: يضل من يشاء، ويهدى من يشاء، وله الحكمة التامة و الحجة[(٣)] القاطعة فى ذلك، ﴿لَا[(٤)] يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أما هو فلحكمته ورحمته وعدله، وعلمه وقهره وعظمته، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين، ومن سواهم من اليهود والصابئين ـ وقد قدمنا فى سورة «البقرة» التعريف بهم، واختلافَ الناس فيهم ـ والنصارى والمجوس، والذين أشركوا فعبدوا غير الله معه؛ فإنه تعالى ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ويحكم بينهم بالعدل[(٥)]، فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به[(٦)] النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، علـيم بسرائرهم، وما تُكِن ضمائرهم.

---

(١) فى ت: «وليمدد».
(٢) فى ت: «محمداً».
(٣) فى ت: «وله الحجة».
(٤) فى ت: «ولا».
(٥) فى ت: «بالعذاب».
(٦) فى ت، أ: «إلى».

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)﴾.

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد[١] لعظمته كل شيء طوعا وكرها وسجود [كل شيء مما][٢] يختص به، كما قال: **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا[٣] إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾** [النحل: ٤٨]. وقال ها هنا: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ﴾** أى: من الملائكة فى أقطار السموات، والحيوانات فى جميع الجهات، من الإنس والجن والدواب والطير، **﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾** [الإسراء: ٤٤].

وقوله: **﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾**: إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عُبِدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة **﴿لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾** [فصلت: ٣٧].

وفى الصحيحين عن أبى ذر، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرى أين تذهب هذه الشمس؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعى من حيث جئت»[٤].

وفى المسند وسنن أبى داود، والنسائى، وابن ماجه، فى حديث الكسوف: «إن الشمس والقمر خَلْقان من خَلْق الله، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكن الله عز وجل إذا تَجَلى لشىء من خلقه خشع[٥] له»[٦].

وقال أبو العالية: ما فى السماء نجم ولا شمس ولا قمر، إلا يقع لله ساجداً حين يغيب، ثم لا ينصرف حتى يؤذن له، فيأخذ ذات اليمين حتى يرجع إلى مطلعه.

وأما الجبال والشجر فسجودهما بفَىء ظلالهما[٧] عن اليمين والشمائل: وعن ابن عباس قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، إنى رأيتنى الليلة وأنا نائم، كأنى أصلى خلف شجرة، فسجدتُ فسجَدَت الشجرة لسجودى، فسمعتُها وهى تقول: اللهم، اكتب لى بها عندك أجراً، وضع عنى بها وزراً، واجعلها لى عندك ذخراً، وتقبَّلها منى كما تقبلتَها من عبدك داود. قال ابن عباس: فقرأ

---

(١) فى ت: «سجد». (٢) زيادة من ف. (٣) فى ت: «يرى».
(٤) صحيح البخارى برقم (٤٨٠٣) وصحيح مسلم برقم (١٥٩).
(٥) فى ف، أ: «خضع».
(٦) المسند (٤/ ٢٦٧) وسنن أبى داود برقم (١١٧٧) وسنن النسائى (١٤١١٣) وسنن ابن ماجه برقم (١٢٦٢).
(٧) فى ت: «فسجودها على ظلالها».

النبى[١] ﷺ سجدة ثم سَجَد، فسمعته وهو يقولُ مثلَ ما أخبره الرجل عن قول الشجرة.

رواه الترمذى، وابن ماجه، وابن حبّان فى صحيحه[٢].

وقوله: ﴿وَالدَّوَابُّ﴾ أى: الحيوانات كلها.

وقد جاء فى الحديث عن الإمام أحمد: أن رسول الله ﷺ نهى عن اتخاذ ظهور الدواب[٣] منابر[٤]. فرب مركوبة خير[٥] وأكثر ذكراً لله من راكبها.

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ أى: يسجد لله طوعا مختاراً متعبداً بذلك، ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أى: ممن امتنع وأبى واستكبر، ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن شيبان الرملى، حدثنا القداح، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن على قال: قيل لعلى: إن ها هنا رجلا يتكلم فى المشيئة. فقال له على: يا عبد الله، خلقك الله كما يشاء أو كما شئت[٦]؟ قال: بل كما شاء. قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء. قال: فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء؟ قال: بل حيث يشاء. قال: والله لو قلت غير ذلك لضربتُ الذى فيه عيناك بالسيف.

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدم السجدة اعتزل[٧] الشيطان يبكى يقول: يا ويله. أمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمِرتُ بالسجود فأبيتُ، فلى النار» رواه مسلم[٨].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم وأبو عبد الرحمن المقرئ قالا: حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا مَشْرَح بن هاعان[٩] أبو مُصعب المعافرى قال: سمعت عقبة بن عامر يقول: قلت يا رسول الله، أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: «نعم، فمن لم يسجد بهما فلا يقرأهما».

ورواه أبو داود والترمذى، من حديث عبد الله بن لهيعة، به[١٠]. وقال الترمذى: «ليس بقوى[١١]» وفى هذا نظر؛ فإن ابن لَهِيعة قد صَرح فيه بالسماع، وأكثر ما نَقَموا عليه تدليسه.

---

(١) فى ت: «رسول الله».

(٢) سنن الترمذى برقم (٥٧٩) وسنن ابن ماجه برقم (١٠٥٣) وقال الترمذى: «هذا حديث غريب من حديث ابن عباس لا نعرفه إلا من هذا الوجه».

(٣) فى ف، أ: «الحيوانات».

(٤) ورواه أبو داود فى السنن برقم (٢٥٦٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٥) فى ف: «خيراً».

(٦) فى ت، ف: «لما يشاء أو لما شئت».

(٧) فى ف: «فاعتزل».

(٨) صحيح مسلم برقم (٨١).

(٩) فى أ: «عاهان».

(١٠) المسند (٤/ ١٥١) وسنن أبى داود برقم (١٤٠٢) وسنن الترمذى برقم (٥٧٨).

(١١) فى ف: «ليس هو بقوى».

وقد قال أبو داود فى المراسيل: حدثنا أحمد بن عمرو بن السَّرح، أنبأنا ابن وَهْب، أخبرنى معاوية بن صالح، عن عامر بن جَشِب(١)، عن خالد بن مَعْدان؛ أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلت سورة الحج على القرآن بسجدتين».

ثم قال أبو داود: وقد أسندَ هذا، يعنى: من غير هذا الوجه، ولا يصح(٢).

وقال الحافظ أبو بكر الإسماعيلى: حدثنا ابن أبى داود، حدثنا يزيد بن عبد الله، حدثنا الوليد، حدثنا أبو عمرو، حدثنا حفص بن عنان، حدثنى نافع، حدثنى أبو الجهم: أن عمر سجد سجدتين فى الحج، وهو بالجابية، وقال: إن هذه فضلت بسجدتين(٣).

وروى أبو داود وابن ماجه، من حديث الحارث بن سعيد العُتَقىّ، عن عبد الله بن مُنَين، عن عمرو بن العاص؛ أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة فى القرآن، منها ثلاث فى المُفَصّل، وفى سورة الحج سجدتان(٤). فهذه(٥) شواهد يَشُدّ بعضها بعضا.

﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) ﴾.

ثبت فى الصحيحين، من(٦) حديث أبى مجلَز، عن قيس بن عُبَاد، عن أبى ذر؛ أنه كان يقسم قسما أن هذه الآية: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ نزلت فى حمزة وصاحبَيه، وعتبةَ وصاحبيه، يوم برزوا فى بدر(٧).

لفظ البخارى عند تفسيرها، ثم قال البخارى:

حدثنا الحجاج بن مِنْهَال، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبى، حدثنا أبو مِجْلز عن قيس بن عُبَاد، عن على بن أبى طالب أنه قال: أنا أول من يَجثُو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة. قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾، قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: علىّ وحمزة وعبيدة، وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة. انفرد به البخارى(٨).

وقال سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة فى قوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال: اختصم المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم، وكتابنا قبل كتابكم. فنحن أولى بالله

(١) فى ف، أ: «جيب».
(٢) المراسيل برقم (٧٨).
(٣) ورواه البيهقى فى السنن الكبرى (٢/ ٣١٧) من طريق نافع عن رجل من أهل مصر أنه صلى مع عمر بن الخطاب فذكر مثله.
(٤) سنن أبى داود برقم (١٤٠١) وسنن ابن ماجه برقم (١٠٥٧).
(٥) فى ف: «فهو».
(٦) فى ت: «عن».
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٧٤٣) وصحيح مسلم برقم (٣٠٣٣).
(٨) صحيح البخارى برقم (٤٧٤٤).

منكم. وقال المسلمون: كتابنا يقضى على الكتب كلها، ونبينا خاتم الأنبياء، فنحن أولى بالله منكم. فأفلج الله الإسلامَ على من ناوأه، وأنزل: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾. وكذا روى العَوفى، عن ابن عباس.

وقال شعبة، عن قتادة فى قوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال: مُصدق ومكذب.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد فى هذه الآية: مثل الكافر والمؤمن اختصما فى البعث. وقال ـ فى رواية: هو وعطاء فى هذه الآية ـ: هم المؤمنون والكافرون.

وقال عكرمة: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ قال: هى الجنة والنار، قالت النار: اجعلنى للعقوبة، وقالت الجنة: اجعلنى للرحمة.

وقولُ مجاهد وعطاء: إن المراد بهذا الكافرون والمؤمنون، يشمل الأقوال كلها، وينتظم فيه قصة يوم بدر وغيرها؛ فإن المؤمنين يريدون نصرة دين الله، والكافرون يريدون إطفاء نور الإيمان وخذلانَ الحق وظهور الباطل. وهذا اختيار ابن جرير، وهو حَسَن؛ ولهذا قال: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أى: فصلت لهم مقطعات من نار.

قال سعيد بن جبير: من نحاس وهو أشد الأشياء حرارة إذا حمى.

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ. يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ أى: إذا صب على رؤوسهم الحميم، وهو الماء الحار فى غاية الحرارة.

وقال سعيد [ابن جبير](١): هو النحاس المذاب، أذاب ما فى بطونهم من الشحم والأمعاء. قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وغيرهم. وكذلك تذوب(٢) جلودهم، وقال ابن عباس وسعيد: تساقط.

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن المثنى، حدثنا إبراهيم أبو إسحاق الطالَقانى، حدثنا ابن المبارك عن سعيد بن زيد(٣)، عن أبى السَّمْح، عن ابن(٤) حُجَيرة، عن أبى هُرَيرة، عن النبى ﷺ قال: «إن الحميم ليُصَب على رؤوسهم، فينفُذ الجمجمةَ حتى يخلص إلى جوفه، فيسلت(٥) ما فى جوفه، حتى يبلغ قدميه، وهو الصهر، ثم يعاد كما كان».

ورواه الترمذى من حديث ابن المبارك(٦)، وقال: حسن صحيح. وهكذا رواه ابن أبى حاتم، عن أبيه، عن أبى نعيم، عن ابن المبارك، به ثم قال ابن أبى حاتم:

حدثنا على بن الحسين، حدثنا أحمد بن أبى الحَوَارىّ، سمعت عبد الله بن السُّرِّىّ قال: يأتيه الملك يحمل الإناء بِكَلْبَتين من حرارته، فإذا أدناه من وجهه تكرهه، قال: فيرفع مِقْمَعَة معه فيضرب

---

(١) زيادة من ف، أ. (٢) فى ف: «يذوب». (٣) فى ت، ف: «يزيد».
(٤) فى ت: «أبى». (٥) فى أ: «فيسلب».
(٦) تفسير الطبرى (١٧/ ١٠٠) وسنن الترمذى برقم (٢٥٨٢).

بها رأسه، فَيُفرغ[(١)] دماغه، ثم يُفرغ[(٢)] الإناء من دماغه، فيصل إلى جوفه من دماغه، فذلك قوله: ﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾

وقوله: ﴿ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾، قال الإمام أحمد:

حدثنا حسن بن موسى، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنا درَّاج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «لو أن مِقمَعا من حديد وُضع فى[(٣)] الأرض، فاجتمع له الثقلان ما أقَلُّوه من الأرض»[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا بن لَهِيعة، حدثنا[(٥)] درَّاج، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «لو ضُرب الجبلُ بمِقْمَع من حديد، لتفتت ثم عاد كما كان، ولو أن دلوا من غَسَّاق يُهرَاق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا»[(٦)].

وقال ابن عباس فى قوله: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ قال: يضربون بها، فيقع كل عضو على حياله، فيدعون [(٧)] بالثبور.

وقوله: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾: قال الأعمش، عن أبى ظبْيان، عن سلمان قال: النار سوداء مظلمة، لا يضىء لهبها ولا جمرها، ثم قرأ: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾.

وقال زيد بن أسلم فى هذه الآية: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾، قال: بلغنى أن أهل النار فى النار لا يتنفسون.

وقال الفُضيل[(٨)] بن عياض: والله ما طمعوا فى الخروج، إن الأرجل لمقيدة، وإن الأيدى لموثقة، ولكن يرفعهم لهبها، وتردهم[(٩)] مقامعها.

وقوله: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠] ومعنى الكلام: أنهم يهانون بالعذاب قولا وفعلا.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) ﴾

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار، عياذاً بالله من حالهم، وما هم فيه من العذاب والنَّكال

(١) فى ت، ف: «فيقرع». (٢) فى ت: «يقرع». (٣) فى ت: «على».
(٤) المسند (٣/٢٩).
(٥) فى ت، ف: «عن».
(٦) المسند (٣/٨٣) ودراج عن أبى الهيثم ضعيف.
(٧) فى ت، ف: «فيدعو». (٨) فى ت: «الفضل». (٩) فى ف: «ويردهم».

والحريق والأغلال، وما أعد لهم من الثياب من النار، ذكر حال أهل الجنة ـ نسأل الله من فضله وكرمه أن يدخلنا الجنة ـ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أى: تتخرّق فى أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها وقصورها، يصرفونها حيث شاؤوا وأين شاؤوا، ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ من الحلية، ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أى: فى أيديهم، كما قال النبى ﷺ فى الحديث المتفق عليه: «تبلغ الحِلْيَة من المؤمن حيث يبلغ الوَضُوء»[(١)].

وقال كعب الأحبار: إن فى الجنة ملكاً لو شئت أن أسميه لسميتُه، يصوغ لأهل الجنة الحلى منذ خلقه الله إلى يوم القيامة، لو أبرز قُلْب منها ـ أى: سوار منها ـ لرد شعاع الشمس، كما ترد[(٢)] الشمس نور القمر.

وقوله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾: فى مقابلة ثياب أهل النار التى فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير، إستبرقه وسُنْدُسه، كما قال: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢١، ٢٢]، وفى الصحيح: «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج فى الدنيا، فإنه من لبسه فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة»[(٣)].

قال عبد الله بن الزبير: ومن لم يلبس الحرير فى الآخرة، لم يدخل الجنة، قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، كقوله: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وقوله: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ . سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقوله: ﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا . إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦]، فهدوا إلى المكان الذى يسمعون فيه الكلام الطيب، ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، لا كما يهان أهل النار بالكلام الذى يُرَوّعون به[(٤)] ويقرعون به، يقال لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

وقوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أى: إلى المكان الذى يحمدون فيه ربهم، على ما أحسن إليهم وأنعم به وأسداه إليهم، كما جاء فى الصحيح: «إنهم يلهمون التسبيح والتحميد، كما يلهمون النَّفَسَ».

وقد قال بعض المفسرين فى قوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أى: القرآن. وقيل: لا إله إلا الله. وقيل: الأذكار المشروعة، ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أى: الطريق المستقيم فى الدنيا. وكل هذا لا ينافى ما ذكرناه، والله أعلم.

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٤٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) فى ف: «يرد».

(٣) الحديث فى صحيح البخارى برقم (٥٤٢٦) وصحيح مسلم برقم (٢٠٦٧) من حديث حذيفة رضى الله عنه.

(٤) فى ت: «يوبخون فيه»، وفى ف، أ: «يوبخون به».

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)﴾.

يقول تعالى منكراً على الكفار فى صدّهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام، وقضاء مناسكهم فيه، ودعواهم أنهم أولياؤه: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وفى هذه الآية دليل [على][1] أنها مَدنية، كما قال فى سورة «البقرة»: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال هاهنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أى: ومن صفتهم مع كفرهم أنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام، أى: ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به فى نفس الأمر، وهذا التركيب فى هذه الآية كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] أى: ومن صفتهم أنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله.

وقوله: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [أى: يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعا سواء، لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائى عنه البعيد الدار منه، ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾][2] ومن ذلك استواء الناس فى رباع مكة وسكناها، كما قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ قال: ينزل أهل مكة وغيرهم فى المسجد الحرام.

وقال مجاهد [فى قوله][3]: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾: أهل مكة وغيرهم فيه سواء فى المنازل. وكذا قال أبو صالح، وعبد الرحمن بن سابط، وعبد الرحمن بن زيد [بن أسلم][4].

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن قتادة: سواء فيه أهله وغير أهله.

وهذه المسألة اختلف فيها الشافعى وإسحاق بن راهَويه بمسجد الخَيف، وأحمد بن حنبل حاضر[5] أيضاً، فذهب الشافعى، رحمه الله[6]، إلى أن رباع مكة تملك وتورث وتؤجر، واحتج بحديث الزهرى، عن على بن الحُسَين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة بن زيد قال: قلت: يا رسول الله، أتنزل غداً فى دارك[7] بمكة؟ فقال: «وهل ترك لنا عَقيل من رباع». ثم قال: «لا يرث الكافر المسلم، ولا المسلم الكافر». وهذا الحديث مُخَرّج فى الصحيحين[8] [وبما ثبت أن عمر بن الخطاب اشترى من صفوان بن أمية دارا بمكة، فجعلها سجنا بأربعة آلاف درهم. وبه قال طاوس، وعمرو بن دينار.

وذهب إسحاق بن راهَويه إلا أنها تورث ولا تؤجر. وهو مذهب طائفة من السلف، ونص عليه

---

(١) زيادة من ت. (٢) زيادة من ف. (٣) زيادة من ف، أ.
(٤) زيادة من أ. (٥) فى ت: «حاضراً». (٦) فى ف: «رضى الله عنه»، وفى أ: «رضى الله تعالى عنه».
(٧) فى ف: «بدارك»
(٨) صحيح البخارى برقم (٦٧٦٤) وصحيح مسلم برقم (١٦١٤) من حديث أسامة بن زيد رضى الله عنه.

مجاهد وعطاء، واحتج إسحاق بن راهَويه بما رواه ابن ماجه، عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن عيسى ابن يونس ، عن عُمَر بن سعيد بن أبى حُسَين[١]، عن عثمان بن أبى سليمان، عن علقمة بن نَضْلَة قال: تُوُفى رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وما تدعى رباع مكة إلا[٢] السوائب، من احتاج سكن، ومن استغنى أسكن[٣].

وقال عبد الرزاق عن ابن مجاهد، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو أنه قال: لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها.

وقال أيضاً عن ابن جريج: كان عطاء ينهى عن الكراء فى الحرم، وأخبرنى أن عمر بن الخطاب كان ينهى أن تُبوّب دور مكة؛ لأن ينزل الحاج فىَ عَرَصاتها، فكان أول من بَوّب داره سُهَيل بن عمرو، فأرسل إليه عمر بن الخطاب فى ذلك، فقال: أنظرنى يا أمير المؤمنين، إنى كنت امرأ تاجرا، فأردت أن أتخذ بابين يحبسان لى ظهرى قال: فذلك إذاً.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن منصور، عن مجاهد؛ أن عمر بن الخطاب قال: يا أهل مكة، لا تتخذوا لدوركم أبوابا لينزل البادى حيث يشاء[٤].

قال: وأخبرنا مَعْمر، عمن سمع عطاء يقول [فى قوله][٥]: ﴿سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾، قال: ينزلون حيث شاؤوا.

وروى الدارقطنى من حديث ابن أبى نَجِيح، عن عبد الله بن عمرو موقوفا[٦]: من أكل كراء بيوت مكة أكل ناراً[٧].

وتوسط الإمام أحمد [فيما نقله صالح ابنه][٨] فقال: تملك وتورث ولا تؤجر، جمعا بين الأدلة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: قال بعض المفسرين من أهل العربية: الباء هاهنا زائدة، كقوله: ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] أى: تُنبتُ الدهن، وكذا قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ[٩]﴾ تقديره إلحاداً، وكما قال الأعشى:

ضَمِنَتْ برزق عيالنا أرْماحُنا بين المَرَاجِلِ، والصّريحَ الأجرد[١٠]

وقال الآخر[١١]:

بوَادٍ يمَانٍ يُنْبتُ الشَّثّ صَدْرُهُ وَأسْفَلُه بالمَرْخ والشَّبَهَانِ

(١) فى ت: «جبير»، وفى ف، أ: «حيوة».
(٢) زيادة من ت، ف، أ .
(٣) سنن ابن ماجه برقم (٣١٠٧) وهو مرسل.
(٤) فى ت، ف: «شاء».
(٥) زيادة من ف، أ.
(٦) فى ف، أ: «مرفوعاً».
(٧) سنن الدارقطنى (٢/ ٣٠٠).
(٨) زيادة من ف، أ.
(٩) فى ف، أ: «بإلحاد بظلم».
(١٠) البيت فى تفسير الطبرى (١٧/ ١٠٣).
(١١) البيت فى تفسير الطبرى (١٧/ ١٠٣) غير منسوب.

والأجود أنه ضمن الفعل ها هنا معنى «يَهُمّ»، ولهذا[١] عداه بالباء، فقال: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ أى: يَهُمّ فيه بأمر فظيع من المعاصى الكبار.

وقوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أى: عامدا قاصدا أنه ظلم ليس بمتأول، كما قال ابن جريج[٢]، عن ابن عباس: هو [التعمد][٣].

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿بِظُلْمٍ﴾: بشرك.

وقال مجاهد: أن يعبد فيه غير الله. وكذا قال قتادة، وغير واحد.

وقال العَوْفى، عن ابن عباس: ﴿بِظُلْمٍ﴾: هو أن تَستحلَ من الحرام ما حَرّم الله عليك من لسان أو قتل، فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا فَعَل ذلك فقد وَجَب [له][٤] العذاب الأليم.

وقال مجاهد: ﴿بِظُلْمٍ﴾: يعمل فيه عملا سيئا.

وهذا من خصوصية الحرم أنه يعاقَب البادى فيه الشر، إذا كان عازما عليه، وإن لم يوقعه، كما قال ابن أبى حاتم فى تفسيره:

حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شعبة، عن السُّدِّى: أنه سمع مُرَّة يحدث عن عبد الله ـ يعنى: ابن مسعود ـ فى قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: لو أن رَجُلا أراد فيه بإلحاد بـظلم، وهو بعَدَن أبينَ، أذاقه[٥] الله من العذاب الأليم.

قال شعبة: هو رفعه لنا، وأنا لا أرفعه لكم. قال يزيد: هو قد رفعه، ورواه أحمد، عن يزيد بن هارون، به[٦].

[قلت: هذا الإسناد][٧] صحيح على شرط البخارى، ووقفه أشبه من رفعه؛ ولهذا صَمم شعبة على وَقْفه من كلام ابن مسعود. وكذلك رواه أسباط، وسفيان الثورى، عن السدى، عن مُرة، عن ابن مسعود موقوفا، والله أعلم.

وقال الثورى، عن السدى، عن مُرَّة، عن عبد الله قال: ما من رجل يهم بسيئة فتكتب عليه، ولو أن رجلا بَعَدن أبينَ هَمّ أن يقتل رجلا بهذا البيت، لأذاقه الله من العذاب الأليم. وكذا قال الضحاك بن مُزاحم.

وقال سفيان [الثورى][٨]، عن منصور، عن مجاهد «إلحاد فيه»، لا والله، وبلى والله. وروى عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو، مثله.

---

(١) فى ف: «ولذا». (٢) فى ت: «جرير».
(٣) زيادة من ف، أ. (٤) زيادة من أ. (٥) فى ت، ف، أ: «لأذاقه».
(٦) المسند (١/٤٢٨).
(٧) زيادة من ف، أ. (٨) زيادة من ف.

وقال سعيد بن جُبَير: شتم الخادم ظلم فما فوقَه.

وقال سفيان الثورى، عن عبد الله بن عطاء، عن ميمون بن مِهْرَان، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: تجارة الأمير فيه.

وعن ابن عمر: بيع الطعام [بمكة][1] إلحاد.

وقال حبيب[2] بن أبى ثابت: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: المحتكر بمكة. وكذا قال غير واحد.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن إسحاق الجوهرى، أنبأنا أبو عاصم، عن جعفر بن يحيى، عن عمه عمارة بن ثوبان، حدثنى موسى بن باذان، عن يعلى بن أمية؛ أن رسولَ الله ﷺ قال: «احتكار الطعام بمكة إلحاد»[3].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَةَ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بُكَيْر[4]، حدثنا ابن لَهِيعة، حدثنى عطاء بن دينار، حدثنى سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس فى قول الله: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ قال: نزلت فى عبد الله بن أنيس، أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين، أحدهما مهاجر والآخر من الأنصار، فافتخروا فى الأنساب، فغضب عبد الله بن أنيس، فقتل الأنصارىّ، ثم ارتد عن الإسلام، وهرَب إلى مكة، فنزلت فيه: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ﴾ يعنى: من لجأ إلى الحرم بإلحاد يعنى بميل عن الإسلام.

وهذه الآثار، وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكنْ هُو أعم من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لما هم أصحاب الفيل على تخريب البيت أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٤، ٥]، أى: دمَّرهم وجعلهم عبرة ونكالا لكل من أراده بسوء؛ ولذلك ثبت فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «يغزو هذا البيت جيش، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خُسِف بأولهم وآخرهم» الحديث[5].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن كُنَاسة، حدثنا إسحاق بن سعيد، عن أبيه قال: أتى عبدُ الله بن عمر عبدَ الله بن الزبير، فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد فى حَرَم الله، فإنى سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنه سيلحدُ فيه رجل من قريش، لو تُوزَن ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت»، فانظر لا تكن هو[6].

وقال أيضا [فى مسند عبد الله بن عمرو بن العاص][7]: حدثنا هاشم، حدثنا إسحاق بن سعيد،

---

(١) زيادة من ت، ف، أ. (٢) فى ت: «جندب».

(٣) ورواه أبو داود فى السنن برقم (٢٠٢٠)، والفاكهى فى تاريخ مكة برقم (١٧٧١) من طريق أبى عاصم به.

(٤) فى ت، ف: «بكر».

(٥) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٢١١٨) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٦) المسند (٢/١٣٦).

(٧) زيادة من ف، أ.

حدثنا سعيد بن عمرو قال: أتى عبدُ الله بن عمرو بن الزبير، وهو جالس فى الحِجْر فقال: يا بن الزبير، إياك والإلحادَ فى الحرم، فإنى أشهد لسَمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يحلها ويحل به رجل من قريش، ولو وُزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها». قال: فانظر لا تكن[١] هو[٢].

ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب من هذين الوجهين.

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾.

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله، وأشرك به من قريش، فى البقعة التى أسستْ من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بَوأ إبراهيم مكانَ البيت، أى: أرشده إليه، وسلمه له، وأذن له فى بنائه.

واستدل به كثير ممن قال: «إن إبراهيم، عليه السلام، هو أول من بنى البيت العتيق، وأنه لم ين قبله»، كما ثبت فى الصحيح[٣] عن أبى ذر قلت: يا رسول الله، أى مسجد وُضعَ أول؟ قال: «المسجد الحرام». قلت: ثم أى؟ قال: «بيت المقدس». قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»[٤].

وقد قال الله تعالى: **﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾** الآية [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال تعالى: **﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾** [البقرة: ١٢٥].

وقد قدمنا ذكر ما ورد فى بناء البيت من الصحاح والآثار، بما أغنى عن إعادته هاهنا[٥].

وقال تعالى هاهنا: **﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي﴾** أى: ابنْه على اسمى وحدى، **﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾** قال مجاهد وقتادة: من الشرك، **﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾** أى: اجعله خالصا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له.

فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها، **﴿وَالْقَائِمِينَ﴾** أى: فى الصلاة؛ ولهذا قال: **﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾**، فقرن الطواف بالصلاة؛ لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت، فالطواف عنده، والصلاة إليه فى غالب الأحوال، إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة وفى الحرب، وفى النافلة فى السفر، والله أعلم.

---

(١) فى ت: «لا يكون» وفى ف: «لا تكون».

(٢) المسند (٢١٩١٢).

(٣) فى ف: «الصحيحين».

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٣٦٦) وصحيح مسلم برقم (٥٢٠).

(٥) انظر تفسير الآية: ١٢٥ من سورة البقرة.

وقوله: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أى: ناد فى الناس داعيا لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذى أمرناك ببنائه. فَذُكر أنه قال: يارب، وكيف أبلغ الناس وصوتى لا ينفذهم؟ فقيل: ناد وعلينا البلاغ. فقام على مقامه، وقيل: على الحجر، وقيل: على الصفا، وقيل: على أبى قُبَيس، وقال: يأيها الناس، إن ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه، فيقال: إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض، وأسمعَ مَن فى الأرحام والأصلاب، وأجابه كل شىء سمعه من حَجَر ومَدَر وشجر، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة: «لبيك اللهم لبيك».

هذا مضمون ما روى عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جُبَير، وغير واحد من السلف، والله أعلم. أوردها ابن جَرير، وابن أبى حاتم مُطَوّلة[1][2].

وقوله: ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾: قد يَستدلّ بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشيا، لمن قدر عليه، أفضلُ من الحج راكبا؛ لأنه قدمهم فى الذكر، فدل على الاهتمام بهم وقوة هممهم وشدة عزمهم، والذى عليه الأكثرون أن الحج راكبا أفضل؛ اقتداء برسول الله ﷺ، فإنه حج راكبا مع كمال قوته، عليه السلام.

وقوله: ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ﴾ يعنى: طريق، كما قال: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً﴾ [الأنبياء: ٣١].

وقوله: ﴿عَمِيقٍ﴾ أى: بعيد. قاله مجاهد، وعطاء، والسدى، وقتادة، ومقاتل بن حيان، والثورى، وغير واحد.

وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن إبراهيم، حيث قال فى دعائه: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، فالناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ﴾.

قال ابن عباس: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ قال: منافع الدنيا والآخرة؛ أما منافع الآخرة فرضوان الله، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البُدْن والربح[3] والتجارات. وكذا قال مجاهد، وغير واحد: إنها منافع الدنيا والآخرة، كقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾[البقرة: ١٩٨].

---

(١) فى ف: «بطوله».

(٢) تفسير الطبرى (١٧/ ١٠٦).

(٣) فى ت، ف،أ: «والذبائح».

وقوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ [فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ][(١)] عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، قال شعبة [وهُشَيْم][(٢)] عن [أبى بشر عن سعيد][(٣)] عن ابن عباس: الأيام المعلومات: أيام العشر، وعلقه البخارى عنه بصيغة الجزم به[(٤)]. ويروى مثله عن أبى موسى الأشعرى، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراسانى، وإبراهيم النَّخعى. وهو مذهب الشافعى، والمشهور عن أحمد بن حنبل.

وقال البخارى: حدثنا محمد بن عَرْعَرَة، حدثنا شعبة، عن سليمان، عن مسلم البَطِين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ قال: «ما العمل فى أيام أفضل منها فى هذه» قالوا: ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد فى سبيل الله، إلا رجل، يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشىء».

ورواه الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذى، وابن ماجه[(٥)]. وقال الترمذى: حديث حسن غريب صحيح. وفى الباب عن ابن عمر، وأبى هريرة، وعبد الله بن عمرو، وجابر.

قلت: وقد تقصيت هذه الطرق، وأفردت لها جزءاً على حدته[(٦)]، فمن ذلك ما قال الإمام أحمد:

حدثنا عَفَّان، أنبأنا أبو عَوَانة، عن يزيد بن أبى زياد، عن مجاهد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مامن أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العملُ فيهن، من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهم من التهليل والتكبير والتحميد»[(٧)] وروى من وجه آخر، عن مجاهد، عن ابن عمر، بنحوه[(٨)].

وقال البخارى: وكان ابن عمر، وأبو هريرة يخرجان إلى السوق فى أيام العشر، فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما[(٩)].

وقد روى أحمد عن جابر مرفوعا: أن هذا هو العشر الذى أقسم الله به فى قوله: ﴿وَالْفَجْرِ . وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١، ٢][(١٠)].

وقال بعض السلف: إنه المراد بقوله: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾[الأعراف: ١٤٢].

وفى سنن أبى داود: أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر[(١١)].

وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة الذى ثبت فى صحيح مسلم عن أبى قتادة قال: سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة، فقال: «أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية»[(١٢)].

(١، ٢، ٣) زيادة من ف، أ.
(٤) صحيح البخارى (٢/ ٤٥٧) «فتح».
(٥) صحيح البخارى برقم (٩٦٩) وسنن أبى داود برقم (٢٤٣٨) وسنن الترمذى برقم (٧٥٧) وسنن ابن ماجه برقم (١٧٢٧).
(٦) سماه: «الأحاديث الواردة فى فضل الأيام العشرة من ذى الحجة».
(٧) المسند (٢/ ٧٥).
(٨) رواه أبو عوانة ـ كما فى إرواء الغليل (٣٩٨١٣) عن الحافظ ابن حجر ـ من طريق موسى بن أبى عائشة عن مجاهد عن ابن عمر رضى الله عنهما.
(٩) صحيح البخارى (٢/ ٤٥٧) «فتح».
(١٠) المسند (٣/ ٣٢٧).
(١١) سنن أبى داود برقم (٢٤٣٧).
(١٢) صحيح مسلم برقم (١١٦٢) من حديث أبى قتادة رضى الله عنه.

ويشتمل على يوم النحر الذى هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد فى حديث أنه أفضل الأيام عند الله[(١)].

وبالجملة، فهذا العشر قد قيل: إنه أفضل أيام السنة، كما نطق به الحديث، ففضله كثير على عشر رمضان الأخير؛ لأن هذا يشرع فيه ما يشرع فى ذلك، من صيام وصلاة وصدقة وغيره، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه.

وقيل: ذاك أفضل لاشتماله على ليلة القدر، التى هى خير من ألف شهر.

وتوسط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضل، وليالى ذاك أفضل. وبهذا يجتمع شمل الأدلة، والله أعلم.

قول ثان فى الأيام المعلومات: قال الحكم، عن مِقْسَم، عن ابن عباس: الأيام المعلومات: يوم النحر وثلاثة أيام بعده. ويروى هذا عن ابن عمر، وإبراهيم النَّخَعى، وإليه ذهب أحمد بن حنبل فى رواية عنه.

قول ثالث: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا على بن المدينى، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا ابن عَجْلان، حدثنى نافع؛ أن ابن عمر كان يقول: الأيام المعلومات والمعدودات هن جميعهن أربعة أيام، فالأيام المعلومات يوم النحر ويومان بعده، والأيام المعدودات ثلاثة أيام يوم النحر.

هذا إسناد صحيح إليه، وقاله [(٢)]السدى: وهو مذهب الإمام مالك بن أنس، ويعضد هذا القول والذى قبله قوله تعالى: ﴿**عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ**﴾ يعنى به: ذكر الله عند ذبحها.

قول رابع: إنها يوم عرفة، ويوم النحر، ويوم آخر بعده. وهو مذهب أبى حنيفة.

وقال ابن وهب: حدثنى [(٣)] ابن زيد بن أسلم، عن أبيه أنه قال: المعلومات يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق.

وقوله: ﴿**عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ**﴾ يعنى: الإبل والبقر والغنم، كما فصلها تعالى فى سورة الأنعام وأنها ﴿**ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ**﴾ الآية [الأنعام: ١٤٣].

وقوله﴿ **فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ**﴾ استدل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب الأكل من الأضاحى وهو قول غريب، والذى عليه الأكثرون أنه من باب الرخصة أو الاستحباب، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ، فأكل من لحمها، وحسا من مرقها[(٤)].

وقال عبد الله بن وهب: [قال لى مالك: أحب أن يأكل من أضحيته؛ لأن الله يقول: ﴿**فَكُلُوا مِنْهَا**﴾: قال ابن وهب][(٥)]: وسألت الليث، فقال لى مثل ذلك.

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٤/ ٣٥٠) وأبو داود فى السنن برقم (١٧٦٥) من حديث عبد الله بن قرط رضى الله عنه.

(٢) فى ت: «وقال».

(٣) فى ت، ف: «وقال ابن وهب وحدثنى».

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٢١٨) من حديث جابر رضى الله عنه.

(٥) زيادة من ف، أ.

وقال سفيان الثورى، عن منصور، عن إبراهيم: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ قال: كان المشركون لا يأكلون من ذبائحهم فرخص للمسلمين، فمن شاء أكل، ومن شاء لم يأكل. وروى عن مجاهد، وعطاء نحو ذلك.

قال هُشَيْم، عن حُصَين، عن مجاهد فى قوله ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾: هى كقوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾[المائدة: ٢]، ﴿فَإِذَا قُضِيَت[1] الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾[الجمعة: ١٠].

وهذا اختيار ابن جرير فى تفسيره، واستدل من نصر القول بأن الأضاحى يتصدق منها بالنصف بقوله فى هذه الآية: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، فجزأها نصفين: نصف للمضحى، ونصف للفقراء.

والقول الآخر: أنها تجزأ ثلاثة أجزاء: ثلث له، وثلث يهديه، وثلث يتصدق به؛ لقوله فى الآية الأخرى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾[الحج: ٣٦] وسيأتى الكلام عليها عندها، إن شاء الله، وبه الثقة.

وقوله: ﴿الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾، قال عكرمة: هو المضطر الذى عليه البؤس، [والفقير][2]: المتعفف.

وقال مجاهد: هو الذى لا يبسط يده. وقال قتادة: هو الزَّمِن. وقال مقاتل بن حيان: هو الضرير.

وقوله: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هو وضع [الإحرام][3]، من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظفار، ونحو ذلك. وهكذا روى عطاء ومجاهد، عنه. وكذا قال عكرمة، ومحمد بن كعب القُرَظى.

وقال عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قال: التفث: المناسك.

وقوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى: نحر ما نذر من أمر البُدن.

وقال ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾: نذر الحج والهدى وما نذر الإنسان من شىء يكون فى الحج.

وقال إبراهيم بن مَيْسَرَة، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال: الذبائح.

وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾: كل نذر إلى أجل.

وقال عكرمة: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، قال: [حجهم.

وكذا روى الإمام ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر، حدثنا سفيان فى قوله: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال:][4] نذر الحج، فكل من دخل الحج فعليه من العمل فيه: الطواف بالبيت

(١) فى ت: «قضيتم». (٢، ٣) زيادة من ف، أ. (٤) زيادة من ت، ف، أ.

وبين الصفا والمروة، وعرفة، والمزدلفة، ورمى الجمار، على ما أمروا به. وروى عن مالك نحو هذا.

وقوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: قال مجاهد: يعنى: الطواف الواجب يوم النحر.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن أبى حمزة قال: قال لى ابن عباس: أتقرأ سورة الحج؟ يقول [١] الله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، فإن آخر المناسك الطواف بالبيت.

قلت: وهكذا صنع رسول الله ﷺ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ يرمى الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه، وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت. وفى الصحيح عن ابن عباس أنه قال: أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت الطواف، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض[٢].

وقوله: ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: فيه مستدل لمن ذهب إلى أنه يجب الطواف من وراء الحجر؛ لأنه من أصل [٣] البيت الذى بناه إبراهيم، وإن كانت قريش قد أخرجوه من البيت، حين قصرت بهم النفقة؛ ولهذا طاف رسول الله ﷺ من وراء الحِجْر، وأخبر أن الحجر من البيت، ولم يستلم الركنين الشاميين؛ لأنهما لم يتمما على قواعد إبراهيم العتيقة؛ ولهذا قال ابن أبى حاتم:

حدثنا أبى، حدثنا ابن أبى عمر العَدَنى، حدثنا سفيان، عن هشام بن حُجْر، عن رجل، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾، طاف رسول الله ﷺ من ورائه[٤].

وقال قتادة، عن الحسن البصرى فى قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [قال][٥]: لأنه أول بيت وضع للناس. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وعن عكرمة أنه قال: إنما سمى البيت العتيق؛ لأنه أعتق يوم الغرق زمان نوح.

وقال خَصِيف: إنما سمى البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار قط.

وقال ابن أبى نَجِيح وليث عن مجاهد: أعتق من الجبابرة أن يسلطوا عليه. وكذا قال قتادة.

وقال حماد بن سلمة، عن حميد، عن الحسن بن مسلم، عن مجاهد: لأنه لم يُرِده أحد بسوء إلا هلك.

وقال عبد الرزاق، عن مَعْمَر، عن الزهرى، عن ابن الزبير قال: إنما سمى البيت العتيق؛ لأن الله أعتقه من الجبابرة[٦].

وقال الترمذى: حدثنا محمد بن إسماعيل وغير واحد، حدثنا عبد الله بن صالح، أخبرنى

(١) فى ت: «فيقول».
(٢) صحيح البخارى برقم (٣٢٩) وصحيح مسلم برقم (١٣٢٨) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.
(٣) فى أ: «داخل».
(٤) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى الدر المنثور (٦/ ٤١).
(٥) زيادة من ف، أ.
(٦) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٣٢).

الليث، عن عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن محمد بن عروة، عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سمى البيت العتيق؛ لأنه لم يظهر عليه جبار».

وكذا رواه ابن جرير، عن محمد بن سهل النجارى[١]، عن عبد الله بن صالح، به[٢]. وقال: إن كان صحيحاً وقال الترمذى: هذا حديث حسن غريب، ثم رواه من وجه آخر عن الزهرى، مرسلا[٣].

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ﴾.

يقول تعالى: هذا الذى أمرنا به من الطاعات فى أداء المناسك، وما لفاعلها من الثواب الجزيل.

﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ أى: ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ويكون ارتكابها عظيما فى نفسه، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ أى: فله على ذلك خير كثير وثواب جزيل، فكما على فعل الطاعات ثواب جزيل وأجر كبير، وكذلك على ترك المحرمات و[اجتناب][٤] المحظورات.

قال ابن جريج: قال مجاهد فى قوله: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ﴾ قال: الحرمة: مكة والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها. وكذا قال ابن زيد.

وقوله: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أى: أحللنا[٥] لكم جميع الأنعام، وما جعل الله من بحيرة، ولا سائبة، ولا وصيلة، ولا حام.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أى: من تحريم ﴿ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ [إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ][٦]﴾ الآية [المائدة: ٣]، قال ذلك ابن جرير، وحكاه عن قتادة.

وقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾: «من» هاهنا لبيان الجنس، أى: اجتنبوا الرجس الذى هو الأوثان. وقرن الشرك بالله[٧] بقول الزور، كقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ومنه شهادة الزور. وفى الصحيحين عن أبى بَكْرَة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين ـ وكان متكئا فجلس، فقال: ـ ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور». فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت[٨].

---

(١) فى ف: «المحاربى».

(٢) سنن الترمذى برقم (٣١٧٠) وفيه «هذا حديث حسن صحيح» وأظنه خطأ.

(٣) صحيح البخارى برقم (٢٦٥٤) وصحيح مسلم برقم (٨٧).

(٤) زيادة من أ. (٥) فى ت: «أحلت». (٦) زيادة من ت، ف، أ. (٧) فى أ: «به».

(٨) صحيح البخارى برقم (٢٦٥٤) وصحيح مسلم برقم (٨٧).

وقال الإمام أحمد: حدثنا مروان بن معاوية الفزارى، أنبأنا سفيان بن زياد، عن فاتك بن فضالة، عن أيمن بن خريم قال: قام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: «يا أيها الناس، عدلت شهادة الزور إشراكا بالله» ثلاثا، ثم قرأ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.

وهكذا رواه الترمذى، عن أحمد بن منيع، عن مروان بن معاوية، به[1]. ثم قال: «غريب، إنما نعرفه من حديث سفيان بن زياد. وقد اختلف عنه فى رواية هذا الحديث، ولا نعرف لأيمن بن خريم سماعا من النبى ﷺ».

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا سفيان العُصْفُرِىّ، عن أبيه، عن حبيب ابن النعمان الأسدى، عن خريم بن فاتك[2] الأسدى قال: صلى رسول الله ﷺ الصبح، فلما انصرف قام قائما فقال: «عدلت شهادة الزور الإشرك بالله، عز وجل»، ثم تلا هذه الآية: ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ .حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾[3].

وقال سفيان الثورى، عن عاصم بن أبى النجود، عن وائل بن ربيعة، عن ابن مسعود أنه قال: تعدل شهادة الزور بالشرك بالله، ثم قرأ هذه الآية[4].

وقوله: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ ﴾ أى: مخلصين له الدين، منحرفين عن الباطل قصدا إلى الحق؛ ولهذا قال ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾.

ثم ضرب للمشرك مثلا فى ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى فقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى: سقط منها، ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ﴾، أى: تقطعه الطيور فى الهواء، ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ أى: بعيد مهلك لمن هوى فيه؛ ولهذا جاء فى حديث البراء: «إن الكافر إذا توفته ملائكة الموت، وصعدوا بروحه إلى السماء، فلا تفتح له أبواب السماء، بل تطرح روحه طرحا من هناك». ثم قرأ هذه الآية، وقد تقدم الحديث فى سورة «إبراهيم»[5] بحروفه وألفاظه وطرقه.

وقد ضرب[الله][6]تعالى للمشرك مثلا آخر فى سورة «الأنعام»، وهو قوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ [وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ][7]﴾[الأنعام: ٧١].

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣) ﴾.

---

(١) المسند (٤/ ١٧٨) وسنن الترمذى برقم (٢٢٩٩).

(٢) فى ت: «مقاتل».

(٣) المسند(٤/ ٣٢١).

(٤) تفسير الطبرى(١٧/ ١١٢).

(٥) انظر تفسير الآية: ٢٧.

(٦) زيادة من أ.

(٧) زيادة من ف، أ، وفى الأصل: «الآية».

يقول تعالى: هذا ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ أى: أوامره، ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن، كما قال الحكم، عن مقْسَم، عن ابن عباس: تعظيمها: استسمانها واستحسانها.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجّ، حدثنا حفص بن غياث، عن ابن أبى ليلى، عن ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ قال: الاستسمان والاستحسان والاستعظام.

وقال أبو أمامة بن سهل: كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يُسمّنون. رواه البخارى[(١)].

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «دم عفراءَ أحبّ إلى الله من دم سَوداوين». رواه أحمد، وابن ماجه[(٢)].

قالوا: والعفراء هى البيضاء بياضاً ليس بناصع، فالبيضاء أفضل من غيرها، وغيرها يجزئ أيضا؛ لما ثبت فى صحيح البخارى، عن أنس: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين[(٣)].

وعن أبى سعيد: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن فَحيل[(٤)] يأكل فى سواد، وينظر فى سواد، ويمشى فى سواد.

رواه أهل السنن، وصححه الترمذى[(٥)]، أى: بكبش أسود[(٦)] فى هذه الأماكن.

وفى سنن ابن ماجه، عن أبى رافع: أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجوءين[(٧)]. قيل: هما الخَصِيَان. وقيل: اللذان رُضَّ خُصْيَاهما، ولم يقطعهما[(٨)]، والله أعلم.

وكذا روى أبو داود وابن ماجه عن جابر: ضحى رسول الله ﷺ بكبشين أقرنين أملحين موجوءين [والموجوءين قيل: هما الخصيين][(٩)] [(١٠)].

وعن على رضى الله عنه، قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، وألا نضحى بمقابَلَة، ولا مدابَرَة، ولا شَرْقاء، ولا خَرْقاء.

رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذى[(١١)].

ولهم عنه، قال: نهى رسول الله ﷺ أن نُضحى[(١٢)] بأعضب القرن والأذن[(١٣)].

---

(١) صحيح البخارى (١٠/ ٩) «فتح» معلقاً.
(٢) المسند (٢/ ٤١٧) ولم يقع لى فى سنن ابن ماجه.
(٣) صحيح البخارى برقم (٥٥٥٨).
(٤) فى ف: «فحل».
(٥) سنن أبى داود برقم (٢٧٩٦) وسنن الترمذى برقم (١٤٩٦) وسنن النسائى (٧/ ٢٢١) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٢٨).
(٦) فى أ: «فيه نكتة سوداء».
(٧) لم يقع فى سنن ابن ماجه من حديث أبى رافع وإنما من حديث عائشة وأبى هريرة برقم (٣١٢٢) وحديث أبى رافع رواه أحمد فى المسند (٦/ ٨).
(٨) فى ت: «ولم يقطعها».
(٩) زيادة من ت، ف، أ.
(١٠) سنن أبى داود برقم (٢٧٩٥).
(١١) المسند (١/ ٨٠)، وسنن أبى داود برقم (٢٨٠٤) وسنن الترمذى برقم (١٤٩٨) وسنن النسائى (٧/ ٢١٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٤٢).
(١٢) فى ت: «يضحى».
(١٣) المسند (١/ ٨٣) وسنن أبى داود برقم (٢٨٠٥) وسنن الترمذى برقم (١٥٠٤) وسنن النسائى (٧/ ٢١٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٤٥).

وقال سعيد بن المسيب: العضب: النصْف فأكثر.

وقال بعض أهل اللغة: إن كُسر قرنها الأعلى فهى قصماء، فأما العَضْب فهو كسر الأسفل، وعضب الأذن قطع بعضها.

وعند الشافعى أن التضحية بذلك مجزئة، لكن تكره.

وقال [الإمام][1] أحمد: لا تجزئ الأضحية بأعضب القرن والأذن؛ لهذا الحديث.

وقال مالك: إن كان الدم يسيل من القرن لم يجزئ، وإلا أجزأ، والله أعلم.

وأما المقابلة: فهى التى قطع مقدم أذنها، والمدابرة: من مؤخر أذنها. والشرقاء: هى التى قطعت أذنها طولا، قاله الشافعى. والخرقاء: هى التى خرَقت السّمَةُ أذنها خرقا مُدوّراً، والله أعلم.

وعن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع لا تجوز فى الأضاحى: العوراء البيّن عَوَرها، والمريضة البين مَرَضها، والعرجاء البين ظَلَعها[2]، والكسيرة التى لا تُنقِى».

رواه أحمد، وأهل السنن، وصححه الترمذى[3].

وهذه العيوب تنقص اللحم، لضعفها وعجزها عن استكمال الرعى؛ لأن الشاء يسبقونها إلى المرعى، فلهذا لا تجزئ التضحية[4] بها عند الشافعى وغيره من الأئمة، كما هو ظاهر الحديث. واختلف قول الشافعى فى المريضة مرضاً يسيراً، على قولين.

وروى أبو داود، عن عُتبة بن عبد السّلَمى؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن المُصْفَرَة، والمستأصَلَة، والبَخْقاء، والمشيَّعة، والكسراء[5][6].

فالمصفرة قيل: الهزيلة. وقيل: المستأصلة الأذُن. والمستأصلة: المكسورة القرن. والبخقاء: هى العوراء. والمشيعة: هى التى لا تزال تُشَيَّع خَلفَ الغنم، ولا تَتْبَع لضعفها. والكسراء: العرجاء.

فهذه العيوب كلها مانعة [من الإجزاء، فإن طرأ العيب][7] بعد تعيين الأضحية فإنه لا يضر عيبه عند الشافعى خلافا لأبى حنيفة.

وقد روى الإمامُ أحمد، عن أبى سعيد قال: اشتريت كبشا أضحى به، فعدا الذئب فأخذ الألية. فسألت النبى ﷺ، فقال: «ضَحِّ به»[8].

ولهذا [جاء][9] فى الحديث: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن. أى: أن تكون

---

(١) زيادة من ت.

(٢) فى ت، أ: «عرجها».

(٣) المسند (٤/ ٢٨٤) وسنن أبى داود برقم (٢٨٠٢) وسنن الترمذى برقم (١٤٩٧) وسنن النسائى (٧/ ٢١٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٤٤).

(٤) فى أ: «الأضحية».

(٥) فى أ: «الكسيرة».

(٦) سنن أبى داود برقم (٢٨٠٣).

(٧) زيادة من ف، أ.

(٨) المسند (٣/ ٣٢).

(٩) زيادة من أ.

الهدية أو الأضحية سمينة حسنة ثمينة، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود، عن عبد الله بن عمر قال: أهدَى عمر نَجيباً، فأعطى بها ثلاثمائة دينار، فأتى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى أهديت نجيباً، فأعطِيتُ بها ثلاثمائة دينار، أفأبيعها وأشترى بثمنها بدْناً؟ قال: «لا، انحرها إياها»(١).

وقال الضحاك، عن ابن عباس: البدن من شعائر الله.

وقال محمد بن أبى موسى: الوقوف ومزدلفة والجمار والرمى والبدن والحلق: من شعائر الله.

وقال ابن عمر: أعظم الشعائر البيت.

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ أى: لكم فى البدن منافع، من لبنها، وصوفها وأوبارها وأشعارها، وركوبها.

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: قال مِقْسَم، عن ابن عباس [فى قوله](٢): ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قال: ما لم يُسَمَّ بُدناً.

وقال مجاهد فى قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، قال: الركوب واللبن والولد، فإذا سُمِّيت بَدَنَةً أو هَدياً، ذهب ذلك كله. وكذا قال عطاء، والضحاك، وقتادة، [ومقاتل](٣) وعطاء الخراسانى، وغيرهم.

وقال آخرون: بل له أن ينتفع بها وإن كانت هديا، إذا احتاج إلى ذلك، كما ثبت فى الصحيحين عن أنس: أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يسوق بدَنَةً، قال: «اركبها». قال: إنها بَدَنَة. قال: «اركبها، ويحك»، فى الثانية أو الثالثة(٤).

وفى رواية لمسلم، عن جابر، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اركبها بالمعروف إذا ألجئتَ إليها»(٥).

وقال شعبة، عن زهير بن أبى ثابت الأعمى، عن المغيرة بن حَذْف، عن على؛ أنه رأى رجلا يسوق بدنة ومعها ولدها، فقال: لا تشرب من لبنها إلا ما فضل عن ولدها، فإذا كان يوم النحر فاذبحها وولدَها.

وقوله: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أى: مَحل الهدى وانتهاؤه إلى البيت العتيق، وهو الكعبة، كما قال تعالى: ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ [الفتح: ٢٥].

وقد تقدم الكلام على معنى «البيت العتيق» قريبا، ولله الحمد(٦).

وقال ابن جُرَيْج، عن عطاء: كان ابن عباس يقول: كل من طاف بالبيت، فقد حل، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

---

(١) المسند (٢/ ١٤٥) وسنن أبى داود برقم (١٧٥٦).
(٢) زيادة من ت، ف، أ. (٣) زيادة من ت، ف، أ.
(٤) صحيح البخارى برقم (١٦٩٠) وصحيح مسلم برقم (١٣٢٣).
(٥) صحيح مسلم برقم (١٣٢٣).
(٦) فى ت: «والله أعلم».

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٥) ﴾.

يخبر تعالى أنه لم يَزَل ذبحُ المناسك وإراقةُ الدماء على اسم الله مشروعاً فى جميع الملل.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ قال: عيداً.

وقال عكرمة: ذبحا. وقال زيد بن أسلم فى قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾: إنها مكة، لم يجعل الله لأمة قط منسكا غيرها.

[وقوله][1]: ﴿ لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، كما ثبت فى الصحيحين عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسمَّى وكبر، ووضع رجله على صِفَاحهما[2].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا سَلاّم بن مسكين، عن عائذ الله المجاشعى، عن أبى داود ـ وهو نُفَيْع بن الحارث ـ عن زيد بن أرقم قال: قلت ـ أو: قالوا ـ: يا رسول الله، ما هذه الأضاحى؟ قال: «سنة أبيكم إبراهيم». قالوا: ما لنا منها؟ قال: «بكل شعرة حسنة» قالوا: فالصوف؟ قال: «بكل شعرة من الصوف حسنة».

وأخرجه الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه فى سننه، من حديث سلام بن مسكين، به[3].

وقوله: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أى: معبودكم واحد، وإن تَنوّعَت شرائع الأنبياء ونَسخَ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده، لا شريك له، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي[4] إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾[5][الأنبياء: ٢٥]. ولهذا قال: ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أى: أخلصوا واستسلموا لحُكْمه وطاعته.

﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾: قال مجاهد: المطمئنين، وقال الضحاك، وقتادة: المتواضعين. وقال السدى: الوجلين. وقال عمرو بن أوس[6]: المخبتون[7]: الذين لا يَظلمون، وإذا ظُلموا لم ينتصروا.

وقال الثورى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ قال: المطمئنين الراضين بقضاء الله، المستسلمين له.

---

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٥٥٥٨) وصحيح مسلم برقم (١٩٦٦).

(٣) المسند (٤/ ٣٦٨).

(٤) فى ت، أ: «يوحى».

(٥) فى ت: «فاعبدونى».

(٦) فى ت، ف، أ: «إدريس».

(٧) فى ت: «المخبتين».

وأحسن ما يفسّر بما بعده وهو قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: خافت منه قلوبُهم، ﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ أى: من المصائب.

قال الحسن البصرى: والله لتصبرنّ أو لتهلكنّ.

﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ﴾: قرأ الجمهور بالإضافة. السبعةَ، وبقيةَ العشرة أيضا. وقرأ ابن[(١)] السَّمَيْقَع: «والمقيمينَ الصلاة» بالنصب.

وقال الحسن البصرى: ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ﴾، وإنما حذفت النون هاهنا تخفيفا، ولو حذفت للإضافة لوجب خفضَ الصلاة، ولكن على سبيل التخفيف فنصبت.

أى: المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أى: وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأرقائهم وقراباتهم، وفقرائهم ومحاويجهم، ويحسنون إلى خلق الله مع محافظتهم على حدود الله. وهذه بخلاف صفات المنافقين، فإنهم بالعكس من هذا كله، كما تقدم تفسيره فى سورة «براءة» [فلله الحمد والمنة][(٢)] [(٣)].

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) ﴾.

يقول تعالى ممتنا على عباده فيما خلق لهم من البدن، وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تهدى إلى بيته الحرام، بل هى أفضل ما يهدى [إلى بيته الحرام][(٤)]، كما قال تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ [وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا][(٥)]﴾ الآية: [المائدة: ٢].

قال ابن جُرَيج: قال عطاء فى قوله: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾، قال: البقرة، والبعير. وكذا رُوى عن ابن عمر، وسعيد بن المسيب، والحسن البصرى.

وقال مجاهد: إنما البدن من الإبل.

قلت: أما إطلاق البَدَنَة على البعير فمتفق عليه، واختلفوا فى صحة إطلاق البدنة على البقرة، على قولين، أصحهما أنه يطلق عليها ذلك شرعا كما صح فى الحديث.

ثم جمهور العلماء على أنه تُجزئ البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، كما ثبت به الحديث عند مسلم، من رواية جابر بن عبد الله [وغيره][(٦)]، قال: أمرنا رسولُ الله ﷺ أن نشتركَ فى الأضاحى،

---

(١) فى ت: «أبو»
(٢) زيادة من ف، أ.
(٣) انظر تفسير الآية: ٦٧.
(٤ ـ ٦) زيادة من أ.

البدنةُ عن سبعة، والبقرة عن سبعة[١].

[وقال إسحاق بنُ رَاهَوَيه وغيره: بل تُجزئ البقرة عن سبعة، والبعير عن عشرة][٢]. وقد ورد به حديث فى مسند الإمام أحمد، وسنن النسائى، وغيرهما[٣]، فالله أعلم.

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾، أى: ثواب فى الدار الآخرة.

وعن سليمان بن يزيد الكعبى، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: «ما عَمِل ابن آدم يوم النحر عملاً أحبّ إلى الله من هِرَاقة دم، وإنه ليأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان، قبل أن يقع على الأرض، فطِيبُوا بها نفسا». رواه ابن ماجه، والترمذى وحَسنه[٤].

وقال سفيان الثورى: كان أبو حاتم[٥] يستدين ويسوق البُدْن، فقيل له: تستدين وتسوق البدن؟ فقال: إنى سمعت الله يقول: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنفقت الوَرَقَ فى شىء أفضلَ من نحيرة فى يوم عيد». رواه الدارقطنى فى سننه[٦].

وقال مجاهد: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قال: أجر ومنافع.

وقال إبراهيم النَّخَعِىّ: يركبها ويحلبها إذا احتاج إليها.

وقوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾: وعن [المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن][٧] جابر ابن عبد الله قال: صليتُ مع رسول الله ﷺ عيدَ الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه، فقال: «باسم الله والله أكبر، اللهم هذا عنى وعمن لم يُضَحِّ من أمتى».

رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى[٨].

وقال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن أبى حبيب، عن ابن عباس، عن جابر قال: ضحّى رسول الله ﷺ بكبشين فى يوم عيد، فقال حين وجههما: «وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً، وما أنا من المشركين، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين. لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك، وعن محمد وأمته». ثم سمى الله وكبر

---

(١) صحيح مسلم برقم (١٣١٨).

(٢) زيادة من ف، أ.

(٣) المسند (١/ ٢٧٥) وسنن النسائى (٧/ ٢٢٢) عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال: «كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فحضر النحر فاشتركنا فى البعير عن عشرة والبقرة عن سبعة».

(٤) سنن الترمذى برقم (١٤٩٣) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٢٦).

(٥) فى أ: «أبو حازم».

(٦) سنن الدارقطنى (٤/ ٢٨٢) من طريق إبراهيم بن يزيد عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس.

(٧) زيادة من ف، أ.

(٨) المسند (٣/ ٣٥٦) وسنن أبى داود برقم (٢٨١٠) وسنن الترمذى برقم (١٥٢١) وقال الترمذى: «هذا حديث غريب من هذا الوجه».

وذبح[١].

وعن علي بن الحسين، عن أبي رافع؛ أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين، فإذا صلى وخطب الناس أتى[٢] بأحدهما وهو قائم في مصلاه فذبحه بنفسه بالمدية[٣]، ثم يقول: «اللهم، هذا عن أمتي جميعها، مَنْ شهد لك بالتوحيد وشهد لي بالبلاغ». ثم يُؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه، ثم يقول: «هذا عن محمد وآل محمد» فيُطعمهما جميعاً المساكين، [ويأكل][٤] هو وأهله منهما.

رواه أحمد، وابن ماجه[٥].

وقال الأعمش، عن أبي ظَبْيان، عن ابن عباس في قوله: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾، قال: قياما على ثلاث قوائم، معقولة يدُها اليسرى، يقول: «باسم الله والله أكبر[٦]، اللهم منك ولك». وكذلك روى مجاهد، وعلي بن أبي طلحة، والعَوْفي، عن ابن عباس، نحو هذا.

وقال ليث، عن مجاهد: إذا عُقلت رجلها اليسرى قامت على ثلاث. ورَوَى ابن أبي نَجِيح، عنه، نحوه[٧].

وقال الضحاك: تُعقل رجل[٨] واحدة فتكون على ثلاث.

وفي الصحيحين عن ابن عمر: أنه أتى على رجل قد أناخ بَدَنته وهو ينحرها، فقال: ابعثها قياماً مقيدة سنة أبي القاسم ﷺ[٩].

وعن جابر: أن رسول الله ﷺ وأصحابَه كانوا ينحَرون البُدْن معقولةَ اليسرى، قائمة على ما بقي من قوائمها. رواه أبو داود[١٠].

وقال ابن لَهيعة: حدثني عطاء بن دينار، أن سالم بن عبد الله قال لسليمان بن عبد الملك: قفْ من شقها الأيمن، وانحرْ من شقها الأيسر.

وفي صحيح مسلم، عن جابر، في صفة حجة الوَدَاع، قال فيه: فنحر رسولُ الله ﷺ بيده ثلاثاً وستين بَدَنة، جعل[١١] يَطعَنُها بحَربة في يده[١٢].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا معْمَر، عن قتادة قال: في حرف ابن مسعود: «صوافن»، أي: مُعقَّلة[١٣] قياما[١٤].

---

(١) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية: ١٦٢ من سورة «الأنعام».
(٢) في ت: «أمر». (٣) في ت، أ: «بالمدينة». (٤) زيادة من ف، أ.
(٥) المسند (٦/٨) وتقدم الحديث في هذه السورة.
(٦) في ف، أ: «والله أكبر، لا إله إلا الله». (٧) في أ: «نحو هذا». (٨) في ت، ف: «يعقل يداً».
(٩) صحيح البخاري برقم (١٧١٣) وصحيح مسلم برقم (١٣٢٠).
(١٠) سنن أبي داود برقم (١٧٦٧).
(١١) في ت: «وجعل».
(١٢) صحيح مسلم برقم (١٢١٨).
(١٣) في ت، أ: «معلقة».
(١٤) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٣٣).

وقال سفيان الثورى، عن منصور، عن مجاهد: مَن قرأها «صوافن» قال: معقولة. ومن قرأها ﴿صَوَافَ﴾، قال: تصف بين يديها.

وقال طاوس، والحسن، وغيرهما: «فاذكروا اسم الله عليها صوافى» يعنى: خالصة لله عز وجل. وكذا رواه مالك، عن الزهرى.

وقال عبد الرحمن بن زيد: «صوافىَ»: ليس فيها شرك كشرك الجاهلية لأصنامهم.

وقوله: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ قال: ابن أبى نَجِيح، عن مجاهد: يعنى: سقطت إلى الأرض. وهو رواية عن ابن عباس، وكذا قال مقاتل بن حيان.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يعنى: نحرت.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ يعنى: ماتت.

وهذا القول هو مُرَادُ ابن عباس ومجاهد، فإنه لا يجوز الأكل من البَدَنَة[١] إذا نُحرت حتى تموت وتَبْرد حركتها. وقد جاء فى حديث مرفوع: «ولا تُعجلُوا النفوسَ أن تَزْهَق»[٢]. وقد رواه الثورى فى جامعه، عن أيوب، عن يحيى ابن أبى كثير، عن فَرَافصَة الحنفى، عن عمر بن الخطاب؛ أنه قال ذلك[٣]. ويؤيده حديث شَدّاد بن أوس فى صحيح مسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شىء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح[٤]، ولْيُحدَّ أحدكم شَفْرَته، ولْيُرِحْ ذَبِيحته»[٥].

وعن أبى واقد الليثى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قُطع من البهيمة وهى حية، فهو ميتة».

رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى وصححه[٦].

وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ قال بعض السلف[٧]: قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أمر إباحة.

وقال مالك: يستحب ذلك. وقال غيره: يَجِبُ. وهو وَجْه لبعض الشافعية. واختلف فى المراد بالقانع والمعتر، فقال العوفى، عن ابن عباس: القانع: المستغنى بما أعطيته، وهو فى بيته. والمعترّ: الذى يتعرض لك، ويُلمّ بك أن تعطيَه من اللحم، ولا يسأل. وكذا قال مجاهد، ومحمد بن كعب القُرَظِىّ.

---

(١) فى ت: «البدن».

(٢) رواه الدارقطنى فى السنن (٤/ ٢٨٣) من طريق سعيد بن سلام العطار عن عبد الله بن بديل عن الزهرى عن سعيد عن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً وسعيد بن سلام العطار كذبه أحمد وابن نمير، وضعف البيهقى هذا الحديث فى السنن الكبرى (٩/ ٢٧٨).

(٣) ومن طريقه رواه البيهقى فى السنن الكبرى (٩/ ٢٧٨).

(٤) فى ت: «الذبحة».

(٥) صحيح مسلم برقم (١٩٥٥).

(٦) المسند (٥/ ٢١٨) وسنن أبى داود برقم (٢٨٥٨) وسنن الترمذى برقم (١٤٨٠).

(٧) فى أ: «الناس».

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: القانع: المتعفف. والمعتر: السائل. وهذا قولُ قتادة، وإبراهيم النَّخَعى، ومجاهد فى رواية عنه.

وقال ابن عباس، وزيد بن أسلم وعكْرِمَة[١]، والحسن البصرى، وابن الكلبى، ومُقَاتل بن حَيَّان، ومالك بن أنس: القانع: هو الذى يَقْنع إليك ويسألك. والمعتر: الذى يعتريك، يتضرع ولا يسألك. وهذا لفظ الحسن.

وقال سعيد بن جبير: القانع: هو السائل، ثم قال: أما سمعت قول الشَّمَّاخ.

لَمَالُ المَرْءِ يُصْلِحه فيُغْنى مَفَاقِرَه[٢]، أعَفُّ مِنَ القُنُوع[٣]

قال: يعنى من السؤال، وبه قال ابن زيد.

وقال زيد بن أسلم: القانع: المسكين الذى يطوف. والمعتر: الصديق والضعيف[٤] الذى يزور. وهو رواية عن عبد الله[٥] بن زيد أيضاً.

وعن مجاهد أيضا: القانع: جارك الغنى [الذى يبصر ما يدخل بيتك][٦]. والمعتر: الذى يعتريك[٧] من الناس.

وعنه: أن القانع: هو الطامع. والمعتر: هو الذى يَعْتَر بالبُدْن من غنى أو فقير.

وعن عكرمة نحوه، وعنه القانع: أهل مكة.

واختار ابنُ جرير أنّ القانع: هو السائل؛ لأنه من أقنع بيده إذا رفعها للسؤال، والمعتر من الاعترار، وهو: الذى يتعرض لأكل اللحم.

وقد احتج بهذه الآية الكريمة مَن ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تُجزأ ثلاثة أجزاء: فثلث لصاحبها يأكله [منها][٨]، وثلث يهديه لأصحابه، وثلث يتصدق به على الفقراء؛ لأنه تعالى قال: ﴿**فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ**﴾. وفى الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال للناس: «إنى كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحى فوق ثلاث، فكلوا وادخروا ما بدا لكم»[٩]. وفى رواية: «فكلوا وادخروا وتصدقوا». وفى رواية: «فكلوا وأطعموا وتصدقوا»[١٠].

والقول الثانى: أن المضحى يأكل النصف ويتصدق بالنصف، لقوله فى الآية المتقدمة: ﴿**فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ**﴾ [الحج: ٢٨]، ولقوله فى الحديث: «فكلوا وادخروا وتصدقوا».

فإن أكل الكل فقيل[١١]: لا يضمن شيئا. وبه قال ابن سُرَيج من الشافعية.

---

(١) فى ف، أ: «وعكرمة وزيد بن أسلم».
(٢) فى ت: «مفارقه».
(٣) البيت فى ديوانه (ص٢٢١) أ.هـ مستفاداً من حاشية الشعب.
(٤) فى ت: «والضيف».
(٥) فى أ: «عن أبيه عبد الرحمن».
(٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى أ: «يعتزل».
(٨) زيادة من ت، ف، أ.
(٩) صحيح مسلم برقم (٩٧٧) من حديث بريدة بن الحصيب رضى الله عنه.
(١٠) رواه مالك فى الموطأ (٢/ ٤٨٤) من حديث جابر رضى الله عنه.
(١١) فى ت، ف، أ: «فقد قيل».

وقال بعضهم: يضمنها كلها بمثلها أو قيمتها. وقيل: يضمن نصفها. وقيل: ثلثها. وقيل: أدنى جزء منها. وهو المشهور من مذهب الشافعى.

وأما الجلود، ففى مسند أحمد عن قتادة بن النعمان فى حديث الأضاحى: «فكلوا وتصدقوا، واستمتعوا بجلودها، ولا تبيعوها»(١) .

ومن العلماء من رخص [فى ذلك](٢) ، ومنهم من قال: يقاسم الفقراء ثمنها، والله أعلم .

[مسألة](٣) :

عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما نبدأ(٤) به فى يومنا هذا أن نصلى، ثم نرجع فننحر. فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو لحم [عجله](٥) لأهله، ليس هو من النسك فى شىء» أخرجاه(٦) .

فلهذا قال الشافعى وجماعة من العلماء: إن أول وقت الأضحى إذا طلعت الشمس يوم النحر، ومضى قدر صلاة العيد والخطبتين. زاد أحمد: وأن يذبح الإمام بعد ذلك، لما جاء فى صحيح مسلم: «وألا تذبحوا حتى يذبح الإمام»(٧) .

وقال أبو حنيفة: أما أهل السواد من القرى ونحوهم(٨)، فلهم أن يذبحوا بعد طلوع الفجر، إذ لا صلاة عيد(٩) عنده لهم. وأما أهل الأمصار فلا يذبحوا حتى يصلى الإمام، والله أعلم.

ثم قيل: لا يشرع الذبح إلا يوم النحر وحده. وقيل: يوم النحر لأهل الأمصار، لتيسر(١٠) الأضاحى عندهم، وأما أهل القرى فيوم النحر وأيام التشريق بعده، وبه قال سعيد بن جبير. وقيل: يوم النحر، ويوم بعده للجميع. وقيل: ويومان بعده، وبه قال أحمد. وقيل: يوم النحر وثلاثة أيام التشريق بعده، وبه قال الشافعى؛ لحديث جبير بن مطعم: أن رسول الله ﷺ قال: «وأيام التشريق كلها ذبح». رواه أحمد وابن حبان(١١) .

وقيل: إن وقت الذبح يمتد إلى آخر ذى الحجة، وبه قال إبراهيم النَّخَعِىّ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن. وهو قول غريب .

وقوله: ﴿**كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾: يقول تعالى: من أجل هذا ﴿**سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ**﴾ أى: ذللناها لكم، أى: جعلناها منقادة لكم خاضعة، إن شئتم ركبتم، وإن شئتم حلبتم ، وإن شئتم ذبحتم، كما قال تعالى: ﴿ **أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ**

---

(١) المسند (٤/ ١٥) .
(٢، ٣) زيادة من ف، أ.
(٤) فى ت: «يبدأ» .
(٥) زيادة من ت، ف، أ، والبخارى، وفى هـ: «يبديه».
(٦) صحيح البخارى برقم (٥٥٤٥) وصحيح مسلم برقم (١٩٦١) .
(٧) لم يقع لى فى مسلم هذا اللفظ وينظر صحيح مسلم (٣/ ١٥٥١) .
(٨) فى ف: «وغيرها» .
(٩) فى أ: «عيد تشرع».
(١٠) فى ف: «لتيسير» .
(١١) المسند (٤/ ٨٢) .

فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ . وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ـ٧٣]، وقال فى هذه الآية الكريمة: **﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** .

﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧)﴾ .

يقول تعالى: إنما شرع لكم نحر هذه الهدايا والضحايا، لتذكروه عند ذبحها، فإنه الخالق الرازق[(١)] لا أنه يناله شىء من لحومها ولا دمائها، فإنه تعالى هو الغنى عما سواه .

وقد كانوا فى جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابتهم، ونضحوا عليها من دمائها، فقال تعالى: **﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا﴾** .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن أبى حماد، حدثنا إبراهيم بن المختار، عن ابن جريج قال: كان أهل الجاهلية ينضحون البيت بلحوم الإبل ودمائها، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: فنحن أحق أن ننضح، فأنزل الله : **﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾** أى: يتقبل ذلك ويجزى عليه .

كما جاء فى الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم[(٢)]، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[(٣)] وما جاء فى الحديث: «إن الصدقة لتقع فى يد الرحمن قبل أن تقع فى يد السائل، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض» كما تقدم الحديث. رواه[(٤)] ابن ماجه، والترمذى وحَسّنه عن عائشة مرفوعا. فمعناه: أنه سيق لتحقيق القبول من الله لمن أخلص فى عمله، وليس له معنى يتبادر عند العلماء المحققين سوى هذا، والله أعلم .

وقال وَكيع، عن [يحيى][(٥)] بن مسلم أبى الضحاك: سألت عامرًا الشعبى عن جلود الأضاحى، فقال: **﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا﴾**، إن شئت فبع، وإن شئت فأمسك، وإن شئت فتصدق .

وقوله: **﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾** أى: من أجل ذلك سخر[(٦)] لكم البُدن، **﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾** أى: لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه وما يحبه، ، وما يرضاه، ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه .

وقوله: **﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾** أى: وبشر يا محمد المحسنين، أى: فى عملهم، القائمين بحدود الله، المتبعين ماشرَعَ لهم، المصدقين الرسولَ فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه عز وجل .

[مسألة][(٧)]:

وقد ذهب أبو حنيفة ومالك والثورى إلى القول[(٨)] بوجوب الأضحية على من ملك نصابا، وزاد

(١) فى ت، ف: «الرزاق» .
(٢) فى ت، ف: «ألوانكم» .
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٥٦٤) .
(٤) فى ت: «ورواه».
(٥) زيادة من ت.
(٦) فى ت، ف: «سخرناها» .
(٧) زيادة من ف .
(٨) فى ت: «بالقول» .

أبو حنيفة اشتراط الإقامة أيضًا. واحتج لهم بما رواه أحمد وابن ماجه بإسناد رجاله كلهم ثقات، عن أبى هريرة مرفوعا: «من وجد سَعَة فلم يُضَحِّ، فلا يقربن مُصَلانا»(١) على أن فيه غرابة، واستنكره أحمد بن حنبل(٢).

وقال ابن عمر: أقام رسول الله ﷺ عشر سنين يضحى. رواه الترمذى(٣).

وقال الشافعى، وأحمد: لاتجب الأضحية، بل هى مستحبة؛ لما جاء فى الحديث: «ليس فى المال حق سوى الزكاة»(٤). وقد تقدم أنه، عليه السلام(٥)، ضحى عن أمته فأسقط ذلك وجوبها عنهم.

وقال أبو سَرِيحَةَ: كنت جارًا لأبى بكر وعمر، فكانا لايضحيان خشية أن يقتدى الناس بهما.

وقال بعض الناس: الأضحية سنة كفاية، إذا قام بها واحد من أهل دار أو محلة، سقطت عن الباقين؛ لأن المقصود إظهار الشعار.

وقد روى الإمام أحمد، وأهل السنن ـ وحسنه الترمذى ـ عن مِخْنَف بن سليم؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول بعرفات: «على كل أهل بيت فى كل عام أضحاة وعَتِيرة، هل تدرون ما العتيرة؟ هى(٦) التى تدعونها الرَّجبية». وقد تكلم فى إسناده(٧).

وقال أبو أيوب: كان الرجل فى عهد رسول الله ﷺ يضحى بالشاة الواحدة عنه وعن أهل بيته، يأكلون ويطعمون [حتى تباهى](٨) الناس فصار كما ترى.

رواه الترمذى وصححه، وابن ماجه(٩).

وكان عبد الله بن هشام يضحى بالشاة الواحدة عن جميع أهله. رواه البخارى.

وأما مقدار سِنّ الأضحية، فقد روى مسلم عن جابر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تذبحوا إلا مُسِنَّة، إلا أن يعسر عليكم، فتذبحوا جذعة من الضأن»(١٠).

---

(١) المسند (٢/ ٣٢١) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٢٣).

(٢) فى إسناده عبد الله بن عياش، قال البوصيرى فى الزوائد (٣/ ٥٠): «وإن روى له مسلم فإنما روى له فى المتابعات والشواهد فقد ضعفه أبو داود والنسائى، وقال أبو حاتم، وابن يونس: منكر الحديث وذكره ابن حبان فى الثقات».
ثم نقل عن البيهقى أنه بلغه عن الترمذى: أن الصحيح عن أبى هريرة موقوف ا. هـ.
ويمكن أن يجاب بأن هذا الحديث لا يدل على الوجوب، كما فى حديث: «من أكل الثوم فلا يقربن مصلانا» ذكر ذلك ابن الجوزى وهناك لايلزم استنكاره.

(٣) سنن الترمذى برقم (١٥٠٧) وحسنه.

(٤) رواه ابن ماجه فى السنن برقم (١٧٨٩) من حديث فاطمة بنت قيس رضى الله عنها.

(٥) فى أ: «ﷺ». (٦) فى ف، أ: «قال: هى».

(٧) المسند (٤/ ١٢٥) وسنن أبى داود برقم (٢٧٨٨) وسنن الترمذى برقم (١٥١٨) وسنن النسائى (٧/ ١٦٧) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٢٥).

(٨) زيادة من ت، ف.

(٩) سنن الترمذى برقم (١٥٠٥) وسنن ابن ماجه برقم (٣١٤٧).

(١٠) صحيح مسلم برقم (١٩٦٣).

ومن هاهنا ذهب الزهرى إلى أن الجذَعَ لايجزئ. وقابله الأوزاعى فذهب إلى أن الجذَعَ يجزئ من كل جنس، وهما غريبان. وقال الجمهور: إنما يجزئ الثَّنى من الإبل والبقر والمعز، والجذع من الضأن، فأما الثنى من الإبل: فهو الذى له خمس سنين، ودخل فى السادسة. ومن البقر: ما له [سنتان][1] ودخل فى [الثالثة][2]، وقيل: [ما له][3] ثلاث [ودخل فى][4] الرابعة. ومن المعز: ما له سنتان. وأما الجذع من الضأن فقيل: ما له سنة، وقيل: عشرة أشهر، وقيل: ثمانية أشهر، وقيل: ستة أشهر، وهو أقل ما قيل فى سنِّه، وما دونه فهو حَمَل، والفرق بينهما: أن الحمل شعر ظهره قائم، والجذَع شعر ظهره نائم، قد انعدل صدْعين، والله أعلم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨) ﴾.

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه وأنابوا إليه شر الأشرار وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم، كما قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر: ٣٦] وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ أى: لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة فى العهود والمواثيق، لا يفى بما قال. والكفر[5]: الجحد للنعم، فلا يعترف بها.

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾.

قال العَوفى، عن ابن عباس: نزلت فى محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة.

وقال غير واحد من السلف[6]: هذه أول آية نزلت فى الجهاد، واستدل بهذه الآية بعضهم على أن السورة مدنية، وقاله مجاهد، والضحاك، وقتادة، وغير واحد.

وقال ابن جرير: حدثنى يحيى بن داود الواسطى: حدثنا إسحاق بن يوسف، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم ـ هو البَطِين ـ عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس قال: لما أخرج[7] النبى ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم. إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكُن. قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾، قال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: فعرفت أنه سيكون قتال.

(١ـ ٤) زيادة من ف.
(٥) فى ت: «والكفور».
(٦) فى ف، أ: «وقال مجاهد والضحاك وقتادة».
(٧) فى ت، ف: «خرج».

ورواه الإمام أحمد، عن إسحاق بن يوسف الأزرق، به[١] وزاد: قال ابن عباس: وهى أول آية نزلت فى القتال.

ورواه الترمذى، والنسائى فى التفسير من سننيهما، وابن أبى حاتم[٢] من حديث إسحاق بن يوسف ـ زاد الترمذى: ووكيع، كلاهما عن سفيان الثورى، به. وقال الترمذى: حديث حسن، وقد رواه غير واحد، عن الثورى، وليس فيه ابن عباس[٣].

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أى: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبلوا[٤] جهدهم فى طاعته، كما قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ . وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٤ ـ ٦]، وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ[٥] وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦]، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ [اللَّهُ][٦] الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

والآيات فى هذا كثيرة؛ ولهذا قال ابن عباس فى قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾: وقد فعَل.

وإنما شرع [الله][٧] تعالى الجهادَ فى الوقت الأليق به؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عدداً، فلو أمرَ المسلمين، وهم أقل من العشر، بقتال الباقين[٨] لشَقَّ عليهم؛ ولهذا لما بايع أهلُ يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ، وكانوا نيفا وثمانين، قالوا: يا رسول الله، ألا نميل على أهل الوادى ـ يعنون أهل مِنَى ـ ليالى مِنى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنى لم أومر بهذا». فلما بَغَى المشركون، وأخرجوا النبى ﷺ من بين أظهرهم، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه شَذَرَ مَذَر، فذهب[٩] منهم طائفة إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة. فلما استقروا بالمدينة، ووافاهم رسولُ الله ﷺ، واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام ومَعْقلا يلجؤون إليه ـ شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل فى ذلك، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ

---

(١) تفسير الطبرى (١٧/ ١٢٣) والمسند (١/ ٢١٦).

(٢) فى ت: «ماجه».

(٣) سنن الترمذى برقم (٣١٧١) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٤٥).

(٤) فى ت، أ: «يبذلوا». (٥) فى ت: «بأيديهم». (٦) زيادة من ت، ف، أ.

(٧) زيادة من ف. (٨) فى ت: «المنافقين». (٩) فى ف: «فذهبت».

لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ﴾.

قال العَوْفى، عن ابن عباس: أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق، يعنى: محمداً وأصحابه.

﴿ **إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ**﴾ أى: ما كان لهم إلى قومهم إساءة، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم عبدوا الله[١] وحده لا شريك له. وهذا استثناء منقطع بالنسبة إلى ما فى نفس الأمر، وأما عند المشركين فهو أكبر الذنوب، كما قال تعالى: ﴿ **يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ**﴾ [الممتحنة: ١]، وقال تعالى فى قصة أصحاب الأخدود: ﴿**وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾ [البروج: ٨]. ولهذا لما كان المسلمون يرتجزون فى بناء الخندق، ويقولون:

لاَهُمّ[٢] لَولاَ أنتَ ما اهتَدَينا ... ولاَ تَصَــــدّقْنَا ولاَ صَلَّينَا

فَأنزِلَـــنْ سَـكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّت الأقْــدَامَ إنْ لاَقَينَا

إنّ الألَـــى قد بَغَوا عَلَينَا ... إذَا أرادوا فتْنَـةً أبَيْنَــا[٣]

فيوافقهم رسول الله ﷺ، ويقول معهم آخر كل قافية، فإذا قالوا: «إذا أرادوا فتنة أبينا»، يقول: «أبينا»، يمد بها صوته.

ثم قال تعالى: ﴿**وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ**﴾ أى: لولا أنه يدفع عن قوم بقوم، ويكشفُ شرّ أناس عن غيرهم، بما يخلقه ويقدره من الأسباب، لفسدت الأرض، وأهلك القوى الضعيف.

﴿**لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ**﴾: وهى المعابد الصغار للرهبان، قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو العالية، وعِكْرِمة، والضحاك، وغيرهم.

وقال قتادة: هى معابد الصابئين. وفى رواية عنه: صوامع المجوس.

وقال مقاتل بن حيَّان: هى البيوت التى على الطرق.

﴿**وَبِيَعٌ**﴾: وهى أوسع منها، وأكثر عابدين فيها. وهى للنصارى أيضاً. قاله أبو العالية، وقتادة، والضحاك، وابن[٤] صخر، ومقاتل بن حيان، وخُصَيف، وغيرهم.

وحكى ابن جبير عن مجاهد وغيره: أنها كنائس اليهود. وحكى السدى، عمن حدّثه، عن ابن عباس: أنها كنائس اليهود، ومجاهد إنما قال: هى الكنائس، والله أعلم.

وقوله: ﴿**وَصَلَوَاتٌ**﴾: قال العوفى، عن ابن عباس: الصلوات: الكنائس. وكذا قال عكرمة، والضحاك، وقتادة: إنها كنائس اليهود. وهم يسمونها صَلُوتا.

وحكى السدى، عمن حدثه، عن ابن عباس: أنها كنائس النصارى.

---

(١) فى ف، أ: «وحد الله». (٢) فى أ: «والله».

(٣) الأبيات لعامر بن الأكوع كما فى صحيح مسلم برقم (١٨٠٣).

(٤) فى أ: «أبو».

وقال أبو العالية، وغيره: الصلوات: معابد الصابئين.

وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد: الصلوات: مساجد لأهل الكتاب ولأهل الإسلام بالطرق. وأما المساجد فهى للمسلمين.

وقوله: ﴿ **يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً** ﴾: فقد قيل: الضمير فى قوله: ﴿**يُذْكَرُ فِيهَا**﴾ عائد إلى المساجد؛ لأنها أقرب المذكورات.

وقال الضحاك: الجميع يذكر فيها اسم الله كثيرا.

وقال ابن جرير: الصوابُ: لهدمت صوامع الرهبان وبيعُ النصارى وصلوات اليهود، وهى كنائسهم، ومساجد المسلمين التى يذكر فيها اسم الله كثيرا؛ لأن هذا هو المستعمل المعروف فى كلام العرب.

وقال بعض العلماء: هذا تَرَقٍّ من الأقل إلى الأكثر إلى أن ينتهى إلى المساجد، وهى أكثر عُمَّارا وأكثر عبادا، وهم ذوو القصد الصحيح.

وقوله: ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ**﴾، كقوله[١] تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ**﴾ [محمد: ٧، ٨].

وقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ وَصَفَ نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شىء فقدره تقديرا، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شىء ذليل لديه، فقير إليه. ومن كان القوىّ العزيز ناصرَه فهو المنصور، وعدوه هو المقهور، قال الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ . وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ**﴾ [الصافات ١٧١ ـ ١٧٣] وقال [الله][٢] تعالى: ﴿**كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١) ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو الربيع الزَّهْرَانى، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب وهشام، عن محمد قال: قال عثمان بن عفان: فينا نزلت: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ**﴾، فأخرجنا من ديارنا بغير حق، إلا أن قلنا: «ربنا الله»، ثم مُكنّا فى الأرض، فأقمنا الصلاة، وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور، فهى لى ولأصحابى.

---

(١) فى ت: «لقوله».

(٢) زيادة من ت.

وقال أبو العالية: هم أصحاب محمد ﷺ.

وقال الصباح بن سوادة الكندىّ: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ الآية، ثم قال: إلا أنها ليست على الوالى وحده، ولكنها على الوالى والمولى عليه، ألا أنبئكم بما لكم على الوالى من ذلكم، وبما للوالى عليكم منه؟ إن لكم على الوالى من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتى هى أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة ولا المستكرهة، ولا المخالف سرها علانيتها.

وقال عطية العوفى: هذه الآية كقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ [كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ](1)﴾ [النور: ٥٥].

وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾، كقوله تعالى ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وقال زيد بن أسلم: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾: وعند الله ثواب ما صنعوا.

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾.

يقول تعالى مسليا نبيَّه محمدا ﷺ فى تكذيب من خالفه من قومه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى أن قال(2): ﴿ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾، أى: مع ما جاء به من الآيات البينات والدلائل الواضحات.

﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أى: أنظرتهم وأخرتهم، ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أى: فكيف كان إنكارى عليهم، ومعاقبتى لهم؟!

ذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وبين إهلاك الله له أربعون سنة.

وفى الصحيحين عن أبى موسى، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [١٠٢](3).

(١) زيادة من أ. (٢) فى ف، أ: «وعاد وثمود. وقوم إبراهيم وقوم لوط. وأصحاب مدين».
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣).

ثم قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن (١)مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أى: كم من قرية أهلكتها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾](٢) أى: مكذبة لرسولها، ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ قال الضحاك: سقوفها، أى: قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها.

﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ أى: لا يستقى منها، ولا يَرِدُها أحد بعد كثرة وارديها والازدحام عليها.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾: قال عكرمة: يعنى المُبَيّض بالجص.

وروى عن على بن أبى طالب، ومجاهد، وعطاء، وسعيد بن جبير، وأبى المَلِيح، والضحاك، نحو ذلك.

وقال آخرون: هو المُنيف المرتفع.

وقال آخرون: الشديد المنيع الحصين.

وكل هذه الأقوال متقاربة، ولا منافاة بينها، فإنه لم يَحْمِ أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه، ولا إحكامه ولا حصانته، عن حلول بأس الله بهم، كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أى: بأبدانهم وبفكرهم أيضا، وذلك كاف، كما قال ابن أبى الدنيا فى كتاب «التفكر والاعتبار»:

حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا سَيَّار، حدثنا(٣) جعفر، حدثنا مالك بن دينار قال: أوحى الله تعالى إلى موسى، عليه السلام، أن يا موسى، اتخذ نعلين من حديد وعصا، ثم سِحْ فى الأرض، واطلب الآثار والعبر، حتى تتخرق النعلان(٤) وتكسر العصا.

وقال ابن أبى الدنيا: قال بعض الحكماء: أحْيِ قلبك بالمواعظ، ونَوِّره بالفكْر، ومَوِّته بالزهد، وقَوِّه باليقين، وذَلِّلْهُ بالموت(٥)، وقرِّره بالفناء(٦)، وبَصِّره فجائع(٧) الدنيا، وحَذِّره صولة(٨) الدهر وفحشُ تَقَلُّب الأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره ما أصاب(٩) من كان قبله، وسِرْ فى ديارهم وآثارهم، وانظر ما فعلوا، وأين حَلُّوا، وعَمَّ انقلبوا.

أى: فانظروا(١٠) ما حل بالأمم المكذبة من النقم والنكال، ﴿فَتَكُونَ(١١) لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أى: فيعتبرون بها، ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أى: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدرى ما الخبر. وما أحسن ما قاله بعض الشعراء فى هذا المعنى ـ وهو أبو محمد عبد الله ابن محمد بن سارة(١٢) الأندلسى الشَّنْتَرِينى، وقد كانت وفاته سنة سبع عشرة وخمسمائة:

(١) فى ت، ف: «وكأين». (٢) زيادة من ف، أ. (٣) فى ت، ف: «ابن».
(٤) فى ت، ف: «تخرق النعال». (٥) فى ت، ف: «بالقرب». (٦) فى ت، ف: «وتدبره بالثناء».
(٧) فى ت، ف، أ: «بمجامع». (٨) فى ف: «بصولة». (٩) فى ت، أ: «وذكره بأم كتاب».
(١٠) فى ت، ف: «فينظروا». (١١) فى ت: «فيكون». (١٢) فى ت، ف، أ: «ابن حبان».

يا مَن يُصيخَ إلى دَاعى الشقَاء، وقَد نَادَى به الناعيَان: الشيبُ والكبَرُ
إن كُنتَ لا تَسْمَع الذكْرَى، ففيم تُرَى فى رَأسك الوَاعيان: السمعُ والبَصَرُ؟
ليسَ الأصمّ ولا الأعمَى سوَى رَجُل لم يَهْده الهَاديان: العَينُ والأثَرُ
لاَ الدّهرُ يَبْقَى وَلاَ الدنيا، وَلاَ الفَلَك الـ ـأعلى وَلا النّيّران: الشّمْسُ وَالقمَرُ
لَيَرْحَلَنّ عَن الدنيا، وَإن كَرِها[(١)] فرَاقها، الثاويان: البَدْو والحَضَرُ

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾.

يقول تعالى لنبيه، صلوات الله وسلامه عليه[(٢)]. ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أى: هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون[(٣)] بالله وكتابه ورسوله واليوم الآخر، كما قال [الله][(٤)] تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦].

وقوله: ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أى: الذى قد وَعَد، من إقامة الساعة والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه.

قال الأصمعى: كنت عند أبى عمرو بن العلاء، فجاء عمرو بن عبيد، فقال: يا أبا عمرو، وهل يخلف الله الميعاد؟ فقال: لا. فذكر آية وعيد، فقال له: أمن[(٥)] العجم أنت؟ إن العرب تَعدُّ الرجوع عن الوعد لؤما، وعن الإيعاد كرما، أو مَا سمعتَ قول الشاعر[(٦)]:

لا يُرْهِبُ ابنَ العم منى[(٧)] سَطْوَتى ولا أختَتِى[(٨)] من سَطْوة المُتَهَدّد
فإنّى وَإن أوْعَدتُه أوْ وَعَدتُه لَمُخْلفُ إيعَادى ومُنْجزُ مَوْعدى

وقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أى: هو تعالى لا يَعجَل، فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء، وإن أجّلَ وأنظَر وأملى؛ ولهذا قال بعد هذا: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا الحسن بن عَرَفَة، حدثنى عبدة بن سليمان، عن محمد بن عمرو، عن

(١) فى ت، ف، أ: «كرهن». (٢) فى ف، أ: «عليه وسلامه». (٣) فى ت، ف: «الملحدين المكذبين».
(٤) زيادة من ف. (٥) فى ت، ف، أ: «من». (٦) هو عامر بن الطفيل والبيت فى اللسان مادة (ختأ)، (وعد).
(٧) فى ت، ف، أ: «والجار». (٨) فى ت، ف، أ: «ينثنى».

أبي سلمة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمسمائة عام».

ورواه الترمذي والنسائي، من حديث الثوري، عن محمد بن عمرو، به[١]. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقد رواه ابن جرير، عن أبي هريرة موقوفا[٢]، فقال:

حدثني يعقوب، حدثنا ابن عُلَيَّة، حدثنا سعيد الجُرَيري، عن أبي نَضْرَة، عن سُمَيْر بن نهار قال: قال أبو هريرة: يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم. قلت: وما نصف يوم؟ قال: أوَ ما تقرأ القرآن؟. قلت: بلى. قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[٣].

وقال أبو داود في آخر كتاب الملاحم من سننه: حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، عن شُرَيح بن[٤] عُبَيد، عن سعد بن أبي وَقاص، عن النبي ﷺ أنه قال: «إني لأرجو ألا تَعْجِزَ أمتي عند ربها، أن يؤخرهم نصف يوم». قيل لسعد: وما نصف يوم؟ قال: خمسمائة سنة[٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنَان[٦]، حدثنا عبد الرحمن بن مَهْديّ، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قال: من الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض.

رواه ابن جرير، عن ابن بَشّار[٧]، عن ابن مهدي[٨]. وبه قال مجاهد، وعكرمة، ونص عليه أحمد بن حنبل في كتاب «الردّ على الجهمية».

وقال مجاهد: هذه الآية كقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عارم ـ محمد بن الفضل ـ حدثنا حماد بن زيد، عن يحيى بن عَتيق، عن محمد بن سيرين، عن رجل من أهل الكتاب أسلمَ قال: إن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، وجعل أجل الدنيا ستة أيام، وجعل الساعة في اليوم السابع، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، فقد مضت الستة الأيام، وأنتم في اليوم السابع. فمثل ذلك كمثل الحامل إذا دخلت شهرها، في أية لحظة ولدت كان تماما.

---

(١) سنن الترمذي برقم (٢٣٥٤) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٣٤٨) أي أن النصف يوم خمسمائة عام.

(٢) في ت: «مرفوعاً».

(٣) تفسير الطبري (١٧/ ١٢٩).

(٤) في ت: «عن».

(٥) سنن أبي داود برقم (٤٣٥٠).

(٦) في ف، أ: «شيبان».

(٧) في ت: «يسار».

(٨) تفسير الطبري (١٧/ ١٢٩).

﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١) ﴾.

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وُقُوعَ العذاب، واستعجلوه به: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إنما أرسلنى الله إليكم نذيراً لكم بين يدى عذاب شديد، وليس إلى من حسابكم من شيء، أمركم إلى الله، إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار، [و][1] ﴿لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١] و﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ . فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أى: آمنت قلوبهم وصدقوا إيمانهم بأعمالهم، ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أى: مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حَسَنَةٌ على القليل من حسناتهم.

[و][2] قال محمد بن كعب القُرَظِىّ: إذا سمعتَ الله تعالى يقول: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فهو الجنة.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾: قال مجاهد: يُثَبِّطون الناس عن متابعة النبى ﷺ. وكذا قال عبد الله بن الزبير: مثبطين.

وقال ابن عباس: ﴿مُعَاجِزِينَ﴾: مراغمين.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾: وهى النار الحارة الموجعة الشديد عذابها ونكالها، أجارنا الله منها. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٤) ﴾.

قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا قصة الغَرَانيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة، ظَنًا منهم أن مشركى قريش قد أسلموا. ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، والله أعلم.

(١) زيادة من ف.
(٢) زيادة من ت.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة، عن أبى بشْر، عن سعيد بن جُبَيْر، قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة «النجم» فلما بلغ هذا الموضع: **﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ﴾** قال: فألقى الشيطان على لسانه: «تلك الغَرَانيق العلى. وإن شفاعتهن[١] ترتجى». قالوا: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم. فسجَدَ وسجدوا، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ [فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ][٢]﴾**.

رواه ابن جرير، عن بُنْدَار، عن غُنْدَر، عن شعبة، به نحوه[٣]، وهو مرسل، وقد رواه البزار فى مسنده، عن يوسف بن حماد، عن أمية بن خالد، عن شعبة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ فيما أحسب، الشك فى الحديث ـ أن النبى ﷺ قرأ بمكة سورة «النجم»، حتى انتهى إلى: **﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ﴾**، وذكر بقيته. ثم قال البزار: لا [٤] يروى متصلاً إلا بهذا الإسناد، تفرد بوصله أمية بن خالد، وهو ثقة مشهور. وإنما يُروى هذا من طريق الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس[٥].

ثم رواه ابن أبى حاتم، عن أبى العالية، وعن السدى، مرسلا. وكذا رواه ابن جرير، عن محمد ابن كعب القرظى، ومحمد بن قيس، مرسلا أيضا[٦].

وقال قتادة: كان النبى ﷺ [يصلى] [٧] عند المقام إذ نَعَس، فألقى الشيطان على لسانه «وإن شفاعتها لترتجى. وإنها لمع الغرانيق العلى»، فحفظها المشركون. وأجرى الشيطان أن نبى الله قد قرأها، فزلَّت بها ألسنتهم، فأنزل الله: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ [وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ][٨]﴾** الآية، فَدَحَرَ الله الشيطان.

ثم قال ابن أبى حاتم: حدثنا موسى بن أبى موسى الكوفى، حدثنا محمد بن إسحاق المُسَيَّبى، حدثنا محمد بن فُلَيْح، عن موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب قال: أنزلت سورة النجم، وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذى يذكر آلهتنا من الشتم والشر. وكان رسول الله ﷺ قد اشتد عليه ما ناله وأصحابه من أذاهم وتكذيبهم، وأحزنه ضلالهم، فكان[٩] يتمنى هُداهم، فلما أنزل الله سورة

---

(١) فى ت، ف: «شفاعتهم».　　(٢) زيادة من ف، أ وفى ت: «الآية».
(٣) تفسير الطبرى (١٧/ ١٣٣).
(٤) فى ف، أ: «لانعلمه».
(٥) مسند البزار برقم (٢٢٦٣) «كشف الأستار».
(٦) تفسير الطبرى (١٧/ ١٣١).
(٧) زيادة من أ.　　(٨) زيادة من ف، أ.
(٩) فى ف: «وكان».

«النجم قال: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّىٰ . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَىٰ . أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ﴾، ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت، فقال: «وإنهن لهن الغرانيق العلى. وإن شفاعتهن لهى التى ترتجى[(١)]». وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان فى قلب كل مشرك بمكة، وزلت بها ألسنتهم، وتباشروا بها، وقالوا: إن محمدا، قد رجع إلى دينه الأول، ودين قومه. فلما بلغ رسول الله ﷺ [آخر النجم][(٢)]، سجد وسجد كل من حضره من مسلم أو مشرك. غير أن الوليد ابن المغيرة كان رجلا كبيرا، فرفع على [(٣)] كفه ترابا، فسجد عليه. فعجب الفريقان كلاهما [(٤)] من جماعتهم فى السجود، لسجود رسول الله ﷺ، فأما المسلمون فعجبوا لسجود المشركين معهم على غير إيمان ولا يقين ـ ولم يكن المسلمون سمعوا الآية التى [(٥)] ألقى الشيطان فى مسامع المشركين ـ فأطمأنت أنفسهم لما ألقى الشيطانُ فى أمنية رسول الله ﷺ، وحدثهم به الشيطان أن رسول الله ﷺ قد قرأها فى السورة، فسجدوا لتعظيم آلهتهم. ففشت تلك الكلمة فى الناس، وأظهرها الشيطان، حتى بلغت أرض الحبشة ومن بها من المسلمين، عثمان بن مظعون وأصحابه، وتحدثوا أن أهل مكة قد أسلموا كلهم، وصلوا مع رسول الله ﷺ، وبلغهم سجود الوليد بن المغيرة على التراب على كفه، وحُدِّثوا أن المسلمين قد أمنوا بمكة فأقبلوا سراعا وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته، وحفظه[(٦)] من الفرية، وقال [تعالى][(٧)]: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾، فلما بين الله قضاءه، وبرأه من سجع الشيطان، انقلب المشركون بضلالهم [(٨)] وعداوتهم المسلمين، واشتدوا عليهم. وهذا أيضاً مرسل.

وفى تفسير ابن جرير عن الزهرى، عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، نحوه[(٩)]. وقد رواه الإمام [(١٠)] أبو بكر البيهقى فى كتابه «دلائل النبوة» فلم يَجُزْ به موسى بن عقبة، ساقه فى مغازيه بنحوه، قال: وقد روينا عن ابن إسحاق هذه القصة.

قلت: وقد ذكرها محمد بن إسحاق فى السيرة بنحو من هذا، وكلها مرسلات ومنقطعات، فالله أعلم. وقد ساقها البغوى فى تفسيره مجموعة من كلام ابن عباس، ومحمد بن كعب القُرَظِىّ، وغيرهما بنحو من ذلك، ثم سأل هاهنا سؤالا: كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله لرسوله، صلوات الله وسلامه عليه؟ ثم حكى أجوبة عن الناس، من ألطفها: أن الشيطان أوقع فى مسامع المشركين ذلك، فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ، وليس كذلك فى نفس الأمر، بل إنما

---

(١) فى أ: «ترجى».
(٢) زيادة من ف، أ.
(٣) فى ت، أ: «ملء».
(٤) فى ت: «الفريقان منهما كلاهما».
(٥) فى أ: «الذى».
(٦) فى ت، أ: «وحفظه الله».
(٧) زيادة من ف، أ.
(٨) فى ف: «بضلالتهم».
(٩) تفسير الطبرى (١٧/ ١٣٣).
(١٠) فى أ: «الحافظ».

كان من صنيع الشيطان لا من رسول الرحمن ﷺ، والله أعلم[١].

وهكذا تنوعت أجوبة المتكلمين عن هذا بتقدير صحته. وقد تعرض القاضى عياض، رحمه الله، فى كتاب «الشفاء» لهذا، وأجاب بما حاصله[٢].

---

(١) معالم التنزيل للبغوى (٥/ ٣٩٤).

(٢) كذا فى جميع النسخ وكلام القاضى عياض فى الشفاء (٢/ ١٠٧) أذكره مختصراً له، قال رحمه الله:

«فاعلم، أكرمك الله أن لنا فى الكلام على مشكل هذا الحديث مأخذين: أحدهما: فى توهين أصله. والثانى: على تسليمه.

أما المأخذ الأول: فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل.. وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم.

وصدق القاضى بكر بن العلاء المالكى حيث قال: لقد بلى الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته، فقائل يقول: إنه فى الصلاة، وآخر يقول: قالها فى نادى قومه حين أنزلت عليه السورة، وآخر يقول: قالها وقد أصابته سنة، وآخر يقول: بل حدث نفسه فسها، وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه وإن النبى ﷺ لما عرضها على جبريل قال: ماهكذا أقرأتك، وآخر يقول: بل أعلمهم الشيطان أن النبى ﷺ قرأها فلما بلغ النبى ﷺ ذلك قال: «والله ما هكذا أنزلت».

إلى غير ذلك من اختلاف الرواة.

ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة وأهية.

والمرفوع فيه حديث شعبة عن أبى بشرٍ، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: فيما أحسب ـ الشك فى الحديث أن النبى ﷺ كان بمكة وذكر القصة.

قال أبو بكر البزار: هذا لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ بإسناد متصل يجوز ذكره إلا هذا، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد، وغيره يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يعرف عن الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس.

فقد بين لك أبو بكر، رحمه الله، أنه لا يعرف من طريق يجوز ذكره سوى هذا، وفيه من الضعف ما نبه عليه مع وقوع الشك فيه كما ذكرناه الذى لا يوثق به ولا حقيقة معه.

أما حديث الكلبى فمما لا تجوز الرواية عنه ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه، كما أشار إليه البزار، رحمه الله.

والذى منه فى الصحيح: أن النبى ﷺ قرأ «والنجم» وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس هذا توهينه من طريق النقل.

أما من جهة المعنى، فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ، ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله وهو كفر أو يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ويعتقد النبى ﷺ أن من القرآن ما ليس منه حتى ينبهه جبريل، عليه السلام، وذلك كله ممتنع فى حقه ﷺ.

أو يقول ذلك النبى ﷺ من قبل نفسه عمدا وذلك كفر، أو سهواً وهو معصوم من هذا كله.

ووجه ثان: هو استحالة هذه القصة نظراً وعرفاً. وذلك أن هذا الكلام لو كان كما روى لكان بعيد الالتئام، متناقض الأقسام، ممتزج المدح بالذم، متخاذل التأليف والنظم، ولما كان النبى ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك. وهذا لا يخفى على أدنى متأمل فكيف بمن رجح حلمه، واتسع فى باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه!!

ووجه ثالث: أنه قد علم من عادة المنافقين، ومعاندى المشركين، وضعفة القلوب، والجهلة من المسلمين، نفورهم لأول وهلة، وتخليط العدو على النبى ﷺ لأقل فتنة، وتعيرهم المسلمين والشماتة بهم الفينة بعد الفينة وارتداد من فى قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة...

ولم يحك أحد فى هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة.

ووجه رابع: ذكر الرواة لهذه القضية أن فيها نزلت **﴿وإن كادوا ليفتنونك..﴾** الآيتين.

وهاتان الآيتان تردان الخبر الذى رووه؛ لأن الله تعالى ذكر أنهم كادوا يفتنونه حتى يفترى، وأنه لولا أن ثبته لكاد يركن إليهم.

فمضمون هذا ومفهومه: أن الله تعالى عصمه من أن يفترى، وثبته حتى لم يركن إليهم قليلاً فكيف كثيرا وهم يروون فى أخبارهم الواهية أنه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم وأنه قال ﷺ: افتريت على الله وقلت ما لم يقل وهذا ضد مفهوم الآية وهى تضعف الحديث لو صح، فكيف ولا صحة له، وهذا مثل قوله تعالى فى الآية الأخرى: **﴿ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت=**

وقوله: ﴿إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِه﴾، هذا فيه تسلية له، صلوات الله وسلامه عليه(١)، أى: لا يَهيدنّك ذلك، فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء.

قال البخارى: قال ابن عباس: ﴿فِي أُمْنِيَّته﴾ إذا حَدّث ألقى الشيطان فى حديثه، فيبطل الله ما يلقى الشيطان ويحكم الله آياته.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰ [أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِه﴾، يقول: إذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه.

وقال مجاهد: ﴿إِذَا تَمَنَّى](٢)﴾، يعنى: إذا قال.

ويقال: ﴿أُمْنِيَّته﴾: قراءته، ﴿إِلا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، يقولون ولا يكتبون.

قال البغوى: وأكثر المفسرين قالوا: معنى قوله: ﴿تَمَنَّىٰ﴾ أى: تلا وقرأ كتاب الله، ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِه﴾ أى: فى تلاوته، قال الشاعر فى عثمان حين قتل:

تَمَنّى كتَابَ الله أوّل لَيْلة ... وآخرَها لاقَى حمَامَ المَقَادرِ(٣)

وقال الضحاك: ﴿إِذَا تَمَنَّى﴾: إذا تلا.

قال ابن جرير: هذا القول أشبه بتأويل الكلام.

وقوله: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾، حقيقة النسخ لغة: الإزالة والرفع.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: أى فيبطل الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما ألقى الشيطان.

وقال الضحاك: نسخ جبريل بأمر الله ما ألقى الشيطان، وأحكم الله آياته.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيم(٤)﴾، [أى: بما يكون من الأمور والحوادث، لا تخفى عليه خافية](٥)، ﴿حَكِيمٌ﴾ أى: فى تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة والحجة البالغة؛ ولهذا قال: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أى: شك وشرك وكفر ونفاق، كالمشركين حين فرحوا بذلك، واعتقدوا أنه صحيح، وإنما كان من الشيطان.

= طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء﴾.

وأما المأخذ الثانى: فهو مبنى على تسليم الحديث لو صح. وقد أعاذنا الله من صحته، ولكن على كل حال فقد أجاب عن ذلك أئمة المسلمين بأجوبة منها الغث والسمين.

ثم ذكر الأجوبة على ذلك (٢/١١١ـ١١٤) وممن أنكرها الإمام ابن خزيمة وقال: «هذا من وضع الزنادقة» وهذا هو الصواب.

للاستزادة: انظر: الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير ص ـ ٣١٤ لمحمد أبى شهبة، ونصب المجانيق لأبطال قصة الغرانيق لمحد ناصر الدين الألبانى.

(١) فى ف، أ: «عليه وسلامه». (٢) زيادة من ف، أ.

(٣) البيت فى اللسان، مادة (منى) غير منسوب.

(٤) فى ف،أ: «عليم حكيم». (٥) زيادة من ت.

قال ابن جريج: ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾هم: المنافقون ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾: المشركون.

وقال مقاتل بن حيان: هم [الكافرون] (١) اليهود.

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أى: فى ضلال ومخالفة وعناد بعيد، أى: من الحق والصواب.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أى: وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذى يفرقون به بين الحق والباطل، المؤمنون بالله ورسوله، أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك، الذى أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب حكيم، ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أى: يصدقوه وينقادوا له، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أى: تخضع وتذل، ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾أى: فى الدنيا والآخرة، أما فى الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفى الآخرة يهديهم [إلى] (٢) الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات.

﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ (٥٥) الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (٥٧) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن الكفار: أنهم لا يزالون فى مرية، أى: فى شك وريب من هذا القرآن، قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير.

وقال سعيد بن جبير، وابن زيد: ﴿مِّنْهُ﴾ أى: مما ألقى الشيطان.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾: قال مجاهد: فجأة. وقال قتادة: ﴿بَغْتَةً﴾، بغت [القوم] (٣) أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله(٤) إلا القوم الفاسقون.

وقوله: ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾: قال مجاهد: قال أبى بن كعب: هو يوم بدر، وكذا قال عكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة وغير واحد. واختاره ابن جرير.

وقال عكرمة، ومجاهد [فى رواية عنهما](٥):هو يوم القيامة لا ليلة له. وكذا قال الضحاك، والحسن البصرى .

وهذا القول هو الصحيح، وإن كان يوم بدر من حملة ما أوعدوا به، لكن هذا هو المراد؛ ولهذا

---

(١) زيادة من ت. (٢) زيادة من أ. (٣) فى ت: «اليوم» والمثبت من ف، أ.

(٤) فى أ: «فلا يغتر به». (٥) زيادة من ت، ف، أ.

قال: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، كقوله ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، وقوله: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾أى: آمنت قلوبهم، وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم(١).

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾، أى: لهم النعيم المقيم، الذى لا يحول ولا يزول ولا يبيد.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أى: كفرت قلوبهم بالحق، وجحدوا به(٢) وكذبوا به، وخالفوا الرسل، واستكبروا عن اتباعهم ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أى: مقابلة استكبارهم وإعراضهم (٣) عن الحق، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] أى: صاغرين.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩) ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٦٠)﴾.

يخبر تعالى عمن خرج مهاجراً فى سبيل الله ابتغاء مرضاته، وطلبا لما عنده، وترك الأوطان والأهلين والخلاَّن، وفارق بلاده فى الله ورسوله، ونصرة لدين الله﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ أى: فى الجهاد ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ أى: حتف أنفهم(٤) ،أى: من غير قتال على فرشهم، فقد حصلوا على الأجر الجزيل، والثناء الجميل، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وقوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أى: ليُجْرِيَن عليهم (٥) من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ﴾ أى: الجنة. كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾[الواقعة: ٨٨، ٨٩] فأخبر أنه يحصل له الراحة والرزق وجنة نعيم، كما قال هاهنا: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، ثم قال: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ أى: بمن يهاجر ويجاهد فى سبيله، وبمن يستحق ذلك، ﴿حَلِيمٌ﴾ أى: يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه، وتوكلهم عليه. فأما من قتل فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فإنه حى عند ربه يرزق، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، والأحاديث فى هذا كثيرة، كما تقدم(٦) وأما من تُوفى

---

(١) فى أ: «وأفعالهم». (٢) فى أ: «وجحدته». (٣) فى أ: «وإبائهم».
(٤) فى أ: «أنفسهم». (٥) فى أ: «ليجزيهم عليه». (٦) فى أ: «مرَّ».

فى سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر، فقد تضمنت هذه الآية الكريمة مع الأحاديث الصحيحة إجراء الرزق عليه، وعظيم إحسان الله إليه.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا المسيَّب بن واضح، حدثنا ابن المبارك، عن عبد الرحمن ابن شُرَيْح، عن ابن [(١)] الحارث ـ يعنى: عبد الكريم ـ عن ابن عقبة ـ يعنى: أبا عبيدة بن عقبة ـ قال: حدثنا[(٢)] شُرَحْبِيل بن السِّمْط: طال رباطنا وإقامتنا على حصن بأرض الروم، فمر بى سلمان ـ يعنى: الفارسى ـ رضى الله عنه، فقال: إنى سمعت رسول الله يقول: «من مات مرابطاً، أجرى الله عليه مثل ذلك الأجر، وأجرى عليه الرزق، وأمن [(٣)] من الفَتَّانين» واقرؤوا إن شئتم: ﴿**وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ**﴾.

وقال أيضا: حدثنا أبو زرعة، حدثنا زيد بن بشر، أخبرنى همام، أنه سمع أبا قبيل وربيعة بن سيف المعافرى يقولان: كنا برودس، ومعنا فَضَالة بن عبيد الأنصارى ـ صاحب رسول الله ﷺ ـ فمر بجنازتين، إحداهما قتيل والأخرى متوفى، فمال الناس على القتيل، فقال فضالة: ما لى [(٤)] أرى الناس مالوا مع هذا، وتركوا هذا؟! فقالوا: هذا قتيل فى سبيل الله تعالى. فقال: والله ما أبالى من أى حُفرتيهما بُعثت، اسمعوا كتاب الله: ﴿**وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا [لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ]**[(٥)]﴾.

وقال أيضاً: حدثنا أبى، حدثنا عبدة بن سليمان، أنبأنا ابن المبارك، أنبأنا ابن لَهِيعة، حدثنا سلامان بن عامر الشعبانى، أن عبد الرحمن بن جَحْدَم الخولانى حدثه: أنه حضر فضالة بن عبيد فى البحر مع جنازتين، أحدهما أصيب بمنجنيق والآخر توفى، فجلس فضالة بن عبيد عند قبر المتوفى، فقيل له: تركت الشهيد فلم تجلس عنده؟ فقال: ما أبالى من أى حفرتيهما بعثتُ، إن الله يقول: ﴿**وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا [لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً]**[(٦)] **يَرْضَوْنَهُ**﴾، فما تبتغى [(٧)] أيها العبد إذا أدخلت مدخلا ترضاه ورزقت رزقاً حسناً، والله ما أبالى من أى حفرتيهما بعثت.

ورواه ابن جرير، عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، أخبرنى عبد الرحمن بن شُرَيْح، عن سلامان بن عامر قال: كان فضالة برودس أميراً على الأرباع، فخرج بجنازتى رجلين، أحدهما قتيل [(٨)] والآخر متوفى. . . فذكر نحو ما تقدم[(٩)].

(١) فى أ: «أبى».
(٢) فى أ: «قال».
(٣) فى أ: «وأومن».
(٤) فى أ: «ما».
(٥) زيادة من ف، أ وفى هـ، ت: «حتى آخر الآية».
(٦) زيادة من ف، وفى ت: «إلى قوله».
(٧) فى أ: «ينبغى».
(٨) فى أ: «قتل».
(٩) تفسير الطبرى (١٧/١٣٦).

وقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾، ذكر [١]مقاتل بن حيان وابن جريج أنها نزلت فى سرية من الصحابة، لقوا جمعاً من المشركين فى شهر محرم، فناشدهم المسلمون لئلا يقاتلوهم فى الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم، فقاتلهم المسلمون، فنصرهم الله عليهم، [و] [٢] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢)﴾.

يقول تعالى منبها على أنه الخالق المتصرف فى خلقه بما يشاء، كما قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ [وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ][٣]﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧] ومعنى إيلاجه الليل فى النهار، والنهار فى الليل: إدخاله من هذا فى هذا، ومن هذا فى هذا، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، كما فى الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل، كما فى الصيف.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أى: سميع بأقوال عباده، بصير بهم، لا يخفى عليه منهم خافية فى أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم.

ولما بين أنه المتصرف فى الوجود، الحاكم الذى لا معقب لحكمه، قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أى: الإله الحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له؛ لأنه ذو السلطان العظيم، الذى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شىء فقير إليه، ذليل لديه، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ أى: من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دونه تعالى فهو باطل؛ لأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، كما قال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿الْكَبِيرُ [٤]الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]، فكل شىء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه؛ لأنه العظيم الذى لا أعظم منه، العلى الذى لا أعلى منه، الكبير الذى لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتنزه، وعز وجل عما يقول الظالمون [المعتدون] [٥] علوا كبيرا.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ

---

(١) فى أ: «قال». (٢) زيادة من أ. (٣) زيادة من ف، أ: وفى ت: «الآية».
(٤) فى ت، ف: «وهو الكبير». (٥) زيادة من أ.

اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦)﴾.

وهذا أيضا من الدلالة على قدرته وعظيم سلطانه، فإنه يرسل[1] الرياح، فتثير سحابا، فيمطر على الأرض الجُرُز التى[2] لا نبات فيها، وهى هامدة يابسة سوداء قحلة، ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥].

وقوله: ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾، «الفاء» هاهنا للتعقيب، وتعقيب كل شىء بحسبه، كما قال: ﴿خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقد ثبت فى الصحيحين: «أن بين كل شيئين أربعين يوماً» ومع هذا هو معقب[3] بالفاء، وهكذا هاهنا قال: ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أى: خضراء بعد يبسها ومُحُولها[4].

وقد ذكر عن بعض أهل[5] الحجاز: أنها تصبح عقب المطر خضراء، فالله أعلم.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أى: عليم بما فى أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب وإن صغر، لا يخفى عليه خافية، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به، كما قال لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦] وقال: ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥]، وقال تعالى: : ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ الآية [يونس: ٦١]؛ ولهذا قال أمية بن [أبى][6] الصلت ـ أو: زيد بن عمرو بن نُفيل ـ فى قصيدته:

وَقُولا لَه: مَن يُنْبِتُ الحبَّ فى الثَّرَى ... فَيُصبِحَ منْهُ البَقْلُ يَهْتَزُّ رَابيًا؟
ويُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّه فِى رُؤُوسِه ... فَفى ذَاكَ آيات لِمَنْ كَانَ وَاعِيا[7]

وقوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أى: ملكه جميع الأشياء، وهو غنى عما سواه، وكل شىء فقير إليه، عبد لديه.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ﴾ أى: من حيوان، وجماد، وزروع، وثمار. كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] أى: من إحسانه وفضله وامتنانه، ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أى: بتسخيره وتسييره، أى: فى البحر العَجَاج، وتلاطم الأمواج، تجرى الفلك بأهلها[8] بريح طيبة، ورفق وتؤدة، فيحملون فيها ما شاؤوا من تجائر وبضائع

---

(١) فى أ: «وأنه مرسل». (٢) فى أ: «الذى». (٣) فى أ: «تعقيب».
(٤) فى أ: «وقحوطا». (٥) فى هـ ت: «أرض» والمثبت من ف، أ. (٦) زيادة من ف، أ.
(٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٢٨).
(٨) فى أ: «بأمرها».

ومنافع، من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء، كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك، مما يحتاجون إليه، ويطلبونه ويريدونه، ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾أي: لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض، فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أى: مع ظلمهم، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾، كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[البقرة: ٢٨]، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [الجاثية: ٢٦]، وقوله: ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] ومعنى الكلام: كيف تجعلون [مع] (١) الله أنداداً وتعبدون معه غيره، وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أى: خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يذكر، فأوجدكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ أى: يوم القيامة، ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾أى: جحود.

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) ﴾.

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم (٢) منسكا.

قال ابن جرير: يعنى: لكل أمة نبى منسكا. قال: وأصل المنسك فى كلام العرب: هو الموضع الذى يعتاده الإنسان، ويتردد إليه، إما لخير أو شر. قال: ولهذا سميت مناسك الحج بذلك، لترداد الناس إليها وعكوفهم عليها (٣).

فإن كان كما قال من أن المراد: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾، فيكون المراد بقوله: ﴿فَلا يُنَازِعُنَّكَ فِي الأَمْرِ﴾ أى: هؤلاء المشركون. وإن كان المراد: «لكل أمة جعلنا منسكا جعلا قدريا ـ كما قال: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة:١٤٨] ولهذا قال هاهنا: ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾، أى: فاعلوه ـ فالضمير هاهنا عائد على هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق، أى: هؤلاء إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته، فلا تتأثر بمنازعتهم لك، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق؛ ولهذا قال: ﴿ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: طريق واضح مستقيم موصل إلى المقصود.

وهذه كقوله: ﴿وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٧].

---

(١) زيادة من ت، ف. (٢) فى ت: «أمة».
(٣) تفسير الطبرى (١٧/ ١٣٨).

وقوله: ﴿ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾، كقوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[يونس: ٤١].

وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد، كقوله: ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨]؛ ولهذا قال: ﴿ اللَّهُ[١] يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

وهذه كقوله: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠) ﴾.

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما فى السموات وما فى الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب ذلك فى كتابه اللوح المحفوظ، كما ثبت فى صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قدّر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء »[٢].

وفى السنن، من حديث جماعة من الصحابة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن. فجرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة»[٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا ابن بُكَيْر، حدثنى ابن لَهِيعة، حدثنى عطاء بن دينار، حدثنى سعيد بن جُبَيْر قال: قال ابن عباس: خلق الله اللوح المحفوظ مَسِيرَة مائة عام، وقال للقلم قبل أن يخلق الخلق ـ وهو على العرش تبارك وتعالى ـ : اكتب. قال القلم: وما أكتب؟ قال: علمى فى خلقى إلى يوم تقوم الساعة. فجرى القلم بما هو كائن فى علم الله إلى يوم القيامة. فذلك قوله تعالى للنبى ﷺ: ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾.

وهذا من تمام علمه تعالى أنه علم الأشياء قبل كونها، وقدرها وكتبها أيضاً، فما العباد عاملون قد علمه تعالى قبل ذلك، على الوجه الذى يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أن هذا يطيع باختياره، وهذا يعصى باختياره، وكتب ذلك عنده، وأحاط بكل شىء علما، وهو سهل عليه، يسير لديه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

---

(١) فى ت: «والله» وهو خطأ.

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٦٥٣) بلفظ «كتب الله مقادير الخلائق».

(٣) جاء من حديث عبادة بن الصامت: أخرجه أبو داود فى السنن برقم (٤٧٠٠) والترمذى فى السنن برقم (٣٣١٩) وقال الترمذى: «هذا حديث حسن غريب».

وجاء من حديث ابن عباس: رواه البيهقى فى الأسماء والصفات (ص٣٧٨).

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) ﴾.

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما جهلوا وكفروا، وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطانا، يعنى: حجة وبرهانا، كقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]. ولهذا قال هاهنا: ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أى: ولا علم لهم فيما اختلقوه وائتفكوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم، بلا دليل ولاحجة، وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم؛ ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ أى: من ناصر ينصرهم من الله، فيما يحل بهم من العذاب والنكال.

ثم قال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أى: وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على توحيد الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق، ﴿ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أى: يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء! ﴿قُلْ﴾ أى: يا محمد لهؤلاء: ﴿ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا[1] ﴾ أى: النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين فى الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم، إن نلتم بزعمكم وإرادتكم.

وقوله: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أى: وبئس النار منزلا ومقيلا ومرجعا وموئلا ومقاما، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤) ﴾.

يقول تعالى منبها على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ أى: لما يعبده الجاهلون بالله المشركون به، ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أى: أنصتوا وتفهموا، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أى: لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا

(١) فى ت، ف، أ: «كفروا وبئس المصير».

على خلق ذباب واحد ماقدروا على ذلك. كما قال الإمام أحمد.

حدثنا أسود بن عامر، حدثنا شَرِيك، عن عمارة بن القعقاع، عن أبى زُرْعة، عن أبى هريرة ـ رفع الحديث ـ قال: «ومن أظلم ممن خلق [خلقا] (١) كخلقى؟ فليخلقوا مثل خلقى ذَرّة، أو ذبابة، أو حَبّة(٢).

وأخرجه صاحبا الصحيح، من طريق عُمَارة، عن أبى زُرْعَة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال: قال الله عز وجل: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى؟ فليخلقوا ذرة، فليخلقوا شعيرة»(٣).

ثم قال تعالى أيضاً: ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ أى: هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك عاجزون عن مقاومته والانتصار منه، لو سلبها شيئاً من الذى عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه، لما قدرت على ذلك. هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ولهذا[قال: ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾](٤).

قال ابن عباس: الطالب: الصنم، والمطلوب: الذباب. واختاره ابن جرير، وهو ظاهر السياق.

وقال السدى وغيره: الطالب: العابد، والمطلوب: الصنم.

ثم قال: ﴿ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ أى: ماعرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره، من هذه(٥) التى لاتقاوم الذباب لضعفها وعجزها، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ أى: هو القوى الذى بقدرته وقوته خلق كل شىء، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧]، ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ .إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٢، ١٣]، ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ أى: قد عز(٦) كل شىء فقهره وغلبه، فلا يمانع ولا يغالب، لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٧٦) ﴾ .

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلا فيما يشاء من شرعه وقَدَره، ومن الناس لإبلاغ رسالاته، ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أى: سميع لأقوال عباده، بصير بهم، عليم بمن يستحق ذلك منهم، كما قال: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقوله: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ أى: يعلم ما يفعل برسله فيما

---

(١) زيادة من ت، ف، والمسند.

(٢) المسند (٢/ ٣٩١).

(٣) صحيح البخارى برقم (٥٩٥٣) وصحيح مسلم برقم (٢١١١).

(٤) زيادة، ت، ف. (٥) فى أ: «هذا الذى». (٦) فى ف: «قدر».

أرسلهم به، فلا يخفى عليه من أمورهم شىء، كما قال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ [فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا . لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ] (١) وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٨]، فهو سبحانه رقيب عليهم، شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم؛ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ الآية [المائدة: ٦٧].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)﴾.

اختلف الأئمة، رحمهم الله، فى هذه السجدة الثانية من سورة الحج: هل هى مشروع السجودُ فيها أم لا؟ على قولين. وقد قدمنا عند الأولى حديث عقبة بن عامر عن رسول الله ﷺ: «فُضلت سورة الحج بسجدتين، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما».

وقوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ أى: بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم، كما قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقوله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أى: يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم وشرفكم وخصكم بأكرم رسول، وأكمل شرع.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أى: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشىء فَشَقَ عليكم إلا جعل الله لكم فرجا ومخرجا، فالصلاة ـ التى هى أكبر أركان الإسلام بعد الشهادتين ـ تجب فى الحَضَر أربعاً وفى السفر تُقْصَر إلى ثِنْتَين، وفى الخوف يصليها بعض الأئمة ركعة، كما ورد به الحديث، وتُصلى رجالا وركبانا، مستقبلى القبلة وغير مستقبليها. وكذا فى النافلة فى السفر إلى القبلة وغيرها، والقيام فيها يسقط بعذر المرض، فيصليها المريض جالسا، فإن لم يستطع فعلى جنبه، إلى غير ذلك من الرخص والتخفيفات، فى سائر الفرائض والواجبات؛ ولهذا قال، عليه السلام(٢): «بُعِثْتُ بالحَنِيفيَّة السَّمحة»(٣)، وقال لمعاذ وأبى موسى، حين بعثهما أميرَين إلى اليمن: «بَشِّرا ولا

(١) زيادة من ف، أ. وفى ت: «إلى قوله».
(٢) فى ت: «عليه الصلاة والسلام»، وفى ف، أ: «ﷺ».
(٣) رواه أحمد فى مسنده (٥/٢٦٦) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه.

تنفرا، ويَسِّرا ولا تُعسِّرَا»[١]. والأحاديث فى هذا كثيرة؛ ولهذا قال ابن عباس فى قوله: **﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾** يعنى: من ضيق.

وقوله: **﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾**: قال ابن جرير: نصب على تقدير: **﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾** أى: من ضيق، بل وَسَّعه عليكم كملة أبيكم إبراهيم. [قال: ويحتمل أنه منصوب على تقدير: الزموا ملة أبيكم إبراهيم[٢]].

قلت: وهذا المعنى فى هذه الآية كقوله: **﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾** الآية [الأنعام: ١٦١].

وقوله: **﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾**: قال الإمام عبد الله بن المبارك، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس فى قوله: **﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾** قال: الله عز وجل. وكذا قال مجاهد، وعطاء، والضحاك، والسدى، وقتادة، ومقاتل بن حَيَّان.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: **﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾** يعنى: إبراهيم، وذلك لقوله: **﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾**[البقرة: ١٢٨].

قال ابن جرير: وهذا لا وجه له؛ لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسمّ هذه الأمة فى القرآن مسلمين، وقد قال الله تعالى: **﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾** قال مجاهد: الله سماكم المسلمين من قبل فى الكتب المتقدمة وفى الذكر، **﴿وَفِي هَٰذَا﴾** يعنى: القرآن. وكذا قال غيره.

قلت: وهذا هو الصواب؛ لأنه تعالى قال: **﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾**، ثم حثهم وأغراهم على ما جاء به الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بأنه ملة أبيهم إبراهيم الخليل، ثم ذكر منته تعالى على هذه الأمة بما نَوّه به من ذكرها والثناء عليها فى سالف الدهر وقديم الزمان، فى كتب الأنبياء، يتلى على الأحبار والرهبان، فقال: **﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾** أى: من قبل هذا القرآن **﴿وَفِي هَٰذَا﴾**، وقد قال النسائى عند تفسير هذه الآية:

أنبأنا هشام بن عمار، حدثنا محمد بن شُعَيب، أنبأنا معاوية بن سلاّم[٣]، أن أخاه زيد بن سَلاّم أخبره، عن أبى سلاّم أنه أخبره قال: أخبرنى الحارث الأشعرى، عن رسول الله ﷺ قال: «من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثىّ جهنم». قال رجل: يا رسول الله، وإن صام وصلى؟ قال: «نعم، وإن صام وصلى، فادعوا بدعوة الله التى سماكم بها المسلمين المؤمنين عباد الله»[٤].

وقد قدمنا هذا الحديث بطوله عند تفسير قوله: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾** من سورة البقرة [الآية: ٢١]؛ ولهذا قال: **﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا**

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (٣٠٣٨) ومسلم فى صحيحه برقم (١٧٣٢).
(٢) زيادة من ت، ف.
(٣) فى ت: «سالم».
(٤) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٤٩).

﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أى: إنما جعلناكم هكذا أمة وسطا عُدولا[١] خيارا، مشهودا بعدالتكم عند جميع الأمم، لتكونوا يوم القيامة **﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾** لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها[٢] على كل أمة سواها؛ فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة، فى أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك. وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾** [البقرة: ١٤٣]، وذكرنا حديث نوح وأمته بما أغنى عن إعادته.

وقوله: **﴿فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾** أى: قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، وأدوا حق الله عليكم فى أداء ما افترض، وطاعة ما أوجب، وترك ما حرم. ومن أهم ذلك إقامُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق الله، بما أوجب للفقير على الغنى، من إخراج جزء نزر من ماله فى السَّنة للضعفاء والمحاويج، كما تقدم بيانه وتفصيله فى آية الزكاة من سورة «التوبة»[٣].

وقوله: **﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾** أى: اعتضدوا بالله[٤]، واستعينوا به، وتوكلوا[٥] عليه، وتَأيَّدوا به، **﴿هُوَ مَوْلاكُمْ﴾** أى: حافظكم وناصركم ومُظفركُم على أعدائكم، **﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾** يعنى: [نعم][٦] الولى ونعم الناصر من الأعداء.

قال وُهَيْب بن الورد: يقول الله تعالى: ابن آدم، اذكرنى إذا غضبتَ أذكرك إذا غضبتُ، فلا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظُلمتَ فاصبر، وارض بنصرتى، فإن نصرتى لك خير من نصرتك لنفسك. رواه ابن أبى حاتم.

والله تعالى أعلم وله الحمد والمنة، والثناء الحسن والنعمة، وأسأله التوفيق والعصمة، فى سائر الأفعال والأقوال.

هذا آخر تفسير سورة «الحج»، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وشرف وكرم، ورضى الله تعالى عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين[٧]

---

(١) فى أ: «عدلاً». (٢) فى أ: «بسيادتهم وفضلهم».
(٣) انظر تفسير الآية: ٦٠ من سورة التوبة.
(٤) فى أ: «به». (٥) فى أ: «اتكلوا». (٦) زيادة من ت.
(٧) فى ت: «وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

تفسير سورة المؤمنون (١)

مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)﴾.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، أخبرني يونس بن سُلَيْم قال: أملى عليّ يونس بن يزيد[٢] الأيْليّ، عن ابن شهاب، عن عُرْوَة بن الزبير، عن عبد الرحمن بن عَبْد القاريّ قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحيُ، يسمع عند وجهه كدَوِيّ النحل فَمكثنا ساعة، فاستقبل القبلة ورفع يديه، فقال: «اللهم، زدنا ولا تَنْقُصْنا، وأكرمنا ولا تُهنَّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثِرْنا ولا تؤثر [علينا، وارض عنا][٣] وأرضنا»، ثم قال: «لقد أنزلت عليّ عشر آيات، مَنْ أقامهن دخل الجنة»، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم العَشْر.

وكذا روى[٤] الترمذى فى تفسيره، والنسائى فى الصلاة، من حديث عبد الرزاق، به[٥]. وقال الترمذى: منكر، لا نعرف أحدا رواه غير يونس بن سليم، ويونس لا نعرفه.

وقال النسائى فى تفسيره: أنبأنا قُتَيْبَة بن سعيد، حدثنا جعفر، عن أبى عمران عن يزيد بن بابَنُوس قال: قلنا لعائشة: يا أم المؤمنين، كيف كان[٦] خُلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلُق رسول الله ﷺ القرآن، فقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، حتى انتهت إلى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾، قالت: هكذا كان خُلق رسول الله ﷺ[٧].

وقد رُوى عن كعب الأحبار، ومجاهد، وأبى العالية، وغيرهم: لَمَّا خلقَ الله جنةَ عَدْن،

(١) فى ف: «المؤمنين». (٢) فى أ: «زيد». (٣) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٤) فى أ: «رواه».
(٥) المسند (١/ ٣٤) وسنن الترمذى برقم (٣١٧٣) وسنن النسائى الكبرى برقم (١٤٣٩).
(٦) فى أ: «حال».
(٧) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٥٠).

وغرسها بيده، نظر إليها وقال لها. تكلمى. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. قال كعب الأحبار: لِمَا أعدّ لهم فيها من الكرامة. وقال أبو العالية: فأنزل الله ذلك فى كتابه.

وقد رُوى ذلك عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا، فقال أبو بكر البزار:

حدثنا محمد بن الْمُثَنَّى، حدثنا المغيرة بن سلمة، حدثنا وُهَيْب، عن الجُرَيرى، عن أبى نَضْرَة، عن أبى سعيد قال: خلق الله الجنة، لَبِنَةً من ذهب ولبنة من فضة، وغرسها، وقال لها: تكلمى. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فدخلتها الملائكة فقالت: طوبى لك، منزلَ الملوك![1].

ثم قال[2]: وحدثنا بِشْر بن آدم، وحدثنا يونس بن عبيد الله العُمَرى، حدثنا عَدِىَ بن الفضل، حدثنا الجُرَيْرِى، عن أبى نَضْرَة، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ قال: «خلق الله الجنة، لبنة من ذهب ولبنة من فضة، ومِلاَطها[3] المِسْك». قال أبو بكر: ورأيت فى موضع آخر فى[4] هذا الحديث: «حائط الجنة، لبنة ذهب ولبنة فضة، وملاطها المسك. فقال لها: تكلمى. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. فقالت الملائكة: طوبى لك، منزل الملوك!».

ثم قال البزار: لا نعلم أحداً رفعه إلا عَدِىّ بن الفضل، وليس هو بالحافظ، وهو شيخ متقدم الموت[5].

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أحمد بن على، حدثنا هشام بن خالد، حدثنا بَقِيَّة، عن ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال النبى ﷺ: «لما خلق الله جنة عَدْن، خلق فيها ما لا عين رأت، [ولا أذن سمعت][6]، ولا خطر على قلب بشر. ثم قال لها: تكلمى. فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾»[7].

بَقِيَّة: عن الحجازيين ضعيف.

وقال الطبرانى: حدثنا محمد بن عثمان بن أبى شيبة، حدثنا مِنْجَابُ بن الحارث، حدثنا حماد ابن عيسى العَبْسى، عن إسماعيل السُّدِّى، عن أبى صالح، عن ابن عباس ـ يرفعه ـ : «لما خلق الله جنة عدن بيده، ودَلَّى فيها ثمارها، وشق فيها أنهارها، ثم نظر إليها فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾. قال: وعزتى[8] لا يجاورنى فيك بخيل»[9].

---

(١) مسند البزار برقم (٣٥٠٧) «كشف الأستار».

تنبيه:

وقع فى مسند البزار سنده هكذا: «حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا حجاج بن المنهال، حدثنا حماد بن سلمة عن الجريرى عن أبى نضرة عن أبى سعيد.

(٢) فى أ: «وقال». (٣) فى أ: «بلاطها». (٤) فى أ: «من».

(٥) مسند البزار برقم (٣٥٠٨) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/٣٩٧): «رجال الموقوف رجال الصحيح».

(٦) زيادة من ف، أ.

(٧) المعجم الكبير (١١/ ١٨٤). (٨) فى أ: «وعزتى وجلالى».

(٩) المعجم الأوسط برقم (٤٨٦١) «مجمع البحرين»، وأبى صالح ضعيف.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن المثنى البَزَّار، حدثنا محمد بن زياد الكلبى، حدثنا يعيش بن حسين، عن سعيد بن أبى عَرُوبَة، عن قتادة، عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله جنة عدن بيده، لبنة من دُرَّة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء، ولبنة من زَبَرجَدَة خضراء، ملاَطُها المسك، وحَصْبَاؤها اللؤلؤ، وحَشِيشها الزعفران، ثم قال لها: انطقى. قالت[١]: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، فقال الله: وعزتى، وجلالى لا يجاورنى فيك بَخيلٌ». ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩][٢]. فقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أى: قد فازوا وسُعِدوا وحَصَلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿خَاشِعُونَ﴾: خائفون ساكنون. وكذا رُوى عن مجاهد، والحسن، وقتادة، والزهرى[٣].

وعن على بن أبى طالب، رَضِى الله عنه: الخشوعُ: خشوعُ القلب. وكذا قال إبراهيم النَّخعِىّ.

وقال الحسن البصرى: كان خشوعهم فى قلوبهم، فغضوا بذلك أبصارهم، وخَفَضوا الجناح.

وقال محمد بن سيرين: كان أصحاب رسول الله ﷺ يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة، فلما نزلت هذه الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ خفضوا أبصارهم إلى موضع سجودهم.

[و][٤] قال ابن سيرين: وكانوا يقولون: لا يجاوز بصره مُصَلاَّه، فإن كان قد اعتاد النظر فَلْيُغمِضْ. رواه ابن جرير وابن أبى حاتم.

ثم رَوَى[٥] ابنُ جرير عنه، وعن عطاء بن أبى رَبَاح أيضاً مرسلا: أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك، حتى نزلت هذه الآية.

والخشوع فى الصلاة إنما يحصل بمن فَرّغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقُرَّة عين، كما قال النبى ﷺ، فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والنسائى، عن أنس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حُبِّبَ إلىّ الطِّيب والنساء، وجعلت قرة عينى فى الصلاة»[٦].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وَكِيع، حدثنا مِسْعَر، عن عمرو بن مُرَّة، عن سالم بن أبى الجَعْد،

---

(١) فى أ: «فقالت».

(٢) صفة الجنة لابن أبى الدنيا برقم (٢٠) وفى إسناده محمد بن زياد الكلبى، قال ابن معين: لا شىء.

تنبيه:

وقع فى صفة الجنة: «حدثنا محمد بن زياد الكلبى حدثنا بشر بن الحسين» وفى النهاية فى الفتن والملاحم لابن كثير (٢/ ٢٧٩) «نفيس بن ضين».

(٣) فى ف، أ: «والزهرى وقتادة». (٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «ورواه».

(٦) المسند (٣/ ١٢٨) وسنن النسائى (٦١١٧).

عن رجل من أسلَم، أن رسول الله ﷺ قال: «يا بلال، أرحنا بالصلاة»(١).

وقال الإمام أحمد أيضاً؛ حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِىّ، حدثنا إسرائيل، عن عثمان بن المغيرة، عن سالم بن أبى الجعد، أن محمد بن الحنفية قال: دخلت مع أبى على صهر لنا من الأنصار، فحضَرت الصلاة، فقال: يا جارية، ائتنى بوَضُوء لعلى أصلى فأستريح. فرآنا(٢) أنكرنا عليه ذلك(٣)، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قم يا بلال، فأرحنا بالصلاة»(٤).

وقال(٥): ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أى: عن الباطل، وهو يشمل: الشرك ـ كما قاله بعضهم ـ والمعاصى ـ كما قاله آخرون ـ وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٢].

قال قتادة: أتاهم والله من أمر الله ما وقَذَهم عن ذلك.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾: الأكثرون على أن المراد بالزكاة هاهنا زكاة الأموال، مع أن هذه [الآية](٦) مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة فى سنة اثنتين من الهجرة. والظاهر أن التى فرضت بالمدينة إنما هى ذات النّصب والمقادير الخاصة، وإلا فالظاهر أن أصل الزكاة كان واجباً بمكة، كما قال تعالى فى سورة الأنعام، وهى مكية: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة هاهنا: زكاة النفس من الشرك والدنس، كقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠] وكقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ . الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧]، على أحد القولين فى تفسيرها.

وقد يحتمل أن يكون كلا الأمرين مرادا، وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال؛ فإنه من جملة زكاة النفوس، والمؤمن الكامل هو الذى يتعاطى هذا وهذا، والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أى: والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام، فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من زنا أو لواط، ولا يقربون سوى أزواجهم التى أحلها الله لهم، وما ملكت أيمانهم من السرارى، ومن تعاطى ما أحله الله له فلا لوم عليه ولا حرج؛ ولهذا(٧) قال: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ أى: غير الأزواج والإماء، ﴿فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أى: المعتدون.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بَشَّار، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا سعيد، عن قتادة، أن امرأة

(١) المسند (٥/ ٣٦٤).
(٢) فى ف، أ: «فرأى أنا».
(٣) فى ف: «ذلك عليه».
(٤) المسند (٥/ ٣٧١).
(٥) فى أ: «وقوله».
(٦) زيادة من ف، أ.
(٧) فى ف: «فلهذا».

اتخذت مملوكها، وقالت: تأوّلت آية من كتاب الله: ﴿ أو ما ملكت أيمانهم﴾، [قال][١] : فأتى بها عمر ابن الخطاب، فقال له ناس من أصحاب النبى[٢] ﷺ: تأولت آية من كتاب الله على غير وجهها. قال: فَغرب[٣] العبدَ وجزّ رأسه: وقال: أنت بعده حرام على كل مسلم.

هذا أثر غريب منقطع، ذكره[٤] ابن جرير فى أول تفسير سورة المائدة[٥]، وهو هاهنا أليق، وإنما حرمها على الرجال معاملة لها بنقيض قصدها، والله أعلم.

وقد استدل الإمام الشافعى، رحمه الله، ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ قال: فهذا الصنيع خارج عن هذين القسمين، وقد قال: ﴿ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾. وقد استأنسوا بحديث رواه الإمام الحسن بن عَرَفَةَ فى جزئه المشهور حيث قال:

حدثنى على بن ثابت الجَزَرِىّ، عن مسلمة بن جعفر، عن حسان بن حميد[٦]، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ قال: «سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ، ولا يجمعهم مع العاملين، ويدخلهم النار أول الداخلين، إلا أن يتوبوا، فمن تاب تاب الله عليه: ناكح يده[٧]، والفاعل، والمفعول به، ومدمن[٨] الخمر، والضارب والديه حتى يستغيثا، والمؤذى جيرانه حتى يلعنوه، والناكح حليلة جاره»[٩].

هذا حديث غريب، وإسنادُه فيه مَنْ لا يُعرَف؛ لجهالته، والله أعلم.

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ أى: إذا اؤتمنوا لم يخونوا، بل يؤدونها إلى أهلها، وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حَدَّث كذب، وإذا وَعَد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أى: يواظبون عليها فى مواقيتها، كما قال ابن مسعود: سألت النبى ﷺ فقلت: يا رسول الله، أىّ العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أى؟ قال: «برُّ الوالدين». قلت: ثم أى؟ قال: «الجهاد فى سبيل الله».

أخرجاه فى الصحيحين[١٠]. وفى مستدرك الحاكم قال: «الصلاة فى أول وقتها»[١١].

---

(١) زيادة من أ. (٢) فى أ: «رسول الله». (٣) فى ف،أ: «فضرب» وهو الصحيح.
(٤) فى أ :«ذكرها».
(٥) تفسير الطبرى (٩/٥٨٦) ط ـ المعارف.
(٦) فى ف، أ: «أحمد». (٧) فى ف، أ: «الناكح يده». (٨) فى ف، أ: «المدمن».
(٩) جزء الحسن بن عرفة برقم (٤١).
(١٠) صحيح البخارى برقم (٥٩٧٠) وصحيح مسلم برقم (٨٥).
(١١) المستدرك (١/١٨٨) وقال الحاكم: «فقد صحت هذه اللفظة باتفاق الثقتين بندار بن بشار، والحسن بن مكرم على روايتهما عن عثمان بن عمرو، وهو صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

وقال ابن مسعود، ومسروق في قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ يعني: مواقيت الصلاة. وكذا قال أبو الضّحَى، وعلقمة بن قيس، وسعيد بن جبير، وعكرمة.

وقال قتادة: على مواقيتها وركوعها وسجودها.

وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة، واختتمها بالصلاة، فدل على أفضليتها، كما قال رسول الله ﷺ: «استقيموا ولن تُحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»[(١)].

ولما وَصَفَهم [الله][(٢)] تعالى بالقيام بهذه الصفات الحميدة والأفعال الرشيدة قال: ﴿ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ .الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة، ومنه تَفَجَّر أنهار الجنة، وفوقه عرش الرحمن»[(٣)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة ومنزل في النار، فإن مات فدخل النار وَرِثَ أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾»[(٤)].

وقال ابن جُريج، عن لَيْث، عن مجاهد: ﴿ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴾ قال: ما من عبد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فأما المؤمن فيُبنَى بيته الذي في الجنة، ويُهدَم بيته الذي في النار[(٥)]، وأما الكافر فيُهدَم بيته الذي في الجنة، ويُبنى بيته الذي في النار. وروى عن سعيد بن جُبَير نحو ذلك.

فالمؤمنون يرثون منازل الكفار؛ لأنهم [كلهم][(٦)] خلقوا لعبادة الله تعالى[(٧)]، فلما قام هؤلاء المؤمنين بما وجب عليهم من العبادة، وتركَ أولئك ما أمرُوا به مما خُلقوا له ـ أحرزَ هؤلاء نصيب

---

(١) جاء من حديث ثوبان: رواه ابن ماجه في السنن برقم (٢٧٧) من طريق سفيان عن منصور عن ابن أبي الجعد عنه به وفيه انقطاع.
ومن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: رواه ابن ماجه في السنن برقم (٢٧٨) من طريق المعتمر عن ليث عن مجاهد عنه به، وليث بن أبي سليم ضعيف.
ومن حديث أبي أمامة: رواه ابن ماجه في السنن برقم (٢٧٩) من طريق إسحاق بن أسيد عن أبي حفص الدمشقي عنه به، وضعفه البوصيري في الزوائد.

(٢) زيادة من ف، أ.

(٣) البخاري في صحيحه برقم (٢٧٩٠)، (٧٤٢٣) عن أبي هريرة، ولم يعزه صاحب التحفة إلى غير البخاري.

(٤) ورواه ابن ماجه في السنن برقم (٤٣٤١) عن أبي بكر بن أبي شيبة وأحمد بن سنان، كلاهما عن أبي معاوية به. وقال البوصيري في الزوائد (٣/ ٣٢٧): «هذا إسناد صحيح على شرط الشيخين».

(٥) في ف، أ: «فيهدم بيته الذي في النار، ويبنى بيته الذي في الجنة». (٦) زيادة من أ. (٧) في ف، أ: «وحده لا شريك له».

أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل، بل أبلغ من هذا أيضاً، وهو ما ثبت فى صحيح مسلم، عن أبى بُردَةَ[١]، عن أبيه، عن النبى ﷺ قال: «يجىء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، فيغفرها الله لهم، ويضعُها على اليهود والنصارى»[٢].

وفى لفظ له: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دفَع الله لكل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقال[٣]: هذا فكَاكُكَ من النار». فاستحلف عُمر بن عبد العزيز أبا بُردةَ بالله الذى لا إله إلا هو، ثلاث مرات، أن أباه حدَّثه عن رسول الله ﷺ، قال: فحلف له[٤]. قلت: وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]، وكقوله: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الزخرف: ٧٣]. وقد قال مجاهد، وسعيد بن جُبير: الجنة بالرومية هى الفردوس.

وقال بعض السلف: لا يسمى البستان فردوساً إلا إذا كان فيه عنب، فالله أعلم[٥].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن ابتداء خلق الإنسان من سلالة من طين، وهو آدم، عليه السلام، خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون.

وقال الأعمش، عن المِنْهَال بن عمرو، عن أبى يحيى، عن ابن عباس: ﴿مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ قال: صَفوةُ الماء.

وقال مجاهد: ﴿مِن سُلَالَةٍ﴾ أى: من منىّ آدم.

قال ابن جرير: وإنما سمى آدم طيناً لأنه مخلوق منه.

وقال قتادة: استُلّ آدمُ من الطين. وهذا أظهر فى المعنى، وأقرب إلى السياق، فإنه آدم، عليه السلام، خلق من طين لازب، وهو الصلصال من الحمأ المسنون، وذلك مخلوق من التراب، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠].

---

(١) فى ف، أ: «بردة بن أبى موسى».
(٢) صحيح مسلم برقم (٢٧٦٧).
(٣) فى ف، أ: «فيقول».
(٤) صحيح مسلم برقم (٢٧٦٧).
(٥) فى ف، أ: «والله أعلم».

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عَوْفَ، حدثنا قَسَامَة بن زُهَيْر، عن أبى موسى، عن النبى ﷺ قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قَدْر الأرض، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض، وبين ذلك، والخبيث والطيب، وبين ذلك».

وقد رواه أبو داود والترمذى، من طرق، عن عوف الأعرابى، به نحوه(١). وقال الترمذى: حسن صحيح.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾: هذا الضمير عائد على جنس الإنسان، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة ٧، ٨] أى: ضعيف، كما قال: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ. فَجَعَلْنَاهُ(٢) فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾، يعنى: الرحمُ مُعَد لذلك مهيأ له، ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ. فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٢، ٢٣]، أى: [إلى](٣) مدة معلومة وأجل معين حتى استحكم وتنقَّل من حال إلى حال، وصفة إلى صفة؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أى: ثم صيّرنا النطفة، وهى الماء الدافق الذى يخرج من صلب الرجل ـ وهو ظهره ـ وترائب المرأة ـ وهى عظام صدرها ما بين الترقوة إلى الثندوة ـ فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة. قال عكرمة: وهى دم.

﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾: وهى قطعة كالبَضعة من اللحم، لا شكل فيها ولا تخطيط، ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ يعنى: شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها.

وقرأ آخرون: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا(٤)﴾.

قال ابن عباس: وهو عظم الصلب.

وفى الصحيح، من حديث أبى الزِّنَاد، عن الأعرج، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل جسد ابن آدم يبلى إلا عَجْبُ الذَّنَب، منه خلق ومنه(٥) يركب»(٦).

﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ أى: وجعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ أى: ثم نفخنا فيه الروح، فتحرك وصار ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾ ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا جعفر بن مُسافر، حدثنا يحيى بن حسان، حدثنا النضر ـ يعنى: ابن كثير، مولى بنى هاشم ـ حدثنا زيد بن على، عن أبيه، عن على بن أبى طالب، رضى الله عنه، قال: إذا أتمت النطفة أربعة أشهر، بُعِث إليها مَلَك فنفخ فيها الروح فى

---

(١) المسند (٤/ ٤٠٠) وسنن أبى داود برقم (٤٦٩٣) وسنن الترمذى برقم (٢٩٥٥).
(٢) فى أ: «فجعلناه نطفة» وهو خطأ. (٣) زيادة من ف، أ. (٤) فى ف، أ: «النطفة عظاماً».
(٥) فى أ: «وفيه».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٩٣٥) وصحيح مسلم برقم (٢٩٥٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

الظلمات الثلاث، فذلك قوله: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعنى: نفخنا فيه الروح(١).

ورُوى عن أبى سعيد الخدرى أنه نَفْخُ الروح.

قال ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعنى به: الروح(٢). وكذا قال مجاهد، وعكرمة، والشعبى، والحسن، وأبو العالية، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدى، وابنُ زيد، واختاره ابنُ جرير(٣).

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ يعنى: ننقله من حال إلى حال، إلى أن خرج طفلا، ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم، ثم صار شاباً، ثم كهلا، ثم شيخاً، ثم هرما.

وعن قتادة، والضحاك نحو ذلك. ولا منافاة، فإنه من ابتداء(٤) نفخ الروح [فيه](٥) شَرَعَ فى هذه التنقلات والأحوال. والله أعلم.

قال الإمام أحمد فى مسنده: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن زيد بن وهب، عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم ليُجمع خَلْقُه فى بطن أمه فى أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وهل هو شقى أو سعيد، فوالذى لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل النار فيدخلها، وإن الرجل(٦) ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل الجنة فيدخلها».

أخرجاه من حديث سليمانَ بن مِهْرَان الأعمش(٧).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن خَيْثَمَةَ قال: قال عبد الله(٨) ـ يعنى: ابن مسعود ـ إن النطفة إذا وقعت فى الرحم، طارت فى كل شعر وظفر، فتمكث أربعين يوما، ثم تتحدّر(٩) فى الرحم فتكون علقة.

وقال الإمام أحمد أيضا: حدثنا حسين بن الحسن، حدثنا أبو كُدَيْنة، عن عطاء بن السائب، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله قال: مَرَّ يهودىّ برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودى، إن هذا يَزعُم أنه نبى. فقال: لأسألنه عن شىء لا يعلمه إلا نبى. قال: فجاءه حتى جلس، فقال: يا محمد، مِمَّ يخلق الإنسان؟ فقال: «يا يهودى، من كلٍّ

(١) فى ف: «يعنى به الروح».
(٢) فى ف: «يعنى نفخنا فيه الروح».
(٣) تفسير الطبرى (٨/ ٨١).
(٤) فى ف: «ابتدأ».
(٥) زيادة من ف، أ.
(٦) فى ف: «أحدكم».
(٧) المسند (١/ ٣٨٢) وصحيح البخارى برقم (٦٥٩٤) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٣).
(٨) فى ف: «عن خيثمة عن عبد الله قال: قال».
(٩) فى ف، أ: «تنحدر».

يُخلَقُ، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعَصَب، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم» فقام اليهودى فقال: هكذا كان يقول من قبلك[(١)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان عن عمرو، عن أبى الطُّفَيل، حُذَيْفَة بن أسَيْد الغفارى قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يدخل المَلَك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين ليلة، فيقول: يا رب، ماذا؟ أشقى أم سعيد؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله، فيكتبان[(٢)]. فيقولان: ماذا؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله عز وجل، فيكتبان ويُكتَبُ عمله، وأثره، ومصيبته، ورزقه، ثم تطوى الصحيفة، فلا يُزاد على ما فيها ولا ينقص».

وقد رواه مسلم فى صحيحه، من حديث سفيان بن عيينة، عن عمرو ـ وهو ابن دينار ـ به[(٣)] نحوه. ومن طُرُق أخرَى، عن أبى الطفيل عامر بن واثلة، عن حُذَيفة بن أسيد أبى سريحة[(٤)] الغفارى بنحوه، والله أعلم[(٥)].

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا أحمد بن عَبْدَةَ، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا عبيد الله بن أبى بكر، عن أنس؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله وكّل بالرحم ملكاً فيقول: أى رب، نطفة. أىْ رب، علقة[(٦)] أى رب، مضغة. فإذا أراد الله خلقها قال: يا رب، ذكر أو أنثى؟ شقى أو سعيد؟ فما الرزق والأجل؟» قال: «فذلك يكتب فى بطن أمه».

أخرجاه فى الصحيحين من حديث حماد بن زيد به[(٧)].

وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ يعنى: حين ذكر قدرته ولطفه فى خلق هذه النطفة من حال إلى حال، وشكل إلى شكل، حتى تصورت إلى ما صارت إليه من الإنسان السَّوىّ الكامل الخلق، قال: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا على ابن زيد، عن أنس، قال: قال عمر ـ يعنى: ابن الخطاب رضى الله عنه ـ: وافقت ربى ووافقنى فى أربع: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ الآية، قلت[(٨)] أنا: فتبارك الله أحسن الخالقين. فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

---

(١) المسند (١/ ٤٦٥).

(٢) فى ف: «ويكتبان».

(٣) المسند (٤/ ٦) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٤).

(٤) فى أ: «سريح».

(٥) صحيح مسلم برقم (٢٦٤٥).

(٦) فى ف: «فحلقه».

(٧) صحيح البخارى برقم (٣١٨) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٦).

(٨) فى ف، أ: «الآية، فلما نزلت قلت».

وقال أيضاً: حدثنا أبى، حدثنا آدم بن أبى إياس، حدثنا شَيْبان، عن جابر الجُعْفى، عن عامر الشعبى، عن زيد بن ثابت الأنصارى قال: أملى علىّ رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿خَلْقًا آخَرَ﴾، فقال معاذ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، فضحك رسول الله ﷺ. فقال له معاذ: مم ضحكت يا رسول الله؟ قال: «بها ختمت ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾»(١).

جابر بن يزيد الجُعْفى ضعيف جداً، وفى خبره هذا نَكَارة شَديدة، وذلك أن هذه السورة مكية، وزيد بن ثابت إنما كتب الوحى بالمدينة، وكذلك(٢) إسلام معاذ بن جبل إنما كان بالمدينة أيضاً، فالله أعلم(٣).

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ يعنى: بعد هذه النشأة الأولى من العدم تَصيرون إلى الموت، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ يعنى: النشأة الآخرة، ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠] يعنى: يوم المعاد، وقيام الأرواح والأجساد، فيحاسب الخلائق، ويوفى كلّ عامل عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧)﴾.

لما ذكر تعالى خَلْق الإنسان، عطف بذكر خلق السموات السبع، وكثيراً ما يذكر تعالى خَلْق السموات والأرض(٤) مع خلق الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]. وهكذا فى أول ﴿الم﴾ السجدة، التى كان رسول الله ﷺ يقرأ بها [فى](٥) صبيحة يوم الجمعة، فى أولها خَلْقُ السموات والأرض، ثم بيان خلق الإنسان من سلالة من طين، وفيها أمر المعاد والجزاء، وغير ذلك من المقاصد.

فقوله: ﴿سَبْعَ طَرَائِقَ﴾: قال مجاهد: يعنى السموات السبع، وهذه كقوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. وهكذا قال هاهنا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ أى: ويعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها،

---

(١) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٣٣٦٧) «مجمع البحرين» عن أبى زرعة عن آدم بن إياس به وجابر الجعفى ضعيف.
(٢) فى ف، أ: «وكذا». (٣) فى ف، أ: «والله أعلم».
(٤) فى أ: «السبع».
(٥) زيادة من ف، أ.

وما ينزل من السماء وما يعرُج فيها، وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير. وهو ـ سبحانه ـ لا يَحجبُ عنه سماء سماء، ولا أرض أرضاً، ولا جبل إلا يعلم ما فى وَعْره، ولا بحر إلا يعلم ما فى قَعْره، يعلم عدد ما فى الجبال والتلال والرمال، والبحار والقفار والأشجار، ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨) فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢) ﴾.

يذكر تعالى نعمه على عبيده[١] التى لا تعدّ ولا تحصى، فى إنزاله القَطْر من السماء ﴿بِقَدَرٍ﴾ أى: بحسب الحاجة، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلا فلا يكفى الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقى والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضى التى تحتاج ماء كثيراً لزرعها ولا تحتمل دمْنتها إنزال المطر عليها، يسوق إليها الماء من بلاد أخرى، كما فى أرض مصر، ويقال لها: «الأرض الجرُز»، يسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة فى زمان أمطارها، فيأتى الماء يحمل طيناً[٢] أحمر، فيسقى أرض مصر، ويقر الطين على أرضهم ليزدرعوا فيه، لأن أرضهم سباخ يغلب عليها الرمال، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور.

وقوله: ﴿فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ﴾ أى: جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد فى الأرض، وجعلنا[٣] فى الأرض قابليَّة له، تشربه ويتغذى به ما فيها من الحب والنوى.

وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ أى: لو شئنا ألا تمطر لفعلنا، ولو شئنا لصرفناه عنكم إلى السباخ والبرارى [والبحار][٤] والقفار لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه أجاجاً لا ينتفع به لشُرب ولا لسقى لفعلنا، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل فى الأرض، بل ينجرّ على وجهها لفعلنا. ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مَدَى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا. ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً فراتاً زلالا، فيسكنه فى الأرض ويَسْلُكُه ينابيع فى الأرض، فيفتح[٥] العيون والأنهار، فيسقى[٦] به الزروع والثمار، وتشربون منه ودوابكم وأنعامكم، وتغتسلون[٧] منه وتتطهرون

(١) فى ف، أ: «عبده».
(٢) فى ف: «الطين».
(٣) فى ف، أ: «وجعل».
(٤) زيادة من ف، أ.
(٥) فى ف: «فيفجر».
(٦) فى ف، أ: «ويسقى».
(٧) فى ف: «ويغتسلون وتغتسلون».

وتتنظفون، فله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ يعنى: فأخرجنا لكم بما أنزلنا من الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ أى: بساتين وحدائق ذات بهجة، أى: ذات منظر حسن.

وقوله: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ أى: فيها نخيل وأعناب. وهذا ما كان يألف أهل الحجاز، ولا فرق بين الشىء وبين نظيره، وكذلك فى حق كل أهل إقليم، عندهم من الثمار من نعمة الله عليهم ما يَعجزُون عن القيام بشكره.

وقوله: ﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ أى: من جميع الثمار، كما قال: ﴿يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١].

وقوله: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ كأنه معطوف على شىء مقدر، تقديره: تنظرون إلى حسنه ونضجه، ومنه تأكلون.

وقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ يعنى: الزيتونة. والطور: هو الجبل. وقال بعضهم: إنما يسمى طوراً إذا كان فيه شجر، فإن عَرِى عنها سمى جَبَلا لا طوراً، والله أعلم. وطور سيناء: هو طور سينين، وهو الجبل الذى كَلّم [الله](١) عليه موسى بن عمران، عليه السلام، وما حوله من الجبال التى فيها شجر الزيتون.

وقوله: ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾: قال بعضهم: الباء زائدة، وتقديره: تنبت الدهن، كما فى قول العرب: ألقى فلان بيده، أى: يده. وأما على قول من يُضَمِّن الفعل فتقديره: تخرج بالدهن، أو(٢) تأتى بالدهن؛ ولهذا قال: ﴿وَصِبْغٍ﴾ أى: أدْم، قاله قتادة. ﴿لِّلآكِلِينَ﴾ أى: فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا وَكِيع، عن عبد الله بن عيسى، عن عطاء الشامى، عن أبى أَسَيْد ـ واسمه مالك بن ربيعة الساعدى الأنصارى ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به(٣)؛ فإنه من شجرة مباركة»(٤).

وقال عبد بن حميد فى مسنده وتفسيره: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا مَعْمَر، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ائتدموا بالزيت وادهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة».

ورواه الترمذى وابن ماجه من غير وجه، عن عبد الرزاق(٥). قال الترمذى: ولا يعرف إلا من

---

(١) زيادة من ف، وفى أ: «والله تعالى».
(٢) فى ف، أ: «أى».
(٣) فى أ: «بالزيت».
(٤) المسند (٣/٤٩٧).
(٥) المنتخب لعبد بن حميد برقم (١٣) وسنن الترمذى برقم (١٨٥١) وسنن ابن ماجه برقم (٣٣١٩).

حديثه، وكان يضطرب فيه، فربما ذكر فيه عمر[١]، وربما لم يذكره.

قال[٢] أبو القاسم الطبرانى: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أبى، حدثنا سفيان بن عيينة، حدثنى الصَّعْب بن حكيم بن شريك بن نملة، عن أبيه عن جده، قال: ضِفْتُ عمرَ بن الخطاب ليلة عاشوراء[٣]، فأطعمنى[٤] من رأس بعير بارد، وأطعمنا زيتاً، وقال: هذا الزيت المبارك الذى قال الله لنبيه ﷺ[٥].

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾: يذكر تعالى ما جعل لخلقه فى الأنعام من المنافع، وذلك أنهم يشربون من ألبانها الخارجة من بين فَرْث ودم، ويأكلون من حُمْلانها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها وأشعارها، ويركبون ظهورها ويحملونها[٦] الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ. وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ ـ ٧٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥)﴾.

يخبر تعالى عن نوح، عليه السلام، حين بعثه[٧] إلى قومه، لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد، وانتقامه ممن أشرك به وخالف أمره وكذب رسله، ﴿فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أى: ألا تخافون من الله فى إشراككم به؟! فقال الملأ ـ وهم السادة والأكابر منهم ـ: ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ يعنون: يترفّع عليكم ويتعاظم بدعوى[٨] النبوة، وهو بشر مثلكم. فكيف أوحى إليه دونكم؟ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أى: لو أراد أن يبعث نبياً، لبعث مَلَكاً من عنده ولم يكن بشراً! ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ أى: ببعثة البشر فى آبائنا الأولين. يعنون[٩] بهذا أسلافهم وأجدادهم والأمم[١٠] الماضية.

---

(١) فى أ: «عمرو». (٢) فى ف، أ: «وقال». (٣) فى ف: «ضفت ليلة عمر بن الخطاب».
(٤) فى ف: فأطعمنى« عودا». وفى أ: «عسورا».
(٥) المعجم الكبير (١/ ٧٤) والصعب بن حكيم لا يعرف كما قال الذهبى.
(٦) فى ف: «ويحملون». (٧) فى ف، أ: «بعثه الله ». (٨) فى ف، أ: «بدعوة».
(٩) فى ف: «يعنى». (١٠) فى ف، أ: «الدهور».

وقوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ﴾ أى: مجنون فيما يزعمه، من أن الله أرسله إليكم، واختصه من بينكم بالوحى ﴿فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أى: انتظروا به ريب المنون، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه.

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن نوح، عليه السلام، أنه دعا ربه يستنصره على قومه، كما قال تعالى مخبرا [عنه][1] فى الآية الأخرى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، وقال هاهنا: ﴿[قَالَ][2] رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ فعند ذلك أمره الله تعالى بصنعة السفينة وإحكامها وإتقانها، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين، أى: ذكرا وأنثى من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار، وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله ﴿ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ أى: سبق فيه القول من الله بالهلاك، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله، كابنه وزوجته، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ أى: عند معاينة إنزال المطر العظيم، لا تأخذنك رأفة بقومك، وشفقة عليهم، وطَمَع فى تأخيرهم لعلهم يؤمنون، فإنى قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان. وقد تقدمت القصة مبسوطة فى سورة «هود»[3] بما يغنى عن إعادة ذلك هاهنا.

وقوله: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كما قال: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ . لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤]. وقد امتثل نوح، عليه السلام، هذا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ [هود: ٤١]. فذكَر اللهَ تعالى عند ابتداء سيره وعند انتهائه، وقال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾.

وقوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أى: إن فى هذا الصنيع ـ وهو إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين ـ

---

(١) زيادة من ف، أ.
(٢) زيادة من أ.
(٣) انظر تفسير الآيات: ٢٥ ـ ٤٨.

﴿لآيَاتٍ﴾ أي: لحججاً[1] ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاؤوا به عن الله تعالى، وأنه تعالى فاعل لما يشاء، وقادر على كل شيء، عليم بكل شيء.

وقوله: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي: لمختبرين للعباد بإرسال المرسلين.

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٣٤) أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١) ﴾.

يخبر تعالى أنه أنشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين[2] ـ قيل: المراد بهم عاد، فإنهم مستخلفين بعدهم. وقيل: المراد بهؤلاء ثمود؛ لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ ـ وأنه تعالى أرسل فيهم رسولا منهم، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له. فكذبوه وخالفوه، وأبوا من اتباعه لكونه بشراً مثلهم، واستنكفوا عن اتباع رسول بشرى، فكذبوا بلقاء الله فى القيامة، وأنكروا المعاد الجثمانى، وقالوا: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ .هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ أى: بعيد بعيد ذلك. ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أى: فيما جاءكم[3] به من الرسالة والنذارة والإخبار بالمعاد. ﴿ وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ .قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أى: استفتح عليهم الرسول واستنصر ربّه عليهم، فأجاب دعاءه، ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ أى: بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ أى: وكانوا يستحقون ذلك من الله لكفرهم وطغيانهم.

والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوىّ الباردة، ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ[4] إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أى: صرعى هلْكى كغثاء السيل، وهو الشيء الحقير التافه الهالك الذى

---

(١) فى ف، أ: «الحجج». (٢) فى ف، أ: «آخر». (٣) فى ف، أ «جاء».
(٤) فى ف، أ: «ترى».

لا ينتفع بشىء منه. ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، كقوله[1]: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين﴾ [الزخرف: ٧٦] أى: بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ (٤٤)﴾.

يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ أى: أمما وخلائق، ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ يعنى[2]: بل يُؤخذون[3] حَسَب ما قدر لهم تعالى فى كتابه المحفوظ وعلمه قبل كونهم، أمة بعد أمة، وقرنا بعد قرن، وجيلا بعد جيل، وخلفاً بعد سلف.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾: قال ابن عباس: يعنى يتبع بعضهم بعضاً. وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله: ﴿كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ يعنى: جمهورهم وأكثرهم، كقوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠].

وقوله: ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾ أى: أهلكناهم، كقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ أى: أخباراً وأحاديث للناس، كقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [الآية][4] [سبأ: ١٩] [﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾][5].

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩)﴾.

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى، عليه السلام، وأخاه هارون إلى فرعون وملئه، بالآيات والحجج الدامغات، والبراهين القاطعات، وأن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما، والانقياد لأمرهما، لكونهما بَشرين كما أنكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر، تشابهت قلوبهم، فأهلك الله فرعون وملأه، وأغرقهم فى يوم واحد أجمعين، وأنزل على موسى الكتاب ـ وهو التوراة ـ فيها أحكامه وأوامره ونواهيه، وذلك بعد ما قصم الله فرعون والقبط، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ وبعد أن

---

(١) فى ف: «كقولهم». (٢) فى ف، أ: «بل». (٣) فى ف، أ: «يوجدون».
(٤) زيادة من ف. وفى هـ: ﴿إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾. (٥) زيادة من ف.

أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٣].

ثم قال تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم، عليهما السلام، أنه جعلهما آية للناس: أى حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى.

وقوله: ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾: قال الضحاك، عن ابن عباس: الربوة: المكان المرتفع من الأرض، وهو أحسن ما يكون فيه النبات. وكذا قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وقتادة.

قال ابن عباس: وقوله: ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ ﴾ يقول: ذات خصب ﴿وَمَعِينٍ﴾ يعنى: ماء ظاهراً[(١)].

وقال مجاهد: ربوة مستوية.

وقال سعيد بن جبير: ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾: استوى الماء فيها.

وقال مجاهد، وقتادة: ﴿وَمَعِينٍ﴾: الماء الجارى.

ثم اختلف المفسرون فى مكان هذه الربوة فى أىّ أرض [الله][(٢)] هى؟ فقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم: ليس الربى إلا بمصر. والماء حين يرسل[(٣)] يكون الربى عليها القرى، ولولا الربى غرقت القرى.

وروى عن وهب بن مُنَبِّه نحو هذا، وهو بعيد جداً.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب فى قوله تعالى: ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾، قال: هى دمشق[(٤)].

قال: ورُوى عن عبد الله بن سلام، والحسن، وزيد بن أسلم، وخالد بن مَعْدان نحو ذلك.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا وَكِيع، عن إسرائيل، عن سِمَاك، عن عِكْرِمة، عن ابن عباس: ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ قال: أنهار دمشق.

---

(١) فى ف: «طاهراً». (٢) زيادة من ف. (٣) فى ف: «يسيل».
(٤) فى أ: «الدمشق».

وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ [ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ](١)﴾، قال: عيسى ابن مريم وأمه، حين أويا إلى غوطة دمشق وما حولها.

وقال عبد الرزاق، عن بشر بن رافع، عن أبى عبد الله ابن عم أبى هريرة، قال: سمعت أبا هريرة يقول: فى قوله(٢): ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: هى الرملة من فلسطين.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا إبراهيم بن محمد بن يوسف الفريابى، حدثنا روّاد(٣) بن الجراح، حدثنا عباد بن عباد الخواص أبو عتبة، حدثنا السيبانى(٤)، عن ابن(٥) وَعْلَة، عن كُرَيْب السَّحولى، عن مُرَّة البَهْزِى قال: سمعت النبى ﷺ يقول لرجل: «إنك ميت(٦) بالربوة» فمات بالرملة.(٧) وهذا حديث غريب جداً.

وأقرب الأقوال فى ذلك ما رواه العَوْفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾، قال: المعين الماء الجارى، وهو النهر الذى قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤].

وكذا قال الضحاك، وقتادة: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾: هو بيت المقدس. فهذا والله أعلم هو الأظهر؛ لأنه المذكور فى الآية الأخرى. والقرآن يفسر بعضه بعضاً. وهو أولى ما يفسر به، ثم الأحاديث الصحيحة، ثم الآثار.

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦) ﴾.

يأمر تعالى عباده المرسلين، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدل هذا على أن الحلال عَون على العمل الصالح، فقام الأنبياء، عليهم السلام، بهذا أتم القيام. وجمعوا بين كل خير، قولا وعملا ودلالة ونصحاً، فجزاهم الله عن العباد خيراً.

قال الحسن البصرى فى قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ قال: أما والله ما أُمِروا بأصفركم ولا أحمركم، ولا حلوكم ولا حامضكم، ولكن قال: انتهوا إلى الحلال منه.

وقال سعيد بن جبير، والضحاك: ﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يعنى: الحلال.

---

(١) زيادة من ف. (٢) فى ف: «فى قول الله». (٣) فى ف: «داود».
(٤) فى ف، أ: «الشيبانى» وهو الصحيح. (٥) فى ف، أ: «أبى» وهو الصحيح. (٦) فى ف، أ: «تموت».
(٧) فيه عباد بن عباد له مناكير.

وقال أبو إسحاق السَّبِيعى، عن أبى مَيْسَرَةَ بن شُرَحْبِيل: كان عيسى ابن مريم يأكل من غزل أمه.

وفى الصحيح: «ما من نبى إلا رعى الغنم». قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»(١).

وفى الصحيح: أن داود، عليه السلام، كان يأكل من كسب يده(٢).

وفى الصحيحين: «إن أحب الصيام إلى الله صيام داود، وأحب القيام إلى الله قيام داود، كان(٣) ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سُدسَه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يَفر إذا لاقى»(٤).

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، حدثنا أبو بكر بن أبى مريم، عن ضَمْرة بن حبيب، أن أم عبد الله، أخت(٥) شداد بن(٦) أوس بعثت إلى النبى ﷺ بقدح لبن عند فطره وهو صائم، وذلك فى أول النهار وشدة الحر، فرد إليها رسولها: أنَّى كانت لك الشاة؟ فقالت: اشتريتها من مالى، فشرب منه، فلما كان الغد أتته أم عبد الله أخت(٧) شداد فقالت: يا رسول الله(٨)، بعثتُ إليك بلبن مَرثية(٩) لك من طول النهار وشدة الحر، فرددت إلىّ الرسول فيه؟ فقال لها: «بذلك أمرت الرسل، ألا تأكل إلا طيبا، ولا تعمل إلا صالحا»(١٠).

وقد ثبت فى صحيح مسلم، وجامع الترمذى، ومسند الإمام أحمد ـ واللفظ له ـ من حديث فُضَيْل بن مرزوق، عن عَدِىّ بن ثابت، عن أبى حازم، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يأيها الناس، إنّ الله طَيِّبٌ لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿ **يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ** ﴾. وقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ** ﴾ [البقرة: ١٧٢]. ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشْعَثَ أغْبَرَ، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّى بالحرام، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، فأنَّى يستجاب لذلك»(١١).

وقال الترمذى: حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث فُضيل بن مرزوق.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٢٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٢) صحيح البخارى برقم (٢٠٧٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.
(٣) فى ف: «وكان».
(٤) صحيح البخارى برقم (١١٣١) وصحيح مسلم برقم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما.
(٥) فى أ: «بنت». (٦) فى ف: «بنت».
(٧) فى ف، أ: «بنت».
(٨) فى ف: «يا رسول الله صلى الله عليك»، وفى أ: « يارسول الله ﷺ». (٩) فى ف: «مرثته».
(١٠) ورواه الحاكم فى المستدرك (٤/ ١٢٥) من طريق المعافى بن عمران عن أبى بكر بن أبى مريم به نحوه، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وتعقبه الذهبى: «قلت: وابن أبى مريم واه».
(١١) صحيح مسلم برقم (١٠١٥) وسنن الترمذى برقم (٢٩٨٩) والمسند (٦/ ١٥٩).

وقوله: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى[1]: دينكم ـ يامعشر الأنبياء ـ دين واحد، وملة واحدة، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾، وقد تقدم الكلام على ذلك فى سورة «الأنبياء»، وأن قوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ منصوب على الحال.

وقوله: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أى: الأمم الذين بُعث إليهم الأنبياء، ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أى: يفرحون بما هم فيه من الضلال؛ لأنهم يحسبون أنهم مهتدون؛ ولهذا قال متهدداً لهم ومتوعداً: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ أى: فى غيهم وضلالهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أى: إلى حين حينهم وهلاكهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧]، وقال تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

وقوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ يعنى: أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزتهم عندنا؟ !كلا، ليس الأمر كما يزعمون فى قولهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[سبأ: ٣٥]، لقد أخطؤوا فى ذلك وخاب رجاؤهم، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجا وإنظارا وإملاء؛ ولهذا قال: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ. وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥] وقال: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا. وَبَنِينَ شُهُودًا. وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا. ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ. كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١١ـ ١٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[سبأ: ٣٧] والآيات فى هذا كثيرة.

قال[2] قتادة فى قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ قال: مُكِرَ والله بالقوم فى أموالهم وأولادهم، يابن آدم، فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد [بن عُبَيْد، حدثنا أبان بن إسحاق، عن الصباح بن محمد، عن مرة الهمدانى، حدثنا عبد الله][3] بن مسعود رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قَسَم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يُعطى الدنيا من يُحِبّ ومن لا يحب، ولا يعطى الدِّين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذى نَفْسى بيده، لا يسلم[4] عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ـ قالوا: وما بوائقه يا نبى الله؟ قال: غشمه وظلمه ـ

---

(١) فى ف، أ: «وإن».
(٢) فى أ: «وقال».
(٣) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٤) فى ف: «يؤمن».

ولا يكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل [١] منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»[٢].

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ أى: هم مع [٣] إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصرى: إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمناً.

﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم، عليها السلام: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ [التحريم: ١٢]، أى: أيقنت أن ما كان فإنما هو عن قدر الله وقضائه، وماشرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهيا[٤] فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ أى: لا يعبدون معه غيره، بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحداً صمداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له ولا كفء له.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أى: يعطون العطاء[٥] وهم خائفون [٦] ألا يتقبل منهم، لخوفهم [٧] أن يكونوا قد قصروا فى القيام بشروط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك بن مغول، حدثنا عبد الرحمن بن سعيد بن وهب، عن عائشة؛ أنها قالت: يارسول الله، ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، هو الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا يابنت أبى بكر، يابنت الصديق، ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل».

وهكذا رواه الترمذى وابن أبى حاتم، من حديث مالك بن مغول، به بنحوه[٨]. وقال: «لا يابنت الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم، ﴿أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾». قال الترمذى: وروى هذا الحديث من حديث عبد الرحمن بن سعيد، عن

---

(١) فى ف: «منه ليتقبل» وفى أ: «فيتقبل».
(٢) المسند (١/ ٣٨٧).
(٣) فى ف: «قى» وفى أ: «من».
(٤) فى ف: «منهيا».
(٥) فى ف: «العطاء فيه».
(٦) فى أ: «خائفون وجلون».
(٧) فى ف: «تخوفهم».
(٨) المسند (٦/ ١٥٩) وسنن الترمذى برقم (٣١٧٥).

أبي حازم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ نحو هذا[١].

وهكذا قال ابن عباس، ومحمد بن كعب القرظي، والحسن البصري في تفسير هذه الآية.

وقد قرأ آخرون هذه الآية: «والذين يأتون ما أتوا وقلوبهم وجلة» أي: يفعلون ما يفعلون وهم خائفون، وروى هذا مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قرأ كذلك.

قال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا صخر بن جُوَيْرية، حدثنا إسماعيل المكي، حدثني أبوخلف مولى بني جُمَح: أنه دخل مع عُبَيد بن عُمَيْر على[٢] عائشة، رضي الله عنها، فقالت: مرحباً بأبي عاصم، ما يمنعك أن تزورنا ـ أو: تُلِمّ بنا؟ ـ فقال: أخشى أن أُمِلَّك. فقالت: ماكنت لتفعل؟ قال: جئت لأسأل[٣] عن آية في كتاب الله عز وجل، كيف كان رسول الله ﷺ يقرؤها؟ قالت: أيّة آية؟ فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ أو ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾؟ فقالت: أيتهما[٤] أحب إليك؟ فقلت: والذي نفسي بيده، لإحداهما أحب إلي من الدنيا جميعاً[٥] ـ أو: الدنيا وما فيها ـ قالت: وماهي؟ فقلت: ﴿الَّذِينَ يَأْتُونَ مَا أَتَوا﴾ فقالت: أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها، وكذلك أنزلت، ولكن الهجاء حرف[٦].

إسماعيل بن مسلم المكي، وهو ضعيف.

والمعنى على القراءة الأولى ـ وهي قراءة الجمهور: السبعة وغيرهم ـ أظهر؛ لأنه قال: ﴿أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾، فجعلهم من السابقين. ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك ألا يكونوا من السابقين، بل من المقتصدين أو المقصرين، والله تعالى أعلم.

﴿ وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧) ﴾.

يقول تعالى مخبراً عن عَدْله في شرعه على عباده في الدنيا: أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، أي: إلا ما تطيق حمله والقيام به، وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور لا يضيع منه شيء؛ ولهذا قال: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ يعني: كتاب الأعمال، ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يبخسون من الخير شيئا، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين.

---

(١) سنن الترمذي برقم (٣١٧٥).

(٢) في أ: «إلى».

(٣) في ف: «لأسألك».

(٤) في أ: «أيتها».

(٥) في ف: «جميعها».

(٦) المسند (٦/ ٩٥).

ثم قال منكرا على الكفار والمشركين من قريش: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ أى: غفلة وضلالة ﴿مِّنْ هَٰذَا﴾ أى: القرآن الذى أنزله [الله تعالى] [1] على رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾: قال الحكم [2] بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ أى: سيئة من دون ذلك، يعنى: الشرك، ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ قال: لابد أن يعملوها. وكذا روى عن مجاهد، والحسن، وغير واحد.

وقال آخرون: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾أى: قد كتب عليهم أعمال سيئة لابد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة، لتحق عليهم كلمة العذاب. ورُوِى نَحو هذا عن مقاتل بن حَيَّان والسُّدِّىّ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. وهو ظاهر قوى حسن. وقد قدمنا فى حديث ابن مسعود: «فوالذى لا إله غيره، إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها».

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ يعنى: حتى إذا جاء مترفيهم ـ وهم السعداء المنعمون فى الدنيا ـ عذابُ الله وبأسه ونقمته بهم ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ أى: يصرخون ويستغيثون، كما قال تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً . إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيمًا. وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل: ١١ ـ ١٣]، وقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَّلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣].

وقوله: ﴿لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لا تُنصَرُونَ﴾ أى: لا نجيركم [3] مما حل بكم، سواء جأرتم أو سكتُّم، لا محيد ولا مناص ولا وَزَرَ لزم الأمر ووجب العذاب.

ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾ أى: إذا دعيتم أبيتم، وإن [4] طُلبتم امتنعتم؛ ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴾ [غافر: ١٢].

وقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾: فى تفسيره قولان، أحدهما: أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه، استكباراً عليه واحتقاراً له ولأهله، فعلى هذا الضمير فى ﴿به﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدهما[5]: أنه الحرم بمكة، ذموا لأنهم كانوا يسمرون بالهُجْر [6] من الكلام.

والثانى: أنه [7] ضمير القرآن، كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام: «إنه سحر، إنه شعر، إنه كهانة» إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة.

---

(١) زيادة من أ.
(٢) فى أ: «الحكيم».
(٣) فى أ: «يجيركم».
(٤) فى ف، أ: «وإذا».
(٥) فى أ: «أحدها».
(٦) فى أ: «الهجر».
(٧) فى أ: «هو».

والثالث: أنه محمد ﷺ، كانوا يذكرونه فى سمرهم بالأقوال الفاسدة، ويضربون له الأمثال الباطلة، من أنه شاعر، أو كاهن، أو ساحر، أو كذاب، أو مجنون. وكل ذلك باطل، بل هو عبد الله ورسوله، الذى أظهره الله عليهم، وأخرجهم من [١] الحرم صاغرين أذلاء.

وقيل: المراد بقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ أى: بالبيت، يفتخرون به ويعتقدون أنهم [٢] أولياؤه، وليسوا[٣] بهم، كما قال النسائى فى التفسير [٤] من سننه:

أخبرنا أحمد بن سليمان، أخبرنا عبيد الله، عن إسرائيل، عن عبد الأعلى، أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس أنه قال: إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾، فقال: مستكبرين بالبيت، يقولون: نحن أهله، ﴿سَامِرًا﴾ قال: يتكبرون [ويسمرون فيه، ولا] [٥] يعمرونه، ويهجرونه[٦].

وقد أطنب ابن أبى حاتم هاهنا بما ذا [٧] حاصله.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (٧٤) وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥)﴾.

يقول تعالى منكرا على المشركين فى عدم تفهمهم للقرآن العظيم، وتدبرهم له وإعراضهم عنه، مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذى لم ينزل الله على رسول أكمل منه ولا أشرف، لا سيما وآباؤهم الذين ماتوا فى الجاهلية، حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهم نذير، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التى أسداها الله إليهم بقبولها، والقيام بشكرها وتفهمها، والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار، كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، ورضى عنهم.

وقال قتادة: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾: إذًا والله يجدون [٨] فى القرآن زاجرا عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه، ولكنهم أخذوا بما تشابه، فهلكوا عند ذلك.

---

(١) فى أ: «إلى». (٢) فى أ: «وتعتقدون أنكم». (٣) فى ف: «وليسم» وفى أ: «ولستم».
(٤) فى ف، أ: «تفسيره». (٥) زيادة من ف.
(٦) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٥١).
(٧) فى أ: «هذا». (٨) فى ف، أ: «تجدون».

ثم قال منكرا على الكافرين من قريش: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ أى: أفهم [1] لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانته التى نشأ بها فيهم، أفيقدرون [2] على إنكار ذلك والمباهتة فيه؟ ولهذا قال جعفر بن أبى طالب، رضى الله عنه، للنجاشى ملك الحبشة: أيها الملك، إن الله بعث إلينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته. وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل، حين سأله وأصحابه عن صفات النبى ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفاراً لم يسلموا، ومع هذا ما أمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾: يحكى قول المشركين عن النبى ﷺ أنه تقوَّل [3] القرآن، أى: افتراه من عنده، أو أن به جنونا لا يدرى ما يقول. وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه فى القرآن، فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يُطاق ولا يُدافع، وقد تحدّاهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله، فما استطاعوا ولا يستطيعون أبد الآبدين؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾: يحتمل أن تكون هذه جملة حالية، أى: فى حال كراهة [4] أكثرهم للحق، ويحتمل أن تكون خبرية مستأنفة، والله أعلم.

وقال قتادة: ذكر لنا أن نبى الله ﷺ لقى رجلا فقال له: «أسلم» فقال الرجل: إنك لتدعونى إلى أمر أنا له كاره. فقال نبى الله ﷺ: «وإن كنت كارها». وذُكر لنا أنه لقى رجلا فقال له: «أسلم» فَتَصَعَّده [5] ذلك وكبر عليه، فقال له نبى الله: «أرأيت لو كنتَ فى طريق وَعْر وَعْث، فلقيت رجلا تعرف وجهه، وتعرف نسبه، فدعاك إلى طريق واسع سهل، أكنت متبعه [6]؟» قال: نعم. فقال: «فوالذى [7] نفس محمد بيده، إنك لفى أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه، وإنى لأدعوك إلى أسهل من ذلك لو دعيت إليه». وذكر لنا أن نبى الله ﷺ لقى رجلا، فقال له: «أسلم» فَتَصَعَّده ذلك، فقال له نبى الله ﷺ: «أرأيت فَتَيَيْكَ، أحدهما إذا حَدَّثك صدقك، وإذا [8] ائتمنته أدى إليك أهو أحب إليك، أم فتاك الذى إذا حدثك كذبك وإذا [9] ائتمنته خانك؟». قال: بل فتاى الذى إذا حدثنى صدقنى، وإذا ائتمنته أدى إلى. فقال النبى [10] ﷺ: «كذاكم أنتم عند ربكم».

وقوله: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾: قال مجاهد، وأبوصالح والسدى: الحق هو الله عز وجل، والمراد: لو أجابهم الله إلى ما فى أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ [11] وَمَن فِيهِنَّ﴾ أى: لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم فى قولهم: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، ثم قال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢] وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠] وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ

---

(١) فى ف: «هم» وفى أ: «أهم». (٢) فى ف، أ: «أفتقدرون». (٣) فى أ: «يقول».
(٤) فى ف: «كراهته». (٥) فى ف، أ: «فصعد». (٦) فى ف: «تتبعه».
(٧) فى ف: «والذى». (٨، ٩) فى ف: «وإن». (١٠) فى ف: «نبى الله».
(١١) فى ف: «الأرض والسموات».

نَقِيرًا [النساء: ٥٣]، ففى هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل فى جميع صفاته وأقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وتدبيره لخلقه[١]، تعالى وتقدس، فلا إله غيره، ولا رب سواه.

ثم قال: ﴿**بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ**﴾ يعنى: القرآن، ﴿**فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ**﴾.

وقوله: ﴿**أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا**﴾: قال الحسن: أجرا. وقال قتادة: جعلا ﴿**فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ**﴾ أى: أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلا ولا شيئا على دعوتك إياهم إلى الهدى، بل أنت فى ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه، كما قال: ﴿**قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ**﴾ [سبأ: ٤٧]، وقال: ﴿**قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ**﴾ [ص: ٨٦]، وقال: ﴿**قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ**﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿**وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [يس: ٢٠، ٢١].

وقوله: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ . وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ**﴾ قال الإمام أحمد:

حدثنا حسن بن موسى، حدثنا حماد بن سلمة، عن على بن زيد بن جُدْعَان، عن يوسف بن مِهْرَان، عن ابن عباس؛ أن رسول الله ﷺ أتاه ـ فيما يرى النائم ـ ملكان، فقعد أحدهما عند رجليه، والآخر عند رأسه، فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه: اضرب مَثَل هذا ومثل أمته. فقال: إن مَثَلَه ومثل أمته، كمثل قوم سَفْر انتهوا إلى رأس مَفَازة، فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به، فبينا[٢] هم كذلك إذ أتاهم رجل فى حلة حبرة، فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضا معشبة، وحياضا رواء تتبعونى؟ فقالوا: نعم: قال. فانطلق، فأوردهم رياضا معشبة وحياضا رواء، فأكلوا وشربوا وسمنوا فقال لهم: ألم ألفكم على تلك الحال، فجعلتم لى إن وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء أن تتبعونى؟ قالوا[٣]: بلى قال: فإن بين أيديكم رياضا أعشب من هذه، وحياضا هى أروى من هذه، فاتبعونى. قال: فقالت طائفة: صدق والله، لنتبعنه. وقالت طائفة: قد رضينا بهذا نقيم عليه[٤].

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى: حدثنا زهير، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا يعقوب بن عبد الله الأشعرى، حدثنا حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى ممسك بحجزكم: هَلُمَّ عن النار، هلم عن النار، وتغلبونى وتقاحمون فيها تَقَاحُم الفراش والجنادب، فأوشك أن أرسل حجزكم وأنا فَرَطكم على الحوض، فتردون على معا وأشتاتا، أعرفكم بسيماكم وأسمائكم، كما يعرف الرجل الغريب من الإبل فى إبله، فيُذْهَب بكم ذات اليمين وذات الشمال، فأناشد فيكم رب العالمين: أى رب، قومى، أى رب أمتى.

(١) فى ف: «بخلقه». (٢) فى أ: «فبينما». (٣) فى أ: «فقالوا».
(٤) المسند (١/ ٢٦٧).

فيقال: يامحمد، إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك، إنهم كانوا يمشون بعدك القهقرى على أعقابهم، فلأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء، ينادى: يا محمد، يا محمد. فأقول: لا أملك لك شيئا. قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل بعيرا له رُغَاء، ينادى: يامحمد، يامحمد. فأقول: لا أملك [1] شيئا، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل فرسا لها حمحمة، فينادى: يامحمد، يا محمد، فأقول: لا أملك لك شيئا، قد بلغت، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل سقاء من أدم، ينادى: يامحمد، يامحمد: فأقول: لا أملك لك شيئا قد بلغت»[2].

وقال على بن المدينى: هذا حديث حسن الإسناد، إلا أن حفص بن حميد مجهول، لا أعلم روى عنه غير يعقوب بن عبد الله الأشعرى القمى.

قلت: بل قد روى عنه أيضا أشعث بن إسحاق، وقال فيه يحيى بن معين: صالح. ووثقه النسائى وابن حبان.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾ أى: لعادلون جائرون منحرفون. تقول العرب: نكب فلان عن الطريق: إذا زاغ عنها.

وقوله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾: يخبر تعالى عن غلظهم[3] فى كفرهم بأنه لو أراح عَلَلَهُم وأفهمهم القرآن، لما انقادوا له ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧ ـ ٢٩] فهذا من باب علمه تعالى بما لا يكون، لو كان كيف يكون[4].

[و] [5] قال الضحاك، عن ابن عباس: كل ما فيه «لو»، فهو مما لا يكون أبدا

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا

---

(١) فى ف، أ: «لا أملك لك».

(٢) ورواه البزار فى مسنده برقم (٩٠٠) وابن عبد البر فى التمهيد (٢/ ٣٠٠) من طريق مالك بن إسماعيل عن يعقوب بن عبد الله الأشعرى به نحوه.

وقال الهيثمى فى المجمع (٣/ ٨٥): «رواه أبو يعلى فى الكبير والبزار إلا أنه قال: يحمل قشعاً مكان سقاء. ورجال الجميع ثقات».

(٣) فى أ: «غلظهم». (٤) فى ف، أ: «ولو كان كيف كان يكون». (٥) زيادة فى ف، أ.

أئذا متنا وكُنَّا تُرابًا وعِظامًا أئِنَّا لمبعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لقَدْ وُعِدْنَا نحنُ وآباؤُنَا هذا من قَبْلُ إنْ هذا إلاَّ أساطيرُ الأوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

يقول تعالى: ﴿**ولَقدْ أخذْنَاهُم بِالْعذابِ**﴾ أى: ابتليناهم بالمصائب والشدائد، ﴿**فَمَا اسْتَكَانُوا لرَبِّهِمْ وَمَا يَتضرَّعُونَ**﴾، أى: فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة، بل استمروا على ضلالهم وغيهم. ﴿**فَمَا اسْتكَانُوا**﴾ أى: ما خشعوا، ﴿**وَمَا يَتضرَّعُونَ**﴾ أى: ما دعوا، كما قال تعالى: ﴿**فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضرَّعُوا ولَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنعام: ٤٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا محمد بن حمزة المروزى، حدثنا على ابن الحسين، حدثنا أبى، عن يزيد ـ يعنى: النحوى ـ عن عكرمة، عن ابن عباس، أنه قال: جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العلهز ـ يعنى: الوبر والدم ـ فأنزل الله: ﴿**ولَقَدْ أَخذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتضرَّعُونَ**﴾.

وهكذا رواه النسائى عن محمد بن عقيل، عن على بن الحسين، عن أبيه، به [١]. وأصل هذا الحديث فى الصحيحين: أن [٢] رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال: «اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف» [٣].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا سلمة بن شَبيب، حدثنا عبد الله بن إبراهيم ابن عمر بن كَيْسَان، عن [٤] وهب بن عمر بن كيسان قال: حُبِس وهب بن منبه، فقال له رجل من الأبناء: ألا أنشدك بيتا من شعر يا أبا عبد الله؟ فقال وهب: نحن فى طرف من عذاب الله، والله تعالى يقول: ﴿**ولَقَدْ أَخذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتضرَّعُونَ**﴾ قال: وصام وهب ثلاثا متواصلة، فقيل له: ما هذا الصوم يا أبا عبد الله؟ قال: أحدَث لنا فأحدثنا. يعنى: أحدث لنا الحبس، فأحدثنا زيادة عبادة.

وقوله: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ**﴾ أى: حتى إذا جاءهم أمر الله وجاءتهم الساعة بغتة وأخذهم من عقاب الله ما لم يكونوا يحتسبون، فعند ذلك أبْلَسُوا [٥] من كل خير، وأيسوا من كل راحة، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم.

ثم ذكر تعالى نعمته على عباده فى أن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وهى العقول والفهوم، التى يدركون [٦] بها الأشياء، ويعتبرون بما فى الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى، وأنه الفاعل المختار لما يشاء.

---

(١) سنن النسائى الكبرى برقم (١١٣٥٢).
(٢) فى ف، أ: «عن».
(٣) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٣) وصحيح مسلم برقم (٢٧٩٨) من حديث ابن مسعود رضى الله عنه.
(٤) فى ف، أ: «حدثنى». (٥) فى أ: «أيسوا». (٦) فى ف: «تدركون».

وقوله: ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: وما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم، كقوله ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر، فى بَرْئة الخليقة وذرئه لهم فى سائر أقطار الأرض، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم، فلا يترك منهم صغيرا ولا كبيرا، ولا ذكرا ولا أنثى، ولا جليلا ولا حقيرا، إلا أعاده كما أبدأه؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أى: يحيى الرمم ويميت الأمم، ﴿وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أى: وعن أمره تسخير الليل والنهار، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، يتعاقبان لا يفتران، ولايفترقان بزمان غيرهما، كقوله تعالى: ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وقوله: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أى: أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم، الذى قد قهر كل شيء، وعز كل شيء، وخضع له كل شيء.

ثم قال مخبرا عن منكرى البعث، الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ . قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ يعنى يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى، ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ يعنون: [أن][1] الإعادة محال، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلاقهم. وهذا الإنكار والتكذيب منهم كقوله تعالى إخبارا عنهم: ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً . قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ . فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١١ ـ ١٤]، وقال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩].

﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠)﴾.

يقرر تعالى وحدانيته، واستقلاله بالخلق والتصرف والملك، ليرشد إلى أنه الذى لا إله إلا هو، ولا تنبغى العبادة إلا له وحده لا شريك له؛ ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره، المعترفين له بالربوبية، وأنه لا شريك له فيها، ومع هذا فقد أشركوا معه فى

---

(١) زيادة من أ.

الإلهية، فعبدوا غيره معه، مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً، ولا يملكون شيئا، ولا يستبدّون بشيء، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى: ﴿مَا [١]نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، فقال: ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا﴾ أى: من مالكها الذى خلقها ومن [٢] فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات، وسائر صنوف المخلوقات ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ . سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أى: فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له، فإذا كان ذلك[٣] ﴿قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾ [أى: لا تذكرون] [٤] أنه لا تنبغى [٥] العبادة إلا للخالق الرازق [٦] لا لغيره.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ أى: من هو خالق العالم العُلْوى بما فيه من الكواكب النيّرات، والملائكة الخاضعين له فى سائر الأقطار منها والجهات، ومن هو رب العرش العظيم، يعنى: الذى هو سقف المخلوقات، كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «شأن الله أعظم من ذلك، إن [٧] عرشه على سمواته هكذا» وأشار بيده مثل القبة[٨].

وفى الحديث الآخر: «ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وإن الكرسى بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة فى تلك الفلاة» [٩]. ولهذا قال بعض السلف: إن مسافة ما بين قطرى العرش من جانب إلى جانب مسيرة خمسين ألف سنة، [وارتفاعها عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة][١٠].

وقال الضحاك، عن ابن عباس: إنما سمى عرشاً لارتفاعه.

وقال الأعمش عن كعب الأحبار: إن السموات والأرض فى العرش، كالقنديل المعلق بين السماء والأرض.

وقال مجاهد: ما السموات والأرض فى العرش إلا كحلقة فى أرض فَلاَة.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا العلاء بن سالم، حدثنا وَكِيع، حدثنا [١١] سفيان الثورى، عن عمار الدُّهنى[١٢]، عن مسلم البَطِين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: العرش لا يقدر أحد قدره. وفى رواية: إلا الله عز وجل[١٣].

وقال بعض السلف: العرش من ياقوتة حمراء.

ولهذا قال هاهنا: ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يعنى: الكبير: وقال فى آخر السورة: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ

---

(١) فى أ: «إنما» وهو خطأ. (٢) فى ف، أ: «وما». (٣) فى ف، أ: «كذلك».
(٤) زيادة من ف، أ. (٥) فى أ: «يليق». (٦) فى ف: «الرزاق».
(٧) فى ف: «لأن».
(٨) سنن أبى داود برقم (٤٧٢٦) عن حديث جبير بن مطعم رضى الله عنه.
(٩) رواه الطبرى فى تفسيره (٣٩٩/٥) من طريق ابن وهب عن ابن زيد عن أبيه عن أبى ذر رضى الله عنه، وقد سبق من رواية ابن مردويه عند تفسير الآية: ٢ من سورة الرعد.
(١٠) زيادة من أ. (١١) فى أ: «عن». (١٢) فى أ: «الذهبى».
(١٣) ورواه ابن أبى شيبة فى صفة العرش (ق ١١٤) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٢٨٢) من طريق الضحاك بن مخلد عن سفيان عن عمار الذهنى به، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» وأقره الذهبى.

﴿الْكَرِيمِ﴾ أى: الحسن البهى. فقد جمع العرش بين العظمة فى الاتساع والعلو، والحسن الباهر؛ ولهذا قال من قال: إنه من ياقوتة حمراء.

وقال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور [١] العرش من نور وجهه.

وقوله: ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ أى: إذا كنتم تعترفون [٢] بأنه رب السموات ورب العرش العظيم، أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه، فى عبادتكم معه غيره وإشراككم به؟

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا القرشى فى كتاب «التفكر والاعتبار»: حدثنا إسحاق ابن إبراهيم، أخبرنا عبد الله [٣] بن جعفر، أخبرنى عبد الله بن دينار، عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدث عن امرأة كانت فى الجاهلية على رأس جبل، معها ابن لها يرعى غنما، فقال لها ابنها: يا أماه، من خلقك؟ قالت: الله. قال: فمن خلق أبى؟ قالت: الله. قال: فمن خلقنى؟ قالت: الله. قال: فمن خلق السماء؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الأرض؟ قالت: الله. قال: فمن خلق الجبل؟ قالت: الله. قال: فمن خلق هذه الغنم؟ قالت: الله. قال: فإنى أسمع لله شأنا ثم ألقى نفسه من الجبل فتقطع.

قال ابن عمر: كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يحدثنا هذا الحديث.

قال عبد الله بن دينار: كان [٤] ابن عمر كثيرا ما يحدثنا بهذا الحديث.

قلت: فى إسناده عبد الله [٥] بن جعفر المدينى، والد الإمام على بن المدينى، وقد تكلموا فيه، فالله أعلم[٦].

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى: بيده الملك، ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦]، أى: متصرف فيها. وكان رسول الله ﷺ يقول: «لا، والذى نفسى بيده»، وكان إذا اجتهد فى اليمين قال[٧]: «لا، ومقلب القلوب»، فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف، ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً، لا يُخْفَر فى جواره، وليس لمن دونه أن يجير عليه، لئلا يفتات عليه، ولهذا قال الله: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أى: وهو السيد العظيم الذى لا أعظم منه، الذى له الخلق والأمر، ولا معقب لحكمه، الذى لا يمانع ولا يخالف، وما شاء[٨] كان، وما لم يشأ لم يكن، وقال الله: ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، أى: لا يسئل عما يفعل؛ لعظمته وكبريائه، وقهره وغلبته، وعزته وحكمته [٩]، والخلق كلهم يُسألون عن

(١) فى أ: «فوق». (٢) فى أ: «تعرفون». (٣) فى ف، أ: «عبيد الله».
(٤) فى ف: «وكان». (٥) فى أ: «عبيد الله».
(٦) ورواه ابن عدى فى الكامل (٤/ ١٧٨) من طريق إسحاق بن أبى إسرائيل عن عبد الله بن جعفر به، وقال: «غير محفوظ لا يحدث به عن ابن دينار غير عبد الله بن جعفر» وعبد الله بن جعفر المدينى ضعيف عند الأئمة.
(٧) فى أ: «يقول». (٨) فى ف، أ: «وما شاء الله». (٩) فى ف، أ: «وحكمته وعدله».

أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أى: سيعترفون أن السيد العظيم الذى يجير ولا يجار عليه، هو الله تعالى، وحده لا شريك له ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أى: فكيف تذهب عقولكم فى عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾، وهو الإعلام بأنه لا إله إلا الله، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك، ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ أى: فى عبادتهم مع الله غيره، ولا دليل لهم على ذلك/ كما قال فى آخر السورة: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، فالمشركون لا يفعلون ذلك [عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال، وإنما يفعلون ذلك] (١) اتباعا لآبائهم وأسلافهم الحيارى الجهال، كما قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)﴾.

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك فى الملك، فقال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أى: لو قُدّر تعدد الآلهة، لانفرد كل منهم بما يخلق، فما كان ينتظم الوجود. والمشاهد أن الوجود منتظم متسق، كل من العالم العلوى والسفلى مرتبط بعضه ببعض، فى غاية الكمال، ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ [الملك: ٣] ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه، فيعلو بعضهم على بعض. والمتكلمون ذكروا هذا المعنى وعبروا عنه بدليل التمانع، وهو أنه لو فرض صانعان فصاعدا، فأراد واحد تحريك جسم وأراد الآخر سكونه، فإن لم يحصل مراد كل واحد منهما كانا عاجزين، والواجب لا يكون عاجزاً، ويمتنع اجتماع مراديهما للتضاد. وما جاء هذا المحال إلا من فرض التعدد، فيكون محالا، فأما إن حصل مراد أحدهما دون الآخر، كان الغالب هو الواجب، والآخر المغلوب ممكناً؛ لأنه لا يليق بصفة الواجب أن يكون مقهورا؛ ولهذا قال: ﴿ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أى: عما يقول الظالمون المعتدون فى دعواهم الولد أو الشريك علوا كبيرا.

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه، ﴿فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أى: تقدس وتنزه وتعالى وعز وجل[عما يقول الظالمون والجاحدون](٢).

(١، ٢) زيادة من ف، أ.

﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ (٩٨) ﴾.

يقول تعالى آمرا [نبيه محمداً ﷺ] (١) أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم: ﴿ رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ﴾ أى: إن عاقبتهم ـ وإنى شاهدُ ذلك ـ فلا تجعلنى فيهم، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والترمذى ـ وصححه ـ: «وإذا أردت بقوم فتنة فتوفنى إليك غير مفتون»(٢).

وقوله: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ﴾ أى: لو شئنا لأريناك ما نحل (٣) بهم من النقم والبلاء والمحن.

ثم قال مرشداً له إلى التِّرْياق النافع فى مخالطة الناس، وهو الإحسان إلى من يسىء، ليستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة، فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾، وهذا كما قال فى الآية الأخرى: ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]: أى ما يلهم هذه الوصية أو الخصلة(٤) أو الصفة ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أى: على أذى الناس، فعاملوهم بالجميل مع إسدائهم إليهم القبيح، ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ أى: فى الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ : أمره أن يستعيذ من الشياطين، لأنهم لا تنفع(٥) معهم الحيل، ولا ينقادون بالمعروف.

وقد قدمنا عند الاستعاذة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، من هَمْزه ونَفْخه ونَفْثه»(٦).

وقوله: ﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ أى: فى شىء من أمرى؛ ولهذا أمر بذكر الله فى ابتداء الأمور ـ وذلك مطردة للشياطين (٧) ـ عند الأكل والجماع والذبح، وغير ذلك من الأمور؛ ولهذا روى أبو داود أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم إنى أعوذ بك من الهَرَم، وأعوذ بك من الهَدْم ومن الغرق، وأعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت»(٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أخبرنا محمد بن إسحاق، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه،

---

(١) زيادة من ف، أ.

(٢) المسند (٥/٢٤٣) وسنن الترمذى برقم (٣٢٣٥) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه، وقال: «هذا حديث حسن صحيح، سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال: هذا حديث حسن صحيح».

(٣) فى ف، أ: «ما يحل». (٤) فى ف: «الخصلة أو الوصية». (٥) فى ف، أ: «لا ينفع».

(٦) انظر الاستعاذة عند تفسير سورة الفاتحة.

(٧) فى ف: «للشيطان».

(٨) سنن أبى داود برقم (١٥٥٢).

عن جده قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم، من الفزع: «باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه، ومن شر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» قال: فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه، ومن كان منهم صغيرا لا يعقل أن يحفظها، كتبها له، فعلقها فى عنقه.

ورواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، من حديث محمد بن إسحاق(١) ،قال الترمذى: حسن غريب.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾.

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت، من الكافرين أو المفرطين فى أمر الله تعالى، وقيلهم عند ذلك، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا، ليصلح ما كان أفسده فى مدة حياته؛ ولهذا قال: ﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾ كما قال تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ. وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾[إبراهيم: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ . ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١١، ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، فذكر تعالى أنهم يسألون الرجعة، فلا يجابون، عند الاحتضار، ويوم النشور ووقت العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار، وهم فى غمرات عذاب الجحيم.

وقوله : هاهنا: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾: كلا: حرف ردع وزجر، أى: لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه.

---

(١) المسند (٢/ ١٨١) وسنن أبى داود برقم (٣٨٩٣) وسنن الترمذى برقم (٣٥٢٨) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٦٠١).

وقوله: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أى لابد أن يقولها لا محالة كل مختصر ظالم.

ويحتمل أن يكون ذلك علة لقوله: «كلا»، أى: لأنها كلمة، أى: سؤاله الرجوع ليعمل صالحا هو كلام منه، وقول لا عمل معه، ولو رد لما عمل صالحا، ولكان يكذب فى مقالته هذه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

وقال محمد بن كعب القرظى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾قال: فيقول الجبار: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾.

وقال عمر بن عبد الله مولى غُفْرَة: إذا سمعت الله يقول: ﴿كَلاَّ﴾، فإنما يقول: كذب[1].

وقال قتادة فى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾: قال: كان العلاء بن زياد يقول: لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، فاستقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله عز وجل.

وقال قتادة: والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله، فانظروا أمنية الكافر المفرط فاعملوا بها، ولا قوة إلا بالله. وعن محمد بن كعب القرظى نحوه.

وقال محمد بن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن يوسف، حدثنا فضيل ـ يعنى: ابن عياض ـ عن لَيْث، عن طلحة بن مُصَرِّف، عن أبى حازم، عن أبى هريرة قال: إذا وضع ـ يعنى: الكافر ـ فى قبره، فيرى مقعده من النار . قال: فيقول: رب، ارجعون أتوب وأعمل صالحا. قال: فيقال: قد عُمِّرت ما كنت مُعَمَّرا. قال : فيضيق عليه قبره، قال: فهو كالمنهوش، ينام ويفزع، تهوى[2] إليه هَوَامّ الأرض وحياتها وعقاربها.

وقال أيضاً: حدثنا أبى، حدثنا عمرو بن على، حدثنى سلمة بن تمام، حدثنا على بن زيد[3]، عن سعيد بن المسيب، عن عائشة، أنها قالت: ويل لأهل المعاصى من أهل القبور!! تدخل [4] عليهم فى قبورهم حيات سود ـ أو: دُهُم ـ حية عند رأسه، وحية عند رجليه، يقرصانه حتى يلتقيا [5] فى وسطه، فذلك العذاب فى البرزخ الذى قال الله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

وقال أبو صالح وغيره فى قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم﴾ : يعنى: أمامهم.

وقال مجاهد: البرزخ: الحاجز ما بين الدنيا والآخرة.

وقال محمد بن كعب: البرزخ: ما بين الدنيا والآخرة، ليسوا [6] مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون، ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم.

وقال أبو صخر: البرزخ: المقابر، لا هم فى الدنيا، ولا هم فى الآخرة، فهم مقيمون إلى يوم

---

(١) فى ف: «كذبت». (٢) فى ف، أ: «ويهوى». (٣) فى أ: «يزيد».
(٤) فى ف، أ: «يدخل». (٥) فى ف: «تقرصانه حتى تلتقيا». (٦) فى ف، أ: «ليس».

يبعثون.

وفى قوله: ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ﴾: تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ، كما قال: ﴿ مِن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [الجاثية: ١٠] وقال: ﴿ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وقوله: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أى: يستمر به العذاب إلى يوم البعث، كما جاء فى الحديث: «فلا يزال معذبا فيها»[١]، أى: فى الأرض.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) ﴾.

يخبر تعالى أنه نفخ فى الصور نفخة النشور، وقام الناس من القبور، ﴿ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ أى: لا تنفع الأنساب يومئذ، ولا يرثى والد لولده، ولا يَلْوى عليه، قال الله تعالى: ﴿ وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا. يُبَصَّرُونَهُمْ ﴾ [المعارج: ١٠، ١١] أى: لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره، ولو كان عليه من الأوزار ما قد أثقل ظهره، وهو أعز الناس عليه ـ كان ـ فى الدنيا، ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعرضة، قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ . وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧].

وقال ابن مسعود: إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد: ألا من كان له مظلمة فليجئ فليأخذ حقه: قال: فيفرح[٢] المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته وإن كان صغيرا، ومصداق ذلك فى كتاب الله: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ رواه ابن أبى حاتم.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد ـ مولى بنى هاشم ـ حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثتنا أم بكر بنت المِسْوَر بن مَخْرَمَة، عن عُبَيد الله بن أبى رافع، عن المِسْوَر ـ هو ابن مَخْرَمَة ـ رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: فاطمة بَضْعَةٌ منى، يَقْبِضُنى ما يقبضها، ويَبْسُطنى ما يبسطها[٣]، وإن الأنساب تنقطع[٤] يوم القيامة غير نسبى وسببى وصهرى»[٥].

هذا الحديث له أصل فى الصحيحين عن المسور أن[٦] رسول الله ﷺ قال: «فاطمة بضعة منى،

---

(١) رواه الترمذى فى السنن برقم (١٠٧١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، وقال: «حديث حسن غريب».
(٢) فى أ: «فيفرح والله». (٣) فى أ: «يفيضنى ما يفيضها وينشطنى ما ينشطها». (٤) فى أ: «منقطع».
(٥) المسند (٤/٣٢٣).
(٦) فى ف، أ: «عن».

يريبنى ما رابها، ويؤذينى ما آذاها»[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا زهير، عن عبد الله بن محمد، عن حمزة بن أبى سعيد الخدرى، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر: «ما بال رجال يقولون: إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه؟ بلى، والله إن رحمى موصولة فى الدنيا والآخرة، وإنى ـ أيها الناس ـ فرط لكم، إذا [٢] جئتم» قال رجل: يارسول الله، أنا فلان بن فلان، [وقال أخوه: أنا فلان ابن فلان] [٣] فأقول لهم: «أما النسب فقد عرفت، ولكنكم أحدثتم بعدى وارتددتم القهقرى»[٤].

وقد ذكرنا فى مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[٥]، من طرق متعددة عنه، رضى الله عنه: أنه لما تزوج أم كلثوم بنت على بن أبى طالب، رضى الله عنهما، قال: أما ـ والله ـ مابى إلا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل سبَبٍ ونَسب فإنه منقطع يوم القيامة، إلا سببى ونسبى».

رواه [٦] الطبرانى، والبزار والهيثم بن كليب، والبيهقى، والحافظ الضياء فى « المختارة» [٧] وذكرنا أنه أصدقها أربعين ألفا؛ إعظاماً وإكراما، رضى الله عنه؛ فقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى العاص بن الربيع ـ زوج زينب بنت رسول الله ﷺ ـ من طريق أبى القاسم البغوى: حدثنا سليمان بن عمر بن الأقطع، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام، عن إبراهيم بن يزيد، عن محمد ابن عباد بن جعفر، سمعت ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ: « كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبى وصهرى»[٨]. وروى فيها من طريق عمار بن سيف، عن هشام بن عُرْوَة، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو مرفوعا: «سألت ربى عز وجل ألا أتزوج إلى أحد من أمتى، ولا يتزوج إلى أحد منهم، إلا كان معى فى الجنة، فأعطانى ذلك»[٩]، ومن حديث عمار بن سيف، عن إسماعيل، عن عبد الله ابن عمرو.

وقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة، قاله ابن عباس.

﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أى: الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة.

وقال ابن عباس: أولئك الذين فازوا بما طلبوا، ونجوا من شر ما منه هربوا.

---

(١) صحيح البخارى برقم (٣٧١٤) وصحيح مسلم برقم (٢٤٤٩).
(٢) فى ف، أ: «فإذا».
(٣) زيادة من ف، أ، والمسند.
(٤) المسند (٣/١٨).
(٥) مسند عمر بن الخطاب لابن كثير (١/٣٨٩).
(٦) فى أ: «ورواه الحافظ».
(٧) المعجم الكبير(٣/٤٥) ومسند البزار برقم (٢٤٤٥) «كشف الأستار» وسنن البيهقى الكبرى (٧/٦٤) والمختارة للمقدسى برقم (٢٨١).
(٨) تاريخ دمشق (١٩/١١٩ «المخطوط») ورواه على بن سعيد عن سليمان بن عمر الرقى عن إبراهيم بن عبد السلام عن إبراهيم بن يزيد عن محمد بن عباد بن جعفر عن عبد الله بن الزبير مرفوعاً، وأخرجه الطبرانى فى الأوسط برقم (٣٩٦٣).
(٩) تاريخ دمشق (١٩/١١٩ «المخطوط») ورواه الطبرانى فى الأوسط برقم (٣٩٦١) «مجمع البحرين» من طريق يزيد بن الكميت عن عمار بن سيف به. قال الحافظ ابن حجر فى الفتح (٧/٨٥): «إسناده واهٍ» وفى الباب عن ابن أبى أوفى رضى الله عنه.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: ثقلت سيئاته على حسنات، ﴿فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خابوا وهلكوا، وباؤوا بالصفقة [(١)] الخاسرة.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا داود بن المُحَبَّر، حدثنا صالح المُرِّيّ، عن ثابت البُنانى وجعفر بن زيد ومنصور بن زاذان، عن أنس بن مالك يرفعه قال: «إن لله ملكا موكلا بالميزان، فيؤتى بابن آدم، فيوقف بين كفتى الميزان، فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق: شقى فلان شقاوة لا [(٢)] يسعد بعدها أبداً»[(٣)].

إسناده ضعيف، فإن داود بن المُحَبَّر متروك.

ولهذا قال: ﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ أي: ماكثون، دائمون مقيمون لا يظعنون.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا فَرْوَة بن أبى المغراء[(٤)]، حدثنا محمد بن سلمان بن الأصبهانى، عن أبى سِنَان ضِرَار بن مُرَّة، عن عبد الله بن أبى الهذيل، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ: «إن جهنم لما سيق [إليها] [(٥)] أهلها يلقاهم [(٦)] لهبها، ثم تلفحهم لفحة، فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب»[(٧)].

وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى القَزَّاز، حدثنا الخضر بن على بن يونس القطان، حدثنا عمر بن أبى الحارث بن الخضر القَطَّان، حدثنا سعد بن سعيد [(٨)] المقبرى، عن أخيه، عن أبيه، عن أبى الدرداء، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ فى قوله الله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، قال: «تلفحهم لفحة، فتسيل لحومهم على أعقابهم»[(٩)].

وقوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: يعنى عابسون.

وقال الثورى، عن أبى إسحاق، عن أبى الأحوص، عن عبد الله بن مسعود: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، قال: ألم تر إلى الرأس والمُشَيَّط الذى قد بدا أسنانه وقَلَصت شفتاه.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: أخبرنا على بن إسحاق، أخبرنا عبد الله ـ هو ابن المبارك، رحمه

---

(١) فى أ: «وفازوا بالصفقة». (٢) فى ف: «فلا».

(٣) ورواه أبو نعيم فى الحلية كما فى تخريج الإحياء (٤٠٩٨) وقال: «تفرد به داود بن المحبر».

(٤) فى أ: «أبى الفراء». (٥) زيادة من ف. (٦) فى ف: «تلقيهم».

(٧) ورواه أبو نعيم فى الحلية (٤/ ٣٦٣) وقال: «لم يروه مرفوعًا متصلاً عن أبى سنان عن عبد الله إلا محمد بن سليمان الأصبهانى، ورواه ابن عيينة وابن فضيل وجرير عن أبى سنان فأوقفه ابن فضيل على أبى هريرة».

(٨) فى ف، أ: «سعيد بن أبى سعيد».

(٩) ورواه الضياء المقدسى فى صفة النار كما فى الدر المنثور (٦/ ١١٧) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه.

الله ـ أخبرنا سعيد بن يزيد، عن أبى السَّمْح، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد الخُدْرى، عن النبى ﷺ قال: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾، قال: «تَشْوِيه النار فَتَقَلَّصُ شفته العليا حتى تبلغ وَسَطَ رأسه، وتسترخى شفته السفلى حتى تَضْرِب سُرَّته».

ورواه الترمذى، عن سُوَيْد بن نصر(١)، عن عبد الله بن المبارك، به(٢). وقال: حسن غريب.

﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧)﴾.

هذا تقريع من الله تعالى لأهل النار، وتوبيخ لهم على ما ارتكبوا من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم، التى أوبقتهم فى ذلك، فقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أى: قد أرسلت إليكم الرسل، وأنزلت الكتب، وأزلت(٣) شُبَهكم، ولم يبق لكم حجة تدلون بها كما قال: ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ. قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ. وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ. فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[الملك: ٨ ـ ١١]، ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ أى: قد قامت علينا الحجة، ولكن كنا أشقى من أن ننقاد لها ونتبعها، فَضَلَلْنَا عنها ولم نُرْزَقها.

ثم قالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ أى: رُدّنا إلى الدار الدنيا، فإن عدنا إلى ما سلف منا، فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة، كما قالوا: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ. ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١١، ١٢] أى: لا سبيل إلى الخروج؛ لأنكم كنتم تشركون بالله إذا وحَّده المؤمنون.

﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)﴾.

هذا جواب من الله تعالى للكفار إذا سألوا الخروج من النار والرجعة إلى هذه الدار(٤)، يقول: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا﴾ أى: امكثوا فيها صاغرين مُهَانين أذلاء. ﴿وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ أى: لا تعودوا إلى سؤالكم هذا، فإنه لا جواب لكم عندى.

---

(١) فى أ: «نصير».
(٢) المسند (٣/٨٨) وسنن الترمذى برقم (٣١٧٦).
(٣) فى أ: «وأرخت». (٤) فى أ: «الدنيا».

قال العَوفي، عن ابن عباس: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ قال: هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم منه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عَبْدَة بن سليمان المروزي، حدثنا عبد الله بن المبارك، عن سعيد بن أبي عَرُوبَة، عن قتادة، عن أبي أيوب، عن عبد الله بن عمرو قال: إن أهل جهنم يدعون مالكا، فلا يجيبهم أربعين عاما، ثم يردّ عليهم: إنكم ماكثون. قال: هانت دعوتهم ـ والله[(١)] ـ على مالك وربّ مالك. ثم يدعون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ قال: فيسكت عنهم قَدْرَ الدنيا مرتين، ثم يرد عليهم: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾. قال: والله ما نَبَس[(٢)] القوم بعدها بكلمة واحدة، وما هو إلا الزفير والشهيق في نار جهنم. قال: فشبهت أصواتهم بأصوات الحمير، أولها زفير وآخرها شهيق.

وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن سِنَان، حدثنا عبد الرحمن بن مَهْدِيّ، حدثنا سفيان، عن سَلَمة بن كُهَيْل، حدثنا أبو الزَّعْرَاء قال: قال عبد الله بن مسعود: إذا أرادَ الله ألا يخرج منهم أحداً ـ يعني: من جهنم ـ غَير وجوههم وألوانهم، فيجيء الرجل من المؤمنين، فيشفع فيقول: يا رب [(٣)]. فيقول: من عرف أحداً فليخرجه. فيجيء الرجل فينظر فلا يعرف أحداً فيقول: أنا فلان. فيقول: ما أعرفك. قال: فعند ذلك يقول: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾، فعند ذلك يقول: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾. وإذا[(٤)] قال ذلك، أطبقت عليهم فلا[(٥)] يخرج منهم بَشَر.

ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم في الدنيا، وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا﴾ أي: فسخرتم منهم في دعائهم إياي وتضرعهم إليّ، ﴿حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾ أي: حملكم بغضهم على أن نَسِيتم معاملتي ﴿ وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ أي: من صنيعهم وعبادتهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ .وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ [المطففين: ٢٩، ٣٠] أي: يلمزونهم استهزاء.

ثم أخبر عما جازى به أولياءه وعباده الصالحين، فقال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: على أذاكم لهم واستهزائكم منهم، ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ أي: جعلتهم هم الفائزين[(٦)] بالسعادة والسلامة والجنة، الناجين[(٧)] من النار.

---

(١) في ف، أ: «والله دعوتهم».
(٢) في ف: «فوالله ما يبس».
(٣) في ف، أ: «يارب يارب».
(٤) في ف، أ: «فإذا».
(٥) في ف، أ: «فلم».
(٦) في ف: «الفائزون».
(٧) في ف: «الناجون».

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ(١١٣) قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ(١١٦)﴾.

يقول تعالى منبها لهم على ما أضاعوه فى عمرهم القصير فى الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده، ولو صَبَروا فى مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون، ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ أى: كم كانت إقامتكم فى الدنيا؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ﴾ أى: الحاسبين ﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أى: مدة يسيرة على كل تقدير ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أى: لما آثرتم الفانى على الباقى، ولما تَصرّفتم لأنفسكم هذا التصرف السيّئ، ولا استحققتم من الله سخطه فى تلك المدة اليسيرة، ولو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته[1] ـ كما فعل المؤمنون ـ لفزتم كما فازوا.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن الوَزير، حدثنا الوليد، حدثنا صفوان، عن أَيْفَع ابن عبد الكَلَاعى؛ أنه سمعه يخطب الناس فقال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، قال: يا أهل الجنة، كم لبثتم فى الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم. قال: لنعم ما اتجرتم فى يوم أو بعض يوم: رحمتى ورضوانى وجنتى، امكثوا فيها خالدين مخلدين؟ ثم يقول: يا أهل النار، كم لبثتم فى الأرض عدد سنين؟ قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم. فيقول: بئس ما اتجرتم فى يوم أو بعض يوم: نارى وسَخَطى، امكثوا فيها خالدين مخلدين»[2].

وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ أى: أفظننتم أنكم مخلوقون عبثا بلا قصد ولا إرادة منكم ولا حكمة لنا، ﴿وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ أى: لا تعودون فى الدار الآخرة، كما قال: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، يعنى هملا[3].

وقوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أى: تقدّس أن يخلق شيئا عبثا، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك، ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾، فذكر العرش؛ لأنه سقف جميع المخلوقات، ووصفه بأنه كريم، أى: حسن المنظر بهى الشكل، كما قال تعالى: ﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا على بن محمد الطَّنَافسىّ، حدثنا إسحاق بن سليمان ـ شيخ من أهل العراق ـ أنبأنا شعيب بن صفوان، عن رجل من آل سعيد بن العاص قال:

---

(١) فى ف: «على عبادته وطاعته».

(٢) ورواه ابن الأثير فى أسد الغابة (١/ ١٨٧) بإسناده إلى الحكم بن موسى عن الوليد عن صفوان به.

(٣) فى أ: «مهملاً».

كان آخر خطبة خطب عمر بن عبد العزيز أن حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنكم لم تخلقوا عبثا، ولن[١] تتركوا سدى، وإن لكم معادا ينزل الله فيه للحكم بينكم والفصل بينكم، فخاب وخسر مَن خرج من رحمة الله، وحرم جنة عرضها السموات والأرض، ألم تعلموا أنه لا يأمن غدا إلا من حذر هذا اليوم وخافه، وباع نافدا بباق، وقليلا بكثير، وخوفا بأمان، ألا ترون أنكم من أصلاب الهالكين، وسيكون مَن بعدكم الباقين، حتى تردون[٢] إلى خير الوارثين؟ ثم إنكم فى كل يوم تُشيِّعون غاديا ورائحا إلى الله عز وجل، قد قضى نحبه، وانقضى أجله، حتى تغيبوه فى صَدْع من الأرض، فى بطن صَدْع غير ممهد ولا موسد، قد فارق الأحباب وباشر التراب، وواجه الحساب، مُرتَهَن بعمله، غنى عما ترك، فقير إلى ما قدم. فاتقوا الله عباد الله قبل انقضاء مواثيقه، ونزول الموت بكم ثم جعل طرف ردائه على وجهه، فبكى وأبكى من حوله.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا يحيى بن نصر[٣] الخَوْلانى، حدثنا ابن وَهْب، أخبرنى ابن لَهِيعة، عن أبى هُبَيْرَةَ عن حَنَش[٤] بن عبد الله؛ أن رجلا مصاباً مرَّ به عبد الله بن مسعود، فقرأ فى أذنه هذه الآية: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ. فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ** ﴾، حتى ختم السورة فَبَرأ، [فذكر ذلك لرسول الله ﷺ][٥]، فقال رسول الله ﷺ: «بماذا قرأت فى أذنه؟» فأخبره، فقال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده، لو أن رجلا مُوقنا قرأها على جَبَل لزال».

وروى أبو[٦] نُعَيم من طريق خالد بن نِزَار، عن سفيان بن عيينة، عن محمد بن المُنْكَدِر، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث، عن أبيه قال: بعثنا رسول الله ﷺ فى سَرِيَّة، وأمرنا أن نقول إذا نحن أمسينا وأصبحنا: ﴿ **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ** ﴾، قال: فقرأناها فغنمنا وسلمنا[٧].

وقال ابن أبى حاتم أيضاً: حدثنا إسحاق بن وهب العَلاَّف الواسطى، حدثنا أبو المسَيَّب سلمة بن سلام، حدثنا بكر بن خُنَيْس[٨]، عن نَهْشَل بن سعيد، عن الضحاك بن مُزَاحِم، عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا فى السفن: باسم الله الملك الحق، ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [الزمر: ٦٧]، ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [هود: ٤١]»[٩].

---

(١) فى ف: «ولم».
(٢) فى ف: «حين تردوا».
(٣) فى أ: «نصير».
(٤) فى ف: «حسن».
(٥) زيادة من ف، أ.
(٦) فى ف: «ابن».
(٧) معرفة الصحابة لأبى نعيم برقم (٧٢٦).
(٨) فى ف: «حبيش».
(٩) ورواه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٢/ ١٢٤) وفى كتاب الدعاء برقم (٨٠٤) من طرق عن عبد الحميد الهلالى، عن نهشل به، وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٣٢): «نهشل بن سعيد متروك».

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)﴾.

يقول تعالى متوعدا من أشرك به غيره، وعَبَد معه سواه، ومخبراً أن من أشرك بالله ﴿لا بُرْهَانَ لَهُ﴾ أى: لا دليل له على قوله ـ فقال: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾، وهذه جملة معترضة، وجواب الشرط فى قوله: ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ أى: الله يحاسبه على ذلك.

ثم أخبر: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أى: لديه يوم القيامة، لا فلاح لهم ولا نجاة.

قال قتادة: ذُكر لنا أن نبى الله ﷺ قال لرجل: «ما تعبد؟» قال: أعبد الله، وكذا وكذا ـ حتى عد أصناما، فقال رسول الله ﷺ: «فأيّهم إذا أصابك ضُرٌّ فدعوتَه، كشفه عنك؟». قال: الله عز وجل. قال: [«فأيّهم إذا كانت لك حاجة فدعوتَه أعطاكها؟» قال: الله عز وجل. قال][1]: «فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه؟» قال: أردت شكره بعبادة هؤلاء معه أم حسبت أن يغلب عليه. فقال رسول الله ﷺ: «تعلمون ولا يعلمون» قال[2] الرجل بعد ما أسلم: لقيت رجلا خصمنى.

هذا مرسل من هذا الوجه، وقد روى أبو عيسى الترمذى فى جامعه مسنداً عن عمران بن الحصين، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ نحو ذلك[3].

وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾: هذا إرشاد من الله إلى هذا الدعاء، فالغَفْر ـ إذا أطلِق ـ معناه محو الذنب وستره عن الناس، والرحمة معناها: أن يسدده ويوفقه فى الأقوال والأفعال.

آخر تفسير سورة المؤمنون

---

(١) زيادة من ف، أ.　　(٢) فى أ: «فقال».
(٣) سنن الترمذى برقم (٣٤٨٣) وقال: «هذا حديث غريب».

فهرس السور

السورة **الصفحة**

سورة الإسراء ٥
سورة الكهف ١٣٣
سورة مريم ٢١١
سورة طه ٢٧١
سورة الأنبياء ٣٣١
سورة الحج ٣٨٩
سورة المؤمنون ٤٥٩